الوسيلة الأدبية

إلى العلوم العربية

تأليف

العلامة اللغوي الناقد الأديب

حسين بن أحمد بن حسين المرصفي

مدرس العلوم العربية وعلوم الأدب بدار العلوم الخديوية المصرية

رحمه الله تعالى

(ت ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م)

المجلد الرابع

دار المنهاج

الوسيلة الأدبية

إلى العلوم العربية

٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الوسيلة الأدبية

إلى العلوم العربية

تأليف

العلامة اللغوي الناقد الأديب

حسين بن أحمد بن حسين المرصفي

مدرس العلوم العربية وعلوم الأدب بدار العلوم الخديوية المصرية

رحمه الله تعالى

(ت ١٣٠٧ هـ / ١٨٩٠ م)

عني به

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل

المجلد الرابع

دار المنهاج

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ ـ ٢٠١٩م

دار المنهاج للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع الملك فهد ـ جانب البنك الفرنسي
هاتف رئيسي 00966 12 6326666
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 97 - 6

الكتاب الأوّل الّذي راض خيال شوقي، وصقل طبعه
وصحّح نشأته الأدبيّة.. هو بعينه الّذي كانت منه بصيرة حافظ
أي: كتاب «الوسيلة الأدبيّة» للمرصَفيّ

مصطفى صادق الرّافعيّ

فنّ نقد الشّعر

[الناسُ في نقدِ الشعرِ وسائرِ الكلامِ صنفانِ]

ثمَّ اعلمْ : أنَّ الناسَ في نقدِ الشعرِ وسائرِ الكلامِ صنفانِ :

الصِّنفُ الأوَّلُ : الشُّعراءُ والكُتَّابُ ورُواةُ المنظومِ والمنثورِ مِنَ العلماءِ : لغرضِ التعليمِ والتأديبِ ، وهٰؤلاءِ إنَّما انتقدوا بما ظهرَ قبحُهُ ، وتَبيَّنَ فيهِ المخالفةُ للحكمةِ في تشريفِ النوعِ الإنسانيِّ بالكلامِ ؛ كنوعَيِ التعقيدِ والحشوِ والتطويلِ ، والخطأ في المعاني ، واستعمالِ ألفاظٍ لائقةٍ بمَقامٍ في غيرِهِ . . . إلىٰ ما يشاكلُ ذٰلكَ ، وكفاكَ ما سلفَ مُنبِّهاً عليهِ ، وربَّما تسامحوا في أشياءَ ليسَتْ بتلكَ المنزلةِ ؛ لِمَا عرفوا مِنَ القصورِ الطبيعيِّ الذي لا يمكنُ معَهُ الاستكمالُ على الإطلاقِ .

۞ ۞ ۞

الصِّنفُ الثاني : أولٰئكَ العلماءُ الذين تَكلَّموا في إثباتِ إعجازِ القرآنِ الشريفِ مِنْ جهةِ البلاغةِ ، ووضعوا لذٰلكَ مُصنَّفاتٍ ، وهٰؤلاءِ حيثُ إنَّهُم قرنوا بينَ الكلامِ البريءِ مِنْ كلِّ عيبٍ جلَّ أو دقَّ ، ظهرَ أو خفيَ ، وهوَ كلامُ مَنْ لا تَخفىٰ عليهِ خافيةٌ ، وبينَ كلامِ الناسِ الذينَ هُم موضعُ السَّهوِ والنِّسيانِ ، لا يكادُ يَسلَمُ لهُم كلامٌ مِنْ مُتعلَّقٍ . . لزمَهُم أن يبالغوا في البحثِ والتفتيشِ ، وألَّا يَتغاضَوا عن شيءٍ يمكنُ أن يُؤثِّرَ في سلامةِ الكلامِ وبراءتِهِ مِنَ المطاعنِ .

❋ ❋ ❋

[نقدُ الإمامِ الباقلانيِّ لمُعلَّقةِ امرئِ القيسِ]

وهـٰأنا موردٌ لكَ مِنْ ذٰلكَ أُنموذجاً : قالَ أحدُ المُصنِّفينَ في ذٰلكَ الغَرَضِ حيثُ انتهىٰ مِنَ القولِ إلىٰ إبانةِ سقوطِ درجةِ الشعرِ كيفَما كانَ عن درجةِ الكتابِ العزيزِ مِنَ البلاغةِ[1] : فنرجعُ الآنَ إلىٰ ما ضَمَّنَّاهُ مِنَ الكلامِ على الأشعارِ المُتَّفقِ علىٰ جودتِها وتقدُّمِ أصحابِها في صناعتِهِم ؛ ليبينَ لكَ تفاوتُ أنواعِ الخطابِ ، وتباعدُ مواقعِ البلاغةِ ، وتَستدِلَّ علىٰ مواضعِ البراعةِ .

وأنتَ لا تَشُكُّ في جودةِ شعرِ امرئِ القيسِ ، ولا ترتابُ في براعتِهِ ، ولا تَتوقَّفُ في فصاحتِهِ ، وتعلمُ أنَّهُ قد أبدعَ في طرقِ الشعرِ أموراً اتُّبِعَ فيها ؛ مِنْ ذكرِ الدِّيارِ ، والوقوفِ عليها ، إلىٰ ما يتصلُ بذٰلكَ مِنَ البديعِ الذي أبدعَهُ ، والتشبيهِ الذي أحدثَهُ ، والمليحِ الذي تجدُ في شعرِهِ ، والتصرُّفِ الكثيرِ الذي تصادفُهُ في قولِهِ ، والوجوهِ التي ينقسمُ إليها كلامُهُ ؛ مِنْ صناعةٍ وطبعٍ ، وسلاسةٍ وعفوٍ ، ومتانةٍ ورقةٍ ، وأسبابٍ تُحمَدُ ، وأمورٍ تُؤثَرُ وتُمدَحُ .

وقد ترى الأدباءَ أوَّلاً يوازنونَ بهِ فلاناً وفلاناً ، ويَضمُّونَ أشعارَهُم إلىٰ شعرِهِ ، حتىٰ ربَّما وازنوا بينَ شعرِ مَنْ لقيناهُ وبينَهُ في أشياءَ لطيفةٍ وأمورٍ بديعةٍ ، وربَّما فَضَّلُوهم عليهِ ، أو سَوَّوْا بينَهُم وبينَهُ ، أو قَرَّبوا موضعَ تقدُّمِهِ عليهِم ، [وبَرَّزوهُ] بينَ أيديهِم .

ولمَّا اختاروا قصيدتَهُ في السبعيَّاتِ . . أضافوا إليها أمثالَها ، وقرنوا بها نظائرَها ، ثمَّ تراهُم يقولونَ : لفلانٍ لاميةٌ مثلُها ، ثمَّ ترىٰ أنفُسَ الشعراءِ تَتشوَّقُ إلىٰ معارضتِهِ ، وتساويهِ في طريقتِهِ ، وربَّما غَبَّرَتْ في وجهِهِ في أشياءَ كثيرةٍ ، وتَقدَّمَتْ عليهِ في أسبابٍ عجيبةٍ .

---

(١) انظر « إعجاز القرآن » للباقلاني (ص ١٥٨ ـ ١٨٣) .

وإذا جاؤُوا إلىٰ تَعدادِ محاسنِ شعرِهِ . . كانَ أمراً محصوراً ، وشيئاً معروفاً ، أنتَ تجدُ مِنْ ذٰلكَ البديعَ أو أحسنَ منهُ في شعرِ غيرِهِ ، وتشاهدُ مثلَ ذٰلكَ البارعِ في كلامِ سواهُ ، وتنظرُ إلى المُحدَثينَ كيفَ تَوغَّلُوا إلىٰ حيازةِ المحاسنِ ؛ منهُم مَنْ جمعَ رصانةَ الكلامِ إلىٰ سلاستِهِ ، ومتانتَهُ إلىٰ عذوبتِهِ ، والإصابةَ في معناهُ إلىٰ تحسينِ بهجتِهِ ، حتَّىٰ إنَّ منهُم مَنْ إن قَصَّرَ عنهُ في بعضٍ . . تَقدَّمَ عليهِ في بعضٍ ؛ لأنَّ الجنسَ الذي يرمونَ إليهِ والغَرَضَ الذي يَتواردونَ عليهِ ممَّا للآدميِّ فيهِ مجالٌ ، فكلٌّ يَضرِبُ فيهِ بسهمٍ ، ويفوزُ فيهِ بِقِدْحٍ ، ثمَّ قد تَتفاوتُ السِّهامُ تفاوتاً ، وتتباينُ تبايناً ، وقد تتقاربُ تقارباً ، علىٰ حَسَبِ مشاكلتِهِم في الصَّنائعِ ، ومساهمتِهِم في الحِرَفِ .

ونظمُ القرآنِ جنسٌ مُتميِّزٌ ، وأسلوبٌ مُتخصِّصٌ ، فإذا شئتَ أن تَعرِفَ عظمَ شأنِهِ . . فتأمَّلْ ما نقولُهُ في هٰذا الفصلِ لامرئِ القيسِ في أجودِ أشعارِهِ ، وما [نُبيِّنُ] لكَ مِنْ عَوارِهِ على التفصيلِ ، وذٰلكَ قولُهُ (١) : [من الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَٱلْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

الذينَ يَتعصَّبونَ لهُ ويَدَّعونَ المعرفةَ بمحاسنِ الشعرِ . . يقولونَ : هٰذا مِنَ البديعِ ؛ لأنَّهُ وقفَ واستوقفَ ، وبكىٰ واستبكىٰ ، وذكرَ العهدَ والحبيبَ والمنزلَ في نصفِ بيتٍ ، ونحوَ ذٰلكَ .

وإنَّما بيَّنا هٰذا لئلَّا يقعَ لكَ ذهابُنا عن مواضعِ المحاسنِ إن كانَتْ .

تأمَّلْ ـ أرشدكَ اللهُ ـ أنتَ . . تعلمْ أنَّهُ ليسَ في البيتَينِ شيءٌ قد سبقَ في ميدانِهِ شاعراً ، ولا تَقدَّمَ بهِ صانعاً ، وفي لفظِهِ ومعناهُ خللٌ :

---

(١) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٨) وما بعدها ، وسيسرد الإمام الباقلاني رحمه الله تعالىٰ جلَّ هٰذه القصيدة .

فأوَّلُ ذٰلكَ : أنَّهُ استوقفَ ثمَّ استبكىٰ لذكرى الحبيبِ ، وذكراهُ لا تقتضي بكاءَ الخليِّ ، وإنَّما يصحُّ طلبُ [الإسعادِ] في مثلِ هٰذا علىٰ أن يبكيَ لبكائِه ، ويَرِقَّ لصديقِهِ في شدَّةِ بُرَحائِهِ ، فأمَّا أن يبكيَ علىٰ حبيبِ صديقِهِ وعشيقِ رفيقِهِ . . فأمرٌ محالٌ !!

فإن كانَ المطلوبُ وقوفَهُ وبكاءَهُ أيضاً عاشقاً . . صحَّ الكلامُ [مِنْ وجهٍ] ، وفسدَ المعنىٰ مِنْ وجهٍ آخَرَ ؛ لأنَّهُ مِنَ السخفِ أن يدعوَ غيرَهُ إلى التواجدِ معَهُ في حبيبِهِ .

ثمَّ في البيتَينِ ما لا يفيدُ ، مِنْ ذكرِ هٰذهِ المواضعِ ، وتسميةِ هٰذهِ الأماكنِ ؛ مِنَ الدَّخولِ وحَوْمَلَ وتُوضِحَ والمِقراةِ وسقطِ اللِّوىٰ ، وقد كانَ يكفيهِ أن يذكرَ في التعريفِ بعضَ هٰذا ، وهٰذا التطويلُ إذا لم يفدْ . . كانَ ضرباً مِنَ العِيِّ .

ثمَّ إنَّ قولَهُ : (لم يعفُ رسمُها) ذكرَ الأصمعيُّ مِنْ محاسنِهِ أنَّهُ باقٍ ، فنحنُ نحزنُ علىٰ مشاهدتِهِ ، فلو عفا . . لاسترحْنا .

وهٰذا بأن يكونَ من مَساويهِ أَولىٰ ؛ لأنَّهُ إن كانَ صادقَ الودِّ . . فلا يزيدُهُ عفاءُ الرُّسومِ إلَّا جِدَّةَ عهدٍ ، وشِدَّةَ وجدٍ .

وإنَّما فَزِعَ الأصمعيُّ لذكرِ أنَّهُ أفادَ هٰذهِ الفائدةَ ؛ خشيةَ أن يُعابَ عليهِ فيُقالَ : أيُّ فائدةٍ لأن يُعرِّفَنا أنَّهُ لم يعفُ رسمُ منازلِ حبيبِهِ ؟! وأيُّ معنىً لهٰذا الحشوِ ؟! فذكرَ ما يمكنُ أنَّهُ يُذكَرُ ، ولٰكنْ لم يُخلِّصْهُ بانتصارِهِ مِنَ الخَلَلِ .

ثمَّ في هٰذهِ الكلمةِ خَلَلٌ آخَرُ ؛ لأنَّهُ عَقَّبَ البيتَ بأن قالَ (١) :

فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

(١) سيذكر البيت تاماً بعد نهاية هٰذا المقطع مع بيت قبله ، فلينتبه .

ذكرَ أبو عبيدةَ أنَّهُ رجعَ فأكذبَ نفسَهُ كما قالَ زهيرٌ[١] : [من البسيط]

قِفْ بِٱلدِّيَارِ ٱلَّتِي لَمْ يَعْفُهَا ٱلْقِدَمُ   بَلَىٰ وَغَيَّرَهَا ٱلْأَرْوَاحُ وَٱلدِّيَمُ

وقالَ غيرُهُ : أرادَ بالبيتِ الأولِ أنَّهُ لم ينطمسْ أثرُهُ كلُّهُ ، وبالثاني أنَّهُ ذهبَ بعضُهُ ، حتىٰ لا يتناقضَ الكلامانِ ، وليسَ في هٰذا انتصارٌ ؛ لأنَّ معنىٰ (عفا) و(درسَ) واحدٌ ، فإذا قالَ : لم يعفُ رسمُها ، ثمَّ قالَ : قد عفا . . فهوَ تناقضٌ لا محالةَ ، واعتذارُ أبي عبيدةَ أقربُ لو صحَّ ، ولٰكنْ لم يَرِدْ هٰذا القولُ موردَ الاستدراكِ علىٰ ما قالَهُ زهيرٌ ، فهوَ إلى الخَلَلِ أقربُ .

وقولُهُ : (لِمَا نسجَتْها) كانَ ينبغي أن يقولَ : لِمَا نسجَها ، ولٰكنَّهُ تَعسَّفَ فجعلَ (ما) في تأويلِ تأنيثٍ ؛ لأنَّها في معنى الريحِ ، والأَولى التذكيرُ دونَ التأنيثِ ، وضرورةُ الشعرِ قد دَلَّتْهُ علىٰ هٰذا التعسُّفِ .

وقولُهُ : (لم يَعفُ رسمُها) كانَ الأَولىٰ أن يقولَ : لم يعفُ رسمُهُ ؛ لأنَّهُ ذكرَ المنزلَ ، فإن كانَ ردَّ ذٰلكَ إلىٰ هٰذهِ البقاعِ والأماكنِ التي المنزلُ واقعٌ بينَها . . فذٰلكَ خَلَلٌ ؛ لأنَّهُ إنَّما يريدُ صفةَ المنزلِ الذي نزلَهُ حبيبُهُ بعفائِهِ ، أو أنَّهُ لم يعفُ دونَ ما جاورَهُ ، وإن أرادَ بالمنزلِ الدارَ حتىٰ أنَّثَ . . فذٰلكَ أيضاً خَلَلٌ .

ولو سَلِمَ مِنْ هٰذا كلِّهِ وممَّا نكرهُ ذكرَهُ كراهيةَ التطويلِ . . لم نَشُكَّ في أنَّ شعرَ أهلِ زمانِنا لا يَقصُرُ عن البيتَينِ ، بل يزيدُ عليهِما ويَفضُلُهُما .

❁ ❁ ❁

ثمَّ قالَ :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ   يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ   فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

(١) انظر « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص ١١٦) بشرح ثعلب ، وفيه النقل عن أبي عبيدة لهٰذا المعنىٰ .

ليسَ في البيتَينِ أيضاً معنىً بديعٌ ، ولا لفظٌ حسنٌ ؛ كالأولَينِ .

والبيتُ الأوَّلُ منهُما مُتعلِّقٌ بقولِهِ : (قفا نبكِ) ، فكأنَّهُ قالَ : قفا وقوفَ صحبي بها عليَّ مطيَّهُم ، أو قفا حالَ وقوفِ صحبي .

وقولُهُ : (بها) مُتأخِّرٌ في المعنىٰ وإن تَقدَّمَ في اللفظِ ، ففي ذٰلكَ تَكلُّفٌ وخروجٌ عنِ اعتدالِ الكلامِ .

والبيتُ الثاني مُختلٌّ مِنْ جهةِ أنَّهُ قد جعلَ الدَّمعَ في اعتقادِهِ شافياً كافياً ، فما حاجتُهُ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ طلبِ حيلةٍ أخرىٰ ، ومُعوَّلٍ عندَ الرُّسومِ ، ولو أرادَ أن يُحسِّنَ الكلامَ . . لوجبَ أن يَدُلَّ علىٰ أنَّ الدَّمعَ لا يَشفيهِ ؛ لشِدَّةِ ما بهِ مِنَ الحزنِ ، ثمَّ يسائلَ : هل عندَ الربعِ مِنْ حيلةٍ أخرىٰ ؟

وقولُهُ :

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ ٱلْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا　　وَجَارَتِهَا أُمِّ ٱلرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ ٱلْمِسْكُ مِنْهُمَا　　نَسِيمَ ٱلصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا ٱلْقَرَنْفُلِ

أنتَ لا تَشُكُّ في أنَّ البيتَ الأوَّلَ قليلُ الفائدةِ ، ليسَ لهُ معَ ذٰلكَ بهجةٌ ، فقد يكونُ الكلامُ مصنوعَ اللفظِ وإن كانَ منزوعَ المعنىٰ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فوجهُ التكلُّفِ فيهِ قولُهُ : (إذا قامتا تَضوَّعَ المِسكُ منهُما) ، ولو أرادَ أنْ يُجوِّدَ . . أفادَ أنَّ بهِما طِيباً علىٰ كلِّ حالٍ ، فأمَّا في حالِ القيامِ فقطْ . . فذٰلكَ تقصيرٌ .

ثمَّ فيهِ خَلَلٌ آخَرُ ؛ لأنَّهُ بعدَ أن شَبَّهَ عَرْفَها بالمِسكِ . . شَبَّهَ ذٰلكَ بريَّا القرنفلِ ، وذكرُ ذٰلكَ بعدَ ذكرِ المِسكِ نقصٌ .

وقولُهُ :

فَفَاضَتْ دُمُوعُ ٱلْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلَى ٱلنَّحْرِ حَتَّىٰ بَلَّ دَمْعِيَ مِحْمَلِي

أَلَا رُبَّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ ... وَلَا سِيَّمَا يَوْماً بِدَارَةِ جُلْجُلِ

قولُهُ : (ففاضَتْ دموعُ العينِ) ، ثمَّ استعانتُهُ بقولِهِ : (منِّي) استعانةٌ ضعيفةٌ عندَ المُتأخِّرينَ في الصَّنعةِ ، وهوَ حشوٌ غيرُ مليحٍ ولا بديعٍ .

وقولُهُ : (على النَّحرِ) حشوٌ آخَرُ ؛ لأنَّ قولَهُ : (بلَّ دمعيَ مِحْمَلي) يغني عنهُ ويَدُلُّ عليهِ ، وليسَ بحشوٍ حسنٍ .

ثمَّ قولُهُ : (حتىٰ بلَّ دمعيَ مِحْمَلي) إعادةُ ذكرِ الدَّمعِ حشوٌ آخَرُ ، وكانَ يكفيهِ أن يقولَ : حتىٰ بَلَّتْ مِحْمَلي ، فاحتاجَ في إقامةِ الوزنِ إلىٰ هٰذا كلِّهِ ، ثمَّ تقديرُهُ أنَّهُ قد أفرطَ في إفاضةِ الدَّمعِ حتىٰ بلَّ مِحملَهُ . . تفريطٌ منهُ وتقصيرٌ ، ولو كانَ أبدعَ . . لكانَ يقولُ : حتىٰ بلَّ دمعي مغانيَهُم وعراصَهُم ، ويشبهُ أن يكونَ غرضُهُ إقامةَ الوزنِ والقافيةِ ؛ فإنَّ الدَّمعَ يَبعُدُ أن يَبُلَّ المِحملَ ، وإنَّما يقطرُ مِنَ الواقفِ والقاعدِ على الأرضِ ، أو على الذَّيلِ ، وإن بَلَّهُ . . فلقِلَّتِهِ ، وأنَّهُ لا يقطرُ .

وأنت تجدُ في شعرِ الخُبْزَرُزِّيِّ ما هوَ أحسنُ مِنْ هٰذا البيتِ وأمتنُ وأعجبُ منهُ .

والبيتُ الثاني خالٍ مِنَ المحاسنِ والبديعِ خُلُوَّهُ مِنَ المعنىٰ ، وليسَ لهُ لفظٌ يَروقُ ، ولا معنىً يَروعُ ، ولا يرعْكَ تهويلُهُ باسمِ موضعٍ غريبٍ .

❀ ❀ ❀

وقالَ :

وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِلْعَذَارَىٰ مَطِيَّتِي ... فَيَا عَجَبا مِنْ رَحْلِهَا ٱلْمُتَحَمَّلِ

فَظَلَّ ٱلْعَذَارَىٰ يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا ... وَشَحْمٍ كَهُدَّابِ ٱلدِّمَقْسِ ٱلْمُفَتَّلِ

تقديرُهُ : اذكرْ يومَ عقرتُ مطيتي ، أو يَرُدُّهُ علىٰ قولِهِ : ([يوماً] بدارةِ جُلْجُلِ) .

قالَ بعضُ الأدباءِ : قولُهُ : (يا عجبا) يُعجِّبُ مِنْ سفهِهِ في شبابِهِ مِنْ نحرِهِ ناقتَهُ لهُنَّ ، وإنَّما أرادَ بألَّا يكونَ الكلامُ مِنْ هـٰذا المِصراعِ منقطعاً عنِ الأوَّلِ ، وأرادَ أن يكونَ الكلامُ ملائماً لهُ .

وهـٰذا الذي ذكرَهُ بعيدٌ ، وهوَ منقطعٌ مِنَ الأوَّلِ ، وظاهِرُهُ : أَنَّهُ يَتعجَّبُ مِنْ تَحمُّلِ العذارىٰ رحلَهُ ، وليسَ في هـٰذا عجبٌ كبيرٌ ، ولا في نحرِ الناقةِ لهُنَّ تَعجُّبٌ .

وإن كانَ يعني بهِ أَنَّهُنَّ حملنَ رحلَهُ ، وأنَّ بعضَهُنَّ حملَتْهُ ، فعَبَّرَ عن نفسِهِ برحلِهِ . . فهـٰذا قليلاً يشبهُ أن يكونَ عجباً ، لـٰكنَّ الكلامَ لا يَدُلُّ عليهِ ، ويَتجافىٰ عنهُ .

ولو سلمَ البيتُ مِنَ العيبِ . . لم يكنْ فيهِ شيءٌ غريبٌ ، ولا معنىً بديعٌ ، أكثرُ مِنْ سلامتِهِ معَ قِلَّةِ معناهُ ، وتقاربِ أمرِهِ ، ومشاكلتِهِ طبعَ المُتأخِّرينَ مِنْ أهلِ زمانِنا .

وإلىٰ هـٰذا الموضعِ لم يَمُرَّ لهُ بيتٌ رائعٌ وكلامٌ رائقٌ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فيَعدُّونَهُ حسناً ، ويَعُدُّونَ التشبيهَ مليحاً واقعاً ، وفيهِ شيءٌ ؛ وذٰلكَ أَنَّهُ عَرَّفَ اللحمَ ونَكَّرَ الشحمَ ، فلا يُعلَمُ أَنَّهُ وصفَ شحمَها ، وذكرَ تشبيهَ أحدِهِما بشيءٍ واقعٍ ، وعَجَزَ عن تشبيهِ الآخَرِ ، وهـٰذا نقصٌ في الصَّنعةِ ، وعَجْزٌ عن إعطاءِ الكلامِ حَقَّهُ .

وفيهِ شيءٌ آخَرُ مِنْ جهةِ المعنىٰ ؛ وهوَ أَنَّهُ وصفَ طعامَهُ الذي أطعمَ مَنْ أضافَ بالجودةِ ، وهـٰذا قد يُعابُ ، وقد يُقالُ : إنَّ العربَ تفتخرُ بذٰلكَ ، ولا يرونَهُ عيباً ، وإنَّما الفُرْسُ هُمُ الذينَ يرونَ هـٰذا عيباً شنيعاً .

وأمَّا تشبيهُ الشحمِ بالدمقسِ . . فشيءٌ يقعُ للعامَّةِ ويجري علىٰ ألسنتِهِم ، فليسَ بشيءٍ قد سبقَ إليهِ ، وإنَّما زادَ (المُفَتَّلِ) للقافيةِ .

وفيهِ شيءٌ آخَرُ ؛ وهوَ أنَّ تَبجُّحَهُ بما أطعمَ الأحبابَ مذمومٌ ، وإن ساغَ التبجُّحُ بما أطعمَ الأضيافَ ، إلَّا أن يكونَ أوردَ الكلامَ موردَ المجونِ والمزاحِ .

❁ ❁ ❁

وقولُهُ :

وَيَوْمَ دَخَلْتُ ٱلْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ ... فَقَالَتْ لَكَ ٱلْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجِلِي

تَقُولُ وَقَدْ مَالَ ٱلْغَبِيطُ بِنَا مَعاً ... عَقَرْتَ بَعِيرِي يَا ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ فَٱنْزِلِ

قولُهُ : (دخلتُ الخِدرَ خِدرَ عنيزةٍ) ، تكريرُهُ لإقامةِ الوزنِ ، لا فائدةَ فيهِ غيرُها ، ولا ملاسةَ لهُ ولا رونقَ .

وقولُهُ في المصراعِ الأخيرِ مِنْ هٰذا البيتِ : (فقالَتْ لكَ الويلاتُ إنَّكَ مرجلي) كلامٌ مُؤنَّثٌ مِنْ كلامِ النساءِ ، نقلَهُ علىٰ جهتِهِ إلىٰ شعرِهِ ، وليسَ فيهِ غيرُ هٰذا .

وتكريرُهُ بعدَ ذٰلكَ : (تقولُ وقد مالَ الغبيطُ) يعني : قتبَ الهودجِ بعدَ قولِهِ : (فقالَتْ لكَ الويلاتُ إنَّكَ مرجلي) . . لا فائدةَ فيهِ غيرُ تقديرِ الوزنِ ، وإلَّا . . فحكايةُ قولِها الأوَّلِ كافٍ ، وهوَ في النظمِ قبيحٌ ؛ لأنَّهُ ذكرَ مَرَّةً (فقالَتْ) ، ومَرَّةً : (تقولُ) في معنىً واحدٍ وفصلٍ خفيفٍ ، وفي مصراعِ الثاني أيضاً تأنيثٌ مِنْ كلامِهِنَّ .

وذكرَ أبو عبيدةَ أنَّهُ قالَ : (عقرتَ بعيري) ، ولم يقلْ : (ناقتي) لأنَّهُم يحملونَ النساءَ علىٰ ذكورِ الإبلِ ؛ لأنَّها أقوىٰ ، وفيهِ نظرٌ ؛ لأنَّ البعيرَ اسمٌ للذَّكرِ والأُنثىٰ ، واحتاجَ إلىٰ ذكرِ البعيرِ لإقامةِ الوزنِ .

❁ ❁ ❁

وقولُهُ :

فَقُلْتُ لَهَا سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ ... وَلَا تُبْعِدِينِي عَنْ جَنَاكِ ٱلْمُعَلَّلِ

فَمِثْلِكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعٍ ... فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُغْيِلِ

البيتُ الأوَّلُ قريبُ النَّسجِ ، ليسَ لهُ معنىً بديعٌ ، ولا لفظٌ شريفٌ ، كأنَّهُ مِنْ عباراتِ المُنحطِّينَ في الصَّنعةِ .

وقولُهُ : (فمثلِكِ حبلىٰ قد طرقتُ) عابَهُ عليهِ أهلُ العربيةِ ، ومعناهُ عندَهُم حتىٰ يستقيمَ الكلامُ : فربَّ مثلِكِ حبلىٰ قد طرقتُ ، وتقديرُهُ : أنَّهُ زيرُ نساءٍ ، وأنَّهُ يُفسِدُهُنَّ ويُلهيهِنَّ عن حَبَلِهِنَّ ورَضاعِهِنَّ ؛ لأنَّ الحبلىٰ والمرضعةَ أبعدُ مِنَ الغزلِ وطلبِ الرجالِ .

والبيتُ الثاني غيرُ منتظمٍ معَ المعنى الذي قَدَّمَهُ في البيتِ الأولِ ؛ لأنَّ تقديرَهُ : لا تبعديني عن نفسِكِ ؛ فإنِّي أغلبُ النساءَ وأَخدَعُهُنَّ عن رأيِهِنَّ ، وأُفسِدُهُنَّ بالتغازلِ ، وكونُهُ مفسدةً لهُنَّ لا يُوجِبُ لهُ وصلَهُنَّ وتركَ إبعادِهِنَّ إيَّاهُ ، بل يوجبُ هجرَهُ والاستخفافَ بهِ ؛ لسخفِهِ ودخولِهِ كلَّ مدخلٍ فاحشٍ ، وركوبِهِ كلَّ مركبٍ فاسدٍ ، وفيهِ مِنَ الفحشِ ما يستنكفُ الكريمُ مِنْ مثلِهِ ، ويأنفُ مِنْ ذكرِهِ .

وقولُهُ :

إِذَا مَا بَكَىٰ مِنْ خَلْفِهَا ٱنْصَرَفَتْ لَهُ ... بِشِقٍّ وَتَحْتِي شِقُّهَا لَمْ يُحَوَّلِ

وَيَوْماً عَلَىٰ ظَهْرِ ٱلْكَثِيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَلَيَّ وَآلَتْ حَلْفَةً لَمْ تُحَلَّلِ

فالبيتُ الأولُ غايةٌ في الفحشِ ، ونهايةٌ في السُّخفِ ، وأيُّ فائدةٍ لذكرِهِ لعشيقتِهِ كيفَ كانَ يركبُ هٰذهِ القبائحَ ، ويذهبُ هٰذهِ المذاهبَ ، ويَرِدُ هٰذهِ المواردَ ؟!

إنَّ هـٰذا ليبغِّضُهُ إلىٰ كلِّ مَنْ سمعَ كلامَهُ ، ويُوجِبُ لهُ المقتَ ، وهوَ لو صدقَ . . لَكانَ قبيحاً ، فكيفَ لو كانَ كاذباً ؟! ثـمَّ ليسَ في البيتِ لفظٌ بديعٌ ولا معنىً حسنٌ ، وهـٰذا البيتُ متصلٌ بالبيتِ الذي قبلَهُ مِنْ ذكرِ المرضعِ التي لها ولدٌ مُحْوِلٌ .

فأمَّا البيتُ الثاني وهوَ قولُهُ : (ويوماً) يَتعجَّبُ منهُ ، وإنَّما تَشدَّدَتْ وتَعسَّرَتْ عليهِ وحلفَتْ عليهِ . . فهوَ كلامٌ رديءُ النَّسجِ ، لا فائدةَ لذكرِهِ لنا أنَّ حبيبتَهُ تَمنَّعَتْ عليهِ يوماً بموضعٍ يُسمِّيهِ ويصفُهُ ، وأنتَ تجدُ في شعرِ المُحدَثينَ مِنْ هـٰذا الجنسِ في التغزُّلِ ما يذوبُ معَهُ اللُّبُّ ، وتَطرَبُ عليهِ النفسُ ، وهـٰذا ممَّا تستنكرُهُ النفسُ ، ويَشمئزُّ منهُ القلبُ ، وليسَ فيهِ شيءٌ مِنَ الإحسانِ والحسنِ .

﴿﴾

وقولُهُ :

أَفَاطِمُ مَهْلاً بَعْضَ هَـٰذَا ٱلتَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَزْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي

أَغَرَّكِ مِنِّي أَنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي وَأَنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي ٱلْقَلْبَ يَفْعَلِ

فالبيت الأوَّلُ فيهِ ركاكةٌ جدّاً وتأنيثٌ ورقّةٌ ، ولعلَّ قائلاً أن يقولَ : كلامُ النساءِ بما يلائمُهُنَّ مِنَ الطَّبعِ أوقعُ وأغزلُ ، وليسَ كذٰلكَ ؛ لأنَّكَ تجدُ الشُّعراءَ في المُؤنَّثِ لم يعدلوا عن رَصانةِ قولِهم .

والمِصراعُ الثاني منقطعٌ عنِ الأوَّلِ ، لا يلائمُهُ ولا يوافقُهُ ، وهـٰذا يبينُ لكَ إذا عرضتَ معَهُ البيتَ الذي تَقدَّمَهُ ، وكيفَ ينكرُ تدلُّلَها والمُتغزِّلُ يَطرَبُ علىٰ دلالِ الحبيبِ وتدلُّلِهِ ؟!

والبيتُ الثاني قد عِيبَ عليهِ ؛ لأنَّهُ قد أخبرَ أنَّ مِنْ سبيلِها ألَّا تغترَّ بما

يَدُلُّها مِنْ أنَّ حبَّها يقتلُهُ ، وإنَّما تملكُ قلبَهُ ، فما أمَرتْهُ فعلَهُ ، وكيفَ يكونُ ذٰلكَ معَ ذٰلكَ ؟!

وإن كانَ المعنىٰ غيرَ هٰذا الذي عِيبَ عليهِ ، وإنَّما ذهبَ مذهباً آخَرَ ؛ وهوَ أنَّهُ أرادَ أن يُظهِرَ التجلُّدَ . . فهٰذا خلافُ ما أظهرَ مِنْ نفسِهِ فيما تَقدَّمَ مِنَ الأبياتِ ؛ مِنَ الحبِّ والبكاءِ على الأحبَّةِ ، فقد دخلَ في وجهٍ آخَرَ مِنَ المناقضةِ والإحالةِ في الكلامِ .

ثمَّ قولُهُ : (تأمري القلبَ يفعلِ) كانَ سبيلُهُ أن يقولَ : تأمريني ؛ [إذِ] القلبُ لا يُؤمَرُ ، فالاستعارةُ في ذٰلكَ غيرُ واقعةٍ ولا حسنةٍ .

وقولُهُ :

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ   فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ [تَنْسُلِ]

وَمَا [ذَرَفَتْ] عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي   بِسَهْمَيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

البيتُ الأوَّلُ قد قيلَ في تأويلِهِ : إنَّهُ ذكرَ الثوبَ وأرادَ البدنَ ؛ مثلَ قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[1] ، وقالَ أبو عبيدةَ : هٰذا مثلٌ للهجرِ ، وتنسلُ : تبينُ وتنفصلُ ، وهوَ بيتٌ ركيكُ المعنىٰ وضيعُهُ ، وكلُّ ما أضافَ إلىٰ نفسِهِ ووصفَها بهِ . . سقوطٌ وسفهٌ وسخفٌ ، ويُوجِبُ قطعَهُ ، فلِمَ لم يحكمْ علىٰ نفسِهِ بذٰلكَ ، ولٰكنْ يُوردُهُ موردَ أن ليسَتْ لهُ خليقةٌ تُوجِبُ هجرانَهُ [والتفصِّيَ] مِنْ وصلِهِ ، وأنَّهُ مُهذَّبُ الأخلاقِ ، شريفُ الشمائلِ ، فذٰلكَ يُوجِبُ ألَّا يَنفكَّ مِنْ وصالِهِ .

والاستعارةُ في المصراعِ الثاني فيها تواضعٌ وتقاربٌ وإن كانَتْ غريبةً .

---

(١) سورة المدثر : (٤) .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فمعدودٌ مِنْ محاسنِ القصيدةِ وبدائعِها ، ومعناهُ : ما بكيتِ إلَّا لتَجْرحي قلباً مُعشَّراً ـ أي : مُكسَّراً ـ مِنْ قولِهِم : برمةٌ أعشارٌ ؛ إذا كانَتْ قطعاً ، هـٰذا تأويلٌ ذكرَهُ الأصمعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ ، وهوَ أشبهُ عندَ أكثرِهِم .

وقالَ غيرُهُ : وهـٰذا مثلٌ للأعشارِ التي تقسمُ الجَزورُ عليها ، ويعني (بسهمَيكِ) : المُعلَّىٰ ؛ ولهُ سبعةُ أنصباءَ ، والرقيبَ ؛ ولهُ ثلاثةٌ ، فأرادَ أنَّكِ ذهبتِ بقلبي أجمعَ .

ويعني بقولِهِ : (مُقتَّلِ) : مُذلَّلٍ ، وأنتَ تَعلمُ أنَّهُ علىٰ ما يعني بهِ فهوَ غيرُ موافقٍ للأبياتِ المُتقدِّمةِ ؛ لِمَا فيها مِنَ التناقضِ الذي بيَّنَّا .

ويشبهُ أن يكونَ مَنْ قالَ بالتأويلِ الثاني فزعَ إليهِ لأنَّهُ رأى اللفظَ مُستكرَهاً على المعنى الأول ؛ لأنَّ القائلَ إذا قالَ : ضربَ فلانٌ بسهمِهِ في الهدفِ ؛ بمعنىٰ : أصابَهُ . . كانَ كلاماً ساقطاً مرذولاً ، وهوَ يرىٰ أنَّ معنى الكلمةِ أنَّ عينَيها كالسَّهمَينِ النافذَينِ في إصابةِ قلبِهِ المجروحِ ، فلمَّا بكتا وذرفتا بالدُّموعِ . . كانَتا ضاربتَينِ في قلبِهِ .

ولـٰكنْ مَنْ حملَ على التأويلِ الثاني . . سَلِمَ مِنَ الخَلَلِ الواقعِ في اللفظِ ، ولـٰكنَّهُ إذا حملَ على الثاني . . فسدَ المعنىٰ واختلَّ ؛ لأنَّهُ إن كانَ مُحِبّاً علىٰ ما وصفَ بهِ نفسَهُ مِنَ الصَّبابةِ . . فقلبُهُ كلُّهُ لها ، فكيفَ يكونُ بكاؤُها هوَ الذي يُخلِّصُ قلبَهُ لها ؟!

واعلمْ بعدَ هـٰذا : أنَّ البيتَ غيرُ ملائمٍ للبيتِ الأوَّلِ ولا مُتصِلٌ بهِ في المعنىٰ ، وهوَ منقطعٌ عنهُ ؛ لأنَّهُ لم يَسبِقْ كلامٌ يقتضي بكاءَها ، ولا سببٌ يُوجِبُ ذٰلكَ ، فتركيبهُ هـٰذا الكلامَ علىٰ ما قبلَهُ فيهِ اختلالٌ .

ثمَّ لو سُلِّمَ لهُ بيتٌ مِنْ عشرينَ بيتاً ، وكانَ بديعاً ولا عيبَ فيهِ . . فليسَ

بعجيبٍ ؛ لأنَّهُ لا يُدَّعىٰ علىٰ مثلِهِ أنَّ كلامَهُ كلَّهُ متناقضٌ ، ونظمَهُ كُلَّهُ متباينٌ ، وإنَّما يكفي أن نُبيِّنَ أنَّ ما سبقَ مِنْ كلامِهِ إلىٰ هـٰذا البيتِ ممَّا لا يمكنُ أن يُقالَ : إنَّهُ يَتقدَّمُ فيهِ أحداً مِنَ المُتأخِّرينَ ، فضلاً عنِ المُتقدِّمينَ ، وإنَّما قُدِّمَ في شعرِهِ لأبياتٍ قد برعَ فيها ، وبانَ حذقُهُ بها .

وإنَّما أنكرنا أن يكونَ شعرُهُ متناسباً في الجودةِ ، ومتشابهاً في صحَّةِ المعنىٰ واللفظِ ، وقلنا : إنَّهُ يَتصرَّفُ بينَ وحشيٍّ غريبٍ مُستنكَرٍ ، وبينَ كلامٍ سليمٍ مُتوسِّطٍ ، وبينَ عاميٍّ سُوقيٍّ في اللفظِ والمعنىٰ ، وبينَ حكمةٍ حسنةٍ ، وبينَ سخْفٍ مستشنعٍ ، ولهـٰذا قالَ اللهُ عزَّ اسمُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (١) .

وقولُهُ :

وَبَـيْـضَـةِ خِـدْرٍ لَا يُـرَامُ خِـبَـاؤُهَـا ... تَـمَـتَّـعْـتُ مِنْ لَـهْـوٍ بِـهَـا غَيْرِ مُعْجَلِ

تَـجَـاوَزْتُ أَحْـرَاسـاً وَأَهْـوَالَ مَـعْـشَـرٍ ... عَـلَـيَّ حِـرَاصٍ لَـوْ يُـسِـرُّونَ مَـقْـتَـلِـي

فقد قالوا : عنىٰ بذٰلكَ أنَّها كبيضةِ خدرٍ في صفائِها ورقَّتِها ، وهـٰذِهِ كلمةٌ حسنةٌ ، ولـٰكنْ لم يسبقْ إليها ، بل هيَ دائرةٌ في أفواهِ العربِ ، وتشبيهٌ سائرٌ .

ويعني بقولِهِ : (غيرِ مُعْجَلِ) أنَّهُ ليسَ ذٰلكَ ممَّا يَتَّفقُ قليلاً وأحياناً ، بل يَتكرَّرُ لهُ الاستمتاعُ بها ، وقد يحملُهُ غيرُهُ علىٰ أنَّهُ رابطُ الجأشِ ، فلا يستعجلُ إذا دخلَ إليها خوفَ حصانتِها [ومَنَعتِها] ، وليسَ في البيتِ كبيرُ فائدةٍ ؛ لأنَّ الذي حكىٰ في سائرِ أبياتِهِ قد تَضمَّنَ مطاولتَهُ في المغازلةِ ،

(١) سورة النساء : (٨٢) .

واشتغالَهُ بها ، فتكريرُهُ في هٰذا البيتِ مثلَ ذٰلكَ . . قليلُ المعنىٰ ، ليسَ فيهِ إلَّا الزيادةُ التي ذكرَ مِنْ [منعتِها] .

والبيتُ الثاني ضعيفٌ ، وقولُهُ : (لو يُسِرُّونَ مقتلي) أرادَ أن يقولَ : لو أسرُّوا ، فإذا نقلَهُ إلىٰ هٰذا . . ضَعُفَ ، ووقعَ في مِضمارِ الضَّرورةِ ، والاختلالُ علىٰ نظمِهِ بيِّنٌ ، حتىٰ إنَّ المحترزَ يحترزُ مِنْ مثلِهِ .

❋ ❋ ❋

وقولُهُ :

إِذَا مَا ٱلثُّرَيَّا فِي ٱلسَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ ٱلْوِشَاحِ ٱلْمُفَصَّلِ

قد أنكرَ عليهِ قومٌ قولَهُ : (إذا ما الثريَّا في السماءِ تَعرَّضَتْ) وقالوا : الثريَّا لا تَتعرَّضُ ، حتىٰ قالَ بعضُهُم : سمَّى الثريَّا وإنَّما أرادَ الجوزاءَ ؛ لأنَّها تَتعرَّضُ ، والعربُ تفعلُ ذٰلكَ ، كما قالَ زهيرٌ : (كأحمرِ عادٍ)[1] ، وإنَّما هوَ أحمرُ ثمودَ ، وقالَ بعضُهُم في تصحيحِ قولِهِ : تَتعرَّضُ أوَّلَ ما تطلعُ ، كما أنَّ الوشاحَ إذا طرحَ . . يلقاكَ بعرضِهِ ؛ وهوَ ناحيتُهُ .

وقالَ أبو عمرٍو : يعني : إذا أخذَتِ الثريَّا في وسطِ السماءِ كما يأخذُ الوِشاحُ وسطَ المرأةِ ، **والأشبهُ عندَنا** : أنَّ البيتَ غيرُ معيبٍ مِنْ حيثُ عابوهُ بهِ ، وأنَّهُ مِنْ محاسنِ هٰذهِ القصيدةِ ، وإن كانَ فيهِ ضربٌ مِنَ التكلُّفِ ؛ لأنَّهُ قالَ : (إذا ما الثريَّا في السماءِ تَعرَّضَتْ تعرُّض أثناءِ الوِشاحِ) فقولُهُ : (تَعرَّضَتْ) مِنَ الكلامِ الذي يُستغنىٰ عنهُ ؛ لأنَّها تشبهُ أثناءَ الوِشاحِ سواءٌ كانَتْ في وسطِ السماءِ وعندَ الطُّلوعِ والمغيبِ ، والتهويلُ بالتعرُّضِ والتطويلُ بهٰذهِ الألفاظِ . . لا معنىٰ لهُ .

---

(١) انظر « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص ٢٨) ، والبيت بتمامه :

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ... كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

وفيهِ : أنَّ الثريَّا كقطعةٍ مِنَ الوشاحِ المُفصَّلِ ، فلا معنىٰ لقولِهِ : (تَعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ) ، وإنَّما أرادَ أن يقولَ : تَعرُّضَ قطعةٍ مِنْ أثناءِ الوِشاحِ ، فلم يستقمْ لهُ اللفظُ .

۞ ۞

وقولُهُ :

فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيَابَهَا لَدَى ٱلسِّتْرِ إِلَّا لِبْسَةَ ٱلْمُتَفَضِّلِ

انظرْ إلىٰ هٰذا البيتِ والأبياتِ التي قبلَهُ كيفَ خَلَّطَ في النظمِ ، وفَرَّطَ في التأليفِ ، فذكرَ التمتُّعَ بها ، وذكرَ الوقتَ والحالَ والحُرَّاسَ ، ثمَّ يذكرُ كيفَ كانَ صفتُها لمَّا دخلَ عليها ووصلَ إليها ؛ مِنْ نزعِها ثيابَها إلَّا ثوباً واحداً ، **والمُتفضِّلُ** : الذي في ثوبٍ واحدٍ ؛ وهوَ الفضلُ ، فما كانَ مِنْ سبيلِهِ أن يُقدِّمَهُ . . ذكرَهُ مُؤخَّراً .

وقولُهُ : (لدى السِّترِ) حشوٌ ، وليسَ بحسنٍ ولا بديعٍ .

وقولُهُ :

فَقُمْتُ بِهَا أَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا عَلَىٰ إِثْرِنَا أَذْيَالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ ٱلْحَيِّ وَٱنْتَحَىٰ بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

البيتُ الأوَّلُ ذكرَ فيهِ مساعدتَها إيَّاهُ حتىٰ قامَتْ معَهُ [ليخلوَا] ، وكانَتْ تَجُرُّ على الإثرِ أذيالَ مِرطٍ مُرحَّلٍ ، **والمُرَحَّلُ** : ضربٌ مِنَ البُرودِ يُقالُ لوشيِهِ : الترحيلُ ، وفيهِ تَكلُّفٌ ؛ لأنَّهُ قالَ : (وراءَنا علىٰ إثرِنا) ولو قالَ : علىٰ إثرِنا . . كانَ كافياً ، والذَّيلُ : إنَّما يُجَرُّ وراءَ الماشي ، فلا فائدةَ لذكرِهِ (وراءَنا) ، وتقديرُ القولِ : فقمتُ أمشي بها ، وهٰذا أيضاً ضربٌ مِنَ التكلُّفِ .

وقولُهُ : (أذيالَ مِرْطٍ) كانَ مِنْ سبيلِهِ أن يقولَ : ذيلَ مِرطٍ ، علىٰ أنَّهُ لو سَلِمَ مِنْ ذٰلكَ . . كانَ قريباً ، ليسَ ممَّا يفوتُ بمثلِهِ غيرُهُ ، ولا يَتقدَّمُ بهِ سواهُ ، وقولُ ابنِ المعتزِّ أحسنُ منهُ[1] : [من البسيط]

فَبِتُّ أَفْرِشُ خَدِّي فِي ٱلطَّرِيقِ لَهُ ذُلّاً وَأَسْحَبُ أَكْمَامِي عَلَى ٱلْأَثَرِ

وأمَّا البيتُ الثاني . . فقولُهُ : (أجزنا) بمعنىٰ : قطعنا ، **والخَبْتُ** : بطنٌ مِنَ الأرضِ ، **والقُفُّ** : رملٌ مُتعرِّجٌ ، **والعقنقلُ** : المُنعقِدُ مِنَ الرملِ الداخلُ بعضُهُ في بعضٍ .

وهٰذا البيتُ نافرٌ عنِ الأبياتِ المُتقدِّمةِ ؛ لأنَّ فيها ما هوَ سلسٌ قريبٌ يُشبِهُ كلامَ المُولَّدينَ ، وهٰذا قد أغربَ فيهِ ، وأتىٰ بهٰذهِ اللفظةِ الوحشيةِ المُتعقِّدةِ ، وليسَ في ذكرِها وإلحاقِها بسوابقِها مِنَ الكلماتِ فائدةٌ ، والكلامُ الغريبُ واللفظةُ الشديدةُ المباينةُ لنسجِ الكلامِ قد تُحمَدُ إذا وقعَتْ موقعَ الحاجةِ في وصفِ ما يلائمُها ؛ كقولِهِ عزَّ وجلَّ في وصفِ يومِ القيامةِ : ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾[2] ، فأمَّا إذا وقعَتْ في غيرِ هٰذا الموقعِ . . فهيَ مكروهةٌ مذمومةٌ بحَسَبِ ما تُحمَدُ في موضعِها .

ورُوِيَ أنَّ جريراً أنشدَ بعضَ خلفاءِ بني أميةَ قصيدتَهُ[3] : [من الكامل]

بَانَ ٱلْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوَكُلَّمَا جَدُّوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ

كَيْفَ ٱلْعَزَاءُ وَلَمْ أَجِدْ مُذْ بِنْتُمُ قَلْباً يَقَرُّ وَلَا شَرَاباً يَنْقَعُ

فكانَ يزحفُ مِنْ حسنِ هٰذا الشعرِ حتىٰ بلغَ قولَهُ :

وَتَقُولُ بَوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى ٱلْعَصَا هَلَّا هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يَا بَوْزَعُ

---

(١) انظر « ديوان ابن المعتز » (٢/١٩٦) ، وفيه : (ذيلي) بدل (خدي) .

(٢) سورة الإنسان : (١٠) .

(٣) انظر « ديوان جرير » (٢/٩٠٩) .

فقالَ : أفسدتَ شعرَكَ بهٰذا الاسمِ .

وقولُهُ :

هَصَرْتُ بِغُصْنَيْ دَوْحَةٍ فَتَمَايَلَتْ ... عَلَيَّ هَضِيمَ ٱلْكَشْحِ رَيَّا ٱلْمُخَلْخَلِ

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ ... تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَٱلسَّجَنْجَلِ

فمعنىٰ قولِهِ : (هصرتُ) : جذبتُ وثنيتُ ، **وقولِهِ** : (بغصنَيْ دوحةٍ) تعسُّفٌ ، ولم يكنْ مِنْ سبيلِهِ أن يجعلَها اثنَينِ ، والمِصراعُ الثاني أصحُّ ، وليسَ فيهِ شيءٌ إلَّا ما يَتكرَّرُ علىٰ ألسنةِ الناسِ مِنْ هاتَينِ الصِّفتَينِ وأنتَ تجدُ ذٰلكَ في وصفِ كلِّ شاعرٍ ، ولٰكنَّهُ معَ تَكرُّرِهِ على الألسنِ صالحٌ .

وأمَّا معنىٰ قولِهِ : (مُهفهفةٌ) : أنَّها مُخفَّفةٌ ليسَتْ مُثقَلةً ، **والمُفاضةُ** : التي اضطربَ طولُها ، والبيتُ معَ مخالفتِهِ في الطَّبعِ الأبياتَ المُتقدِّمةَ ، ونزوعِهِ فيهِ إلى الألفاظِ المُستكرَهةِ ، وما فيهِ مِنَ الخَلَلِ مِنْ تخصيصِ الترائبِ بالضَّوءِ ، بعدَ ذكرِ جميعِها بالبياضِ . . ليسَ بطائلٍ ، ولٰكنَّهُ قريبٌ مُتوسِّطٌ .

وقولُهُ :

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي ... بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وَجِيدٍ كَجِيدِ ٱلرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ ... إِذَا هِيَ نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلِ

معنىٰ قولِهِ : (عن أسيلٍ) أي : بأسيلٍ ، وإنَّما يريدُ خدّاً ليسَ بكزٍّ ، **وقولُهُ** : (تتقي) يُقالُ : اتقاهُ بحقِّهِ ؛ أي : جعلَهُ بينَهُ وبينَهُ ، **وقولُهُ** : (تَصُدُّ وتبدي عن أسيلٍ) متفاوتٌ ؛ لأنَّ الكشفَ عنِ الوجهِ معَ الوصلِ دونَ الصَّدِّ ، **وقولُهُ** : (تتقي بناظرةٍ) لفظةٌ مليحةٌ ، ولٰكنْ أضافَها إلىٰ ما نظمَ بهِ كلامَهُ ، وهوَ

مُختلٌّ ؛ وهوَ قولُهُ : (مِنْ وحشِ وجرةَ) ، ويجبُ أن تكونَ العبارةُ بخلافِ هٰذا ، كانَ مِنْ سبيلِهِ أنْ [يضيفَ] إلىٰ عيونِ الظِّباءِ أوِ المها دونَ إطلاقِ الوحشِ ، ففيهِنَّ ما تَستنكِرُ عيونَها ، وقولُهُ : (مُطفِلِ) فسَّروهُ علىٰ أنَّها ليسَتْ بصبيةٍ ، وأنَّها قدِ استحكمَتْ ، وهٰذا اعتذارُ مُتعسِّفٍ .

وقولُهُ : (مُطفِلِ) زيادةٌ لا فائدةَ فيها علىٰ هٰذا التفسيرِ الذي ذكرَهُ الأصمعيُّ ، ولٰكنْ قد يَحتمِلُ عندي أن يفيدَ غيرَ هٰذهِ الفائدةِ ، فيُقالَ : إنَّها إذا كانَتْ مُطفِلاً . . لَحظَتْ أطفالَها بعينِ رقَّةٍ ، ففي نظرِ هٰذهِ رقَّةُ نظرِ المَودَّةِ ، ويقعُ الكلامُ مُعلَّقاً تعليقاً مُتوسِّطاً .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فمعنىٰ قولِهِ : (ليسَ بفاحشٍ) أي : ليسَ بفاحشِ الطُّولِ ، ومعنىٰ قولِهِ : (نَصَّتْهُ) رفعَتْهُ ، وقولُهُ : (ليسَ بفاحشٍ) في مدحِ الأعناقِ كلامٌ وحشٌ [1] موضوعٌ منهُ ، وإذا نظرتَ في أشعارِ العربِ . . رأيتَ في وصفِ الأعناقِ ما يشبهُ السحرَ ، فكيفَ وقعَ علىٰ هٰذهِ الكلمةِ ، ودُفِعَ إلىٰ هٰذهِ اللفظةِ ؟! وهلَّا قالَ كقولِ أبي نُواسٍ [2] : [من مجزوء الكامل]

مِثْلُ ٱلظِّبَاءِ سَمَتْ إِلَىٰ ... رَوْضٍ صَوَادِرَ عَنْ غَدِيرِ

لستُ أُطوِّلُ عليكَ فتستثقلَ ، ولا أكثرُ القولَ في ذمِّهِ فتستوحشَ ، وأكِلُكَ إلىٰ جملةٍ مِنَ القولِ ؛ فإن كنتَ مِنْ أهلِ الصَّنعةِ . . فطنتَ واكتفيتَ ، وعرفتَ ما رمينا إليهِ واستغنيتَ ، وإن كنتَ عنِ الطَّبقةِ خارجاً ، وعنِ الإتقانِ بهٰذا الشأنِ خالياً . . فلا يكفيكَ البيانُ وإنِ استقرينا جميعَ شعرِهِ ، وتتبَّعْنا عامَّةَ ألفاظِهِ ، ودللْنا علىٰ ما في كلِّ حرفٍ منهُ .

❊ ❊ ❊

(١) في « إعجاز القرآن » (ص ١٧٩) : (فاحش) بدل (وحش) .
(٢) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٢٩١) .

اعلمْ : أنَّ هٰذهِ القصيدةَ قد تَردَّدَتْ بينَ أبياتٍ سُوقيَّةٍ مبتذَلةٍ ، وأبياتٍ مُتوسِّطةٍ ، وأبياتٍ ضعيفةٍ مرذولةٍ ، وأبياتٍ وحشيَّةٍ غامضةٍ مُستكرَهةٍ ، وأبياتٍ معدودةٍ بديعةٍ ، وقد دللْنا على المُبتذَلِ منها ، ولا يشتبهُ عليكَ الوحشيُّ المُستنكَرُ الذي يروعُ السمعَ ، ويهولُ القلبَ ، ويكدُّ اللسانَ ، ويَعْبِسُ معناهُ في وجهِ كلِّ خاطرٍ ، ويَكفهِرُّ مطلعُهُ علىٰ كلِّ مُتأمِّلٍ أو ناظرٍ ، ولا يقعُ بمثلِهِ التمدُّحُ والتفاصحُ ، وهوَ مجانبٌ لِمَا وُضِعَ لهُ أصلُ الإفهامِ ، ومخالفٌ لِمَا بُنِيَ عليهِ التفاهمُ بالكلامِ ، فيجبُ أن يسقطَ عنِ الغرضِ المقصودِ ، ويلحقَ باللغزِ والإشاراتِ المُستبهَمةِ .

❊

فأمَّا الذي زعموا أنَّهُ مِنْ بديعِ هٰذا الشعرِ . . فهوَ قولُهُ :

وتُضْحِي فَتِيتُ ٱلْمِسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا   نَؤُومُ ٱلضُّحَىٰ لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

والمِصراعُ الأخيرُ عندَهُم بديعٌ ، ومعنىٰ ذٰلكَ : أنَّها مُترَفةٌ مُتنعِّمةٌ ، لها مَنْ يكفيها ، ومعنىٰ قولِهِ : (لم تَنتطِقْ عن تفضُّلٍ) يقولُ : لم تنتطِقْ وهيَ فضلٌ ، و(عن) هيَ بمعنىٰ (بعدَ) ، قالَ أبو عبيدةَ : لم تَنتطِقْ فتعملَ ، ولٰكنَّها تَفضَّلُ .

وممَّا يَعُدُّونَهُ مِنْ محاسنِها :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ ٱلْبَحْرِ أَرْخَىٰ سُدُولَهُ   عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ ٱلْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّىٰ بِصُلْبِهِ   [وَأَرْدَفَ] أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلَا أَيُّهَا ٱللَّيْلُ ٱلطَّوِيلُ أَلَا ٱنْجَلِي   بِصُبْحٍ وَمَا ٱلْإِصْبَاحُ فِيكَ بِأَمْثَلِ

وكانَ بعضُهُم يعارضُ هـٰذا بقولِ النابغةِ[1] : [من الطويل]

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاحَ ٱللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
تَقَاعَسَ حَتَّىٰ قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَتْلُو ٱلنُّجُومَ بِآيِبِ

وقد جرىٰ ذٰلكَ بينَ يدَيْ بعضِ الخلفاءِ ، فقَدَّمَ أبياتَ امرئِ القيسِ ، واستحسنَ استعارتَها ، وقد جعلَ للَّيلِ صدراً يَثقُلُ تنحّيهِ ، ويُبطِئُ تَقضّيهِ ، وجعلَ لهُ أردافاً كثيرةً ، وجعلَ لهُ صُلْباً يَمتدُّ ويَتطاولُ ، ورأَوا هـٰذا بخلافِ ما يَستعيرُهُ أبو تمامٍ مِنَ الاستعاراتِ الوحشيةِ البعيدةِ المُستنكرَةِ ، ورأَوا أنَّ الألفاظَ جميلةٌ .

واعلمْ : أنَّ هـٰذا صالحٌ جميلٌ ، وليسَ مِنَ البابِ الذي يُقالُ : إنَّهُ متناهٍ عجيبٌ ، وفيهِ إلمامٌ بالتكلُّفِ ، ودخلٌ في التعمُّلِ .

❁ ❁ ❁

وقد خرَّجوا لهُ في البديعِ مِنَ القصيدةِ **قولَهُ** :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ

وقولَهُ أيضاً :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

فأمَّا قولُهُ : (قيدِ الأوابدِ) فهوَ مليحٌ ، ومثلُهُ في كلامِ الشُّعراءِ وأهلِ الفصاحةِ كثيرٌ ، والتعمُّلُ بمثلِهِ ممكنٌ ، وأهلُ زمانِنا الآنَ يُصنّفونَ نحوَ هـٰذا

---

(١) انظر « ديوان النابغة الذبياني » (ص ٤٠) .

تصنيفاً ، ويُؤلِّفونَ المحاسنَ تأليفاً ، ثمَّ يُوشِّحونَ بهِ كلامَهُم ، والذينَ كانوا مِنْ قبلُ لغزارتِهِم وتَمكُّنِهِم لم يكونوا يَتصنَّعونَ لذٰلكَ ، إنَّما كانَ يَتَّفِقُ لهُمُ اتفاقاً ، ويَطَّرِدُ في كلامِهِمُ اطراداً .

وأمَّا قولُهُ في وصفِهِ : (مِكرٍّ مِفرٍّ) . . فقد جمعَ فيهِ طباقاً وتشبيهاً ، وفي سرعةِ جَرْيِ الفرسِ للشُّعراءِ ما هوَ أحسنُ مِنْ هٰذا وألطفُ ، وكذٰلكَ في جمعِهِ بينَ أربعةِ وجوهٍ مِنَ التشبيهِ في بيتٍ واحدٍ صنعةٌ ، ولٰكنْ قد عُورِضَ فيهِ وزُوحِمَ ، والتوصُّلُ إليهِ يسيرٌ ، وتَطلُّبُهُ سهلٌ قريبٌ .

وقدْ بيَّنَّا لكَ أنَّ هٰذهِ القصيدةَ ونظائرَها تتفاوتُ في أبياتِها تفاوتاً بيِّناً ؛ في الجودةِ والرداءةِ ، والسَّلاسةِ والانعقادِ ، والسلامةِ والانحلالِ ، والتمكُّنِ [والاستصعابِ] ، والتسهُّلِ والاسترسالِ ، والتوحُّشِ والاستكراهِ ، ولهُ شركاءُ في نظائرِها ، ومنازعونَ في محاسنِها ، ومعارضونَ في بدائعِها ، ولا سواءٌ بينَ كلامٍ يُنحَتُ مِنَ الصَّخرِ تارةً ، ويذوبُ تارةً ، ويَتلوَّنُ تلوُّنَ الحِرباءِ ، ويَختلفُ اختلافَ الأهواءِ ، ويكثرُ في تَصرُّفِهِ اضطرابُهُ ، وتتقاذفُ بهِ أسبابُهُ ، وبينَ قولٍ يجري في سبكِهِ علىٰ نظامٍ ، وفي رصفِهِ علىٰ منهاجٍ ، وفي وضعِهِ علىٰ حدٍّ ، وفي صفائِهِ علىٰ بابٍ ، وفي بهجتِهِ ورونقِهِ علىٰ طريقٍ ، مختلفُهُ مؤتلفٌ ، ومؤتلفُهُ مُتَّحِدٌ ، ومتباعدُهُ مُتقارِبٌ ، وشارِدُهُ مطيعٌ ، ومطيعُهُ شاردٌ ، وهوَ علىٰ مُتصرَّفاتِهِ واحدٌ ، لا يُستصعَبُ في حالٍ ، ولا يَتعقَّدُ في شأنٍ [١] .

❋ ❋ ❋

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي النقل عن « إعجاز القرآن » (ص ١٨٣) للعلامة القاضي الباقلاني .

[إنصافُ المُعلَّقةِ ممَّا وردَ عليها مِنَ الانتقادِ]

فأنتَ ترىٰ هٰذا الشيخَ كيفَ عمدَ إلىٰ قصيدةٍ قدِ اتفقَ العلماءُ وأهلُ الأدبِ علىٰ تَقدُّمِها في الجودةِ ، وعُلُوِّها في البلاغةِ ، حتىٰ جعلوها رأسَ القصائدِ السبعيَّاتِ ، فأفسدَ بالنقدِ صورتَها ، وغَبَّرَ في وجهِ بهجتِها .

ولٰكنْ أقولُ : إنَّهُ معَ نورانيةِ كلامِهِ ، وسلاسةِ عباراتِهِ ، وحسنِ سلوكِهِ في تقريرِ أغراضِهِ . . قد تحاملَ على امرئِ القيسِ بعضَ التحاملِ ، وما كانَ ينبغي ؛ فإنَّ التحاملَ في مَقامِ البرهنةِ يُوجِبُ نفرةً عنِ الاستماعِ ، واستصعاباً عنِ الانقيادِ ، ويكونُ ذٰلكَ سبباً لضياعِ الحقِّ .

ولستُ أقولُ : إنَّ كلامَ المخلوقِ أينَما بلغَ مِنْ رتبِ البلاغةِ يكادُ يداني كلامَ الخالقِ الذي لا تخفىٰ عليهِ خافيةٌ ، ولٰكنْ أقولُ : إنَّهُ لا ينبغي أن يُبخَسَ كلامٌ حَقَّهُ ، ولا يُوفَّىٰ قسطَهُ ، ويُعترَفَ لهُ بحظِّهِ منها .

وهٰأنا مقتفٍ أثرَهُ في الكلامِ علىٰ بعضِ ما تَكلَّمَ عليهِ بما يَتلاشىٰ معَهُ كثيرٌ مِن انتقاداتِهِ ، ومُفصِّلٌ ما فيهِ الكلامُ منها تفصيلَهُ الذي أرادَهُ الشاعرُ .

قولُهُ : (قفا نبكِ . . .) البيتَينِ ، فصلٌ أرادَ فيهِ بالحبيبِ والمنزلِ الجنسَ ، فالتنكيرُ فيهِ للتنويعِ ، لا للإفرادِ ، فكأنَّهُ قالَ : ليقفْ كلٌّ منَّا يبكي صفاءَ عيشِهِ الماضي ، وسرورَ أوقاتِهِ السالفةِ ، وتمتعَهُ بحبيبهِ في تلكَ المنازلِ الشاغلةِ لتلكَ النواحي التي سمَّاها ، وطوىٰ في ذٰلكَ الحديثَ عن كثرةِ العمرانِ وعظمِ المجتمعِ ؛ وذٰلكَ سببٌ لقُوَّةِ الأمنِ ، واتساعِ دائرةِ السُّرورِ ، والتمكُّنِ مِنَ الاستتارِ باللَّذّاتِ ، وفيهِ إقامةُ العذرِ في اشتدادِ الوجدِ وكثرةِ

الحزنِ ؛ إذ بقَدْرِ الأُنْسِ بالشيءِ تقعُ الوَحْشةُ عندَ ذهابِهِ ، ولإظهارِ الجزعِ ، والمبالغةِ في الإبانةِ عنِ العذرِ .

❊ ❊

قالَ : (لم يعفُ رسمُها) ، وذٰلك مِنْ إيجازِ الإشارةِ ، الذي هوَ معدودٌ مِنْ أكبرِ دعائمِ البلاغةِ ، فليسَ ذكرُهُ لتلكَ المواضعِ فضلاً .

وتأمَّلْ عطفَهُ فيها بالفاءِ دونَ الواوِ كما يقتضيهِ ظاهرُ الكلامِ ، فالكنايةُ إذاً مِنْ قولِهِ : (رسمُها) تعودُ للمنازلِ .

ثمَّ إنَّ مناقشتَهُ في الألفاظِ ، معَ كونِهِ مِنْ رؤوسِ أهلِ اللغةِ الذين تُنقَلُ عنهُم ، وبكلامِهِم يُحتَجُّ . . فيهِ خروجٌ .

❊ ❊

وقولُهُ : (وقوفاً . . .) إلىٰ قولِهِ : (إذا قامتا) فصلٌ يبينُ فيهِ ما كانَ مِنْ وعظِ صحابتِهِ إيَّاهُ ونصحِهِم لهُ ، فكانَ مِنْ كلامِهِم : (لا تهلكْ أسىً وتَجمَّلِ) ، (فهل عندَ رسمٍ دارسٍ مِنْ مُعوَّلِ) ، ذٰلكَ منكَ الآنَ كدأبِكَ وحالِكَ فيما مضىٰ مِنْ فلانةَ وفلانةَ ، واعترضَ بينَ أجزاءِ ما حكاهُ عنهُم بقولِهِ : (وإنَّ شفائي عَبرةٌ) ودعوىٰ كونِ البكاءِ شافياً وإطلاقِ الدموعِ مريحاً . . أمرٌ مشهورٌ بينَ الشُّعراءِ ، قالَ بعضُهُم (١) : [من الطويل]

لَعَلَّ ٱنْحِدَارَ ٱلدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً ... مِنَ ٱلْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ ٱلْبَلَابِلِ

وقالَتِ الخنساءُ (٢) : [من مجزوء الكامل]

إِنَّ ٱلْبُكَاءَ هُوَ ٱلشِّفَا ... ءُ مِنَ ٱلْجَوَىٰ بَيْنَ ٱلْجَوَانِحْ

---

(١) هو ذو الرمة . انظر « ديوانه » (١٣٣٣/٢) .

(٢) تقدم (١٣٢/٢) .

وذٰلكَ أمرٌ يُعرَفُ بالوجدانِ ، فقولُهُ : (عندَ رسمٍ دارسٍ) ليسَ مِنْ كلامِهِ ، وعَبَّرَ بلفظِ (دارسٍ) علىٰ معنى المشارفةِ على الدروسِ والقربِ منهُ ، وهوَ مجازٌ مشهورُ الاستعمالِ ، حملوا عليهِ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) ، قالوا : أي : المشارفينَ للتقوى الصائرينَ لها ، فلا تناقضَ .

فلمَّا سمعَ مِنْ صحبِهِ هٰذا الكلامَ وقد هتفوا بذكرِ حبيبتَينِ كانتا لهُ . . تَذكَّرَ حالَهُما ، فأشارَ إلىٰ صفةِ ما كانتا عليهِ ؛ مِنْ حسنِ الحالِ ، وطيبِ النعيمِ ، وريعانِ الشبابِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ دواعي الغزلِ والصَّبابةِ ؛ بقولِهِ : (إذا قامتا تَضوَّعَ المِسكُ) ، والبيتُ وحدَهُ فصلٌ ، وإنَّما خصَّ حالةَ القيامِ لمكانِ الحركةِ الموجبةِ لتموُّجِ الهواءِ الذي تنتشرُ بهِ الرائحةُ وتبلغُ للبعيدِ ، ولذٰلكَ وقعَ التشبيهُ بُعْدَ موقعِهِ ، فليسَ غرضُهُ أن يصفَهُما بالطِّيبِ حتىٰ يُقالَ : إنَّ ذٰلكَ لا يَخُصُّ حالةً دونَ حالةٍ ، ولذٰلكَ قالَ : (تَضوَّعَ) ، ولم يقلْ : إنَّهُما إذا قامتا . . فهُما [طيبتا] الرائحةِ ، فالتشبيهُ بينَ انتشارِ الرائحةِ والمرورِ معَ النَّسيمِ ، وليسَ تشبيهَ رائحةٍ برائحةٍ حتىٰ يُقالَ : إنَّهُ نقصٌ ، وشَبَّهَ القويَّ بالضَّعيفِ .

ثمَّ أبانَ كيفيةَ بكائِهِ ومقدارَ دموعِهِ ، وهوَ حكايةٌ عمَّا وقعَ لهُ كما هوَ العادةُ في أشعارِ العربِ ؛ مِنْ كونِها في الغالبِ حكايةً عن واقعٍ ، وليسَ مُجرَّدَ تخيُّلٍ كما هوَ حالُ المُتأخِّرينَ مِنَ الشُّعراءِ ؛ فإنَّهُم لمَّا أرادوا أن يتبعوا العربَ في عملِ الشعرِ . . تأمَّلوا مذاهبَهُم فيهِ ، وجمعوا تَصرُّفاتِهِم في أنواعِهِ ، ثمَّ أخذوا في الجمعِ والتأليفِ علىٰ سبيلِ الخيالِ ، لا علىٰ سبيلِ حكايةِ الواقعِ ، فليسَ لأحدٍ أن يُكذِّبَهُ في صفةِ حالِهِ ، ولا أن يُكلِّفَهُ الكذبَ

(١) سورة البقرة : (٢) .

بأن يقولَ : إنَّ الدمعَ بلَّ [المغانيَ] ، وجرىٰ مثلَ البحرِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المبالغةِ .

وقد فاتَ هٰذا الشيخَ أن يذكرَ السببَ في انحطاطِ قولِهِ : (دموعُ العينِ منِّي) ، والسببَ في ارتفاعِ قولِهِ عزَّ ذكرُهُ : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ [١] ، والعبارتانِ مِنْ وادٍ واحدٍ ، وأن يُبيِّنَ الفرقَ بينَهُما كما تَستحضِرُهُ إذا ذكرتَ ما سلفَ مِنَ الكلامِ على الآيةِ في علمِ المعاني .

وقولُهُ : (ألا ربَّ يومٍ . . .) إلىٰ قولِهِ : (ويوماً علىٰ ظهرِ الكثيبِ) فصلٌ حكىٰ فيهِ بعضَ الوقائعِ التي كانَتْ لهُ أيامَ شبابِهِ ، وهوَ كلامٌ متلائمٌ آخذٌ بعضُهُ ببعضٍ ، يجمعُهُ غرضٌ واحدٌ كما تَعرِفُهُ مِنْ سياقِ قصَّتِهِ ، فذكرَ يومَ دارةِ جلجلٍ ؛ وهوَ يومُ عقرِ الناقةِ ، ويومَ دخولِهِ الخدرَ ، فعطفَ للاختلافِ بالإضافةِ ، وليسَتْ أياماً مُتعدِّدةً ، كأنَّهُ قالَ : يوماً بدارةِ جلجلٍ ؛ يومَ عقرتُ ، يومَ دخلتُ .

وقصةُ هٰذا اليومِ علىٰ ما حكَوهُ عنِ الفرزدقِ قالوا [٢] : خرجَ الفرزدقُ يوماً إلىٰ ظاهرِ البصرةِ صبيحةَ ليلةٍ باتَتِ السماءُ تَكِفُ بها ، فرأىٰ آثارَ دوابَّ ذاهبةٍ إلىٰ ناحيةٍ ، فقالَ : إنَّ هٰذه الآثارَ تخبرُ عن خروجِ قومٍ إلىٰ ذٰلكَ الوادي ، وما أُراهُم إلَّا قدِ اجتمعوا لنزهةٍ وطعامٍ وشرابٍ ، فعزمَ علىٰ أن يلحقَ بهِم ؛ لعلَّهُ يصيبُ معَهُم بعضَ مآربِهِ ، فانتهىٰ بهِ السَّيرُ علىٰ تلكَ الآثارِ إلىٰ غديرٍ ، وإذا بهِ نسوةٌ قد نزعنَ ثيابَهُنَّ ودخلنَ فيهِ ، فنزلَ عن بغلتِهِ وجلسَ على الثيابِ وقالَ : يومٌ كيومِ دارةِ جلجلٍ .

---

(١) سورة مريم : (٤) .

(٢) انظر « خزانة الأدب » (٣/٤٥٧ ـ ٤٥٩) .

فتضاحكَ منهُ النساءُ وقالوا : حدِّثْنا بحديثِ ذٰلكَ اليومِ ، فأخبرَ أنَّ جماعةَ امرئِ القيسِ عزموا يوماً على الانتقالِ مِنْ موضعٍ إلىٰ موضعٍ ، فسبقَ الرجالُ ليصلحوا المنزلَ ويُمهِّدوا موضعَ الإقامةِ ، وتَخلَّفَ النساءُ وما يكفيهنَّ مِنَ الخدمِ ، فاستخفى امرُؤُ القيسِ حتىٰ خرجَ علىٰ آثارِ النِّسوةِ ، حتىٰ إذا كانَ نصفُ النهارِ . . وصلنَ إلىٰ غديرٍ ، فقالَ بعضُهُن لبعضٍ : لو نزلنا في هٰذا الموضعِ فاسترحنا واستجممنا نشاطَنا بالاستنقاعِ في هٰذا الغديرِ ، فنزلنَ ونزعنَ ثيابَهُنَّ ، ودخلنَ الماءَ ، وأدركَهُنَّ امرُؤُ القيسِ ، فجلسَ علىٰ ثيابِهِنَّ ، وحلفَ أنَّه لا يعطي واحدةً ثيابَها حتىٰ تخرجَ وتأخذَها بنفسِها ، فبعدَ أنِ امتنعنَ برهةً وخِفنَ ذهابَ الوقتِ . . تتابعنَ في الخروجِ واحدةً بعدَ واحدةٍ ، حتىٰ بقيَتْ عشيقتُهُ تُقسِمُ عليهِ وتستعطفُهُ وتَتذلَّلُ لهُ وهوَ يأبىٰ ، حتىٰ خرجَتْ ، فرآها مقبلةً ومدبرةً .

ثمَّ قلنَ لهُ : حبستَنا وأجعتَنا ، فاغتنمَ ذٰلكَ منهُنَّ ، ورأىٰ مكانَ الحيلةِ في وصولِهِ إلىٰ حبيبتِهِ ، فقالَ : أتأكلنَ إذا نحرتُ ناقتي ؟ فقلن : نعم ، فقامَ إليها وعقرَها ، وجمعَ الخدمُ الحطبَ ، وأجَّجوا ناراً عظيمةً ، فجلسَ وجلسنَ يشتوونَ ويأكلونَ ، ويترامَونَ ويتلاعبونَ ، حتىٰ قضَوا غرضَهُم مِنَ الطعامِ ، وقاموا لتتميمِ السفرِ ، فتوزَّعوا متاعَ ناقتِهِ ، وبقيَ هوَ ، فركبَ معَ حبيبتِهِ ، وكانَ هٰذا قصْدَهُ ، فهوَ يَتعجَّبُ مِنْ تمامِ حيلتِهِ ، وبلوغِهِ غرضَهُ ، وتُراهُ يقتصرُ في الكلامِ علىٰ مواضعِ النكتِ .

ثمَّ حكىٰ ما جرىٰ بينَهُ وبينَ حبيبتِهِ بعدَ ركوبِهِ معَها ، وأنَّهُ أخذَ في مغازلتِها وملاعبتِها ، واقتطافِ ثمراتِها ، ونقلَ أنَّها قالَتْ لهُ : (لكَ الويلاتُ إنَّكَ مرجلي) .

وليسَ في نقلِ كلامِ الغيرِ علىٰ وجهِهِ عيبٌ ، ألا ترىٰ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ

شأنُهُ : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا . . . ﴾ إلىٰ آخِرِهِ (١) ، معَ ما اشتملَ عليهِ مِنْ وقاحتِهِم وسفهِهِم وجهلِهِم باللهِ .

❀ ❀

وقولُهُ : (قالَت) و(تقولُ) تأديةٌ للمعاني بعباراتِها ، فالقولُ الأوَّلُ حصلَ منها مَرَّةً ، والثاني تكرَّرَ ، ولولا ذٰلكَ . . ما كانَ يُعجِزُهُ أن يقولَ : وقالَتْ وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً ، وتَعرِفُ تعيُّنَ ذٰلكَ إذا تلوتَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (٢) ، معَ ذكرِ ما سلفَ في علمِ المعاني .

وأمَّا قولُهُ : (فمثلِكِ حبلىٰ) فذٰلكَ ما مِنْ شأنِهِ أن يقولَهُ في هٰذا المقامِ ؛ فإنَّهُ لا يقولُ عن نفسِهِ أنَّهُ راهبٌ في صومعةٍ ، بل يخبرُ بأنَّهُ زِيرُ نساءٍ مُستعمِلٌ حيلَهُ في خدعِهِنَّ ، كما يقتضيهِ استحسانُ الشبابِ أهلِ الترفِ والنعيمِ ؛ فإنَّهُ لمَّا أرادَ أن يزيلَ حياءَها ، ويكسرَ حِدَّتَها ، ويثيرَ مِنْ شهوتِها ؛ ليتمكَّنَ مِنَ التمتُّعِ بها . . لم يجدْ إلَّا أن يُكلِّمَها بما يقتضي ذٰلكَ .

❀

وقولُهُ : (ويوماً علىٰ ظهرِ الكثيبِ . . .) إلىٰ قولِهِ : (وقد أغتدي والطيرُ في وكناتِها) فصلٌ أخبرَ فيهِ أنَّها غضبَتْ منهُ يوماً ، واشتدَّ امتناعُها عليهِ ، وحلفَتْ دونَ استثناءٍ ، فأخذَ في عتابِها وترضِّيها ، وتَصرَّفَ في ذٰلكَ تَصرُّفَ مثلِهِ في خضوعٍ وتذلُّلٍ ، وإذا افتخرَ أوِ اشتدَّ . . جعلَ ذٰلكَ في ضمنِ تواضعٍ لها ، واستسلامٍ واعترافٍ لها بملكِهِ ، واستيلائِها عليهِ ، وانقيادِهِ لها ، والمضيِّ معَ مرضاتِها ، وتفهيمِهِ إيَّاها أنَّها قدِ انفردَتْ بهِ ، معَ تمكُّنِهِ

---

(١) سورة الإسراء : (٩٠) .

(٢) سورة فاطر : (٩) .

مِنَ التمتُّعِ بغيرِها مِنْ ذواتِ الشرفِ والترفِ والنعيمِ ، معَ إقدامِهِ في ذٰلكَ وجراءتِهِ ومساعدتِهِنَّ إيَّاهُ .

فأنت إذا تأمَّلتَ في فصولِ القصيدةِ علىٰ ما أشرنا بهِ إليكَ . . **عرفتَ أنَّهُ لا يَتوجَّهُ عليهِ مِنَ الانتقاداتِ إلَّا القليلُ** ، وإنَّما وقفتُ معَكَ هٰذا الموقفَ ؛ ليُولِّدَ فيكَ الاطلاعُ علىٰ مثلِ هٰذا الكلامِ جراءةً وإقداماً على استعمالِ ذوقِكَ ، وإطلاقِ فكرِكَ ؛ في تمييزِ جيدِ الكلامِ ورديئِهِ ، وصحيحِهِ وفاسدِهِ ، ورفيعِهِ ووضيعِهِ ، ولا تتمكَّنَ منكَ مهابةُ أنَّ هٰذا شعرُ فلانٍ المشهورِ ، فيستوليَ عليكَ حالُ التقليدِ .

[نقدٌ لبعضِ قصائدِ البحتريّ]

ثمَّ قالَ هٰذا الشيخُ في موضعٍ آخرَ مِنْ كتابِهِ (١) : ونحنُ نَعمِدُ إلىٰ بعضِ قصائدِ البحتريِّ ، فنتكلَّمُ عليها كما تكلَّمنا علىٰ قصيدةِ امرئِ القيسِ ، وتلكَ القصيدةُ التي نتكلَّمُ عليها أجودُ شعرِهِ ، سمعتُ أبا مسلمٍ الرستميَّ يقولُ : سمعتُ البحتريَّ يذكرُ أنَّ أجودَ شعرٍ قالَهُ (٢) : [من الكامل]

أَهْـلاً بِـذَٰلِكُمُ ٱلْـخَـيَـالِ ٱلْـمُـقْـبِـلِ

قـالَ : وسـمـعـتُ أبـا الـفـضـلِ بـنَ الـعـمـيـدِ يـقـولُ : أجـودُ شـعـرِهِ هـوَ قولُهُ (٣) : [من البسيط]

فِي ٱلشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ

قالَ : وسُئِلتُ عن ذٰلكَ ، فقلتُ : البحتريُّ أعرفُ بشعرِ نفسِهِ مِنْ غيرِهِ .

قلتُ (٤) : لعلَّ البحتريَّ قالَ ذٰلكَ قبلَ أن يقولَ قصيدتَهُ الثانيةَ .

فنحنُ الآنَ نقولُ في هٰذهِ القصيدةِ ما يَصلُحُ في مثلِها .

قولُهُ : [من الكامل]

أَهْـلاً بِـذَٰلِكُمُ ٱلْـخَـيَـالِ ٱلْـمُـقْـبِـلِ ... فَـعَـلَ ٱلَّـذِي نَـهْـوَاهُ أَوْ لَـمْ يَـفْـعَـلِ

بَرْقٌ سَرَىٰ فِي بَطْنِ وَجْرَةَ فَٱهْتَدَتْ ... بِـسَـنَـاهُ أَعْـنَـاقُ ٱلـرِّكَـابِ ٱلـضُّـلَّـلِ

---

(١) انظر « إعجاز القرآن » للباقلاني (ص ٢١٩ ـ ٢٤٣) .

(٢) انظر « ديوان البحتري » (١٧٤١/٣) ، والبيت بتمامه :

أَهْـلاً بِـذَٰلِكُمُ ٱلْـخَـيَـالِ ٱلْـمُـقْـبِـلِ ... فَـعَـلَ ٱلَّـذِي نَـهْـوَاهُ أَوْ لَـمْ يَـفْـعَـلِ

(٣) انظر « ديوان البحتري » (٩٥٣/٢) ، والبيت بتمامه :

فِي ٱلشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ ... وَوَاعِـظٌ مِـنْـهُ لَـوْلَا أَنَّـهُ حَـجَـرُ

(٤) القائل هو المؤلف ضمن نقله لكلام الإمام الباقلاني .

البيتُ الأولُ في قولِهِ : (ذٰلكُمُ الخيالِ) ثقلُ روحٍ ، وتطويلٌ وحشوٌ ، وغيرُهُ أصلحُ لهُ ، وأخفُّ منهُ قولُ الصَّنوبريِّ : [من السريع]

أَهْـــلاً بِـــذَاكَ ٱلـــزَّوْرِ مِـــنْ زَوْرِ   شَـمْـسٌ بَـدَتْ فِـي فَـلَـكِ ٱلـدَّوْرِ

وعذوبةُ الشعرِ تذهبُ بزيادةِ حرفٍ أو نقصانِ حرفٍ ، فيصيرُ إلى الكزازةِ ، وتعودُ ملاحتُهُ بذٰلكَ ملوحةً ، وفصاحتُهُ عِيّاً ، وبراعتُهُ تكلُّفاً ، وسلاستُهُ تعسُّفاً ، وملاستُهُ تلوّياً وتعقُّداً ، فهٰذا فصلٌ .

وفيهِ شيءٌ آخَرُ ؛ وهوَ أنَّ هٰذا الخطابَ إنَّما يستقيمُ مهما خُوطِبَ بهِ الخيالُ حالَ إقبالِهِ ، فأمَّا أن يَحكيَ الحالَ التي كانَتْ وسلفَتْ علىٰ هٰذهِ العبارةِ . . ففيهِ عُهْدةٌ ، وفي تركُّبِ الكلامِ عن هٰذا المعنىٰ عُقدةٌ ، وهوَ لبراعتِهِ وحذقِهِ في هٰذهِ الصَّنعةِ يَتعمَّدُ نحوَ هٰذا الكلامِ .

ثمَّ قولُهُ : (فعلَ الذي نهواهُ أو لم يفعلِ) ليسَتْ بكلمةٍ رشيقةٍ ، ولا لفظةٍ ظريفةٍ ، وإن كانَتْ كسائرِ الكلامِ .

فأمَّا بيتُهُ الثاني . . فهو عظيمُ الموقعِ في البهجةِ ، وبديعُ المأخذِ ، حسنُ الرواءِ ، أنيقُ المنظرِ والمسمعِ ، يملأُ القلبَ والفهمَ ، ويفرحُ الخاطرَ ، وتسري بشاشتُهُ في العروقِ .

وكانَ البحتريُّ يُسمِّي هٰذهِ الأبياتَ : عروقَ الذهبِ .

وفيهِ مِنَ الخَلَلِ معَ الديباجةِ الحسنةِ والرونقِ المليحِ ؛ وذٰلكَ أنَّهُ جعلَ الخيالَ كالبرقِ لإشراقِهِ في [مسراهُ] ؛ كما يُقالُ : إنَّهُ يسري كنسيمِ الصَّبا ، فيُطيِّبُ ما مرَّ بهِ ، كذٰلكَ أضاءَ ما حولَهُ ، ونَوَّرَ ما مرَّ بهِ ، وهٰذا غُلُوٌّ في الصَّنعةِ إلَّا أنَّ ذكرَهُ بطنَ وجرةَ . . حشوٌ ، وفي ذكرِهِ خَلَلٌ ؛ لأنَّ النورَ القليلَ يؤثرُ في بطونِ الأرضِ وما اطمأنَّ منها ، بخلافِ ما يؤثرُ في غيرِها ، فلم يكنْ مِنْ سبيلِهِ أن يربطَ ذٰلكَ ببطنِ وجرةَ ، وتحديدُهُ المكانَ على الحشوِ

أحمدُ مِنْ تحديدِ امرئِ القيسِ بذكرِ سقطِ اللوىٰ بينَ الدَّخولِ فحَوملَ فتُوضِحَ فالمِقراةِ ، لم يقنعْ بذكرِ حدٍّ حتىٰ حدَّهُ بأربعةِ حدودٍ ؛ كأنَّهُ يريدُ بيعَ المنزلِ ، فيخشىٰ إن أخلَّ بحدٍّ . . أنْ يكونَ بيعُهُ فاسداً ، وشرطُهُ باطلاً ، فهٰذا بابٌ .

ثمَّ إنَّما يُذكَرُ الخيالُ بخفاءِ الأثرِ ، ودقَّةِ المطلبِ ، ولطفِ المسلكِ ، وهٰذا الذي ذكرَ يُضادُّ هٰذا الوجهَ ، ويخالفُ ما يُوضَعُ عليهِ أصلُ البابِ ، ولا يجوزُ أن يُقدِّرَ مُقدِّرٌ أنَّ البحتريَّ قطعَ الكلامَ الأوَّلَ ، وابتدأَ بذكرِ برقٍ لمعَ مِنْ ناحيةِ حبيبهِ مِنْ جهةِ بطنِ وجرةَ ؛ لأنَّ هٰذا القطعَ إن كانَ فعلَهُ . . كانَ خارجاً بهِ عنِ النظمِ المحمودِ ، ولم يكنْ مُبدِعاً ، ثمَّ كانَ لا تكونُ فيهِ فائدةٌ ؛ لأنَّ كلَّ برقٍ شملَ وتَكرَّرَ . . وقعَ الاهتداءُ بهِ في الظَّلامِ ، وكانَ لا يكونُ بما نظمَهُ [مفيداً] ولا مُتقدِّماً ، وهوَ علىٰ ما كانَ مِنْ مَقصدِهِ ذو لفظٍ محمودٍ ، ومعنىً مستجلبٍ غيرِ مقصودٍ ، ويُعلَمُ بمثلِهِ أنَّهُ طلبَ العباراتِ ، وتعليقَ القولِ بالإشاراتِ .

وهٰذا مِنَ الشعرِ [الحسنِ] الذي يحلو لفظُهُ وتقلُّ فوائدُهُ ؛ كقولِ القائلِ (١) : [من الطويل]

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنىً كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُدَّتْ عَلَىٰ حُدْبِ ٱلْمَهَارَىٰ رِحَالُنَا ... وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

هٰذهِ ألفاظٌ بديعةُ المطالعِ والمقاطعِ ، حلوةُ المجاني والمواقعِ ، قليلةُ المعاني والفوائدِ .

(١) تقدم (٣/٤١٦) .

فأمَّا قولُ البحتريِّ بعدَ ذٰلكَ :

مِنْ غَادَةٍ مُنِعَتْ وَتَمْنَعُ نَيْلَهَا ... فَلَوَ ٱنَّهَا بُذِلَتْ لَنَا لَمْ تَبْذُلِ
كَٱلْبَدْرِ غَيْرَ مُخَيَّلٍ وَٱلْغُصْنِ غَيْـ ... ـرَ مُمَيَّلٍ وَٱلدِّعْصِ غَيْرَ مُهَيَّلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ علىٰ ما تَكلَّفَ فيهِ مِنَ المطابقةِ . . ألفاظُهُ أوفرُ مِنْ معانيهِ ، وكلماتُهُ أكثرُ مِنْ فوائدِهِ ، ونعلمُ أنَّ القصدَ وضعُ العباراتِ في مثلِهِ ، ولو قالَ : هيَ ممنوعةٌ مانعةٌ . . كانَ ينوبُ عن تطويلِهِ وتكثيرِهِ الكلامَ وتهويلِهِ ، ثمَّ هوَ معنىً متداولٌ مُكرَّرٌ علىٰ كلِّ لسانٍ .

وأمَّا البيت الثاني . . فأنتَ تَعلمُ أنَّ التشبيهَ بالبدرِ والغصنِ والدِّعصِ أمرٌ منقولٌ متداولٌ ، ولا فضيلةَ في التشبيهِ بنحوِ ذٰلكَ ، وإنَّما يبقىٰ تشبيهُهُ ثلاثةَ أشياءَ بثلاثةِ أشياءَ في البيتِ ، وهـٰذا أيضاً قريبٌ ؛ لأنَّ المعنىٰ مُكرَّرٌ ، ويبقىٰ لهُ بعدَ ذٰلكَ شيءٌ آخَرُ ؛ وهوَ تعمُّلُهُ بالترصيعِ في البيتِ كلِّهِ ، إلَّا أنَّ هـٰذهِ الاستثناءاتِ فيها ضربٌ مِنَ التكلُّفِ ؛ لأنَّ التشبيهَ بالغصنِ كافٍ ، فإذا زادَ فقالَ : كالغصنِ غيرَ مُعْوَجٍّ . . كانَ ذٰلكَ مِنْ بابِ التكلُّفِ ، وكانَ ذٰلكَ زيادةً يُستغنىٰ عنها ، وكذٰلكَ : (والدِّعصِ غيرَ مُهيَّلِ) لأنَّهُ إذا انهالَ . . خرجَ عن أن يكونَ مطلقُ التشبيهِ مصروفاً إليهِ ، فلا يكونُ لتقييدِهِ معنىً .

❁ ❁ ❁

وأمَّا قولُهُ :

مَا ٱلْحُسْنُ عِنْدَكِ يَا سُعَادُ بِمُحْسِنٍ ... فِيمَا أَتَاهُ وَلَا ٱلْجَمَالُ بِمُجْمِلِ
عُذِلَ ٱلْمَشُوقُ وَإِنَّ مِنْ سِيمَا ٱلْهَوَىٰ ... فِي حَيْثُ تَجْهَلُهُ لَجَاجَ ٱلْعُذَّلِ

قولُهُ في البيتِ الأوَّلِ : (عندكِ) حشوٌ ، وليسَ بواقعٍ ولا بديعٍ ، وفيهِ كلفةٌ ، والمعنى الذي قصدَهُ أنتَ تعلمُ أنَّهُ مُتكرِّرٌ علىٰ لسانِ الشعراءِ .

وفيهِ شيءٌ آخَرُ : أنَّهُ يذكرُ أنَّ حسنَها لم يحسنْ في تهييجِ وجدِهِ وتهييمِ قلبِهِ ، وضدُّ هٰذا المعنىٰ هوَ الذي يميلُ إليهِ أهلُ الهوىٰ والحبِّ ، وبيتُ كُشاجمَ أسلمُ مِنْ هٰذا وأبعدُ مِنَ الخَلَلِ ؛ وهوَ قولُهُ[1] : [من الكامل]

بِحَيَاةِ حُسْنِكِ أَحْسِنِي وَبِحَقِّ مَنْ جَعَلَ ٱلْجَمَالَ عَلَيْكِ وَقْفاً أَجْمِلِي

قلتُ : إنَّهُ لم يُوَفِّ الكلامَ علىٰ ثقلِ قولِهِ : (عندكِ) حقَّهُ ، فإنَّها لم تثقلْ لكونِها حشواً فقطْ ، بل هيَ غيرُ صحيحةِ الاستعمالِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُقالُ : الكتابُ الذي عندكَ مثلاً ، وأمَّا أن يُقالَ : الحسنُ الذي عندَكَ واللُّطفُ . . فلا ، وإنَّما يُقالُ : حسنُكَ ولطفُكَ ، أوِ الحسنُ الذي لكَ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فإنَّ قولَهُ : (في حيثُ) حشا بقولِهِ في كلامِهِ ، ووقعَ ذٰلكَ مستنكراً وحشيّاً ، نافراً عن طبعِهِ ، جافياً في وضعِهِ ، فهوَ كرقعةٍ مِنْ جلدٍ في ديباجٍ حسنٍ ، فهوَ يمحو حسنَهُ ، ويأتي علىٰ جمالِهِ .

ثمَّ في المعنىٰ شيءٌ ؛ لأنَّ لجاجَ العُذَّلِ لا يَدُلُّ علىٰ هوىٰ مجهولٍ ، ولو كانَ مجهولاً . . لم يهتدِ العُذَّلُ إليهِ ، فعُلِمَ أنَّ المَقصِدَ استجلابُ العباراتِ دونَ المعاني ، ثمَّ لو سَلِمَ مِنْ هٰذا الخَلَلِ . . لم يكنْ في البيتِ معنىً بديعٌ ولا شيءٌ يفوتُ قولَ الشُّعراءِ في العُذَّلِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ جملُهُمُ الذَّلولُ ، وقولُهُمُ المُكرَّرُ .

قلتُ : إنَّ البحتريَّ أخرجَ هٰذا البيتَ مُخرَجَ التأسُّفِ والتحسُّرِ وشكوى الحالِ في الهوىٰ ، وتقديرُ كلامِهِ : وإنَّ مِنْ سيما الهوىٰ ولوازمِهِ لجاجَ العُذَّلِ في حيثُ تجهلُهُ ، دونَ تأمُّلٍ في قُوَّةِ أسبابِ الهوىٰ وعذرِ صاحبِهِ ؛ فقد أدمجَ في كلامِهِ ما فَصَّلَهُ الآخَرُ حيثُ يقولُ[2] : [من مخلع البسيط]

أَبْصَرَهُ عَاذِلِي عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ قَبْلَ ذَا رَآهُ

(١) انظر « ديوان كُشاجم » (ص ٣٢٧) .

(٢) الأبيات لابن وكيع التنيسي ، كما في « وفيات الأعيان » (١٠٦/٢) .

فَـقَـالَ لِـي لَـوْ هَـوِيـتَ هَـٰذَا   مَـا لَامَـكَ ٱلـنَّـاسُ فِـي هَـوَاهُ
[فَـظَـلَّ] مِـنْ حَـيْـثُ لَـيْـسَ يَـدْرِي   [يَـأْمُـرُ] بِـٱلْـحُـبِّ مَـنْ نَـهَـاهُ

❁ ❁ ❁

وقولُهُ :

مَـاذَا عَـلَـيْـكَ مِـنِ ٱنْـتِـظَـارِ مُـتَـيَّـمٍ   بَـلْ مَـا يَـضُـرُّكَ وَقْـفَـةٌ فِـي مَـنْـزِلِ
إنْ سِيلَ عَيَّ عَنِ ٱلْجَوَابِ فَلَمْ يُطِقْ   رَجْعاً فَكَيْفَ يَكُونُ إِنْ لَمْ يُسْأَلِ

لستُ أنكرُ حسنَ البيتَينِ وظَرْفَهُما ، ورشاقتَهُما ولطفَهُما ، وماءَهُما وبهجتَهُما ، إلَّا أنَّ البيتَ الأولَ منقطعٌ عنِ الكلامِ المُتقدِّمِ ضرباً مِنَ الانقطاعِ ؛ لأنَّهُ لم يَجرِ لمشافهةِ العاذلِ ذكرٌ ، وإنَّما جرىٰ ذكرُ العُذَّالِ علىٰ وجهٍ لا يتصلُ هـٰذا البيتُ بهِ ولا يلائمُهُ .

ثمَّ الذي ذكرَهُ مِنَ الانتظارِ وإن كانَ مليحاً في اللفظِ . . فهوَ في المعنىٰ مُتكلَّفٌ ؛ لأنَّ الواقفَ في الدارِ لا ينتظرُ أمراً ، وإنَّما يقفُ تحسُّراً وتلذُّذاً وتحيُّراً ، والشطرُ الأخيرُ مِنَ البيتِ واقعٌ ، والأوَّلُ مستجلبٌ وفيهِ تعليقٌ علىٰ أمرٍ لم يَجرِ لهُ ذكرٌ ؛ لأنَّ وضعَ البيتِ يقتضي تقدُّمَ عذلٍ على الوقوفِ ، ولم يحصلْ ذٰلكَ مذكوراً في شعرِهِ مِنْ قبلُ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فإنَّهُ مُعلَّقٌ بالأوَّلِ ، لم يَستقِلَّ إلَّا بهِ ، وهُم يَعيبونَ وقوفَ البيتِ علىٰ غيرِهِ ، ويرونَ أنَّ البيتَ التامَّ هوَ المحمودُ ، والمِصراعَ التامَّ بنفسِهِ بحيثُ لا يقفُ على المِصراعِ الآخرِ أفضلُ وأتمُّ وأحسنُ .

وفيهِ شيءٌ آخرُ ؛ لأنَّهُ لا يصلحُ أن يكونَ السؤالُ سبباً لأن يعيا عنِ الجوابِ ، وظاهرُ القولِ يقتضيهِ .

❁ ❁ ❁

فأمَّا قولُهُ :

لَا تَكْلَفَنَّ لِيَ ٱلدُّمُوعَ فَإِنَّ لِي دَمْعاً يَنُمُّ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَفْضُلِ

وَلَقَدْ سَكَنْتُ مِنَ ٱلصُّدُودِ إِلَى ٱلنَّوَىٰ وَٱلشَّرْيُ أَرْيٌ عِنْدَ أَكْلِ ٱلْحَنْظَلِ

وَكَذَاكَ طَرْفَةُ حِينَ أَوْجَسَ ضَرْبَةً فِي ٱلرَّأْسِ هَانَ عَلَيْهِ فَصْدُ ٱلْأَكْحَلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ مخالفٌ لِمَا عليهِ مذهبُهُم في طلبِ الإسعادِ بالدموعِ ، والإسعافِ بالبكاءِ ، ومخالفٌ لأوَّلِ كلامِهِ ؛ لأنَّهُ يفيدُ مخاطبةَ العُذَّلِ ، وهٰذا يفيدُ مخاطبةَ الرفيقِ ، وقد بينتُ لكَ أنَّ القومَ يَسلكونَ حفظَ الألفاظِ وتصنيعَها ، دونَ ضبطِ المعاني وترتيبِها ، ولذٰلكَ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) ، فأخبرَ أنَّهُم يتَّبعونَ القولَ حيثُ تَوجَّهَ بهِم ، واللفظَ كيفَ أطاعَهُم ، والمعانيَ حيثُ تتبعُ ألفاظَهُم ، وذٰلكَ [خلافُ] ما وُضِعَ عليهِ الإبانةُ عنِ المقاصدِ بالخطابِ .

ثمَّ لو أنَّ هٰذا البيتَ وما يتلوهُ مِنَ البيتَينِ سَلِمَ مِنْ نحوِ هٰذا . . لم يكنْ في ذٰلكَ شيءٌ يفوتُ شعرَ شاعرٍ أو كلامَ مُتكلِّمٍ .

وأمَّا قولُهُ : (والشريُ أريٌ) . . فإنَّهُ وإن كانَ قد تصَنَّعَ لهُ مِنْ جهةِ الطِّباقِ ، ومِنْ جهةِ التجنيسِ المقاربِ . . فهيَ كلمةٌ ثقيلةٌ على اللسانِ ، وهُم يَذمُّونَ نحوَ هٰذا ، كما عابوا علىٰ [أبي] تمامٍ قولَهُ (٢) : [من الطويل]

كَرِيمٌ مَتَىٰ أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَىٰ مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

ذكرَ لي الصاحبُ ابنُ عبادٍ : أنَّهُ جارى الفضلَ بنَ العميدِ في محاسنِ

---

(١) سورة الشعراء : (٢٢٤ ـ ٢٢٦) .

(٢) انظر « ديوان أبي تمام » (١١٦/٢) .

القصيدةِ حتى انتهىٰ إلىٰ هٰذا البيتِ ، فذكرَ لهُ : أنَّ قولَهُ : (أمدحْهُ) معيبٌ ؛ لثقلِهِ مِنْ جهةِ تداركِ حروفِ الحلقِ .

ثمَّ رأيتُ بعدَ ذٰلكَ المُتقدِّمينَ تَكلَّموا في هٰذهِ النكتةِ ، فعلمتُ أنَّ ذٰلكَ شيءٌ عندَ أهلِ الصَّنعةِ معروفٌ .

ثمَّ إنَّ قولَهُ : (عندَ أكلِ الحنظلِ) ليسَ بحسنٍ ولا واقعٍ .

وأمَّا البيتُ الثالثُ . . فهوَ أجنبيٌّ مِنْ كلامِهِ ، غريبٌ في طباعِهِ ، نافرٌ مِنْ جملةِ شعرِهِ ، وفيهِ كزازةٌ وفجاجةٌ ، وإن كانَ المعنىٰ صالحاً .

قلتُ : إنَّ العاذلَ هوَ الرفيقُ ، وما يَصدرُ منهُ يكونُ في رأيِهِ نصيحةً توجبُها الشفقةُ ، وهوَ عندَ المُحِبِّ عذلٌ ، إلَّا أنَّ استحسانَ الشيخِ قولَهُ : (ماذا عليكَ مِنِ انتظارِ) . . لم تظهرْ إصابتُهُ ؛ فإنَّ في معناهُ ـ جرياً علىٰ شدَّةِ مناقشتِهِ ـ نوعاً مِنَ الخَلَلِ ؛ وذٰلكَ أنَّهُ يدَّعي أن ليسَ على الرفيقِ ضررٌ في وقوفِهِ بالمنزلِ ، وكيفَ ولهُ أن يقولَ : عليَّ في ذٰلكَ إضاعةُ الوقتِ في غيرِ طائلٍ ، وثقلُ الشغلِ بغيرِ شاغلٍ ، ثمَّ إنَّ قولَهُ : (إن سِيلَ عيَّ عنِ الجوابِ) كونُهُ حُجَّةً للعاذلِ أَولىٰ مِنْ أن يكونَ عليهِ ، وأمَّا قولُهُ : (وكذاكَ طرفةُ) . . فهوَ منتظمٌ معَ سابقِهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ نوعِ اختيارِ أخفِّ الضَّررَينِ ، وضربُ المثلِ بهِ صحيحٌ ، وبديعُ التلميحِ بالقصَّةِ المشهورةِ داعٍ لإيرادِهِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا قولُهُ :

وَأَغَرَّ فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ	قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَىٰ أَغَرَّ مُحَجَّلِ
كَٱلْهَيْكَلِ ٱلْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ	فِي ٱلْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ لم يتفقْ لهُ فيهِ خروجٌ حسنٌ ، بل هوَ مقطوعٌ عمَّا سلفَ

مِنَ الكلامِ ، وعامَّةُ خروجِهِ نحوُ هٰذا ، وهوَ غيرُ بارعٍ في هٰذا البابِ ، وهٰذا مذمومٌ معيبٌ منهُ ؛ لأنَّ مَنْ كانَ صناعتُهُ الشعرَ وهوَ يأكلُ بهِ ، وتغافلَ عمَّا يدفعُ إليهِ في كلِّ قصيدةٍ ، واستهانَ بأحكامِهِ وتجويدِهِ ، معَ تتبُّعِهِ للصَّنعةِ الكثيرةِ ، وتركيبِ العباراتِ ، وتنقيحِ الألفاظِ وتزويرِها . . كانَ ذٰلكَ أدخلَ في عيبِهِ ، وأدلَّ علىٰ تقصيرِهِ أو قصورِهِ .

وأمَّا قولُهُ : (وأغرَّ فِي الزمنِ البهيمِ مُحجَّلٍ) . . فإنَّ ذكرَ التحجيلِ في الممدوحِ ليسَ بالجيدِ ، وقد يمكنُ أن يُقالَ : إنَّهُ إذا قُرِنَ بالأغرِّ . . حَسُنَ ، وجرىٰ مَجراهُ ، وانخرطَ في سلكِهِ ، وأهوىٰ إلىٰ مِضمارِهِ ، ولم ينكرْ ؛ لمكانِ مَنْ [جاورَهُ] . . فهٰذا عذرٌ ، والعُدولُ عنهُ أحسنُ .

وإنَّما أرادَ أن يَرُدَّ العجزَ [على] الصَّدرِ ، ويأتيَ بوجهٍ في التجنيسِ .

قلتُ : وكيفَما كانَ . . فالتحجيلُ في كلامِهِ لم يقعْ موقعَهُ في قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : « أَنْتُمُ ٱلْغُرُّ ٱلْمُحَجَّلُونَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنْ آثَارِ ٱلْوُضُوءِ » (١) ؛ فالغرَّةُ والتحجيلُ فيهِ حقيقيانِ ، ويستتبعانِ شرفَ الشهرةِ ، والغرَّةُ في كلامِهِم لمجرَّدِ الشهرةِ ، وظهورِ التميزِ ، وجلالةِ القدرِ ، فهوَ كقولِهِم (٢) : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

وفيهِ شيءٌ ؛ لأنَّ ظاهرَ كلامِهِ يوهمُ أنَّهُ قد صارَ ممتطياً الأغرَّ الأوَّلَ ورائحاً عليهِ ؛ يعني : أنَّ (مِنِ) التجريديةَ لكثرةِ استعمالِها في الشعرِ . . تكونُ أسرعَ تمثُّلاً للوهمِ مِنْ [مِنِ] الابتدائيةِ التي هيَ المرادةُ ، والدقةُ تقتضي التحرُّزَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦) ، ومسلم (٢٤٦) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) هو لأبي طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم . انظر « صحيح البخاري » (١٠٠٨ ـ ١٠٠٩) ، والبيت بتمامه :

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ ٱلْيَتَامَىٰ عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

عن مثلِهِ ، ولو سلمَ مِنْ ذٰلكَ . . لم يكنْ فيهِ ما يفوتُ حدودَ الشعراءِ وأقاويلَ الناسِ .

فأمَّا ذكرُ الهيكلِ في البيتِ الثاني ، وردُّهُ عجزَ البيتِ عليهِ ، وظنُّهُ أنَّهُ قد ظفرَ بهٰذهِ اللفظةِ وعملَ شيئاً حتىٰ كَرَّرَها . . فهيَ كلمةٌ فيها ثقلٌ ، ونحنُ نجدُهُم إذا أرادوا أن يصفوا بنحوِ هٰذا . . قالوا : ما هوَ إلَّا صورةٌ ، وما هوَ إلَّا تِمثالٌ ، وما هوَ إلَّا دميةٌ ، وما هوَ إلَّا ظبيةٌ ، ونحوَ ذٰلكَ مِنَ الكلماتِ الخفيفةِ على القلبِ واللسانِ .

وقدِ استدركَ هوَ أيضاً علىٰ نفسِهِ ، فذكرَ أنَّهُ كصورةٍ في هيكلٍ ، ولوِ اقتصرَ علىٰ ذكرِ الصُّورةِ وحذفَ الهيكلَ . . كانَ أَولىٰ وأجملَ .

ولو أنَّ هٰذهِ الكلمةَ كَرَّرَها أصحابُ العزائمِ على الشياطينِ . . لراعُوهُم بها ، وأفزعوهُم بذكرِها ، وذٰلكَ مِنْ كلامِهِم ، وشبيهٌ بصناعتِهِم .

❋ ❋ ❋

وأمَّا قولُهُ :

وَافِي ٱلضُّلُوعِ يَشُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ ... يَوْمَ ٱللِّقَاءِ عَلَىٰ مُعِمٍّ مُخْوِلِ
أَخْوَالُهُ لِلرُّسْتَمَيْنِ بِفَارِسٍ ... وَجُدُودُهُ لِلتُّبَّعَيْنِ بِمَوْكِلِ

نبلُ المحزمِ ممَّا يمدحُ بِهِ الخيلُ ، فهوَ لم يأتِ فيهِ ببديعٍ .

وقولُهُ : (يشدُّ عقدَ حزامِهِ) داخلٌ في التكلُّفِ والتعسُّفِ ، لا يُقبَلُ مِنْ مثلِهِ وإن قبلناهُ مِنْ غيرِهِ ؛ لأنَّهُ يتبعُ الألفاظَ وينقدُها نقداً شديداً ، فهلَّا قالَ : يشدُّ حزامَهُ ، أو يأتي بحشوٍ آخرَ سوى العقدِ ؟! فقد عَقَّدَ هٰذا البيتَ بذكرِ العقدِ .

ثمَّ قولُهُ : (يومَ اللقاءِ) حشوٌ آخَرُ لا يُحتاجُ إليهِ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فمعناهُ أصلحُ مِنْ ألفاظِهِ ؛ لأنَّها غيرُ مجانسةٍ لطباعِهِ ، وفيها غلظٌ ونفارٌ .

﴿﴾

وأمَّا قولُهُ :

يَهْوِي كَمَا تَهْوِي ٱلْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ ... صَيْداً وَيَنْتَصِبُ ٱنْتِصَابَ ٱلْأَجْدَلِ

مُتَوَجِّسٌ بِرَقِيقَتَيْنِ كَأَنَّمَا ... تُرَيَانِ مِنْ وَرَقٍ عَلَيْهِ مُوَصَّلِ

مَا إِنْ يَعَافُ قَذىً وَلَوْ أَوْرَدْتَهُ ... يَوْماً خَلَائِقَ حَمْدَوَيْهِ ٱلْأَحْوَلِ

البيتُ الأوَّلُ صالحٌ وقد قالَهُ الناسُ ولم يَسبِقْ إليهِ ، ولم يقلْ ما لم يقولوهُ ، بل هوَ منقولٌ .

وفي سرعةِ عدْوِ الفرسِ تشبيهاتٌ ليسَ هٰذا بأبدعِها ، وقد يقولونَ : يفوتُ الطرفَ ، ويسبقُ الريحَ ، ويجاري الوهمَ ، ولولا أنَّ الإتيانَ علىٰ محاسنِ ما قالوهُ في ذٰلكَ يُخرِجُ الكلامَ عن غرضِ الكتابِ . . لنقلتُ لكَ جملةً ممَّا ذهبوا إليهِ في هٰذا المعنىٰ ، فتَعَلَّمَ أنَّهُ لم يأتِ منها بما يَجِلُّ عنِ الوصفِ ، أو يفوتُ منتهى الحدِّ ، علىٰ أنَّ الهُوِيَّ يذكرُ عندَ الانقضاضِ خاصَّةً ، وليسَ للفرسِ هٰذهِ الصفةُ في الحقيقةِ إلَّا أن يُشبِّهَ جدَّهُ في العدوِ بحالةِ انقضاضِ البازي والعُقابِ ، وليسَتْ تلكَ الحالةُ بأسرعِ أحوالِ طيرانِها .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فقولُهُ : إنَّ الأذنينِ كأنَّهُما من ورقٍ مُوصَّلٍ ، وإنَّما أرادَ بذٰلك حِدَّتَهُما ، وسرعةَ حركتِهما ، وإحساسَهُما بالصَّوتِ كما يحسُّ الورقُ بحفيفِ الريحِ ، وظاهرُ التشبيهِ غيرُ واقعٍ ، وإذا ضمنَ ما ذكرنا مِنَ المعنىٰ . . كانَ المعنىٰ حسناً ، ولٰكنْ لا يَدُلُّ عليهِ اللفظُ .

وليسَ هٰذا البيتُ برائقِ اللفظِ ، ولا مشاكلٍ فيهِ لطبعِهِ ، غيرَ قولِهِ : (متوجسٌ برقيقتَينِ) فإنَّ هٰذا القدرَ حسنٌ .

وأمَّا البيتُ الثالثُ . . فقد ذكرنا فيما مضىٰ مِنَ الكتابِ أنَّهُ مِنْ بابِ الاستطرادِ ، ونقلنا نظائرَ ذٰلكَ مِنْ قولِ أبي تمامٍ وغيرِهِ ، وقطعةُ أبي تمامٍ في نهايةِ الحسنِ في هٰذا المعنىٰ .

والذي وقعَ للبحتريِّ في هٰذا البيتِ عندي ليسَ بجيدٍ في لفظٍ ولا معنىً ، وهوَ بيتٌ وَحِشٌ جداً ، قد صارَ قذىً في عينِ هٰذهِ القصيدةِ ، بل وَخْزاً فيها ووبالاً عليها ، قد كَدَّرَ صفاءَها ، وأذهبَ بهاءَها وماءَها ، وطمسَ بظلمتِهِ سناها ، وما وجهُ مدحِ الفرسِ بأنَّهُ لا يَعافُ قذىً مِنَ المياهِ إذا وردَها ؟! كأنَّهُ أرادَ أن يسلكَ مسلكَ بشارٍ في قولِهِ[1] : [من المتقارب]

وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وإذا كانَ لهٰذا البابِ مجانباً ، وعن هٰذا السَّمتِ بعيداً . . فهلا وصفَهُ بعزَّةِ الشربِ كما وصفَهُ المتنبي في قولِهِ[2] : [من الطويل]

وَصُولٌ إِلَى ٱلْمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ فَلَوْ كَانَ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ مَاءً لَأَوْرَدَا

وهلَّا سلكَ فيهِ مسلكَ القائلِ : [من الطويل]

وَإِنِّيَ لِلْمَاءِ ٱلَّذِي شَابَهُ ٱلْقَذَىٰ إِذَا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيُوفُ

ثمَّ [قولُهُ] : (ولو أوردتُهُ يوماً) حشوٌ باردٌ .

ثمَّ قولُهُ : (حمدويهِ الأحولِ) وَحِشٌ جداً ، فما أمقتَ هٰذا البيتَ وأبغضَهُ !! وما أثقلَهُ وأسخفَهُ !! وإنَّما غطَّىٰ علىٰ عينِهِ عيبَهُ ، وزَيَّنَ لهُ إيرادَهُ . . طمعُهُ في الاستطرادِ ، وهلَّا طمعَ فيهِ علىٰ وجهٍ لا يَغُضُّ مِنْ بهجةِ كلامِهِ ، ولا معنىٰ ألفاظِهِ ؟! فقد كانَ يمكنُ ذٰلكَ ، ولا يَتعذَّرُ .

---

(١) انظر « ديوان بشار بن برد » (٤/١٨٢) ، والبيت بتمامه :

فَتىً لَا يَنَامُ عَلَىٰ ثَأْرِهِ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

(٢) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٢٨٠) .

قولُ الشيخِ [١] : (فهلا وصفَهُ بعِزَّةِ الشربِ) وإيرادُ بيتِ المتنبي . . عجيبٌ !! فإنَّ ذٰلكَ ليسَ مِنْ صفةِ الفرسِ بعِزَّةِ الشربِ ، وإنَّما هوَ مِنْ صفةِ الممدوحِ بأنَّهُ يطلبُ معاليَ الأمورِ ، وأبعدَ درجاتِ المجدِ ، وأنَّهُ يصلُ إلىٰ ما قصدَ منها ، وبالغَ في ذٰلكَ حتىٰ جعلَهُ قادراً علىٰ أن يوردَ خيلَهُ الشمسَ لو صلحَتْ لذٰلكَ ، وليسَ معناهُ أنَّهُ يَتخيَّرُ لخيلِهِ المُستقىٰ ، وقطعةُ أبي تمامٍ التي يقولُ الشيخُ أنَّهُ أوردَها في ضمنِ ما سبقَ مِنْ كلامِهِ في نوعِ الاستطرادِ ؛ فهيَ فيما حكاهُ بقولِهِ [٢] : كتبَ لي الحسنُ بنُ عبدِ اللهِ قالَ : أخبرَني محمدُ بنُ يحيىٰ ، حدَّثَني محمدُ بنُ عليٍّ الأنباريُّ قالَ : سمعتُ البحتريَّ يقولُ : أنشدَني أبو تمامٍ لنفسِهِ [٣] : [من البسيط]

وَسَابِحٍ هَطِلِ ٱلتَّعْدَاءِ هَتَّانِ ... عَلَى ٱلْجِرَاءِ أَمِينٍ غَيْرِ خَوَّانِ
أَظْمَى ٱلْفُصُوصِ وَلَمْ تَظْمَأْ قَوَائِمُهُ ... فَخَلِّ عَيْنَيْكَ فِي رَيَّانَ ظَمْآنِ
وَلَوْ تَرَاهُ مُشِيحاً وَٱلْحَصَىٰ فِلَقٌ ... بَيْنَ ٱلسَّنَابِكِ مِنْ مَثْنىً وَوُحْدَانِ
أَيْقَنْتَ أَنْ لَمْ تَثَبَّتْ أَنَّ حَافِرَهُ ... مِنْ صَخْرِ تَدْمُرَ أَوْ مِنْ وَجْهِ عُثْمَانِ

وقالَ لي : ما هٰذا مِنَ الشعرِ ؟ قلتُ : لا أدري ، قالَ : هٰذا المستطردُ ، أو قالَ : الاستطرادُ ، قلتُ : وما معنىٰ ذٰلكَ ؟ قالَ : يُرِي أنَّهُ يصفُ الفرسَ ويريدُ هجاءَ عثمانَ ، فقالَ : وقالَ البحتريُّ :

مَا إِنْ يَعَافُ قَذىً وَلَوْ أَوْرَدْتَهُ ... يَوْماً خَلَائِقَ حَمْدَوَيْهِ ٱلْأَحْوَلِ

قالَ : فقيلَ للبحتريِّ : إنَّكَ أخذتَ هٰذا مِنْ أبي تمامٍ ، فقالَ : ما يُعابُ عليَّ أن آخذَ منهُ وأتبعَهُ فيما يقولُ ؟!

---

(١) أراد المؤلفُ الإمامَ الباقلانيَّ .
(٢) انظر « إعجاز القرآن » (ص ١٠٤ ـ ١٠٥) .
(٣) انظر « ديوان أبي تمام » (٤/٤٣٤) .

قلتُ : وإذا كانوا يجعلونَ مِنْ أدبِ الفرسِ أنَّهُ يَرِدُ ما أُورِدَ ، لا يَتخيَّرُ مورداً دونَ موردٍ ، وبذٰلكَ يقوى الانتفاعُ بهِ ، وتشتدُّ الثقةُ بصحبتِهِ في الأسفارِ ومضايقِ الأمورِ ، كما هوَ أدبٌ في الإنسانِ أيضاً . . لم يكنْ لانتقادِ الشيخِ موضعٌ ، وقولُهُ : (ولو أوردتَهُ) هيَ العبارةُ التي يَحسُنُ أن يَتوصَّلَ بها إلى الهجاءِ ، ولفظُ (حمدويهِ الأحولِ) اسمُ المَهجوِّ وصفتُهُ ، لا يمكنُ تبديلُهُما ، فإذاً لا عيبَ في البيتِ .

❊ ❊ ❊

فأمَّا قولُهُ :

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ ٱلرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَٱلْقِنَاعِ ٱلْمُسْبَلِ
تُتَوَهَّمُ ٱلْجَوْزَاءُ فِي أَرْسَاغِهِ وَٱلْبَدْرُ فَوْقَ جَبِينِهِ ٱلْمُتَهَلِّلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ وَحِشُ الابتداءِ ، مُنقطِعٌ عمَّا سبقَ مِنَ الكلامِ ، وقد ذكرنا أنَّهُ لا يهتدي لوصلِ الكلامِ ، ونظامِ بعضِهِ إلىٰ بعضٍ ، وإنَّما يَتصنَّعُ لغيرِ هٰذا الوجهِ ، وكانَ مِنْ سبيلِهِ ألَّا يخفىٰ عليهِ ، ولا يذهبَ عن مثلِهِ .

ثمَّ قولُهُ : (كما سُحِبَ الرداءُ) قبيحٌ في تحقيقِ التشبيهِ ، وليسَ بواقعٍ ولا مستقيمٍ في العبارةِ ، إلَّا علىٰ إضمارِ أنَّهُ ذنبٌ يسحبُهُ كما يُسحَبُ [الرداءُ] .

وقولُهُ : (يذبُّ عن عُرفٍ) ليسَ بحسنٍ ولا صادقٍ ، والمحمودُ ما ذكرَهُ امرُؤُ القيسِ ، وهوَ قولُهُ في صفةِ الذنبِ [(١)] : [من الطويل]

ضَافٍ فُوَيْقَ ٱلْأَرْضِ . . . .

وأمَّا قولُهُ : (تُتوهَّمُ الجوزاءُ في أرساغِهِ) فهوَ تشبيهٌ مليحٌ ، ولٰكنَّهُ لم

---

(١) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٢٣) ، والبيت بتمامه :

وَأَنْتَ إِذَا ٱسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ ٱلْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعْزَلِ

يَسْبِقْ إليهِ ، ولا انفردَ بهِ ، ولو نسختُ لكَ ما قالَهُ الشُّعراءُ في تشبيهِ الغرةِ بالهلالِ والبدرِ والنجمِ وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الأمورِ ، وتشبيهِ الحجولِ . . لتعجَّبتَ مِنْ بدائعَ قد وقعوا عليها ، وأمورٍ مليحةٍ قد ذهبوا إليها ، وليسَ ذٰلكَ موضوعَ كلامِنا ، فتتبعْ ذٰلكَ في أشعارِهِم ؛ لتعلمَ ما وصفتُ لكَ .

واعلمْ : أنَّا تركنا بقيةَ كلامِهِ في وصفِ الفرسِ ؛ لأنَّهُ ذكرَ عشرينَ بيتاً في ذٰلكَ ، والذي ذكرناهُ في المعنىٰ يدلُّ علىٰ ما بعدَهُ ، ولا يعدو ما تركناهُ أن يكونَ مُتوسّطاً إلىٰ حدٍّ [لا] يفوتُ طريقةَ الشُّعراءِ .

ولو تتبعتَ أقاويلَ الشُّعراءِ في وصفِ الخيلِ . . علمتَ أنَّهُ وإن جمعَ فأوعىٰ ، وحشرَ فنادىٰ . . **ففيهِم** : مَنْ سبقَهُ في ميدانِهِ ، **ومنهُم** : مَنْ ساواهُ في شأوِهِ ، **ومنهُم** : مَنْ داناهُ ، فالقبيلُ واحدٌ ، والنسيجُ متشاكلٌ ، ولولا كراهةُ التطويلِ . . لنقلتُ جملةً مِنْ أشعارِهِم في ذٰلكَ ؛ لتقفَ علىٰ ما قلتُ .

فتجاوزنا إلى الكلامِ علىٰ ما قالَهُ في المدحِ في هٰذه القصيدةِ ، **قالَ** :

لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلشَّرَفُ ٱلَّذِي   لَا يَلْحَظُ ٱلْجَوْزَاءَ إِلَّا مِنْ عَلِ
وَسَمَاحَةٌ لَوْلَا تَتَابُعُ مُزْنِهَا   فِينَا لَرَاحَ ٱلْمُزْنُ غَيْرَ مُبَخَّلِ
وَٱلْجُودُ يَعْذِلُهُ عَلَيْهِ حَاتِمٌ   سَرَفاً وَلَا جُودٌ لِمَنْ لَمْ يُعْذَلِ

البيتُ الأوَّلُ منقطعٌ عمَّا قبلَهُ علىٰ ما وصفنا بهِ شعرَهُ مِنْ قطعِهِ المعانيَ ، وفصلِهِ بينَها ، وقِلَّةِ تأتيهِ لتجويدِ الخروجِ والوصلِ ، وذٰلكَ نقصانٌ في الصِّناعةِ ، وتخلُّفٌ في البراعةِ ، وهٰذا إذا وقعَ في مواضعَ قليلةٍ . . عُذِرَ فيها ، وأمَّا إذا كانَ بناءُ الغالبِ مِنْ كلامِهِ علىٰ هٰذا . . فلا عذرَ لهُ .

وأمَّا المعنى الذي ذكرَهُ . . فليسَ بشيءٍ ممَّا سَبَقَ إليهِ ، وهوَ شيءٌ مُشتركٌ

فيهِ ، وقد قالوا في نحوِهِ الكثيرَ الذي يَصعُبُ نقلُ جميعِهِ ، وفي المعنىٰ قالَ المتنبي [1] : [من البسيط]

وَعَـزْمَـةٌ بَـعَـثَـتْـهَـا هِـمَّـةٌ زُحَـلٌ   مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ ٱلتُّرْبِ مِنْ زُحَلِ

قلتُ : لا معنىٰ لإيرادِ قولِ المتنبي معَ تأخُّرِهِ عنِ البحتريِّ ، وكانَ عليهِ حيثُ أرادَ أن يذكرَ شيئاً مِنْ كلامِ المُتقدِّمينَ كأن يقولَ : قالَ زهيرٌ مثلاً ، وينقلَ مثلَ قولِهِ [2] : [من البسيط]

لَوْ كَانَ يُقْعَدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ   قَـوْمٌ بِـأَوَّلِـهِـمْ أَوْ مَـجْـدِهِـمْ قَـعَـدُوا

وأيـنَ زحـلٌ فـي كـلامِ المتنبي مِـنَ الـجـوزاءِ في كـلامِ الـبـحـتريِّ ؟! قالَ الشيخُ [3] : وحدَّثَنِي إسماعيلُ بنُ عبادٍ أنَّهُ رأىٰ أبا الفضلِ بنَ العميدِ قامَ لرجلٍ ، ثمَّ قالَ لِمَنْ حضرَهُ : أتدرونَ مَنْ هٰذا ؟ ثمَّ قالَ : هٰذا الذي قالَ في أبيهِ البحتريُّ :

لِـمُـحَـمَّـدِ بْـنِ عَـلِـيٍّ ٱلـشَّـرَفُ ٱلَّـذِي

فذٰلكَ منهُ استعظامٌ للبيتِ بما مُدِحَ بهِ مِنَ البيتِ .

والبيتُ الثاني في تشبيهِ جودِهِ بالسحابِ قريبٌ ، وهوَ حديثٌ مُكرَّرٌ ، ليسَ يَنفكُّ مديحُ شاعرٍ منهُ ، وكانَ مِنْ سبيلِهِ أن يبدعَ فيهِ زيادةَ إبداعٍ ، كما قد يقعُ لهُم في نحوِ هٰذا ، ولٰكنْ لم يَتصنَّعْ لهُ ، وأرسلَهُ إرسالاً .

والبيتُ الثالثُ وإن كانَ معناهُ مُكرَّراً . . فلفظُهُ مُضطرِبٌ بالتأخيرِ والتقديمِ ، يشبهُ ألفاظَ المبتدئينَ ؛ يعني : أنَّ ترتيبَ الكلامِ هٰكذا : والجودُ سرفاً يعذلُهُ حاتمٌ عليهِ ؛ وذٰلكَ أنَّ (سرفاً) يجبُ أن يكونَ مفعولاً مطلقاً للجودِ ؛ أي :

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٢١٢) .

(٢) انظر « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص ٢٠٤) .

(٣) انظر « إعجاز القرآن » (ص ٢٣٣) وما بعدها .

والجودُ جودُ سرفٍ ، ولا يَصِحُّ أن يكونَ مفعولاً لهُ لـ (يعذلُ) لعدمِ اتحادِ الفاعلِ .

وأمَّا قولُهُ :

فَضْلٌ وَإِفْضَالٌ وَمَا أَخَذَ ٱلْمَدَىٰ بَعْدَ ٱلْمَدَىٰ كَٱلْفَاضِلِ ٱلْمُتَفَضِّلِ
سَارٍ إِذَا ٱدَّلَجَ ٱلْعُفَاةُ إِلَى ٱلنَّدَىٰ لَا يَصْنَعُ ٱلْمَعْرُوفَ غَيْرَ مُعَجَّلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ مُنقطِعٌ عمَّا قبلَهُ ، وليسَ فيهِ شيءٌ غيرَ التجنيسِ الذي ليسَ ببديعٍ ؛ لتكرُّرِهِ على كلِّ لسانٍ ، وقولُهُ : (ما أخذَ المدىٰ) فإنَّهُ لفظٌ مليحٌ ، وهوَ كقولِ امرئِ القيسِ (١) : [من الطويل]

سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالاً عَلَىٰ حَالِ

ولٰكنَّها طريقةٌ مذللةٌ ، فهوَ فيها تابعٌ .

وأمَّا البيتُ الثاني . . فقريبٌ في اللفظِ والمعنىٰ ، وقولُهُ : (لا يصنعُ المعروفَ) ليسَ بلفظٍ محمودٍ .

قلتُ : لم يصبِ الشيخُ في دعواهُ انقطاعَ البيتِ عن سابقِهِ ؛ فإنَّهُ إجمالٌ لهُ ، وجمعٌ لمُفصَّلِهِ ؛ فإنَّهُ لمَّا ذكرَ الشَّرفَ وكرمَ الأعمالِ . . عقَّبَ ذٰلكَ بقولِهِ : إنَّهُ جامعٌ بينَ الفضلِ والإفضالِ ، لا كمَنْ يَنفرِدُ بأحدِهِما .

وأمَّا قولُهُ :

عَالٍ عَلَىٰ نَظَرِ ٱلْحَسُودِ كَأَنَّمَا جَذَبَتْهُ أَفْرَادُ ٱلنُّجُومِ بِأَحْبُلِ

---

(١) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٣١) ، والبيت بتمامه :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَمَا نَامَ أَهْلُهَا سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالاً عَلَىٰ حَالِ

أَوَمَا رَأَيْتَ ٱلْمَجْدَ أَلْقَىٰ رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

. . فالبيتُ الأوَّلُ مُنكَرٌ جدّاً في جرِّ النجومِ بالأحبلِ [مِنْ] موضعِهِ إلى العُلُوِّ ، والتكلُّفُ فيهِ واقعٌ .

والبيتُ الثاني أجنبيٌّ عنهُ ، بعيدٌ منهُ ، وافتتاحُهُ رديءٌ ، وما وجهُ الاستفهامِ والتقريرِ والاستبانةِ [والتوقيفِ] [والبيتانِ] أجنبيانِ مِنْ كلامِهِ ، غريبانِ في قصيدتِهِ ، ولم يقعْ لهُ في المدحِ في هٰذهِ القصيدةِ شيءٌ جيدٌ ، ألا ترىٰ أنَّهُ قالَ بعدَ ذٰلكَ :

نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ فَتىً يُوفِي عَلَىٰ ظُلَمِ ٱلْخُطُوبِ فَتَنْجَلِي

إِنِّي أُرِيدُ أَبَا سَعِيدٍ وَٱلْعِدَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَحَابِهِ ٱلْمُتَهَلِّلِ

كأَنَّ هٰذا ليسَ مِنْ طبعِهِ ، ولا مِنْ سبكِهِ .

❁ ❁ ❁

وقولُهُ :

مُضَرُ ٱلْجَزِيرَةِ كُلُّهَا وَرَبِيعَةُ ٱلْـ ـخَابُورِ تُوعِدُنِي وَأَزْدُ ٱلْمَوْصِلِ

قَدْ جُدْتَ بِٱلطِّرْفِ ٱلْجَوَادِ فَثَنِّهِ لِأَخِيكَ مِنْ أُدَدٍ أَبِيكَ بِمُنْصُلِ

البيتُ الأوَّلُ حسنُ المعنىٰ وإن كانَتْ ألفاظُهُ بذكرِ الأماكنِ لا يتأتَّىٰ فيهِ التحسينُ ، وهٰذا المعنىٰ قد يمكنُ إيرادُهُ بأحسنَ مِنْ هٰذا اللفظِ وأبدعَ منهُ وأرقَّ منهُ ؛ كقولِهِ (١) : [من الوافر]

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

والبيتُ الثاني قد تعذَّرَ عليهِ وصلُهُ بما سبقَ مِنَ الكلامِ علىٰ وجهٍ

(١) تقدم (٣/٤٦٠) .

يلطفُ وهوَ قبيحُ اللفظِ حيثُ يقولُ فيهِ : (فثنِّهِ لأخيكَ مِنْ أددٍ أبيكَ) ، مِنْ أخذِهِ بهٰذا التعرُّضِ لهٰذا السَّجعِ ، وذكرِ هٰذا النَّسبِ ، حتىٰ أفسدَ بهِ شعرَهُ .

في قولِ الشيخِ : (وهٰذا المعنىٰ يمكنُ . . .) إلىٰ آخرِهِ . . نظرٌ .

وأمَّا قولُهُ بعدَ ذٰلكَ في وصفِ السيفِ ، يقولُ :

يَتَنَاوَلُ ٱلرُّوحَ ٱلْبَعِيدَ مَنَالُهُ ... عَفْواً وَيَفْتَحُ فِي ٱلْقَضَاءِ ٱلْمُقْفَلِ
بِإِنَارَةٍ فِي كُلِّ حَتْفٍ مُظْلِمٍ ... وَهِدَايَةٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ مَجْهَلِ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ ... بَطَلٍ وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ

ليسَ لفظُ البيتِ الأوَّلِ بُمضاهٍ لديباجةِ شعرِهِ ، ولا لهُ بهجةُ نظمِهِ ؛ لظهورِ أثرِ التكلُّفِ عليهِ ، وتبيُّنِ الثقلِ فيهِ .

وأمَّا القضاءُ المقفلُ وفتحُهُ . . فكلامٌ غيرُ محمودٍ ولا مرضيٍّ ، واستعارةٌ لو لم يستعرْها . . كانَ أَولىٰ بهِ ، وهلَّا عِيبَ عليهِ كما عِيبَ علىٰ أبي تمامٍ قولُهُ (١) : [من الخفيف]

فَضَرَبْتَ ٱلشِّتَاءَ فِي أَخْدَعَيْهِ ... ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْداً رَكُوبَا

وقالوا : يَستحِقُّ بهٰذهِ الاستعارةِ أن يُصفَعَ في أخدعَيهِ ، وقدِ اتَّبَعَهُ البحتريُّ في استعارةِ الأخدعِ وُلوعاً باتِّباعِهِ ، فقالَ في الفتحِ (٢) : [من الطويل]

وَأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ ٱلْمَطَامِعِ أَخْدَعِي

---

(١) انظر « ديوان أبي تمام » (١/١٦٦) .
(٢) انظر « ديوان البحتري » (٢/١٢٤١) ، والبيت في الفتح بن خاقان ، وهو بتمامه :
وَإِنِّي وَإِنْ بَلَّغْتَنِي شَرَفَ ٱلْعُلَا ... وَأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ ٱلْمَطَامِعِ أَخْدَعِي

أي : فإنَّ العادةَ أن يُقالَ : أعتقتَني أو أعتقتَ عنقي ، قالَ الشيخُ : إنَّ شيطانَهُ ـ حيثُ زَيَّنَ لهُ هٰذه الكلمةَ ، وتابعَهُ حينَ حَسَّنَ عندَهُ هٰذِهِ اللفظةَ ـ لخبيثٌ ماردٌ ، ورديءٌ معاندٌ ، أرادَ أن يطلقَ أعنَّةَ الذمِّ فيهِ ، ويُسَرِّحَ جيوشَ العتبِ إليهِ ، ولم يقنعْ بقفلِ القضاءِ حتىٰ جعلَ للحتفِ ظُلمةً تُجلىٰ بالسيفِ ، وجعلَ السيفَ هادياً في النفسِ المَجْهَلِ الذي لا يُهتدىٰ إليهِ ، وليسَ في هٰذا معَ تحسينِ اللفظِ وتنميقِهِ شيءٌ ؛ لأنَّ السلاحَ وإن كانَ معيباً فإنَّهُ يهتدي إلى النفسِ ، وكانَ يجبُ أن يبدعَ في هٰذا إبداعَ المتنبي في قولِهِ(١) : [من الوافر]

كَأَنَّ ٱلْهَامَ فِي ٱلْهَيْجَا عُيُونٌ وَقَدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ مِنْ رُقَادِ
وَقَدْ صُغْتَ ٱلْأَسِنَّةَ مِنْ هُمُومٍ فَمَا يَخْطُرْنَ إِلَّا فِي فُؤَادِ

فالاهتداءُ علىٰ هٰذا الوجهِ في التشبيهِ بديعٌ حسنٌ .

وفي البيتِ الأولِ شيءٌ آخَرُ ؛ وذٰلكَ أنَّ قولَهُ : (ويَفتحُ في القضاءِ) في هٰذا الموضعِ حشوٌ رديءٌ يلحقُ بصاحبِهِ اللكنةَ ، ويلزمُهُ الهجنةَ .

وأمَّا البيتُ الثالثُ . . فإنَّهُ أصلحُ هٰذِهِ الأبياتِ ، وإن كانَ ذكرُ الفارسِ حشواً وتَكلُّفاً ولغواً ؛ لأنَّ هٰذا لا يَتغيَّرُ بالفارسِ والراجلِ ، علىٰ أنَّهُ ليسَ فيهِ بديعٌ .

يعني : كانَ يكفي أن يقولَ : (ماضٍ وإن لم تمضِهِ يدُ بطلٍ) كما قالَ الطُّغرائيُّ(٢) : [من البسيط]

فَعَادَةُ ٱلنَّصْلِ أَنْ يُزْهَىٰ بِجَوْهَرِهِ وَلَيْسَ يَعْمَلُ إِلَّا فِي يَدَيْ بَطَلِ

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٦١) .

(٢) انظر « ديوان الطغرائي » (ص ٣٠٧) .

وأمّا قولُهُ :

يَغْشَى ٱلْوَغَا فَٱلتُّرسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ مِنْ حَدِّهِ وَٱلدِّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُصْغٍ إِلَىٰ حُكْمِ ٱلرَّدَىٰ فَإِذَا مَضَىٰ لَمْ يَلْتَفِتْ وَإِذَا قَضَىٰ لَمْ يَعْدِلِ
مُتَوَقِّدٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ مَا أَدْرَكَتْ وَلَوَ ٱنَّهَا فِي يَذْبُلِ

البيتانِ الأولانِ مِنَ الجنسِ الذي يكثرُ كلامُهُ عليهِ ؛ وهيَ طريقتُهُ التي لا يَتجنَّبُها ، وذٰلكَ مِنَ السبكِ الكتابيِّ والكلامِ المعتدلِ ، إلَّا أنَّهُ لم يبدعْ فيهِما بشيءٍ ، وقد زِيدَ عليهِ فيهِما .

ومَنْ قصدَ إلىٰ أن يكملَ عشرةَ أبياتٍ في وصفِ السيفِ . . فليسَ مِنْ حكمِهِ أن يأتيَ بأشياءَ منقولةٍ وأمورٍ مذكورةٍ ، وسبيلُهُ أن يُغرِبَ ويبدعَ كما أبدعَ المتنبي في قولِهِ[1] : [من الخفيف]

سَلَّهُ ٱلرَّكْضُ بَعْدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ فَتَصَدَّىٰ لِلْغَيْثِ أَهْلُ ٱلْحِجَازِ

هٰذا في بابِ صقالِهِ وأضوائِهِ وكثرةِ مائِهِ ، وكقولِهِ[2] : [من الكامل]

رَيَّانُ لَوْ قَذَفَ ٱلَّذِي أَسْقَيْتَهُ لَجَرَىٰ مِنَ ٱلْمُهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

وقولُهُ : (مصغٍ إلىٰ حكمِ الردىٰ) ـ إن تأمَّلتَهُ ـ مقلوبٌ ، كانَ ينبغي أن يقولَ : يصغي الردىٰ إلىٰ حكمِهِ ، كما قالَ الآخَرُ[3] : [من البسيط]

فَٱلسَّيْفُ يَأْمُرُ وَٱلْأَقْدَارُ تَنْتَظِرُ

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ١٥٩) .

(٢) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٣٤) .

(٣) البيت لصريع الغواني في « ديوانه » (ص ٣١٤) ، والبيت بتمامه :

تَلَمَّظَ ٱلسَّيْفُ مِنْ شَوْقٍ إِلَىٰ أَنَسٍ فَٱلسَّيْفُ يَلْحَظُ وَٱلْأَقْدَارُ تَنْتَظِرُ

هٰكذا في « الديوان » : (يلحظ) بدل : (يأمر) .

وقولُهُ : (وإذا قضىٰ . . لم يعدلِ) مُتكرِّرٌ علىٰ ألسنتِهِم في الشعرِ خاصَّةً في نفسِ هٰذا المعنىٰ .

والبيتُ الثالثُ سليمٌ ، وهوَ كالأولَينِ في خُلُوِّهِ عنِ البديعِ .

قولُ المتنبي : (سَلَّهُ الرَّكضُ . . .) البيتُ في صفةِ السيفِ بالإضاءةِ واللمعانِ ، ومعناهُ : اتفقَ أنَّهُ انسلَّ بسببِ ركضِ مُتقلِّدِهِ وهوَ بنجدٍ ، فبرقَ حتىٰ بلغَ أرضَ الحجازِ بريقُهُ ولمعانُهُ ، فحسبوهُ برقاً ، فتصدَّوا لِمَا يعقبُهُ مِنَ المطرِ .

وقولُهُ : (ريانُ لو قذفَ) صفةٌ لهُ بكثرةِ القتلِ بهِ ، فيعني أنَّهُ شربَ نفوسَ قتلاهُ ، فلو قذفَ ما شربَهُ مِنَ الأرواحِ . . لجرىٰ منها بحرٌ ، فهوَ في معناهُ كقولِهِ[1] : [من الطويل]

نَهَبْتَ مِنَ ٱلْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهُنِّئَتِ ٱلدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

قالَ الشيخُ[2] : وأمَّا قولُهُ :

فَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَكَأَنَّمَا سُودُ ٱلنِّمَالِ وَحُمْرُهَا دَبَّتْ بِأَيْدٍ فِي قَرَاهُ وَأَرْجُلِ

البيتُ الأوَّلُ يقصدُ بهِ صنعةَ اللفظِ ، وهوَ في المعنىٰ متفاوتٌ ؛ لأنَّ المَضرِبَ قد لا يكونُ مَقتلاً ، وقد يُطلِقُ الشعراءُ ذٰلكَ ، ويرونَ أنَّ هٰذا أبدعُ مِنْ قولِ المتنبي ، وأنَّهُ بضدِّهِ[3] : [من البسيط]

يُقَتِّلُ ٱلسَّيْفَ فِي جِسْمِ ٱلْقَتِيلِ بِهِ وَلِلسُّيُوفِ كَمَا لِلنَّاسِ آجَالُ

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٢٤٥) .
(٢) عودٌ إلىٰ « إعجاز القرآن » (ص ٢٣٨) وما بعدها .
(٣) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٣٦٧) ، وفيه : (القاتل) بدل (يقتل) .

وهـٰذهِ طريقةٌ لهُم يَتمدَّحُونَ بها في [قصفِ] الرمحِ طعناً ، وتقطيعِ السيفِ ضرباً .

وفي قولِهِ : (وإذا أُصيبَ فما لهُ مِنْ مقتلِ) تَعسُّفٌ ؛ لأَنَّهُ يريدُ بذٰلكَ أَنَّهُ لا ينكسرُ ، فالتعبيرُ بما عَبَّرَ بهِ عنِ المعنى الذي ذكرنا يَتضمَّنُ التكلُّفَ وضرباً مِنَ المُحالِ ، وليسَ بالنادرِ ، والذي عليهِ الجملةُ ما حكينا عن غيرِهِ ، ونحوَهُ قالَ بعضُ أهلِ الزمانِ : [من المتقارب]

يُقَصِّفُ فِي ٱلْفَارِسِ ٱلسَّمْهَرِيَّ ... وَصَدْرَ ٱلْحُسَامِ فَرِيقاً فَرِيقَا

والبيتُ الثاني أيضاً هوَ معنىً مُكرَّرٌ علىٰ ألسنةِ الشعراءِ ، [وأمَّا] تصنيعُهُ بسودِ النمالِ وحمرِها . . فليسَ بشيءٍ ، ولعلَّهُ أرادَ بالحمرِ الذرَّ ، والتفصيلُ باردٌ ، والإغرابُ بهِ منكرٌ ، وهوَ كما حُكِيَ عن بعضِهِم أنَّهُ قالَ : كانَ كذا حينَ كانَتِ الثريَّا بحذاءِ رأسي علىٰ سواءٍ ، أو مُنحرِفةً قدرَ شبرٍ ، أو نصفِ شبرٍ ، أو إصبعٍ ، أو ما يقاربُ ذٰلكَ ، فقيلَ لهُ : هـٰذا مِنَ الورعِ الذي يبغضُهُ اللهُ ويمقتُهُ الناسُ ، ورُبَّ زيادةٍ كانَتْ نقصاناً .

وصفةُ النملِ بالسوادِ والحمرةِ في هـٰذا مِنْ ذٰلكَ الجنسِ ، وعليهِ خرجَ بقيةُ البيتِ في قولِهِ : (دَبَّتْ بأيدٍ في قَرَاهُ وأرجلِ) ، وكانَ يكفي ذكرُ الأرجلِ عن ذكرِ الأيدي ، ووصفُ الفِرِنْدِ بدبِّ النملِ شيءٌ لا يَشِذُّ عن أحدٍ منهُم .

قلتُ : بل كانَ يكفي ذكرُ دبيبِ النملِ دونَ الأيدي والأرجلِ ، كما قالَ أبو العلاءِ (١) : [من الوافر]

وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمْرَا ٱلْمَنَايَا ... وَلَـٰكِنْ بَعْدَمَا مُسِخَتْ نِمَالَا

---

(١) انظر « شروح سقط الزند » (١/١٠٤) .

وأمَّا قولُهُ :

وَكَأَنَّ شَاهِرَهُ إِذَا ٱسْتَضْوَىٰ بِهِ ٱلزَّ حْفَانِ يَعْصِي بِٱلسِّمَاكِ ٱلْأَعْزَلِ

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ ٱلْقَدِيمَةُ بَقْلَةً مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ

البيتُ الأوَّلُ منهُما فيهِ ضربٌ مِنَ التكلُّفِ ، وهوَ منقولٌ مِنْ أشعارِهِم وألفاظِهِم ، كما قيلَ [1] : [من الكامل]

[قَمَراً] يَشُدُّ عَلَى ٱلرِّجَالِ بِكَوْكَبِ

فجعلَ ذٰلكَ الكوكبَ السِّماكَ ، واحتاجَ إلىٰ أن يجعلَهُ أعزلَ للقافيةِ ، ولو لم يَحتجْ إلىٰ ذٰلكَ . . كانَ خيراً لهُ ؛ لأنَّ الصفةَ في هٰذا الموضعِ تغضُّ منهُ ، وموضعُ التكلُّفِ الذي ادعيناهُ الحشوُ الذي ذكرَهُ مِنْ قولِهِ : (إذا استضوىٰ بهِ الزحفانِ) ، وكانَ يكفي أن يقولَ : كانَ صاحبُهُ يعصي بالسِّماكِ ، وهٰذا وإن كانَ قد يعملُ فيهِ اللفظُ . . فهوَ لغوٌ علىٰ ما بيَّنَّا .

وأمَّا البيتُ الثاني . . ففيهِ لغوٌ مِنْ جهةِ قولِهِ : (حمائلُهُ القديمةُ) ولا فضيلةَ لهُ في ذٰلكَ ، ثمَّ تشبيهُ السيفِ بالبقلةِ مِنْ تشبيهاتِ العامَّةِ ، والكلامِ الرَّذْلِ النَّذْلِ ؛ لأنَّ العامَّةَ قد يتفقُ منها تشبيهٌ واقعٌ حسنٌ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ هٰذا المقطعِ الذي هوَ بالعِيِّ أشبهُ منهُ بالفصاحةِ ، وإلى اللكنةِ أقربُ منهُ إلى البراعةِ .

وقد بيَّنَّا أنَّ مراعاةَ الفواتحِ والخواتمِ والمطالعِ والمقاطعِ والفصلِ والوصلِ بعدَ صحَّةِ الكلامِ ووجودِ الفصاحةِ فيهِ . . ممَّا لا بدَّ منهُ ، وأنَّ الإخلالَ بذٰلكَ يُخِلُّ بالنظمِ ، ويُذهِبُ رونقَهُ ، ويُحيلُ بهجتَهُ ، ويأخذُ ماءَهُ وبهاءَهُ .

---

(١) والبيت بتمامه :

وَتَرَاهُ فِي ظُلَمِ ٱلْوَغَىٰ فَتَخَالُهُ قَمَراً يَشُدُّ عَلَى ٱلرِّجَالِ بِكَوْكَبِ

وقد أطلتُ عليكَ فيما نقلتُ ، وتَكلَّفتُ ما سطرتُ ؛ لأنَّ هٰذا القبيلَ قبيلٌ موضوعٌ ، مُتعمَّلٌ مصنوعٌ .

وأصلُ البابِ في الشعرِ : علىٰ أن ينظرَ إلىٰ جملةِ القصَّةِ ، ثمَّ يتعمَّلَ الألفاظَ ، ولا ينظرَ بعدَ ذٰلكَ إلىٰ مواقعِها ، ولا يتأمَّلَ مطارحَها ، وقد يقصدُ تارةً إلىٰ تحقيقِ الأغراضِ وتصويرِ المعاني التي في النفوسِ ، ولٰكنَّهُ يلحقُ بأصلِ بابِهِ ، [ويميلُ] بكَ إلىٰ موضعِهِ ، وبحَسَبِ الاهتمامِ بالصنعةِ يقعُ فيها التفاضلُ .

وإن أردتَ أن تعرفَ أوصافَ الفرسِ . . فقد ذكرتُ لكَ أنَّ الشعراءَ قد تصرَّفوا في ذٰلكَ بما يقعُ إليكَ ـ إن كنتَ مِنْ أهلِ الصَّنعةِ ـ ممَّا يطولُ عَلَيَّ نقلُهُ وكذٰلكَ في السيفِ .

وذكرَ بعضُ أهلِ الأدبِ أنَّ أحسنَ قطعةٍ في السيفِ قولُ أبي الهولِ الحميريّ (١) : [من الخفيف]

حَازَ صَمْصَامَةَ ٱلزُّبَيْدِيِّ مِنْ بَيْـ ... ـنِ جَمِيعِ ٱلْأَنَامِ مُوسَى ٱلْأَمِينُ

سَيْفَ عَمْرٍو وَكَانَ فِيمَا سَمِعْنَا ... خَيْرَ مَا أُطْبِقَتْ عَلَيْهِ ٱلْجُفُونُ

أَخْضَرَ ٱللَّوْنِ بَيْنَ بُرْدَيْهِ حَدٌّ ... مِنْ ذُعَافٍ تَمِيسُ فِيهِ ٱلْمَنُونُ

أَوْقَدَتْ فَوْقَهُ ٱلصَّوَاعِقُ نَاراً ... ثُمَّ شَابَتْ لَهُ ٱلذُّعَافَ ٱلْقُيُونُ

فَإِذَا مَا شَهَرْتَهُ بَهَرَ ٱلشَّمْـ ... ـسَ ضِيَاءً فَلَمْ تَكَدْ تَسْتَبِينُ

يَسْتَطِيرُ ٱلْأَبْصَارَ [كَٱلْقَبَسِ] ٱلْمُشْـ ... ـعَلِ لَا تَسْتَقِيمُ فِيهِ ٱلْعُيُونُ

وَكَأَنَّ ٱلْفِرِنْدَ وَٱلرَّوْنَقَ ٱلْجَا ... رِيَ فِي صَفْحَتَيهِ مَاءٌ مَعِينُ

---

(١) انظر « الحيوان » للجاحظ (٥/٨٧ ـ ٨٨) .

نِعْمَ مِخْرَاقُ ذِي ٱلْحَفِيظَةِ فِي ٱلْهَيْـ ـجَاءِ يَعْصِي بِهِ وَنِعْمَ ٱلْقَرِينُ
مَا يُبَالِي إِذَا ٱنْتَضَاهُ لِضَرْبٍ أَشِمَالٌ سَطَتْ بِهِ أَمْ يَمِينُ

وإنَّما يُوازَنُ شعرُ البحتريّ بشعرِ شاعرٍ مِنْ طبقتِهِ ، ومِنْ أهلِ عصرِهِ ، ومَنْ هوَ في مضمارِهِ وفي منزلتِهِ .

ومعرفةُ أجناسِ الكلامِ ، والوقوعُ علىٰ أسرارِهِ ، والوقوفُ علىٰ مِقدارِهِ . . شيءٌ وإن كانَ عزيزاً وأمرٌ وإن كانَ بعيداً ، فهوَ سهلٌ علىٰ أهلِهِ ، مستجيبٌ لأصحابِهِ ، مطيعٌ لأربابِهِ ، ينقدونَ الحروفَ ، ويعرفونَ الصروفَ .

وإنَّما تبقى الشُّبهةُ في ترتيبِ الحالِ مِنَ البحتريّ وأبي تمامٍ وابنِ الروميّ وغيرِهِ ، ونحنُ وإن كنَّا نُفضّلُ البحتريَّ بديباجةِ شعرِهِ على ابنِ الروميّ وغيرِهِ مِنْ أهلِ زمانِهِ ، ونُقدّمُهُ بحسنِ عبارتِهِ ، وسلاسةِ كلامِهِ ، وعذوبةِ ألفاظِهِ ، وقِلَّةِ تعقُّدِ قولِهِ . . فالشعرُ قبيلٌ ملتمسٌ مستدركٌ ، وأمرٌ ممكنٌ مطيعٌ (١) .

❋ ❋ ❋

---

(١) إلىٰ هنا النقل عن « إعجاز القرآن » (ص ٢٤٣) للإمام الباقلاني .

[ذكرُ قصيدتَينِ مُستَجادتَينِ للبحتريّ]

وهٰذه القصيدةُ التي تَكلَّمَ بانتقادِ بعضِها هٰذا الشيخُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ونقلَ عنِ البحتريِّ أنَّها أجودُ شعرِهِ . . قدِ امتدحَ بها أحدَ أعيانِ زمانِهِ مِنَ الكَتَبةِ محمدَ بنَ عليِّ [بنِ] عيسى القميَّ ، ورأيتُ إثباتَها هنا ، وتعقيبَها بالقصيدةِ التي استجادَها الأستاذُ أبو الفضلِ بنُ العميدِ أحدُ مشايخِ الكُتَّابِ ، وشيخُ الصَّاحبِ إسماعيلَ بنِ عبَّادٍ في دولةِ بني بويهَ تعجيلاً للفائدةِ .

[القصيدةُ الأُولىٰ : (أهلاً بذٰلكمُ الخيالِ المقبلِ)]

هٰذهِ القصيدةُ الأولىٰ :

أَهْـلاً بِـذَٰلِكُمُ ٱلْـخَـيَـالِ ٱلْـمُـقْـبِـلِ ... فَـعَـلَ ٱلَّـذِي نَـهْـوَاهُ أَوْ لَـمْ يَـفْـعَـلِ

بَرْقٌ سَرَىٰ فِي بَطْنِ وَجْرَةَ فَٱهْتَدَتْ ... بِـسَـنَـاهُ أَعْـنَـاقُ ٱلـرِّكَـابِ ٱلـضُّـلَّـلِ

الأعناقُ هنا : جمعُ عنقٍ ؛ وهوَ الجماعةُ مِنَ الناسِ ، أوِ العضوُ المخصوصُ ، فيكونُ مَجازاً بعلاقةِ الجزئيةِ ؛ إذِ العنقُ موضعُ استبانةِ الهدايةِ ، فإنَّهُ أوَّلُ ما يميلُ ويعتدلُ عندَ سلوكِ السبلِ ، فكأنَّهُ قالَ : فاهتدَتْ بسناهُ إبلُ الركابِ ، أو جملُ الركابِ .

مِنْ غَـادَةٍ مُـنِـعَـتْ وَتَـمْـنَـعُ نَـيْـلَـهَـا ... فَـلَـوَ ٱنَّـهَـا بُـذِلَـتْ لَـنَـا لَـمْ تَـبْـذُلِ

كَـٱلْـبَـدْرِ غَـيْـرَ مُـخَـيَّـلٍ وَٱلْـغُـصْـنِ غَـيْـ ... ـرَ مُـمَـيَّـلٍ وَٱلـدِّعْـصِ غَـيْـرَ مُـهَـيَّـلِ

مَا ٱلْحُسْنُ عِنْدَكِ يَا سُعَادُ بِمُحْسِنٍ ... فِـيـمَـا أَتَـاهُ وَلَا ٱلْـجَـمَـالُ بِـمُـجْـمَـلِ

عُذِلَ ٱلْمَشُوقُ وَإِنَّ مِنْ سِيمَا ٱلْهَوَىٰ ... فِـي حَـيْـثُ تَـجْـهَـلُـهُ لَـجَـاجَ ٱلْـعُـذَّلِ

مَـاذَا عَـلَـيْـكَ مِـنِ ٱنْـتِـظَـارِ مُـتَـيَّـمٍ ... بَـلْ مَـا يَـضُـرُّكَ وَقْـفَـةٌ فِـي مَـنْـزِلِ

إِنْ سِيلَ عَيَّ عَنِ ٱلْجَوَابِ وَلَمْ يُطِقْ ... رَجْعاً فَكَيْفَ يَكُونُ إِنْ لَمْ يُسْأَلِ

لَا تَكْلَفَنَّ لِيَ ٱلدُّمُوعَ فَإِنَّ لِي ... دَمْعاً يَتِمُّ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَفْضُلِ

وَلَقَدْ سَكَنْتُ إِلَى ٱلصُّدُودِ مِنَ ٱلنَّوَىٰ ... وَٱلشَّرْيُ أَرْيٌ عِنْدَ أَكْلِ ٱلْحَنْظَلِ

وَكَذَاكَ طَرْفَةُ حِينَ أَوْجَسَ ضَرْبَةً ... فِي ٱلرَّأْسِ هَانَ عَلَيْهِ قَطْعُ ٱلْأَكْحَلِ

وَأَغَرَّ فِي ٱلزَّمَنِ ٱلْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَىٰ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

كَٱلْهَيْكَلِ ٱلْمَبْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ ... فِي ٱلْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ

وَافِي ٱلضُّلُوعِ يَشُدُّ عَقْدَ حِزَامِهِ ... يَوْمَ ٱللِّقَاءِ عَلَىٰ مُعِمٍّ مُخْوِلِ

أَخْوَالُهُ لِلرُّسْتُمِينَ بِفَارِسٍ ... وَجُدُودُهُ لِلتُّبَّعِينَ بِمَوْكَلِ

يَهْوِي كَمَا تَهْوِي ٱلْعُقَابُ وَقَدْ رَأَتْ ... صَيْداً وَيَنْتَصِبُ ٱنْتِصَابَ ٱلْأَجْدَلِ

تُتَوَهَّمُ ٱلْجَوْزَاءُ فِي أَرْسَاغِهِ ... وَٱلْبَدْرُ فَوْقَ جَبِينِهِ ٱلْمُتَهَلِّلِ

مُتَوَجِّسٌ بِرَقِيقَتَيْنِ كَأَنَّمَا ... تُرَيَانِ مِنْ وَرَقٍ عَلَيْهِ مُوَصَّلِ

ذَنَبٌ كَمَا سُحِبَ ٱلرِّدَاءُ يَذُبُّ عَنْ ... عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَٱلْقِنَاعِ ٱلْمُسْبَلِ

جَذْلَانَ يَنْفُضُ عُذْرَةً فِي غُرَّةٍ ... يَقَقٍ يَسِيلُ حُجُولُها فِي جَنْدَلِ

العُذْرةُ : الشَّعَرُ النازلُ مِنْ ناحيةِ الرأسِ ، **ويَقَقٌ** : شديدُ البياضِ ، والإضافةُ في (حجولها) ـ أي : الغرَّةِ ـ لأدنىٰ ملابسةٍ ؛ لجريانِ العادةِ بجمعِ الغرَّةِ والتحجيلِ في الذكرِ .

كَٱلرَّائِحِ ٱلنَّشْوَانِ أَكْثَرُ مَشْيِهِ ... عَرْضاً عَلَى ٱلسَّنَنِ البَعِيدِ ٱلْأَطْوَلِ

ذَهَبُ ٱلْأَعَالِي حَيْثُ تَذْهَبُ مُقْلَةٌ ... فِيهِ بِنَاظِرِهَا حَدِيدُ ٱلْأَسْفَلِ

أي : أعاليهِ ذهبيةُ اللونِ ، وأسفلُهُ حديديُّ القُوَّةِ .

صَافِي ٱلْأَدِيمِ كَأَنَّمَا عُنِيَتْ بِهِ ... لِصَفَاءِ نُقْبَتِهِ مَدَاوِسُ صَيْقَلِ

النُّقبةُ ـ بضمٍّ فسكونٍ ـ : اللَّونُ ، والمدوسُ : آلةُ الصقالِ .

وَكَأَنَّمَا نَفَضَتْ عَلَيْهِ صِبْغَهَا ... صَهْبَاءُ لِلْبَرَدَانِ أَوْ قُطْرُبُّلِ

البَرَدَانِ ـ بفتحتَينِ ـ : قريةٌ بناحيةِ بغدادَ .

لَبِسَ [ٱلْقُنُوَّ] مُزَعْفَراً وَمُعَصْفَراً ... يَدْمَىٰ فَرَاحَ كَأَنَّهُ فِي خَيْعَلِ

وَكَأَنَّمَا كُسِيَ ٱلْخُدُودَ نَوَاعِماً ... مَهْمَا تُوَاصِلْهَا بِلَحْظٍ تَخْجَلِ

الخَيْعَلُ : قميصٌ ليسَ لهُ كمَّانِ .

وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي ٱلْغُبَارِ لَهِيبُهُ ... لَوْناً وَشَدّاً كَٱلْحَرِيقِ ٱلْمُشْعَلِ

وَتَظُنُّ رَيْعَانَ ٱلشَّبَابِ يَرُوعُهُ ... مِنْ جِنَّةٍ أَوْ نَشْوَةٍ أَوْ أَفْكَلِ

هَزِجُ ٱلصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَغَمَاتِهِ ... نَبَرَاتُ مَعْبَدَ فِي ٱلثَّقِيلِ ٱلْأَوَّلِ

مَلَكَ ٱلْعُيُونَ فَإِنْ بَدَا أَعْطَيْنَهُ ... نَظَرَ ٱلْمُحِبِّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ ٱلْمُقْبِلِ

مَا إِنْ يَعَافُ قَذىً وَلَوْ أَوْرَدْتَهُ ... يَوْماً خَلَائِقَ حَمْدَوَيْهِ ٱلْأَحْوَلِ

لِمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ٱلشَّرَفُ ٱلَّذِي ... لَا يَلْحَظُ ٱلْجَوْزَاءَ إِلَّا مِنْ عَلِ

وَسَمَاحَةٌ لَوْلَا تَتَابُعُ مُزْنِهَا ... فِينَا لَرَاحَ ٱلْمُزْنُ غَيْرَ مُبَخَّلِ

وَٱلْجُودُ يَعْذِلُهُ عَلَيْهِ حَاتِمٌ ... سَرَفاً وَلَا جُودٌ لِمَنْ لَمْ يُعْذَلِ

فَضْلٌ وَإِفْضَالٌ وَمَا أَخَذَ ٱلْمَدَىٰ ... بَعْدَ ٱلْمَدَىٰ كَٱلْفَاضِلِ ٱلْمُتَفَضِّلِ

سَارٍ إِذَا ٱدَّلَجَ ٱلْعُفَاةُ إِلَى ٱلنَّدَىٰ ... لَا يَصْنَعُ ٱلْمَعْرُوفَ غَيْرَ مُعَجَّلِ

عَالٍ عَلَىٰ نَظَرِ ٱلْعُيُونِ كَأَنَّمَا ... جَذَبَتْهُ أَفْرَادُ ٱلنُّجُومِ بِأَحْبُلِ

أَوَمَا رَأَيْتَ ٱلْمَجْدَ أَلْقَىٰ رَحْلَهُ ... فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ

ضَيْفٌ لَهُمْ يَقْرِي ٱلضُّيُوفَ وَنَازِلٌ   مُتَكَفِّلٌ فِيهِمْ بِنُزْلِ ٱلنُّزَّلِ
نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا مُحَمَّدُ مِنْ فَتىً   يُوفِي عَلَىٰ ظُلَمِ ٱلْخُطُوبِ فَتَنْجَلِي
إِنِّي أُرِيدُ أَبَا سَعِيدٍ وَٱلْعِدَا   بَيْنِي وَبَيْنَ سَحَابِهِ ٱلْمُتَهَلِّلِ
مُضَرُ ٱلْجَزِيرَةِ كُلُّهَا وَرَبِيعَةُ ٱلْـ   ـخَابُورِ تُوعِدُنِي وَأَزْدُ ٱلْمَوْصِلِ
قَدْ جُدْتَ بِٱلطِّرْفِ ٱلْجَوَادِ فَثَنِّهِ   لِأَخِيكَ مِنْ أُدَدٍ أَبِيكَ بِمُنْصُلِ
يَتَنَاوَلُ ٱلرُّوحَ ٱلْبَعِيدَ مَنَالُهُ   عَفْواً وَيَفْتَحُ فِي ٱلْقَضَاءِ ٱلْمُقْفَلِ
بِإِنَارَةٍ فِي كُلِّ [حَتْفٍ] مُظْلِمٍ   وَهِدَايَةٍ فِي كُلِّ نَفْسٍ مَجْهَلِ
مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ   بَطَلٍ وَمَصْقُولٌ وَإِنْ لَمْ يُصْقَلِ
يَغْشَى ٱلْوَغَىٰ فَٱلتُّرْسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ   مِنْ حَدِّهِ وَٱلدِّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
مُصْغٍ إِلَىٰ حُكْمِ ٱلرَّدَىٰ فَإِذَا مَضَىٰ   لَمْ يَلْتَفِتْ وَإِذَا قَضَىٰ لَمْ يَعْدِلِ
مُتَأَلِّقٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ   مَا أَدْرَكَتْ وَلَوَ ٱنَّهَا فِي يَذْبُلِ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ   وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ
وَكَأَنَّمَا سُودُ ٱلنِّمَالِ وَحُمْرُهَا   دَبَّتْ بِأَيْدٍ فِي قَرَاهُ وَأَرْجُلِ
وَكَأَنَّ شَاهِرَهُ إِذَا ٱسْتَضْوَىٰ بِهِ ٱلزَّ   حْفَانِ يَعْصَىٰ بِٱلسِّمَاكِ ٱلْأَعْزَلِ
حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ ٱلْقَدِيمَةُ بَقْلَةً   مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لَمْ تَذْبُلِ

السِّماكُ الأعزلُ : أحدُ السِّماكَينِ .

والآخَرُ : السِّماكُ الرامحُ .

فالأعزلُ : ما لا رمحَ معَهُ ، **والرامحُ** : ما معَهُ رمحٌ ، ولأبي العلاءِ المعريّ

وفيهِ ذكرُ السِّماكَينِ [1] : [من الكامل]

لَا تَـطْـلُـبَـنَّ بِـغَـيْـرِ حَـظٍّ آلَـةً   قَـلَـمُ ٱلْـبَـلِـيغِ بِـغَـيْـرِ حَـظٍّ مِـغْـزَلُ
سَـكَـنَ ٱلـسِّـمَـاكَـانِ ٱلـسَّـمَـاءَ كِـلَاهُـمَـا   هَـٰذَا لَـهُ رُمْـحٌ وَهَـٰذَا أَعْـزَلُ

[القصيدةُ الثانيةُ : (في الشيبِ زجرٌ لهُ لو كانَ ينزجرُ)]

وهـٰذِهِ القصيدةُ الثانيةُ مدحَ بها أحدَ أمراءِ زمانِهِ عليِّ الأرمنيّ [2] :[من البسيط]

فِي ٱلشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ   وَبَـالِـغٌ مِـنْـهُ لَـوْلَا أَنَّـهُ حَـجَـرُ
اِبْيَضَّ مَا ٱسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيْهِ وَٱرْتَجَعَتْ   جَلِيَّةُ ٱلصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ ٱلسَّحَرُ
وَلِلْفَتَىٰ مُهْلَةٌ فِي ٱلْحُبِّ وَاسِعَةٌ   مَا لَمْ يَمُتْ فِي نَوَاحِي رَأْسِهِ ٱلشَّعَرُ
قَالَتْ مَشِيبٌ وَعِشْقٌ أَنْتَ بَيْنَهُمَا   وَذَاكَ فِي ذَاكَ ذَنْبٌ لَيْسَ يُغْتَفَرُ
وَعَيَّرَتْنِي سِجَالَ ٱلْعُدْمِ جَاهِلَةً   وَٱلنَّبْعُ عُرْيَانُ مَا فِي فَرْعِهِ ثَمَرُ

النبعُ : شجرٌ تُعمَلُ منهُ القِسيُّ ، فإن نبتَ في أعلى الجبلِ . . كانَ صُلْباً ؛ لاستيفاءِ حَظِّهِ مِنَ الشمسِ وجفافِ الهواءِ ، وخُصَّ باسمِ النَّبعِ ، وإن نبتَ في وسطِ الجبلِ . . كانَ مُتوسِّطاً وسُمِّيَ بالشَّوْحطِ بفتحِ أوَّلِهِ ، وإن نبتَ في أسفلِ الجبلِ . . كانَ رِخواً ، وسُمِّيَ غَرَباً بفتحتَينِ .

وفي الردِّ على البحتريّ علىٰ سبيلِ المغالطةِ الأدبيةِ حيثُ قالَ : إنَّه لا ثمرَ للنبعِ ، وقد صدقَ . . يقولُ أبو العلاءِ المعريُّ [3] : [من الطويل]

وَقَالَ ٱلْوَلِيدُ ٱلنَّبْعُ لَيْسَ بِمُثْمِرٍ   وَأَخْطَأَ سِرْبُ ٱلْوَحْشِ مِنْ ثَمَرِ ٱلنَّبْعِ

---

(١) انظر « معاهد التنصيص » (١/١٥٢) ، وعزاهما فيه لأبي العلاء المعري .
(٢) انظر « ديوان البحتري » (٢/٩٥٣ ـ ٩٥٨) ، وفيه أن الممدوح ـ كما سيأتي التصريح به ـ هو علي بن مُرّ الطائي .
(٣) انظر « شروح سقط الزند » (٣/١٣٤٨) .

يعني : أنَّهُ تُتَّخَذُ منهُ القِسيُّ ، فيُصادُ بها الوَحشُ ، فذٰلكَ مِنْ فوائدِهِ وثمراتِهِ ، والسِّجالُ : النوبُ ، كما يُقالُ : الحربُ سِجالٌ ؛ أي : مَرَّةً لهٰؤلاءِ ، ومَرَّةً لأولٰئكَ .

عَزَّىٰ عَنِ ٱلْحَظِّ أَنَّ ٱلْعَجْزَ يُدْرِكُهُ ... وَهَوَّنَ ٱلْعُسْرَ عِلْمِي فِيمَنِ ٱلْيُسُرُ
وَمَا ٱلْفَقِيرُ ٱلَّذِي عَيَّرْتِ آوِنَةً ... بَلِ ٱلزَّمَانُ إِلَى ٱلْأَحْرَارِ مُفْتَقِرُ
لَمْ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هَٰذَا ٱلنَّاسِ بَاقِيَةٌ ... يَنَالُهَا ٱلْفَهْمُ إِلَّا هَٰذِهِ ٱلصُّوَرُ
جَهْلٌ وَبُخْلٌ وَحَسْبُ ٱلْمَرْءِ وَاحِدَةٌ ... مِنْ تَيْنِ حَتَّىٰ يُعَفَّىٰ خَلْفَهُ ٱلْأَثَرُ
إِذَا مَحَاسِنِي ٱللَّاتِي أُدِلُّ بِهَا ... كَانَتْ ذُنُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ
أَهُزُّ بِٱلشِّعْرِ أَقْوَاماً ذَوِي وَسَنٍ ... فِي ٱلْجَهْلِ لَوْ ضُرِبُوا بِٱلسَّيْفِ مَا شَعَرُوا
عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَقَاطِعِهَا ... وَمَا عَلَيَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ
لَأَرْحَلَنَّ وَآمَالِي مُطَرَّحَةٌ ... بِسُرَّ مَنْ رَاءَ مُسْتَبْطاً لَهَا ٱلْقَدَرُ

سُرَّ مَنْ راءَ : بلدٌ بناها المعتصمُ ، فلمَّا نزلَها . . قالوا استحساناً لها : سُرَّ مَنْ رأىٰ ؛ أي : حصلَ السُّرورُ لِمَنْ رأىٰ تلكَ البلدَ ، فصارَ لها اسماً ، ويُقالُ : سُرَّ مَنْ راءَ ، بالقلبِ المكانيِّ كما هوَ في الشعرِ ، وسُرَّ مَرَّا ، بحذفِ الهمزةِ .

أَبَعْدَ عِشْرِينَ شَهْراً لَا جَدىً فَيُرَىٰ ... بِهِ ٱنْصِرَافٌ وَلَا وَعْدٌ فَيُنْتَظَرُ
لَوْلَا عَلِيُّ بْنُ مُرٍّ لَٱسْتَمَرَّ بِنَا ... خِلْفٌ مِنَ ٱلْعَيْشِ فِيهِ ٱلصَّابُ وَٱلصَّبِرُ
عُذْنَا بِأَرْوَعَ أَقْصَىٰ نَيْلِهِ كَثَبٌ ... عَلَى ٱلْعُفَاةِ وَأَدْنَىٰ سَعْيِهِ سَفَرُ
أَلَحَّ جُوداً وَلَمْ تَضْرُرْ سَحَائِبُهُ ... وَرُبَّمَا ضَرَّ فِي إِلْحَاحِهِ ٱلْمَطَرُ
لَا يُتْعِبُ ٱلنَّائِلُ ٱلْمَبْذُولُ هِمَّتَهُ ... وَكَيْفَ يُتْعِبُ عَيْنَ ٱلنَّاظِرِ ٱلنَّظَرُ

بَدَتْ عَلَى ٱلْبَدْوِ نُعْمَىٰ مِنْهُ سَابِغَةٌ ... وَفْرَاءُ يَحْضُرُ أُخْرَىٰ مِثْلَهَا ٱلْحَضَرُ
مَوَاهِبٌ مَا تَجَشَّمْنَا ٱلسُّؤَالَ لَهَا ... إِنَّ ٱلْغَمَامَ قَلِيبٌ لَيْسَ يُحْتَفَرُ
يُهَابُ فِينَا وَمَا فِي لَحْظِهِ شَزَرٌ ... وَسْطَ ٱلنَّدِيِّ وَلَا فِي خَدِّهِ صَعَرُ
بَرْدُ ٱلْحَشَا وَهَجِيرُ ٱلرَّوْعِ مُحْتَفِلٌ ... وَمِسْعَرٌ وَشِهَابُ ٱلْحَرْبِ مُسْتَعِرُ
إِذَا ٱرْتَقَىٰ فِي أَعَالِي ٱلرَّأْيِ لَاحَ لَهُ ... مَا فِي ٱلْغُيُوبِ ٱلَّتِي تَخْفَىٰ فَتَسْتَتِرُ
تَوَسَّطَ ٱلدَّهْرَ أَحْوَالاً فَلَا صِغَرٌ ... عَنِ ٱلْخُطُوبِ ٱلَّتِي تَعْرُو وَلَا كِبَرُ
كَٱلرُّمْحِ أَذْرُعُهُ عَشْرٌ وَوَاحِدَةٌ ... فَلَيْسَ يُزْرِي بِهِ طُولٌ وَلَا قِصَرُ
مُجَرِّبٌ طَالَمَا أَشْجَتْ عَزَائِمُهُ ... ذَوِي ٱلْحِجَا وَهْوَ [غِرٌّ بَيْنَهُمْ] غُمُرُ
آرَاؤُهُ ٱلْيَوْمَ أَسْيَافٌ مُهَنَّدَةٌ ... وَكَانَ كَٱلسَّيْفِ إِذْ آرَاؤُهُ زُبَرُ
وَمُصْعِدٌ فِي هِضَابِ ٱلْمَجْدِ يَطْلَعُهَا ... كَأَنَّهُ لِسُكُونِ ٱلْجَأْشِ مُنْحَدِرُ
مَا زَالَ يَسْبِقُ حَتَّىٰ قَالَ حَاسِدُهُ ... لَهُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْعَلْيَاءِ مُخْتَصَرُ
حُلْوٌ حَمِيتٌ مَتَىٰ تَجْنِي ٱلرِّضَا خُلُقاً ... مِنْهُ وَمُرٌّ إِذَا أَحْفَظْتَهُ مَقِرُ

حميتٌ : شديدُ الحلاوةِ ، ومَقِرٌ : شديدُ المرارةِ .

نَهَيْتُ حُسَّادَهُ عَنْهُ وَقُلْتُ لَهُمْ ... اَلسَّيْلُ بِٱللَّيْلِ لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ
كُفُّوا وَإِلَّا كَفَفْتُمْ مُضْمِرِي أَسَفٍ ... إِذَا تَنَمَّرَ فِي إِقْدَامِهِ ٱلنَّمِرُ
أَلْوَىٰ إِذَا شَابَكَ ٱلْأَعْدَاءَ كَدَّهُمُ ... حَتَّىٰ يَرُوحَ وَفِي أَظْفَارِهِ ٱلظَّفَرُ
وَٱللُّؤْمُ أَنْ تَدْخُلُوا فِي حَدِّ سَخْطَتِهِ ... عِلْماً بِأَنْ سَوْفَ يَعْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ
جَافِي ٱلْمَضَاجِعِ مَا يَنْفَكُّ فِي لَجَبٍ ... يَكَادُ يُقْمِرُ مِنْ لَأْلَائِهِ ٱلْقَمَرُ
إِذَا خُطَامَةُ سَارَتْ فِيهِ آخِذَةً ... خِطَامَ نَبْهَانَ وَهْيَ ٱلشَّوْكُ وَٱلشَّجَرُ

رَأَيْتَ مَجْداً عِيَاناً فِي بَنِي أُدَدٍ إِذْ مَجْدُ كُلِّ قَبِيلٍ دُونَهُمْ خَبَرُ

خُطامةُ ـ بضمِّ أولِهِ ـ : اسمُ قبيلةِ الممدوحِ مِنْ بني أسدٍ ، **وسارَتْ فيهِ** ؛ أي : في ذٰلكَ اللجبِ الذي يكادُ يقمرُ القمرُ مِنْ ضوءِ سلاحِهِ ، **وأخذُ خطامِ نبهانَ** : وهوَ مِقودُ الجملِ ، استعارةٌ ؛ أي : إذا تَقدَّمتْهُم وكانَتْ في أوائلِهِم ؛ لرئاستِها عليهِم .

أَحْسِنْ أَبَا حَسَنٍ بِٱلشِّعْرِ إِذْ جَعَلَتْ عَلَيْكَ أَنْجُمُهُ بِٱلْمَدْحِ تَنْتَثِرُ

فَقَدْ أَتَتْكَ ٱلْقَوَافِي غِبَّ فَائِدَةٍ كَمَا تَفَتَّحُ غِبَّ ٱلْوَابِلِ ٱلزَّهَرُ

فِيهَا ٱلْعَقَائِقُ وَٱلْعِقْيَانُ إِنْ لُبِسَتْ يَوْمَ ٱلتَّبَاهِي وَفِيهَا ٱلْوَشْيُ وَٱلْحِبَرُ

وَمَنْ يَكُنْ فَاخِراً بِٱلشِّعْرِ يُمْدَحُ فِي أَضْعَافِهِ فَبِكَ ٱلْأَشْعَارُ تَفْتَخِرُ

* * *

[أقسامُ الشِّعرِ أربعةٌ]

وقدِ استبانَ لكَ ممَّا سلفَ ـ وخصوصاً مِنْ كلامِ هـٰذا الشيخِ المُنتقِدِ ـ أنَّ الشعرَ وسائرَ الكلامِ بحَسَبِ براعةِ العباراتِ ، واشتمالِها على الفوائدِ . . **ينقسمُ أربعةَ أقسامٍ** :

قسمٌ حَسُنَ لفظُهُ ، وكَثُرَتْ فوائدُهُ .

وقسمٌ حَسُنَ لفظُهُ ، وقلَّتْ فوائدُهُ .

وقسمٌ كَثُرَتْ فوائدُهُ ، ولم يَحسُنْ لفظُهُ .

وقسمٌ فقدَ الأمرينِ ، وهوَ الذي قيلَ فيهِ : [من الطويل]

وَشِعْرٌ كَبَعْرِ ٱلتَّيْسِ فَرَّقَ بَيْنَهُ لِسَانُ دَعِيٍّ فِي ٱلْقَرِيضِ دَخِيلُ

وعلىٰ هـٰذا التقسيمِ قولُ بعضِهِم : [من مشطور الرجز]

اَلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ

فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَىٰ مَعَهْ

وَشَاعِرٌ مُسْتَوْجِبٌ أَنْ نَرْفَعَهْ

وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ نَسْمَعَهْ

وَشَاعِرٌ مُسْتَأْهِلٌ أَنْ نَصْفَعَهْ

ولا نزاعَ في شرفِ القسمِ الأولِ ، وانحطاطِ الأخيرِ ، وإنَّما هيَ في المفاضلةِ بينَ شعرٍ حَسُنَ لفظُهُ وقلَّتْ فوائدُهُ ، وما يقابلُهُ .

وعندي : أنَّ الأولَ لسلامتِهِ مِنْ إيذاءِ المستمعِ أفضلُ وأجملُ ، وصاحبُهُ

أحقُّ بالتقديمِ والإجلالِ ، والمثلُ في ذٰلكَ : أنَّ الصوتَ الجميلَ المضطربَ بموافقةِ النفوسِ يَملؤُها التذاذاً وإن كانَ خالياً مِنْ صناعةِ الغناءِ ، بقَدْرِ ما يُنفِّرُها ويُوحشُها الصَّوتُ القبيحُ معَ استيفاءِ الصَّنعةِ فيهِ ، ومَنْ غلبَ عليهِ رعايةُ الصِّناعةِ ، والالتذاذُ بملاحظتِها ، وإدراكُ دقائقِها . . يُفضِّلُ القسمَ الثاني ، فالرأيُ مختلفٌ .

واستبانَ لكَ أيضاً أنَّ جودةَ الكلامِ تعتمدُ صحَّةَ المعنىٰ وشرفَهُ ، [وتخيُّرَ] الألفاظِ في أنفسِها ، ومِنْ جهةِ تجاورِها وموافقتِها للمَقامِ ، وإجادةَ التركيبِ علىٰ ما شُرِحَ في علمِ المعاني وغيرِهِ ؛ بحيثُ تكونُ الألفاظُ سلسةً في المَنطِقِ ، خاليةً مِنَ التنافرِ وشِدَّةِ الغرابةِ ، يألَفُ بعضُها بعضاً ، حتىٰ تكونَ الكلماتُ المتواليةُ بمنزلةِ كلمةٍ واحدةٍ ، وتكونَ الألفاظُ التي توردُها في مَقامِ الحماسةِ ليسَتْ كالألفاظِ التي توردُها في مقامِ الغزلِ والتشبُّبِ ، فلكلِّ فنٍّ مِنْ تلكَ الفنونِ ألفاظٌ توافقُهُ مِنْ جهةِ شدَّتِها ولينِها ، ولذٰلكَ تَسمعُهُم يقولونَ : الجَزْلُ والرقيقُ .

وإجادةُ التركيبِ : بسلامتِهِ ممَّا يبعدُ فهمُ المعنىٰ منهُ ، وليسَ كلُّ تركيبٍ صدرَ عن شعراءِ العربِ وغيرِهِم مِنَ المشاهيرِ جيداً ؛ فربَّما تَعسَّفَ الواحدُ منهُمُ اغتراراً بفهمِ نفسِهِ ، وغفلةً عن رعايةِ غيرِهِ ، ومسارعةً بإيرادِ ما ظهرَ لهُ مِنَ المعنىٰ .

فعليكَ إذاً أن تجيدَ الفكرةَ ؛ باستصحابِ ما سلفَ مِنَ القوانينِ والوصايا في تمييزِ جيدِ التراكيبِ مِنْ رديئِها ، ويزيدُكَ استحضاراً لها وتمكُّناً مِنِ اعتبارِها ما سأنقلُهُ لكَ عن ابنِ خلدونَ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ .

قالَ في « مُقدِّمةِ تاريخِهِ » حيثُ انتهىٰ مِنَ القولِ في العلومِ إلى التكلُّمِ علىٰ صناعةِ الشعرِ وكيفيةِ تعلُّمِها :

فصلٌ في صناعةِ الشعرِ ووجهِ تعلُّمِهِ

(هٰذا الفنُّ مِنْ فنونِ كلامِ العربِ ، وهوَ المُسمَّىٰ بالشعرِ عندَهُم ، ويُوجَدُ في سائرِ اللُّغاتِ ، إلا أنَّا الآنَ إنَّما نتكلَّمُ في الشعرِ الذي للعربِ ، فإن أمكنَ أن تجدَ فيهِ أهلُ الألسنِ الأخرىٰ مقصودَهُم مِنْ كلامِهِم ، وإلَّا . . فلكلِّ لسانٍ أحكامٌ في البلاغةِ تَخُصُّهُ .

وهوَ في لسانِ العربِ غريبُ النزعةِ ، عزيزُ المنحىٰ ؛ إذ هوَ كلامٌ مُفصَّلٌ قِطَعاً قِطَعاً ، متساويةً في الوزنِ ، مُتحِدةً في الحرفِ الأخيرِ مِنْ كلِّ قطعةٍ ، وتُسمَّىٰ كلُّ قطعةٍ مِنْ هٰذهِ القِطْعاتِ عندَهُم بيتاً ، ويُسمَّى الحرفُ الأخيرُ الذي تتفقُ فيهِ رويّاً وقافيةً ، ويُسمَّىٰ جملةُ الكلامِ إلىٰ آخرِهِ قصيدةً وكلمةً .

وينفردُ كلُّ بيتٍ منهُ بإفادتِهِ في تركيبِهِ ، حتىٰ كأنَّهُ كلامٌ وحدَهُ ، مُستقِلٌّ عمَّا قبلَهُ وما بعدَهُ ، وإذا أُفرِدَ . . كانَ تامّاً في بابِهِ ؛ في مدحٍ ، أو تشبيبٍ ، أو رثاءٍ ، فيَحرِصُ الشاعرُ علىٰ إعطاءِ ذٰلكَ البيتِ ما يَستقِلُّ في إفادتِهِ ، ثمَّ يستأنفُ في البيتِ [الآخرِ] كلاماً آخرَ كذٰلكَ ، ويستطردُ للخروجِ مِنْ فنٍّ إلىٰ فنٍّ ، ومِنْ مقصودٍ إلىٰ مقصودٍ ، بأن يُوطِّئَ المقصودَ الأوَّلَ ومعانيَهُ إلىٰ أن يُناسِبَ المقصودَ الثانيَ ، ويُبعِدَ الكلامَ عنِ التنافرِ ؛ كما يستطردُ مِنَ التشبيبِ إلى المدحِ ، ومِنْ وصفِ البيداءِ والطُّلولِ إلىٰ وصفِ الركابِ أوِ الخيلِ أوِ الطَّيفِ ، ومِنْ وصفِ الممدوحِ إلىٰ وصفِ قومِهِ وعساكرِهِ ، ومِنَ التفجُّعِ والعزاءِ في الرثاءِ إلى التأثُّرِ ، وأمثالِ ذٰلكَ ويُراعي فيهِ اتفاقَ القصيدةِ كلِّها في الوزنِ الواحدِ ؛ حذراً مِنْ أن يتساهلَ الطبعُ في الخروجِ مِنْ وزنٍ إلىٰ وزنٍ يقاربُهُ ، فقد يَخفىٰ ذٰلكَ مِنْ أجلِ المقاربةِ علىٰ كثيرٍ مِنَ الناسِ .

ولهٰذهِ الموازينِ شروطٌ وأحكامٌ تَضمَّنَها علمُ العَروضِ ، وليسَ كلُّ وزنٍ

اتَّفقَ في الطَّبعِ استعملَتْهُ العربُ في هـٰذا الفنِّ ، وإنَّما هيَ أوزانٌ مخصوصةٌ تُسمِّيها أهلُ تلكَ الصِّناعةِ : **البحورَ** ، وقد حصروها في خمسةَ عشرَ بحراً أو ستةَ عشرَ ، بمعنىٰ أنَّهُم لم يجدوا للعربِ في غيرِها مِنَ الموازينِ الطبيعيةِ نظماً) [١] .

قلتُ : وما ذُكِرَ مِنِ انفرادِ كلِّ بيتٍ بمعناهُ عن سابقِهِ ولاحقِهِ إنَّما هو في صفةِ جيدِ الشعرِ ، كأنَّهُ لم يَعُدَّ غيرَهُ شعراً ، علىٰ أنَّهُ ربَّما أوجبَتْ جودةُ الشعرِ اغتفارَ افتقارِ كلٍّ مِنَ البيتَينِ لصاحبِهِ ، ألا ترىٰ أنَّ ذٰلكَ لم ينقصْ مِنْ حسنِ قولِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ [٢] : [من الرمل]

لَيْتَ هِنْداً أَنْجَزَتْنَا مَا تَعِدْ وَشَفَتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا تَجِدْ

وَٱسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا ٱلْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدّْ

زَعَمُوهَا سَأَلَتْ جَارَاتِهَا وَتَعَرَّتْ ذَاتَ يَوْمٍ تَبْتَرِدْ

أَكَمَا يَنْعَتُنِي تُبْصِرْنَنِي عَمْرَكُنَّ ٱللهَ أَمْ لَا يَقْتَصِدْ

فَتَضَاحَكْنَ وَقَدْ قُلْنَ لَهَا حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدّْ

حَسَداً حُمِّلْنَهُ مِنْ أَجْلِهَا وَقَدِيماً كَانَ فِي ٱلنَّاسِ ٱلْحَسَدْ

لا أراكَ تَشُكُّ في أنَّ هـٰذا الشعرَ بالغٌ مِنَ الحسنِ غايةَ ما يمكنُ ، ولم يُؤثِّرْ فيهِ افتقارُ البيتِ لصاحبِهِ ؛ إذ كانَ المعنىٰ مُستدعياً ذٰلكَ .

[الشعرُ ديوانُ علومِ العربِ]

ثمَّ قالَ ابنُ خلدونَ : (واعلمْ : أنَّ فَنَّ الشعرِ مِنْ بينِ الكلامِ كانَ شريفاً

(١) انظر « مقدمة ابن خلدون » (ص ٥٦٩ ـ ٥٧٠) .

(٢) انظر « ديوان عمر بن أبي ربيعة » (ص ١٠٦) .

عندَ العربِ ، ولذٰلكَ جعلوهُ ديوانَ علومِهِم وأخبارِهِم ، وشواهدَ صوابِهِم وخطئِهِم ، وأصلاً يرجعونَ إليهِ في الكثيرِ مِنْ علومِهِم وحِكَمِهِم ، وكانَتْ ملكتُهُ مستحكمةً فيهِم ، شأنَ المَلَكَاتِ كلِّها ، والمَلَكَاتُ اللسانيَّةُ كلُّها إنَّما تُكتسَبُ بالصِّناعةِ والارتياضِ في كلامِهِم ، حتَّىٰ يحصلَ شبهٌ في تلكَ المَلَكةِ .

والشعرُ مِنْ بينِ فنونِ الكلامِ صعبُ المأخذِ علىٰ مَنْ يريدُ اكتسابَ ملكتِهِ بالصِّناعةِ مِنَ المُتأخرِّينَ ؛ لاستقلالِ كلِّ بيتٍ منهُ بأنَّهُ كلامٌ تامٌّ في مقصودِهِ ، ويصلحُ أن ينفردَ دونَ ما سواهُ ، فيَحتاجُ مِنْ أجلِ ذٰلكَ إلىٰ نوعِ تَلطُّفٍ في تلكَ المَلَكةِ ، حتىٰ يُفرِغَ الكلامَ الشعريَّ في قوالبِهِ التي عُرِفَتْ لهُ في ذٰلكَ المنحىٰ مِنْ شعرِ العربِ ، ويبرزَهُ مُستقِلّاً بنفسِهِ ، ثمَّ يأتيَ ببيتٍ آخَرَ كذٰلكَ ، ثمَّ ببيتٍ ، ويستكملَ الفنونَ الوافيةَ بمقصودِهِ ، ثمَّ يناسبَ بينَ البيوتِ في موالاةِ بعضِها معَ بعضٍ ؛ بحَسَبِ اختلافِ الفنونِ التي في القصيدةِ .

ولصعوبةِ منحاهُ ، وغرابةِ فنِّهِ . . كانَ مِحَكّاً للقرائحِ في استجادةِ أساليبِهِ ، وشحذِ الأفكارِ في تنزيلِ الكلامِ في قوالبِهِ ، ولا يكفي فيهِ مَلَكةُ الكلامِ العربيِّ على الإطلاقِ ، بل يحتاجُ بخصوصِهِ إلىٰ تَلطُّفٍ ، ومحاولةٍ في رعايةِ الأساليبِ التي اختصَّتْهُ العربُ بها واستعمالِها .

[مرادُ أهلِ صناعةِ الكلامِ بالأساليبِ]

ولنذكرْ هنا ما يريدُهُ أهلُ الصِّناعةِ بالأساليبِ :

فاعلمْ : أنَّها عبارةٌ عندَهُم عنِ المِنوالِ الذي يُنسَجُ فيهِ التراكيبُ ، والقالَبُ الذي يُفرَغُ فيهِ ولا يرجعُ إلى الكلامِ باعتبارِ إفادتِهِ أصلَ المعنى الذي هوَ

وظيفةُ الإعرابِ ، ولا باعتبارِ إفادتِهِ كمالَ المعنىٰ مِنْ خواصِّ التراكيبِ الذي هوَ وظيفةُ البلاغةِ والبيانِ ، ولا باعتبارِ الوزنِ كما استعملَهُ العربُ فيهِ الذي هوَ وظيفةُ العَروضِ ، فهٰذهِ العلومُ خارجةٌ عن هٰذهِ الصِّناعةِ الشعريَّةِ ، وإنَّما يرجعُ إلىٰ صورةٍ ذهنيَّةٍ للتراكيبِ المنتظمةِ كلِّيَّةٍ باعتبارِ انطباقِها علىٰ تركيبٍ خاصٍّ ، وتلكَ الصورةُ يَنتزعُها الذِّهنُ مِنْ أعيانِ التراكيبِ وأشخاصِها ، ويُصيِّرُها في الخيالِ كالقالَبِ أوِ المِنوالِ ، ثمَّ ينتقي التراكيبَ الصَّحيحةَ عندَ العربِ باعتبارِ الإعرابِ والبيانِ ، فيَرصُّها فيهِ رصّاً كما يَفعلُهُ البنَّاءُ في القالبِ ، والنَّسَّاجُ في المِنوالِ ، حتىٰ يَتسِعَ القالَبُ بحصولِ التراكيبِ الوافيةِ بمقصودِ الكلامِ ، ويقعُ على الصورةِ الصَّحيحةِ باعتبارِ مَلَكةِ اللسانِ العربيِّ فيهِ ، فإنَّ لكلِّ فنٍّ مِنَ الكلامِ أساليبَ تَختصُّ بهِ ، وتُوجَدُ فيهِ علىٰ أنحاءٍ مختلفةٍ ؛ **فسؤالُ الطُّلولِ في الشعرِ يكونُ بخطابِ الطُّلولِ** ؛ كقولِهِ [1] : [من البسيط]

يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ فَٱلسَّنَدِ

ويكونُ باستدعاءِ الصَّحبِ للوقوفِ والسؤالِ ؛ كقولِهِ [2] : [من الطويل]

قِفَا نَسْأَلِ ٱلدَّارَ ٱلَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا

أو باستبكاءِ الصَّحبِ على الطَّلَلِ ؛ كقولِهِ [3] : [من الطويل]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

---

(١) صدر معلقة النابغة الذبياني . انظر « ديوانه » (ص ١٤) ، والبيت بتمامه :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ فَٱلسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ ٱلْأَمَدِ

(٢) هو لدعبل الخزاعي كما في « ديوانه » (ص ٣٠٠) ، والبيت بتمامه :

قِفَا نَسْأَلِ ٱلدَّارَ ٱلَّتِي خَفَّ أَهْلُهَا ... مَتَىٰ عَهْدُهَا بِٱلصَّوْمِ وَٱلصَّلَوَاتِ

(٣) البيت لامرئ القيس ، كما في « ديوانه » (ص ٨) ، والبيت بتمامه :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَىٰ حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ ٱللِّوَىٰ بَيْنَ ٱلدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

أو بالاستفهامِ عنِ الجوابِ لمُخاطَبٍ غيرِ مُعيَّنٍ ؛ كقولِهِ[1] : [من الوافر]

أَلَـمْ تَـسْـأَلْ فَـتُـخْـبِـرَكَ ٱلـرُّسُـومُ

ومثلَ تحيةِ الطُّلولِ بالأمرِ لمُخاطَبٍ غيرِ مُعيَّنٍ بتحيَّتِها ؛ كقولِهِ : [من السريع]

حَـيِّ ٱلـدِّيَـارَ بِـجَـانِـبِ ٱلْـحِـجْـرِ

أو بالدعاءِ لها بالسُّقيا ؛ كقولِهِ[2] : [من الكامل]

أَسَـقَـىٰ طُـلُـولَـهُـمُ أَجَـشُّ هَـزِيـمُ وَغَـدَتْ عَـلَـيْـهِـمْ نَـضْـرَةٌ وَنَـعِـيـمُ

أو سؤالِهِ السُّقيا لهُ مِنَ البرقِ ؛ كقولِهِ : [من الكامل]

يَـا بَـرْقُ طَـالِـعْ مَـنْـزِلاً بِـٱلْأَبْـرَقِ وَٱحْـدُ ٱلسَّـحَـابَ لَـهَـا حُـدَاءَ ٱلْأَيْـنُـقِ

أو مثلَ التفجُّعِ بالجزعِ باستدعاءِ البكاءِ ؛ كقولِهِ[3] : [من الطويل]

كَذَا فَلْيَجِلَّ ٱلْخَطْبُ وَلْيَفْدَحِ ٱلْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُذْرُ

أو باستعظامِ الحادثِ ؛ كقولِهِ[4] : [من الكامل]

أَرَأَيْـتَ مَـنْ حُـمِـلُـوا عَـلَى ٱلْأَعْـوَادِ

أو بالتسجيلِ على الأكوانِ بالمصيبةِ لفقدِهِ ؛ كقولِهِ[5] : [من البسيط]

مَـنَـابِـتَ ٱلْـعُـشْـبِ لَا حَـامٍ وَلَا رَاعِ مَضَـى ٱلرَّدَىٰ بِطَوِيلِ ٱلرُّمْحِ وَٱلْبَاعِ

---

(١) البيت من شواهد النحاة ، يجوز في قوله : (فتخبرك) الجزم والنصب ، والبيت بتمامه :

أَلَـمْ تَـسْـأَلْ فَـتُـخْـبِـرَكَ ٱلـرُّسُـومُ عَـلَـىٰ فِـرْتَـاجَ وَٱلـطَّـلَـلُ ٱلْـقَـدِيـمُ

(٢) البيت لأبي تمام ، كما في « معاهد التنصيص » (١/٢٧٠) .

(٣) البيت لأبي تمام ، كما في « معاهد التنصيص » (١/٤٠) .

(٤) هو للشريف الرضي ، كما في « ديوانه » (١/٣٨١) ، والبيت بتمامه :

أَعَـلِـمْـتَ مَـنْ حُـمِـلُـوا عَـلَى ٱلْأَعْـوَادِ أَرَأَيْـتَ كَـيْـفَ خَـبَا ضِـيَـاءُ ٱلـنَّـادِي

(٥) البيت للشريف الرضي ، كما في « ديوانه » (١/٦٢٧) .

أو بالإنكارِ علىٰ مَنْ لم يَتفجَّعْ لهُ مِنَ الجماداتِ ؛ كقولِ الخارجيةِ[1] : [من الطويل]

أَيَا شَجَرَ ٱلْخَابُورِ مَا لَكَ مُورِقاً   كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ٱبْنِ طَرِيفِ

أو بتهنئةِ فريقِهِ بالراحةِ مِنْ ثقلِ وطأتِهِ ؛ كقولِهِ[2] : [من الكامل]

أَلْقَى ٱلرِّمَاحَ رَبِيعَةُ بْنُ نِزَارِ   أَوْدَى ٱلرَّدَىٰ بِفَرِيقِكَ ٱلْمِغْوَارِ

وأمثالُ ذٰلكَ كثيرٌ في سائرِ فنونِ الكلامِ ومذاهبِهِ ، وينتظمُ التراكيبُ فيهِ بالجملِ وغيرِ الجملِ ، إنشائيةً وخبريةً ، اسميةً وفعليةً ، متفقةً وغيرَ متفقةٍ ، مفصولةً وموصولةً ، علىٰ ما هوَ شأنُ التراكيبِ في الكلامِ العربيّ في مكانِ كلِّ كلمةٍ مِنَ الأخرىٰ ، يُعرِّفُكَ فيهِ ما تستفيدُهُ بالارتياضِ في أشعارِ العربِ مِنَ القالَبِ الكليّ المُجرَّدِ في الذِّهنِ مِنَ التراكيبِ المعينةِ التي ينطبقُ ذٰلكَ القالَبُ علىٰ جميعِها ؛ فإنَّ مُؤلِّفَ الكلامِ هوَ كالبَنَّاءِ والنَّسَّاجِ ، والصورةَ الذهنيةَ المُنطبِعةَ كالقالَبِ الذي يُبنىٰ فيهِ أوِ المِنوالِ الذي يُنسَجُ عليهِ ؛ فإن خرجَ عنِ القالَبِ في بنائِهِ أو عنِ المِنوالِ في نسجِهِ . . كانَ فاسداً .

ولا تَقولَنَّ : إنَّ معرفةَ قوانينِ البلاغةِ كافيةٌ في ذٰلكَ ؛ لأنَّا نقولُ : القوانينُ إنَّما هيَ قواعدُ علميَّةٌ قياسيَّةٌ تفيدُ جوازَ استعمالِ التراكيبِ علىٰ هيئاتِها الخاصَّةِ بالقياسِ ، وهوَ قياسٌ علميٌّ صحيحٌ مُطَّرِدٌ كما هوَ قياسُ القوانينِ الإعرابيةِ ، وهٰذهِ الأساليبُ التي نحنُ نُقرِّرُها ليسَتْ مِنَ القياسِ في شيءٍ ، إنَّما هيَ هيئةٌ تَرسُخُ في النفسِ مِنْ تَتبُّعِ التراكيبِ في شعرِ العربِ بجريانِها على اللسانِ حتىٰ تستحكمَ صورتُها ، فيستفيدَ بها العملَ علىٰ مثالِها والاحتذاءَ بها في كلِّ تركيبٍ مِنَ الشعرِ كما قدَّمنا ذٰلكَ في الكلامِ بإطلاقٍ ، وإنَّ القوانينَ العلميَّةَ مِنَ العربيةِ والبيانِ لا تفيدُ تعليمَهُ بوجهٍ .

---

(١) البيت لأخت الوليد بن طريف ترثيه ، كما في « العقد الفريد » (٣/٢٦٩) .

(٢) ذكره ياقوت الحموي في « معجم الأدباء » (٤/٤٠٢) وعزاه للشريف الرضي .

وليسَ كلُّ ما يَصِحُّ في قياسِ كلامِ العربِ وقوانينِهِ العلميَّةِ استعملوهُ ، وإنَّما المُستعمَلُ عندَهُم مِنْ ذٰلكَ أنحاءٌ معروفةٌ يَطَّلِعُ عليها الحافظونَ لكلامِهِم ، تندرجُ صورتُها تحتَ تلكَ القوانينِ القياسيَّةِ .

فإذا نظرَ في شعرِ العربِ علىٰ هٰذا النحوِ ، وبهٰذهِ الأساليبِ الذهنيةِ التي تصيرُ كالقوالبِ . . كانَ ناظراً في المُستعمَلِ مِنْ تراكيبِهِم ، لا فيما يقتضيهِ القياسُ ، ولهٰذا قلنا : إنَّ المُحصِّلَ لهٰذهِ القوالبِ في الذِّهنِ إنَّما هوَ حفظُ أشعارِ العربِ وكلامِهِم ، وهٰذهِ القوالبُ كما تكونُ في المنظومِ تكونُ في المنثورِ ؛ فإنَّ العربَ استعملوا كلامَهُم في كلا الفنَّينِ ، وجاؤوا بهِ مُفصَّلاً في النوعَينِ ؛ ففي الشعرِ بالقِطَعِ الموزونةِ ، والقوافي المقيدةِ ، واستقلالِ الكلامِ في كلِّ قطعةٍ ، وفي المنثورِ يعتبرونَ الموازنةَ والتشابهَ بينَ القطعِ غالباً ، وقد يقيدونَهُ بالأسجاعِ ، وقد يرسلونَهُ ، وكلُّ واحدةٍ مِنْ هٰذهِ معروفةٌ في لسانِ العربِ .

والمُستعمَلُ منها عندَهُم هوَ الذي يبني مُؤلِّفُ الكلامِ عليهِ تأليفَهُ ، ولا يَعرِفُهُ إلَّا مَنْ حفظَ كلامَهُم حتىٰ يَتجرَّدَ في ذهنِهِ مِنَ القوالبِ المعينةِ الشخصيةِ قالبٌ كليٌّ مُطلَقٌ ، يحذو حذوَهُ في التأليفِ ، كما يحذو البَنَّاءُ على القالبِ والنَّسَّاجُ على المِنوالِ ؛ فلهٰذا كانَ مَنْ يُؤلِّفُ الكلامَ مُنفرِداً عن نظرِ النحويِّ والبيانيِّ والعَروضيِّ .

نعم ؛ إنَّ مراعاةَ قوانينِ هٰذهِ العلومِ شرطٌ فيهِ لا يَتِمُّ بدونِها ، فإذا تَحصَّلَتْ هٰذه الصِّفاتُ كلُّها في الكلامِ . . اختصَّ بنوعٍ مِنَ النظرِ لطيفٍ في هٰذهِ القوالبِ التي يُسمُّونَها أساليبَ ، ولا يفيدُهُ إلَّا حفظُ كلامِ العربِ نظماً ونثراً .

[حدُّ المُؤلِّف للشعرِ]

وإذا تَقرَّرَ معنى الأسلوبِ ما هوَ . . فلنذكرْ بعدَهُ حدّاً أو رسماً للشعرِ بهِ تَفهمُ حقيقتَهُ علىٰ صعوبةِ هٰذا الغرضِ ؛ فإنَّا لم نقفْ عليهِ لأحدٍ مِنَ المُتقدِّمينَ فيما رأيناهُ ، وقولُ العروضيينَ في حدِّهِ : إنَّهُ الكلامُ الموزونُ

المُقفَّىٰ . . ليسَ بحدٍّ لهٰذا الشعرِ الذي نحنُ بصددِهِ ولا رسمٍ لهُ ، وصناعتُهُم إنَّما تنظرُ في الشعرِ باعتبارِ ما فيه مِنَ الإعرابِ والبلاغةِ والوزنِ والقوالبِ الخاصَّةِ ، فلا جرمَ أنَّ حدَّهُم ذٰلكَ لا يَصلُحُ لهُ عندَنا ، فلا بدَّ مِنْ تعريفٍ يعطينا حقيقتَهُ مِنْ هٰذهِ الحيثيَّةِ .

فنقولُ : الشعرُ : هوَ الكلامُ البليغُ المبنيُّ على الاستعارةِ والأوصافِ ، المُفصَّلُ بأجزاءٍ متفقةٍ في الوزنِ والرويِّ ، مُستقِلٌّ كلُّ جزءٍ منها في غرضِهِ ومَقصِدِهِ عمَّا قبلَهُ وبعدَهُ ، الجاري علىٰ أساليبِ العربِ المخصوصةِ بهِ .

فقولُنا : « الكلامُ البليغُ » جنسٌ .

وقولُنا : « المبنيُّ على الاستعارةِ والأوصافِ » فصلٌ عمَّا يخلو مِنْ هٰذهِ ، فإنَّهُ في الغالبِ ليسَ بشعرٍ .

وقولُنا : « المُفصَّلُ بأجزاءٍ متفقةِ الوزنِ والرويِّ » فصلٌ لهُ عنِ الكلامِ المنثورِ الذي ليسَ بشعرٍ عندَ الكلِّ .

وقولُنا : « مُستقِلٌّ كلُّ جزءٍ منها في غرضِهِ ومَقصِدِهِ عمَّا قبلَهُ وبعدَهُ » بيانٌ للحقيقةِ ؛ لأنَّ الشعرَ لا تكونُ أبياتُهُ إلَّا كذٰلكَ ، ولم يُفصَّلْ بهِ شيءٌ .

وقولُهُ : « الجاري على الأساليبِ المخصوصةِ بهِ » فصلٌ لهُ عمَّا لم يجرِ منهُ علىٰ أساليبِ العربِ المعروفةِ ؛ فإنَّهُ حينَئذٍ لا يكونُ شعراً ، إنَّما هوَ كلامٌ منظومٌ ؛ لأنَّ الشعرَ لهُ أساليبُ تَخصُّهُ لا تكونُ للمنثورِ ، وكذا أساليبُ المنثورِ لا تكونُ للشعرِ ، فما كانَ مِنَ الكلامِ منظوماً وليسَ علىٰ تلكَ الأساليبِ . . فلا يكونُ شعراً .

وبهٰذا الاعتبارِ كانَ الكثيرُ ممَّنْ لقيناهُ مِنْ شيوخِنا في هٰذهِ الصِّناعةِ الأدبيةِ يرونَ أنَّ نظمَ المتنبي والمَعرِّي ليسَ هوَ مِنَ الشعرِ في شيءٍ ؛ لأنَّهُما

لم يجريا علىٰ أساليبِ العربِ مِنَ الأممِ عندَ مَنْ يرىٰ أنَّ الشعرَ يُوجَدُ للعربِ وغيرِهِم ، ومَنْ يرىٰ أنَّهُ لا يُوجَدُ لغيرِهِم . . فلا يحتاجُ إلىٰ ذٰلكَ ، ويقولُ : مكانُهُ الجاري على الأساليبِ المخصوصةِ .

[كيفيةُ عملِ الشعرِ]

وإذ قد فرغنا مِنَ الكلامِ علىٰ حقيقةِ الشعرِ . . **فلنرجعْ إلى الكلامِ في كيفيةِ عملِهِ ، فنقولُ :**

اعلَمْ : أنَّ لعملِ الشعرِ وأحكامِ صناعتِهِ شروطاً ؛ **أوَّلُها** : الحفظُ مِنْ جنسِهِ ؛ أي : مِنْ جنسِ شعرِ العربِ ؛ حتىٰ تَنشأَ في النفسِ مَلَكةٌ ينسجُ علىٰ منوالِها ، ويتخيَّرُ المحفوظَ مِنَ الحُرِّ النقيِّ الكثيرِ الأساليبِ ، وهٰذا المحفوظُ المختارُ أقلُّ ما يكفي فيهِ شعرُ شاعرٍ مِنَ الفحولِ الإسلاميينَ ؛ مثلُ ابنِ أبي ربيعةَ ، وكُثَيِّرٍ ، وذي الرُّمةِ ، وجريرٍ ، وأبي نُواسٍ ، وحبيبٍ ، والبحتريِّ ، والرضيِّ ، وأبي فراسٍ ، وأكثرُهُ شعرُ كتابِ « الأغاني » لأنَّهُ جمعَ شعرَ أهلِ الطَّبقةِ الإسلاميةِ كلَّهُ ، والمختارَ مِنْ شعرِ الجاهليَّةِ ، ومَنْ كانَ خالياً مِنَ المحفوظِ . . فنظمُهُ قاصرٌ رديءٌ ، ولا يعطيهِ الرونقَ والحلاوةَ إلَّا كثرةُ المحفوظِ ، فمَنْ قلَّ حفظُهُ أو عُدِمَ . . لم يكنْ لهُ شعرٌ ، وإنَّما هوَ نظمٌ ساقطٌ ، واجتنابُ الشعرِ أَولىٰ بمَنْ لم يكنْ لهُ محفوظٌ .

ثمَّ بعدَ الامتلاءِ مِنَ الحفظِ ، وشحذِ القريحةِ للنسجِ على المِنوالِ . . **يُقبِلُ على النظمِ** ، وبالإكثارِ منهُ تستحكمُ ملكتُهُ وتَرسُخُ ، وربَّما يُقالُ : إنَّ مِنْ شرطِهِ نسيانَ ذٰلكَ المحفوظِ ؛ لتُمحَىٰ رسومُهُ الحرفيةُ الظاهرةُ ؛ إذ هيَ صادَّةٌ عنِ استعمالِها بعينِها ، فإذا نسيَها وقد تَكيَّفَتِ النفسُ بها . . انتقشَ الأسلوبُ فيها ، كأنَّهُ مِنوالٌ يأخذُ بالنسجِ عليهِ بأمثالِها مِنْ كلماتٍ أخرىٰ ضرورةً .

ثمَّ لا بدَّ لهُ مِنَ الخلوةِ ، واستجادةِ المكانِ المنظورِ فيهِ مِنَ المياهِ والأزهارِ ، وكذا المسموعُ ؛ لاستنارةِ القريحةِ باستجماعِها وتنشيطِها بملاذِّ السُّرورِ .

ثمَّ معَ هـٰذا كلِّهِ : فشرطُهُ : أن يكونَ علىٰ جَمامٍ ونشاطٍ ، فذٰلكَ أجمعُ لهُ وأنشطُ للقريحةِ أن تأتيَ بمثلِ ذٰلكَ المِنوالِ الذي في حفظِهِ ، قالوا : وخيرُ الأوقاتِ لذٰلكَ أوقاتُ الذِّكرِ عندَ الهُبوبِ مِنَ النومِ ، وفراغِ المعدةِ ، ونشاطِ الفكرِ ، وفي هـٰؤلاءِ الجَمامُ .

وربَّما قالوا : إنَّ مِنْ بواعثِهِ العشقَ والانتشاءَ ، ذكرَ ذٰلكَ ابنُ رشيقٍ في كتابِ « العمدةِ » ، وهوَ الكتابُ الذي انفردَ بهـٰذهِ الصِّناعةِ وإعطاءِ حقِّها ، ولم يَكتُبْ فيها أحدٌ قبلَهُ ولا بعدَهُ مثلَهُ .

قالوا : فإنِ استصعبَ عليهِ بعدَ هـٰذا كلِّهِ . . فليتركْهُ إلىٰ وقتٍ آخَرَ ، ولا يُكرِهْ نفسَهُ عليهِ .

وليكنْ بناءُ البيتِ على القافيةِ مِنْ أوَّلِ صوغِهِ ونسجِهِ ، يضعُها ويبني الكلامَ عليها إلىٰ آخِرِهِ ؛ لأنَّهُ إن غفلَ عن بناءِ البيتِ على القافيةِ . . صَعُبَ عليهِ وضعُها في مَحَلِّها ، فربَّما تجيءُ نافرةً قلقةً .

وإذا سمحَ الخاطرُ بالبيتِ ولم يناسبِ الذي عندَهُ . . فليتركْهُ إلىٰ موضعِهِ الأليقِ بهِ ، فإنَّ كلَّ بيتٍ مُستقِلٌّ بنفسِهِ ، ولم تبقَ إلَّا المناسبةُ ، فليتخيَّرْ فيها كما يشاءُ .

وليراجعْ شعرَهُ بعدَ الخلاصِ منهُ بالتنقيحِ والنقدِ ، ولا يَضَنَّ بهِ على التركِ إذا لم يبلغِ الإجادةَ ؛ فإنَّ الإنسانَ مفتونٌ بشعرِهِ إذ هو بناتُ فكرِهِ ، واختراعُ قريحتِهِ .

ولا يَستعمِلْ فيهِ مِنَ الكلامِ إلَّا الأفصحَ مِنَ التراكيبِ ، والخالصَ مِنَ

الضَّروراتِ اللسانيةِ ، فليهجرْها ؛ فإنَّها تنزلُ بالكلامِ عن طبقةِ البلاغةِ ، وقدْ حظرَ أئمةُ اللسانِ على المُولَّدِ ارتكابَ الضَّرورةِ ؛ إذ هوَ في سعةٍ منها بالعدولِ عنها إلى الطريقةِ المثلىٰ مِنَ المَلَكةِ .

ويجتنبْ أيضاً المُعقَّدَ مِنَ التراكيبِ جهدَهُ ، وإنَّما يَقصِدُ منها ما كانَتْ معانيه تسابقُ ألفاظَهُ إلى الفهمِ ، وكذٰلكَ كثرةُ المعاني في البيتِ الواحدِ ، فإنَّ فيهِ نوعَ تعقيدٍ على الفهمِ ، وإنَّما المختارُ منهُ ما كانَتْ ألفاظُهُ طبقاً علىٰ معانيهِ أو أوفىٰ ، فإنْ كانَتِ المعاني كثيرةً . . [كانَ حشواً ، واستُعمِلَ الذِّهنُ بالغوصِ عليها ، فمنعَ] ذٰلكَ الذوقَ عنِ استيفاءِ مدركِهِ مِنَ البلاغةِ ، ولا يكونُ الشعرُ سهلاً إلا إذا كانَتْ معانيهِ تسابقُ ألفاظَهُ إلى الذِّهنِ .

ولهٰذا كانَ شيوخُنا رحمَهُم اللهُ يعيبونَ شعرَ أبي بكرِ بنِ خفاجةَ شاعرِ شرقِ الأندلسِ ؛ لكثرةِ معانيهِ وازدحامِها في البيتِ الواحدِ ، كما كانوا يعيبونَ شعرَ المتنبي والمَعرّي بعدمِ النسجِ على الأساليبِ العربيةِ كما مرَّ ، فكانَ شعرُهُما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقةِ الشعرِ ، والحاكمُ بذٰلكَ هوَ الذوقُ .

وليجتنبِ الشاعرُ أيضاً الحُوشيَّ مِنَ الألفاظِ والمُقصِّرَ ، وكذٰلكَ السُّوقيَّ المُبتذَلَ بالتداولِ بالاستعمالِ ؛ فإنَّهُ ينزلُ بالكلامِ عن طبقةِ البلاغةِ أيضاً ، فيصيرُ مُبتذَلاً ، ويَقرُبُ مِنْ عدمِ الإفادةِ ؛ كقولِهِمُ : النارُ حارةٌ ، والسماءُ فوقَنا .

وبِمقدارِ ما يَقرُبُ مِنْ طبقةِ عدمِ الإفادةِ يَبعُدُ عن رتبةِ البلاغةِ ؛ إذ هما طرفانِ ؛ ولهٰذا كانَ الشعرُ في الربانيَّاتِ والنبويَّاتِ قليلَ الإجادةِ في الغالبِ ، ولا يحذُقُ فيهِ إلَّا الفحولُ ؛ لأنَّ معانيَها متداولةٌ بينَ الجمهورِ ، فتصيرُ مبتذلةً لذٰلكَ .

وإذا تَعذَّرَ الشعرُ بعدَ هٰذا كلِّهِ . . فليراوضْهُ ويعاوِدْهُ ؛ فإنَّ القريحةَ مثلُ الضَّرعِ ، يَدُرُّ بالامتراءِ ، ويَجِفُّ بالتركِ والإهمالِ)[1] .

[معنىٰ كلمةِ (الذَّوقِ) عندَ ابنِ خلدونَ]

وقالَ ابنُ خلدون أيضاً في تفسيرِ كلمةِ (الذَّوقِ) الدائرةِ علىٰ ألسنةِ المُتكلِّمينَ في هٰذا الشأنِ :

(اعلمْ : أنَّ لفظةَ « الذَّوقِ » يتداولُها المعتنونَ بفنونِ البيانِ ، ومعناها : حصولُ ملكةِ البلاغةِ للسانِ ، وقد مرَّ تفسيرُ البلاغةِ ، وأنَّها مطابقةُ الكلامِ للمعنىٰ مِنْ جميعِ وجوهِهِ بخواصَّ تقعُ للتراكيبِ في إفادةِ ذٰلكَ ؛ فالمُتكلِّمُ بلسانِ العربِ والبليغُ فيهِ يَتحرَّى الهيئةَ المفيدةَ لذٰلكَ علىٰ أساليبِ العربِ وأنحاءِ مخاطباتِهِم ، وينظمُ الكلامَ علىٰ ذٰلكَ الوجهِ جهدَهُ ، فإذا اتَّصلَتْ مَقاماتُهُ بمخالطةِ كلامِ العربِ . . حصلَتْ لهُ الملكةُ في نظمِ الكلامِ علىٰ ذٰلكَ الوجهِ ، وسَهُلَ عليهِ أمرُ التركيبِ ، حتىٰ لا يكادُ ينحو فيهِ غيرَ مَنحى البلاغةِ التي للعربِ ، وإن سمعَ تركيباً غيرَ جارٍ علىٰ ذٰلكَ المَنحىٰ . . مَجَّهُ ونبا عنهُ سمعُهُ بأدنىٰ فكرٍ ، بل وبغيرِ فكرٍ ، إلَّا بما استفادَهُ مِنْ حصولِ هٰذهِ المَلَكةِ ؛ فإنَّ المَلَكاتِ إذا استقرَّتْ ورَسَخَتْ في محالِّها . . ظهرَتْ كأنَّها طبيعةٌ وجِبلَّةٌ لذٰلكَ المَحلِّ ، ولذٰلكَ يظنُّ كثيرٌ مِنَ المُغفَّلينَ ممَّنْ لم يَعرفْ شأنَ المَلَكاتِ أنَّ الصَّوابَ للعربِ في لغتِهِم إعراباً وبلاغةً أمرٌ طبيعيٌّ ، ويقولُ : كانَتِ العربُ تنطقُ بالطَّبعِ ، وليسَ كذٰلكَ ، وإنَّما هيَ مَلَكةٌ لسانيةٌ في نظمِ الكلامِ تَمكَّنَتْ ورَسَخَتْ ، فظهرَتْ في باديءِ الرأيِ أنَّها جِبلَّةٌ وطبعٌ .

وهٰذهِ المَلَكةُ كما تَقدَّم إنَّما تَحصُلُ بممارسةِ كلامِ العربِ ، وتَكرُّرِهِ

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٧٠ ـ ٥٧٥) .

على السَّمعِ ، والتفطُّنِ لخواصِّ تراكيبِهِ ، وليسَتْ تحصلُ بمعرفتِهِ القوانينَ العلميةَ في ذٰلكَ التي استنبطَها أهلُ صناعةِ اللسانِ ؛ فإنَّ هٰذهِ القوانينَ إنَّما تفيدُ عِلْماً بذٰلكَ اللسانِ ، ولا تفيدُ حصولَ الملكةِ بالفعلِ في مَحَلِّها ، وقد مرَّ ذٰلكَ .

وإذا تَقرَّرَ ذٰلكَ . . فمَلَكةُ البلاغةِ في اللسانِ تهدي البليغَ إلىٰ وجوهِ النظمِ ، وحسنِ التركيبِ الموافقِ لتراكيبِ العربِ في لغتِهِم ونظمِ كلامِهِم ، ولو رامَ صاحبُ هٰذهِ المَلَكةِ حيداً عن هٰذهِ السبيلِ المعينةِ والتراكيبِ المخصوصةِ . . لَمَا قَدَرَ عليهِ ، ولا وافقَهُ عليهِ لسانُهُ ؛ لأنَّهُ لا يعتادُهُ ، ولا تهديهِ إليهِ ملكتُهُ الراسخةُ عندَهُ ، وإذا عُرِضَ عليهِ الكلامُ حائداً عن أسلوبِ العربِ وبلاغتِهِم في نظمِ كلامِهِم . . أعرضَ عنهُ ومَجَّهُ ، وعلمَ أنَّهُ ليسَ مِنْ كلامِ العربِ الذينَ مارسَ كلامَهُم ، وربَّما يَعجِزُ عنِ الاحتجاجِ لذٰلكَ كما تصنعُ أهلُ القوانينِ النحويةِ والبيانيةِ ، فإنَّ ذٰلكَ استدلالٌ بما حصلَ مِنَ القوانينِ المفادةِ بالاستقراءِ ، وهٰذا أمرٌ وجدانيٌّ حاصلٌ بممارسةِ كلامِ العربِ ، حتىٰ يصيرَ كواحدٍ منهُم .

ومثالُهُ : لو فرضنا صبيّاً مِنْ صبيانِهِم نشأَ ورَبِيَ في جيلِهِم . . فإنَّهُ يَتعلَّمُ لغتَهُم ، ويُحكِمُ شأنَ الإعرابِ والبلاغةِ فيها حتىٰ يستوليَ علىٰ غايتِها ، وليسَ مِنَ العلمِ القانونيِّ في شيءٍ ، وإنَّما هوَ بحصولِ هٰذهِ المَلَكةِ في لسانِهِ ونطقِهِ ، وكذٰلكَ تَحصُلُ هٰذهِ الملكةُ لِمَنْ بعدَ ذٰلكَ الجيلِ ؛ بحفظِ كلامِهِم وأشعارِهِم وخُطَبِهِم ، والمداومةِ علىٰ ذٰلكَ ؛ بحيثُ يُحصِّلُ المَلَكةَ ، ويصيرُ كواحدٍ ممَّنْ نشأَ في جيلِهِم ، ورَبِيَ بينَ أجيالِهِم ، والقوانينُ بمَعزلٍ عن هٰذا .

واستُعِيرَ لهٰذهِ المَلَكةِ عندَما ترسخُ وتَستقِرُّ اسمُ « الذَّوقِ » الذي اصطلحَ

عليهِ أهلُ صناعةِ البيانِ ، وإنَّما هوَ موضوعٌ لإدراكِ الطُّعومِ ، لٰكنْ لمَّا كانَ مَحَلُّ هٰذهِ المَلَكةِ في اللسانِ مِنْ حيثُ النطقُ بالكلامِ كما هوَ مَحَلٌّ لإدراكِ الطُّعومِ . . استُعِيرَ لها اسمُهُ ، وأيضاً فهوَ وجدانيُّ اللسانِ كما أنَّ الطُّعومَ محسوسةٌ لهُ ، فقيلَ لهُ : ذوقٌ ، وإذا تَبيَّنَ لكَ ذٰلكَ . . علمتَ منهُ أنَّ الأعاجمَ الداخلينَ في اللسانِ العربيِّ ، الطارئينَ عليهِ ، المُضطَرِّينَ إلى النطقِ بهِ لمخالطةِ أهلِهِ ؛ كالفرسِ والرومِ والتركِ بالمشرقِ ، وكالبربرِ بالمغربِ . . فإنَّهُ لا يَحصُلُ لهُم هٰذا الذَّوقُ ؛ لقصورِ حظِّهِم في هٰذهِ المَلَكةِ التي قَرَّرنا أمرَها ؛ لأنَّ قصاراهُم بعدَ طائفةٍ مِنَ العمرِ وسبقِ مَلَكةٍ أخرىٰ إلى اللسانِ وهيَ لغاتُهُم . . أن يَعتنوا بما يتداولُهُ أهلُ مصرٍ بينَهُم في المحاورةِ مِنْ مفردٍ ومُركَّبٍ ، ويُضطَرُّونَ إليهِ مِنْ ذٰلكَ ، وهٰذهِ المَلَكةُ قد ذهبَتْ لأهلِ الأمصارِ ، وبعدوا عنها كما تَقدَّمَ ، وإنَّما لهُم في ذٰلكَ مَلَكةٌ أخرىٰ ، وليسَتْ هيَ ملكةَ اللسانِ المطلوبةَ .

ومَنْ عرفَ تلكَ المَلَكةَ مِنَ القوانينِ المُسطَّرةِ في الكتبِ . . فليسَ مِنْ تحصيلِ المَلَكةِ في شيءٍ ، إنَّما حَصَّلَ أحكامَها كما عرفتَ ، وإنَّما تَحصُلُ هٰذهِ المَلَكةُ بالممارسةِ والاعتيادِ والتكرُّرِ لكلامِ العربِ .

فإن عرضَ لكَ ما تسمعُهُ مِنْ أنَّ سيبويهِ والفارسيَّ والزمخشريَّ وأمثالَهُم مِنْ فرسانِ الكلامِ كانوا أعجاماً معَ حصولِ هٰذهِ المَلَكةِ لهُم . . **فاعلمْ** : أنَّ أولٰئكَ القومَ الذين تسمعُ عنهُم إنَّما كانوا عجماً في نسبِهِم فقطْ ، وأمَّا المَرْبَىٰ والنشأةُ . . فكانَتْ بينَ أهلِ هٰذهِ المَلَكةِ مِنَ العربِ ومَنْ تَعلَّمَها منهُم ، فاستولَوا بذٰلكَ مِنَ الكلامِ علىٰ غايةٍ لا [شيءَ] وراءَها ، وكأنَّهُم في أوَّلِ نشأتِهِم مِنَ العربِ الذين نشؤُوا في أجيالِهِم ، حتىٰ أدركوا كنْهَ اللغةِ ، وصاروا مِنْ أهلِها ، فهُم وإن كانوا عجماً في النَّسبِ . . فليسوا بأعجامٍ في اللغةِ والكلامِ ؛ لأنَّهُم أدركوا المِلَّةَ في عنفوانِها ، واللغةَ في شبابِها ، ولم

تذهبْ آثارُ المَلَكةِ ولا مِنْ أهلِ الأمصارِ ، ثمَّ عكفوا على الممارسةِ والمدارسةِ لكلامِ العربِ حتى استولَوا علىٰ غايتِهِ)[1] .

قلتُ : وحاصلُ هـٰذا الكلامِ واختصارُ الطريقِ إلىٰ معرفةِ الغرضِ منهُ : هوَ أنَّ مَنْ يريدُ أن يَتصدَّىٰ لإنشاءِ الكلامِ نثراً كانَ أو نظماً يجبُ أن يكونَ فيهِ استعدادٌ طبيعيٌّ لأمورٍ اختياريَّةٍ ؛ وذٰلكَ بأن يكونَ ذا حافظةٍ قويَّةٍ ، وفهمٍ ثاقبٍ ، وذاكرةٍ مطيعةٍ ، فإنَّ الناسَ في ذٰلكَ ليسوا سواءً .

قالَ الحكماءُ عن خبرةٍ تامَّةٍ وتَجرِبةٍ كافيةٍ ومعرفةٍ صحيحةٍ : إنَّ الإنسانَ ذو طبائعَ أربعٍ : الدمُ ، والصَّفراءُ ، والسوداءُ ، والبلغَمُ ، وإذا غلبَ علىٰ مِزاجِهِ إحدىٰ تلكَ الطَّبائعِ . . نُسِبَ إليها ، فقيلَ : دمويٌّ ، وصفراويٌّ ، وسوداويٌّ ، وبلغميٌّ ، ولكلٍّ أماراتٌ ظاهرةٌ .

والدَّمويُّ : يكونُ ممتلئَ الأعضاءِ ، مكتنزَ اللحمِ ، صافيَ اللونِ نيِّرَهُ ، صحيحَ الجمالِ .

والصَّفراويُّ : يكونُ نحيفاً يابساً ، في لونِهِ صفرةٌ .

والسَّوداويُّ : يكونُ يابساً ، في لونِهِ كمدةٌ ، شديدُ الشبقِ .

والبلغميُّ : يكونُ رخواً مائياً ، في لونِهِ نوعُ زرقةٍ .

ومِنْ خواصِّ الدَّمويِّ : سرعةُ الحفظِ ، وبطءُ النسيانِ .

ومِنْ خواصِّ الصَّفراويِّ : سرعةُ الحفظِ ، وسرعةُ النسيانِ .

ومِنْ خواصِّ السَّوداويِّ : بطءُ الحفظِ ، وبطءُ النسيانِ .

والبلغميُّ : بطيءُ الحفظِ ، سريعُ النسيانِ .

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٦٢ ـ ٥٦٤) .

فإذا كانَ الإنسانُ ذا حافظةٍ قويةٍ ، واستعملَها في حفظِ ما اتفقَ أسلافُهُ ومعلموهُ على استجادتِهِ ، مهتدياً بفهمِهِ إلىٰ معاني محفوظاتِهِ ومقاصدِها ، وتمييزِ كلِّ فريقٍ منها بما لهُ مِنَ المحاسنِ وما لغيرِهِ مِنَ المساوي ، حَسَبَ ما سلفَ إرشادُكَ لهُ ، ثمَّ استخدمَ ذاكرتَهُ في إحضارِ ما أرادَ مِنْ ذٰلكَ متىٰ شاءَ . . فهوَ حينَئذٍ مُتهيّئٌ لتحصيلِ تلكَ الصِّناعةِ ، وبالغٌ منها بتوفيقِ اللهِ غايةَ منيتِهِ ، ومنتهىٰ مقصودِهِ .

فمَنْ لم يجدْ مِنْ نفسِهِ ذٰلكَ الاستعدادَ . . فعليهِ ألَّا يُورِّطَ نفسَهُ ويستعملَها في ما يكدُّها مِنْ غيرِ عاقبةٍ حميدةٍ ، بل عليهِ أن ينظرَ فيما يسهلُ عليهِ ويمكنُهُ الانتفاعُ بهِ ، كما قيلَ [1] : [من الوافر]

إِذَا لَـمْ تَـسْـتَـطِـعْ شَـيْـئـاً فَـدَعْـهُ وَجَـاوِزْهُ إِلَـىٰ مَـا تَـسْـتَـطِـيـعُ

وإذ كانَ الإنسانُ في أوّلِ أمرِهِ هوَ والبهائمُ سواءً ، لا يهتدي لمعرفةِ ما هوَ الأصلحُ مِنَ الأحوالِ حتىٰ يَتعوَّدَها ، ويُربّيَ فيها مَلَكتَهُ . . فعلىٰ مَنْ يَتولّىٰ تربيتَهُ أن يختبرَهُ ، ويَترصَّدَ رغباتِهِ ، ويَتأمَّلَ ميلَهُ وما يمكنُ أن يَقْوَىٰ فيهِ ، حَسَبَ طبيعتِهِ ، ووَفقَ جِبلَّتِهِ ، ويأخذَهُ بمزاولةِ ذٰلكَ حتىٰ يَتِمَّ .

فإذا جرى العملُ علىٰ ذٰلكَ . . حَسُنَ أمرُ الأمَّةِ ، وانتظمَتْ مسالكُهُم ، وقَوِيَتْ منافعُهُم ، وبلغوا الدرجةَ التي هيَ للأمَّةِ كمالٌ ، ولجميعِ طوائفِها وأشخاصِها أتمُّ جمالٍ .

وأمَّا قولُهُ في تفسيرِ (الذَّوقِ) . . فأبينُ منهُ ما سألقيهِ عليكَ ؛ وذٰلكَ أنَّ بينَ الأشياءِ تناسباً ، بحيثُ متى استوفَتْ عندَ اجتماعِها حظَّها منهُ . . قامَتْ منها صورةٌ يتفاوتُ الناسُ في إدراكِ حسنِها طبعاً وتعلُّماً ؛ فمنهُم : مَنْ لا يدركُ ذٰلكَ ولا يلتفتُ إليهِ ، وليسَ مدركوهُ سواءً فيهِ ؛ فمنهُم : مَنْ

(١) انظر « معاهد التنصيص » (٢/٢٣٦) ، وعزاه لعمرو بن معديكرب .

يقنعُ بإدراكِ ظواهرِ الأشياءِ ، ومنهُم : مَنْ ينتهي إدراكُهُ إلى اعتبارِ دقائقِها وخوافيها .

وتعتبرُ ذٰلكَ بما تشاهدُهُ مِنْ شدَّةِ سرورِ بعضِ الناسِ عندَ رؤيتِهِ للأشياءِ المناسبةِ التي يلائمُ بعضُها بعضاً ، وشدَّةِ نفرتِهِ وانقباضِهِ عندَ رؤيةِ خلافِها ، لا يَختصُّ ذٰلكَ بشيءٍ دونَ شيءٍ ، فتراهُ يتأمَّلُ الأبنيةَ وأوضاعَها ، وما اشتملَتْ عليهِ مِنْ مُكمِّلاتِ الانتفاعِ بها ، فإذا أدركَ فيها التناسبَ اللائقَ بها . . رأيتَهُ قدِ انشرحَ صدرُهُ ، وتَجدَّدَ سرورُهُ ، وأخذَ في نعتِها والثناءِ علىٰ صناعِها .

وذٰلكَ مثلٌ تعتبرُ بهِ غيرَهُ ، وتَتأمَّلُ تفاوتَ الناسِ في ذٰلكَ الإدراكِ ، **فالإدراكُ الذي يَتعلَّقُ بتناسبِ الأشياءِ ، ويوجبُ الاستحسانَ والاستقباحَ . .** هوَ المُسمَّىٰ بالذوقِ ، وهوَ طبيعيٌّ ، ينمو ويَتربَّىٰ بالنظرِ في الأشياءِ والأعمالِ مِنْ جهةِ موافقتِها للغايةِ المقصودةِ منها .

وأمَّا قولُهُ في الأساليبِ العربيةِ واختصاصِها ، حتىٰ إنَّه أخرجَ نظمَ المتنبي وأبي العلاءِ المَعريِّ عن أن يكونَ شعراً : فذٰلكَ حَجْرُ واسعٍ وحظرُ مباحٍ ؛ فإنَّ أنفسَ الشعراءِ مِنَ العربِ لم يَتَّفقوا علىٰ سلوكِ طريقٍ بعينِها ، وإنَّما هيَ مذاهبُ مختلفةٌ ، وطرقٌ متشاغبةٌ ، كما قالَ اللّٰهُ تعالىٰ في صفتِهِم : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾(١) ، فليسَ هناكَ طريقٌ معينةٌ يلتزمُها السالكُ ، وإنَّما المَدارُ علىٰ أن توافقَ التراكيبُ التي يستعملُها المُستعمِلُ تراكيبَ العربِ حَسَبَ ما بَيَنَتْهُ القوانينُ العلميةُ علىٰ أنَّهُ لا يَصِحُّ تقليدُ العربِ في جميعِ ما نطقوا بهِ ، فقد عرفتَ مما سلفَ أنَّ بعضَ كلامِهِم يجبُ اجتنابُ مثلِهِ ، وأنَّهُم لا يُتابَعونَ إلَّا فيما كانَ أوفقَ للغرضِ مِنَ الكلامِ ؛ وهوَ التفاهمُ ،

---

(١) سورة الشعراء : (٢٢٥) .

وفي خصوصِ الشعرِ والإنشاءِ مِنَ التأثيرِ في الطِّباعِ وتحويلِها إلى الميلِ الذي يريدُهُ الشاعرُ والكاتبُ .

ففي **الحماسِ** مثلاً : يكونُ الكلامُ مُهيِّجاً للقُوىٰ ، مثيراً للغضبِ ، باعثاً على الحميَّةِ ، وفي **الغَزَل** : يكونُ سارّاً للنفوسِ ، مريحاً للخواطرِ ، وفي **العتابِ** : هادياً للموافقةِ ، ومُولِّداً للرضا . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، ممَّا تَضطرُّكَ إلىٰ معرفتِهِ مطالعةُ الأحوالِ مِنْ جهةِ الإيصالِ إلى المرغوبِ ، والحمايةِ مِنَ المرهوبِ .

❀ ❀ ❀

فتقرَّرَ بجميعِ ما سلفَ : أنَّه لا طريقَ لتعلُّمِ صناعةِ الإنشاءِ إلَّا حفظُ كلامِ الغيرِ وفهمُهُ ، وتمييزُ مقاصدِهِ .

وهـٰأنا مُستشهِدٌ علىٰ ذٰلكَ بما هوَ حاضرٌ معنا في هـٰذا العصرِ المخالفِ بالكليةِ للعصورِ التي كانَ أمرُ الشعرِ والكتابةِ الصِّناعيةِ قائماً ، ورغباتُ الملوكِ وأعيانِ الأمراءِ فيهِما متوفرةً ؛ إذ كانَتِ الدولةُ عربيةً ، وأُمراؤُها مِنَ العربِ أو مِنْ غيرِهِم ، وهُم مُضطرُّونَ لإتقانِ معرفةِ لسانِهِم ، حَسَبَ ما كانَتْ تبعثُ الحاجةُ إليهِ ، ويتوقفُ تحصيلُ الأغراضِ عليهِ ، وبتغيُّرِ الدولةِ تَتغيَّرُ الأحوالُ ؛ فإنَّ الكتابةَ الصِّناعيةَ بلسانِ الدولةِ القائمةِ بالغةٌ درجتُها باللسانِ العربيِّ أو أعلىٰ ، كما تسمعُهُ مِنَ العارفينَ بطرائفِ اللسانَينِ ومحاسنِ اللغتَينِ ، وليسَ يقوىٰ أمرٌ ـ كما هوَ بديهيٌّ ـ إلَّا بحَسَبِ قُوَّةِ الحاجةِ إليهِ .

❋ ❋ ❋

[نبذةٌ مِنْ أشعارِ البارودِيِّ في مُحاكاةِ بعضِ قصائدِ السابقينَ]

هٰذا الأميرُ الجليلُ ، ذو الشرفِ الأصيلِ ، والطَّبعِ البالغِ نقاؤُهُ ، والذِّهنِ المتناهي ذكاؤُهُ ؛ محمود سامي باشا البارودِيُّ ، لم يقرأْ كتاباً في فنٍّ مِنْ فنونِ العربيةِ ، غيرَ أنَّهُ لمَّا بلغَ سنَّ التعقُّلِ . . وجدَ مِنْ طبعِهِ ميلاً إلىٰ قراءةِ الشعرِ وعملِهِ ، فكانَ يستمعُ بعضَ مَنْ لهُ درايةٌ وهوَ يقرأُ بعضَ الدواوينِ ، أو يُقرَأُ بحضرتِهِ ، حتىٰ تَصوَّرَ في برهةٍ يسيرةٍ هيئاتِ التراكيبِ العربيةِ ، ومواقعَ المرفوعاتِ منها والمنصوباتِ والمخفوضاتِ ، حَسَبَ ما تقتضيهِ المعاني والتعلُّقاتُ المختلفةُ ، فصارَ يقرأُ ولا يكادُ يلحنُ .

وسمعتُهُ مرَّةً يُسكِّنُ ياءَ المنقوصِ والفعلِ المعتلِّ بها المنصوبَينِ ، فقلتُ لهُ في ذٰلكَ ، فقالَ : هوَ كذا في قولِ فلانٍ ، وأنشدَ شعراً لبعضِ العربِ ، فقلتُ : تلكَ ضرورةٌ ، وقالَ علماءُ العربيةِ : إنَّها غيرُ شاذةٍ .

ثمَّ استقلَّ بقراءةِ دواوينِ مشاهيرِ الشعراءِ مِنَ العربِ وغيرِهِم ، حتىٰ حفظَ الكثيرَ منها دونَ كلفةٍ ، واستثبتَ جميعَ معانيها ، ناقداً شريفَها مِنْ خسيسِها ، واقفاً علىٰ صوابِها وخطئِها ، مدركاً ما كانَ ينبغي وَفقَ مَقامِ الكلامِ وما لا ينبغي ، ثمَّ جاءَ مِنْ صنعةِ الشعرِ اللائقِ بالأمراءِ ولشعرِ الأمراءِ ؛ كأبي فراسٍ ، والشريفِ الرضيِّ ، والطُّغرائيِّ . . تميُّزٌ عن شعرِ الشعراءِ كما ستراهُ .

ومِصداقُ ذٰلكَ : ما سألقيهِ عليكَ مِنْ قصائدَ أنشأَها في وزنِ قصائدَ لبعضِ مشاهيرِ المُتقدِّمينَ ورويِّها .

[قصيدةٌ لأبي نواسٍ يمدحُ فيها أميرَ مصرَ]

قالَ أبو نُواسٍ يَمدَحُ الخصيبَ بنَ عبدِ الحميدِ العجميَّ أميرَ مصرَ

مِنْ طرفِ الرشيدِ وقَصَدَهُ مِنْ بغدادَ[1] : [من الطويل]

أَجَـارَةَ بَـيْـتَـيْـنَـا أَبُـوكِ غَـيُـورُ ... وَمَيْسُورُ مَا يُرْجَىٰ لَدَيْكِ عَسِيرُ
فَإِنْ كُنْتِ لَا خِلْماً وَلَا أَنْتِ زَوْجَةٌ ... فَلَا بَرِحَتْ دُونِي عَلَيْكِ سُتُورُ
وَجَاوَرْتِ قَوْماً لَا تَزَاوُرَ بَيْنَهُمْ ... وَلَا وَصْلَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ نُشُورُ
فَمَا أَنَا بِٱلْمَشْغُوفِ ضَرْبَةَ لَازِبٍ ... وَلَا كُلُّ سُلْطَانٍ عَلَيَّ قَدِيرُ
وَإِنِّي لِطَرْفِ ٱلْعَيْنِ بِٱلْعَيْنِ زَاجِرٌ ... فَقَدْ كِدْتُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيَّ ضَمِيرُ
كَمَا نَظَرَتْ وَٱلرِّيحُ سَاكِنَةٌ لَهَا ... عَقَنْبَاةُ أَرْسَاغِ ٱلْيَدَيْنِ نَزُورُ
طَوَتْ لَيْلَتَيْنِ ٱلْقُوتَ عَنْ ذِي ضَرُورَةٍ ... أُزَيْغِبَ لَمْ يَنْبُتْ عَلَيْهِ شَكِيرُ
فَأَوْفَتْ عَلَىٰ عَلْيَاءَ حَتَّىٰ بَدَا لَهَا ... مِنَ ٱلشَّمْسِ قَرْنٌ وَٱلضَّرِيبُ يَمُورُ
تُقَلِّبُ طَرْفاً فِي حِجَاجَيْ مَغَارَةٍ ... مِنَ ٱلرَّأْسِ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِ ذُرُورُ

هـٰذانِ فصلانِ .

أولُهُما : في شكوى الزمانِ وقساوةِ الحرمانِ ، فهوَ يقولُ خطاباً لامرأةٍ وجدَ هواها ، ولم يَقدِرْ على الوصولِ إلىٰ مرادِهِ منها ؛ لفقرِهِ وعدمِ تمكُّنِهِ مِنَ الطريقِ . . . إلىٰ ذٰلك : أيَّتُها الجارةُ ؛ إنِّي غيرُ قادرٍ على الوصولِ إليكِ ، وأنا مقيمٌ بأرضِكِ علىٰ ما أنا فيهِ مِنَ الأحوالِ ، لا علىٰ وجهِ الخلَّةِ ، ولا علىٰ وجهِ التزوُّجِ ، فقد عزمتُ على التغرُّبِ لتحصيلِ أسبابِ الوصولِ إليكِ ؛ فإمَّا أبلغُ ما تمنيتُ ، وإمَّا أموتُ معذوراً ، وهـٰذا المعنىٰ نطقَ بهِ الشعراءُ ؛ كقولِ بعضِهِم : [من الطويل]

دَعِينِي أُطَوِّفُ فِي ٱلْبِلَادِ لَعَلَّنِي ... أُصَادِفُ حُرّاً أَوْ أَمُوتَ فَأُعْذَرَا

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦) .

وقولِ آخَرَ [1] : [من الطويل]

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا

إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ، أخرجَهُ هوَ مُخرَجَ القسمِ بالدُّعاءِ علىٰ تصميمِهِ وعزمِهِ علىٰ فراقِ أرضِهِ ، وتغرُّبِهِ في طلبِ حسنِ الحالِ ، ثم قولُهُ : (خِلْماً) و(زوجةٌ) ما كانَ ينبغي أن يصدرَ منهُ ، وقولُهُ : (فما أنا بالمشغوفِ) مخالفٌ لمذهبِ العُشَّاقِ .

والفصلُ الثاني : في الافتخارِ بحِدَّةِ الذِّهنِ ، وشدةِ الفطنةِ ، وكثرةِ التجربةِ . . مشبهٌ نفسَهُ بالعُقابِ التي وصفَها ، وبينَ الفصلَينِ انقطاعٌ يسمَّىٰ مثلُهُ طغرةَ الشعرِ [2] ، **وقولُهُ** : (عَقَنْباةٌ) هوَ مِنْ صفةِ العُقابِ ، قالَ في « القاموس » : (**عُقابٌ عقنباةٌ** : ذاتُ مخالبَ حِدادٍ) [3] ، فإضافتُها في كلامِهِ إلى (الأرساغِ) غيرُ ظاهرةٍ .

ثمَّ شرعَ في صفةِ حالِهِ ، وما دارَ بينَهُ وبينَ أهلِ بيتِهِ عندَ عزمِهِ على السفرِ فقالَ :

تَقُولُ ٱلَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَرْكَبِي عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَاكَ تَسِيرُ
أَمَا دُونَ مِصْرَ لِلْغِنَىٰ مُتَطَلَّبٌ بَلَىٰ إِنَّ أَسْبَابَ ٱلْغِنَىٰ لَكَثِيرُ
فَقُلْتُ لَهَا وَٱسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرٌ جَرَتْ فَجَرَىٰ فِي جَرْيِهِنَّ عَبِيرُ
ذَرِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَىٰ بَلَدٍ فِيهِ ٱلْخَصِيبُ أَمِيرُ
إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ ٱلْخَصِيبِ رِكَابُنَا فَأَيَّ فَتىً بَعْدَ ٱلْخَصِيبِ تَزُورُ
فَتىً يَشْتَرِي حُسْنَ ٱلثَّنَاءِ بِمَالِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ ٱلدَّائِرَاتِ تَدُورُ

بعثَهُ علىٰ هٰذا الكلامِ المزعجِ إدلالُهُ بمكانِهِ .

---

(١) انظر « معاهد التنصيص » (١/٥١) ، وعزاه للعباس بن الأحنف .

(٢) كذا في الأصل ، ولعله أراد : (الطرة) وهي اسم للشيء المقطوع ، والله أعلم .

(٣) انظر « القاموس المحيط » (١/٢٥٩) ، مادة (ع ق ب) .

فَـمَـا جَـازَهُ جُـودٌ وَلَا حَـلَّ دُونَـهُ　　　وَلَـٰكِنْ يَصِـيرُ ٱلْجُـودُ حَيْـثُ يَصِـيرُ

هـٰذا البيتُ مِنَ الشعرِ الذي كَثُرَ لفظُهُ وقلَّ معناهُ ؛ إذ معناهُ : أنَّهُ لا يفارقُهُ الجودُ ، وعليهِ فيهِ مؤاخذةٌ ؛ فإنَّهُ أخذَهُ مِنْ قولِ الشنفرىٰ[1] :　　　[من المديد]

ظَـاعِـنٌ بِـٱلْـحَـزْمِ حَـتَّـىٰ إِذَا مَـا　　　[حَلَّ] حَلَّ ٱلْـحَزْمُ حَيْـثُ يَـحُـلُّ

ونقلَ العبارةَ مِنَ الحزمِ نقلاً غيرَ صحيحٍ إلى الجودِ ؛ وذٰلكَ أنَّ الحزمَ يَتعلَّقُ بالسيرِ والحلولِ ، بحيثُ يُقالُ : مِنْ حزمِهِ وحسنِ رأيِهِ يظعنُ في الأوقاتِ التي تقتضي الأحوالُ أن يظعنَ فيها ، فلا يُؤخِّرُ واجباً ، ولا يفعلُ ما ليسَ لازماً ، ويحلُّ بالأمكنةِ التي تصلحُ للحلولِ ؛ لأمنِها واشتمالِها علىٰ ما يلزمُ للإقامةِ ، وأمَّا الجودُ . . فإنَّهُ لا يَصِحُّ ربطُهُ بالسيرِ والإقامةِ ، وإنَّما يربطُ بالأحوالِ ، فيُقالُ : إنَّهُ جوادٌ علىٰ كلِّ حالٍ مِنْ عسرٍ ويسرٍ .

فَلَـمْ تَـرَ عَيْنِي سُـؤْدَداً مِثْـلَ سُـؤْدَدٍ　　　يَـحُـلُّ أَبُـو نَـصْـرٍ بِـهِ وَيَـسِـيـرُ
[وَأَطْرُقُ] حَـيَّـاتِ ٱلْـبِـلَادِ لِـحَـيَّـةٍ　　　خَصِيبِيَّةِ ٱلتَّصْمِيمِ حِينَ تَسُورُ
سَمَوْتَ لِأَهْلِ ٱلْحَوْفِ فِي دَارِ أَمْنِهِمْ　　　فَـأَضْـحَـوْا وَكُـلٌّ فِـي ٱلْـوِثَـاقِ أَسِـيـرُ
إِذَا قَـامَ غَـنَّـتْـهُ[2] عَـلَى ٱلـسَّـاقِ حِـلْـيَـةٌ　　　لَـهَـا خُـطْـوَةٌ عِـنْـدَ ٱلْـقِـيَـامِ قَـصِـيـرُ
فَـمَـنْ يَـكُ أَمْـسَـىٰ جَـاهِـلاً بِـمَـقَـالَـتِـي　　　فَـإِنَّ أَمِـيـرَ ٱلْـمُـؤْمِـنِـيـنَ خَـبِـيـرُ
وَمَـا زِلْـتَ تُـولِـيـهِ ٱلـنَّـصِـيـحَـةَ يَـافِـعـاً　　　إِلَـىٰ أَنْ بَـدَا فِـي ٱلْـعَـارِضَـيْـنِ قَـتِـيـرُ
إِذَا غَـالَـهُ أَمْـرٌ فَـإِمَّـا كَـفَـيْـتَـهُ　　　وَإِمَّـا عَـلَـيْـهِ بِـٱلْـكَـفِـيِّ تُـشِـيـرُ

الحوفُ : ناحيةٌ بمصرَ ظهرَ مِنْ أهلِها عصيانٌ ، فوردَ لهُ الأمرُ بحربِهِم وتأديبِهِم ، فظفرَ بهِم .

---

(١) انظر « ديوان الشنفرىٰ » (ص ١١٨) .

(٢) في « ديوان أبي نواس » (ص ٢٨٧) : (عَنَّتْهُ) .

إِلَيْكَ رَمَتْ بِٱلْقَوْمِ هُوجٌ كَأَنَّمَا ... جَمَاجِمُهَا تَحْتَ ٱلرِّحَالِ قُبُورُ
رَحَلْنَ بِنَا مِنْ عَقْرَقُوفَ وَقَدْ بَدَا ... مِنَ ٱلصُّبْحِ مَفْتُوقُ ٱلْأَدِيمِ شَهِيرُ

أخذَ يذكرُ الأماكنَ التي مرَّ بها في سفرِهِ مِنْ بغدادَ إلىٰ مصرَ .

فَمَا أَنْجَدَتْ بِٱلْمَاءِ حَتَّىٰ رَأَيْتُهَا ... مَعَ ٱلشَّمْسِ فِي عَيْنِي أُبَاغَ تَغُورُ
وَغُمِّرْنَ مِنْ مَاءِ ٱلنَّقِيبِ بِشَرْبَةٍ ... وَقَدْ حَانَ مِنْ دِيكِ ٱلصَّبَاحِ زَمِيرُ

التغميرُ : الشربُ دونَ الريِّ .

وَوَافَيْنَ إِشْرَاقاً كَنَائِسَ تَدْمُرٍ ... وَهُنَّ إِلَىٰ رَعْنِ ٱلْمُدَخَّنِ صُورُ
يُؤَمِّمْنَ أَهْلَ ٱلْغُوطَتَيْنِ كَأَنَّمَا ... لَهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْغُوطَتَيْنِ ثُؤُورُ
وَأَصْبَحْنَ بِٱلْجَوْلَانِ يَرْضَخْنَ صَخْرَهَا ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْ أَجْرَامِهِنَّ شُطُورُ
وَقَاسَيْنَ لَيْلاً دُونَ بَيْسَانَ لَمْ يَكَدْ ... سَنَا صُبْحِهِ لِلنَّاظِرِينَ يُنِيرُ
وَأَصْبَحْنَ قَدْ فَوَّزْنَ مِنْ أَهْلِ [فُطْرُسٍ] ... وَهُنَّ عَنِ ٱلْبَيْتِ ٱلْمُقَدَّسِ زُورُ
طَوَالِبُ بِٱلرُّكْبَانِ غَزَّةَ هَاشِمٍ ... وَفِي ٱلْفَرَمَا مِنْ حَاجِهِنَّ شُقُورُ

الشقورُ : المهماتُ مِنَ الحاجاتِ ، **والفرما** : مِنْ بلادِ مصرَ التي كانَتْ مشهورةً بالصَّنائعِ [كتِنِّيسَ] ، وقد زالَتْ ولم يبقَ لها أثرٌ .

وَلَمَّا أَتَتْ فُسْطَاطَ مِصْرَ أَجَارَهَا ... عَلَىٰ رَكْبِهَا أَلَّا تُذَالَ مُجِيرُ

هٰذا المعنى الذي قالَ فيهِ وكَرَّرَهُ في عباراتٍ : [من الكامل]

وَإِذَا ٱلْمَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً ... فَظُهُورُهُنَّ عَلَى الرِّحَالِ حَرَامُ

وقد سلفَ هوَ وأصلُهُ ، **وأذالَ المصونَ** : أهانَهُ .

مِنَ ٱلْقَوْمِ بَسَّامٌ كَأَنَّ جَبِينَهُ ... سَنَا ٱلْفَجْرِ يَسْرِي ضَوْءُهُ وَيُنِيرُ

زَهَا بِٱلْخَصِيبِ ٱلسَّيْفُ وَٱلرُّمْحُ فِي ٱلْوَغَىٰ وَفِي ٱلسِّلْمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ
جَوَادٌ [إِذَا] ٱلْأَيْدِي كَفَفْنَ عَنِ ٱلنَّدَىٰ وَمِنْ دُونِ عَوْرَاتِ ٱلنِّسَاءِ غَيُورُ

عبارةٌ باردةٌ .

لَهُ سَلَفٌ فِي ٱلْأَعْجَمِينَ كَأَنَّهُمْ إِذَا ٱسْتُؤْذِنُوا يَوْمَ ٱلسَّلَامِ بُدُورُ
فَإِنِّي جَدِيرٌ إِذْ بَلَغْتُكَ بِٱلْغِنَىٰ وَأَنْتَ بِمَا أَمَّلْتُ مِنْكَ جَدِيرُ
فَإِنْ تُولِنِي مِنْكَ ٱلْجَمِيلَ فَأَهْلُهُ وَإِلَّا فَإِنِّي عَاذِرٌ وَشَكُورُ

يُحكىٰ : أنَّ الرشيدَ عزلَ الخصيبَ عن عملِ مصرَ ، فخرجَ منها مُجرَّداً ، واتَّفَقَ أن لقيَ أبا نُواسٍ ليلاً في بعضِ الطريقِ إلىٰ بغدادَ وهوَ علىٰ فرسٍ عجفاءَ وأبو نُواسٍ في ركبٍ حافلٍ ، فسمعَهُ يَتغَنَّىٰ ، فدنا منهُ وسَلَّمَ عليهِ ، فلم يَعرِفْهُ أبو نواسٍ لرثاثةِ حالِهِ ، فعَرَّفَهُ بنفسِهِ .

فقالَ لهُ : ما الذي أصارَكَ يا سيدي لهٰذا الحالِ ؟! فقالَ : قولُكَ : (الدائراتُ تدورُ) ؛ فأرادَ أبو نُواس أن يواسيَهُ ، فقالَ : ما كنتُ لآخذَ ممَّنْ أعطيتُ ، وافترقا .

ولمَّا وصلَ الخصيبُ بغدادَ . . أقامَ بها فقيراً في هيئةِ سائلٍ ، يجلسُ إلىٰ جوانبِ الجدرانِ ، فعلمَ بهِ شاعرٌ ، وأنَّهُ الخصيبُ ، فلقيَهُ بأبياتٍ يمتدحُهُ بها ، فأخرجَ لهُ مِنْ تحتِ رقعةٍ مِنْ رقاعِ ثيابِهِ لؤلؤةً فريدةً ، وأجازَهُ بها ، وسألَهُ العذرَ لضيقِ الحالِ ، فأخذَها ونزلَ بها السُّوقَ ، فعجبَ منها التجَّارُ ، وأوصلوها إلى الخليفةِ ، فسألَ عنها : مِنْ أينَ جاءَتْ ؟

فوقفَ على الخبرِ وعلىٰ طربِهِ بهمَّةِ الخصيبِ ، أعادَهُ لحسنِ الحالِ ، ورضيَ عنهُ .

❁ ❁ ❁

[الأميرُ الباروديُّ يحاكي أبا نواسٍ في قصيدتِهِ]

وهٰذهِ قصيدةُ الأميرِ التي في وزنِ قصيدةِ أبي نُواسٍ ورويِّها[1] : [من الطويل]

تَـلَاهَـيْـتُ إِلَّا مَـا يُـجِـنُّ ضَـمِـيـرُ وَدَارَيْــتُ إِلَّا مَــا يَــنُــمُّ زَفِـيــرُ
وَهَلْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمَرْءُ كِتْمَانَ أَمْرِهِ وَفِـي ٱلـصَّـدْرِ مِـنْـهُ بَـارِحٌ وَسَـعِـيـرُ
فَـيَـا قَـاتَـلَ ٱللهُ ٱلْـهَـوَىٰ مَـا أَشَـدَّهُ عَـلَى ٱلْـمَـرْءِ إِذْ يَـخْـلُـو بِـهِ فَـيُـغِـيـرُ
تَـلِـيـنُ إِلَـيْـهِ ٱلـنَّـفْـسُ وَهْـيَ أَبِـيَّـةٌ وَيَـجْـزَعُ مِـنْـهُ ٱلْـقَـلْـبُ وَهْـوَ صَـبُـورُ
نَبَذْتُ لَهُ رُمْحِي وَأَغْمَدْتُ صَارِمِي وَنَـهْـنَـهْـتُ مُـهْـرِي وَٱلْـمُـرَادُ غَـزِيـرُ
وَأَصْبَحْتُ مَغْلُولَ ٱلْمَخَالِبِ بَعْدَمَا سَطَوْتُ وَلِي فِي ٱلْخَافِقَيْنِ زَئِيرُ
فَـيَـا لَـسَـرَاةِ ٱلْـقَـوْمِ دَعْـوَةُ عَـائِـذٍ أَمَـا مِـنْ سَـمِـيـعٍ فِـيـكُـمُ فَـيُـجِـيـرُ
لَـطَـالَ عَـلَـيَّ ٱلـلَّـيْـلُ حَـتَّـىٰ مَـلِـلْـتُـهُ وَعَـهْـدِي بِـهِ فِـيـمَـا عَـلِـمْـتُ قَـصِـيـرُ
أَلَا فَـرَعَـى ٱللهُ ٱلـصِّـبَـا مَـا أَبَـرَّهُ وَحَـيَّـا شَـبَـابـاً مَـرَّ وَهْـوَ نَـضِـيـرُ
إِذِ ٱلْـعَـيْـشُ أَفْـوَافٌ تَـرِفُّ ظِـلَالُـهُ عَـلَـيْـنَـا وَسَـلْـسَـالُ ٱلْـوَفَـاءِ نَـمِـيـرُ
وَإِذْ نَـحْـنُ فِـيـمَـا بَـيْـنَ [إِخْـوَانِ] لَـذَّةٍ عَـلَـىٰ شِـيَـمٍ مَـا إِنْ بِـهِـنَّ نَـكِـيـرُ
تَـدُورُ عَـلَـيْـنَـا ٱلْـكَـأْسُ بَـيْـنَ مَـلَاعِـبٍ بِـهَـا ٱلـلَّـهْـوُ خِـدْنٌ وَٱلـشَّـبَـابُ سَـمِـيـرُ
فَـأَلْـحَـاظُـنَـا بَـيْـنَ ٱلـنُّـفُـوسِ رَسَـائِـلٌ وَرَيْـحَـانُـنَـا بَـيْـنَ ٱلْـكُـؤُوسِ سَـفِـيـرُ
عَـقَـدْنَـا جَـنَـاحَـيْ لَـيْـلِـنَـا بِـنَـهَـارِنَـا وَطِـرْنَـا مَـعَ ٱلـلَّـذَّاتِ حَـيْـثُ تَـطِـيـرُ
وَقُـلْـنَـا لِـسَـاقِـيـنَـا أَدِرْهَـا فَـإِنَّـمَـا بَـقَـاءُ ٱلْـفَـتَـىٰ بَـعْـدَ ٱلـشَّـبَـابِ يَـسِـيـرُ
فَـطَـافَ بِـهَـا شَـمْـسِـيَّـةً لَـهَـبِـيَّـةً لَـهَـا عِـنْـدَ أَلْـبَـابِ ٱلـرِّجَـالِ ثُـؤُورُ

(١) انظر « ديوان البارودي » (٢/ ٢٦ ـ ٣٣) .

إِذَا مَا شَرِبْنَاهَا أَقَمْنَا مَكَانَنَا ... وَظَلَّتْ بِنَا ٱلْأَرْضُ ٱلْفَضَاءُ تَدُورُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ أَفْنَيْتُ عُمْرَ ظَلَامِهَا ... إِلَىٰ أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ فِيهِ قَتِيرُ
شَغَلْتُ بِهَا قَلْبِي وَمَتَّعْتُ نَاظِرِي ... وَنَعَّمْتُ سَمْعِي وَٱلْبَنَانُ طَهُورُ
صَنَعْتُ بِهَا صُنْعَ ٱلْكَرِيمِ بِأَهْلِهِ ... وَجِيرَتِهِ وَٱلْغَادِرُونَ كَثِيرُ
فَمَا رَاعَنَا إِلَّا حَفِيفُ حَمَائِمٍ ... لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ ٱلْغُصُونِ هَدِيرُ
تُجَاوِبُ أَتْرَاباً لَهَا فِي خَمَائِلٍ ... لَهُنَّ بِهَا بَعْدَ ٱلْحَنِينِ صَفِيرُ
نَوَاعِمُ لَا يَعْرِفْنَ بُؤْسَ مَعِيشَةٍ ... وَلَا دَائِرَاتِ ٱلدَّهْرِ كَيْفَ تَدُورُ
تَوَسَّدُ هَامَاتٌ لَهُنَّ وَسَائِداً ... مِنَ ٱلرِّيشِ فِيهِ طَائِلٌ وَشَكِيرُ
كَأَنَّ عَلَىٰ أَعْطَافِهَا مِنْ حَبِيكِهَا ... تَمَائِمَ لَمْ تُعْقَدْ لَهُنَّ سُيُورُ
خَوَارِجُ مِنْ أَيْكٍ دَوَاخِلُ غَيْرِهِ ... زَهَاهُنَّ ظِلٌّ سَابِغٌ وَغَدِيرُ
إِذَا غَازَلَتْهَا ٱلشَّمْسُ رَفَّتْ كَأَنَّمَا ... عَلَىٰ صَفْحَتَيْهَا سُنْدُسٌ وَحَرِيرُ
فَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلصُّبْحَ قَدْ رَفَّ جِيدُهُ ... وَلَمْ يَبْقَ مِنْ نَسْجِ ٱلظَّلَامِ سُتُورُ
خَرَجْتُ أَجُرُّ ٱلذَّيْلَ تِيهاً وَإِنَّمَا ... يَتِيهُ ٱلْفَتَىٰ إِنْ عَفَّ وَهْوَ قَدِيرُ
وَلِي شِيمَةٌ تَأْبَى ٱلدَّنَايَا وَعَزْمَةٌ ... تَرُدُّ لُهَامَ ٱلْجَيْشِ وَهْوَ يَمُورُ
إِذَا سِرْتُ فَٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي نَحْنُ فَوْقَهَا ... مَرَادٌ لِمُهْرِي وَٱلْمَعَاقِلُ دُورُ
فَلَا عَجَبٌ إِنْ لَمْ يَصُرْنِيَ مَنْزِلٌ ... فَلَيْسَ لِعِقْبَانِ ٱلْهَوَاءِ وُكُورُ
هَمَامَةُ نَفْسٍ لَيْسَ يَنْفِي رِكَابَهَا ... رَوَاحٌ عَلَىٰ طُولِ ٱلْمَدَىٰ وَبُكُورُ
مُعَوَّدَةٌ أَلَّا تَكُفَّ عِنَانَهَا ... عَنِ ٱلْجِدِّ إِلَّا أَنْ تَتِمَّ أُمُورُ
لَهَا مِنْ وَرَاءِ ٱلْغَيْبِ أُذْنٌ سَمِيعَةٌ ... وَعَيْنٌ تَرَىٰ مَا لَا يَرَاهُ بَصِيرُ

وَفَيْتُ بِمَا ظَنَّ ٱلْكِرَامُ فِرَاسَةً ... بِأَمْرِي وَمِثْلِي بِٱلْوَفَاءِ جَدِيرُ
وَأَصْبَحْتُ مَحْسُودَ ٱلْجَلَالِ كَأَنَّنِي ... عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ فِي ٱلزَّمَانِ أَمِيرُ
إِذَا صُلْتُ كَفَّ ٱلدَّهْرُ مِنْ غُلَوَائِهِ ... وَإِنْ قُلْتُ غَصَّتْ بِٱلْقُلُوبِ صُدُورُ
مَلَكْتُ مَقَالِيدَ ٱلْكَلَامِ وَحِكْمَةً ... لَهَا كَوْكَبٌ فَخْمُ ٱلضِّيَاءِ مُنِيرُ
فَلَوْ كُنْتُ فِي عَصْرِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي ٱنْقَضَىٰ ... لَبَاءَ بِفَضْلِي جَرْوَلٌ وَجَرِيرُ
وَلَوْ كُنْتُ أَدْرَكْتُ ٱلنُّواسِيَّ لَمْ يَقُلْ ... أَجَارَةَ بَيْتَيْنَا أَبُوكِ غَيُورُ
وَمَا ضَرَّنِي أَنِّي تَأَخَّرْتُ عَنْهُمُ ... وَفَضْلِيَ بَيْنَ ٱلْعَالَمِينَ شَهِيرُ
فَيَا رُبَّمَا أَخْلَىٰ مِنَ ٱلسَّبْقِ أَوَّلٌ ... وَبَذَّ ٱلْجِيَادَ ٱلسَّابِقَاتِ أَخِيرُ

لَم أكنْ لأَدَعَ أن أقولَ : انظرْ هداكَ اللهُ لأبياتِ هٰذهِ القصيدةِ ، فأفردْها بيتاً بيتاً . . تجدْ ظروفَ جواهرَ ، أُفرِدَتْ كلُّ جوهرةٍ لنفاستِها بظرفٍ ، ثمَّ اجمعْها وانظرْ جمالَ السياقِ وحسنَ النسقِ ؛ فإنَّكَ لا تجدُ بيتاً يصحُّ أن يُقدَّمَ أو يُؤخَّرَ ، ولا بيتَينِ يمكنُ أن يكونَ بينَهُما ثالثٌ ، وأَكِلُكَ إلىٰ سلامةِ ذوقِكَ وعُلُوِّ همَّتِكَ إن كنتَ مِنْ أهلِ الرغبةِ في الاستكمالِ لتتبُّعِ هٰذهِ الطريقةِ المثلىٰ .

ثمَّ قولُ ابنِ هانئٍ : (فتىً يشتري . . .)(١) سبقَهُ إلى النطقِ بهِ الراعي النميريُّ حيثُ قالَ(٢) : [من الطويل]

فَتىً يَشْتَرِي حُسْنَ ٱلثَّنَاءِ بِمَالِهِ ... إِذَا مَا ٱشْتَرَى ٱلْمَخْزَاةَ بِٱلْمَجْدِ بَيْهَسُ

ونطقَ بهِ قبلَهُ الأبيردُ أيضاً : [من الطويل]

فَتىً يَشْتَرِي حُسْنَ ٱلثَّنَاءِ بِمَالِهِ ... إِذَا ٱلسَّنَةُ ٱلشَّهْبَاءُ أَعْوَزَهَا ٱلْقَطْرُ

---

(١) أي : قول أبي نواس فيما تقدم قريباً (٤/٩٤) .
(٢) انظر « ديوان الراعي النُّميري » (ص ١٨٠) .

ومثلُ هٰذا لا يَعيبُهُ أهلُ الأدبِ كما نقلَهُ عنهُم بعضُ شُرَّاحِ « لاميةِ العجمِ » ، عندَ ذكرِهِ توافقَ الطُّغرائيِّ وصاحبِ « المَقاماتِ » الحريريِّ في قولِهما[1] : [من البسيط]

وَذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ ٱلرُّمْحِ مُعْتَقَلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكِلِ

[وقالَ الحريريُّ][2] : [من البسيط]

وَذِي شِطَاطٍ كَصَدْرِ ٱلرُّمْحِ قَامَتُهُ ... صَادَفْتُهُ بِمِنىً يَشْكُو مِنَ ٱلْحَرَبِ

قالوا : إذا لم يكنِ الكلامُ ذا معنىً غريبٍ ، ولم يَشتمِلْ علىٰ نكتةٍ بديعةٍ . . تسامحَ الشعراءُ في تناولِهِ والتوافقِ فيهِ ، فالمعيبُ إذاً مثلُ قولِهِ في هٰذهِ القصيدةِ : (فأجازَهُ جودٌ) فإنَّهُ كما سبقَ التنبيهُ عليهِ منقولٌ مِنَ الحزمِ إلى الجودِ ، وقد سبقَهُ أيضاً بعضُ بني يربوعٍ بالعبارةِ في الجودِ حيثُ قالَ : [من البسيط]

مَا قَصَّرَ ٱلْجُودُ عَنْكُمْ يَا بَنِي مَطَرٍ ... وَلَا تَجَاوَزَكُمْ يَا آلَ مَسْعُودِ

يَحِلُّ حَيْثُ حَلَلْتُمْ لَا يُفَارِقُكُمْ ... مَا عَاقَبَ ٱلدَّهْرُ بَيْنَ ٱلْبِيضِ وَٱلسُّودِ

وقولُهُ : (زها بالخصيبِ السيفُ والرمحُ) بعدَ قولِ ابنِ ميادةَ : [من الطويل]

وَيُزْهَىٰ بِهِ فِي ٱلرَّدْعِ عَضْبٌ مُهَنَّدٌ ... وَفِي ٱلسِّلْمِ يَزْهُو مِنْبَرٌ وَسَرِيرُ

وقولُهُ : (فإنْ تولني منكَ الجميلَ) وقد قالَ بعضُ بني منقرٍ : [من الطويل]

فَإِنْ جُدْتَ كَانَ ٱلْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةً ... وَإِلَّا فَإِنِّي عَاذِرٌ لَكَ شَاكِرُ

* * *

(١) انظر « الأغاني » (١٣/٤٦٤٨) ، ذكر أن الأبيرد رثىٰ أخاه بريداً بقصيدة ذكر أولها ، ومنها هٰذا البيت .
(٢) مقامات الحريري (ص ٣٥١) ، وفيها : (يشكو من الحدَب) وهو تقوس الظهر .

[قصيدةٌ لأبي نواسٍ يمدح الأميرَ محمدَ بنَ الرشيدِ]

وقالَ أبو نُواسٍ أيضاً يمدحُ الأميرَ محمدَ بنَ الرشيدِ[1] : [من الكامل]

يَـا دَارُ مَـا فَـعَـلَـتْ بِـكِ ٱلْأَيَّـامُ   لَـمْ تُـبْـقِ مِـنْـكِ بَشَـاشَـةً تُـسْـتَـامُ

تُستامُ : تُطلَبُ ، وقيلَ : تُكلَّفُ ، يُقالُ : سامَهُ يسومُهُ سوماً وسيمةً ، وكذلكَ في البيعِ ، وقيلَ : سمتُهُ وأسمتُهُ ؛ إذا سألتُهُ وكلفتُهُ ، وقيلَ : تشتامُ ، مِنَ الشيمِ ؛ وهوَ النظرُ .

وروىٰ بعضُهُم : [من الكامل]

يَـا دَارُ مَـا فَـعَـلَـتْ بِـكِ ٱلْأَيَّـامُ   ضَـامَـتْـكِ وَٱلْأَيَّـامُ لَـيْـسَ تُـضَـامُ

[عودٌ للقصيدةِ] :

عَـرَمَ ٱلـزَّمَـانُ عَلَـى ٱلَّـذِيـنَ عَـهِـدْتُـهُـمْ   بِـكِ قَـاطِـنِـيـنَ وَلِـلـزَّمَـانِ عُـرَامُ

يُقالُ : عرمَ يعرمُ عرامةً وعُراماً ؛ بضمِّ أوَّلِهِ ، وقد نُطِقَ بالفعلِ مِنْ بابِ نصرَ وضربَ وكَرُمَ وعَلِمَ ؛ وهوَ التخابثُ والإفسادُ .

أَيَّـامَ لَا أَغْـشَـىٰ لِأَهْـلِـكِ مَـنْـزِلاً   إِلَّا مُـرَاقَـبَـةً عَـلَـيَّ ظَـلَامُ

عليَّ ظلامُ ؛ أي : مستخفياً بالليلِ ؛ ليختلسَ بغيتَهُ اختلاساً ، وهٰذا التركيبُ وردَ في حديثٍ ؛ هوَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كانَ مسافراً مَرَّةً صائماً ، فلمَّا غَربَتِ الشمسُ . . قالَ لصاحبِ طعامِهِ : « ٱنْزِلْ فَٱجْدَحْ لَنَا » أي : هَيِّئِ السَّويقَ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ عليكَ نهاراً ، فقالَ : « ٱنْزِلْ فَٱجْدَحْ لَنَا »[2] .

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٣٤١ ـ ٣٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٤١) ، ومسلم (١١٠١) عن سيدنا عبد الله بن أبي أوفىٰ رضي الله عنهما .

وقالَ بشارٌ : [من الطويل]

إِذَا أَنْكَرَتْنِي بَلْدَةٌ أَوْ نَكِرْتُهَا خَرَجْتُ مَعَ ٱلْبَازِي عَلَيَّ سَوَادُ

فهيَ مِنَ الكلماتِ المُستملَحةِ التي يغيرُ عليها الشعراءُ .

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ ٱلْغُوَاةِ بِدَلْوِهِمْ وَأَسَمْتُ سَرْحَ ٱللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا

وَبَلَغْتُ مَا بَلَغَ ٱمْرُؤٌ بِشَبَابِهِ فَإِذَا عُصَارَةُ كُلِّ ذَاكَ أَثَامُ

وَتَجَشَّمَتْ بِي هَوْلَ كُلِّ تَنُوفَةٍ هَوْجَاءُ فِيهَا جُرْأَةٌ إِقْدَامُ

تَذَرُ ٱلْمَطِيَّ وَرَاءَهَا فَكَأَنَّهَا صَفٌّ تَقَدَّمَهُنَّ وَهْيَ إِمَامُ

وَإِذَا ٱلْمَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فَظُهُورُهُنَّ عَلَى ٱلرِّحَالِ حَرَامُ

قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ ٱلْحَصَىٰ فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

رَفَعَ ٱلْحِجَابَ لَنَا فَلَاحَ لِنَاظِرٍ قَمَرٌ تَقَطَّعُ دُونَهُ ٱلْأَوْهَامُ

مَلِكٌ إِذَا عَلِقَتْ يَدَاكَ بِحَبْلِهِ لَا يَعْتَفِيكَ ٱلْبُؤْسُ وَٱلْإِعْدَامُ

مَلِكٌ تَوَحَّدَ بِٱلْمَكَارِمِ وَٱلْعُلَا فَرْدٌ فَقِيدُ ٱلنِّدِّ فِيهِ هُمَامُ

مَلِكٌ أَغَرُّ إِذَا شَرِبْتَ بِوَجْهِهِ لَمْ يَعْدُكَ ٱلتَّبْجِيلُ وَٱلْإِعْظَامُ

فَٱلْبَهْوُ مُشْتَمِلٌ بِبَدْرِ خِلَافَةٍ لَبِسَ ٱلشَّبَابَ بِنُورِهِ ٱلْإِسْلَامُ

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَىٰ بِنِجَادِهِ فَرَعَ ٱلْجَمَاجِمَ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

فرعَ الجماجمَ : أجودُ مِنْ (غمرَ [الجماجمَ]) وهيَ روايةٌ ؛ لأنَّ (غمرَ) إنَّما يُستعمَلُ في معنى الكثرةِ ، يُقالُ : قد غمرَ جودُ هٰذا ، وغمرَ الماءُ الحصىٰ .

إِنَّ ٱلَّذِي يَرْضَى ٱلْإِلَٰهُ بِهَدْيِهِ مَلِكٌ تَرَدَّى ٱلْمُلْكَ وَهْوَ غُلَامُ

ويُروىٰ : (يرضى السماءُ) أي : مَنْ في السماءِ ؛ يعني : اللهَ عزَّ وجلَّ .

مَلِكٌ إِذَا ٱعْتَبَرَ ٱلْأُمُورَ مَضَىٰ بِهِ رَأْيٌ يَفُلُّ ٱلسَّيْفَ وَهْوَ حُسَامُ

دَاوَىٰ بِـهِ ٱللهُ ٱلْـقُـلُـوبَ مِنَ ٱلْـعَـمَـىٰ ... حَـتَّـىٰ أَفَـقْـنَ وَمَـا بِـهِـنَّ سَـقَـامُ
أَصْبَحْتَ يَا بْنَ زُبَيْدَةَ بْنَةِ جَعْفَرٍ ... أَمَلاً لِـعَـقْـدِ حِبَالِـهِ ٱسْـتِحْكَامُ
فَسَلِمْتَ لِلْأَمْرِ ٱلَّذِي تُرْجَىٰ لَـهُ ... وَتَـقَـاعَـسَـتْ عَـنْ يَـوْمِـكَ ٱلْأَيَّـامُ

[محاكاةُ الأميرِ الباروديِّ لأبي نواسٍ في قصيدتِهِ]

فقالَ المُسمَّىٰ في الوزنِ والرويِّ[1] : [من الكامل]

ذَهَـبَ ٱلـصِّـبَـا وَتَـوَلَّـتِ ٱلْأَيَّـامُ ... فَعَلَى ٱلصِّبَا وَعَلَى ٱلزَّمَانِ سَلَامُ
تَـٱللهِ أَنْـسَـىٰ مَا حَـيِيتُ عُـهُـودَهُ ... وَلِـكُـلِّ عَـهْـدٍ فِـي ٱلْـكِـرَامِ ذِمَـامُ
إِذْ نَـحْـنُ فِـي عَـيْشٍ تَـرِفُّ ظِـلَالُـهُ ... وَلَـنَـا بِـمُـعْـتَـرَكِ ٱلْـهَـوَىٰ آثَـامُ
تَجْرِي عَلَيْنَا ٱلْكَأْسُ بَيْنَ مَجَالِسٍ ... فِـيـهَـا ٱلـسَّـلَامُ تَـعَـانُـقٌ وَلِـزَامُ
فِي فِتْيَةٍ فَاضَ ٱلنَّعِيمُ عَلَيْهِمُ ... وَنَـمَـاهُـمُ ٱلتَّبْجِيلُ وَٱلْإِعْظَامُ
ذَهَبَتْ بِهِمْ شِيَمُ ٱلْمُلُوكِ فَلَيْسَ فِي ... تَـلْـعَـابِـهِـمْ هَـذَرٌ وَلَا إِبْـرَامُ
لَا يَـنْـطِـقُـونَ بِـغَـيْـرِ آدَابِ ٱلْـهَـوَىٰ ... سُمُحُ ٱلنُّفُوسِ عَلَى ٱلْبَلَاءِ كِرَامُ
مِـنْ كُـلِّ أَبْـلَـجَ يُـسْـتَـضَـاءُ بِـنُـورِهِ ... كَـٱلْـبَـدْرِ حَـلَّـىٰ صَـفْـحَـتَـيْـهِ غَـمَـامُ
سَهْلُ ٱلْخَلِيقَةِ لَا يَسُوءُ جَلِيسَهُ ... بَـيْـنَ ٱلْـمَـقَـامَـةِ وَاضِـحٌ بَـسَّـامُ
مُـتَـوَاضِـعٌ لِـلْـقَـوْمِ تَـحْـسَـبُ أَنَّـهُ ... مَـوْلـىً لَـهُـمْ فِـي ٱلـدَّارِ وَهْـوَ هُـمَـامُ
تَـرْنُـو ٱلْـعُـيُـونُ إِلَـيْـهِ فِـي أَفْـعَـالِـهِ ... وَتَـسِـيـرُ تَـحْـتَ لِـوَائِـهِ ٱلْأَقْـوَامُ
فَـإِذَا تَـكَـلَّـمَ فَـٱلـرُّؤُوسُ خَـوَاضِـعٌ ... وَإِذَا تَـنَـاهَـضَ فَـٱلـصُّـفُـوفُ قِـيَـامُ
نَـلْـهُـو وَنَـلْـعَـبُ بَـيْـنَ خُـضْـرِ حَـدَائِـقٍ ... لَـيْـسَـتْ بِـغَـيْـرِ خُـيُـولِـنَـا تُـسْـتَـامُ

---

(١) أي : الأمير البارودي في « ديوانه » (٣/٣٣٣ ـ ٣٤٠) .

حَتَّى ٱنْتَبَهْنَا بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ ٱلصِّبَا ... إِنَّ ٱللَّذَاذَةَ وَٱلصِّبَا أَحْلَامُ

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلْعَيْشَ دَامَ لِمُتْرَفٍ ... هَيْهَاتَ لَيْسَ عَلَى ٱلزَّمَانِ دَوَامُ

تَأْتِي ٱلشُّهُورُ وَتَنْتَهِي سَاعَاتُهَا ... لَمْعَ ٱلسَّرَابِ وَتَنْقَضِي ٱلْأَعْوَامُ

وَٱلنَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَارِدٌ ... أَوْ صَادِرٌ تَجْرِي بِهِ ٱلْأَيَّامُ

لَا طَائِرٌ يَنْجُو وَلَا ذُو مِخْلَبٍ ... يَبْقَىٰ وَعَاقِبَةُ ٱلْحَيَاةِ حِمَامُ

فَٱدْرَأْ هُمُومَ ٱلنَّفْسِ عَنْكَ إِذَا ٱعْتَرَتْ ... بِٱلْكَأْسِ فَهْيَ عَلَى ٱلْهُمُومِ حُسَامُ

فَٱلْعَيْشُ لَيْسَ يَدُومُ فِي أَلْوَانِهِ ... إِلَّا إِذَا دَارَتْ عَلَيْهِ ٱلْجَامُ

مِنْ خَمْرَةٍ تَذَرُ ٱلْكَبِيرَ إِذَا ٱنْتَشَىٰ ... بَعْدَ ٱشْتِعَالِ ٱلشَّيْبِ وَهْوَ غُلَامُ

لَعِبَ ٱلزَّمَانُ بِهَا فَغَادَرَ جِسْمَهَا ... شَبَحاً تَهَافَتَ دُونَهُ ٱلْأَوْهَامُ

حَمْرَاءُ دَارَ بِهَا ٱلْحَبَابُ فَصَوَّرَتْ ... فَلَكاً تَحُفُّ سَمَاءَهُ ٱلْأَجْرَامُ

لَا تَسْتَقِيمُ ٱلْعَيْنُ فِي لَمَعَانِهَا ... وَتَزِلُّ عِنْدَ لِقَائِهَا ٱلْأَقْدَامُ

تَعْشُو ٱلرِّكَابُ فَإِنْ تَبَلَّجَ كَأْسُهَا ... سَارُوا وَإِنْ زَالَ ٱلضِّيَاءُ أَقَامُوا

حُبِسَتْ بِأَكْلَفَ لَمْ يَصِلْ لِفِنَائِهِ ... نُورٌ وَلَمْ يَسْرَحْ عَلَيْهِ ظَلَامُ

يعني : ليسَتْ مكشوفةً فيتعاقبَ عليها الليلُ والنهارُ ، وإنَّما هيَ في مخبأةٍ ، فهيَ دائماً في حالٍ واحدةٍ .

حَتَّىٰ إِذَا ٱصْطَفَقَتْ وَطَارَ فِدَامُهَا ... وَثَبَتْ فَلَمْ تَثْبُتْ لَهَا ٱلْأَجْسَامُ

وَقَدَتْ حَمِيَّتُهَا فَلَوْلَا مَزْجُهَا ... بِٱلْمَاءِ بَعْدَ ٱلْمَاءِ شَبَّ ضِرَامُ

تَسِمُ ٱلْعُيُونَ بِنُورِهَا لَٰكِنَّهَا ... بَرْدٌ عَلَىٰ شُرَّابِهَا وَسَلَامُ

فَٱصْقُلْ بِهَا صَدَأَ ٱلْهُمُومِ وَلَا تَكُنْ ... غِرّاً تَطِيشُ بِلُبِّهِ ٱلْآلَامُ

وَٱعْلَمْ بِأَنَّ ٱلْمَرْءَ لَيْسَ بِخَالِدٍ وَٱلدَّهْرُ فِيهِ صِحَّةٌ وَسَقَامُ
يَهْوَى ٱلْفَتَىٰ طُولَ ٱلْحَيَاةِ وَإِنَّهَا دَاءٌ لَهُ لَوْ يَسْتَبِينُ عُقَامُ
فَٱطْمَحْ بِطَرْفِكَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ أُمَّةٍ خَلَدَتْ وَهَلْ لِٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ مُقَامُ
هَٰذِي ٱلْمَدَائِنُ قَدْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا بَعْدَ ٱلنِّظَامِ وَهَٰذِهِ ٱلْأَهْرَامُ
لَا شَيْءَ يَخْلُدُ غَيْرَ أَنَّ خَدِيعَةً فِي ٱلدَّهْرِ تَنْكُلُ دُونَهَا ٱلْأَحْلَامُ
وَلَقَدْ تَبَيَّنْتُ ٱلْأُمُورَ بِغَيْرِهَا وَأَتَىٰ عَلَيَّ ٱلنَّقْضُ وَٱلْإِبْرَامُ
فَإِذَا ٱلسُّكُونُ تَحَرُّكٌ وَإِذَا ٱلْخُمُو دُ تَلَهُّبٌ وَإِذَا ٱلسُّكُوتُ كَلَامُ
وَإِذَا ٱلْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ مَنِيَّةٌ تَحْيَا بِهَا ٱلْأَجْسَادُ وَهْيَ رِمَامُ
هَٰذَا يَحُلُّ وَذَاكَ يَرْحَلُ كَارِهاً عَنْهُ فَصُلْحٌ تَارَةً وَخِصَامُ
فَٱلنُّورُ لَوْ بَيَّنْتَ أَمْرَكَ ظُلْمَةٌ وَٱلْبَدْءُ لَوْ فَكَّرْتَ فِيهِ خِتَامُ

فهٰذهِ ضِعفُ تلكَ ، اكْرُرْ أمرَكَ بدقَّةِ النظرِ فيها ، وتأمَّلِ تواليها . . تَجِدْ الإجادةَ فيها واضحةً ، والسلامةَ مِنْ أدنىٰ مُتعلَّقٍ ظاهرةً ؛ بحيثُ لا تجدُ فيها موضعاً للواوِ وليتَ ، ولتكنْ عنايتُكَ برعايةِ تخيُّرِ الألفاظِ ؛ بأن تُبدِّلَها بما تَتخيَّلُ أنَّهُ يقومُ مَقامَها ، ويفيدُ إفادتَها ، ثمَّ تعرفُ سببَ العدولِ عنهُ . . يكنْ ذٰلكَ أبلغَ نافعٍ لكَ .

❋ ❋ ❋

[قصيدةٌ للشريفِ الرضيّ في مدحِ آلِ البيتِ]

وقالَ الشَّريفُ محمدٌ الرضيُّ يَفتخِرُ ويَمدَحُ أسلافَهُ مِنْ أهلِ البيتِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ علىٰ مَنْ شَرَّفَهُ[١] : [من الطويل]

لِغَيْرِ ٱلْعُلَا مِنِّي ٱلْقِلَىٰ وَٱلتَّجَنُّبُ ... وَلَوْلَا ٱلْعُلَا مَا كُنْتُ فِي ٱلْحُبِّ أَرْغَبُ

إِذَا ٱللهُ لَمْ يَعْذُرْكَ فِيمَا تَرُومُهُ ... فَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ أَوْ مُؤَنِّبُ

مَلَكْتُ بِحِلْمِي فُرْصَةً مَا ٱسْتَرَقَّهَا ... مِنَ ٱلدَّهْرِ مَفْتُولُ ٱلذِّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنِّي مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا ... فَلِي مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَجْدِ قَلْبٌ مُدَرَّبُ

بِحَسْبِيَ أَنِّي فِي ٱلْأَعَادِي مُبَغَّضٌ ... وَأَنِّي إِلَىٰ غُرِّ ٱلْمَعَالِي مُحَبَّبُ

وَلِلْحِلْمِ أَوْقَاتٌ وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا ... وَلَٰكِنَّ أَيَّامِي إِلَى ٱلْحِلْمِ أَقْرَبُ

يَصُولُ عَلَيَّ ٱلْجَاهِلُونَ وَأَعْتَلِي ... وَيُعْجِمُ فِيَّ ٱلْقَائِلُونَ وَأُعْرِبُ

يَرَوْنَ ٱحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ ... لَوَاعِجُ ضَغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ

وَأُعْرِضُ عَنْ كَأْسِ ٱلنَّدِيمِ كَأَنَّهَا ... وَمِيضُ غَمَامٍ غَائِرُ ٱلْمُزْنِ [خُلَّبُ]

وَقُورٌ فَلَا ٱلْأَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِي ... وَلَا تَمْكُرُ ٱلصَّهْبَاءُ [بِي] حِينَ أَشْرَبُ

وَلَا أَعْرِفُ ٱلْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَصْفِهَا ... وَلَا أَنْطِقُ ٱلْعَوْرَاءَ وَٱلْقَلْبُ مُغْضَبُ

تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ ٱلْقَوَارِصِ شِيمَتِي ... كَأَنَّ مُعِيدَ ٱلذَّمِّ بِٱلْمَدْحِ مُطْنِبُ

لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ ٱلْجَهْلَ بِٱلْحِجَا ... إِذَا نَالَ مِنِّي ٱلْعَاضِهُ ٱلْمُتَأَوِّبُ

وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي ... فُضَالَاتِ مَا يُعْطِي ٱلزَّمَانُ وَيَسْلُبُ

---

(١) انظر « ديوان الشريف الرضي » (١/١٠٧ ـ ١١٢) .

غَـرَائِـبُ آدَابٍ حَـبَـانِـي بِـحِـفْـظِـهَـا ... زَمَانِي وَصَرْفُ ٱلدَّهْرِ نِعْمَ ٱلْمُؤَدِّبُ

تُـرَيِّـشُـنَـا ٱلأَيَّـامُ ثُـمَّ تَـهِـيـضُـنَـا ... أَلَا نِعْمَ [ذَا] ٱلْبَادِي وَبِئْسَ ٱلْمُعَقِّبُ

نَـهَيْتُكَ عَـنْ طَبْعِ ٱللِّئَامِ فَإِنَّنِي ... أَرَى ٱلْبُخْلَ يُؤْبَىٰ وَٱلْمَكَارِمُ تُطْلَبُ

تَعَلَّمْ فَإِنَّ ٱلْجُودَ فِي ٱلنَّاسِ فِطْنَةٌ ... تَنَاقَلَهَا ٱلأَحْرَارُ وَٱلطَّبْعُ أَغْلَبُ

تُضَافِرُنِي فِيكَ ٱلصَّوَارِمُ وَٱلْقَنَا ... وَيَصْحَبُنِي مِنْكَ ٱلْعُذَيْقُ ٱلْمُرَجَّبُ

نَصَحْتُ وَبَعْضُ ٱلنُّصْحِ لِلْقَوْمِ هُجْنَةٌ ... وَبَعْضُ ٱلتَّنَاجِي بِٱلْعِتَابِ تَعَتُّبُ

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُعْطِ ٱلنَّصِيحَةَ حَقَّهَا ... فَرُبَّ جَمُوحٍ كَلَّ عَنْهُ ٱلْمُؤَدِّبُ

سَقَى ٱللهُ أَرْضاً جَاوَزَ ٱلْقَطْرُ رَوْضَهَا ... إِذِ ٱلْمُزْنُ تَسْقِي وَٱلأَبَاطِحُ تَشْرَبُ

ذَكَرْتُ بِهَا عَهْدَ ٱلشَّبَابِ فَحَسْرَةً ... أَفَدْتُ وَقَدْ فَاتَ ٱلَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ

وَيُعْجِبُنِي مِنْهَا ٱلنَّسِيمُ إِذَا هَفَا ... أَلَا كُلُّ مَا سَرَّىٰ عَنِ ٱلْقَلْبِ مُعْجِبُ

سَكَنْتُكِ وَٱلأَيَّامُ بِيضٌ كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلطِّيبِ فِي أَثْوَابِهَا تَتَقَلَّبُ

وَبَرْقٍ رَقِيقِ ٱلطُّرَّتَيْنِ لَحِظْتُهُ ... إِذِ ٱلْجَوُّ خَوَّارُ ٱلْمَصَابِيحِ أَكْهَبُ

نَظَرْتُ وَأَلْحَاظُ ٱلنُّجُومِ كَلِيلَةٌ ... وَهَيْهَاتَ دُونَ ٱلْبَرْقِ شَأْوٌ مُغَرِّبُ

فَمَا ٱللَّيْلُ إِلَّا فَحْمَةٌ [مُسْتَشَفَّةٌ] ... وَمَا ٱلْبَرْقُ إِلَّا جَمْرَةٌ تَتَلَهَّبُ

أَمِنْ بَعْدِ أَنْ جَلَّلْتَهَا وَرَقَ ٱلدُّجَا ... سِرَاعاً وَأَغْصَانُ ٱلأَزِمَّةِ تُجْذَبُ

وَعَدْنَا بِهَا [مَمْعُوطَةً] بِنُسُوعِهَا ... كَمَا صَافَحَ ٱلأَرْضَ ٱلْغِرَاءُ ٱلْمُعَقِّبُ(١)

كَأَنَّ تَرَاجِيعَ ٱلْحُدَاةِ وَرَاءَهَا ... صَفِيرٌ تَعَاطَاهُ ٱلْيَرَاعُ ٱلْمُثَقَّبُ

تَهُزُّ ظُنُونِي فِي ٱلْمَآرِبِ إِرْبَةٌ ... وَيَجْنُبُ عَزْمِي فِي ٱلْمَطَالِبِ مَطْلَبُ

---

(١) في « ديوان الشريف الرضي » (١٠٩/١) : (السراء المعبب) ، أراد شجراً طويلاً .

وَرَدْنَـا بِـهَـا مَـاءَ ٱلـظَّـلامِ سَـوَاغِـبـاً   وَلِـلَّـيْـلِ جَـوٌّ بِـٱلـدَّرَارِيِّ مُـعْـشِـبُ
تُـنَـفِّـرُ ذَوْدَ ٱلـطَّـيْـرِ عَـنْ وَكَـرَاتِـهَـا   وَكُــلٌّ إِذَا لَاقَــيْـتَــهُ مُـتَــغَـرِّبُ
وَنَـلْـتَـذُّ رَشْـفَ ٱلْـمَـاءِ رَنْـقـاً كَـأَنَّـهُ   مَعَ ٱلْعِزِّ ثَغْرٌ بَارِدُ ٱلظَّلْمِ أَشْنَبُ
أَذَعْنَا لَـهَا سِرَّ ٱلْكَرَىٰ مِنْ عُيُونِنَا   وَسِرُّ ٱلْعُلَا بَيْنَ ٱلْجَوَانِحِ يَحْجُبُ
حَرَامٌ عَلَى ٱلْمَجْدِ ٱبْتِسَامِي لِقُرْبِهِ   وَمَا هَزَّنِـي فِيهِ ٱلْعَنَاءُ ٱلْمُقَطِّبُ
وَدَهْـمَاءَ مِنْ لَيْلِ ٱلتِّمَامِ قَطَعْتُهَا   أُغَـنِّـي حُـدَاءً وَٱلْـمَـرَاسِـيلُ تَـطْـرَبُ
وَلَوْ شِئْتُ غَنَّتْنِي [ٱلْحَمَامُ] عَشِيَّةً   وَلَـٰكِنَّنِي مِـنْ مَـاءِ عَـيْـنَـيَّ أَشْـرَبُ
أَقُولُ إِذَا خَاضَ ٱلسَّمِيرَانِ فِي ٱلدُّجَا   أَحَـادِيـثَ تَـبْـدُو طَـالِـعَـاتٍ وَتَـغْـرُبُ
أَلَا غَـنِّـيَـانِـي بِـٱلْـحَـدِيـثِ فَـإِنَّـنِـي   رَأَيْـتُ أَلَـذَّ ٱلْـقَـوْلِ مَـا كَـانَ يُـطْـرِبُ
غِـنَـاءً إِذَا خَـاضَ ٱلْـمَسَـامِعَ لَـمْ يَـكُـنْ   أَمِـيناً عَـلَـىٰ جِلْبَابِهِ ٱلْمُتَجَلْبِبُ
وَنَشْوَانَ مِنْ [خَمْرِ] ٱلنُّعَاسِ ذَعَرْتُهُ   وَطَيْفُ ٱلْكَرَىٰ فِي ٱلْعَيْنِ يَطْفُو وَيَرْسُبُ
لَـهُ مُـقْـلَـةٌ يَـسْـتَـنْـزِلُ ٱلـنَّـوْمَ جَـفْـنُـهَـا   إِلَيْهِ كَمَا ٱسْتَرْخَىٰ عَلَى ٱلنَّجْمِ هَيْدَبُ
سَرَيْتَ فِجَاجَ ٱلْأَرْضِ غُفْلاً وَمَعْلَماً   تَـجِـدُّ بِـهَـا أَيْـدِي ٱلْـمَـطَايَا وَتَـلْـعَـبُ
وَمَـا شَـهْـوَتِـي لَـوْمُ ٱلـرَّفِـيـقِ وَإِنَّـمَـا   كَمَا يَلْتَقِي فِي ٱلسَّيْرِ ظِلْفٌ وَمِخْلَبُ
عَـجِبْتُ لِغَيْرِي كَيْفَ سَايَرَ نَجْمَهَا   وَسَيْرِيَ فِيهَا يَا بْنَةَ ٱلْقَوْمِ أَعْجَبُ
أَسِـيـرُ وَسَـرْجِـي بِـٱلـنِّـجَـادِ مُـقَـلَّـدٌ   وَأَثْـوِي وَبَـيْـتِـي بِـٱلْـعَـوَالِـي مُـطَـنَّـبُ
وَمَـصْـقُولَـةِ ٱلْأَعْـطَـافِ فِـي جَـنَبَاتِـهَا   مَـرَاحٌ لِأَطْـرَافِ ٱلـرِّمَـاحِ وَمَـلْـعَـبُ
تَـجُـرُّ عَـلَـىٰ مَـتْـنِ ٱلـطَّـرِيـقِ عَـجَـاجَـةً   يُطَارِدُهَا قَرْنٌ مِنَ ٱلشَّمْسِ أَعْضَبُ
نَـهَـارٌ بِـلَأْلَاءِ ٱلـسُّـيُـوفِ مُـفَـضَّـضٌ   وَجَـوٌّ بِـحَـمْـرَاءِ ٱلْأَنَـابِـيـبِ مُـذْهَـبُ

تَرَى ٱلْيَوْمَ مُحْمَرَّ ٱلْحَوَاشِي كَأَنَّمَا عَلَى ٱلْجَوِّ غَرْبٌ مِنْ دَمٍ يَتَصَبَّبُ
صَدَمْنَا بِهَا ٱلْأَعْدَاءَ وَٱللَّيْلُ ضَارِبٌ بِأَرْوَاقِهِ جَوْنُ ٱلْمَلَاطَيْنِ أَخْطَبُ
أَخَذْنَا عَلَيْهِمْ بِٱلصَّوَارِمِ وَٱلْقَنَا وَرَاعِي نُجُومِ ٱللَّيْلِ حَيْرَانُ مُغْرِبُ
يُرَاعُونَ أَسْفَارَ ٱلصَّبَاحِ وَإِنَّمَا وَرَاءَ لِثَامِ ٱللَّيْلِ يَوْمٌ عَصَبْصَبُ
وَكُلُّ ثَقِيلِ ٱلصَّدْرِ مِنْ حَلَبِ[1] ٱلْقَنَا خَفِيفِ ٱلشَّوَىٰ وَٱلْمَوْتُ عَجْلَانُ مُقْرِبُ
يَجُمُّ إِذَا مَا ٱسْتَرْعَفَ ٱلْكَرُّ جَهْدَهُ كَمَا جَمَّتِ ٱلْغُدْرَانُ وَٱلْمَاءُ يَنْضُبُ
وَمَا ٱلْخَيْلُ إِلَّا كَٱلْقِدَاحِ يُجِيلُهَا لِغُنْمٍ فَإِمَّا فَائِزٌ أَوْ مُخَيَّبُ
دَعُوا شَرَفَ [ٱلْأَحْسَابِ] يَا آلَ ظَالِمٍ فَلَا ٱلْمَاءُ مَوْرُودٌ وَلَا ٱلتُّرْبُ طَيِّبُ
لَئِنْ كُنْتُمُ فِي آلِ فِهْرٍ كَوَاكِباً إِذَا غَاضَ مِنْهَا كَوْكَبٌ فَاضَ كَوْكَبُ
فَنَعْتِي كَنَعْتِ ٱلْبَدْرِ يُنْسَبُ بَيْنَكُمْ جِهَاراً وَمَا كُلُّ ٱلْكَوَاكِبِ تُنْسَبُ
صَحِبْتُمْ خِضَابَ ٱلزَّاعِبِيَّاتِ نَاصِلاً وَمِنْ عَلَقِ [ٱلْأَقْرَانِ] مَا لَا يُخَضِّبُ
أُهَذِّبُ فِي مَدْحِ ٱللِّئَامِ خَوَاطِرِي فَأَصْدُقُ فِي حُسْنِ ٱلْمَعَانِي وَأَكْذِبُ
وَمَا ٱلْمَدْحُ إِلَّا فِي ٱلنَّبِيِّ وَآلِهِ يُرَامُ وَبَعْضُ ٱلْقَوْلِ مَا يُتَجَنَّبُ
وَأُولِي بِمَدْحِي مَنْ أُعِزُّ بِفَخْرِهِ وَلَا يَشْكُرُ ٱلنَّعْمَاءَ إِلَّا ٱلْمُهَذَّبُ
أَرَى ٱلشِّعْرَ فِيهِمْ بَاقِياً وَكَأَنَّمَا تُحَلِّقُ بِٱلْأَشْعَارِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ
وَقَالُوا عَجِيبٌ عُجْبُ مِثْلِي بِنَفْسِهِ وَأَيْنَ عَلَى ٱلْأَيَّامِ مِثْلُ أَبِي أَبُ
لَعَمْرُكَ مَا أُعْجِبْتُ إِلَّا بِمَدْحِهِمْ وَيَحْسَبُ أَنِّي بِٱلْقَصَائِدِ مُعْجَبُ
أُعِدُّ لِفَخْرِي فِي ٱلْمَقَامِ مُحَمَّداً وَأَدْعُو عَلِيّاً لِلْعُلَا حِينَ أَرْكَبُ

---

(١) في « ديوان الشريف الرضي » (١١١/١) : (جلب) .

[محاكاةُ الأميرِ الباروديِّ للشريفِ الرضيِّ في قصيدتهِ]

فقالَ وترجمَ لها بقولِهِ : وقالَ بروضِ القولِ علىٰ رويِّ قصيدةِ الشريفِ(١) :

[من الطويل]

سِوَايَ بِتَحْنَانِ ٱلْأَغَارِيدِ يَطْرَبُ ... وَغَيْرِيَ بِٱللَّذَّاتِ يَلْهُو وَيُعْجَبُ

وَمَا أَنَا مِمَّنْ تَأْسِرُ ٱلْخَمْرُ لُبَّهُ ... وَيَمْلِكُ سَمْعَيْهِ ٱلْيَرَاعُ ٱلْمُثَقَّبُ

وَلَٰكِنْ أَخُو هَمٍّ إِذَا مَا تَرَجَّحَتْ ... بِهِ سَوْرَةٌ نَحْوَ ٱلْعُلَا رَاحَ يَدْأَبُ

نَفَى ٱلنَّوْمَ عَنْ عَيْنَيْهِ نَفْسٌ أَبِيَّةٌ ... لَهَا بَيْنَ أَطْرَافِ ٱلْأَسِنَّةِ مَطْلَبُ

بَعِيدُ مَنَاطِ ٱلْهَمِّ فَٱلْغَرْبُ مَشْرِقٌ ... إِذَا مَا رَمَىٰ عَيْنَيْهِ وَٱلشَّرْقُ مَغْرِبُ

لَهُ غُدُوَاتٌ يَتْبَعُ ٱلْوَحْشُ ظِلَّهَا ... وَتَغْدُو عَلَىٰ آثَارِهَا [ٱلطَّيْرُ] تَنْعَبُ

هَمَامَةُ نَفْسٍ أَصْغَرَتْ كُلَّ مَأْرَبٍ ... فَكَلَّفَتِ ٱلْأَيَّامَ مَا لَيْسَ يُوهَبُ

وَمَنْ تَكُنِ ٱلْعَلْيَاءُ هِمَّةَ نَفْسِهِ ... فَكُلُّ ٱلَّذِي يَلْقَاهُ فِيهَا مُحَبَّبُ

إِذَا أَنَا لَمْ أُعْطِ ٱلْمَكَارِمَ حَقَّهَا ... فَلَا عَزَّنِي خَالٌ وَلَا ضَمَّنِي أَبُ

وَلَا حَمَلَتْ دِرْعِي كُمَيْتٌ طِمِرَّةٌ ... وَلَا دَارَ فِي كَفِّي سِنَانٌ مُذَرَّبُ

خُلِقْتُ عَيُوفاً لَا أَرَىٰ لِٱبْنِ حُرَّةٍ ... لَدَيَّ يَداً أُغْضِي لَهَا حِينَ يَغْضَبُ

فَلَسْتُ لِأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ مُتَوَقِّعاً ... وَلَسْتُ عَلَىٰ شَيْءٍ مَضَىٰ أَتَعَتَّبُ

أَسِيرُ عَلَىٰ نَهْجٍ يَرَى ٱلنَّاسُ غَيْرَهُ ... لِكُلِّ ٱمْرِئٍ فِيمَا يُحَاوِلُ مَذْهَبُ

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلشَّكُّ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... وَأَمْسَتْ بِهِ ٱلْأَحْلَامُ حَيْرَىٰ تَشَعَّبُ

صَدَعْتُ حِفَافَيْ طُرَّتَيْهِ بِكَوْكَبٍ ... مِنَ ٱلرَّأْيِ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ ٱلْمُغَيَّبُ

(١) أراد الأمير البارودي في « ديوانه » (١/٣٨ ـ ٤٤) .

وَبَحْرٍ مِنَ ٱلْهَيْجَاءِ خُضْتُ عَجَاجَهُ وَلَا عَاصِمٌ إِلَّا ٱلصَّفِيحُ ٱلْمُشَطَّبُ
تَظَلُّ بِهِ حُمْرُ ٱلْمَنَايَا وَسُودُهَا حَوَاسِرُ فِي أَلْوَانِهَا تَتَقَلَّبُ
تَوَسَّطْتُهُ وَٱلْخَيْلُ بِٱلْخَيْلِ تَلْتَقِي وَبِيضُ ٱلظُّبَا فِي ٱلْهَامِ تَبْدُو وَتَغْرُبُ
فَمَا زِلْتُ حَتَّىٰ بَيَّنَ ٱلْكَرُّ مَوْقِفِي لَدَىٰ سَاعَةٍ فِيهَا ٱلْعُقُولُ تُغَيَّبُ
لَدُنْ غُدْوَةٍ حَتَّىٰ أَتَى ٱللَّيْلُ وَٱلتُّقَىٰ عَلَىٰ غَيْهَبٍ مِنْ سَاطِعِ ٱلنَّقْعِ غَيْهَبُ
كَذَٰلِكَ دَأْبِي فِي ٱلْمِرَاسِ وَإِنَّنِي لَأَمْرَحُ فِي غَيِّ ٱلتَّصَابِي وَأَلْعَبُ
وَفِتْيَانِ لَهْوٍ قَدْ دَعَوْتُ وَلِلْكَرَىٰ خِبَاءٌ بِأَهْدَابِ ٱلْجُفُونِ مُطَنَّبُ
إِلَىٰ مَرْبَعٍ يَجْرِي ٱلنَّسِيمُ خِلَالَهُ بِنَشْرِ ٱلْخُزَامَىٰ وَٱلنَّدَىٰ يَتَصَبَّبُ
فَلَمْ يَمْضِ أَنْ جَاؤُوا مُلَبِّينَ دَعْوَتِي سِرَاعاً كَمَا وَافَىٰ عَلَى ٱلْمَاءِ رَبْرَبُ
بِخَيْلٍ [كَآرَامِ] ٱلصَّرِيمِ وَرَاءَهَا ضَوَارِي سَلُوقٍ عَاطِلٌ وَمُلَبَّبُ
مِنَ ٱللَّاءِ لَا يَأْكُلْنَ زَاداً سِوَى ٱلَّذِي يُضَرِّسْنَهُ وَٱلصَّيْدُ أَشْهَىٰ وَأَعْذَبُ
تَرَىٰ كُلَّ مُحْمَرِّ ٱلْحَمَالِيقِ فَاغِرٍ إِلَى ٱلْوَحْشِ لَا يَأْلُو وَلَا يَتَنَصَّبُ
يَكَادُ يَفُوقُ ٱلْبَرْقَ شَدّاً إِذَا ٱنْبَرَتْ لَهُ بِنْتُ مَاءٍ أَوْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ
فَمِلْنَا إِلَىٰ وَادٍ كَأَنَّ تِلَاعَهُ مِنَ ٱلْعَصْبِ مَوْشِيُّ ٱلْحَبَائِكِ مُذْهَبُ
تُرَاحُ بِهِ ٱلْآمَالُ بَعْدَ كَلَالِهَا وَيَصْبُو إِلَيْهِ ذُو ٱلْحِجَا وَهْوَ أَشْيَبُ
فَبَيْنَا نَرُودُ ٱلْأَرْضَ بِٱلْعَيْنِ إِذْ رَأَىٰ رَبِيئَتُنَا سِرْباً فَقَالَ أَلَا ٱرْكَبُوا
فَقُمْنَا إِلَىٰ خَيْلٍ كَأَنَّ مُتُونَهَا مِنَ ٱلضُّمْرِ خُوطُ ٱلضَّيْمَرَانِ ٱلْمُشَذَّبُ
فَلَمَّا ٱنْتَهَيْنَا حَيْثُ أَخْبَرَ أُطْلِقَتْ بُزَاةٌ وَجَالَتْ فِي ٱلْمَقَاوِدِ أَكْلُبُ
فَمَا كَانَ إِلَّا لَفْتَةُ ٱلْجِيدِ أَنْ [غَلَتْ] قُدُورٌ وَفَارَ ٱللَّحْمُ وَٱنْفَضَّ مَأْرَبُ

وَقُـلْـنَـا لِـسَـاقِـيـنَـا أَدِرْهَـا فَـإِنَّـمَـا قُـصَـارَىٰ بَـنِـي ٱلْأَيَّـامِ أَنْ يَـتَـشَـعَّـبُـوا
فَـقَـامَ إِلَـىٰ رَاقُـودِ خَـمْـرٍ كَـأَنَّـهُ إِذَا ٱسْتَقْبَلَتْهُ ٱلْعَيْنُ أَسْوَدُ مُغْضَبُ
يَـمُـجُّ سُـلَافـاً فِـي إِنَـاءٍ كَـأَنَّـهُ إِذَا مَـا ٱسْـتَـقَـلَّـتْـهُ ٱلْأَنَـامِـلُ كَـوْكَـبُ
فَلَمْ نَـأْلُ أَنْ دَارَتْ بِنَا ٱلْأَرْضُ دَوْرَةً وَحَتَّىٰ رَأَيْـنَـا ٱلْأُفْـقَ يَـنْـأَىٰ وَيَـقْـرُبُ
إِلَـىٰ أَنْ تَـوَلَّى ٱلْـيَـوْمُ إِلَّا أَقَـلَّـهُ وَقَدْ كَادَتِ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُنِيرَةُ تَغْرُبُ
فَرُحْنَا نَجُرُّ ٱلذَّيْلَ تِيهاً لِمَنْزِلٍ بِـهِ لِأَخِـي ٱللَّذَّاتِ وَٱللَّهْـوِ مَـلْـعَـبُ
مَـسَـارِحُ سِكِّـيرٍ وَمَـرْبَـضُ فَـاتِـكٍ وَمَخْدَعُ أَكْوَابٍ بِهِ ٱلْخَمْرُ تُسْكَبُ
فَلَمَّا رَآنَا صَاحِبُ ٱلدَّارِ أَشْرَقَتْ أَسَـارِيـرُهُ زَهْـواً وَجَـاءَ يُـرَحِّـبُ
وَقَـالَ ٱنْـزِلُـوا يَـا بَـارَكَ ٱللهُ فِـيـكُـمُ فَعِنْدِي لَكُمْ مَا تَشْتَهُونَ وَأَطْيَبُ
وَرَاحَ إِلَـىٰ دَنٍّ تَـكَـامَـلَ سِـنُّـهُ وَشَيَّبَ فَوْدَيْهِ مِنَ ٱلدَّهْرِ أَحْقُبُ
فَمَا زَالَ حَتَّى ٱسْتَلَّ مِنْهُ سَبِيكَةً مِنَ ٱلْخَمْرِ تَطْفُو فِي ٱلْإِنَاءِ وَتَرْسُبُ
يَحُومُ عَلَيْهَا ٱلطَّيْرُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَسْرِي عَلَيْهَا ٱلطَّارِقُ ٱلْمُتَأَوِّبُ
فَيَا حُسْنَ ذَاكَ ٱلْيَوْمِ لَوْ كَانَ بَاقِياً وَيَا طِيبَ هَـٰذَا ٱللَّيْلِ لَوْ دَامَ طَيِّبُ
يَـوَدُّ ٱلْفَتَـىٰ مَـا لَا يَـكُـونُ طَـمَـاعَـةً وَلَـمْ يَـدْرِ أَنَّ ٱلدَّهْرَ بِـٱلنَّـاسِ قُـلَّـبُ
وَلَـوْ عَـلِـمَ ٱلْإِنْـسَـانُ مَـا فِـيـهِ نَـفْـعُـهُ لَأَبْـصَـرَ مَـا يَـأْتِـي وَمَـا يَـتَـجَـنَّـبُ
وَلَـٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تَجْرِي بِحُكْمِهَا عَلَيْنَا وَأَمْرُ ٱلْغَيْبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ
نَـظُـنُّ بِـأَنَّـا قَـادِرُونَ وَأَنَّـنَـا نُقَادُ كَمَا قِيدَ ٱلْجَنِيبُ وَنُصْحَبُ
فَرَحْمَةُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ عَلَى ٱمْرِئٍ أَصَابَ هَوَاهُ أَوْ دَرَىٰ كَيْفَ يَذْهَبُ

يقولُ الشريفُ في مطلعِ قصيدتِهِ والذي يليهِ : طلبُ الإنسانِ ما أحبَّ مِنْ

أعلى الرتبِ وأرفعِ الأحوالِ طلبُ حقٍّ أو فضيلةٌ ، وذٰلكَ مرضيٌّ للهِ ، مندوبٌ إليهِ ، ليسَ للناسِ فيهِ موضعُ عذلٍ أو تأنيبٍ ، بخلافِ غيرِهِ مِنَ الطَّلبِ ؛ فإنَّهُ يُوجِبُ سخطَ اللهِ ، فلا يُعذَرُ صاحبُهُ ، وإذاً يجدُ الناسُ موضعاً للعذلِ والتأنيبِ ؛ وهوَ التعنيفُ .

أو معنى البيتِ الثاني : إذا لم تكتفِ باللهِ عاذراً . . فلا تأملْهُ في الناسِ ؛ فإنَّما هُم بينَ عاذلٍ أو مُؤنِّبٍ ، ويكونُ شكايةً مِنْ قلَّةِ الإنصافِ .

وفي قولِهِ وقد شرعَ في ذكرِ فضائلِهِ : (ملكتُ بحلمي) بديعُ التجريدِ ، واستعمالُ حرفينِ مِنْ أحرفِهِ (الباءِ) و(مِنْ) ، فالحلمُ هوَ الفُرْصةُ ، والدَّهرُ هوَ مفتولُ الذراعَينِ الأغلبُ ، وتلكَ صفةُ الأسدِ ؛ أي : مندمجُ الذراعَينِ ، غليظُ العنقِ ، وهوَ تصويرُ الموهومِ بالمحسوسِ ، وحاصلُ المعنىٰ : أنَّ شدائدَ الدَّهرِ لا تذهبُ بحلمِهِ .

ثمَّ قالَ فيما بعدُ : إنَّهُ علىٰ صغرِ سنِّهِ كبيرُ الهِمَّةِ ، واسترسلَ في ذكرِ مناقبِ نفسِهِ حتىٰ أتمَّ الفصلَ ، ثمَّ خاطبَ صاحبَهُ ، ثمَّ طلبَ السُّقيا ؛ الأرضُ أعطشَتْ وسُقِيَ غيرُها ، وتَأَسَّفَ عليها ، وأتبعَ ذٰلكَ بذكرِ برقٍ لحظَهُ ، ثمَّ ذكرَ طلباً وإخفاقاً في قولِهِ : (أمِنْ بعدِ أن جلَّلتَها) ، ثمَّ وصفَ ليلةً سارَها في قولِهِ : ([ودهماءَ] من ليلِ التِّمامِ) ، والتِّمامُ فيهِ بكسرِ التاءِ ؛ وهوَ التَّمامُ بفتحِها ، ولٰكنَّ اللغةَ استعملَتْهُ في هٰذا الموضعِ بالكسرِ ؛ أي : مِنْ أطولِ الليالي .

ثمَّ وصفَ خيلاً قصدَ بها الأعداءَ في قولِهِ : (ومصقولةِ الأعطافِ) ، ثمَّ هجا ومدحَ في قولِهِ : (دعوا شرفَ الأحسابِ . . .) إلىٰ آخِرِهِ ، وقولُهُ : (ممعوطةً بنُسُوعِها) أي : أزالَتِ النُّسوعَ ، وهيَ السُّيورُ المجدولةُ عريضةً شَعَرُها لطولِ حكِّها ، فهوَ يصفُها بالتأثُّرِ وما أدركَها مِنْ نَصَبِ السفرِ ،

والمعطُ فيهِ بالعينِ ، وأمّا **المغطُ** ـ بالغينِ ـ . . فهوَ أن تَمُدَّ الشيءَ تستطيلُهُ ، وهوَ المذكورُ في قولِ المتنبي (١) : [من الكامل]

أَنْسَاعُهَا مَمْغُوطَةٌ وَخِفَافُهَا   مَنْكُوحَةٌ وَطَرِيقُهَا عَذْرَاءُ

يصفُ المتنبي إبلَهُ بالهزالِ ، وأنَّ نسوعَها فضلَتْ عنها ، **والتعقيبُ** : تَكرارُ الغزوِ في سنةٍ واحدةٍ ، والتردُّدُ في طلبِ المجدِ ، **والأخطبُ** : مِنَ الخُطْبةِ ؛ وهوَ لونٌ كَدِرٌ مشربٌ حمرةً في صفرةٍ ، أو غبرةٌ ترهقُها خضرةٌ ، **والزاعبياتُ** ـ بالعينِ ـ : الرماحُ نُسِبَتْ إلىٰ بلدٍ .

فانظرْ ـ هداكَ اللهُ ـ بنورِ البصيرةِ إلىٰ هاتَينِ القصيدتَينِ . . تَجِدْهُما قد ابتدرَتا في البلاغةِ وحسنِ السياقِ غايةً بلغتاها معاً ، وذٰلكَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ .

ومطلعُ الثانيةِ وإن كانَ مُولَّداً مِنْ مطلعِ الأولىٰ . . فهوَ أنورُ ؛ كما قيلَ (٢) : [من البسيط]

وَإِنَّ فِي ٱلْخَمْرِ مَعْنىً لَيْسَ فِي ٱلْعِنَبِ

وقولُهُ بعدَهُ : (وما أنا ممَّنْ تأسرُ الخمرُ) يريدُ أنَّ الهَزْلَ لا يشغلُهُ عنِ الجدِّ ، ولا يَمنعُهُ الترفُ والنعيمُ عن مباشرةِ الشدائدِ في طلبِ المجدِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٩٤) .

(٢) هو للمتنبي في « ديوانه » (ص ٣٢٨) ، والبيت بتمامه :

وَإِنْ تَكُنْ تَغْلِبُ ٱلْغَلْبَاءُ عُنْصُرَهَا   فَإِنَّ فِي ٱلْخَمْرِ مَعْنىً لَيْسَ فِي ٱلْعِنَبِ

[قصيدةُ أبي فراسٍ الحمدانيّ يشتكي فيها إلىٰ سيفِ الدولةِ]

وقالَ أبو فراسٍ الحارثُ بنُ سعيدٍ عمّ سيفِ الدولةِ عليّ بنِ حمدانَ ، وكانَ يَتولّىٰ لهُ رياسةَ الجُيوشِ ، فاتفقَ أن أسرَتْهُ الرومُ في بعضِ غزواتِهِ ، وبقيَ هنالِكَ مُدَّةً ، وكانَ يكتبُ لابنِ عمّهِ قصائدَ يَعتذِرُ فيها مِنَ الأسرِ ، ويشتكي شِدَّةَ الحالِ ، ويطلبُ الفداءَ ، وسُمّيَتْ تلكَ القصائدُ لذٰلكَ بالرُّومياتِ ، وهٰذهِ **القصيدةُ إحداها**(١) :

[من الطويل]

أَرَاكَ عَصِيَّ ٱلدَّمْعِ شِيمَتُكَ ٱلصَّبْرُ ... أَمَا لِلْهَوَىٰ نَهْيٌ عَلَيْكَ وَلَا أَمْرُ
بَلَىٰ أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِيَ لَوْعَةٌ ... وَلٰكِنَّ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرُّ
إِذَا ٱللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ ٱلْهَوَىٰ ... وَأَذْلَلْتُ دَمْعاً مِنْ خَلَائِقِهِ ٱلْكِبْرُ
تَكَادُ تُضِيءُ ٱلنَّارُ بَيْنَ جَوَانِحِي ... إِذَا هِيَ أَذْكَتْهَا ٱلصَّبَابَةُ وَٱلْفِكْرُ
مُعَلِّلَتِي بِٱلْوَعْدِ وَٱلْمَوْتُ دُونَهُ ... إِذَا مِتُّ ظَمْآناً فَلَا نَزَلَ ٱلْقَطْرُ
بَدَوْتُ وَأَهْلِي حَاضِرُونَ لِأَنَّنِي ... أَرَىٰ أَنَّ دَاراً لَسْتُ مِنْ أَهْلِهَا قَفْرُ
وَحَارَبْتُ قَوْمِي فِي هَوَاكِ وَإِنَّهُمْ ... وَإِيَّايَ لَوْلَا حُبُّكِ ٱلْمَاءُ وَٱلْخَمْرُ
وَإِنْ كَانَ مَا قَالَ ٱلْوُشَاةُ وَلَمْ يَكُنْ ... فَقَدْ يَهْدِمُ ٱلْإِيمَانَ مَا شَيَّدَ ٱلْكُفْرُ
وَفَيْتُ وَفِي بَعْضِ ٱلْوَفَاءِ مَذَلَّةٌ ... لِإِنْسَانَةٍ فِي ٱلْحَيِّ شِيمَتُهَا ٱلْغَدْرُ
وَقُورٌ وَرَيْعَانُ ٱلصِّبَا يَسْتَفِزُّهَا ... فَتَأْرَنُ أَحْيَاناً كَمَا أَرِنَ ٱلْمُهْرُ
تُسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ وَهْيَ عَلِيمَةٌ ... وَهَلْ بِفَتىً مِثْلِي عَلَىٰ حَالَةٍ نُكْرُ
فَقُلْتُ كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا ٱلْهَوَىٰ ... قَتِيلُكِ قَالَتْ أَيُّهُمْ فَهُمُ كُثْرُ

---

(١) انظر « ديوان أبي فراس الحمداني » (ص ١٢٦ ـ ١٣٠) .

فَقُلْتُ لَهَا لَوْ شِئْتِ لَمْ تَتَعَنَّتِي ... وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكِ بِي خُبْرُ

وَلَا كَانَ لِلْأَحْزَانِ لَوْلَاكِ مَسْلَكٌ ... إِلَى ٱلْقَلْبِ لَـٰكِنَّ ٱلْهَوَىٰ لِلْبِلَىٰ جِسْرُ

فَأَيْقَنْتُ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ ... وَأَنَّ يَدِي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ

فَقَالَتْ لَقَدْ أَزْرَىٰ بِكَ ٱلدَّهْرُ بَعْدَنَا ... فَقُلْتُ مَعَاذَ ٱللهِ بَلْ أَنْتِ وَٱلدَّهْرُ

وَقَلَّبْتُ أَمْرِي لَا أَرَىٰ لِيَ رَاحَةً ... إِذَا ٱلْبَيْنُ أَنْسَانِي أَلَحَّ بِيَ ٱلْهَجْرُ

فَعُدْتُ إِلَىٰ حُكْمِ ٱلزَّمَانِ وَحُكْمِهَا ... لَهَا ٱلذَّنْبُ لَا تُجْزِي بِهِ وَلِيَ ٱلْعُذْرُ

تَجَفَّلُ حِيناً ثُمَّ تَدْنُو وَإِنَّمَا ... تُرَاعِي طَلاً بِٱلْوَادِ أَعْجَزَهُ ٱلْحُضْرُ

وَإِنِّي لَنَزَّالٌ بِكُلِّ مَخُوفَةٍ ... كَثِيرٌ إِلَىٰ نُزَّالِهَا ٱلنَّظَرُ [ٱلشَّزْرُ]

وَإِنِّي لَجَرَّارٌ لِكُلِّ كَتِيبَةٍ ... مُعَوَّدَةٍ أَلَّا يُخِلَّ بِهَا ٱلنَّصْرُ

فَأَصْدَىٰ إِلَىٰ أَنْ تَرْتَوِي ٱلْأَرْضُ وَٱلْقَنَا ... وَأَسْغَبُ حَتَّىٰ يَشْبَعَ ٱلذِّئْبُ وَٱلنَّسْرُ

وَلَا أُصْبِحُ ٱلْحَيَّ ٱلْغَيُورَ لِغَادَةٍ(١) ... وَلَا ٱلْجَيْشَ مَا لَمْ تَأْتِهِ قَبْلِيَ ٱلنُّذْرُ

وَيَا رُبَّ دَارٍ لَمْ تُخِفْنِي مَنِيعَةٍ ... طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِٱلرَّدَىٰ أَنَا وَٱلْفَجْرُ

وَسَاحِبَةِ ٱلْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيتُهَا ... فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي ٱللِّقَاءِ وَلَا وَعْرُ

وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ ٱلْجَيْشُ كُلُّهُ ... وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لِأَبْيَاتِهَا سِتْرُ

وَلَا رَاحَ يُطْغِينِي بِأَثْوَابِهِ ٱلْغِنَىٰ ... وَلَا بَاتَ يَثْنِينِي عَنِ ٱلْكَرَمِ ٱلْفَقْرُ

وَمَا حَاجَتِي فِي ٱلْمَالِ أَبْغِي وُفُورَهُ ... إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ ٱلْوَفْرُ

أُسِرْتُ وَمَا صَحْبِي بِعَزْلٍ لَدَى ٱلْوَغَىٰ ... وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رَبُّهُ غَمْرُ

وَلَـٰكِنْ إِذَا حُمَّ ٱلْقَضَاءُ عَلَى ٱمْرِئٍ ... فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَقِيهِ وَلَا بَحْرُ

---

(١) في « ديوان أبي فراس الحمداني » (ص ١٢٨) : (الحي الخلوف بغارة) .

وَقَالَ أُصَيْحَابِي ٱلْفِرَارَ أَوِ ٱلرَّدَىٰ فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرُّ
وَلَٰكِنَّنِي أَمْضِي لِمَا لَا يَعِيبُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا ٱلْأَسْرُ
وَلَا خَيْرَ فِي دَفْعِ ٱلرَّدَىٰ بِمَذَلَّةٍ كَمَا رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْءَتِهِ عَمْرُو
يَمُنُّونَ أَنْ خَلَّوْا ثِيَابِي وَإِنَّمَا عَلَيَّ ثِيَابٌ مِنْ دِمَائِهِمُ حُمْرُ
وَقَائِمُ سَيْفٍ فِيهِمُ دَقَّ نَصْلُهُ وَأَعْقَابُ رُمْحٍ فِيهِمُ حُطِّمَ ٱلصَّدْرُ
سَيَذْكُرُنِي قَوْمِي إِذَا جِدَّ جِدُّهُمْ وَفِي ٱللَّيْلَةِ ٱلظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ ٱلْبَدْرُ
وَلَوْ سَدَّ غَيْرِي مَا سَدَدْتُ ٱكْتَفَوْا بِهِ وَمَا كَانَ يُغْنِي ٱلتِّبْرُ لَوْ نَفَقَ ٱلصُّفْرُ
وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا مَهْرُ
أَعَزُّ بَنِي ٱلدُّنْيَا وَأَعْلَىٰ ذَوِي ٱلْعُلَا وَأَكْرَمُ مَنْ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ وَلَا فَخْرُ

[محاكاةُ الأميرِ الباروديّ لأبي فراسٍ الحمدانيّ في قصيدتِهِ]

فقالَ في الوزنِ والرويّ (١) : [من الطويل]

طَرِبْتُ وَعَادَتْنِي ٱلْمَخِيلَةُ وَٱلسُّكْرُ وَأَصْبَحْتُ لَا يُلْوِي بِشِيمَتِيَ ٱلزَّجْرُ
كَأَنِّيَ مَخْمُورٌ سَرَتْ بِلِسَانِهِ مُعَتَّقَةٌ مِمَّا يَضَنُّ بِهَا ٱلتَّجْرُ
صَرِيعُ هَوىً يُلْوِي بِيَ ٱلشَّوْقُ كُلَّمَا تَلَأْلَأَ بَرْقٌ أَوْ سَرَتْ دِيمَةٌ غُزْرُ
إِذَا مَالَ مِيزَانُ ٱلنَّهَارِ رَأَيْتُنِي عَلَىٰ حَسَرَاتٍ لَا يُقَاوِمُهَا صَبْرُ
يَقُولُ أُنَاسٌ إِنَّهُ ٱلسِّحْرُ ضَلَّةً وَمَا هِيَ إِلَّا نَظْرَةٌ دُونَهَا ٱلسِّحْرُ
فَكَيْفَ يَعِيبُ ٱلنَّاسُ أَمْرِي وَلَيْسَ لِي وَلَا لِٱمْرِئٍ فِي ٱلْحُبِّ نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ

---

(١) أي : الأمير البارودي في « ديوانه » (٢/ ٤٠ ـ ٤٦) .

وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ دِفَاعُهُ لَأَلْوَتْ بِهِ ٱلْبِيضُ ٱلْمَبَاتِيرُ وَٱلسُّمْرُ
وَلَـٰكِنَّهُ ٱلْحُبُّ ٱلَّذِي لَوْ تَعَلَّقَتْ شَرَارَتُهُ بِٱلْجَمْرِ لَٱحْتَرَقَ ٱلْجَمْرُ
عَلَىٰ أَنَّنِي كَاتَمْتُ صَدْرِيَ حُرْقَةً مِنَ ٱلْوَجْدِ لَا يَقْوَىٰ عَلَىٰ مَسِّهَا صَدْرُ
وَكَفْكَفْتُ دَمْعاً لَوْ أَسَلْتُ شُؤُونَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَا شَكَّ ٱمْرُؤٌ أَنَّهُ ٱلْبَحْرُ
حَيَاءً وَكِبْراً أَنْ يُقَالَ تَرَجَّحَتْ بِهِ صَبْوَةٌ أَوْ فَلَّ مِنْ غَرْبِهِ ٱلْهَجْرُ
وَإِنِّي ٱمْرُؤٌ لَوْلَا ٱلْعَوَائِقُ أَذْعَنَتْ لِسُلْطَانِهِ ٱلْبَدْوُ ٱلْمُغِيرَةُ وَٱلْحَضْرُ
مِنَ ٱلنَّفَرِ ٱلْغُرِّ ٱلَّذِينَ سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ
إِذَا ٱسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ تَفَزَّعَتِ ٱلْأَفْلَاكُ وَٱلْتَفَتَ ٱلدَّهْرُ
لَهُمْ عُمُدٌ مَرْفُوعَةٌ وَمَعَاقِلٌ وَأَلْوِيَةٌ حُمْرٌ وَأَفْنِيَةٌ خُضْرُ
وَنَارٌ لَهَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ لِمُدَّرِعِ ٱلظَّلْمَاءِ أَلْسِنَةٌ حُمْرُ
تَمُدُّ يَداً نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ خَضِيبَةً تُصَافِحُهَا ٱلشِّعْرَىٰ وَيَلْثُمُهَا ٱلْغَفْرُ
وَخَيْلٌ يَرُجُّ ٱلْخَافِقَيْنِ صَهِيلُهَا نَزَائِعُ مَعْقُودٌ بِأَعْرَافِهَا ٱلنَّصْرُ
مُعَوَّدَةٌ قَطْعَ ٱلْفَيَافِي كَأَنَّهَا خُدَارِيَّةٌ فَتْخَاءُ لَيْسَ لَهَا وَكْرُ
أَقَامُوا زَمَاناً ثُمَّ بَدَّدَ شَمْلَهُمْ أَخُو فَتَكَاتٍ بِٱلْكِرَامِ ٱسْمُهُ ٱلدَّهْرُ
فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ آثَارِ نِعْمَةٍ تَضُوعُ بِرَيَّاهَا ٱلْأَحَادِيثُ وَٱلذِّكْرُ
وَقَدْ تَنْطِقُ ٱلْآثَارُ وَهْيَ صَوَامِتٌ وَيُثْنِي بِرَيَّاهُ عَلَى ٱلْوَابِلِ ٱلزَّهْرُ
لَعَمْرُكَ مَا حَيٌّ وَإِنْ طَالَ سَيْرُهُ يُعَدُّ طَلِيقاً وَٱلْمَنُونُ لَهُ أَسْرُ
وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْأَيَّامُ إِلَّا مَنَازِلٌ يَحُلُّ بِهَا سَفْرٌ وَيَتْرُكُهَا سَفْرُ
فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلْمَرْءَ فِيهَا بِخَالِدٍ وَلَـٰكِنَّهُ يَسْعَىٰ وَغَايَتُهُ ٱلْعُمْرُ

أقولُ : مَنْ آتاهُ اللهُ فهماً ، وتأمَّلَ مثلَ هـٰذا الشعرِ الذي هوَ مِنَ البلاغةِ في أرفعِ رتبِها . . عرفَ كيفَ تَتفاضلُ العقولُ ، وأنَّ اللهَ يَختصُّ مَنْ شاءَ بما شاءَ .

هـٰذا مطلعُ قصيدةِ أبي فراسٍ ؛ هل تجدُ أصدقَ شاهدٍ منهُ في بابِ براعتَيِ المطلعِ والاستهلالِ ؟! فإنَّهُ أخبرَ فيهِ علىٰ أنَّهُ سلكَ بهِ مسلكَ الغزلِ أنَّهُ في حالةٍ تقتضي البكاءَ والجزعَ ، وأيُّ حالةٍ أشدُّ اقتضاءً لهُما مِنْ كونِهِ أسيراً في يدِ أعداءِ دينِهِ ودنياهُ ، ممنوعاً مِنَ الوصولِ إلىٰ هواهُ في أرضِ عِزِّهِ ودارِ سلطانِهِ .

وبعدَ أن تَتأمَّلَ المَطلعَ بذٰلكَ النظرِ . . تَتمشَّىٰ في تأمُّلِ ما اختارَ مِنْ عباراتِ الغزلِ ، فتجدُها بعينِها هيَ عباراتِ الشَّكوىٰ ؛ مِنْ بقائِهِ في الأسرِ ، وتأخُّرِ ابنِ عمِّهِ عنِ المسارعةِ إلىٰ فدائِهِ بعدَ وعدِهِ بذٰلكَ ، واستحقاقِهِ بعدَ ما ظهرَ مِنْ بلائِهِ ، وبذلِ مُهجتِهِ في خدمتِهِ وطاعةِ أمرِهِ ؛ ألَّا تلتفتَ العنايةُ إلَّا لتخليصِهِ وإبلاغِهِ أخرىٰ مناهُ ، ومعَ تأمُّلِ تلكَ المعالي تُحسِنُ اعتبارَ براعةِ تلكَ العباراتِ ، وما اشتملَتْ عليهِ مِنَ الكناياتِ والاستعاراتِ والإشاراتِ .

فإذا فرغتَ مِنْ تأمُّلِها علىٰ ذٰلكَ الحدِّ . . مشيتَ بنورِ فكرِكَ في القصيدةِ الثانيةِ ؛ تعتبرُها بيتاً بيتاً ، وما أسكنَتْ مِنَ المعاني ، وبذٰلكَ تَحصُلُ على الغايةِ التي تسعىٰ إليها .

❋ ❋ ❋

[قصيدةُ النابغةِ الذُبيانيِّ]

وقالَ النابغةُ الذُّبيانيُّ ـ واسمُهُ زيادٌ ـ يصفُ المُتجرِّدةَ زوجَ النعمانِ بأمرِهِ ، ويُقالُ : إنَّ النعمانَ معَ ذٰلكَ لمَّا سمعَ القصيدةَ . . غضبَ على النابغةِ وجفاهُ ، وظنَّ بهِ حتى اختفىٰ منهُ ، ثمَّ ظهرَتْ براءتُهُ لهُ ، وعادَ إلىٰ موضعِهِ مِنْ منادمتِهِ [1] :

[من الكامل]

أَمِـنَ آلِ مَـيَّـةَ رَائِـحٌ أَوْ مُـغْـتَـدِ ... عَـجْـلَانَ ذَا زَادٍ وَغَـيْـرَ مُـزَوَّدِ

أَفِـدَ ٱلـتَّـرَحُّـلُ غَـيْـرَ أَنَّ رِكَـابَـنَـا ... لَـمَّـا تَـزَلْ بِـرِحَـالِـنَـا وَكَـأَنْ قَـدِ

زَعَـمَ ٱلْـهُـمَـامُ بِـأَنَّ رِحْـلَـتَـنَـا غَـداً ... وَبِـذَاكَ خَـبَّـرَنَـا ٱلْـغُـدَافُ ٱلْأَسْـوَدُ

سبقَ أنَّهُ غيَّرَهُ : (وبذاكَ تَنعابُ الغرابِ الأسودِ) هرباً مِنْ ذٰلكَ العيبِ ، ولٰكنَّ الرواةَ أثبتوهُ علىٰ أصلِهِ .

لَا مَـرْحَـبـاً بِـغَـدٍ وَلَا أَهْـلاً بِـهِ ... إِنْ كَـانَ تَـفْـرِيـقُ ٱلْأَحِـبَّـةِ فِـي غَـدِ

حَـانَ ٱلـرَّحِـيـلُ وَلَـمْ تُـوَدِّعْ مَـهْـدَداً ... وَٱلـصُّـبْـحُ وَٱلْإِمْـسَـاءُ مِـنْـهَـا مَـوْعِـدِي

فِـي إِثْـرِ غَـانِـيَـةٍ رَمَـتْـكَ بِـسَـهْـمِـهَـا ... فَـأَصَـابَ قَـلْـبَـكَ غَـيْـرَ أَنْ لَـمْ تُـقْـصِـدِ

غَـنِـيَـتْ بِـذَٰلِكَ إِذْ هُـمُ لَـكَ جِـيـرَةٌ ... مِـنْـهَـا بِـعَـطْـفِ رِسَـالَـةٍ وَتَـوَدُّدِ

وَلَـقَـدْ أَصَـابَ فُـؤَادَهُ مِـنْ حُـبِّـهَـا ... عَـنْ ظَـهْـرِ مِـرْنَـانٍ بِـسَـهْـمٍ مُـصْـرِدِ

نَـظَـرَتْ بِـمُـقْـلَـةِ شَـادِنٍ مُـتَـرَبِّـبٍ ... أَحْـوَىٰ أَحَـمِّ ٱلْـمُـقْـلَـتَـيْـنِ مُـقَـلَّـدِ

وَٱلـنَّـظْـمُ فِـي سِـلْـكٍ يُـزَيِّـنُ نَـحْـرَهَـا ... ذَهَـبٌ تَـوَقَّـدَ كَـٱلـشِّـهَـابِ ٱلْـمُـوقَـدِ

---

(١) انظر « ديوان النابغة الذبياني » (ص ٨٩ ـ ٩٧) .

صَفْرَاءُ كَٱلسِّيَرَاءِ أُكْمِلَ خَلْقُهَا كَٱلْغُصْنِ فِي غُلَوَائِهِ ٱلْمُتَأَوِّدِ
وَٱلْبَطْنُ ذُو عُكَنٍ لَطِيفٌ طَيُّهُ وَٱلأَتْبُ تَنْفُجُهُ بِثَدْيٍ مُقْعَدِ

الأتبُ : ثوبٌ رقيقٌ ، وتنفجُهُ : مِنْ نَفَجَ ؛ ترفعُهُ وتبعدُهُ .

مَخْطُوطَةُ ٱلْمَتْنَيْنِ غَيْرُ مُفَاضَةٍ رَيَّا ٱلرَّوَادِفِ بَضَّةُ ٱلْمُتَجَرَّدِ
قَامَتْ تُرَائِي بَيْنَ سِجْفَيْ كِلَّةٍ كَٱلشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِٱلْأَسْعَدِ

الأسعدُ : برجُ الحملِ .

أَوْ دُرَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غَوَّاصُهَا بَهِجٌ مَتَىٰ يَرَهَا يُهِلَّ وَيَسْجُدِ
أَوْ دُمْيَةٍ مِنْ مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَادُ وَقَرْمَدِ
سَقَطَ ٱلنَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَٱتَّقَتْنَا بِٱلْيَدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ مِنَ ٱللَّطَافَةِ يُعْقَدُ
نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا نَظَرَ ٱلسَّقِيمِ إِلَىٰ وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ
تَجْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ بَرَداً أُسِفَّ [لِثَاتُهُ] بِٱلْإِثْمِدِ
كَٱلْأُقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ [نَدِي]
زَعَمَ ٱلْهُمَامُ بِأَنَّ فَاهَا بَارِدٌ عَذْبٌ مُقَبَّلُهُ شَهِيُّ ٱلْمَوْرِدِ
زَعَمَ ٱلْهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ أَنَّهُ عَذْبٌ إِذَا مَا ذُقْتَهُ قُلْتُ ٱزْدَدِ
زَعَمَ ٱلْهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ أَنَّهُ يُشْفَىٰ بِرَيَّا رِيقِهَا ٱلْعَطِشُ ٱلصَّدِي
أَخَذَ ٱلْعَذَارَىٰ عِقْدَهُ فَنَظَمْنَهُ مِنْ لُؤْلُؤٍ مُتَتَابِعٍ مُتَسَرِّدِ
لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ عَبَدَ ٱلْإِلَٰهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

صَرورةٌ ـ بالصَّادِ ـ قيلَ في تفسيرِهِ : مَنْ لم يذنبْ قطُّ ، أو لم يبرحْ مِنْ

مكانِهِ ، وقيلَ : هوَ في الجاهليةِ : مَنْ لم يَتزوَّجْ ، وفي الإسلامِ : مَنْ لم يحجَّ ، ولدفعِ التَّكرارِ في البيتِ يُحمَلُ علىٰ غيرِ هٰذا المعنىٰ .

لَـرَنَـا لِـرُؤْيَـتِـهَـا وَحُـسْـنِ حَـدِيـثِـهَـا وَلَـخَـالَـهُ رَشَـداً وَإِنْ لَـمْ يَـرْشُـدِ

بِـتَـكَـلُّـمٍ لَـوْ تَـسْـتَـطِـيـعُ كَـلاَمَـهُ لَـدَنَـتْ لَهُ أَرْوَى ٱلْـهِـضَـابِ ٱلصُّـخَّـدِ

الصُّخَّدُ : جمعُ صاخدٍ ؛ وهيَ الملساءُ .

وَبِـفَـاحِـمٍ رَجْـلٍ أَثِـيـثٍ نَـبْـتُـهُ كَـٱلْـكَـرْمِ مَالَ عَلَى ٱلدِّعَامِ ٱلْمُسْنَدِ

وَإِذَا لَـمَـسْـتَ لَـمَـسْـتَ أَجْـثَـمَ جَـاثِـمـاً مُـتَـحَـيِّـزاً بِـمَـكَـانِـهِ مِـلْءَ ٱلْـيَـدِ

وَإِذَا طَـعَـنْـتَ طَـعَـنْـتَ فِـي مُـسْـتَـهْـدَفٍ رَابِـي ٱلْـمَـجَـسَّـةِ بِـٱلْـعَـبِـيـرِ مُـقَـرْمَـدِ

وَإِذَا نَـزَعْـتَ نَـزَعْـتَ عَـنْ مُـسْـتَـحْـصِـفٍ نَـزْعَ ٱلْـحَـزَوَّرِ بِـٱلـرِّشَـاءِ ٱلْـمُـحْـصَـدِ

وَإِذَا يَـعَـضُّ يَـشُـدُّ مِـنْ أَعْـضَـائِـهِ عَـضَّ ٱلْـكَـبِـيـرِ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ ٱلْأَدْرَدِ

وَيَـكَـادُ يَـنْـزِعُ جِـلْـدَ مَـنْ أَصْـلَـىٰ بِـهِ بِـلَـوَافِـحٍ مِـثْـلِ ٱلـسَّـعِـيـرِ ٱلْـمُـوقَـدِ

لَا وَارِدٌ مِـنْـهَـا يَـحُـورُ لِـمَـصْـدَرٍ عَـنْـهَـا وَلَا صَـدِرٌ يَـحُـورُ لِـمَـوْرِدِ

[محاكاةُ الأميرِ الباروديِّ للنابغةِ الذُّبيانيِّ في قصيدته]

فمشىٰ علىٰ أثرِهِ ، وترجَم لها بقولِهِ [1] : وقالَ علىٰ رويّ قصيدةِ النابغةِ الذُّبيانيِّ التي أوَّلُها (أَمِنَ آلِ مَيَّةَ) ، وقد سلكَ فيها مسالكَ العربِ فيما كانَتْ تَتمدَّحُ بهِ ؛ مِنْ مباشرةِ الحروبِ ، وارتيادِ المنابتِ ، وركوبِ الخيلِ ، وشربِ الخمرِ ، ومزاولةِ النساءِ : [من الكامل]

ظَـنَّ ٱلـظُّـنُـونَ فَـبَـاتَ غَـيْـرَ مُـوَسَّـدِ حَـيْـرَانَ يَـكْـلَأُ مُـسْـتَـنِـيـرَ ٱلْـفَـرْقَـدِ

---

(١) أي : الأمير البارودي في « ديوانه » (١/١٤٨ ـ ١٥٦) .

تَـلْـوِي بِـهِ ٱلـذُّكُـرَاتُ حَـتَّـىٰ إِنَّـهُ لَـيَـظَـلُّ مُـلْـقـىً بَـيْـنَ أَيْـدِي ٱلْـعُـوَّدِ
طَـوْراً يَـهُـمُّ بِـأَنْ يَـزِلَّ بِـنَـفْـسِـهِ سَـرَفـاً وَتَـارَاتٍ يَـمِـيـلُ عَـلَى ٱلْـيَـدِ
فَـكَـأَنَّـمَـا ٱفْـتَـرَسَـتْ بِـطَـائِـرِ حِـلْـمِـهِ مَـشْـمُـولَـةٌ أَوْ سَـاغَ سُـمَّ ٱلْأَسْـوَدِ
قَـالُـوا غَـداً يَـوْمُ ٱلـرَّحِـيـلِ وَمَـنْ لَـهُـمْ خَـوْفَ ٱلـتَّـفَـرُّقِ أَنْ أَعِـيـشَ إِلَـىٰ غَـدِ
هِـيَ مُـهْـجَـةٌ ذَهَـبَ ٱلْـهَـوَىٰ بِـشَـغَـافِـهَـا مَـعْـمُـودَةٌ إِنْ لَـمْ تَـمُـتْ فَـكَـأَنْ قَـدِ
يَـا أَهْـلَ ذَا ٱلْـبَـيْـتِ ٱلـرَّفِـيـعِ مَـنَـارُهُ أَدْعُـوكُـمُ يَـا قَـوْمُ دَعْـوَةَ مُـقْـصَـدِ
إِنِّـي فَـقَـدْتُ ٱلْـعَـامَ بَـيْـنَ بُـيُـوتِـكُـمْ عَـقْـلِـي فَـرُدُّوهُ عَـلَـيَّ لِأَهْـتَـدِي
أَوْ فَـٱسْـتَـقِـيـدُونِـي بِـبَـعْـضِ قِـيَـانِـكُـمْ حَـتَّـىٰ تَـرُدَّ إِلَـيَّ نَـفْـسِـي أَوْ تَـدِي
بَـلْ يَـا أَخَـا ٱلـسَّـيْـفِ ٱلـطَّـوِيـلِ نِـجَـادُهُ إِنْ أَنْـتَ لَـمْ تَـحْـمِ ٱلـنَّـزِيـلَ فَـأَغْـمِـدِ
هَـٰذِي لِـحَـاظُ ٱلْـغِـيـدِ بَـيْـنَ شِـعَـابِـكُـمْ فَـتَـكَـتْ بِـنَـا خَـلْـسـاً بِـغَـيْـرِ مُـهَـنَّـدِ
مِـنْ كُـلِّ نَـاعِـمَـةِ ٱلـصِّـبَـا بَـدَوِيَّـةٍ رَيَّـا ٱلـشَّـبَـابِ سَـلِـيـمَـةِ ٱلْـمُـتَـجَـرَّدِ
هَـيْـفَـاءَ إِنْ خَـطَـرَتْ سَـبَـتْ وَإِذَا رَنَـتْ سَـلَـبَـتْ فُـؤَادَ ٱلْـعَـابِـدِ ٱلْـمُـتَـشَـدِّدِ
يَـخْـفِـضْـنَ مِـنْ أَبْـصَـارِهِـنَّ تَـخَـتُّـلاً لِـلـنَّـفْـسِ فِـعْـلَ ٱلْـقَـانِـتَـاتِ ٱلْـعُـبَّـدِ
فَـإِذَا أَصَـبْـنَ أَخَـا ٱلـشَّـبَـابِ سَـلَـبْـنَـهُ وَرَمَـيْـنَ مُـهْـجَـتَـهُ بِـطَـرْفٍ أَصْـيَـدِ
وَإِذَا لَـمَـحْـنَ أَخَـا ٱلْـمَـشِـيـبِ قَـلَـيْـنَـهُ وَسَـتَـرْنَ ضَـاحِـيَـةَ ٱلْـمَـحَـاسِـنِ بِـٱلْـيَـدِ
فَـلَـئِـنْ غَـدَوْتُ دَرِيـئَـةً لِـعُـيُـونِـهَـا فَـلَـقَـدْ أَفُـلُّ زَعَـارَةَ ٱلْـمُـتَـمَـرِّدِ
وَلَـقَـدْ شَـهِـدْتُ ٱلْـحَـرْبَ فِـي إِبَّـانِـهَـا وَلَـبِـئْـسَ رَاعِـي ٱلْـحَـيِّ إِنْ لَـمْ أَشْـهَـدِ
تَـتَـقَـصَّـفُ ٱلْـمُـرَّانُ فِـي حَـجَـرَاتِـهَـا وَيَـعُـودُ فِـيـهَـا ٱلـسَّـيْـفُ مِـثْـلَ ٱلْأَدْرَدِ
عَـصَـفَـتْ بِـهَـا رِيـحُ ٱلـرَّدَىٰ فَـتَـدَفَّـقَـتْ بِـدَمِ ٱلْـفَـوَارِسِ كَـٱلْأَتِـيِّ ٱلْـمُـزْبِـدِ

مَا زِلْتُ أَطْعَنُ بَيْنَهَا حَتَّى ٱنْثَنَتْ عَنْ مِثْلِ حَاشِيَةِ ٱلرِّدَاءِ ٱلْمُجْسَدِ
وَلَقَدْ هَبَطْتُ ٱلْغَيْثَ يَلْمَعُ نُورُهُ فِي كُلِّ وَضَّاحِ ٱلأَسِرَّةِ أَغْيَدِ
تَجْرِي بِهِ ٱلْآرَامُ بَيْنَ مَنَاهِلٍ طَابَتْ مَشَارِبُهَا وَظِلٍّ أَبْرَدِ
بِمُضَمَّرٍ أَرِنٍ كَأَنَّ سَرَاتَهُ بَعْدَ ٱلْحَمِيمِ سَبِيكَةٌ مِنْ عَسْجَدِ
خَلَصَتْ لَهُ ٱلْيُمْنَىٰ وَعَمَّ ثَلَاثَةً مِنْهُ ٱلْبَيَاضُ إِلَىٰ وَظِيفٍ أَجْرَدِ
فَكَأَنَّمَا ٱنْتَزَعَ ٱلأَصِيلَ رِدَاءَهُ سَلَباً وَخَاضَ مِنَ ٱلضُّحَىٰ فِي مَوْرِدِ
زَجِلٌ يُرَدِّدُ فِي ٱللَّهَاتِ صَهِيلَهُ دَفْعاً كَزَمْزَمَةِ ٱلْحَبِيِّ ٱلْمُرْعِدِ
مُتَلَفِّتاً عَنْ جَانِبَيْهِ يَهُزُّهُ مَرَحُ ٱلصِّبَا كَٱلشَّارِبِ ٱلْمُتَغَرِّدِ
فَإِذَا ثَنَيْتَ لَهُ ٱلْعِنَانَ وَجَدْتَهُ يَمْطُو كَسِيدِ ٱلرَّدْهَةِ ٱلْمُتَوَرِّدِ
وَإِذَا أَطَعْتَ لَهُ ٱلْعِنَانَ رَأَيْتَهُ يَطْوِي ٱلْمَهَامِهَ فَدْفَداً فِي فَدْفَدِ
يَكْفِيكَ مِنْهُ إِذَا ٱسْتَحَسَّ بِنَبْأَةٍ شَدّاً كَأُلْهُوبِ ٱلْأَبَاءِ ٱلْمُوقَدِ
صَلْبُ ٱلسَّنَابِكِ لَا يَمُرُّ بِجَلْمَدٍ فِي ٱلشَّدِّ إِلَّا رَضَّ فِيهِ بِجَلْمَدِ
نِعْمَ ٱلْعَتَادُ إِذَا ٱلشِّفَاهُ تَقَلَّصَتْ يَوْمَ ٱلْكَرِيهَةِ فِي ٱلْعَجَاجِ ٱلأَرْبَدِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ ٱلْخَمْرَ بَيْنَ غَطَارِفٍ شُمِّ ٱلْمَعَاطِسِ كَٱلْغُصُونِ ٱلْمُيَّدِ
يَتَلَاعَبُونَ عَلَى ٱلْكُؤُوسِ إِذَا جَرَتْ لَعِباً يَرُوحُ ٱلْجِدُّ فِيهِ وَيَغْتَدِي
لَا يَنْطِقُونَ بِغَيْرِ مَا أَمَرَ ٱلْهَوَىٰ فَكَلَامُهُمْ كَٱلرَّوْضِ مَصْقُولٌ نَدِي
مِنْ كُلِّ وَضَّاحِ ٱلْجَبِينِ كَأَنَّهُ قَمَرٌ تَوَسَّطَ جُنْحَ لَيْلٍ أَسْوَدِ
بَلْ رُبَّ غَانِيَةٍ طَرَقْتُ خِبَاءَهَا وَٱلنَّجْمُ يَطْرِفُ عَنْ لَوَاحِظِ أَرْمَدِ
قَالَتْ وَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيَّ فَضَحْتَنِي فَٱرْجِعْ لِشَأْنِكَ فَٱلرِّجَالُ بِمَرْصَدِ

فَخَلَبْتُهَا بِٱلْقَوْلِ حَتَّىٰ رِضْتُهَا وَطَوَيْتُهَا طَيَّ ٱلْحَبِيرَةِ بِٱلْيَدِ
مَا زِلْتُ أَمْنَعُهَا ٱلْمَنَامَ غِوَايَةً حَتَّىٰ لَقَدْ بِتْنَا بِلَيْلِ ٱلأَنْقَدِ
رَوْعَاءُ تَفْزَعُ مِنْ عَصَافِيرِ ٱلضُّحَىٰ تَرَفاً وَتَجْزَعُ مِنْ صِيَاحِ ٱلْهُدْهُدِ
حَتَّىٰ إِذَا نَمَّ ٱلصَّبَا وَتَتَابَعَتْ زِيمُ ٱلْكَوَاكِبِ كَٱلْمَهَا ٱلْمُتَبَدِّدِ
قَالَتْ دَخَلْتَ وَمَا إِخَالُكَ بَارِحاً إِلَّا وَقَدْ أَبْقَيْتَ عَارَ ٱلْمُسْنِدِ
فَمَسَحْتُهَا حَتَّى ٱطْمَأَنَّ فُؤَادُهَا وَنَفَيْتُ رَوْعَتَهَا بِرَأْيٍ مُحْصَدِ
وَخَرَجْتُ أَخْتَرِقُ ٱلصُّفُوفَ مِنَ ٱلْعِدَا مُتَلَثِّماً وَٱلسَّيْفُ يَلْمَعُ فِي يَدِي
فَلَنِعْمَ ذَاكَ ٱلْعَيْشُ لَوْ لَمْ يَنْقَضِي وَلَنِعْمَ هَـٰذَا ٱلْعَيْشُ إِنْ لَمْ يَنْفَدِ
يَرْجُو ٱلْفَتَىٰ فِي ٱلدَّهْرِ طُولَ حَيَاتِهِ وَنَعِيمِهِ وَٱلْمَرْءُ غَيْرُ مُخَلَّدِ

❋ ❋ ❋

[خوضُ الباروديِّ حربَينِ ضدَّ جزيرةِ أَقرِيطِشَ وروسيا]

وقد باشرَ هٰذا الأميرُ الحربَ مَرَّتَينِ بصدقِ شهامةٍ وعُلُوِّ هِمَّةٍ ، حتىٰ إنَّ الناسَ كانوا يَتعجَّبونَ ـ كما أخبرَني مَنْ حضرَهُ في تلكَ المواطنِ ـ مِنْ خشونةِ بأسِهِ علىٰ ترفِ نشأتِهِ ، ولطفِ حِسِّهِ .

[قصيدةُ الباروديِّ يصفُ سفرَهُ للحربِ وتشوُّقَهُ إلىٰ مصرَ]

المَرَّةُ الأُولىٰ : حربُ سُكَّانِ جزيرةِ أَقْرِيطِشَ المعروفةِ الآنَ بجزيرةِ جريدٍ ، حينَ خرجوا عنِ الطاعةِ سنةَ ثنتَينِ وثمانينَ ومئتَينِ وألفٍ ، فقالَ يصفُ الحالَ ، ويَتشوَّقُ إلىٰ مصرَ[1] : [من الكامل]

أَخَذَ ٱلْكَرَىٰ بِمَعَاقِدِ ٱلْأَجْفَانِ ... وَهَفَا ٱلسُّرَىٰ بِأَعِنَّةِ ٱلْفُرْسَانِ

وٱللَّيْلُ مَنْشُورُ ٱلذَّوَائِبِ ضَارِبٌ ... فَوْقَ ٱلْمَتَالِعِ وَٱلرُّبَا بِجِرَانِ

لَا تَسْتَبِينُ ٱلْعَيْنُ فِي ظَلْمَائِهِ ... إِلَّا ٱشْتِعَالَ أَسِنَّةِ ٱلْمُرَّانِ

نَسْرِي بِهِ مَا بَيْنَ لُجَّةِ فِتْنَةٍ ... تَسْمُو غَوَارِبُهَا عَلَى ٱلطُّوفَانِ

فِي كُلِّ مَرْبَأَةٍ وَكُلِّ ثَنِيَّةٍ ... تَهْدَارُ سَامِرَةٍ وَعَزْفُ قِيَانِ

تَسْتَنُّ عَادِيَةٌ وَيَصْهَلُ أَجْرَدٌ ... وَتَصِيحُ أَحْرَاسٌ وَيَهْتِفُ عَانِي

قَوْمٌ أَبَى ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا خُسْرَهُمْ ... فَتَسَلَّلُوا مِنْ طَاعَةِ ٱلسُّلْطَانِ

مَلَؤُوا ٱلْفَضَاءَ فَمَا يَبِينُ لِنَاظِرٍ ... غَيْرُ ٱلْتِمَاعِ ٱلْبِيضِ وَٱلْخُرْصَانِ

الخُرْصانُ : جمعُ خُرْصٍ بضمٍّ أو كسرٍ فسكونٍ ؛ السنانُ .

---

(١) انظر « ديوان محمود سامي البارودي » (٤/٤٣ ـ ٥٥) .

فَالْبَدْرُ أَكْدَرُ وَالسَّمَاءُ مَرِيضَةٌ وَالْبَحْرُ أَشْكَلُ وَالرِّمَاحُ دَوَانِي
وَالْخَيْلُ وَاقِفَةٌ عَلَىٰ أَرْسَانِهَا لِطِرَادِ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَرِهَانِ
وَضَعُوا السِّلَاحَ إِلَى الصَّبَاحِ وَأَقْبَلُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسُنِ النِّيرَانِ
حَتَّىٰ إِذَا مَا الصُّبْحُ أَسْفَرَ وَارْتَمَتْ عَيْنَايَ بَيْنَ [رُباً] وَبَيْنَ مَحَانِي
فَإِذَا الْجِبَالُ أَسِنَّةٌ وَإِذَا الْوِهَا دُ أَعِنَّةٌ وَالْمَاءُ أَحْمَرُ قَانِي
فَتَوَجَّسَتْ فَرَطُ الرِّكَابِ وَلَمْ تَكُنْ لِتَهَابَ فَامْتَنَعَتْ عَلَى الْأَرْسَانِ
فَزِعَتْ فَرَجَّعَتِ الْحَنِينَ وَإِنَّمَا تَحْنَانُهَا شَجَنٌ مِنَ الْأَشْجَانِ
ذَكَرَتْ مَوَارِدَهَا بِمِصْرَ وَأَيْنَ مِنْ مَاءٍ بِمِصْرَ مَنَازِلُ الرُّومَانِ
وَالنَّفْسُ لَاهِيَةٌ وَإِنْ هِيَ صَادَفَتْ خَلَفاً بِأَوَّلِ صَاحِبٍ وَمَكَانِ
فَسَقَى السِّمَاكُ مَحَلَّةً وَمَقَامَةً فِي مِصْرَ كُلَّ رَوِيَّةٍ مِرْنَانِ
حَتَّىٰ تَعُودَ الْأَرْضُ بَعْدَ ذُبُولِهَا شَتَّى النَّمَاءِ كَثِيرَةَ الْأَلْوَانِ
بَلَدٌ خَلَعْتُ بِهَا عِذَارَ شَبِيبَتِي وَطَرَحْتُ فِي يُمْنَى الْغَرَامِ عِنَانِي
فَصَعِيدُهَا أَحْوَى النَّبَاتِ وَسَرْحُهَا أَلْمَى الظِّلَالِ وَزَهْرُهَا مُتَدَانِي
فَارَقْتُهَا طَلَباً لِمَا هُوَ كَائِنٌ وَالْمَرْءُ طَوْعُ تَقَلُّبِ الْأَزْمَانِ
حَمَلَ الزَّمَانُ عَلَيَّ مَا لَمْ أَجْنِهِ إِنَّ الْأَمَاثِلَ عُرْضَةُ الْحَدَثَانِ
نَقَمُوا عَلَيَّ وَقَدْ فَتَكَتْ شَجَاعَتِي إِنَّ الشَّجَاعَةَ حِلْيَةُ الْفِتْيَانِ
فَلْيَهْنَأَ الدَّهْرُ الْغَيُورُ بِرِحْلَتِي عَنْ مِصْرَ وَلْتَهْدَأْ صُرُوفُ زَمَانِي
فَلَئِنْ رَجَعْتُ وَسَوْفَ أَرْجِعُ وَاثِقاً بِاللهِ أَعْلَمْتُ الزَّمَانَ مَكَانِي
صَادَقْتُ بَعْضَ الْقَوْمِ حَتَّىٰ خَانَنِي وَحَفِظْتُ مِنْهُ مَغِيبَهُ فَرَمَانِي

زَعَمَ ٱلنَّصِيحَةَ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ بِهِ غِشّاً وَجَازَى ٱلْحَقَّ بِٱلْبُهْتَانِ

فَلْيَجْرِ بَعْدُ كَمَا أَرَادَ بِنَفْسِهِ إِنَّ ٱلشَّقِيَّ مَطِيَّةُ ٱلشَّيْطَانِ

وَكَذَا ٱللَّئِيمُ إِذَا أَصَابَ كَرَامَةً عَادَى ٱلصَّدِيقَ وَمَالَ بِٱلْإِخْوَانِ

كُلُّ ٱمْرِئٍ يَجْرِي عَلَىٰ أَعْرَاقِهِ وَٱلطَّبْعُ لَيْسَ يَحُولُ فِي ٱلْإِنْسَانِ

فَعَلَامَ يَلْتَمِسُ ٱلْعَدُوُّ مَسَاءَتِي مِنْ بَعْدِ مَا عَرَفَ ٱلْخَلَائِقُ شَانِي

أَنَا لَا أَذِلُّ وَإِنَّمَا يَزَعُ ٱلْفَتَىٰ فَقْدُ ٱلرَّجَاءِ وَقِلَّةُ ٱلْأَعْوَانِ

فَلْيَعْلَمَنَّ أَخُو ٱلْجَهَالَةِ قَصْرَهُ عَنِّي وَإِنْ سَبَقَتْ بِهِ قَدَمَانِ

فَلَرُبَّمَا رَجَحَ ٱلْخَسِيسُ مِنَ ٱلْحَصَىٰ بِٱلدُّرِّ عِنْدَ تَرَاجُحِ ٱلْمِيزَانِ

شَرَفٌ خُصِصْتُ بِهِ وَأَخْطَأَ حَاسِدٌ مَسْعَاتَهُ فَهَذَىٰ بِهِ وَقَلَانِي

[قصيدةٌ مِنَ الباروديِّ للمؤلفِ أثناءَ حربِ الروسِ]

والثانيةُ : حربُ الرُّوسِ حينَ قصدوا الدولةَ سنةَ أربعٍ وتسعينَ ومئتَينِ وألفٍ ، وكانَ ـ حرسَهُ اللهُ ـ كتبَ لأبناءِ وُدِّهِ كُتُباً ولم تصلْ إليهِم ، وظنَّ وصولَها وتقصيرَهُم عنِ المبادرةِ بالإجابةِ ، وقد وصلَ إليَّ أحدَ كتابَينِ كتبَهُما لي يومَ قدومِهِ إلىٰ مصرَ بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ مِنْ كتابتِهِ ، وهٰذهِ أبياتُهُ [١] : [من السريع]

يَا نَاعِسَ ٱلطَّرْفِ إِلَىٰ كَمْ تَنَامْ أَسْهَرْتَنِي فِيكَ وَنَامَ ٱلْأَنَامْ

أَوْشَكَ هَٰذَا ٱللَّيْلُ أَنْ يَنْقَضِي وَٱلْعَيْنُ لَا تَعْرِفُ طِيبَ ٱلْمَنَامْ

ٱللهَ فِي عَيْنٍ جَفَاهَا ٱلْكَرَىٰ فِيكُمْ وَقَلْبٍ قَدْ بَرَاهُ ٱلْغَرَامْ

---

(١) انظر « ديوان محمود سامي البارودي » (٣/٣٥٤ ـ ٣٦٢) .

قَـدْ رَحِـمَ ٱلْـعَـاذِلُ حَـالِـي فَـمَـا ... يَـرْضَـىٰ لِـذُلِّـي فِـي ٱلْـهَـوَىٰ بِـٱلْـمَـلَامْ
وَيْـلَاهُ مِـنْ ظَـبْـيِ ٱلْـحِـمَـىٰ إِنَّـهُ ... جَـرَّعَـنِـي بِـٱلـصَّـدِّ مُـرَّ ٱلْـحِـمَـامْ
يَـغْـضَـبُ مِـنْ قَـوْلِـيَ آهٍ وَهَـلْ ... قَـوْلِـيَ آهٍ يَـا بْـنَ وُدِّي حَـرَامْ
لَا كُـتْـبُـهُ تَـتْـرَىٰ وَلَا رُسْـلُـهُ ... تَـأْتِـي وَلَا ٱلـطَّـيْـفُ يُـوَافِـي لِـمَـامْ
طَالَ ٱلنَّوَىٰ مِنْ بَعْدِكُمْ وَٱنْقَضَتْ ... بَـشَـاشَـةُ ٱلْـعَـيْـشِ وَسَـاءَ ٱلْـمَـقَـامْ
أَرْتَـاحُ إِنْ مَـرَّ نَـسِـيـمُ ٱلـصَّـبَـا ... وَٱلْـبُـرْءُ لِـي فِـيـهِ مَـعـاً وَٱلـسَّـقَـامْ
يَا لَيْتَنِي فِي ٱلسِّلْكِ حَرْفٌ سَرَىٰ ... أَوْ رِيـشَـةٌ بَـيْـنَ خَـوَافِـي ٱلْـحَـمَـامْ
حَـتَّـىٰ أُوَافِـي مِـصْـرَ فِـي لَـحْـظَـةٍ ... أَقْـضِـي بِـهَـا فِـي ٱللهِ حَـقَّ ٱلـذِّمَـامْ
مَـوْلَايَ قَـدْ طَـالَ مَـرِيـرُ ٱلـنَّـوَىٰ ... فَـكُـلُّ يَـوْمٍ مَـرَّ بِـي أَلْـفُ عَـامْ
أَنْـظُـرُ حَـوْلِـي لَا أَرَىٰ صَـاحِـبـاً ... إِلَّا جَـمَـاهِـيـرَ وَخَـيْـلاً صِـيَـامْ
وَدَيْـدَبَـانـاً صَـارِخـاً فِـي الـدُّجَـىٰ ... اِرْجِـعْ وَرَاءً إِنَّـهُ لَا أَمَـامْ
يُقْتَبَلُ ٱلصُّبْحُ وَيَمْضِي ٱلدُّجَىٰ ... وَيَـنْـقَـضِـي ٱلـنُّـورُ وَيَـأْتِـي ٱلـظَّـلَامْ
وَلَا كِـتَـابٌ مِـنْ حَـبِـيـبٍ أَتَـىٰ ... وَلَا أَخُـو صِـدْقٍ يَـرُدُّ ٱلـسَّـلَامْ
فِـي هَـضْـبَـةٍ مِـنْ أَرْضِ دَبْـرِيـجَـةٍ ... لَـيْـسَ بِـهَـا غَـيْـرُ بُـغَـاثٍ وَهَـامْ
مِـنْ خَـلْـفِـنَـا ٱلْـبَـحْـرُ وَتِـلْـقَـاءَنَـا ... سَـوَادُ جَـيْـشٍ مُـكْـفَـهِـرٍ لُـهَـامْ
فَـتِـلْـكَ حَـالِـي لَا رَمَـتْـكَ ٱلـنَّـوَىٰ ... فَـكَـيْـفَ أَنْـتُـمْ بَـعْـدَنَـا يَـا هُـمَـامْ

❊

[قصيدةٌ أخرىٰ مِنَ الباروديِّ للمؤلفِ]

فقالَ في نعتِ الحالِ وضَمَّنَ ذٰلكَ بعضَ فصولِها [1] : [من الطويل]

هُـوَ ٱلْـبَـيْـنُ حَـتَّـىٰ لَا سَـلَامٌ وَلَا رَدُّ ... وَلَا نَـظْـرَةٌ يَـقْـضِـي بِـهَـا حَـقَّـهُ ٱلْـوَجْـدُ

لَـقَـدْ نَـعَـبَ ٱلْـوَابُـورُ بِـٱلْـبَـيْـنِ بَـيْـنَـهُـمْ ... فَـسَـارُوا وَلَا زَمُّـوا جِـمَـالاً وَلَا شَـدُّوا

سَـرَىٰ بَـيْـنَـهُـمْ سَـيْـرَ ٱلْـغَـمَـامِ كَـأَنَّـمَـا ... لَـهُ فِـي تَـنَـائِـي كُـلِّ ذِي خُـلَّـةٍ قَـصْـدُ

فَـلَا عَـيْـنَ إِلَّا وَهْـيَ عَـيْـنٌ مِـنَ ٱلْـبُـكَـا ... وَلَا خَـدَّ إِلَّا لِـلـدُّمُـوعِ بِـهِ خَـدُّ

فَـيَـا سَـعْـدُ حَـدِّثْـنِـي بِـأَخْـبَـارِ مَـنْ مَـضَـىٰ ... فَـأَنْـتَ خَـبِـيـرٌ بِـٱلْأَحَـادِيـثِ يَـا سَـعْـدُ

لَـعَـلَّ حَـدِيـثَ ٱلـشَّـوْقِ يُـطْـفِـئُ لَـوْعَـةً ... مِـنَ ٱلْـوَجْـدِ أَوْ يَـقْـضِـي بِـصَـاحِـبِـهِ ٱلْـفَـقْـدُ

هُـوَ ٱلـنَّـارُ فِـي ٱلْأَحْـشَـاءِ لٰـكِـنْ لِـوَقْـعِـهَـا ... عَـلَـىٰ كَـبِـدِي مِـمَّـا أَلَـذُّ بِـهِ بَـرْدُ

لَـعَـمْـرُ ٱلْـمَـغَـانِـي وَهْـيَ عِـنْـدِي عَـزِيـزَةٌ ... بِـسَـاكِـنِـهَـا مَـا شَـاقَـنِـي بَـعْـدَهَـا عَـهْـدُ

لَـكَـانَـتْ وَفِـيـهَـا مَـا تَـرَىٰ عَـيْـنُ نَـاظِـرٍ ... وَأَضْـحَـتْ وَمَـا فِـيـهَـا لِـغَـيْـرِ ٱلْأَسَـىٰ وَفْـدُ

خَـلَاءٌ مِـنَ ٱلْأُلَّافِ إِلَّا عِـصَـابَـةً ... حَـدَاهُـمْ إِلَـىٰ عِـرْفَـانِـهَـا أَمَـلٌ فَـرْدُ

دَعَـتْـهُـمْ إِلَـيْـهَـا نَـفْـحَـةٌ عَـنْـبَـرِيَّـةٌ ... وَبِـٱلـنَّـفْـحَـةِ ٱلْـحَـسْـنَـاءِ قَـدْ يُـعْـرَفُ ٱلْـوَرْدُ

وَقَـفْـنَـا فَـسَـلَّـمْـنَـا فَـرَدَّتْ بِـأَلْـسُـنٍ ... صَـوَامِـتَ إِلَّا أَنَّـهَـا أَلْـسُـنٌ لُـدُّ

فَـمِـنْ مُـقْـلَـةٍ عَـبْـرَىٰ وَمِـنْ لَـفْـحِ زَفْـرَةٍ ... لَـهَـا شَـرَرٌ بَـيْـنَ ٱلْـحَـشَـا مَـا لَـهُ زَنْـدُ

فَـيَـا قَـلْـبُ صَـبْـراً إِنْ أَضَـرَّ بِـكَ ٱلـنَّـوَىٰ ... فَـكُـلُّ فِـرَاقٍ أَوْ تَـلَاقٍ لَـهُ حَـدُّ

فَـقَـدْ يُـشْـعَـبُ ٱلْإِلْـفَـانِ أَدْنَـاهُـمَـا ٱلْـهَـوَىٰ ... وَيَـلْـتَـئِـمُ ٱلـضِّـدَّانِ أَقْـصَـاهُـمَـا ٱلْـحِـقْـدُ

عَـلَـىٰ هَـٰـذِهِ تَـجْـرِي ٱلـلَّـيَـالِـي بِـحُـكْـمِـهَـا ... فَـآوِنَـةً قُـرْبٌ وَآوِنَـةً بُـعْـدُ

---

(١) انظر « ديوان محمود سامي البارودي » (١/١٦١ ـ ١٧٢) .

وَمَا كُنْتُ لَوْلَا ٱلْحُبُّ أَخْضَعُ لِلَّتِي … تُسِيءُ وَلَٰكِنَّ ٱلْفَتَىٰ لِلْهَوَىٰ عَبْدُ
فَعُودِي صَلِيبٌ لَا يَلِينُ لِغَامِزٍ … وَقَلْبِيَ سَيْفٌ لَا يُفَلُّ لَهُ حَدُّ
إِبَاءٌ كَمَا شَاءَ ٱلْفَخَارُ وَصَبْوَةٌ … [يَذِلُّ] لَهَا فِي خِيسِهِ ٱلْأَسَدُ ٱلْوَرْدُ
وَإِنَّا أُنَاسٌ لَيْسَ فِينَا مَعَابَةٌ … سِوَىٰ أَنَّ وَادِينَا بِحُكْمِ ٱلْهَوَىٰ نَجْدُ
نَلِينُ وَإِنْ كُنَّا أَشِدَّاءَ لِلْهَوَىٰ … وَنَغْضَبُ فِي شَرْوَىٰ نَقِيرٍ فَنَشْتَدُّ
وَحَسْبُكَ مِنَّا شِيمَةٌ عَرَبِيَّةٌ … هِيَ ٱلْخَمْرُ مَا لَمْ يَأْتِ مِنْ دُونِهَا حَرْدُ
وَبِي ظَمَأٌ لَمْ يَبْلُغِ ٱلْمَاءُ رِيَّهُ … وَفِي ٱلنَّفْسِ أَمْرٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ ٱلْجَهْدُ
أَوَدُّ وَمَا وُدُّ ٱمْرِئٍ نَافِعاً لَهُ … وَإِنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ
وَمَا بِيَ مِنْ فَقْرٍ لِدُنْيَا وَإِنَّمَا … طِلَابُ ٱلْعُلَا مَجْدٌ وَإِنْ كَانَ لِي مَجْدُ
وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلّٰهِ عِنْدِي وَنِعْمَةٍ … يَعَضُّ عَلَيْهَا كَفَّهُ ٱلْحَاسِدُ ٱلْوَغْدُ
أَنَا ٱلْمَرْءُ لَا يُطْغِيهِ عِزٌّ لِثَرْوَةٍ … أَصَابَ وَلَا يَلْوِي بِأَخْلَاقِهِ ٱلْكَدُّ
أَصُدُّ عَنِ ٱلْمَوْفُورِ يُدْرِكُهُ ٱلْخَنَا … وَأَقْنَعُ بِٱلْمَيْسُورِ يَعْقُبُهُ ٱلْحَمْدُ
وَمَنْ كَانَ ذَا نَفْسٍ كَنَفْسِي تَصَدَّعَتْ … لِعِزَّتِهِ ٱلدُّنْيَا وَذَلَّتْ لَهُ ٱلْأُسْدُ
وَمِنْ شِيَمِي حُبُّ ٱلْوَفَاءِ وَلَمْ يَكُنْ … لِيَخْلُصَ وُدٌّ لَمْ يُحِطْهُ ٱلْوَفَا بَعْدُ
وَلَٰكِنَّ إِخْوَاناً بِمِصْرَ وَرِفْقَةً … نَسُوا عَهْدَنَا حَتَّىٰ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ عَهْدُ
أَحِنُّ لَهُمْ شَوْقاً عَلَىٰ أَنَّ دُونَنَا … مَهَامِهَ تَعْيَا دُونَ أَقْرَبِهَا ٱلرُّبْدُ
فَيَا سَاكِنِي ٱلْفُسْطَاطِ مَا بَالُ كُتْبِنَا … ثَوَتْ عِنْدَكُمْ شَهْراً وَلَيْسَ لَهَا رَدُّ
أَفِي ٱلْحَقِّ أَنَّا ذَاكِرُونَ لِعَهْدِكُمْ … وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَيْسَ يُعْطِفُكُمْ وُدُّ
فَلَا ضَيْرَ إِنَّ ٱللّٰهَ يُعْقِبُ عَوْدَةً … يَهُونُ لَهَا بَعْدَ ٱلْمُوَاصَلَةِ ٱلصَّدُّ
جَزَى ٱللّٰهُ خَيْراً مَنْ جَزَانِي بِمِثْلِهِ … عَلَىٰ شُقَّةٍ غَزْرُ ٱلْحَيَاةِ بِهَا ثَمْدُ

أَبِيتُ لِذِكْرَاكُمْ بِهَا مُتَمَلْمِلاً ... كَأَنِّي سَلِيمٌ أَوْ [مَشَتْ] نَحْوَهُ الوِرْدُ
فَلَا تَحْسَبُونِي غَافِلاً عَنْ وِدَادِكُمْ ... رُوَيْداً فَمَا فِي مُهْجَتِي حَجَرٌ صَلْدُ
هُوَ ٱلْحُبُّ لَا يُثْنِيهِ نَأْيٌ وَرُبَّمَا ... تَأَرَّجَ مِنْ مَسِّ ٱلضِّرَامِ لَهُ ٱلنَّدُّ
[نَأَتْ] بِيَ عَنْكُمْ غُرْبَةٌ وَتَجَهَّمَتْ ... بِوَجْهِيَ أَيَّامٌ خَلَائِقُهَا نُكْدُ
أَدُورُ بِعَيْنِي لَا أَرَىٰ غَيْرَ أُمَّةٍ ... مِنَ ٱلرُّوسِ بِٱلْبَلْقَانِ يُخْطِئُهَا ٱلْعَدُّ
جَوَاثٍ عَلَىٰ هَامِ ٱلْجِبَالِ لِغَارَةٍ ... يَطِيرُ بِهَا ضَوْءُ ٱلصَّبَاحِ إِذَا يَبْدُو
إِذَا نَحْنُ سِرْنَا صَرَّحَ ٱلشَّرُّ بِٱسْمِهِ ... وَصَاحَ ٱلْقَنَا بِٱلْمَوْتِ وَٱسْتَقْتَلَ ٱلْجُنْدُ
فَأَنْتَ تَرَىٰ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَبَّةً ... يُحَدِّثُ فِيهَا نَفْسَهُ ٱلْبَطَلُ ٱلْجَعْدُ
عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنْهَا بِٱلدِّمَاءِ جَدَاوِلٌ ... وَفَوْقَ سَرَاةِ ٱلنَّجْمِ مِنْ نَقْعِهَا لِبْدُ
إِذَا ٱشْتَبَكُوا أَوْ رَاجَعُوا ٱلزَّحْفَ خِلْتَهُمْ ... بُحُوراً تَوَالَىٰ بَيْنَهَا ٱلْجَزْرُ وَٱلْمَدُّ
نَشُلُّهُمُ شَلَّ ٱلْعِطَاشِ وَنَتْ بِهَا ... مُرَاغَمَةُ ٱلسُّقْيَا وَمَاطَلَهَا ٱلْوِرْدُ
فَهُمْ بَيْنَ مَقْتُولٍ طَرِيحٍ وَهَارِبٍ ... طَلِيحٍ وَمَأْسُورٍ يُجَاذِبُهُ ٱلْقِدُّ
نَرُوحُ إِلَى ٱلشُّورَىٰ إِذَا أَقْبَلَ ٱلدُّجَىٰ ... وَنَغْدُو عَلَيْهِمْ بِٱلسُّيُوفِ إِذَا نَغْدُو
وَنَقْعٍ كَلُجِّ ٱلْبَحْرِ خُضْتُ غِمَارَهُ ... وَلَا مَعْقِلٌ إِلَّا ٱلْمَنَاصِلُ وَٱلْجُرْدُ
صَبَرْتُ بِهِ وَٱلْمَوْتُ يَحْمَرُّ تَارَةً ... وَيَنْغَلُّ طَوْراً فِي ٱلْعَجَاجِ فَيَسْوَدُّ
فَمَا كُنْتُ إِلَّا ٱللَّيْثَ أَنْهَضَهُ ٱلطَّوَىٰ ... وَمَا كُنْتُ إِلَّا ٱلسَّيْفَ فَارَقَهُ ٱلْغِمْدُ
صَؤُولٌ وَلِلْأَبْطَالِ هَمْسٌ مِنَ ٱلْوَنَىٰ ... ضَرُوبٌ وَقَلْبُ ٱلْقِرْنِ فِي صَدْرِهِ يَعْدُو
فَمَا مُهْجَةٌ إِلَّا وَرُمْحِي ضَمِيرُهَا ... وَلَا لَبَّةٌ إِلَّا وَسَيْفِي لَهَا عِقْدُ
وَمَا كُلُّ سَاعٍ بَالِغٌ سُؤْلَ نَفْسِهِ ... وَلَا كُلُّ طَلَّابٍ يُصَاحِبُهُ ٱلرُّشْدُ
إِذَا ٱلْقَلْبُ لَمْ يَنْصُرْكَ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... فَمَا ٱلسَّيْفُ إِلَّا آلَةٌ حَمْلُهَا إِدُّ

إِذَا كَانَ عُقْبَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ زَكَا فَنَاءٌ فَمَكْرُوهُ ٱلْفَنَاءِ هُوَ ٱلْخُلْدُ
فَفِيمَ يَخَافُ ٱلْمَرْءُ سَوْرَةَ يَوْمِهِ وَفِي غَدِهِ مَا لَيْسَ مِنْ وَقْعِهِ بُدُّ
لِيَضْنَ بِيَ ٱلْحُسَّادُ غَيْظاً فَإِنَّنِي لِآنَافِهِمْ رَغْمٌ وَأَكْبَادِهِمْ وَقْدُ
أَنَا ٱلْقَائِلُ ٱلْمَحْسُودُ مِنْ غَيْرِ سُبَّةٍ وَمِنْ شِيمَةِ ٱلْفَضْلِ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلضِّدُّ
فَقَدْ يَحْسُدُ ٱلْمَرْءُ ٱبْنَهُ وَهْوَ نَفْسُهُ وَرُبَّ سِوَارٍ ضَاقَ عَنْ حَمْلِهِ ٱلْعَضْدُ
فَلَا زِلْتُ مَحْسُوداً عَلَى ٱلْمَجْدِ وَٱلْعُلَا فَلَيْسَ بِمَحْسُودٍ فَتىً وَلَهُ نِدُّ

وقدْ شرَّفَتْ عنايةُ وُدِّهِ اسمي بهٰذهِ القصيدةِ (١) : [من الطويل]

مَضَى ٱللَّهْوُ إِلَّا أَنْ يُخَبِّرَ سَائِلُ وَوَلَّى ٱلصِّبَا إِلَّا بَوَاقٍ قَلَائِلُ
بَوَاقٍ تُمَارِيهَا أَفَانِينُ لَوْعَةٍ [يُؤَرِّثُهَا] فِكْرٌ عَلَى ٱلنَّأْيِ شَاغِلُ
فَلِلشَّوْقِ مِنِّي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ وَخَبْلٌ إِذَا نَامَ ٱلْخَلِيُّونَ خَابِلُ
أَلِفْتُ ٱلضَّنَىٰ إِلْفَ ٱلسُّهَادِ فَلَوْ سَرَىٰ بِيَ ٱلْبُرْءُ غَالَتْنِي لِذَاكَ ٱلْغَوَائِلُ
فَلِلَّهِ هَٰذَا ٱلشَّوْقُ أَيَّ جِرَاحَةٍ أَسَالَ بِنَا حَتَّىٰ كَأَنَّا نُقَاتِلُ
رَضِينَا بِحُكْمِ ٱلْحُبِّ فِينَا وَإِنَّنَا لَلُدٌّ إِذَا ٱلْتَفَّتْ عَلَيْنَا ٱلْجَحَافِلُ
وَإِنَّا رِجَالٌ تَعْلَمُ ٱلْحَرْبُ أَنَّنَا بَنُوهَا وَيَدْرِي ٱلْمَجْدُ مَاذَا نُحَاوِلُ
إِذَا مَا ٱبْتَنَى ٱلنَّاسُ ٱلْحُصُونَ فَمَا لَنَا سِوَى ٱلْبِيضِ وَٱلسُّمْرِ ٱللِّدَانِ مَعَاقِلُ
فَمَا لِلْهَوَىٰ يَقْوَىٰ عَلَيَّ بِحُكْمِهِ أَلَمْ يَدْرِ أَنِّي ٱلشَّمَّرِيُّ ٱلْحُلَاحِلُ
وَإِنِّي لَثَبْتُ ٱلْجَأْشِ مُسْتَحْصِدُ ٱلْقُوَىٰ إِذَا أَخَذَتْ أَيْدِي ٱلْكُمَاةِ ٱلْأَفَاكِلُ

---

(١) انظر « ديوان محمود سامي البارودي » (٣/٦١ ـ ٧٣) .

إِذَا مَا ٱعْتَقَلْتُ ٱلرُّمْحَ وَٱلرُّمْحُ صَاحِبِي ... عَلَى ٱلشَّرِّ قَالَ ٱلْقِرْنُ إِنِّيَ هَازِلُ
لَطَاعَنْتُ حَتَّىٰ لَمْ أَجِدْ مِنْ مُطَاعِنٍ ... وَنَازَلْتُ حَتَّىٰ لَمْ أَجِدْ مَنْ يُنَازِلُ
وَشَاغَبْتُ هَـٰذَا ٱلدَّهْرَ مِنِّي بِعَزْمَةٍ ... أَرَتْنِي سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ وَٱلْغَيُّ حَائِلُ
إِذَا أَنْتَ أَعْطَتْكَ ٱلْمَقَادِيرُ حُكْمَهَا ... فَأَضْيَعُ شَيْءٍ مَا تَقُولُ [ٱلْعَوَاذِلُ]
وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا أَنْ يَعِيشَ مُحَسَّداً ... تَنَازَعُ فِيهِ ٱلنَّاجِذَيْنِ ٱلْأَنَامِلُ
لَعَمْرُكَ مَا ٱلْأَخْلَاقُ إِلَّا مَوَاهِبٌ ... مُقَسَّمَةٌ بَيْنَ ٱلْوَرَىٰ وَفَوَاضِلُ
وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَادِحَانِ فَعَالِمٌ ... يَسِيرُ عَلَىٰ قَصْدٍ وَآخَرُ جَاهِلُ
فَذُو ٱلْعِلْمِ مَأْخُوذٌ بِأَسْبَابِ عِلْمِهِ ... وَذُو ٱلْجَهْلِ مَقْطُوعُ ٱلْقَرِينَةِ جَافِلُ
فَلَا تَطْلُبَنْ فِي ٱلنَّاسِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ... مِنَ ٱلْوُدِّ أُمُّ ٱلْوُدِّ فِي ٱلنَّاسِ هَابِلُ
مِنَ ٱلْعَارِ أَنْ يَرْضَى ٱلْفَتَىٰ غَيْرَ طَبْعِهِ ... وَأَنْ يَصْحَبَ ٱلْإِنْسَانُ مَنْ لَا يُشَاكِلُ
بَلَوْتُ ضُرُوبَ ٱلنَّاسِ طُرّاً فَلَمْ يَكُنْ ... سِوَى ٱلْمَرْصِفِيِّ ٱلْحَبْرِ فِي ٱلنَّاسِ كَامِلُ
هُمَامٌ أَرَانِي ٱلدَّهْرَ فِي طَيِّ بُرْدِهِ ... وَفَقَّهَنِي حَتَّى ٱتَّقَانِي ٱلْأَمَاثِلُ
أَخٌ حِينَ لَا يَبْقَىٰ أَخٌ وَمُجَامِلٌ ... إِذَا قَلَّ عِنْدَ ٱلنَّائِبَاتِ ٱلْمُجَامِلُ
بَعِيدُ مَجَالِ ٱلْفِكْرِ لَوْ خَالَ خِيلَةً ... أَرَاكَ بِظَهْرِ ٱلْغَيْبِ مَا ٱلدَّهْرُ فَاعِلُ
طَرَحْتُ بَنِي ٱلْأَيَّامِ لَمَّا عَرَفْتُهُ ... وَمَا ٱلنَّاسُ عِنْدَ ٱلْبَحْثِ إِلَّا مَخَايِلُ
فَلَوْ سَامَنِي مَا يُورِدُ ٱلنَّفْسَ حَتْفَهَا ... لَأَوْرَدْتُهَا وَٱلْحُبُّ لِلنَّفْسِ قَاتِلُ
فَلَا بَرِحَتْ مِنِّي إِلَيْهِ تَحِيَّةٌ ... يُنَاقِلُهَا عَنِّي ٱلضُّحَىٰ وَٱلْأَصَائِلُ
وَلَا زَالَ غَضَّ ٱلْعُمْرِ مُمْتَنِعَ ٱلذُّرَا ... مَرِيعَ ٱلْفِنَا تُطْوَىٰ إِلَيْهِ ٱلْمَرَاحِلُ

وعلىٰ أن ليسَ مِنْ طبعي أن أقولَ الشعرَ ؛ إمَّا لفوتِ أوانِ تحصيلِ وسائلِهِ ،

ولم تكنْ إذ ذاكَ دواعٍ ترشدُ إليهِ ، وإمَّا لأنَّ الاستعدادَ الذي سلفَ التنبيهُ علىٰ أن لا بدَّ منهُ لم يكنْ في خليقتي . . أنطقَني حُبُّهُ بأبياتٍ أجملتُ فيها صفتَهُ ؛ وهيَ هـٰذهِ : [من البسيط]

زَكَا أَمِيرِيَ طَبْعاً وَٱعْتَلَىٰ شَرَفاً ... فَدَارَ حَيْثُ تَدُورُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ
وَنَالَ مَا نَالَ عَنْ كَدِّ ٱلرِّجَالِ فَلَا ... مَنٌّ عَلَيْهِ لِشَخْصٍ حِينَ يَفْتَخِرُ
بِفَضْلِهِ كُلُّ أَهْلِ ٱلْأَرْضِ مُعْتَرِفٌ ... كَمَا تَصَادَقَ فِيهِ ٱلْخُبْرُ وَٱلْخَبَرُ
لَا يَجْهَلُ ٱلرُّتْبَةَ ٱلْعَلْيَاءَ يَعْمُرُهَا ... وَلَا يَتِيهُ بِهَا مَا أَعْظَمَ ٱلْخَطَرُ
صَحِبْتُهُ وَهْوَ سِرٌّ فِي مَخَايِلِهِ ... حَتَّىٰ تَخَيَّرَ مِنْ إِعْلَانِهِ ٱلْكِبَرُ
فَمَا أَخَذْتُ عَلَيْهِ شِبْهَ بَادِرَةٍ ... وَلَا تَخَيَّلْتُ أَمْراً مِنْهُ يُعْتَذَرُ
أَدَامَهُ ٱللهُ نَقْنَىٰ مِنْ فَضَائِلِهِ ... وَمِنْ فَوَاضِلِهِ مَا أَنْبَتَ ٱلشَّجَرُ

وإلىٰ هنا ما أظنُّ إلَّا أنَّكَ تَحقَّقتَ بمعرفةِ تميُّزِ شعرِ الأمراءِ بما يظهرُ عليهِ مِنْ آثارِ عِزَّةٍ لنفسٍ ، ويَشمَلُ نواحيَهُ مِنَ البراعةِ والمتانةِ ، ويلوحُ فيهِ مِنْ تخيُّرِ الألفاظِ برعايةِ ما هوَ أوفقُ بالأدبِ ، أوِ الأليقُ بالمدحِ ، أوِ الأوقعُ في الزجرِ ، أوِ الأجلبُ للعطفِ والرضا ، أوِ الأدخلُ في النصيحةِ ، أوِ الأنسبُ بالغزلِ ، أوِ الأهيجُ في الحماسِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المَقاماتِ ، وبانحصارِ أغراضِهِ فيما أمرَ بقصرهِ عليهِ أبو [فراسٍ] حيثُ يقولُ (١) : [من مجزوء الكامل]

اَلشِّعْرُ دِيوَانُ ٱلْعَرَبْ ... أَبَداً وَعُنْوَانُ ٱلْأَدَبْ
لَمْ أَعْدُ فِيهِ مَفَاخِرِي ... وَمَدِيحَ آبَائِي ٱلنُّجُبْ
وَمُقَطَّعَاتٍ رُبَّمَا ... حَلَّيْتُ مِنْهُنَّ ٱلْكُتُبْ

(١) انظر « ديوان أبي فراس الحمداني » (ص ٢٨) .

لَا فِـي ٱلْـمَـدِيـحِ وَلَا ٱلْـهِـجَـا ... ءِ وَلَا ٱلْـمُـجُـونِ وَلَا ٱلـلَّـعِـبْ

وتبعَهُ المترجمُ في هٰذا المعنىٰ ، وزادَ عليهِ في الإحسانِ ؛ حيثُ يقولُ (١) : [من السريع]

اَلـشِّـعْـرُ زَيْـنُ ٱلْـمَـرْءِ مَـا لَـمْ يَـكُـنْ ... وَسِـيـلَـةً لِـلْـمَـدْحِ وَٱلـذَّامِ

قَـدْ طَـالَـمَـا عَـزَّ بِـهِ مَـعْـشَـرٌ ... وَرُبَّـمَـا أَزْرَىٰ بِـأَقْـوَامِ

فَٱجْعَلْهُ فِيمَا شِئْتَ مِنْ حِكْمَةٍ ... أَوْ عِـظَـةٍ أَوْ حَـسَـبٍ نَـامِ

وَٱهْـتِـفْ بِـهِ مِـنْ قَـبْـلِ تَـسْـرِيـحِـهِ ... فَـٱلـسَّـهْـمُ مَـنْـسُـوبٌ إِلَى ٱلـرَّامِـي

ونَبَّهَ بقولِهِ : (واهتِفْ بهِ مِنْ قبلِ تسريحِهِ) علىٰ أنَّهُ لا ينبغي أن يكتفيَ الشاعرُ بالنظرةِ الأُولىٰ ؛ فللنفسِ خداعٌ ، وربَّما تَنبَّهَتْ بعدَ أن غفلَتْ ، واستقبحَتْ ما استحسنَتْ ، ولذٰلكَ يقولُ الأوَّلُ (٢) : [من الكامل]

لَا تَـعْـرِضَـنَّ عَـلَى ٱلـرُّوَاةِ قَـصِـيـدَةً ... مَـا لَـمْ تُـبَـالِـغْ قَـبْـلُ فِـي تَـهْـذِيـبِـهَـا

فَـإِذَا عَـرَضْـتَ ٱلـشِّـعْـرَ غَـيْـرَ مُـهَـذَّبٍ ... عَـدُّوهُ مِـنْـكَ وَسَـاوِسـاً تَـهْـذِي بِـهَـا

ويُروىٰ : أنَّ زهيراً أحدَ مشاهيرِ شعراءِ الجاهليةِ كانَ يقولُ القصيدةَ في ستةِ أشهرٍ ، ثمَّ يُرِدِّدُها في نفسِهِ ويُكرِّرُ النظرَ فيها ستةَ أشهرٍ ، ولذٰلكَ تُسمَّىٰ قصائدُهُ بالحولياتِ ، ولمكانِ صعوبةِ الشعرِ ـ والنثرُ أشدُّ منهُ في ذٰلكَ مِنْ جهةِ تخيُّرِ الألفاظِ وتلاؤمِها ، وتناسبِ المعنىٰ لتبينَ جودةُ السياقِ ـ يقولُ الحطيئةُ (٣) : [من مشطور الرجز]

اَلـشِّـعْـرُ صَـعْـبٌ وَطَـوِيـلٌ سُـلَّـمُـهْ

---

(١) أي : الأمير البارودي في « ديوانه » (٣/٥٣١ ـ ٥٣٢) .

(٢) هو الحاكم المطوعي ، كما في « أنوار الربيع » (١/١٠٣) .

(٣) تقدم (٣/١٥٦) .

إِذَا ٱرْتَـقَـىٰ فِـيـهِ ٱلَّـذِي لَا يَـعْـلَـمُـهْ
هَـوَتْ بِـهِ إِلَى ٱلْـحَـضِـيـضِ قَـدَمُـهْ
وَٱلـشِّـعْـرُ لَا يَـسْـطِـيـعُـهُ مَـنْ يَـظْـلِـمُـهْ
وَلَـمْ يَـزَلْ مِـنْ حَـيْـثُ يَـأْتِـي يُـحْـرَمُـهْ
يُـرِيـدُ أَنْ يُـعْـرِبَـهُ فَـيُـعْـجِـمُـهْ
مَـنْ يَـسِـمِ ٱلْأَعْـدَاءَ يَـبْـقَ مِـيـسَـمُـهْ

مَنْ يَظلِمُهُ ؛ أي : يَتكلَّفُهُ ، ولا يأتي بهِ في إبانةٍ ، ويريدُ أن يُعرِبَهُ ؛ أي : يأتيَ بهِ عربيّاً ؛ بوضعِ الألفاظِ في مواضعِها اللائقةِ بها ، وسلامةِ التركيبِ ممَّا يُبعِدُ فهمَ المعنىٰ منهُ .

وقولُهُ : (مَنْ يسمِ الأعداءَ) إشارةٌ إلىٰ أنَّ وضعَ الشيءِ في موضعِهِ كما يعترفُ بهِ ذوو الإدراكِ إذا وقفوا عليهِ . . مُوجِبٌ لبقائِهِ ، وارتباطاتِ العناياتِ بهِ .

* * *

[قصائدُ منتخبةٌ لمشاهيرِ الشُّعراءِ حَسَبَ طبقاتِهِم]

وإِذْ قد عرفتَ أن لا سبيلَ لمعرفةِ الصِّناعةِ إلَّا بكثرةِ الحفظِ ، ورعايةِ ما نبَّهناكَ علىٰ رعايتِهِ . . فقد آنَ أن نوردَ لكَ ما يكونُ مثالاً لِمَا ينبغي أن تُحصِّلَهُ للحفظِ وترديدِ النظرِ فيه ؛ مِنْ قصائدَ لمشاهيرِ الشعراءِ .

وينبغي بحَسَبِ نشأةِ الشعرِ ، وما عرضَ لهُ مِنَ التغيُّرِ . . أن نجعلَ الشُّعراءَ في ثلاثِ طبقاتٍ :

الطَّبقةُ الأُولىٰ : للعربِ جاهليينَ وإسلاميينَ ؛ مِنَ المُهلهِلِ إلىٰ بشارِ بنِ بردٍ .

❁ ❁ ❁

والثانيةُ : للمُحدَثينَ الذين كانوا يَحرِصونَ علىٰ موافقةِ العربِ ، ويجتهدونَ في سلوكِ طرائقِهِم ؛ مِنْ أبي نُواسٍ إلىٰ مَنْ قبلَ عبدِ الرحيمِ المعروفِ بالقاضي الفاضلِ .

❁ ❁ ❁

والثالثةُ : بالشُّعراءِ الذي غلبَ عليهِمُ استعمالُ النِّكاتِ ، والإفراطُ في مراعاةِ البديعِ ؛ وهُم مِنَ القاضي الفاضلِ إلىٰ هـٰذا الوقتِ .

❁ ❁ ❁

الطَّبقة الأُولىٰ

قيلَ : إنَّ عديّاً المُلقَّبَ بالمُهلهِلِ هوَ أوَّلُ مَنْ أطالَ الشِّعرَ ورقَّقَهُ ؛ ولذٰلكَ لُقِّبَ المُهلهِلَ ؛ مِنْ قولِهِم : ثوبٌ هلهلٌ ؛ إذا لم يكنْ مدامجَ الخيوطِ ؛ بحيثُ يَشِفُّ عمَّا وراءَهُ ، وإنَّما كانَتِ الشُّعراءُ قبلَهُ تقولُ قِطَعاً تَذكُرُ فيها الوقائعَ وتفخرُ ، ولٰكنِ اتفقَتْ كلمةُ العلماءِ علىٰ أنَّ أوَّلَ مَنْ جَوَّدَ الشِّعرَ ، وأطالَ القصائدَ ، وجعلَها مشتملةً علىٰ أصنافٍ مِنَ المعاني . . هوَ امرُؤُ القيسِ ، ومِنْ هنا وردَ فيهِ : « هُوَ حَامِلُ لِوَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَى ٱلنَّارِ »[1] .

وقالَ الصَّاحبُ ابنُ عبادٍ : (بُدِئَ الشعرُ بملكٍ ، وخُتِمَ بملكٍ)[2] ؛ يعني : امرَأَ القيسِ ؛ إذ كانَ ابنَ ملكٍ مِنْ ملوكِ العربِ ، وطلبَ المُلكَ بعدَ أبيهِ ، وكانَ يُلقَّبُ بالملكِ الضِّليلِ ، وأبا فراسٍ الحمدانيَّ .

فامرُؤُ القيسِ ومَنْ يُذكَرُ معَهُ مِنْ أصحابِ المُعلَّقاتِ وغيرِهِم . . هُم أئمةُ الشعرِ الذينَ يُقتدىٰ بهِم ، ويُصنَعُ علىٰ ما مثَّلُوهُ ؛ إذ كانوا هُمُ المخترعينَ ، وكانَتْ عباراتُهُم حكايةً عنِ الواقعِ ، وصنعةً للمَشاهدِ ، لم تكنِ الصَّنعةُ غالبةً عليهِم كما هوَ شأنُ المُتأخِّرينَ عنهُم ، وإن كانَ الشعرُ كيفَما كانَ مِنَ الأمورِ المصنوعةِ التي يتفاوتُ الناسُ في إتقانِها ، ورعايةِ جهاتِ حسنِها ، لٰكنْ مِنْ حيثُ كانَ ذٰلكَ ابتداءً لم يُحتذَ فيهِ مثالٌ . . قيلَ لشعرِهِم : إنَّهُ مطبوعٌ ، ولشعرِ المُتأخِّرينَ : إنَّهُ مصنوعٌ ؛ لكونِهِمُ احتذَوا فيهِ الأمثلةَ التي اخترعَها هٰؤلاءِ .

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٨/٢) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) انظر « وفيات الأعيان » (٥٩/٢) .

[المفاضلةُ بينَ امرئِ القيسِ وعلقمةَ الفحلِ في صفةِ جريِ الفرسِ]

فمِنْ شعرِ امرئِ القيسِ قصيدتُهُ التي وافقَهُ في وزنِها ورويِّها علقمةُ الفحلُ ، وتحاكما في المفاضلةِ بينَهُما وتقديمِ أحدِهِما إلىٰ أُمِّ جندبٍ ؛ وهيَ امرأةٌ مِنْ ذواتِ العقلِ والمعرفةِ ، كانَ تزوَّجَها امرُؤُ القيسِ ، فحكمَتْ لعلقمةَ عليهِ بالبيتَينِ اللَّذَينِ توافيا فيهِما علىٰ معنىً واحدٍ في صفةِ جريِ الفرسِ ، فكانَ ذٰلكَ سبباً لأن طَلَّقَها امرُؤُ القيسِ ، وخلفَهُ عليها علقمةُ .

[قصيدةُ امرئِ القيسِ]

وهيَ هٰذهِ (١) : [من الطويل]

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَىٰ أُمِّ جُنْدُبِ ... لِتَقْضِي لُبَانَاتِ ٱلْفُؤَادِ ٱلْمُعَذَّبِ

فَإِنَّكُمَا إِنْ تُنْظِرَانِيَ سَاعَةً ... مِنَ ٱلدَّهْرِ تَنْفَعْنِي لَدَىٰ أُمِّ جُنْدُبِ

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً ... وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

عَقِيلَةُ أَتْرَابٍ لَهَا لَا دَمِيمَةٌ ... وَلَا ذَاتُ خَلْقٍ إِنْ تَأَمَّلْتَ جَأْنَبِ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَادِثُ وَصْلِهَا ... وَكَيْفَ تُرَاعِي وُصْلَةَ ٱلْمُتَغَيِّبِ

أَقَامَتْ عَلَىٰ مَا بَيْنَنَا مِنْ مَوَدَّةٍ ... أُمَيْمَةُ أَمْ صَارَتْ لِقَوْلِ ٱلْمُخَبِّبِ

فَإِنْ تَنْأَ عَنْهَا حِقْبَةً لَا تُلَاقِهَا ... فَإِنَّكَ مِمَّا أَحْدَثَتْ بِٱلْمُجَرَّبِ

وَقَالَتْ مَتَىٰ يَبْخَلْ عَلَيْكَ وَيَعْتَلِلْ ... يَسُؤْكَ وَإِنْ يُكْشَفْ غَرَامُكَ تَدْرَبِ

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَىٰ مِنْ ظَعَائِنٍ ... سَوَالِكَ نَقْباً بَيْنَ حَزْمَيْ شَعَبْعَبِ

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ ... كَجِرْمَةِ نَخْلٍ أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِبِ

وَلِلّٰهِ عَيْنَا مَنْ رَأَىٰ مِنْ تَفَرُّقٍ ... أَشَتَّ وَأَنْأَىٰ مِنْ فِرَاقِ ٱلْمُحَصَّبِ

---

(١) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٤١ ـ ٥٥) .

فَرِيقَانِ مِنْهُمْ جَازِعٌ بَطْنَ نَخْلَةٍ ... وَآخَرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ
فَعَيْنَاكَ غَرْبَا جَدْوَلٍ فِي مُفَاضَةٍ ... كَمَرِّ ٱلْخَلِيجِ فِي صَفِيحِ ٱلْمُصَوَّبِ
وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَعَاجِزٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ
وَإِنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ ... بِمِثْلِ غُدُوٍّ أَوْ رَوَاحٍ مُؤَوِّبِ
بِأَدْمَاءَ حُرْجُوجٍ كَأَنَّ قُتُودَهَا ... عَلَىٰ أَبْلَقِ ٱلْكَشْحَيْنِ لَيْسَ بِمُغْرَبِ
يُغَرِّدُ بِٱلْأَسْحَارِ فِي كُلِّ سُدْفَةٍ ... تَغَرُّدَ مَيَّاحِ ٱلنَّدَامَى ٱلْمُطَرِّبِ
أَقَبُّ رَبَاعٍ مِنْ حَمِيرِ عَمَايَةٍ ... يَمُجُّ لُعَاعَ ٱلْبَقْلِ فِي كُلِّ مَشْرَبِ
بِمَحْنِيَةٍ قَدْ آزَرَ ٱلضَّالُ نَبْتَهَا ... مَجَرَّ جُيُوشٍ غَانِمِينَ وَخُيَّبِ
وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي [وُكُنَاتِهَا] ... وَمَاءُ ٱلنَّدَىٰ يَجْرِي عَلَىٰ كُلِّ مِذْنَبِ
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ لَاحَهُ ... طِرَادُ ٱلْهَوَادِي كُلَّ شَأْوٍ مُغَرِّبِ
عَلَى ٱلْأَيْنِ جَيَّاشٌ كَأَنَّ سَرَاتَهُ ... عَلَى ٱلضُّمْرِ وَٱلتَّعْدَاءِ سَرْحَةُ مَرْقَبِ
يُبَارِي ٱلْخَنُوفَ ٱلْمُسْتَقِلَّ زِمَاعُهُ ... تَرَىٰ شَخْصَهُ كَأَنَّهُ عُودُ مِشْجَبِ
لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ ... وَصَهْوَةُ عَيْرٍ قَائِمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ
وَيَخْطُو عَلَىٰ صُمٍّ صِلَابٍ كَأَنَّهَا ... حِجَارَةُ غَيْلٍ وَارِسَاتٌ [بِطُحْلُبِ]
لَهُ كَفَلٌ كَٱلدِّعْصِ لَبَّدَهُ ٱلنَّدَىٰ ... إِلَىٰ حَارِكٍ مِثْلِ ٱلْغَبِيطِ ٱلْمُذَأَّبِ
وَعَيْنٌ كَمِرْآةِ ٱلصَّنَاعِ تُدِيرُهَا ... بِمَحْجِرِهَا مِنَ ٱلنَّصِيفِ ٱلْمُنَقَّبِ
لَهُ أُذُنَانِ تَعْرِفُ ٱلْعِتْقَ فِيهِمَا ... كَسَامِعَتَيْ مَذْعُورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ
وَمُسْتَفْلِكُ ٱلذِّفْرَىٰ كَأَنَّ عِنَانَهُ ... وَمَثْنَاتَهُ فِي رَأْسِ جِذْعٍ مُشَذَّبِ
وَأَسْحَمُ رَيَّانُ ٱلْعَسِيبِ كَأَنَّهُ ... عَثَاكِيلُ قِنْوٍ مِنْ سَمِيحَةَ مُرْطِبِ

إِذَا مَا جَرَىٰ شَأْوَيْنِ وَٱبْتَلَّ عِطْفُهُ تَقُولُ هَزِيزُ ٱلرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ

يُدِيرُ قَطَاةً كَٱلْمَحَالَةِ أَشْرَفَتْ إِلَىٰ سَنَدٍ مِثْلِ ٱلْغَبِيطِ ٱلْمُذَأَّبِ

فَيَوْماً عَلَىٰ سِرْبٍ نَقِيٍّ جُلُودُهُ وَيَوْماً عَلَىٰ بَيْدَانَةٍ أُمِّ تَوْلَبِ

فَبَيْنَا نِعَاجٌ يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً كَمَشْيِ ٱلْعَذَارَىٰ فِي ٱلْمُلَاءِ ٱلْمُهَدَّبِ

فَكَانَ تَنَادِينَا وَعَقْدَ عِذَارِهِ وَقَالَ صِحَابِي قَدْ شَأَوْنَكَ فَٱطْلُبِ

فَلَأْياً بِلَأْيٍ مَا حَمَلْنَا غُلَامَنَا عَلَىٰ ظَهْرِ مَحْبُوكِ ٱلسَّرَاةِ مُجَنَّبِ

وَوَلَّىٰ كَشُؤْبُوبِ ٱلْعَشِيِّ بِوَابِلٍ وَيَخْرُجْنَ مِنْ جَعْدٍ تَرَاهُ مُنَصَّبِ

فَلِلسَّاقِ أُلْهُوبٌ وَلِلسَّوْطِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ

فَأَدْرَكَ لَمْ يَجْهَدْ وَلَمْ يَثْنِ شَأْوَهُ يَمُرُّ كَخُذْرُوفِ ٱلْوَلِيدِ ٱلْمُثَقَّبِ

تَرَى ٱلْفَأْرَ فِي مُسْتَيْفَعِ ٱلْقَاعِ لَاحِباً عَلَىٰ جَدَدِ ٱلصَّحْرَاءِ مِنْ شَدٍّ مُلْهِبِ

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِنْ عَشِيٍّ [مُجَلِّبِ]

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ وَبَيْنَ شَبُوبٍ كَٱلْقَضِيمَةِ قَرْهَبِ

وَظَلَّ لِثِيرَانِ ٱلصَّرِيمِ غَمَاغِمٌ يُدَاعِسُهَا بِٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْمُعَلَّبِ

[فَكَابٍ] عَلَىٰ حُرِّ ٱلْجَبِينِ وَمُتَّقٍ بِمَدْرِيَةٍ كَأَنَّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ

وَقُلْتُ لِفِتْيَانٍ كِرَامٍ أَلَا ٱنْزِلُوا فَعَالُوا عَلَيْنَا فَضْلَ ثَوْبٍ مُطَنَّبِ

وَأَوْتَادُهُ [مَاذِيَّةٌ] وَعِمَادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ فِيهَا أَسِنَّةُ قَعْضَبِ

وَأَطْنَابُهُ أَشْطَانُ خُوصٍ نَجَائِبٍ وَصَهْوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ

فَلَمَّا دَخَلْنَاهُ أَضَفْنَا ظُهُورَنَا إِلَىٰ كُلِّ حَارِيٍّ جَدِيدٍ مُشَطَّبِ

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا ٱلْجَزْعُ ٱلَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

نَـمُـشُّ بِـأَعْـرَافِ ٱلْـجِـيَـادِ أَكُـفَّـنَـا إِذَا نَـحْـنُ قُـمْـنَـا عَـنْ شِـوَاءٍ مُـضَـهَّـبِ
وَرُحْـنَـا كَـأَنَّـا مِـنْ جُـؤَاثَـىٰ عَـشِـيَّـةً [نُعَالِي] ٱلنِّعَاجَ بَيْنَ عِدْلٍ وَمُحْقَبِ
وَرَاحٍ كَـتَـيْـسِ ٱلـرَّبْـلِ يَـنْـفُـضُ رَأْسَـهُ أَذَاةً بِـهِ مِـنْ صَـائِـكٍ مُـتَـحَـلِّـبِ
كَـأَنَّ دِمَـاءَ ٱلْـهَـادِيَـاتِ بِـنَـحْـرِهِ عُـصَـارَةُ حِـنَّـاءٍ بِـشَـيْـبٍ مُـخَـضَّـبِ
وَأَنْـتَ إِذَا ٱسْـتَـدْبَـرْتَـهُ سَـدَّ فَـرْجَـهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ ٱلْأَرْضِ لَيْسَ بِأَصْهَبِ

[شرحُ وضبطُ قصيدةِ امرئِ القيسِ]

وهـٰذا الشعرُ محتاجٌ إلى الشرحِ والضبطِ ؛ لتحصلَ الفائدةُ بحفظِهِ ؛ فنقولُ :

قولُهُ : (خليليَّ . . .) البيتَ ، اللُّباناتُ : جمعُ لُبانةٍ بضمِّ اللامِ ؛ ما يتشهَّاهُ الإنسانُ بعدَ الحوائجِ الأصليَّةِ .

وقولُهُ : (ألم ترياني) يَتعلَّقُ بهِ حكايةٌ تُعرَفُ منها المفاضلةُ بينَ الشاعرَينِ ؛ يُحكىٰ : أنَّ كُثَيِّرَ عَزَّةَ لمَّا قالَ [١] : [من الطويل]

فَمَا رَوْضَـةٌ بِٱلْـحَزْنِ غِبَّ سَمَائِـهَا يَـمُـجُّ ٱلـنَّـدَىٰ جَـثْـجَـاثُـهَـا وَعَـرَارُهَـا
بِـأَطْـيَـبَ مِـنْ أَرْدَانِ عَـزَّةَ مَـوْهِـنـاً وَقَدْ أُوقِدَتْ بِٱلْمَنْدِلِ ٱلرَّطْبِ نَارُهَا

جاءَتْهُ عجوزٌ ومعَها روثةٌ ، عليها نارٌ ، فيها عُودٌ هنديٌّ ، وقالَتْ لهُ : لم تزدْ في صفةِ عَزَّةَ علىٰ هـٰذهِ ، ألا قلتَ كما قالَ امرُؤُ القيسِ : [من الطويل]

أَلَـمْ تَـرَيَـانِـي كُـلَّـمَـا جِـئْـتُ طَـارِقـاً وَجَـدْتُ بِـهَـا طِـيـبـاً وَإِنْ لَـمْ تَـطَـيَّـبِ

وصفَها بأنَّ طيبَها مِنْ ذاتِها ، وكُثَيِّرٌ جعلَ طيبَها مِنْ غيرِها ، وكلُّ

---

(١) تقدم (٣/٤٣٤) ، وفي « ديوانه » : (طيبة الزرع) بدل : (غب سمائها) ، وفي بعض المصادر : (طيبة الثرىٰ) .

شيءٍ يطيبُ بالطِّيبِ تطيبُ رائحتُهُ ، والفضلُ للطِّيبِ لا للشيءِ .

وقولُهُ : (عقيلةُ أترابٍ . . .) البيتَ ، العقيلةُ : الكريمةُ ، عقلَها أهلُها ومنعوها مِنَ التبذُّلِ ؛ لجمالِها ، والأترابُ : جمعُ تِرْبٍ ؛ وهوَ المساوي في العمرِ ، مأخوذٌ مِنَ الترابِ ؛ لأنَّهُما جاءا مِنْ ترابٍ واحدٍ ، واللدةُ مثلُهُ ؛ لأنَّهُما وُلدا معاً ، والجأْنَبُ : المُتجنَّبُ المحقورُ ، أوِ الغليظُ القصيرُ .

وقولُهُ : (أقامَتْ) تفصيلٌ لقولِهِ : (وكيفَ تراعِي وصلةَ المُتغيِّبِ) يقولُ : هل بقيَتْ على ما نعهدُ ، أو تغيَّرَتْ بتغييرِ المفسدِ ؛ وهوَ المُخبِّبُ ؛ مِنَ التخبيبِ ؛ وهوَ إفسادُ عبدِ الرجلِ عليهِ أوِ امرأتِهِ .

وقولُهُ : (فإن تنأ . . .) البيتَ ، رجوعٌ منهُ إلى معروفِهِ مِنْ أخلاقِها بعدَ استفهامِ التجاهلِ ، فهوَ يقولُ : فإن تغبْ عنها مُدَّةً . . فإنَّهُ لا يَخفى عليكَ أمرُها ، ولا ما تصيرُ إليهِ ، فأنتَ منهُ بموضعِ التجريبِ ، فالمُجرَّبُ : اسمُ مكانٍ في زنةِ اسمِ المفعولِ كما هوَ شأنُهُ مِنْ غيرِ الثلاثيِّ .

وبَيَّنَ تجنيَها وتَخْشِينَ القولِ لهُ المنبئَ عنِ التغيُّرِ في قولِهِ : (وقالَتْ متى يبخلْ عليكَ . . .) البيتَ ، وتدربُ : مِنَ الدربةِ ؛ وهيَ العادةُ ، دَرِبَ في الأمرِ ؛ اعتادَهُ ومرنَ عليهِ ، فهيَ تقولُ لهُ : إنَّكَ طَموعٌ ، لا تقفُ عندَ حدٍّ .

وقولُهُ : (تَبصَّرْ خليلي . . .) البيتَ ، الظَّعينةُ : الجملُ عليهِ المسافرةُ ؛ وهيَ ظعينةٌ أيضاً ، والنقبُ : الطريقُ في الجبلِ ، والحزمُ ـ بالميمِ ـ أغلظُ مِنَ الحزنِ بالنونِ ، وكلاهُما بفتحٍ فسكونٍ : الأمكنةُ الوَعْرةُ .

وشعبعبٌ : بالعينِ وبالغينِ ؛ مكانٌ مِنْ أرضِ بني تميمٍ .

وقولُهُ : (علونَ بأنطاكيَّة) يصفُ هيئةَ الرحالِ على الإبلِ ، ويذكرُ أنَّها مِنْ

نفائسِ الثيابِ ؛ تنويهاً بعظمِ أهلِها ، وأنَّهُم مِنْ أهلِ الثروةِ ، وأنطاكيةُ مِنْ بلادِ الشامِ تُنسَبُ إليها ثيابٌ تُصنَعُ بها ، **والعِقمةُ** ـ بكسرٍ فسكونٍ ـ : الوشيُ ، وشَبَّهَ الإبلَ بما عليها مِنَ الملوناتِ بمزرعةِ نخلٍ ؛ وهيَ [الجِزْمةُ] بكسرٍ فسكونٍ ، وأضربَ عنِ التشبيهِ بمكانٍ غيرِ مُعيَّنٍ إلىٰ مكانٍ مُعيَّنٍ ؛ لظهورِهِ واستقرارِهِ في خيالِ السامعِ ، **ويثربُ** : مدينةُ الرسولِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، بلدُ نخلٍ ، وهناكَ بلدُ نخلٍ أيضاً يُقالُ لها : يَتْرَبُ بفتحِ الياءِ والراءِ بينَهُما تاءٌ ، وهيَ المذكورةُ في قولِهِ (١) : [من الطويل]

مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ [بِيَتْرَبِ]

وقولُهُ : (وللهِ [عَيْنَا] . . .) البيتَ وما بعدَهُ ، يصفُ بهِما اجتماعَ الحاجِّ وملتقى الأحبَّةِ وافتراقَهُم ، ويبدي أسفَهُ في ذٰلكَ ، **والمُحصَّبُ** : مِنْ أمكنةِ تلكَ الناحيةِ ، **وجزعُ الأرض وقطعُها** : معناهُما واحدٌ ، **وبطنُ نخلةَ ونجدُ كبكبٍ** : مكانانِ إلىٰ جهتَينِ مختلفتَينِ .

وقولُهُ : (فعيناكَ) صفةٌ لبكائِهِ علىٰ أثرِ الظاعنينَ ، **والغربُ** : الدلوُ العظيمةُ ، **والمفاضةُ** : موضعُ إفاضةِ الماءِ وإسالتِهِ ؛ أي : تنهملُ دموعُهُ كمرِّ الخليجِ ، **والصَّفيحُ** : الحجارةُ ، **والمصوبُ** : المُمالُ ، وهنالِكَ تكونُ سرعةُ جريِ الماءِ .

وقولُهُ : (وإنَّكَ لم يفخرْ) لمَّا افتخرَتْ عليهِ بأنَّها تكشفُ غرامَهُ ، وقرعَتْهُ بالطمعِ وتركِ الوقوفِ عندَ حدٍّ ، وهوَ لا يَقدِرُ على الإجابةِ ؛ لمكانِ الحبِّ المُوجِبِ لتسليمِ كلِّ ما يقولُهُ المحبوبُ . . تَذكَّرَ أنَّهُ ربَّما يَفتخِرُ على الإنسانِ مَهينٌ عاجزٌ ضعيفٌ ، ولا يجدُ الشريفُ أن يجيبَهُ ويَرُدَّ عليهِ ، حتىٰ يُخيَّلَ أنَّهُ

---

(١) انظر « خزانة الأدب » (١/٥٨) ، والبيت بتمامه :

وَعَدْتَ وَكَانَ ٱلْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً ... مَوَاعِيدَ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَتْرَبِ

مغلوبٌ ، فتشتدُّ حزازةُ صدرِهِ ، ولسانُهُ لا ينطلقُ ، فرمىٰ بكلامٍ هوَ أكبرُ مِنَ الغزلِ ، ولذٰلكَ يَتمثَّلُ بهِ للتروُّحِ عندَ حصولِ مثلِ ذٰلكَ .

وقولُهُ : (وإنكَ لم تقطعْ لُبانةَ . . .) البيتَ ، انتقالٌ منهُ لذكرِ الحيلةِ في السلوِّ وكسرِ سَورةِ العشقِ ، فادَّعىٰ أنَّ السفرَ والذهابَ في البلادِ يكونُ سبباً لذٰلكَ ، وشرطَ في السفرِ الإبعادَ ، ولذٰلكَ أوجبَ أن تكونَ راحلتُهُ علىٰ ما وصفَ مِنَ الشدةِ والصَّلابةِ ؛ حتىٰ تساعدَهُ علىٰ ما أرادَ ، **والغُدُوُّ** : الذهابُ أولَ النهارِ ، **والرَّواحُ** : الذهابُ في آخِرِهِ ، **والتأويبُ** : السيرُ نهاراً ، **والإدلاجُ** : السيرُ ليلاً ، **والحُرجُوجُ** ـ كعُصفورٍ ـ : الصلبةُ ، **والقَتَدُ** ـ بفتحتينِ ـ : عُدَّةُ الراحلةِ ، **والأبلقُ** : ذو اللَّونَينِ ، **والمُغْرَبُ** ـ علىٰ زنةِ اسمِ المفعولِ ـ : الأبيضُ كلُّهُ ، **والأقبُّ** : الضَّامرُ ورباعِ : منقوصٌ ؛ إذا نصبتَهُ . . أظهرتَ الياءَ ؛ فقلتَ : ركبت رَبَاعِياً ؛ وهوَ الذي أُسقِطَ رباعيتُهُ ، وزنةُ الكلمةِ : ثَمَانٍ وثَمَانيةٌ ، مِنْ حَمِيرِ عَمايةٍ : جبلٌ بناحيةِ نجدٍ تُعرَفُ حميرُهُ بالشدَّةِ ، **واللُّعاعُ** ـ كغُرابٍ ـ : نبتٌ ناعمٌ في أوَّلِ ما يبدو ، والمحنيةُ : ما انعطفَ مِنَ الوادي ، وهوَ أخصبُهُ ، ولذٰلكَ قالَ : إنَّ نبتَهُ علا ، وكانَ كالشجرِ المُسمَّىٰ بالضَّالِ ، ووصفُهُ بكونِهِ موفراً . . لم ينزلْهُ الناسُ حتىٰ يرعَوْا نباتَهُ ، فهوَ علىٰ جانبٍ بحيثُ يمرُّ عليهِ الناسُ مروراً ، وبَيَّنَ ذٰلكَ في قولِهِ : (ممرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ) أي : جيوشٍ خُيَّبٍ ، فالغانمُ فرحَ بالقُفولِ إلىٰ أهلِهِ ، فهوَ لا يُعرِّجُ علىٰ مكانٍ ، والخائبُ ساعٍ ليغنمَ ، وإذا كانَ حالُ الموضعِ ذٰلكَ . . وجدَتِ الحميرُ مرعىً رغداً ، فنمتْ أجسامُها ، وتزايدَتْ قُواها .

وقولُهُ : (قد أغتدي . . .) البيتَ ، هوَ وقتُ الخروجِ إلى الصَّيدِ ، ولهُ كانَتْ شبابُ العربِ المُترفونَ يَستعمِلونَ الخيلَ ، ويذكرونَ ذٰلكَ في عدادِ مَلاذِّهِم ، والمِذْنَبُ ـ كمِنبرٍ ـ : مسيلُ الماءِ إلى الأرضِ ، كالمزرعةِ والبستانِ .

وقولُهُ : (بمنجردٍ) المنجردُ : قصيرُ الشعرِ ، وذٰلكَ محمودٌ في الخيلِ ، وقيدُ الأوابدِ ؛ وهيَ الوحشُ ، جمعُ آبدةٍ : استعارةٌ معدودةٌ مِنْ حسناتِ امرئِ القيسِ ، ولاحَهُ : غَيَّرَهُ مِنَ السِّمَنِ إلى الضُّمورِ ، والطرادُ : الاتباعُ ، والهوادي : السوابقُ ، جمعُ هاديةٍ ؛ كأنَّها دليلةُ ما وراءَها ، وفي قولِهِ : (طرادُ الهوادي) إبانةٌ لحسنِ طلبِهِ ، وأنَّهُ فاتَ الوحشَ ، وأتاهُ مِنْ قبلِ وجهِهِ ، فمنعَها السلوكَ إلىٰ وجهتِها ، والشأوُ : الطلقُ يجريهِ الفرسُ إلىٰ غايةٍ ما ، قَرُبَتْ أو بَعُدَتْ ، ولذٰلكَ قُيِّدَ بالمُغرَّبِ ؛ وهوَ البعيدُ .

وقولُهُ : (على الأينِ . . .) البيتَ ، الأينُ : التعبُ ، والجَيَشانُ : غليانُ القِدْرِ ، وفي الفرسِ : هيجانُهُ نشاطاً ووفورَ قُوَّةٍ ، وسراةُ كلِّ شيءٍ : أعلاهُ ، حتىٰ في الناسِ ، قالَ قيسٌ (١) : [من المتقارب]

وَعَمْرَةُ مِنْ سَرَوَاتِ ٱلنِّسَا ءِ تَنْفَحُ بِٱلْمِسْكِ أَرْدَانُهَا

والسَّرحةُ : واحدةُ السَّرحِ ؛ الشجرُ لا شوكَ فيهِ ، ويقابلُهُ العضهُ للشجرِ الشائكِ ، والمَرْقَبُ : الموضعُ يُرقَبُ منهُ ، وكانوا يَرقُبونَ في الشجرِ العالي الكثيرِ الفروعِ ، ولهٰذهِ الصِّفةِ قَيَّدَ السَّرحةَ ليظهرَ الفرسُ في صورةِ عظمِهِ التي يحاولُ نعتَها .

وقولُهُ : (يباري) المباراةُ : المسابقةُ ، وأصلُهُ : أنَّ مَنْ يبري القوسَ يغالبُ آخرَ في عجلةِ العملِ ، والخَنوفُ : الليِّنُ القوائمِ بحيثُ يرمي بها في العَدْوِ رمياً ؛ يريدُ : ثوراً وحشيّاً ؛ وهوَ معروفٌ بشدَّةِ العَدْوِ ، والزِّماعُ : جمعُ زَمَعةٍ بفتحتَينِ ؛ شعرٌ يكونُ في أسفلِ الأرجلِ ، واستقلالُهُ : ارتفاعُهُ ؛ فإنَّهُ إذا طالَ . . عَطَّلَ عن شدةِ الجري ، وعودُ المِشجَبِ : خشبٌ ينصبُهُ القَصَّارُ ينشرُ عليهِ الثيابَ ، والمِشجبُ بزنةِ مِنبَرٍ .

---

(١) انظر « ديوان قيس بن الخطيم » (ص ٦٩) .

وقولُهُ : (لهُ أيطلا ظبيٍ . . .) البيتَ ، **الأيطلُ** : الجانبُ ، **والصَّهوةُ** : موضعُ الراكبِ مِنَ الفرسِ ، وقصرَ في هٰذا البيتِ عن بيتِ المُعلَّقةِ ؛ حيثُ أتىٰ في ذٰلكَ بأربعةِ تشبيهاتٍ ، وبيتُ المُعلَّقةِ[1] : [من الطويل]

لَـهُ أَيْـطَـلَا ظَـبْـيٍ وَسَـاقَـا نَـعَـامَـةٍ وَإِرْخَـاءُ سِـرْحَـانٍ وَتَـقْـرِيـبُ تَـتْـفُـلِ

وتتفلٌ : بزنةِ تَنصُرُ ، وأتىٰ هنا بثلاثةِ تشبيهاتٍ ، كلُّها في الجسمِ .

وقولُهُ : (ويخطو . . .) البيتَ ، **الحافرُ الأصمُّ** : الذي لا خلوَ فيهِ ، ومنهُ : الصَّخرةُ الصَّمَّاءُ ، **والغَيْلُ** ـ بفتحٍ فسكونٍ ـ : الماءُ يجري علىٰ وجهِ الأرضِ ، **والوارساتُ** : جمعُ وارسةٍ ؛ أي : ذاتِ وَرْسٍ ، وهوَ بفتحٍ فسكونٍ ؛ نبتٌ أصفرُ يصبغُ بهِ كالزعفرانِ ، والحجارةُ إذا تَلوَّنَتْ بهٰذا اللونِ . . كانَتْ [قد] قدمَتْ وبلغَتِ الغايةَ في الصَّلابةِ .

وقولُهُ : (له كفلٌ . . .) البيتَ ، **الدِّعصُ** ـ بكسرٍ فسكونٍ ـ : أكمةٌ صغيرةٌ مِنَ الرملِ تُشبَّهُ بها الأكفالُ ، واستُعمِلَتْ في غزلِ العربِ ، وقَلَّدَهمْ غيرُهُم ، **والحاركُ** : طرفُ الوركِ المشرفُ مِنْ أعلاهُ ، **والغبيطُ** : قتبُ الهودجِ ، **والمذأبُ** : الذي لهُ أطرافٌ بارزةٌ مشرفةٌ .

وقولُهُ : (وعينٌ . . .) البيتَ ، **الصَّناعُ** للأُنثىٰ ، وللذَّكَرِ : صَنَعٌ بفتحتَينِ ؛ مِنَ الصَّنعةِ للحاذقِ والحاذقةِ فيها ، **ومرآةُ الصَّناعِ** : مشوفةٌ مُجلوَّةٌ ، ليسَ عليها صَدَأٌ ولا غبارٌ كما تكونُ مرآةُ الخرقاءِ ، **والمَحْجِرُ** : بفتحِ الميمِ وكسرِ الجيمِ في لغةٍ ، وفي أخرىٰ بزنةِ مِنْبَرٍ ، وفي تفسيرِهِ خلافٌ ؛ أهوَ ما بانَ مِنْ أسفلِ العينِ ، أوِ البياضُ المحيطُ بالسوادِ ؟ **والنصيفُ** : الخمارُ .

وقولُهُ : (لهُ أذنانِ . . .) البيتَ ، **العتقُ** : كرمُ الأصلِ والنجابةُ ، وآذانُ

---

(١) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٢١) .

أصلاءِ الخيلِ صغارٌ منتصباتٌ ، تُشبَّهُ بالأَلَّةِ ؛ أي : الحربةِ ، وبورقِ الآسِ ، وبريةِ القلمِ ، **والربربُ** : جماعةُ الظِّباءِ ، والمذعورةُ تنصبُ أذنَيها وترفعُ رأسَها ، **والعِتقُ** : بكسرٍ فسكونٍ .

وقولُهُ : (ومستفلِكُ الذِّفرىٰ . . .) البيتَ ؛ أي : ذفراهُ ؛ وهوَ العظمُ خلفَ الأذنِ مستديرةٌ كفَلْكةِ المِغْزلِ ، **والمَثْناةُ** : عِذارُ الفرسِ ، **والمُشذَّبُ** : المُجرَّدُ عنِ الأشياءِ الناتئةِ عليهِ .

وقولُهُ : (وأسحمُ . . .) البيتَ ، **السُّحمةُ** : السوادُ ، يصفُ ذنَبَهُ ، **والعسيبُ** : منبتُ شعرِهِ ، **والعثاكيلُ** : جمعُ عُثكولٍ ؛ شماريخُ البلحِ ، **والقنوُ** : مجموعُها ، **وسميحةُ** : ناحيةٌ بها نخلٌ ، ولعلَّهُ لهُ خصوصيةٌ حتىٰ قَيَّدَ بهِ ، وقَيَّدَ بالمرطبِ لسوادِ الذنبِ ، فيتمُّ التشبيهُ .

وقولُهُ : (إذا ما جرىٰ . . .) البيتَ ، **أَثْأَبٌ** : شجرٌ للريحِ فيهِ حفيفٌ ، وهوَ بفتحِ الهمزتَينِ .

وقولُهُ : (يديرُ قطاةً . . .) البيتَ ، **القطاةُ** : مقعدُ الرديفِ ، **والمحالةُ** : بكرةُ البئرِ ، **والسَّنَدُ** هنا : أرادَ بهِ الحاركَ ، أعادَ وصفَهُ .

وقولُهُ : (فيوماً علىٰ سِرْبٍ . . .) البيتَ ، **السِّرْبُ** ـ بكسرٍ فسكونٍ ـ : القطيعُ مِنَ البقرِ ، والجماعةُ مِنَ الطيرِ ، **والبيدانةُ** أُمُّ التَّوْلَبِ : الأتانُ أُمُّ الجحشِ ، والتَّوْلَبُ بسكونٍ بينَ فتحتَينِ .

وقولُهُ : (فلأياً بلأيٍ) **اللَّأيُ** : البطءُ ، **والمُجنَّبُ** : مِنَ التجنيبِ ؛ وهوَ احديدابٌ في وظيفَي الفرسِ وصلبِها ، **أوِ المُحنَّبُ** : مِنَ التحنيبِ ؛ وهوَ بُعْدُ ما بينَ الرجلَينِ بلا فحجٍ .

وقولُهُ : (وولّىٰ كشُؤبوبِ العشيِّ . . .) البيتَ ، **شُؤبوبُ العشيِّ** : الدفعةُ مِنَ

المطرِ ، ويُقالُ : وبلَ ؛ أيِ انهملَ ، ووصفَ البقرَ بشدةِ العَدْوِ ، حتىٰ إنَّها تثيرُ الترابَ النديَّ المُتلبِّدَ ، ولا يثيرُ ذٰلكَ إلَّا قُوَّةُ الرَّكضِ بالأظلافِ ، والمُنصَّبُ : المرتفعُ كالخباءِ .

وقولُهُ : (فللساقِ . . .) البيتَ ، قسمَ العَدْوَ بأقسامِهِ ، والأهوجُ المِنْعَبُ : الطائرُ الذي اعتادَ النعيبَ ؛ أيِ : التصويتَ ، وهوَ بزنةِ مِنْبَرٍ ، ويُروىٰ : (أخرجَ مذهبِ) وهو مِنْ صفةِ النعامِ .

وقولُهُ : (ترى الفأرَ . . .) البيتَ وما بعدَهُ ، يقولُ : إنَّهُ يخرجُ الفيرانَ إلى اليفاعِ فتكونُ ظاهرةً ، وهوَ معنىٰ لاحبٍ ، وخفاهُنَّ : أظهرَهُنَّ ، والأنفاقُ : جمعُ نفقٍ ؛ شقوقُها ، والودقُ : المطرُ ، والمُجلِّبُ : اسمُ فاعلٍ ؛ أي : ذو جلباتٍ وأصواتٍ ، وحاصلُهُ : أنَّ الفئرانَ تَظنُّهُ عندَ مَرِّهِ مطراً ، فتخرجُ مِنْ مطمئنِّ الأرضِ إلىٰ مرتفعِها تطلبُ السلامةَ منهُ .

وقولُهُ : (فعادىٰ . . .) البيتَ ، عادىٰ بينَ الشيئَينِ : والىٰ بينَهُما ، والشَّبُوبُ : الفتىٰ ، والقضيمةُ : الصَّحيفةُ البيضاءُ ، وثيرانُ الوحشِ بيضٌ ، والقَرْهَبُ هنا ـ بسكونٍ بينَ فتحتَينِ ـ : البدينُ .

قولُهُ : (وظلَّ لثيرانِ) المداعسةُ : موالاةُ الطَّعنِ ، والسَّمْهَرِيُّ : مِنْ ألقابِ الرمحِ ، والمُعلَّبُ : اسمُ مفعولٍ مِنْ علبَ الرمحَ ؛ إذا لفَّ عليهِ سيراً مُتخَذاً مِنْ علباءِ البعيرِ ؛ وهوَ عصبُ عنقِهِ ؛ تقويةً لهُ ألَّا ينشقَّ .

وقولُهُ : (فكابٍ علىٰ حُرِّ الجبينِ . . .) البيتَ ، كبا : سقطَ لوجهِهِ ، والمدريةُ : أرادَ بها هنا القرنَ ، [والذَّلْقُ] : الطرفُ ، والمِشعَبُ : ما يُشعَبُ بِهِ الجلدُ المشقوقُ .

وقولُهُ : (وقلتُ لفتيانٍ . . .) البيتَ ، فعالوا ؛ أي : فنزلوا فنصبوا لنا خباءً .

وقولُهُ : (وأوتادُهُ) وما بعدَهُ ، يذكرُ أنَّ ذٰلكَ الخِباءَ قامَ مِنْ ثيابِهِم وسلاحِهِم ، وكذٰلكَ يفعلونَ إذا كانوا في الصَّيدِ ، والماذيةُ : الدرعُ البيضاءُ أوِ اللينةُ ، وردينيةٌ : مِنْ ألقابِ الرماحِ ، وقَعْضَبٌ : اسمُ رجلٍ كانَ يُركِّبُ أسنَّةَ الرماحِ ، والأشطانُ : جمعُ شطنٍ ؛ الحبالُ ، والخُوصُ : جمعُ خوصاءَ ؛ غائرةُ العينِ ، وصهوةُ الخباءِ : أعلاهُ .

والأَتحميُّ المُشَرْعَبُ : نوعٌ مِنَ الثيابِ الفاخرةِ فيهِ تماثيلُ الشَّرْعَبِ ـ بسكونٍ بينَ فتحتَينِ ـ لنباتٍ ، ويُقالُ : ثوبٌ مطيرٌ ومخيلٌ ومُرحَّلٌ ؛ إذا رُسِمَ فيهِ تماثيلُ تلكَ الأشياءِ .

وقولُهُ : (فلمَّا دخلناهُ . . .) البيتَ ، أضافَ ظهرَهُ ؛ أي : أسندَهُ .

والحاريُّ : المنسوبُ إلى الحِيرةِ ، ويُقالُ : حِيريٌّ على القياسِ ، وأرادَ بهِ الرحلَ المصنوعَ بها ، والمُشطَّبُ : الذي فيهِ الشطبُ ؛ جمعُ شطبةٍ بضمٍّ أو كسرٍ فسكونٍ ؛ للخطوطِ والطرائقِ ، وتُذكَرُ في صفةِ السيفِ ؛ لِمَا فيهِ مِنَ الخطوطِ .

وقولُهُ : (كأنَّ عيونَ الوحشِ . . .) البيتَ ، الجَزْعُ : نوعٌ مِنْ خرزِ اليمنِ فيهِ خطوطٌ ، قيلَ : إنَّ عيونَ البقرِ وهيَ حيةٌ تُرىٰ سوداءَ لا يظهرُ فيها البياضُ ، فإذا ماتَتْ . . ظهرَ .

وقولُهُ : (نَمُشُّ بأعرافِ الجيادِ . . .) البيتَ ، مشَّ الكفَّ : مسحَها مِنْ أثرِ الطعامِ ، والمَشوشُ ـ بفتحِ الميمِ ـ : ما يُمسَحُ بهِ ؛ كالمِنديلِ ، والمُضهَّبُ : الذي أعجلَ أن يَنضَجَ .

يُحكىٰ : أنَّ عبدَ الملكِ سألَ جلساءَهُ يوماً عن أفضلِ مناديلِ العربِ ، فكلٌّ ذكرَ مناديلَ ناحيةٍ مِنْ نواحي الأرضِ ونعتَها ، فلمَّا فرغوا . . قالَ عبدُ الملكِ : لم تصيبوا ، ألم تسمعوا لقولِ الشاعرِ ـ وفي الأبياتِ بيانُ المعنى الذي قصدَهُ

امرُؤُ القيسِ [1] ـ :   [من البسيط]

لَـمَّـا نَـزَلْـنَـا نَـصَـبْـنَـا ظِـلَّ أَخْـبِـيَـةٍ   وَفَـارَ بِـٱلـلَّـحْـمِ لِـلْـقَـوْمِ ٱلْـمَـرَاجِـيـلُ

وَرْدٌ وَأَشْـقَـرُ مَـا يُـونِـيـهِ طَـابِـخُـهُ   مَـا غَـيَّـرَ ٱلْـغَـلْـيُ مِـنْـهُ فَـهْـوَ مَـأْكُـولُ

ثُـمَّـتَ قُـمْـنَـا إِلَـىٰ جُـرْدٍ مُـسَـوَّمَـةٍ   أَعْـرَافُـهُـنَّ لِأَيْـدِيـنَـا مَـنَـادِيـلُ

وقولُهُ : (ورحنا . . .) البيتَ ، **جُؤاثىٰ** ـ كحُبارىٰ ـ : قريةٌ يُحمَلُ منها التمرُ ، **ونُعالي** : نرفعُ رفعَ الحملِ ، وجعلَ الحملَ بينَ عدلٍ ـ وهوَ الموضوعُ علىٰ ظهرِ الحاملةِ ـ وجانبَيها ، **والمُحْقَبُ** : الموضوع علىٰ مؤخَرِها .

وقولُهُ : (وراحَ كتيسِ الربلِ . . .) البيتَ ، **الربلُ** : نبتٌ يظهرُ في آخرِ الصَّيفِ ينبتُ علىٰ بردِ الليلِ ، لا يحتاجُ للماءِ ، وهوَ بفتحٍ فسكونٍ ، والتيسُ إذا رعاهُ بعدَما رعىٰ نباتَ الصَّيفِ . . يكونُ في أوفرِ قُوَّتِهِ ، وأذاةٌ بهِ ؛ أي : مِنْ أذيَّةٍ فيهِ ينفضُهُ ، وإنَّما يَتأذَّىٰ مِنَ العرقِ المُتغيِّرِ ؛ وهوَ **الصَّائكُ** ، **المُتحلِّبُ** : المُتصبِّبُ .

* * *

---

(١) انظر « معاهد التنصيص » (١/١٠٣) ، عزاها لأخي بني سعد عبدة بن الطبيب .

[قصيدةُ علقمةَ الفحلِ]

وهٰذهِ قصيدةُ علقمةَ [1] : [من الطويل]

ذَهَبْتِ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي غَيْرِ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقّاً كُلُّ هَٰذَا ٱلتَّجَنُّبِ

لَيَالِيَ لَا تَبْلَىٰ نَصِيحَةُ بَيْنِنَا لَيَالِيَ حَلُّوا بِٱلسِّتَارِ فَغُرَّبِ

أي : اذكري لياليَ لا تُمتحَنُ نصيحةُ بينِنا ؛ لخُلوصِها ؛ يعني : لياليَ التصافي ، يَحثُّها علىٰ بقاءِ الوفاءِ .

مُبَتَّلَةٌ كَأَنَّ أَنْضَاءَ حَلْيِهَا عَلَىٰ شَادِنٍ مِنْ صَاحَةٍ مُتَرَبَّبِ

مَحَالٌ كَأَجْوَازِ ٱلْجَرَادِ وَلُؤْلُؤٌ مِنَ ٱلْقَلَقِيِّ وَٱلْكَبِيسِ ٱلْمُلَوَّبِ

المُبتَّلةُ : التي انفردَتْ بالحسنِ ، فهيَ تُذكَرُ وحدَها في النعتِ والصفةِ ، وشبَّهَها بالغزالِ المترعرعِ مِنْ غزلانِ ذٰلكَ المكانِ المُتربَّبِ ؛ أي : المُربَّى المعتنىٰ بهِ ، وأنضاءُ الحَلْيِ : منظومُهُ ، وفَصَّلَهُ بقولِهِ : (مَحالٌ) بفتحِ الميمِ ؛ لنوعٍ مِنَ الحَلْيِ ، وكذا القَلَقِيُّ والمُلَوَّبُ ؛ المَلويُّ كالسِّوارِ .

إِذَا أَلْحَمَ ٱلْوَاشُونَ لِلشَّرِّ بَيْنَنَا تَبَلَّغَ رَمْسُ ٱلْحُبِّ غَيْرَ ٱلْمُكَذَّبِ

هوَ تفسيرٌ وبيانٌ لقولِهِ : (لا تبلىٰ نصيحةُ بينِنا) أي : إذا اجتهدَ الوُشاةُ أن يبلغوا مآربَهُم . . تأكَّدَ الحبُّ المرموسُ ؛ أيِ : المكتومُ ، فهوَ مِنْ إضافةِ الصفةِ .

وَمَا أَنْتَ أَمْ مَا ذِكْرُهَا رَبَعِيَّةً تَحُلُّ بِإِيرٍ أَوْ بِأَكْنَافِ شُرْبُبِ

---

(١) انظر « ديوان علقمة بن عبدة » (ص ٩ ـ ٢٠) .

عاتبَ نفسَهُ فقالَ : ما شأنُكَ وما شأنُ ذكرِها ربعيةً مِنْ ربيعةَ .

وإِيرٌ ـ بكسرِ الهمزِ ـ وشُرْبُبٌ : موضعانِ .

أَطَعْتَ ٱلْوُشَاةَ وَٱلْمُشَاةَ بِصُرْمِهَا فَقَدْ أَنْهَجَتْ حِبَالُهَا لِلتَّقَضُّبِ
وَقَدْ وَعَدَتْكَ مَوْعِداً لَوْ وَفَتْ بِهِ كَمَوْعُودِ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَتْرَبِ
وَقَالَتْ مَتَىٰ [يَبْخَلْ] عَلَيْكَ وَيَعْتَلِلْ يَسُؤْكَ وَإِنْ يَكْشِفْ غَرَامَكَ تَدْرَبِ
فَقُلْتُ لَهَا فِيئِي فَمَا تَسْتَفِزُّنِي ذَوَاتُ ٱلْعُيُونِ وَٱلْبَنَانِ ٱلْمُخَضَّبِ
فَفَاءَتْ كَمَا فَاءَتْ مِنَ ٱلْأُدْمِ مُغْزِلٌ بِبِيشَةَ تَرْعَىٰ فِي أَرَاكٍ وَحُلَّبِ

تخاشنَ في هٰذهِ الأبياتِ ، وذكرَ أنَّهُ جازاها بعملِها ، فأعرضَ كما أعرضَتْ ، وأجابَها علىٰ مثلِ ما ابتدأَتْ .

فَعِشْنَا بِهَا مِنَ ٱلشَّبَابِ مُلَاوَةً فَأَنْجَحَ آيَاتِ ٱلرَّسُولِ ٱلْمُخَبِّبِ

التفتَ للإخبارِ عمَّا كانَ بينَهُ وبينَها مُدَّةَ الشبابِ .

والمُلاوةُ : المدةُ .

فَإِنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقٍ بِمِثْلِ بُكُورٍ أَوْ رَوَاحٍ مُؤَوَّبِ
بِمُجْفَرَةِ ٱلْجَنْبَيْنِ حَرْفٍ شِمِلَّةٍ كَهَمِّكَ مِرْقَالٍ عَلَى ٱلْأَيْنِ ذِعْلِبِ

كهمِّكَ ؛ أي : وَفقَ غرضِكَ ، والذِّعْلِبُ ـ بكسرٍ فسكونٍ ـ : الصلبةُ .

إِذَا مَا ضَرَبْتُ ٱلدَّفَّ أَوْصَلْتُ صَوْلَةً تَرَقَّبُ مِنِّي غَيْرَ أَدْنَىٰ تَرَقُّبِ

الدفُّ : الجانبُ ، وترقَّبُ ؛ أي : تلاحظُ خوفاً ورعياً ترقُّباً شديداً ليسَ بالضَّعيفِ ، وهوَ قولُهُ : (غيرَ أدنىٰ) ، وجملُ ذي الرُّمةِ أحسنُ مِنْ ناقتِهِ هٰذهِ وأفرهُ ؛ فإنَّهُ لم يَضرِبْهُ ولم يصلْ عليهِ حيثُ يقولُ وأحسنَ

ما شاءَ [1] : [من الطويل]

يَكَادُ مِنَ ٱلتَّصْدِيرِ يَنْسَلُّ كُلَّمَا تَرَنَّمَ أَوْ مَسَّ ٱلْعِمَامَةَ رَاكِبُهْ

[عودٌ لقصيدةِ علقمةَ] :

بِعَيْنٍ كَمِرْآةِ ٱلصَّنَاعِ تُدِيرُهَا لِمَحْجِرِهَا مِنَ ٱلنَّصِيفِ ٱلْمُنَقَّبِ

كَأَنَّ بِحَاذَيْهَا إِذَا مَا تَشَذَّرَتْ عَثَاكِيلَ قِنْوٍ مِنْ سُمَيْحَةَ مُرْطِبِ

تَذُبُّ بِهِ طَوْراً وَطَوْراً تُمِرُّهُ كَذَبِّ ٱلْبَشِيرِ بِٱلرِّدَاءِ ٱلْمُهَدَّبِ

يصفُ الذنبَ ، **والحاذانِ** : مواقعُهُ مِنْ أدبارِ الفخذَينِ .

وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا وَمَاءُ ٱلنَّدَىٰ يَجْرِي عَلَىٰ كُلِّ مِذْنَبِ

بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ لَاحَهُ طِرَادُ ٱلْهَوَادِي كُلَّ شَأْوٍ مُغَرِّبِ

كُمَيْتٍ كَلَوْنِ ٱلْأُرْجُوَانِ نَشَرْتَهُ لِبَيْعِ ٱلرِّدَاءِ فِي ٱلصُّوَانِ ٱلْمُكَعَّبِ

مُمَرٍّ كَعَقْدِ ٱلْأَنْدَرِيِّ يَزِينُهُ مَعَ ٱلْعِتْقِ خَلْقٌ مُفْعَمٌ غَيْرُ جَأْنَبِ

لَهُ حُرَّتَانِ تَعْرِفُ ٱلْعِتْقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتَيْ مَذْعُورَةٍ وَسْطَ رَبْرَبِ

وَجَوْفٌ هَوَاءٌ تَحْتَ مَتْنٍ كَأَنَّهُ مِنَ ٱلْهَضْبَةِ ٱلْخَلْقَاءِ زُحْلُوقُ مَلْعَبِ

الخَلقاءُ : الملساءُ .

قَطَاةٌ كَكُرْدُوسِ ٱلْمَحَالَةِ أَشْرَفَتْ إِلَىٰ سَنَدٍ مِثْلِ ٱلْغَبِيطِ ٱلْمُذَأَّبِ

وَسُمْرٌ يُفَلِّقْنَ ٱلظِّرَابَ كَأَنَّهَا حِجَارَةُ غَيْلٍ وَارِسَاتٌ بِطُحْلُبِ

إِذَا مَا ٱقْتَنَصْنَا لَمْ نُخَاتِلْ بِجُنَّةٍ وَلَٰكِنْ نُنَادِي مِنْ بَعِيدٍ أَلَا ٱرْكَبِ

أَخَا ثِقَةٍ لَا يَلْعَنُ ٱلْحَيُّ شَخْصَهُ صَبُوراً عَلَى ٱلْعِلَّاتِ غَيْرَ مُسَبَّبِ

إِذَا أَنْفَدُوا زَاداً فَإِنَّ عِنَانَهُ وَأَكْرُعَهُ مُسْتَعْمَلاً خَيْرُ مِكْسَبِ

---

(١) انظر « ديوان ذي الرمة » (٢/٨٣٩) .

يصفُ ثقتَهُ بالفرسِ ، وأنَّهُم لا يخاتلونَ الصَّيدَ ؛ أي : لا يختالونَ عليهِ ؛ لعلمِهِم أنَّهُ يدركُهُ بشدِّهِ ، وجعلَهُ أخا ثقةٍ يستبشرُ بهِ الناسُ ولا يسبونَهُ ؛ ليمنِهِ وبركتِهِ ، وأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ صابرٌ ، وأوضحَ ذٰلكَ بذكرِ أنَّهُ خيرُ مِكْسَبٍ ـ أي : كاسبٍ بزنةِ مِنْبَرٍ ـ إذا استعملوهُ وصرفوهُ بعِنانِهِ ، فعملَتْ أرجلُهُ عملَها ، ونسبَ الكسبَ إلى العِنانِ والقوائمِ التي عَبَّرَ عنها بالأكرعِ .

رَأَيْنَا شِيَاهاً يَرْتَعِينَ خَمِيلَةً كَمَشْيِ ٱلْعَذَارَىٰ فِي ٱلْمُلَاءِ ٱلْمُهَدَّبِ
فَبَيْنَا تَمَارَيْنَا وَعَقْدُ عِذَارِهِ خَرَجْنَ عَلَيْنَا كَٱلْجُمَانِ ٱلْمُثَقَّبِ

أرادَ أن يقولَ : المنظَّمَ ؛ لكونِها متتابعةً متواصلةً ، تشبهُ العقدَ ، ولم يَتمكَّنْ ، فعَبَّرَ بالمُثقَّبِ اللازمِ لإمكانِ النظمِ ، وهٰذا الذي يُسمِّيهِ أهلُ البديعِ : **الطاعةَ والعصيانَ** .

فَأَتْبَعَ آثَارَ ٱلشِّيَاهِ بِصَادِقٍ حَثِيثٍ كَغَيْثِ ٱلرَّائِحِ ٱلْمُتَحَلِّبِ
فَأُدْرِكُ مِنْهَا ثَانِياً مِنْ عِنَانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ ٱلرَّائِحِ ٱلْمُتَحَلِّبِ
تَرَى ٱلْفَأْرَ فِي مُسْتَيْفَعِ ٱلْقَاعِ لَائِحاً عَلَىٰ جَدَدِ ٱلصَّحْرَاءِ مِنْ شَدِّ مُلْهَبِ
خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا تَخَلَّلَهُ شُؤْبُوبُ غَيْثٍ مُنَقِّبِ
فَظَلَّ لِثِيرَانِ ٱلصَّرِيمِ غَمَاغِمٌ يُدَاعِسُهُنَّ بِٱلنَّضِيِّ ٱلْمُعَلَّبِ
فَهَاوٍ عَلَىٰ حُرِّ ٱلْجَبِينِ وَمُتَّقٍ بِمَدْرِيَةٍ كَأَنَّهَا ذَلْقُ مِشْعَبِ
وَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ وَبَيْنَ شَبُوبٍ كَٱلْقَضِيمَةِ قَرْهَبِ
فَقُلْنَ[1] أَلَا قَدْ كَانَ صَيْدٌ لِقَانِصٍ فَخَبُّوا عَلَيْنَا فَضْلَ بُرْدٍ مُطَنَّبِ

---

(١) في « ديوان علقمة بن عبدة » (ص ١٨) : (فقلنا) بدل (فقلن) .

كَأَنَّ عُيُونَ ٱلْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا ٱلْجَزْعُ ٱلَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

وَرُحْنَا كَأَنَّا مِنْ جُوَاثَىٰ عَشِيَّةً نُعَالِي ٱلنِّعَاجَ بَيْنَ عِدْلٍ وَمُحْقَبِ

وَرَاحَ كَشَاةِ [ٱلرَّبْلِ] يَنْفُضُ رَأْسَهُ أَذَاةً بِهِ مِنْ صَائِكٍ مُتَحَلِّبِ

وَرَاحَ يُبَارِي فِي [ٱلْجَنَابِ] قَلُوصَنَا عَزِيزاً عَلَيْنَا كَٱلْحُبَابِ ٱلْمُسَيَّبِ

فانظرْ كيفَ تناولَ هٰذانِ الشاعرانِ تلكَ المعانيَ متناولاً واحداً ، لا تفاوتَ بينَهُما إلَّا في اليسيرِ كما يُدرَكُ بتدقيقِ النظرِ والتلبُّثِ في المقارنةِ بينَ شعرَيهِما ، وتَبيُّنُ ذٰلكَ بما تواردا عليهِ مِنَ الأبياتِ الكاملةِ ، وتأمُّلُ ذٰلكَ نافعٌ إن شاءَ اللّٰهُ تعالىٰ .

* * *

[مرثيةُ محمدِ بنِ كعبٍ الغنويِّ في أخيهِ]

ومِنْ جيدِ شعرِ هٰذهِ الطَّبقةِ : مرثيةُ محمدِ بنِ كعبٍ الغنويِّ التي يرثي بها أخاهُ ؛ وهيَ (١) :

[من الطويل]

تَقُولُ ٱبْنَةُ ٱلْعَبْسِيِّ قَدْ شِبْتَ بَعْدَنَا ... وَكُلُّ ٱمْرِئٍ بَعْدَ ٱلشَّبَابِ يَشِيبُ

وَمَا ٱلشَّيْبُ إِلَّا غَائِباً كَانَ جَائِياً ... وَمَا ٱلْقَوْلُ إِلَّا مُخْطِئٌ وَمُصِيبُ

تَقُولُ سُلَيْمَىٰ مَا لِجِسْمِكَ شَاحِباً ... كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ ٱلشَّرَابَ طَبِيبُ

فَقُلْتُ وَلَمْ أَعْيَ ٱلْجَوَابَ وَلَمْ أَنُحْ ... وَلِلدَّهْرِ فِي ٱلصُّمِّ ٱلصِّلَابِ نَصِيبُ

تَتَابُعُ أَحْدَاثٍ تَخَرَّمْنَ إِخْوَتِي ... فَشَيَّبْنَ رَأْسِي وَٱلْخُطُوبُ تُشِيبُ

لَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتْ أَصَابَتْ مَنِيَّةٌ ... أَخِي وَٱلْمَنَايَا لِلرِّجَالِ شَعُوبُ

لَقَدْ كَانَ أَمَّا حِلْمُهُ فَمُرَوَّحٌ ... عَلَيْهِ وَأَمَّا جَهْلُهُ فَعَزِيبُ

أَخِي مَا أَخِي لَا فَاحِشٌ عِنْدَ رِيبَةٍ ... وَلَا وَرَعٌ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ هَيُوبُ

أَخِي كَانَ يَكْفِينِي وَكَانَ يُعِينُنِي ... عَلَىٰ نَائِبَاتِ ٱلدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ

حَلِيمٌ إِذَا مَا سَوْرَةُ ٱلْجَهْلِ أُطْلِقَتْ ... حُبَى ٱلشَّيْبِ لِلنَّفْسِ ٱللَّجُوجِ غَلُوبُ

هُوَ ٱلْعَسَلُ ٱلْمَاذِيُّ حِلْماً وَنَائِلاً ... وَلَيْثٌ إِذَا يَلْقَى ٱلْعِدَاةَ غَضُوبُ

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ ٱلصُّبْحُ غَادِياً ... وَمَاذَا يُؤَدِّي ٱللَّيْلُ حِينَ يَؤُوبُ

هَوَتْ أُمُّهُ مَاذَا تَضَمَّنَ قَبْرُهُ ... مِنَ ٱلْمَجْدِ وَٱلْمَعْرُوفِ حِينَ يَنُوبُ

أَخُو شَتَوَاتٍ يَعْلَمُ [ٱلضَّيْفُ] أَنَّهُ ... سَيَكْثُرُ مَا فِي قِدْرِهِ وَيَطِيبُ

---

(١) انظر « جمهرة أشعار العرب » (٢/٧٠١ ـ ٧١٠) .

حَبِيبٌ إِلَى ٱلزُّوَّارِ غِشْيَانُ بَيْتِهِ ... جَمِيلُ ٱلْمُحَيَّا شَبَّ وَهْوَ أَدِيبُ
[كَأَنَّ] بُيُوتَ ٱلْحَيِّ مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا ... بَسَابِسُ قَفْرٌ مَا بِهِنَّ عَرِيبُ
كَعَالِيَةِ ٱلرُّمْحِ ٱلرُّدَيْنِيِّ لَمْ يَكُنْ ... إِذَا ٱبْتَدَرَ ٱلْخَيْرَ ٱلرِّجَالُ يَخِيبُ
إِذَا قَصُرَتْ أَيْدِي ٱلرِّجَالِ عَنِ ٱلْعُلَا ... تَنَاوَلَ أَقْصَى ٱلْمَكْرُمَاتِ شَبِيبُ
جَمُوعٌ خِلَالَ ٱلْخَيْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... إِذَا حَلَّ مَكْرُوهٌ بِهِنَّ ذَهُوبُ
مُفِيدٌ مُلَقًّى ٱلْفَائِدَاتِ مُعَاوِدٌ ... لِفِعْلِ ٱلنَّدَىٰ وَٱلْمَكْرُمَاتِ كَسُوبُ
وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى ٱلنَّدَىٰ ... فَلَمْ يَسْتَجِبْ عِنْدَ ٱلنِّدَاءِ مُجِيبُ
فَقُلْتُ ٱدْعُ أُخْرَىٰ وَٱرْفَعِ ٱلصَّوْتَ ثَانِياً ... لَعَلَّ أَبِي ٱلْمِغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ
يُجِبْكَ بِمَا قَدْ كَانَ يَفْعَلُ أَنَّهُ ... بِأَمْثَالِهَا رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ أَرِيبُ
أَتَاكَ سَرِيعاً وَٱسْتَجَابَ إِلَى ٱلنَّدَىٰ ... كَذَٰلِكَ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ كَانَ يُجِيبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ يَدْعُو ٱلسَّوَابِحَ مَرَّةً ... بِذِي لَجَبٍ تَحْتَ ٱلرِّمَاحِ مَهِيبُ
فَتىً أَرْيَحِيٌّ كَانَ يَهْتَزُّ لِلنَّدَىٰ ... كَمَا ٱهْتَزَّ مِنْ مَاءِ ٱلْجَدِيدِ قَضِيبُ
فَتىً مَا يُبَالِي أَنْ يَكُونَ بِجِسْمِهِ ... إِذَا نَالَ خَلَّاتِ ٱلْكِرَامِ شُحُوبُ
إِذَا مَا تَرَاءَاهُ ٱلرِّجَالُ تَحَفَّظُوا ... فَلَمْ تُنْطَقِ ٱلْعَوْرَاءُ وَهْوَ قَرِيبُ
عَلَىٰ خَيْرِ مَا كَانَ ٱلرِّجَالُ رُزِئْتُهُ ... وَمَا ٱلْخَيْرُ إِلَّا طُعْمَةٌ وَنَصِيبُ
حَلِيفُ ٱلنَّدَىٰ يَدْعُو ٱلنَّدَىٰ فَيُجِيبُهُ ... سَرِيعاً وَيَدْعُوهُ ٱلنَّدَىٰ فَيُجِيبُ
غِيَاثٌ لِعَانٍ لَمْ يَجِدْ مَنْ يُعِينُهُ ... وَمُخْتَبِطٌ يَغْشَى ٱلدُّخَانَ غَرِيبُ
عَظِيمُ رَمَادِ ٱلنَّارِ رَحْبٌ فِنَاؤُهُ ... إِلَىٰ سَنَدٍ لَمْ يَجْتَنِحْهُ عُيُوبُ (١)

---

(١) يعني : تميل به عيوب .

يَبِيتُ ٱلنَّدَىٰ يَا أُمَّ عَمْرٍو ضَجِيعَهُ   إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْمُنْقِيَاتِ حَلُوبُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا ٱلْحِلْمُ زَيَّنَ أَهْلَهُ   مَعَ ٱلْحِلْمِ فِي عَيْنِ ٱلْعَدُوِّ مَهِيبُ
مُعَنًّىً إِذَا عَادَى ٱلرِّجَالُ عَدَاوَةً   بَعِيدٌ إِذَا عَادَى ٱلرِّجَالُ قَرِيبُ
غَنِينَا بِخَيْرٍ حِقْبَةً ثُمَّ جَلَّحَتْ   عَلَيْنَا ٱلَّتِي كُلَّ ٱلْأَنَامِ تُصِيبُ
فَأَبْقَتْ قَلِيلاً ذَاهِباً وَتَجَهَّزَتْ   لِآخَرَ وَٱلرَّاجِي ٱلْحَيَاةَ كَذُوبُ
وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلنَّأْيَ فِي ٱلْحَيِّ مِنْهُمُ   إِلَىٰ أَجَلٍ أَقْصَىٰ مَدَاهُ قَرِيبُ
لَقَدْ أَفْسَدَ ٱلْمَوْتُ ٱلْحَيَاةَ وَقَدْ أَتَىٰ   عَلَىٰ نَوْمِهِ(١) عِلْقٌ عَلَيَّ حَبِيبُ
فَإِنْ تَكُنِ ٱلْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةً   إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ
جَمَعْنَ ٱلنَّوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا ٱجْتَمَعَ ٱلْهَوَىٰ   صَدَعْنَ ٱلْعَصَا حَتَّى ٱلْقَنَاةُ شَعُوبُ
أَتَىٰ دُونَ حُلْوِ ٱلْعَيْشِ حَتَّىٰ أَمَرَّهُ   نُكُوبٌ عَلَىٰ آثَارِهِنَّ نُكُوبُ
كَأَنَّ أَبَا ٱلْمِغْوَارِ لَمْ يُوفِ مَرْقَباً   إِذَا رَبَأَ ٱلْقَوْمَ ٱلْغُزَاةَ رَقِيبُ
وَلَمْ يَدْعُ فِتْيَاناً كِرَاماً لِمَيْسِرٍ   إِذَا ٱشْتَدَّ مِنْ رِيحِ ٱلصَّبَاءِ هُبُوبُ
فَإِنْ غَابَ مِنْهُمْ غَائِبٌ أَوْ تَخَاذَلُوا   كَفَىٰ ذَاكَ مِنْهُمْ وَٱلْجَنَابُ خَصِيبُ
كَأَنَّ أَبَا ٱلْمِغْوَارِ ذَا ٱلْمَجْدِ لَمْ تَجُبْ   بِهِ ٱلْبِيدَ عَنْسٌ بِٱلْفَلَاةِ خَبُوبُ
عَلَاةٌ تَرَىٰ فِيهَا إِذَا حُطَّ رَحْلُهَا   نُدُوباً عَلَىٰ آثَارِهِنَّ نُدُوبُ
وَإِنِّي لَبَاكِيهِ وَإِنِّي لَصَادِقٌ   عَلَيْهِ وَبَعْضُ ٱلْقَائِلِينَ كَذُوبُ
فَتَى ٱلْحَرْبِ إِنْ حَارَبْتُ كَانَ سِمَامَهَا   وَفِي ٱلسَّفْرِ مِفْضَالُ ٱلْيَدَيْنِ وَهُوبُ
وَحَدَّثْتُمَانِي إِنَّمَا ٱلْمَوْتُ فِي ٱلْقُرَىٰ   فَكَيْفَ وَهَٰذِي رَوْضَةٌ وَقَلِيبُ

(١) في « جمهرة أشعار العرب » (٢/٧٠٨) : (يومه) .

وَمَـاءُ سَـمَـاءٍ كَـانَ غَـيْـرَ [مُـحِـمَّـةٍ] بِـدَوِّيَـةٍ تَـجْـرِي عَـلَـيْـهِ جَـنُـوبُ
وَمَـنْـزِلُـهُ فِـي دَارِ صِـدْقٍ وَغِـبْـطَـةٍ وَمَا ٱقْتَالَ مِنْ حُكْمٍ عَلَيْهِ طَبِيبُ
فَـلَـوْ كَـانَـتِ ٱلدُّنْـيَا تُـبَاعُ ٱشْـتَـرَيْـتُـهُ بِمَا لَـمْ تَـكُـنْ عَنْهُ ٱلنُّفُوسُ تَـطِيبُ
بِـعَـيْـنَـيَّ أَوْ يُـمْـنَـىٰ يَـدَيَّ وَقِـيـلَ لِـي هُـوَ ٱلْـغَـانِـمُ ٱلْـجَـذْلَانُ يَـوْمَ يَـؤُوبُ
لَـعَـمْـرُكُـمَـا إِنَّ ٱلْـبَـعِـيـدَ لَـمَـا مَـضَـىٰ وَإِنَّ ٱلَّـذِي يَـأْتِـي غَـداً لَـقَـرِيـبُ
وَإِنِّـي وَتَـأْمِـيـلِـي لِـقَـاءَ مُـؤَمَّـلٍ وَقَـدْ شَـعَـبَـتْـهُ عَـنْ لِـقَـايَ شَـعُـوبُ
كَـدَاعِـي هَـدِيـلٍ لَا يَـزَالُ مُـكَـلَّـفـاً وَلَاتَ لَـهُ حَـتَّـى ٱلْـمَـمَـاتِ مُـجِـيـبُ
سَـقَـىٰ كُـلَّ ذِكْـرٍ جَـاءَنَـا مِـنْ مُـؤَمَّـلٍ عَلَى ٱلنَّأْيِ رَجَّافُ ٱلسَّحَابِ سَكُوبُ

إن كنتَ معتبراً مِنْ كلامٍ صحَّةَ معنىً ، وتخيُّرَ لفظٍ ، وجودةَ تركيبٍ ، ومتانةَ سياقٍ ، وحسنَ استعارةٍ ، ولطفَ إشارةٍ ، وغرابةَ نادرةٍ . . فلتكنْ هٰذهِ القصيدةُ مثالَكَ الذي تحتذيهِ ، فما كانَ مِنْ شعرٍ مدانياً لها . . فذٰلك ما تحكمُ عليهِ بنهايةِ الجودةِ ، وإلَّا . . فهوَ نازلٌ بقَدْرِ بعدِهِ عن مرتبتِها مِنَ البلاغةِ .

❋ ❋ ❋

[قصيدةٌ مِنْ مختارِ شعرِ عُميرِ بنِ شُييمٍ القطاميّ]

ومِنَ الجيّدِ : شعرُ عُمَيْرِ بنِ شُيَيْمٍ التغلبيّ المشهورِ بالقطاميّ ، مِنْ شعراءِ بني أميةَ أيامَ عبدِ الملكِ وما بعدَهُ ، وأسلمَ عن نصرانيةِ تغلبَ ، وهوَ أوّلُ مَنْ لُقّبَ صريعَ الغواني بقولِهِ[١] : [من الطويل]

صَرِيعُ غَوَانٍ رَاقَهُنَّ وَرُقْنَهُ   لَدُنْ شَبَّ حَتَّىٰ شَابَ سُودُ ٱلذَّوَائِبِ

وبهٰذا اللقبِ لُقّبَ مسلمُ بنُ الوليدِ بعدُ كما سيأتي[٢] .

رُوِيَ عنِ الإمامِ عامرٍ الشعبيّ أنَّهُ قالَ : قالَ عبدُ الملكِ وأنا حاضرٌ للأخطلِ : يا أبا مالكٍ ؛ أتحبُّ أنَّ لكَ بشعرِكَ شعرَ شاعرٍ مِنَ العربِ ؟ قالَ : اللهمَّ لا ، إلّا شاعراً منّا مغدفَ القناعِ ، خاملَ الذِّكرِ ، حديثَ السِّنِّ ، إن يكنْ في أحدٍ خيرٌ . . فسيكونُ فيهِ ، ولوددتُ أنّي سبقتُهُ إلىٰ قولِهِ[٣] : [من البسيط]

يَقْتُلْنَنَا بِحَدِيثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ   مَنْ يَتَّقِينَا وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ   مَوَاقِعَ ٱلْمَاءِ مِنْ ذِي ٱلْغُلَّةِ ٱلصَّادِي

ومِنْ مختارِ شعرِهِ هٰذهِ القصيدةُ[٤] : [من البسيط]

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ   وَإِنْ بَلِيتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ ٱلطِّيَلُ

أَنَّى ٱهْتَدَيْتَ لِتَسْلِيمٍ عَلَىٰ دِمَنٍ   بِٱلْغَمْرِ غَيَّرَهُنَّ ٱلْأَعْصُرُ ٱلْأُوَلُ

صَافَتْ تَمَعَّجُ أَعْنَاقُ ٱلسُّيُولِ بِهَا   مِنْ بَاكِرٍ سَبِطٍ أَوْ رَائِحٍ يَبِلُ

---

(١) انظر « ديوان القطامي » (ص ٢٨٠) .

(٢) انظر (١٨٣/٤) .

(٣) انظر « ديوان القطامي » (ص ٢٠٥) .

(٤) انظر « ديوان القطامي » (ص ١٩١ ـ ٢٠١) .

فِيهِنَّ كَٱلْخِلَلِ ٱلْمُوشِيِّ ظَاهِرُهَا   أَوْ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي قَدْ مَسَّهُ ٱلْبَلَلُ
كَانَتْ مَنَازِلَ مِنَّا قَدْ نَحُلُّ بِهَا   حَتَّىٰ تَغَيَّرَ دَهْرٌ خَائِنٌ خَبِلُ
لَيْسَ ٱلْجَدِيدُ بِهِ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ   إِلَّا قَلِيلاً وَلَا ذُو خُلَّةٍ يَصِلُ
وَٱلْعَيْشُ لَا عَيْشَ إِلَّا مَا تَقَرُّ بِهِ   عَيْنٌ وَلَا حَالَةٌ إِلَّا سَتَنْتَقِلُ
وَٱلنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خَيْراً قَائِلُونَ لَهُ   مَا يَشْتَهِي وَلِأُمِّ ٱلْمُخْطِئِ ٱلْهَبَلُ
قَدْ يُدْرِكُ ٱلْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ   وَقَدْ يَكُونُ مَعَ ٱلْمُسْتَعْجِلِ ٱلزَّلَلُ

سمعَ أعرابيٌّ منشداً يُنشِدُ هٰذا البيتَ ، فقالَ : قد ثَبَّطَ هٰذا الناسَ ، هلَّا قالَ علىٰ أثرِهِ :

وَرُبَّمَا ضَرَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ بُطْؤُهُمُ   وَكَانَ خَيْراً لَهُمْ لَوْ أَنَّهُمْ عَجِلُوا

وأصلُ هٰذا المعنىٰ : في الحديثِ الشريفِ : « مَنْ تَأَنَّىٰ . . أَصَابَ أَوْ كَادَ ، وَمَنِ ٱسْتَعْجَلَ . . أَخْطَأَ أَوْ كَادَ »(١) ، رجعَ :

أَضْحَتْ عُلَيَّةُ يَهْتَاجُ ٱلْفُؤَادُ لَهَا   وَلِلرَّوَاسِمِ فِيمَا دُونَهَا عَمَلُ
بِكُلِّ مُخْتَرِقٍ يَجْرِي ٱلسَّرَابُ بِهِ   يُمْسِي وَرَاكِبُهُ مِنْ خَوْفِهِ وَجِلُ
يُنْضِي ٱلْهِجَانَ ٱلَّتِي كَانَتْ تَكُونُ بِهَا   عُرْضِيَّةٌ وَهِبَابٌ حِينَ تُرْتَحَلُ
حَتَّىٰ تَرَى ٱلْحُرَّةَ ٱلْوَجْنَاءَ لَاغِبَةً   [وَٱلْأَرْحَبِيَّ] ٱلَّذِي فِي خَطْوِهِ خَطَلُ
خُوصاً تُدِيرُ عُيُوناً مَاؤُهَا سَرَبٌ   عَلَى ٱلْخُدُودِ إِذَا مَا ٱغْرَوْرَقَ ٱلْمُقَلُ
لَوَاغِبَ ٱلطَّرْفِ مَنْقُوباً مَحَاجِرُهَا   كَأَنَّهَا قُلُبٌ عَادِيَّةٌ مُكُلُ

قليبٌ مكولٌ : غاضَ ماؤُهُ .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٣١٠/١٧) عن سيدنا عقبة بن عامر رضي الله عنه .

تَرْمِي ٱلْفِجَاجَ لَهَا ٱلرُّكْبَانُ مُعْتَرِضاً		أَعْنَاقُ بُزَّلِهَا مُرْخىً لَهَا ٱلْجُدُلُ
يَمْشِينَ رَهْواً فَلَا ٱلْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ		وَلَا ٱلصُّدُورُ عَلَى ٱلْأَعْجَازِ تَتَّكِلُ
فَهُنَّ مُعْتَرِضَاتٌ وَٱلْحَصَىٰ رَمِضٌ		وَٱلرِّيحُ سَاكِنَةٌ وَٱلظِّلُّ مُعْتَدِلُ
يَتْبَعْنَ سَامِيَةَ ٱلْعَيْنَيْنِ تَحْسَبُهَا		مَجْنُونَةً أَوْ تَرَىٰ مَا لَا تَرَى ٱلْإِبِلُ
لَمَّا وَرَدْنَ نَبِيّاً وَٱسْتَتَبَّ بِنَا		مُسْحَنْفِرٌ كَخُطُوطِ ٱلسَّيْحِ مُنْسَحِلُ
عَلَىٰ مَكَانِ غِشَاشٍ لَا يُنِيخُ بِهِ		إِلَّا مُغَيِّرُنَا وَٱلْمُسْتَقِي ٱلْعَجِلُ

غِشاشٌ ـ بكسرِ أوَّلِهِ ـ : عجلةٌ ؛ أي : علىٰ مكانٍ مَخوفٍ يُطلَبُ النجاةُ منهُ ، وكانوا في السفرِ يُغيّرونَ أحمالَ الإبلِ يرونَ في ذٰلكَ بعضَ راحةٍ لها .

ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ بِهَا ٱلْحَادِي وَجَنَّبَهَا		بَطْنَ ٱلَّتِي نَبْتُهَا ٱلْحَوْزَانُ وَٱلنَّفَلُ
حَتَّىٰ وَرَدْنَ رَكِيَّاتِ ٱلْغُوَيْرِ وَقَدْ		كَادَ ٱلْمُلَاءُ مِنَ ٱلْكَتَّانِ يَشْتَعِلُ
وَقَدْ تَعَرَّجْتُ لَمَّا أَرَّكَتْ أَرَكاً		ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَعَنْ أَيْمَانِنَا ٱلرِّجَلُ

أرَّكَتْ : أكلَتِ الأَراكَ ، بوزنِ سحابٍ ، وجمعُهُ : أُرُكٌ كسُحُبٍ ، والرِّجَلُ ـ بزنةِ عِنَبٍ ـ : جمعُ رِجْلةٍ بكسرٍ فسكونٍ ؛ مسيلُ الماءِ مِنَ الحرَّةِ إلى السهلِ .

عَلَىٰ مُنَادٍ دَعَانَا دَعْوَةً كَشَفَتْ		عَنَّا ٱلنُّعَاسَ وَفِي أَعْنَاقِنَا مَيَلُ
سَمِعْتُهَا وَرِعَانُ ٱلطَّوْدِ مُعْرِضَةٌ		مِنْ دُونِهَا وَكَثِيبُ ٱلْغَيْبَةِ ٱلسَّهِلُ

أرادَ بالمُنادى : الشَّوقَ ، خيلَهُ داعياً يسمعُهُ ، والغَيْبةُ ـ بفتحٍ فسكونٍ ـ : واحدُ الغُيَّبِ ؛ للمطمئنِّ مِنَ الأرضِ .

فَقُلْتُ لِلرَّكْبِ لَمَّا أَنْ عَلَا بِهِمُ		مِنْ عَنْ يَمِينِ ٱلْمُحَيَّا نَظْرَةٌ قَبَلُ
أَلَمْحَةً مِنْ سَنَا بَرْقٍ رَأَىٰ بَصَرِي		أَمْ وَجْهُ عَالِيَةَ ٱخْتَالَتْ بِهِ ٱلْكِلَلُ
تُهْدِي لَنَا كُلَّ مَا كَانَتْ عُلَاوَتَنَا		رِيحَ ٱلْخُزَامَىٰ جَرَىٰ فِيهَا ٱلنَّدَى ٱلْخَضِلُ

عُلاوتَنا ؛ أي : في علاوتِنا ؛ وهيَ المكانُ المرتفعُ .

وَقَدْ أَبِيتُ إِذَا مَا شِئْتُ بَاتَ مَعِي ... عَلَى ٱلْفِرَاشِ ٱلضَّجِيعُ ٱلْأَغْيَدُ ٱلرَّتِلُ
وَقَدْ تُبَاكِرُنِي ٱلصَّهْبَاءَ تَرْفَعُهَا ... إِلَيَّ لَيِّنَةٌ أَطْرَافُهَا ثَمِلُ
أَقُولُ لِلْحَرْفِ لَمَّا أَنْ شَكَتْ أُصُلاً ... مَتَّ ٱلسِّفَارِ فَأَفْنَىٰ نَيَّهَا ٱلرَّحَلُ

المتُّ : المد ، والنيُّ : الشحمُ .

إِنْ تَرْجِعِي مِنْ أَبِي عُثْمَانَ مُنْجِحَةً ... فَقَدْ يَهُونُ عَلَى ٱلْمُسْتَنْجِحِ ٱلْعَمَلُ
أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ لَا يَحْزُنْكَ شَأْنُهُمُ ... إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ ٱلْوَاحِدِ ٱلْأَجَلُ
أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَنْ تَلْقَاهُمُ أَبَداً ... إِلَّا وَهُمْ خَيْرُ مَنْ يَحْفَىٰ وَيَنْتَعِلُ
أَلَا وَهُمْ جَبَلُ ٱللهِ ٱلَّذِي قَصُرَتْ ... عَنْهُ ٱلْجِبَالُ فَمَا سَاوَىٰ بِهِ جَبَلُ
قَوْمٌ هُمُ ثَبَّتُوا ٱلْإِسْلَامَ وَٱمْتَنَعُوا ... قَوْمُ ٱلرَّسُولِ ٱلَّذِي مَا بَعْدَهُ رُسُلُ
مَنْ صَالَحُوهُ رَأَىٰ فِي عَيْشِهِ سَعَةً ... وَلَا تُرَىٰ مَنْ أَرَادُوا ضُرَّهُ يَئِلُ
كَمْ نَالَنِي مِنْهُمُ فَضْلٌ عَلَىٰ عَدَمٍ ... إِذْ لَا أَكَادُ مِنَ ٱلْإِقْتَارِ أَحْتَمِلُ
وَكَمْ مِنَ ٱلدَّهْرِ مَا قَدْ ثَبَّتُوا قَدَمِي ... إِذْ لَا أَزَالُ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ أَنْتَضِلُ
فَلَا هُمُ صَالَحُوا مَنْ يَبْتَغِي عَنَتِي ... وَلَا هُمُ كَدَّرُوا ٱلْخَيْرَ ٱلَّذِي فَعَلُوا
هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ ٱلْمُلُوكِ لَهُمْ ... وَٱلْآخِذُونَ بِهِ وَٱلسَّاسَةُ ٱلْأُوَلُ

هٰذهِ القصيدةُ والتي قبلَها مِنْ تسعٍ وأربعينَ قصيدةً كلُّ سبعٍ منها مُسمَّاةٌ باسمٍ انتخبَتْها العربُ وسمَّتْها بهِ ، وجميعُها في كتابِ « الجمهرةِ » ، وهوَ موجودٌ بدارِ الكتبِ الكبيرةِ المصونةِ ، فمَنْ أرادَها . . فليطلبْها هنالِكَ .

❋ ❋ ❋

[مِنْ شعرِ جريرٍ والفرزدقِ]

ومِنَ الجيِّدِ أيضاً : شعرُ جريرٍ ، وإليهِ وإلى الفرزدقِ والأخطلِ انتهتِ الشهرةُ في أيامِ بني أُميَّةَ ، حتىٰ كثرَ اختلافُ العلماءِ في المفاضلةِ بينَهُم واحتجاجُهُم لذٰلكَ .

فمِنْ شعرِ جريرٍ : قولُهُ ـ وهوَ نهايةٌ في الرقَّةِ والسَّلاسةِ ، وكانَ الفرزدقُ يقولُ إذا سمعَ لجريرٍ مثلَ هٰذا : ما أحوجَهُ إلىٰ خشونةِ شعري علىٰ عفَّتِهِ ، وأحوجَني إلىٰ رقَّةِ شعرِهِ علىٰ فُجوري !! فإنَّ المغازلةَ لم تكنْ مِنْ شأنِ جريرٍ كما كانَ الفرزدقُ ـ هٰذهِ القصيدةَ[1] : [من الكامل]

مَا لِلْمَنَازِلِ لَا يُجِبْنَ حَزِينَا ... أَصَمِمْنَ أَمْ قَدُمَ ٱلْمَدَىٰ فَبَلِينَا
قَفْراً تَقَادَمَ عَهْدُهُنَّ عَلَى ٱلْبِلَىٰ ... فَلَبِثْنَ فِي عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا
وَتَرَى [ٱلْعَوَاذِلَ] يَبْتَدِرْنَ مَلَامَتِي ... وَإِذَا أَرَدْنَ سِوَىٰ هَوَايَ عَصِينَا
بَكَرَ [ٱلْعَوَاذِلُ] بِٱلْمَلَامَةِ بَعْدَمَا ... قَطَعَ ٱلْخَلِيطُ بِسَاجِرٍ لِيَبِينَا
أَمْسَيْنَ إِذْ بَانَ ٱلشَّبَابُ صَوَادِفاً ... لَيْتَ ٱللَّيَالِي قَبْلَ ذَاكَ فَنِينَا
إِنَّ ٱلَّذِينَ غَدَوْا بِلُبِّكَ غَادَرُوا ... وَشَلاً بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي ... مَاذَا لَقِيتَ مِنَ ٱلْهَوَىٰ وَلَقِينَا
وَلَقَدْ تَسَقَّطَنِي ٱلْوُشَاةُ فَصَادَفُوا ... حَصِراً بِسِرِّكَ يَا أُمَيْمُ ضَنِينَا
كُلِّفْتُ حَاجَةَ مَا أُكَلِّفُ ضُمَّراً ... مِثْلَ ٱلْقِسِيِّ مِنَ ٱلسَّرَاءِ بُرِينَا
رَاحُوا ٱلْعَشِيَّةَ رَوْحَةً مَنْكُورَةً ... إِنْ حِزْنَ حِزْنَا أَوْ هُدِينَ هُدِينَا

---

(١) انظر « ديوان جرير » (١/٣٨٦ ـ ٣٨٨) .

وَرَمَوْا بِهِنَّ سَوَاهِماً عُرْضَ ٱلْفَلَا ... إِنْ مِتْنَ مِتْنَا أَوْ حَيِينَ حَيِينَا
عِيسٌ تُكَلَّفُ كُلَّ أَغْبَرَ نَازِحٍ ... تَطْوِي تَنَائِفَ بِٱلْمَلَا وَحُزُونَا
حَتَّىٰ بَلِينَ مِنَ ٱلْوَجِيفِ وَرَدَّهَا ... بُعْدُ ٱلْمَفَاوِزِ كَٱلْقِسِيِّ حَنِينَا
وَلَدَ ٱلْأُخَيْطِلَ نِسْوَةٌ مِنْ تَغْلِبٍ ... هُنَّ ٱلْخَبَائِثُ بِٱلْخَبِيثِ غُذِينَا
إِنَّ ٱلَّذِي حَرَمَ ٱلْمَكَارِمَ تَغْلِباً ... جَعَلَ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْخِلَافَةَ فِينَا
هَلْ تَمْلِكُونَ مِنَ ٱلْمَشَاعِرِ مَشْعَراً ... أَوْ تَشْهَدُونَ مَعَ ٱلْأَذَانِ أَذِينَا
مُضَرٌ أَبِي [وَأَبُو](١) ٱلْمُلُوكِ فَهَلْ لَكُمْ ... يَا خُزْرَ تَغْلِبَ مِنْ أَبٍ كَأَبِينَا
هَٰذَا ٱبْنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفَةً ... لَوْ شِئْتُ سَاقَكُمُ إِلَيَّ قَطِينَا

ومِنْ شعرِ الفرزدقِ ـ وقدْ قالَتِ العلماءُ : إنَّ الفرزدقَ ينحتُ مِنْ صخرٍ ، وجريراً يغترفُ مِنْ بحرٍ (٢) ـ : [من الطويل]

سَلَوْتُ عَنِ ٱلدَّهْرِ ٱلَّذِي كَانَ مُعْجِباً ... وَمِثْلُ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ مِنْ دَهْرِنَا يُسْلِي
وَأَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَالَةَ مَيِّتٌ ... فَمُتَّبِعٌ آثَارَ مَنْ قَدْ خَلَا قَبْلِي
وَأَنِّي ٱلَّذِي لَا بُدَّ أَنْ سَيُصِيبُهُ ... حِمَامُ ٱلْمَنَايَا مِنْ وَفَاةٍ وَمِنْ قَتْلِ
فَمَا أَنَا بِٱلْبَاقِي وَلَا ٱلدَّهْرُ فَٱعْلَمِ ... بِرَاضٍ بِمَا قَدْ كَانَ أَذْهَبَ مِنْ عَقْلِي
وَلَا مُنْصِفِي يَوْماً فَأُدْرِكَ عِنْدَهُ ... مَظَالِمَهُ عِنْدِي وَلَا تَارِكاً أَكْلِي
وَأَيْنَ أَخِلَّائِي ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ ... وَكُلُّهُمُ قَدْ كَانَ فِي غِبْطَةٍ مِثْلِي

---

(١) في الأصل : (وأب) .
(٢) انظر « ديوان الفرزدق » (٢/٢٩٩ ـ ٣٠٥) .

دَعَتْهُمْ مَقَادِيرٌ فَأَصْبَحْتُ بَعْدَهُمْ ... بَقِيَّةَ دَهْرٍ لَيْسَ يُسْبَقُ بِٱلذَّحْلِ
بَلَوْتُ مِنَ ٱلدَّهْرِ ٱلَّذِي فِيهِ وَاعِظٌ ... وَجَازَيْتُ بِٱلنُّعْمَىٰ وَطَالَبْتُ بِٱلتَّبْلِ
وَجُرِّبْتُ عِنْدَ ٱلْمُضْلِعَاتِ فَلَمْ أَكُنْ ... صَرِيعَ زَمَانٍ لَا أُمِرُّ وَلَا أُحْلِي
وَبَيْدَاءَ تَغْتَالُ ٱلْمَطِيَّ قَطَعْتُهَا ... بِرَكَّابِ هَوْلٍ لَيْسَ بِٱلْعَاجِزِ ٱلْوَغْلِ
إِذَا ٱلْأَرْضُ سَدَّتْهَا ٱلْهَوَاجِرُ وَٱرْتَدَتْ ... مُلَاءَ سَمُومٍ لَمْ يُسَدَّيْنَ بِٱلْغَزْلِ
وَكَانَ ٱلَّذِي يَبْدُو لَنَا مِنْ سَرَابِهَا ... فُضُولَ سُيُولِ ٱلْبَحْرِ مِنْ مَائِهَا ٱلضَّحْلِ
[وَيَدعُو] [1] ٱلْقَطَا فِيهَا ٱلْقَطَا فَيُجِيبُهُ ... تَوَائِمُ أَطْفَالٍ مِنَ ٱلسَّبْسَبِ ٱلْمَحْلِ
دَوَارِجُ أَخْلَفْنَ ٱلشَّكِيرَ كَأَنَّمَا ... جَرَىٰ فِي مَآقِيهَا مَرَاوِدُ مِنْ كُحْلِ
يُسَقِّينَ بِٱلْمَوْمَاةِ زُغْباً نَوَاهِضاً ... بَقَايَا نِطَافٍ فِي حَوَاصِلِهَا تَغْلِي
تَمُجُّ أَدَاوَىٰ فِي أَدَاوَىٰ بِهَا ٱسْتَقَتْ ... كَمَا ٱسْتَفْرَغَ ٱلسَّاقِي مِنَ ٱلسَّجْلِ بِٱلسَّجْلِ
وَقَدْ أَقْطَعُ ٱلْخَرْقَ ٱلْبَعِيدَ نِيَاطُهُ ... بِمَائِرَةِ ٱلضَّبْعَيْنِ وَجْنَاءَ [كَٱلْهِقْلِ] [2]
تَزَيَّدُ فِي فَضْلِ ٱلزِّمَامِ كَأَنَّهَا ... تُحَاذِرُ وَقْعاً مِنْ زَنَابِيرَ أَوْ نَحْلِ
كَأَنَّ يَدَيْهَا فِي مَرَاتِبِ سُلَّمٍ ... إِذَا غَاوَلَتْ أَوْبَ ٱلذِّرَاعَيْنِ بِٱلرِّجْلِ
تَأَوَّهُ مِنْ طُولِ ٱلْكَلَالِ وَتَشْتَكِي ... تَأَوُّهَ مَفْجُوعٍ بِثُكْلٍ عَلَىٰ ثُكْلِ
إِلَيْكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنَخْتُهَا ... إِلَىٰ خَيْرِ مَنْ حُلَّتْ لَهُ عُقَدُ ٱلرَّحْلِ
إِلَىٰ خَيْرِهِمْ فِيهِمْ قَدِيماً وَحَادِثاً ... مَعَ ٱلْحِلْمِ وَٱلْإِيمَانِ وَٱلنَّائِلِ ٱلْجَزْلِ
وَرِثْتَ أَبَاكَ ٱلْمُلْكَ تَجْرِي بِسَمْتِهِ ... كَذَٰلِكَ خُوطُ ٱلنَّبْعِ يَنْبُتُ فِي ٱلْأَصْلِ

---

(١) في الأصل : (ويدع) .
(٢) في الأصل : (كالقهل) ، والهقل : الفتي من النعام .

كَـدَاوُودَ إِذْ وَلَّـىٰ سُـلَـيْـمَـانَ بَـعْـدَهُ خِـلَافَـتَـهُ نِـحْـلاً مِـنَ ٱللهِ ذُو ٱلْـفَـضْـلِ
يَسُوسُ مِنَ ٱلْحِلْمِ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِحاً بِأَجْبَالِ سَلْمَىٰ مِنْ وَفَاءٍ وَمِنْ عَدْلِ
هُوَ ٱلْقَمَرُ ٱلْبَدْرُ ٱلَّذِي يُهْتَدَىٰ بِهِ [إِذَا](١) مَا ذَوُو ٱلْأَضْغَانِ جَارُوا عَنِ ٱلسُّبْلِ
أَغَـرَّ تَـرَىٰ نُـوراً لِـبَـهْـجَـةِ مُـلْـكِـهِ عَـفُـوّاً طَـلُـوبـاً فِـي أَنَـاةٍ وَفِـي رِسْـلِ
يَفِيضُ ٱلسِّجَالَ ٱلنَّاقِعَاتِ مِنَ ٱلنَّدَىٰ كَمَا فَاضَ ذُو مَوْجٍ يُقَمِّصُ بِٱلْجَفْلِ
وَكَمْ مِنْ أُنَاسٍ قَدْ أَصَبْتَ بِنِعْمَةٍ وَمِنْ مُثْقَلٍ خَفَّفْتَ عَنْهُ مِنَ ٱلثِّقْلِ
وَمِـنْ أَمْرِ حَزْمٍ قَـدْ وَلِـيتَ نَـجِيَّهُ بِرَأْيٍ جَمِيعٍ مُسْتَمِرٍّ قُوَى ٱلْحَبْلِ
قَضَيْتَ قَضَاءً فِي ٱلْخِلَافَةِ ثَابِتاً مُبِيناً فَقَدْ أَسْمَعْتَ مَنْ كَانَ ذَا عَقْلِ
فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَرْجُو ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ وَقَدْ قُمْتَ فِيهِمْ بِٱلْبَيَانِ وَبِٱلْفَصْلِ
وَبَيَّنْتَ أَنْ لَا حَقَّ فِيهَا لِخَاذِلٍ تَرَبَّصَ فِي شَكٍّ وَأَشْفَقَ مِنْ مَثْلِ
وَلَا لِٱمْرِئٍ آتَى ٱلْمُضِلِّينَ بَيْعَةً رَأَى ٱلْحَرْبَ أَبْدَتْ عَنْ نَوَاجِذِهَا ٱلْعُصْلِ
وَمَدَّ يَداً مِنْهُ لِبَيْعَةِ خَاسِرٍ وَمَا ٱلْمُكْسِدُ ٱلْمَغْبُونُ كَٱلرَّابِحِ ٱلْمُغْلِي
وَعَانَدَ لَمَّا أَنْ رَأَى ٱلْحَرْبَ شَمَّرَتْ عِنَادَ ٱلْخَصِيِّ ٱلْجَوْنِ صَدَّ عَنِ ٱلْفَحْلِ
فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ بَدَا ٱلْغِشُّ مِنْهُمُ وَهُمْ كُشُفٌ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ [وَٱلْأَزْلِ]
يُدَاوُونَ مِنْ قَرْحٍ أَدَانِيهِ قَدْ عَتَا عَلَى ٱلدَّاءِ لَمْ تُدْرَكْ أَقَاصِيهِ بِٱلْفُتْلِ
وَقَدْ كَانَ فِيمَا قَدْ تَلَوْا مِنْ حَدِيثِهِمْ شِفَاءٌ وَكَانَ ٱلْحِلْمُ يَشْفِي مِنَ ٱلْجَهْلِ
وَإِلَّا فَإِنَّ ٱلْمَشْرِفِيَّةَ حَدُّهَا دَوَاءٌ لَهُمْ غَيْرَ ٱلدَّبِيبِ وَلَا ٱلْخَتْلِ
أَوِ ٱلنَّفْيُ حَتَّىٰ عَرْضُ أَرْضٍ وَطُولُهَا عَلَيْهِمْ كَبَيْتِ ٱلْقَيْنِ أُغْلِقَ بِٱلْقُفْلِ

---

(١) في الأصل : (إذ) .

وَقَدْ [خَذَلُوا][1] مَرْوَانَ فِي ٱلْحَرْبِ وَٱبْنَهُ ... أَبَاكَ وَأَدْلَوْا فِيهِمَا مَعَ مَنْ يُدْلِي
وَكَانَا إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ عَظِيمَةٍ ... حَمُولَيْنِ لِلْأَثْقَالِ فِي ٱلْأَمْرِ ذِي ٱلْبَزْلِ
فَصَلَّىٰ عَلَىٰ قَبْرَيْهِمَا ٱللهُ إِنَّمَا ... خَلَائِفُهُ مِنْهُ عَلَىٰ سُنَّةِ ٱلرُّسْلِ
فَفُزْتَ بِمَا فَازَا بِهِ مِنْ خِلَافَةٍ ... وَزِدْتَ عَلَىٰ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ بِٱلْخَصْلِ[2]
بِعَافِيَةٍ كَانَتْ مِنَ ٱللهِ جَلَّلَتْ ... مَشَارِقَهَا أَمْناً إِلَىٰ مَغْرِبِ ٱلْأُمْلِ

الأملُ : جمعُ أميلٍ ؛ وهو الحبلُ مِنَ الرملِ ، يريدُ إلىٰ منقطعِ الترابِ .

وَكُنْتَ ٱلْمُصَفَّىٰ مِنْ قُرَيْشٍ وَلَمْ يَكُنْ ... لِوَطْئِكَ فِيهِمْ زَيْغُ كَعْبٍ وَلَا نَعْلِ
أَشَارُوا بِهَا فِي ٱلْأَمْرِ غَيْرَكَ مِنْهُمُ ... وَوَلَّاكَهَا ذُو ٱلْعَرْشِ نَحْلاً مِنَ ٱلنُّحْلِ
حَبَاكَ بِهَا ٱللهُ ٱلَّذِي هُوَ سَاقَهَا ... إِلَيْكَ فَقَدْ أَبْلَاكَ أَفْضَلَ مَا يُبْلِي
[وَسِيقَتْ][3] إِلَىٰ مَنْ كَانَ فِي ٱلْحَرْبِ أَهْلَهَا ... إِلَىٰ وَاضِحٍ بَادٍ مَعَالِمُهُ سَهْلِ
وَمَا أَصْلَتُوا فِيهَا بِسَيْفٍ عَلِمْتُهُ ... وَلَا بِسِلَاحٍ مِنْ رِمَاحٍ وَلَا نَبْلِ
فَنُصْحِي لَكُمْ قَادَ ٱلْهَوَىٰ مِنْ بِلَادِهِ ... إِلَىٰ مَنْبِتِ ٱلزَّيْتُونِ مِنْ مَنْبِتِ ٱلنَّخْلِ

❋ ❋ ❋

---

(١) في الأصل : (خزلوا) .
(٢) في « ديوان الفرزدق » (٢/٣٠٤) : (بالحصل) .
(٣) في الأصل : (وسبقت) .

الطَّبقةُ الثانيةُ

مشاهيرُها : مسلمُ بنُ الوليدِ الأنصاريُّ ، والحسنُ بنُ هانئٍ الحكميُّ المشهورُ بأبي نُواسٍ ، **وبعدَهُما** : أبو تمامٍ حبيبُ بنُ أوسٍ الطائيُّ ، وأبو عبادةَ الوليدُ البحتريُّ ، وأحمدُ بنُ الحسينِ المُتنبّي ، **وبعدَهُم** : أبو نصرٍ عبدُ العزيزِ بنُ نباتةَ السَّعديُّ ، والشريفُ محمدٌ الرضيُّ ، وتلميذُهُ مِهيارٌ الديلميُّ ، ويُذكَرُ معَ هٰؤلاءِ عليُّ ابنُ الرُّوميّ ، ولهُم دواوينُ كبارٌ .

كانَ الحسنُ بنُ هانئٍ ومسلمُ بنُ الوليدِ الأنصاريُّ قرينَيْ عصرٍ واحدٍ ، واختلفَ الناسُ في المفاضلةِ بينَهُما ، وكانَ بنو برمكَ يبالغونَ في تفضيلِ مسلمٍ ، ولكلٍّ مزيةٌ ، وكلاهُما شاعرٌ فريدٌ ، غيرَ أنَّ أبا نُواسٍ بقيَ الكثيرُ مِنْ شعرِهِ ؛ لاعتناءِ الرواةِ بهِ ، وكثرةِ تصرفاتِهِ فيهِ ، وانتهائِهِ في سائرِ فنونِ المعاني إلىٰ غايةٍ لم يدركْها سواهُ ، ومِنْ هٰذهِ الجهةِ كانَ تفضيلُهُ علىٰ مسلمٍ ؛ فإنَّ مسلماً لم يشاركْ أبا نُواسٍ في كثيرٍ مِنْ تلكَ الفنونِ ؛ كالمُجونِ ، والغزلِ ، والخمرياتِ .

ولمسلمٍ صلابةُ الشعرِ ، وتجويدُهُ ، وجمعُهُ فيهِ بينَ البداوةِ والحضارةِ .

يُحكىٰ : أنَّ رجلاً دخلَ علىٰ أبي تمامٍ وبينَ يَديهِ كتابانِ يَقرأُ في هٰذا مَرَّةً وفي هٰذا مَرَّةً ، فسألَهُ عنهُما ، فقالَ : هما ديوانا مسلمٍ والحسنِ ، وهُما اللّاتُ والعُزىٰ ، وأنا أعبدُهُما[1] .

غيرَ أنَّ شعرَ مسلمٍ لم يبقَ منهُ إلَّا ما علقتْهُ الرواةُ ؛ فإنَّهُ تَنسَّكَ آخِرَ عمرِهِ ، وهجرَ الشعرَ ، ففُرِّقَ مجموعُ شعرِهِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) انظر « الأغاني » (٢١/٧٢٩٠) .

[مِنْ شعرِ أبي نواسٍ في مدحِ هارونَ الرشيدِ]

فمِنْ شعرِ أبي نُواسٍ ـ وهوَ أوَّلُ إمامٍ يُقتدىٰ بهِ في الأدبِ ورعايةِ مَقاماتِ الخطابِ ، خلا أنَّ لهُ أشياءَ إمَّا أن تكونَ مناسبةً لذٰلكَ الوقتِ ، وإمَّا أن يكونَ سها بها ، ينبغي العدولُ عنها حَسَبَ ما تقتضيهِ التعريفاتُ الأدبيةُ ـ قولُهُ يمدحُ الرشيدَ[1] : [من الكامل]

حَـيِّ ٱلـدِّيَـارَ إِذِ ٱلـزَّمَـانُ زَمَـانُ ... [وَإِذِ] ٱلـشِّـبَـاكُ لَـنَـا حِـرَىٰ وَمَـعَـانُ

الشِّباكُ : ماءٌ بناحيةِ واقصةَ علىٰ طريقِ الكوفةِ فيما أخبرَني بهِ معافرٌ مِنْ أهلِ الكوفةِ ، وزعمَ المُبرِّدُ أنَّ الشِّباكَ علىٰ طريقِ البصرةِ بقربِ سفوانَ ، وإيَّاها أرادَ .

يَـا حَـبَّـذَا سَـفَـوَانُ مِـنْ مُـتَـرَبَّـعٍ ... وَلَـرُبَّـمَـا جَـمَـعَ ٱلْـهَـوَىٰ سَـفَـوَانُ

وَإِذَا مَـرَرْتَ عَـلَـى ٱلـدِّيَـارِ مُـسَـلِّـمـاً ... فَـلِـغَـيْـرِ دَارِ أُمَـيْـمَـةَ ٱلْـهِـجْـرَانُ

إِنَّـا نَـسَـبْـنَـا وَٱلْـمَـنَـاسِـبُ ظِـنَّـةٌ ... حَـتَّـىٰ رُمِـيـتِ بِـنَـا وَأَنْـتِ حَـصَـانُ

لَـمَّـا نَـزَعْـتُ عَـنِ ٱلْـغَـوَايَـةِ وَٱلـصِّـبَـا ... وَخَـدَتْ بِـيَ ٱلـشَّـدَنِـيَّـةُ ٱلْـمِـذْعَـانُ

ويُروىٰ : (لمَّا نزعتُ عنِ الغوايةِ وادعاً) أيْ : كافّاً ، والشدنيةُ : منسوبةٌ إلىٰ فحلٍ مِنْ فحولِ مهرةَ يقالُ لهُ : شدنٌ .

سَـبِـطٌ مَـشَـافِـرُهَـا دَقِـيـقٌ خَـطْـمُـهَـا ... وَكَـأَنَّ سَـائِـرَ خَـلْـقِـهَـا بُـنْـيَـانُ

وَٱحْـتَـازَهَـا لَـوْنٌ جَـرَىٰ فِـي جِـلْـدِهَـا ... يَـقَـقٌ [كَـقِـرْطَـاسِ] ٱلْـوَلِـيـدِ هِـجَـانُ

حكىٰ سليمانُ بنُ نيبخت قالَ : سألتُ أبا نُواسٍ عن معنىٰ هـٰذا البيتِ ،

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٣٥١ ـ ٣٥٤) .

فقالَ : صحيفةُ الطفلِ الذي لم يكتبْ عليهِ كاتباهُ فيها شيئاً ، فقرطاسُهُ أبيضُ .

وَإِلَىٰ أَبِي ٱلْأُمَنَاءِ هَارُونَ ٱلَّذِي يَحْيَا بِصَوْبِ سَمَائِهِ ٱلْحَيَوَانُ

الأمناءُ : الأمينُ والمأمونُ والمؤتمنُ ؛ **فالأمينُ** : محمدٌ ، **والمأمونُ** : عبدُ اللهِ ، **والمؤتمنُ** : القاسمُ ؛ بنو هارونَ الرشيدِ .

مَلِكٌ تَصَوَّرَ فِي ٱلْقُلُوبِ مِثَالُهُ فَكَأَنَّمَا لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

مَا تَنْطَوِي عَنْهُ ٱلْقُلُوبِ بِفَجْرَةٍ إِلَّا يُكَلِّمُهُ بِهَا ٱللَّحَظَانُ

فَيَظَلُّ لِٱسْتِثْبَاتِهِ وَكَأَنَّهُ عَيْنٌ عَلَىٰ مَا غَيَّبَ ٱلْكِتْمَانُ

هَارُونُ [أَلَّفَنَا] ٱئْتِلَافَ مَوَدَّةٍ مَاتَتْ لَهَا ٱلْأَحْقَادُ وَٱلْأَضْغَانُ

فِي كُلِّ عَامٍ غَزْوَةٌ وَوِفَادَةٌ تَنْبَتُّ بَيْنَ نَوَاهُمَا ٱلْأَقْرَانُ

كانَ الرشيدُ عندَما أوطنَ الرقَّةَ يَحُجُّ سنةً ويغزو أخرىٰ ، **والأقرانُ** : الحبالُ ؛ أي : تنقطعُ في بُعْدِ ما بينَ الحجِّ والغزوِ .

حَجٌّ وَغَزْوٌ مَاتَ بَيْنَهُمَا ٱلْكَرَىٰ بِٱلْيَعْمُلَاتِ شِعَارُهَا ٱلْوَخَدَانُ

يَرْمِي بِهِنَّ بِسَاطَ كُلِّ تَنُوفَةٍ فِي ٱللهِ رَحَّالٌ بِهَا ظَعَّانُ

حَتَّىٰ إِذَا وَاجَهْنَ أَقْبَالَ ٱلصَّفَا حَنَّ ٱلْحَطِيمُ وَأَطَّتِ ٱلْأَرْكَانُ

أقبالُ الصَّفا : ما قابلَكَ منهُ ؛ وهيَ جمعُ قَبَلٍ ، **والحطيمُ** : حيثُ يزدحمُ الناسُ بمكَّةَ فيَحطِمُ بعضُهُم بعضاً ، وقيلَ : حيثُ يَحطِمونَ بالأيمانِ ؛ لأنَّهُم كانوا يحلفونَ ثَمَّ .

لِأَغَرَّ يَنْفَرِجُ ٱلدُّجَىٰ عَنْ وَجْهِهِ عَدْلُ ٱلسِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيمَانُ

يَصِلُ ٱلْهَجِيرَ بِغُرَّةٍ مَهْدِيَّةٍ لَوْ شَاءَ صَانَ أَدِيمَهَا ٱلْأَكْنَانُ

لَـٰكِنَّهُ فِــي ٱللهِ مُــبْــتَــذِلٌ لَــهَــا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إِنَّ ٱلــتَّــقِــيَّ مُــسَــدَّدٌ وَمُــعَــانُ

أَلِـفَـتْ مُـنَـادَمَـةَ ٱلـدِّمَـاءِ سُـيُـوفُـهُ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ فَـلَـقَـلَّـمَـا تَـحْـتَـازُهَـا ٱلْأَجْـفَـانُ

يقولُ : ألِفَتْ سيوفُهُ الدماءَ ، فكأنَّها تنادمُها لا تفارقُها ؛ مِنْ كثرةِ ما تُقتلُ بها أعداؤُهُ .

ويُروىٰ : (ثَلَّتْ مقارعةُ الدماءِ سيوفَهُ) .

حَتَّى ٱلَّذِي فِي ٱلرَّحْمِ لَمْ يَكُ صُورَةً ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لِـفُـؤَادِهِ مِــنْ خَــوْفِـهِ خَـفَـقَـانُ

قالَ المُبرِّدُ : ما لم يكنْ صورةً كيفَ يكونُ لهُ فؤادٌ ؟!

حَذَرَ ٱمْرِئٍ نُصِرَتْ يَدَاهُ عَلَى ٱلْعِدَا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ كَـٱلـدَّهْـرِ فِـيـهِ شَـرَاسَـةٌ وَلَـيَـانُ

مُتَبَرِّجُ ٱلْمَعْرُوفِ عِرِّيضُ ٱلنَّدَىٰ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ حَـصِـرٌ بِـلَا مِـنْـهُ فَـمٌ وَلِـسَـانُ

أي : يَتعرَّضُ نداهُ للناسِ .

لِلْجُودِ مِنْ كِلْتَا يَدَيْهِ مُحَرِّكٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ لَا يَسْتَطِيعُ بُلُوغَهُ ٱلْإِسْكَانُ

تحدثَ بنو نيبختَ عن سليمانَ بنِ أبي سهلٍ قالَ : لمَّا قَدِمَ أبو نُواسٍ . . أشرنا عليهِ أن يمدحَ الرشيدَ ، فمدحَهُ بهٰذهِ القصيدةِ ، فأمرَ لهُ بعشرينَ ألفَ درهمٍ ، وهيَ أكثرُ صلةٍ وُصِلَ بها أبو نُواسٍ .

المعانُ : المنزلُ المألوفُ .

وقولُهُ : (جمعَ الهوىٰ) مِنَ العباراتِ الفريدةِ التي بوجازتِها وكثرةِ معناها يُسمِّيها أهلُ البديعِ : **الإشارةَ** ؛ وذٰلكَ أنَّ معناها : ربَّما اشتملَ هٰذا المكانُ علىٰ ما تَهواهُ النفوسُ ؛ مِنْ سعةِ العيشِ ، ونضرةِ الناحيةِ ، ومساعدةِ الزمانِ بمودَّاتِ الحِسانِ ، وكثرةِ الحاضرِ ؛ حتىٰ يمكنَ استغفالُ الرُّقَباءِ ، ويَخِفَّ عذلُ العُذَّالِ ، وقد نطقَ بهٰذهِ الكلمةِ قبلَهُ الغنويُّ في

القصيدةِ السابقةِ ؛ حيثُ يقولُ[(١)] : [من الطويل]

جَمَعْنَ ٱلنَّوَىٰ حَتَّىٰ إِذَا ٱجْتَمَعَ ٱلْهَوَىٰ

وقولُهُ : (ألفَتْ منادمةَ الدماءِ) الإضافةُ فيهِ لأدنىٰ ملابسةٍ ؛ أيِ : المنادمةَ على الدماءِ ؛ فإنَّ الدماءَ بمنزلةِ المشروبِ ، والنديمُ : هوَ المؤانسُ على الشرابِ ، ومَنْ غلبَ عليهِ شيءٌ . . جرىٰ علىٰ لسانِهِ ألفاظُهُ ، وأبو نُواسٍ كانَ مدمناً ، ولذٰلكَ وقعَتْ منهُ الاستعارةُ في هٰذا الموضعِ ، وليسَتْ هنالِكَ مِنَ الحسنِ .

وقولُهُ يمدحُهُ أيضاً[(٢)] : [من الطويل]

لَقَدْ طَالَ فِي رَسْمِ ٱلدِّيَارِ بُكَائِي ... وَقَدْ طَالَ تَرْدَادِي بِهَا وَعَنَائِي
كَأَنِّي مُرِيغٌ فِي ٱلدِّيَارِ طَرِيدَةً ... أَرَاهَا أَمَامِي مَرَّةً وَوَرَائِي
فَلَمَّا بَدَا لِي ٱلْيَأْسُ عَدَّيْتُ نَاقَتِي ... عَنِ ٱلدَّارِ وَٱسْتَوْلَىٰ عَلَيَّ عَزَائِي
إِلَىٰ بَيْتِ حَانٍ مَا تَهِرُّ كِلَابُهُ ... عَلَيَّ وَلَا يُنْكِرْنَ طُولَ ثَوَائِي

كانَ ينبغي أن يُقالَ : (حاني) ، ويُروىٰ : (إلىٰ بيتِ علجٍ) .

فَمَا رُمْتُهُ حَتَّىٰ أَتَىٰ دُونَ مَا حَوَتْ ... يَمِينِيَ حَتَّىٰ رِيطَتِي وَحِذَائِي
وَكَأْسٍ كَمِصْبَاحِ ٱلسَّمَاءِ شَرِبْتُهَا ... عَلَىٰ قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدٍ بِلِقَاءِ
أَتَتْ دُونَهَا ٱلْأَيَّامُ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا ... تَسَاقُطُ نُورٍ مِنْ فُتُوقِ سَمَاءِ
تَرَىٰ ظَهْرَهَا مِنْ ظَاهِرِ ٱلْكَأْسِ سَاطِعاً ... عَلَيْكَ وَلَوْ غَطَّيْتَهَا بِغِطَاءِ
تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ ٱلْأُمُورَ بِعِلْمِهِ ... وَفَضَّلَ هَارُوناً عَلَى ٱلْخُلَفَاءِ

---

(١) تقدم (٤/١٦١) .

(٢) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨) .

نَعِيشُ بِخَيْرٍ مَا ٱنْطَوَيْنَا عَلَى ٱلتُّقَىٰ وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو ٱلْأُمَنَاءِ

إِمَامٌ يَخَافُ ٱللهَ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ يُؤَمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ

أَشَمُّ طَوِيلُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا يُنَاطُ نِجَاداً سَيْفُهُ بِلِوَاءِ

أي : طويلٌ كأنَّ حمائلَ سيفِهِ علىٰ رمحٍ ، قالَ المُبرِّدُ : ما علمتُ قائلاً مدحَ خليفةً فنُسِبَ بمثلِ هٰذا النسيبِ ، علىٰ أنَّهُ قد جدَّ في المدحِ ، وبلغَ المرادَ .

ولقد كانَ الرشيدُ ممَّنْ يُتحامى الإقرارُ بحضرتِهِ أو حيثُ يبلغُهُ بذكرِ قُبلةٍ أو شربِ كأسٍ وما أشبهَ ذٰلكَ ؛ لجلالتِهِ ونبلِ ملكِهِ ، وبعدِهِ مِنِ احتمالِ السخفِ وما دنا منهُ ، إلَّا أنَّ أبا نُواسٍ كانَ ينسبُ في المدحِ الجليلِ بالخمرِ الذي هوَ شأنُهُ ، وفيهِ تصرُّفُهُ وجُلُّ مذهبِهِ .

وتَحدَّثَ عيسى بنُ عبدِ العزيزِ بنِ سهلٍ الحارثيُّ قالَ : كانَ الرشيدُ لا يسمعُ مِنَ الشعرِ ما فيهِ رفثٌ ولا هزلٌ ، وكانَ لا يُذكَرُ في تشبيبِ مدحِهِ قُبلةٌ ولا غمزةٌ ، فلمَّا قدمَ أبو نُواسٍ مِنْ مصرَ . . امتدحَهُ ، فأوصلَهُ البرامكةُ إليهِ ، فأنشدَهُ : (لقد طالَ في رسمِ الديارِ بكائي) ، فلمَّا بلغَ وصفَهُ للخمرِ . . تَغيَّرَ وجهُ الرشيدِ ، فلمَّا قالَ : (وكأسٍ كمصباحِ السماءِ شربتُها) . . أرادَ أن يأمرَ بهِ ، فلمَّا أنشدَهُ : (تباركَ مَنْ ساسَ الأمورَ بعلمِهِ) . . أخذَتْهُ هِزَّةٌ ، فأمرَ لهُ بعشرينَ ألفَ درهمٍ .

[مِنْ خمرياتِ أبي نواسٍ]

وقولُهُ مِنَ الخمرياتِ ـ وذٰلكَ فنُّهُ الذي تَميَّزَ بهِ ، وفتحَ للشعراءِ بابَهُ (١) ـ : [من السريع]

أَثْنِ عَلَى ٱلْخَمْرِ بِآلَائِهَا وَسَمِّهَا أَحْسَنَ أَسْمَائِهَا

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٥١) .

لَا تَـجْـعَـلِ ٱلْـمَـاءَ لَـهَـا قَـاهِـراً وَلَا تُـسَـلِّـطْـهَـا عَـلَـىٰ مَـائِـهَـا
كَـرْخِـيَّـةٌ قَـدْ عُـتِّـقَـتْ حِـقْـبَـةً حَـتَّـىٰ مَـضَـىٰ أَكْـثَـرُ أَجْـزَائِـهَـا
فَـلَـمْ يَـكَـدْ يُـدْرِكُ خَـمَّـارُهَـا مِـنْـهَـا سِـوَىٰ آخِـرِ حَـوْبَـائِـهَـا
دَارَتْ فَـأَحْـيَـتْ غَـيْـرَ مَـذْمُـومَـةٍ نُـفُـوسَ [حَـسْـرَاهَـا] وَأَنْـضَـائِـهَـا
وَٱلْـخَـمْـرُ قَـدْ يَـشْـرَبُـهَـا مَـعْـشَـرٌ لَـيْـسُـوا إِذَا عُـدُّوا بِـأَكْـفَـائِـهَـا

﴿

وقولُهُ[1] : [من البسيط]

سَاعٍ بِكَاسٍ إِلَىٰ نَاسٍ عَلَىٰ طَرَبٍ كِلَاهُمَا عَجَبٌ فِي مَنْظَرٍ عَجَبِ
قَامَتْ تُرِينِي وَأَمْرُ ٱللَّيْلِ مُجْتَمِعٌ صُبْحاً تَوَلَّدَ بَيْنَ ٱلْمَاءِ وَٱلْعِنَبِ
كَأَنَّ صُغْرَىٰ وَكُبْرَىٰ مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَىٰ أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ
كَأَنَّ تُرْكاً صُفُوفاً فِي جَوَانِبِهَا تَوَاتَرَ ٱلرَّمْيُ بِٱلنُّشَّابِ مِنْ كَثَبِ
مِنْ كَفِّ سَاقِيَةٍ نَاهِيكَ سَاقِيَةً فِي حُسْنِ قَدٍّ وَفِي ظَرْفٍ وَفِي أَدَبِ
كَانَتْ لِرَبِّ قِيَانٍ ذِي مُغَالَبَةٍ بِٱلْكَشْخِ مُحْتَرِفٍ بِٱلْكَشْخِ مُكْتَسِبِ
فَقَدْ رَأَتْ وَوَعَتْ عَنْهُنَّ وَٱخْتَلَفَتْ مَا بَيْنَهُنَّ وَمَنْ يَهْوَيْنَ بِٱلْكُتُبِ
حَتَّىٰ إِذَا مَا غَلَىٰ مَاءُ ٱلشَّبَابِ بِهَا وَأُفْعِمَتْ فِي تَمَامِ ٱلْجِسْمِ وَٱلْقَصَبِ
وَجُمِّشَتْ بِخَفِيِّ ٱللَّحْظِ فَٱنْجَمَشَتْ وَجَرَّتِ ٱلْوَعْدَ بَيْنَ ٱلصِّدْقِ وَٱلْكَذِبِ
تَمَّتْ فَلَمْ يَرَ إِنْسَانٌ لَهَا شَبَهاً فِيمَنْ بَرَا ٱللّٰهُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
تِلْكَ ٱلَّتِي لَوْ خَلَتْ مِنْ [عَيْنِ قَيِّمِهَا] لَمْ أَقْضِ مِنْهَا وَلَا مِنْ حُبِّهَا أَرَبِي

---
(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٦٢ ـ ٦٣) .

يقولُ : لو قدرتُ عليها . . لم أشبعْ منها أبداً ، ويُروىٰ : (قضيتُ منها ومِنْ وجدٍ بها أربي) .

تَحدَّثَ محمدُ بنُ المُظفَّرِ كاتبُ إسماعيلَ بنِ صبيحٍ ، عن إسماعيلَ قالَ : قالَ ليَ الرشيدُ : أبغني وصيفةً مليحةً فطنةً حركةً مقدودةً تسقيني ؛ فإنَّ الشرابَ يطيبُ مِنْ يدِ مثلِها ، فقلتُ : يا سيدي ؛ عليَّ الجهدُ ، فقالَ : اجعلْ قولَ هـٰذا العيَّارِ أمامَكَ واسترحْ ، قلتُ : قولَ مَنْ ؟ قالَ : قولَ مَنْ يقولُ : (مِنْ كفِّ ساقيةٍ ناهيكَ ساقيةً) إلىٰ قولِهِ : (بينَ الصِّدقِ والكذبِ) .

* * *

وقولُهُ [١] : [من الطويل]

أَلَا فَٱسْقِنِي خَمْراً وَقُلْ لِي هِيَ ٱلْخَمْرُ ... وَلَا تَسْقِنِي سِرّاً إِذَا أَمْكَنَ ٱلْجَهْرُ
وَلَا تَسْقِيَنْ مِنْهَا ٱلْمُرَائِينَ قَطْرَةً ... لِأَنَّ رِيَاءَ ٱلنَّاسِ عِنْدِي هُوَ ٱلْهَجْرُ
فَعَيْشُ ٱلْفَتَىٰ فِي سَكْرَةٍ بَعْدَ سَكْرَةٍ ... فَإِنْ طَالَ هَـٰذَا عِنْدَهُ قَصُرَ ٱلدَّهْرُ
وَمَا ٱلْغَبْنُ إِلَّا أَنْ تَرَانِيَ صَاحِياً ... وَمَا ٱلْغُنْمُ إِلَّا أَنْ يُتَعْتِعَنِي ٱلسُّكْرُ
فَبُحْ بِٱسْمِ مَنْ أَهْوَىٰ وَدَعْنِي مِنَ ٱلْكُنَىٰ ... فَلَا خَيْرَ فِي ٱللَّذَّاتِ مِنْ دُونِهَا سِتْرُ
وَلَا خَيْرَ فِي فَتْكٍ بِغَيْرِ مَجَانَةٍ ... وَلَا فِي مُجُونٍ لَيْسَ يَتْبَعُهُ كُفْرُ
بِكُلِّ أَخِي قَصْفٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ ... هِلَالٌ وَقَدْ حُفَّتْ بِهِ ٱلْأَنْجُمُ ٱلزُّهْرُ
وَخَمَّارَةٍ نَبَّهْتُهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ ... وَقَدْ غَابَتِ ٱلْجَوْزَاءُ وَٱنْحَدَرَ ٱلنَّسْرُ
فَقَالَتْ مَنِ ٱلطُّرَّاقُ قُلْنَا عِصَابَةٌ ... خِفَافُ ٱلْأَدَاوَىٰ يُبْتَغَىٰ لَهُمُ خَمْرُ
وَلَا بُدَّ أَنْ يَزْنُوا فَقَالَتْ أَوِ ٱلْفِدَا ... بِأَبْلَجَ كَٱلدِّينَارِ فِي طَرْفِهِ فَتْرُ

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٩٦ ـ ٩٧) ، وفيها ما فيها من التبجح بالمجون الفاضح .

فَقُلْنَا لَهَا هَاتِيهِ مَا إِنْ لِمِثْلِنَا فَدَيْنَاكِ بِٱلْآبَاءِ عَنْ مِثْلِهِ صَبْرُ
فَجَاءَتْ بِهِ كَٱلْغُصْنِ [يَهْتَزُّ] رِدْفُهُ تَخَالُ بِهِ سِحْراً وَلَيْسَ بِهِ سِحْرُ
لَهُ سِنَةٌ كَٱلْبَدْرِ لَيْلَةَ تِمِّهِ مُهَفْهَفُ أَعْلَى ٱلْكَشْحِ فِي ثَغْرِهِ أُشْرُ
فَقُمْنَا إِلَيْهِ وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ نُجَرِّرُ أَذْيَالَ ٱلْفُسُوقِ وَلَا فَخْرُ

قالَ المُبرّدُ : سمعتُ سليمانَ بنَ أبي داوودَ يقولُ : لمَّا ملكَ الأمينُ . . قالَ أبو نُواسٍ : (فاسقني خمراً وقلْ لي هيَ الخمرُ) ، وكانَ الفضلُ بنُ الربيعِ سيّئَ الرأيِ فيهِ ، فأخبرَ الأمينَ بخبرِهِ وما شاعَ في العامَّةِ مِنْ تهتُّكِهِ ، فأمرَ أن يُحبَسَ ، فمدحَ الفضلَ بنَ الربيعِ ، وقالَ فيهِ تلكَ الأشعارَ كلَّها بهٰذا السببِ .

وتَحدَّثَ أحمدُ بنُ الحارثِ عنِ المدائنيّ قالَ : قالَ معاويةُ يوماً : ما اللَّذةُ ؟ فأكثروا الوصفَ ، فقالَ عمرُو بنُ العاصِ : نحّ الأحداثَ حتىٰ أخبرَكَ بها مِنْ فصّها ، فنُحُّوا ، فقالَ : هَتْكُ المروءةِ ، والمجاهرةُ بالخطيئةِ ، وألَّا تباليَ قبيحاً مِنْ حسنٍ ، فقالَ أحمدُ بنُ الحارثِ : فقاتلَ اللهُ أبا نُواسٍ حيثُ يقولُ : (فبُحْ باسمِ مَنْ أهوىٰ ودعْني مِنَ الكُنىٰ) ، وحيثُ يقولُ أيضاً : (جريتُ معَ الصِّبا طلْقَ الجموحِ) .

وقولُهُ (١) : [من الكامل]

كَيْفَ ٱلنُّزُوعُ عَنِ ٱلصِّبَا وَٱلْكَاسِ قِسْ ذَا لَنَا يَا عَاذِلِي بِقِيَاسِ
وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِيَّ كَمْ هِيَ لَمْ أَجِدْ لِلشَّيْبِ عُذْراً فِي ٱلنُّزُولِ بِرَاسِي
قَالُوا شَمِطْتَ فَقُلْتُ مَا شَمِطَتْ يَدِي عَنْ أَنْ تَحُثَّ إِلَىٰ فَمِي بِٱلْكَاسِ
صَفْرَاءُ زَانَ رُوَاءَهَا مَخْبُورُهَا فَلَهَا ٱلْمُهَذَّبُ مِنْ ثَنَاءِ ٱلْحَاسِي

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ١١٠ ـ ١١١) .

وَكَأَنَّ شَارِبَهَا لِفَرْطِ شُعَاعِهَا ... بِٱللَّيْلِ يَكْرَعُ فِي سَنَا مِقْبَاسِ
وَأَلَذُّ مِنْ أَنْغَامِ خُلَّةِ عَاشِقٍ ... نَالَتْهُ بَعْدَ تَعَصُّبٍ وَشِمَاسِ
فَٱلرَّاحُ طَيِّبَةٌ وَلَيْسَ تَمَامُهَا ... إِلَّا بِطِيبِ خَلَائِقِ ٱلْجُلَّاسِ
فَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ ٱلْغَوَايَةِ فَلْيَكُنْ ... لِلّٰهِ ذَاكَ ٱلنَّزْعُ لَا لِلنَّاسِ

وقولُهُ (١) : [من المديد]

يَا شَقِيقَ ٱلنَّفْسِ مِنْ حَكَمِ ... نِمْتَ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أَنَمِ
فَٱسْقِنِي ٱلْبِكْرَ ٱلَّتِي ٱخْتَمَرَتْ ... بِخِمَارِ ٱلشَّيْبِ فِي ٱلرَّحِمِ
ثُمَّتَ ٱنْصَاتَ ٱلشَّبَابُ لَهَا ... بَعْدَمَا جَازَتْ مَدَى ٱلْهَرَمِ
فَهْيَ لِلْيَوْمِ ٱلَّذِي نَزَلَتْ ... وَهْيَ تِرْبُ ٱلدَّهْرِ فِي ٱلْقِدَمِ
عُتِّقَتْ حَتَّىٰ لَوِ ٱتَّصَلَتْ ... بِلِسَانٍ نَاطِقٍ وَفَمِ
لَٱحْتَبَتْ فِي ٱلْقَوْمِ مَاثِلَةً ... ثُمَّ قَصَّتْ قِصَّةَ ٱلْأُمَمِ
قَرَّعَتْهَا بِٱلْمِزَاجِ يَدٌ ... خُلِقَتْ لِلسَّيْفِ وَٱلْقَلَمِ
فِي نَدَامَىٰ سَادَةٍ زُهُرٍ ... أَخَذُوا ٱللَّذَّاتِ مِنْ أَمَمِ
فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِمْ ... كَتَمَشِّي ٱلْبُرْءِ فِي ٱلسَّقَمِ
فَعَلَتْ فِي ٱلْبَيْتِ إِذْ مُزِجَتْ ... مِثْلَ فِعْلِ ٱلصُّبْحِ فِي ٱلظُّلَمِ
فَٱهْتَدَىٰ سَارِي ٱلظَّلَامِ بِهَا ... كَٱهْتِدَاءِ ٱلسَّفْرِ بِٱلْعَلَمِ

قولُهُ : (اختمرَتْ بخمارِ الشيبِ) **قيلَ** : أرادَ صفتَها وهيَ في دَنِّها ؛ حيثُ

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ١٤٢ ـ ١٤٣) .

يعلوها شيءٌ كالعنكبوتِ ، وقيلَ : أرادَ صفتَها في ابتداءِ أمرِها حيثُ كانَتْ في العنبِ ؛ فإنَّهُ أوَّلُ ما يظهرُ يكونُ عليهِ غطاءٌ أبيضُ ، وهٰذا كلامُ مَنْ يرفعُ أبا نُواسٍ عن تناولِ المعاني القريبةِ .

وقولُهُ : (ٱنصاتَ) أي : أجابَ ؛ مِنَ الصَّوتِ ، فهوَ مثلُ : دعاهُ فاندعىٰ .

وقولُهُ : (لوِ اتَّصلَتْ بلسانٍ) أي : لو كانَتْ شخصاً يَتكلَّمُ . . لمُثِّلَتْ محتبيةً في القومِ تُحدِّثُهُم بأخبارِ القرونِ الأُولىٰ .

وقولُهُ : (فتَمشَّتْ في مفاصلِهِم) أخذَ هٰذا المعنىٰ مِنْ قولِ عربيٍّ يَصِفُ صائداً[1] : [من المديد]

فَـتَـمَـشَّـىٰ لَا يُـحَـسُّ بِـهِ ... كَـتَـمَـشِّـي ٱلـنَّـارِ فِـي ٱلـضَّـرَمِ

قالَ أبو نُواسٍ : كنتُ قلتُ : (كتمشِّي النارِ في الفحمِ) فقالَ لي رحمةُ بنُ نجاحٍ : لو قلتَ : (كتمشِّي البرءِ في السَّقمِ) ، فعدلتُ إليهِ ، وانتقادُ مَنِ انتقدَهُ بأنَّهُ أحالَ ؛ حيثُ جعلَ عَرَضاً يَتمشَّىٰ في عَرَضٍ . . مِنَ التدقيقاتِ الباردةِ التي لا تحتملُها الصِّناعةُ الشعريَّةُ .

قالَ الجاحظُ : لمَّا سمعَ أبو شعيبٍ القلالُ هٰذا البيتَ . . قالَ : ما أصفىٰ هٰذا البيتَ !! ولو نُقِرَ . . لطنَّ[2] ، فتكلَّمَ مِنْ جهةِ صناعتِهِ .

وهٰذا البابُ مِنْ شعرِ أبي نُواسٍ يَشتمِلُ علىٰ ثلاثِ مئةِ قصيدةٍ ومقطوعةٍ ، وجميعُ شعرِهِ الذي استقصىٰ جمعَهُ حمزةُ بنُ الحسنِ الأصبهانيُّ يبلغُ ألفاً وخمسَ مئةِ قصيدةٍ ومقطوعةٍ ، تشتملُ علىٰ ثلاثةَ عشرَ ألفَ بيتٍ .

* * *

---

(١) انظر « معاهد التنصيص » (١/٨٦ ـ ٨٧) ، ونسبه لبعض الهذليين .

(٢) انظر « المثل السائر » (٢/١١٤ ـ ١١٥) .

[قصيدةٌ لمسلمِ بنِ الوليدِ في مدحِ ابنِ المُهلَّبِ معَ شرحِها] (١)

ومِنْ شعرِ مسلمِ بنِ الوليدِ ـ وسأنقلُهُ مشروحاً كما وجدتُهُ ؛ لتمامِ الفائدةِ .

يُحكىٰ : أنَّ مُسلماً أرسلَ هـٰذهِ القصيدةَ للممدوحِ ، فلمَّا وافى الرسولُ . . ادَّعىٰ أنَّها مِنْ شعرِهِ ، وكانَ الممدوحُ حينَ ابتدأَ الرسولُ يُنشِدُ مضطجعاً ، فاعتدلَ إجلالاً لِمَا سمعَ ، وعرفَ مِنْ فحوى الكلامِ أنَّهُ شعرُ مسلمٍ ، فقالَ للرسولِ المُدَّعي : أجَّلْتُكَ سنةً لتعملَ مثلَ هـٰذهِ القصيدةِ ، فاعترفَ أنَّها شعرُ مسلمٍ ، فقالَ الممدوحُ : إنَّكَ حينَ أنشدتَ مطلعَها . . رأيتُ كأنَّ مسلماً هوَ القائمُ يُنشِدُني .

وكذٰلكَ متىٰ كانَ الإنسانُ ذا دُربةٍ وتمامِ خبرةٍ بشعرِ شاعرٍ . . عرفَ ما لم يَسمعْهُ مِنْ شعرِهِ بما عرفَهُ منهُ ؛ لأنَّ لكلِّ شاعرٍ فِي الكلامِ مذهباً يَخُصُّهُ ، وطريقةً لا يَتعدَّاها ـ ومدحَ بها داوودَ بنَ يزيدَ بنِ حاتمِ بنِ خالدِ بنِ المُهلَّبِ (٢) : [من البسيط]

لَا تَدْعُ بِي ٱلشَّوْقَ إِنِّي غَيْرُ مَعْمُودِ نَهَى ٱلنُّهَىٰ عَنْ هَوَى ٱلْهِيفِ ٱلرَّعَادِيدِ

قولُهُ : (لا تدعُ بي الشَّوقَ) أي : لا تدعني مشتاقاً ، ولا تقلْ : إنَّ بي شوقاً إلىٰ أحدٍ ، غيرُ معمودٍ ؛ أي : غيرُ عاشقٍ ، والمعمودُ : المقروحُ القلبِ ، وأصلُهُ : أن يصيبَ البعيرَ داءٌ في سنامِهِ ، فيهيجَ عليهِ ، حتىٰ ربَّما أخرجَتْ منهُ العظامُ ، فاستُعِيرَ ذٰلكَ للقلبِ ، والهِيفُ : الضَّامراتُ البطونِ ، والرَّعاديدُ : المرتجَّاتُ الأكفالِ ، والرِّعديدُ في غيرِ هـٰذا : هوَ الجبانُ .

لَوْ شِئْتُ لَا شِئْتُ رَاجَعْتُ ٱلصِّبَا وَمَشَتْ فِيَّ ٱلْعُيُونُ وَفَاتَتْنِي بِمَجْلُودِ

---

(١) والشاعر مسلم بن الوليد مشهور باسم (صريع الغواني) .

(٢) انظر « ديوان صريع الغواني » (ص ١٥١ ـ ١٧١) وفيه الشرح المنقول .

يقولُ : لو شئتُ ـ لا جعلَني اللهُ أشاءُ ذلكَ ـ . . . راجعتُ الصِّبَا ، ومشتْ فيَّ العيونُ ـ أي : عيونُ النساءِ ـ لعشقِهِنَّ [لي] ، وفاتَتْني بمجلودٍ ؛ أي : ذهبَتْ بجلدِي ؛ يريدُ أنَّهُ كانَ يصبو إليهِنَّ أيضاً .

سَلْ لَيْلَةَ ٱلْخَيْفِ هَلْ أَمْضَيْتُ آخِرَهَا   بِٱلرَّاحِ تَحْتَ نَسِيمِ ٱلْخُرَّدِ ٱلْغِيدِ

يقولُ : إنَّهُ شربَ مِنْ أوَّلِ الليلةِ إلىٰ آخِرِها معَ الغِيدِ ؛ وهيَ الجواري الطِّوالُ الأعناقِ ، الناعماتُ ، يُشْتَمُّ رائحتُهُنَّ ، والخَيفُ : أسفلُ الجبلِ ممَّا يلي الواديَ ، وأمضيتُ الشيءَ : إذا أتيتُ عليهِ بالتنفيدِ .

شَجَّجْتُهَا بِلُعَابِ ٱلْمُزْنِ فَٱغْتَزَلَتْ   نَسْجَيْنِ مِنْ بَيْنِ مَحْلُولٍ وَمَعْقُودِ

يقولُ : شَجَّجْتُهَا ـ يعني : الخمرَ ـ أي : مزجتُها ، فاغتزلَتْ ؛ أيِ : اختلطَتْ نسجَينِ : أحدُهُما : محلولٌ ، والآخَرُ : معقودٌ ؛ يريدُ : أنَّ ما وليَ الماءَ مِنَ الخمرِ في الكأسِ أسرعَ فيهِ الماءُ فحلَّهُ ، وما وليَ منها القاعَ بقيَ علىٰ حالِهِ لم يحلُّهُ الماءُ بعدُ ، قالَ أبو نُواسٍ يصفُ خمراً مُزِجَتْ في كأسٍ (١) :   [من الكامل]

حَمْرَاءُ صَفْرَاءُ ٱلتَّرَائِبِ رَأْسُهَا   فِيهِ لِمَا نَسَجَ ٱلْمِزَاجُ قَتِيرُ

يريدُ أنَّ لونَها حمراءُ وصفراءُ الترائبِ ؛ يريدُ : قدِ اصفرَّ أعلاها الذي سبقَ ، والقتيرُ : الحبابُ ، وأصلُهُ : الشيبُ .

كِلَا ٱلْجَدِيدَيْنِ قَدْ أُطْعِمْتُ حَبْرَتَهُ   لَوْ آلَ حَيٌّ إِلَىٰ عُمْرٍ وَتَخْلِيدِ

الجديدَينِ : اللَّيلُ والنهارُ ، والحبرةُ : النعيمُ .

وقولُهُ : (لو آلَ حيٌّ) أي : لو صارَ حيٌّ باقياً .

أَهْلاً بِوَافِدَةٍ لِلشَّيْبِ وَاحِدَةٍ   وَإِنْ تَرَاءَتْ بِشَخْصٍ غَيْرِ مَوْدُودِ

---

(١) انظر « ديوان أبي نواس » (ص ٩٨) .

أهلاً بوافدةٍ ؛ أي : قادمةٍ للشيبِ واحدةٍ تراءَتْ ؛ أي : اعترضَتْ ، غيرِ مودودٍ ؛ أي : غيرِ محبوبٍ .

لَا أَجْمَعُ ٱلْحِلْمَ وَٱلصَّهْبَاءَ قَدْ سَكَنَتْ نَفْسِي إِلَى ٱلْمَاءِ عَنْ مَاءِ ٱلْعَنَاقِيدِ

يقولُ : لا أجمعُ التكهُّلَ وشربَ الخمرِ ، قد سكَنَتْ نفسي إلى الماءِ ، واستغنيتُ بهِ عنِ الخمرِ ؛ أي : لا أشربُها .

لَمْ يَنْهَنِي فَنَدٌ عَنْهَا وَلَا كِبَرٌ لَكِنْ صَحَوْتُ وَغُصْنِي غَيْرُ مَخْضُودِ

الفَنَدُ : اللومُ ، **وغُصني** ؛ أي : شبابي ، **والمخضودُ** : [الواهنُ][1] .

أَوْفَىٰ بِيَ ٱلْحِلْمُ وَٱقْتَادَ ٱلنُّهَىٰ طَلَقاً شَأْوِي وَعِفْتُ ٱلصِّبَا مِنْ غَيْرِ تَفْنِيدِ

يقولُ : **أوفىٰ بيَ الحلمُ** ؛ أي : وافقَني ، واقتادَ العقلَ طلقاً شأوي ، **وعفتُ الصِّبا** ؛ أي : تركتُ الصِّبا ، **مِنْ غيرِ تفنيدٍ** ؛ أي : مِنْ غيرِ تعذيلٍ ولا لومٍ ، **وأصلُ** (وافقَني) : لاءمَني ، **وطَلَقاً** : مُعدّىً إليهِ الفعلُ .

إِذَا تَجَافَتْ بِيَ ٱلْهِمَّاتُ مِنْ بَلَدٍ نَازَعْتُ أَرْضاً وَلَمْ أَحْفِلْ بِتَمْهِيدِ

يقولُ : إذا تجافَتْ بيَ الهماتُ عن بلدٍ . . نازعتُ بلداً آخَرَ غيرَهُ ولم أبالِ بتمهيدٍ ؛ أي : بإقامةٍ ، **ونازعتُ** ؛ أي : قصدتُ .

لَا تَطَّبِينِي ٱلْمُنَىٰ عَنْ جَهْدِ مُطَّلَبٍ وَلَا أَحُولُ لِشَيْءٍ غَيْرِ مَوْجُودِ

يقولُ : **لا تطبيني المنىٰ** ؛ أي : لا تدعوني إلىٰ أنفسِها مِنْ جهدِ مطلبٍ ، **وقولُهُ** : (لا أحولُ لشيءٍ غيرِ موجودٍ) أي : لا أطلبُ مِنَ الأمورِ غيرَ الممكنِ الوجودِ .

وَمَجْهَلٍ كَٱطِّرَادِ ٱلسَّيْفِ مُحْتَجَزٍ عَنِ ٱلْأَدِلَّاءِ مَسْجُورِ ٱلصَّيَاخِيدِ

---

(١) في الأصل : (الواهب) .

يقولُ : وربَّ مَجهلٍ **كاطِّرادِ السيفِ** ؛ أي : كتتابعِ السيفِ في الحِدَّةِ ، مُحتجَزٍ عنِ الأدلَّاءِ مسجورِ الصَّياخيدِ مِنَ الحرورِ ، **والمَجهلُ** : القفرُ الذي لا يُهتدىٰ بهِ .

تَمْشِي ٱلرِّيَاحُ بِهِ حَسْرَىٰ مُوَلَّهَةً ‌ ‌ ‌ حَيْرَىٰ تَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلْجَلَامِيدِ

يقولُ : أي : تمشي الرياحُ فيهِ **حسرىٰ** ؛ أي : كالَّةً ، **مُولَّهةً** ؛ أي : حزينةً ، **تلوذُ بأكنافِ الجلاميدِ** ؛ يريدُ : أن ليسَ فيهِ شجرٌ ، وإنَّما تجري الرياحُ على الحجارةِ فلا تجدُ غيرَها ، **والأكنافُ** : النواحي ، واحدُها : كنفٌ .

مُفَوَّفِ ٱلْمَتْنِ لَا [تَمْضِي] ٱلسَّبِيلُ بِهِ ‌ ‌ ‌ إِلَّا ٱلتَّخَلُّلَ رَيْثاً بَعْدَ تَجْهِيدِ

يقولُ : إنَّ ذٰلكَ المَجهلَ **مُفوَّفُ المتنِ** ؛ أي : مُخطَّطٌ ، أخذاً مِنَ التفويفِ في القوائمِ ؛ وهوَ التخطيطُ ، وذٰلكَ أنَّ الأرضَ الرديئةَ فيها ضُروبٌ مِنَ الألوانِ .

وقولُهُ : (لا تمضي السبيلُ بهِ) أي : لا تقطعُ السبيلُ بها **إلَّا التخللَ** ؛ وهوَ الاندخالُ في الأشياءِ المتضايقةِ ، **ريثاً بعدَ تجهيدٍ** ؛ أي : إبطاءً بعدَ جهدٍ ، **والجهدُ** : التعبُ .

قَرَيْتُهُ ٱلْوَخْدَ مِنْ خَطَّارَةٍ سُرُحٍ ‌ ‌ ‌ تَفْرِي ٱلْفَلَاةَ بِإِرْقَالٍ وَتَوْخِيدِ

يُقالُ : **قريتُهُ الوَخْدَ** ؛ أي : هٰذا الضَّربَ مِنَ السيرِ ؛ أي : مِنْ ناقةٍ مُحرّكةٍ لذنبِها ، **سُرُحٍ** : خفيفةٍ ، **والإرقالُ والتوخيدُ** : ضربانِ مِنَ السَّيرِ .

إِلَيْكَ [بَادَرْتُ] إِسْفَارَ ٱلصَّبَاحِ بِهَا ‌ ‌ ‌ مِنْ جُنْحِ لَيْلٍ رَحِيبِ ٱلْبَاعِ مَمْدُودِ

يقولُ : **إليكَ [بادرتُ]** ؛ أي : سابقتُ **إسفارَ الصَّباحِ** ؛ أي : [انبلاجَ] الصَّباحِ **مِنْ جنحٍ** ؛ أي : مِنْ ظلامِ ليلٍ ، **رحيبِ الباعِ** ؛ أي : واسعِ الباعِ ، **ممدودٍ** ؛ أي : مُطوَّلٍ ؛ أي : أتيتُكَ قبلَ الصُّبحِ .

وَبَلْدَةٍ ذَاتِ غَوْلٍ لَا سَبِيلَ بِهَا ‌ ‌ ‌ إِلَّا ٱلظُّنُونُ وَإِلَّا مَسْرَحُ ٱلسِّيدِ

يقولُ : ورُبَّ بلدةٍ بعيدةٍ ، لا طريقَ بها **إلَّا الظُّنونُ** ؛ أي : تُظَنُّ طريقاً ، **وإلَّا مسرحُ السِّيدِ** ؛ أي : وإلَّا حيثُ يَسرحُ الذئبُ .

كَـأَنَّ أَعْـلَامَـهَـا وَٱلْآلُ يَـرْكَـبُـهَـا بُـدْنٌ تَـوَافَـىٰ بِـهَـا نَـذْرٌ إِلَـىٰ عِـيـدِ

الأعلامُ : الجبالُ ؛ يقولُ : كأنَّ جبالَ تلكَ الفَلاةِ والآلُ يركبُها . . نُوقٌ بدنٌ **تَوَافىٰ بها نذرٌ إلىٰ عيدٍ** ؛ أي : جلبَها نذرٌ إلى النحرِ بمكةَ يومَ العيدِ ، كأنَّ رجلاً نذرَ أن يَنحرَ نُوقاً بمكةَ ، فقَدَّمَها لذٰلكَ ، وقد ألقىٰ عليها الملاحفَ ، فشَبَّهَ صريعُ الجبالَ وقدِ التحفَتْ في الآلِ الأبيضِ بها .

كَـلَّـفْـتُ أَهْـوَالَـهَـا عَـيْـنـاً مُـؤَرَّقَـةً إِلَيْكَ لَوْلَاكَ لَـمْ تُـكْـحَلْ بِتَسْهِيدِ

يقولُ : كَلَّفَتْ تلكَ الفَلاةُ عيني فسهِرَتْ ، ولولاكَ أنتَ لم تسهرْ ، **الأَرَقُ** : السَّهرُ .

حَـتَّـىٰ أَتَـتْـكَ بِـيَ ٱلْآمَـالُ مُـطَّـلِـعـاً لِلْيُسْرِ عِنْدَكَ فِي سِرْبَالِ مَحْسُودِ

يقولُ : حتىٰ بَلَّغَتْني إليكَ الآمالُ مُطَّلِعاً لليسرِ **في سربالِ محسودٍ** ؛ أي : لمَّا قصدتُكَ . . حسدَني الناسُ ؛ لعلمِهِم بأنَّكَ تغنيني .

مِنْ بَعْدِ مَا أَلْقَتِ ٱلْأَيَّامُ لِي عَرَضاً مُلْقَىٰ رَهِينٍ لِحَدِّ ٱلسَّيْفِ مَصْفُودِ

لي عرضاً ؛ أي : جانباً ، **مُلقىٰ رهينٍ** ؛ أي : أسيرٍ قد حُبِسَ للقتلِ ، مُقدَّمٍ **لحدِّ السيفِ مصفودٍ** ؛ أي : موثقٍ بالحديدِ ، وإنَّما يصفُ نفسَهُ أنَّهُ بقيَ مِنْ إضرارِ الدَّهرِ بهِ في مثلِ حالِ الأسيرِ المُقدَّمِ للسيفِ .

وَسَاوَرَتْنِي بَنَاتُ ٱلدَّهْرِ فَٱمْتَحَنَتْ رَبْعِي بِمُمْحِلَةٍ شَهْبَاءَ جَارُودِ

يقولُ : **ساورَتْني بناتُ الدَّهرِ** ؛ أي : واثبَتْني ، **فامتحنَتْ رَبْعي** ؛ أي : منزلي ، بسَنَةٍ مُمحِلةٍ ؛ أي : ذاتِ مَحْلٍ وانجرادٍ مِنَ النباتِ .

إِلَـىٰ بَـنِـي حَـاتِـمٍ أَدَّىٰ رَكَـائِـبَـنَـا خَوْضُ ٱلدُّجَىٰ وَسُرَى ٱلْمُهْرِيَّةِ ٱلْقُودِ

يقولُ : إلىٰ بني حاتمٍ بَلَّغَ ركائبَنا **خوضُ الدُّجىٰ** ؛ أي : قطعُ الليلِ ، **وسُرى المهريةِ القودِ** ؛ السُّرَىٰ وخوضُ الدُّجىٰ : واحدٌ ، ولٰكنَّهُ كَرَّرَ اللفظَ لاختلافِهِ ، **والمهريَّةُ** : منسوبةٌ إلىٰ مهرةَ ؛ وهوَ حيٌّ مِنْ هَمْدَانَ ، **والقُودُ** : جمعُ قَوداءَ .

تَطْوِي ٱلنَّهَارَ فَإِنْ لَيْلٌ تَخَمَّطَهَا بَاتَتْ تَخَمَّطُ هَامَاتِ ٱلْقَرَادِيدِ

يقولُ : تطوي النهارَ بالسيرِ ؛ أي : تقطعُ ، فإن ليلٌ صالَ عليها . . صالَتْ علىٰ **هاماتِ القراديدِ** ؛ وهيَ جمعُ قرددٍ ؛ وهوَ المرتفعُ مِنَ الجبالِ ، وأصلُ **التخمُّطِ** : تَعرُّمُ البعيرِ الفحلِ وتصعُّبُهُ ؛ يريدُ : إذا اشتدَّ عليها سيرُ الليلِ . . لم تبالِ بهِ معَ ما قد مضىٰ عليها مِنْ طولِ السفرِ .

مِثْلَ ٱلسَّمَامِ بَعِيدَاتِ ٱلْمَقَالِ إِذَا أَلْقَى ٱلْهَجِيرُ يَداً فِي كُلِّ صَيْخُودِ

يقولُ : إنَّ النُّوقَ مثلُ السَّمامِ في السُّرعةِ إذا اشتدَّ عليها الهجيرُ وهَيَّجَ كلَّ صَيْخُودٍ ، **والصَّيْخُودُ** : شِدَّةُ الحرِّ ، **والسَّمامُ** : طائرٌ يشبهُ القَطا ، **بعيداتُ المَقيلِ** ؛ أيْ : لا تقيلُ هٰذهِ النُّوقُ .

حَلَّتْ بِدَاوُودَ فَٱمْتَاحَتْ وَأَعْجَلَهَا حَذْوُ ٱلنِّعَالِ عَلَىٰ أَيْنٍ وَتَحْرِيدِ

يقولُ : **حَلَّتْ** هٰذهِ النُّوقُ بداوودَ ؛ أي : نزلَتْ بهِ ، فامتاحَتْ عطاياهُ ؛ أي : أخذَتْ ، **والامتياحُ** : استسقاءُ الماءِ مِنَ البئرِ بالأحفانِ ، فشَبَّهَ أخذَ أحفانِ المالِ مِنْ داوودَ بأخذِ الماتحِ الماءَ بأحفانِهِ ، **وأعجلَها حذوُ النِّعالِ** ؛ أي : لمَّا أخذوا المالَ منهُ . . استعدُّوا إبلَهُم للرجوعِ وهيَ لم تسترحْ مِنَ الكَلَلِ ، وصفَهُ بسرعةِ العطاءِ عندَ حلولِهِم بهِ مِنْ غيرِ مطلٍ ، **والأينُ** : الفترةُ ، **والتحريدُ** : مِنَ الحردِ ؛ وهوَ داءٌ يصيبُ الإبلَ في قوائمِها .

أَعْطَىٰ فَأَفْنَى ٱلْمُنَىٰ أَدْنَىٰ عَطِيَّتِهِ وَأَرْهَقَ ٱلْوَعْدَ نُجْحاً غَيْرَ مَنْكُودِ

يقولُ : أعطىٰ داوودُ فأفنى المنىٰ ؛ منى الذينَ قصدوهُ ، **أدنىٰ عطيتِهِ** ؛

أي : أقلُّ عطاياهُ كانَ أعظمَ مِنْ كلِّ ما انتهىٰ إليهِ أملُهُم ، وأرهقَ الوعدَ ؛ أي : أتبعَ الوعدَ بالفعلِ مِنْ ساعتِهِ مِنْ غيرِ ضيقٍ ، والنُّجحُ : انقضاءُ المطلبِ أو إدراكُهُ .

وَٱللهُ أَطْفَأَ نَارَ ٱلْحَرْبِ إِذْ سُعِرَتْ　　شَرْقاً بِمُوقِدِهَا فِي ٱلْغَرْبِ دَاوُودُ

يقولُ : اللهُ أطفأَ نارَ الحربِ في الشرقِ بداوودَ الذي أوقدَها في الغربِ علىٰ أهلِ العصيانِ ؛ يريدُ : لمَّا رأىٰ أهلُ الشرقِ ما فعلَ داوودُ بأهلِ الغربِ مِنَ النكايةِ . . استقاموا على الطاعةِ .

لَمْ يَأْتِ أَمْراً وَلَمْ يَظْهَرْ عَلَىٰ حَدَثٍ　　إِلَّا أُعِينَ بِتَوْفِيقٍ وَتَسْدِيدِ

يقولُ : لم يأتِ أمراً مِنَ الأمورِ ولا حدثاً يُحدِثُهُ . . إلَّا أعانَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ ، والتوفيقُ : التقويمُ للخيرِ ، والتسديدُ : أن يدلَّ بهِ إلى الصَّوابِ .

مُوَحَّدُ ٱلرَّأْيِ تَنْشَقُّ ٱلظُّنُونُ لَهُ　　عَنْ كُلِّ مُلْتَبِسٍ مِنْهَا وَمَعْقُودِ

مُوحَّدُ الرأيِ ؛ أي : رأيُهُ واحدٌ لا يختلفُ عليهِ ، كما قالَ الحسنُ[1] :　　[من الوافر]

وَلَمْ تَكُ نَفْسُهُ نَفْسَيْنِ فِيهِ　　فَيَفْصِلَ بَيْنَ رَأْيَيْهِ مُشِيرُ

يريدُ : أنَّهُ إذا دبَّرَ أمراً . . انكشفَ لهُ عنِ اليقينِ ، الملتبسُ : المتشابهُ .

تُمْنَى ٱلْأُمُورُ لَهُ مِنْ نَحْوِ أَوْجُهِهَا　　وَإِنْ سَلَكْنَ سَبِيلاً غَيْرَ مَوْرُودِ

تُمنى الأُمورُ لهُ ؛ أي : تُيَسَّرُ مِنْ طريقِ صوابِها واستقامتِها وإن سلكنَ سبيلاً غيرَ معمورٍ ، والسبيلُ : الطريقُ ؛ يريدُ : أنَّهُ مبخوتٌ ، فكيفَما تولَّى الأمورَ . . هيَّأَها اللهُ عزَّ وجلَّ لهُ .

إِذَا أَبَاحَتْ حِمَىٰ قَوْمٍ عُقُوبَتُهُ　　غَادَىٰ لَهُ ٱلْعَفْوُ قَوْماً بِٱلْمَرَاصِيدِ

---

(١) أراد أبا نواس في « ديوانه » (ص ٢٩٤) .

يقولُ : إذا أوقعَ بقومٍ عقوبتَهُ ، فأباحَ حماهُم للغارةِ . . غادىٰ لهُ العفوُ قوماً بالمراصيدِ ؛ يريدُ : كأنَّ العفوَ كانَ لهُم مرتصداً ، فأسقطَ ذنبَهُم ؛ يقولُ : إذا قتلَ قوماً استحقُّوا القتلَ . . عفا عن آخَرينَ استحقُّوا القتلَ بعدَ أن قد قُدِّرَ عليهِم ؛ أي : يَقدِرُ على العفوِ والعقوبةِ ، وأنَّهُ يأخذُهُما علىٰ ما أرادَهُ بهِم .

كَٱللَّيْثِ بَلْ مِثْلُهُ ٱللَّيْثُ ٱلْهَصُورُ إِذَا غَنَّى ٱلْحَدِيدُ غِنَاءً غَيْرَ تَغْرِيدِ

يقولُ : هوَ كالليثِ في النجدةِ ، والليثُ مثلُهُ إذا اشتدَّتِ الحربُ وطَنَّنَتِ السُّيوفُ للمضاربةِ ، والهَصُورُ : البَتُورُ .

يَلْقَى ٱلْمَنِيَّةَ فِي أَمْثَالِ عُدَّتِهَا كَٱلسَّيْلِ يَقْذِفُ جُلْمُوداً بِجُلْمُودِ

يقولُ : يلقى الحربَ في مثلِ عُدَّتِها ، فيدفعُ المنايا بالمنايا ، كما يدفعُ السيلُ جلموداً بجلمودٍ آخَرَ يَنطِحُهُ فيزيلُهُ بهِ .

إِنْ قَصَّرَ ٱلرُّمْحُ لَمْ يَمْشِ ٱلْخُطَا عَدَداً أَوْ عَرَّدَ ٱلسَّيْفُ لَمْ يَهْمُمْ بِتَعْرِيدِ

يقولُ : إن قَصَّرَ الرمحُ عن إدراكِ مَنْ أرادَ يطعنُهُ بهِ . . لم يمشِ الخُطا تباطُؤاً كمثلِ مَنْ يَعُدُّ خُطاهُ ، بل يسرعُ هوَ عندَ ذٰلكَ ، ولم يَهمُمْ بتعريدٍ ؛ أي : إن نبا السيفُ عنِ الذي ضربَهُ بهِ ؛ يريدُ : أنَّهُ ماضٍ مُتقدِّمٌ إلىٰ صاحبِهِ وإن قَصُرَ رمحُهُ . . مَدَّهُ بباعِهِ ، عَرَّدَ السيفُ : إذا لم يقطعْ .

إِذَا [رَعَىٰ] بَلَداً دَانَىٰ مَنَاهِلَهُ وَإِنْ بُنِينَ عَلَىٰ شَحْطٍ وَتَبْعِيدِ

يقولُ : إذا أحرزَ بلداً . . أمَّنَهُ ، فتقاربَتْ مناهلُهُ ؛ وهيَ منازلُ الرفاقِ على الماءِ ؛ يريدُ : أنَّ الرفاقَ تنزلُ حيثُ شاءَتْ في القِفارِ ، لا تخافُ شيئاً ، وفي الخوفِ لا تنزلُ وإن كانَتِ المناهلُ بُنينَ علىٰ شحطٍ ؛ وهوَ البعدُ .

جَرَىٰ فَأَدْرَكَ لَمْ يَعْنُفْ بِمُهْلَتِهِ وَٱسْتَوْدَعَ ٱلْبُهْرَ أَنْفَاسَ ٱلْمَجَاوِيدِ

يقولُ : جرىٰ هـٰذا الرجلُ في المجدِ ولم يعنفْ بمهلتِهِ ؛ أي : ولم يسرفْ علىٰ نفسِهِ بالتعبِ في الجريِ ، وقد تَقدَّمَ غيرَهُ ، وهـٰذا مثلٌ ضربَهُ ؛ يريدُ : أنَّهُ تَقدَّمَ الرجالَ في المجدِ بغيرِ جهدٍ ، وهُم قدِ اجتهدوا جهدَهُم ، فكيفَ إذا اجتهدَ هوَ جهدَهُ كلَّهُ ، **والبُهْرُ** : الكللُ .

وقولُهُ : (استودعَ البهرَ) أي : أنزلَهُ بهِم ، **والأنفاسُ** : الإطلاقُ مِنَ الجريِ ، واحدُها : نفسٌ ، **والمجاويدُ** : السِّراعُ مِنَ الخيلِ ، واحدُها : مِجوادٌ .

آلُ ٱلْمُهَلَّبِ قَوْمٌ لَا يَزَالُ لَهُمْ   رِقُّ ٱلصَّرِيحِ وَأَسْلَابُ ٱلْمَذَاوِيدِ

رِقُّ الصَّريحِ : استعبادُ الحرِّ بإسداءِ النعمِ وتقديمِ الأيادي الحسانِ إليهِم ، **وأسلابُ المذاويدِ** : الحربُ ؛ يعني : الأنجادَ ، واحدُهُم : مِذودٌ .

مُظَفَّرُونَ تُصِيبُ ٱلْحَرْبُ أَنْفُسَهُمْ   إِذَا ٱلْفِرَارُ تَمَطَّىٰ بِٱلْمَحَايِيدِ

يقولُ : أولـٰئكَ القومُ منصورونَ ، ومعَ ذٰلكَ تصيبُ الحربُ أنفسَهُم إذا **الفرارُ تَمطَّىٰ بالمحاييدِ** ، **والمحاييدُ** : الجُبناءُ ، واحدُهُم : مِحيادٌ ؛ يريدُ : أنَّهُم يقفون حتىٰ يُقتلوا إذا هربَ غيرُهُم .

نَجْلٌ مَنَاجِيبُ لَمْ يَعْدَمْ تِلَادُهُمُ   فَتىً يُرَجَّىٰ إِلَىٰ نَقْضٍ وَتَوْكِيدِ

يقولُ : هم **نجلٌ مناجيبُ** ؛ أي : ذريةُ مناجيبَ ؛ يريدُ : أنَّ بيتَهُم بيتُ نجابةٍ ، لم يخلُ قطُّ مِنْ أشرافٍ ينقضونَ مِنَ الأمورِ ما أحبُّوا ، ويعقدونَ منها ما أحبُّوا ، **والنجلُ** : الذريةُ ، قالَ زهيرٌ[1] : (وكلُّ فحلٍ لهُ نجلُ) أي : كلُّ فحلٍ يشبهُهُ نسلُهُ ؛ أي : يخرجُ الولدُ عتيقاً كأبيهِ ، **وتلادُهُم** : أصلُهُمُ القديمُ .

قَوْمٌ إِذَا هَـٰذَأَةٌ شَامَتْ سُيُوفَهُمُ   فَإِنَّهَا عُقُلُ ٱلْكُومِ ٱلْمَقَاحِيدِ

---

(١) قطعة من عجز بيت من الطويل في « ديوان زهير بن أبي سلمىٰ » (ص ٨٦) ، والبيت بتمامه :

إِلَىٰ مَعْشَرٍ لَمْ يُورِثِ ٱللُّؤْمَ جَدُّهُمْ   أَصَاغِرَهُمْ وَكُلُّ فَحْلٍ لَهُ نَجْلُ

الهدأةُ : الفترةُ ؛ يقولُ : أولئكَ قومٌ إذا كانَتْ صلحٌ وهدنةٌ . . **شامَتْ سيوفُهُم** ؛ أي : أغمدَتْها ؛ فإنَّهم يعرقبونَ بها الإبلَ لأضيافِهِم ؛ يريدُ : أنَّهُم يقاتلونَ بها في الحربِ ، وإذا كانَ في الصُّلحِ . . كانَ شغلُهُم إطعامَ الأضيافِ ؛ يُقالُ : شمتُ السيفَ ؛ إذا أغمدتُهُ ، وشمتُهُ ؛ إذا سللتُهُ ، هوَ مِنَ الأضدادِ ، **والعقلُ** : جمعُ عقالٍ ؛ وهوَ حبلٌ يعقلُ بهِ البعيرُ ، فشَبَّهَ السُّيوفَ بها ، **والكُومُ** : الغِلاظُ الأسنمةِ ، **والمقاحيدُ** كذٰلكَ ، واحدُها : مِقحادٌ .

نَفْسِي فِدَاؤُكَ يَا دَاوُودُ إِذْ عَلِقَتْ ... أَيْدِي ٱلرَّدَىٰ بِنَوَاصِي ٱلضُّمَّرِ ٱلْقُودِ

الضُّمَّرُ : جمعُ ضامرٍ ، **والقُودُ** : جمعُ أقودَ ؛ يريدُ : الخيلَ ؛ يقولُ : نفسي فداؤُكَ في الحربِ إذا اشتدَّ القتلُ في الناسِ ؛ أي : نفسي فداؤُكَ في ذٰلكَ الوقتِ ؛ أي : ما أشجعَكَ حينَئذٍ !!

دَاوَيْتَ مِنْ دَائِهَا كَرْمَانَ وَٱنْتَصَفَتْ ... بِكَ ٱلْمَنُونُ لِأَقْوَامٍ مَجَاهِيدِ

يقولُ : **داويتَ مِنْ دائِها كرمانَ** ؛ وهيَ بلدٌ نافقَ أهلُها علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فقتلَهُم حتىٰ رجعَ مَنْ بقيَ منهُم إلى الطاعةِ .

وقولُهُ : (انتصفَتْ بكَ المَنونُ) أي : انتصفَتْ بكَ المنيةُ مِنَ الأشرارِ لهٰؤلاءِ الضُّعفاءِ الذينَ قد بلغَهُمُ الجهدُ ؛ لتضييقِ الأشرارِ عليهِم ، **والمجهودُ** : الذي بلغَهُ الجهدُ ، **والجهدُ** : سوءُ الحالِ .

مَلَأْتَهَا فَزَعاً أَخْلَىٰ مَعَاقِلَهَا ... مِنْ كُلِّ أَبْلَخَ سَامِي ٱلطَّرْفِ صِنْدِيدِ

يقولُ : كرمانُ ملأتَها خوفاً مِنْ فعلِكَ بهِم ، **أخلىٰ** ذٰلكَ الخوفُ **معاقلَها** ؛ وهيَ الجبالُ ، **مِنْ كلِّ أبلخَ** ؛ وهوَ المُتكبِّرُ ، **سامي الطَّرفِ** ؛ أي : مرتفعُ الطَّرفِ مِنَ العزِّ ، **صِنديدٌ** : سيدٌ .

لَمَّا نَزَلْتَ عَلَىٰ أَدْنَىٰ بِلَادِهِمُ ... أَلْقَىٰ إِلَيْكَ ٱلْأَقَاصِي بِٱلْمَقَالِيدِ

لَمَسْتَهُمْ بِيَدٍ لِلْعَفْوِ مُتَّصِلٍ بِهَا ٱلرَّدَىٰ بَيْنَ تَلْيِينٍ وَتَشْدِيدِ

المقاليدُ : المفاتيحُ ، وإنَّما ضربَهُ مثلاً ؛ يقولُ : لمَّا نزلتَ بأوَّلِ بلدِهِم . . تَبرَّأَ إليكَ أقصاهُم بما بيدِهِ مِنَ الملكِ .

وقولُهُ : (لمستَهُم بيدٍ) أي : عفوتَ عنهُم وقدِ اتصلَ بهِمُ الردىٰ .

أَتَيْتَهُمْ مِنْ وَرَاءِ ٱلْأَمْنِ مُطَّلِعاً بِٱلْخَيْلِ تَرْدَىٰ بِأَبْطَالٍ مَنَاجِيدِ

يقولُ : جئتَهُم **مِنْ وراءِ الأمنِ** ؛ أي : دخلتَ عليهِم في بلدٍ لم يظنُّوا أن يدخلَهُ أحدٌ مِنَ المسلمينَ لقتالِهِم ، **مُطَّلعاً** : ظاهراً ، **والخيلُ تردىٰ** ؛ أي : تجري بأبطالٍ **مناجيدَ** ؛ أي : أعزاءَ .

وَطَارَ فِي إِثْرِ مَنْ طَارَ ٱلْفِرَارُ بِهِ خَوْفٌ يُعَارِضُهُ فِي كُلِّ أُخْدُودِ

في كلِّ أخدودٍ ؛ يريدُ : في كلِّ طريقٍ ، **والأُخدودُ** : الخدشُ في الأرضِ كالخندقِ صَغُرَ أم كَبُرَ ؛ يقولُ : **وطارَ في إثرِ مَنْ طارَ** ؛ أي : أسرعَ في إثرِ مَنْ أسرعَ في الهربِ ؛ **يريدُ** : أنَّ الخوفَ لا يفارقُهُ .

فَاتُوا ٱلرَّدَىٰ وَظُبَاةُ ٱلْمَوْتِ تَنْشُدُهُمْ وَأَنْتَ نَصْبُ ٱلْمَنَايَا غَيْرُ مَنْشُودِ

يقولُ : أفلتوا مِنَ الموتِ **وظباةُ الموتِ تَنشُدُهُم** ؛ أي : تَطلبُهُم ، وأنتَ منصوبٌ للمنايا لا تستترُ عنها ، **غيرُ منشودٍ** : غيرُ مطلوبٍ .

وَلَوْ تَلَبَّثَ دَيَّانٌ لَهَا رَوِيَتْ مِنْهُ وَلَٰكِنْ شَآهَا عَدْوَ مَزْؤُودِ

يقولُ : لو تَلبَّثَ هٰذا الرجلُ . . رَوِيَتْ تلكَ الظُّباةُ مِنْ دمِهِ ، **ولٰكنْ شآها** ؛ أي : سبقَها بالهروبِ ، فنُجِّيَ منها وهوَ **مَزؤودٌ** ؛ أي : مرعوبٌ .

أَحْرَزَهُ أَجَلٌ مَا كَادَ يُحْرِزُهُ فَمَرَّ يَطْوِي عَلَىٰ أَحْشَاءِ مَفْؤُودِ

يقولُ : أحرزَ ديَّانٌ أجلَهُ ولم يكدْ يُحرِزُهُ مِنَ الموتِ ، فهربَ وهوَ يسترُ

أحشاءَ مفؤودٍ ، والمَفؤودُ : الذي أُصيبَ فؤادُهُ ؛ يُقالُ : فأدتُ الرجلَ ؛ إذا أصبتُ فؤادَهُ ؛ فهوَ مفؤودٌ .

وَرَأْسُ مِهْرَانَ قَدْ رَكَّبْتَ قُلَّتَهُ لَدْناً كَفَاهُ مَكَانَ ٱللِّيتِ وَٱلْجِيدِ

يقولُ : وقد جعلتَ رأسَ هٰذا الرجلِ في قناةٍ قامَتْ لهُ مَقامَ العنقِ ، والقُلَّةُ : أعلى الرأسِ ، واللِّيتُ : [صفحةُ] العنقِ ، والجمعُ : ألياتٌ .

قَدْ كَانَ فِي مَعْزِلٍ حَتَّىٰ بَعَثْتَ لَهُ أُمَّ ٱلْمَنِيَّةِ فِي أَبْنَائِهَا ٱلصِّيدِ

يقولُ : قد كانَ هٰذا الرجلُ في معزلٍ عنِ الهلاكِ ، حتىٰ بعثتَ لهُ المنيةَ في الفرسانِ الصِّيدِ ؛ وهُمُ الأشرافُ ، وقالَ : (أُمّاً) على الاستعارةِ ، وإنَّما أُخِذَ مِنَ الصِّيدِ ؛ وهوَ داءٌ يأخذُ الإبلَ في أعناقِها فترفعُ رؤوسَها .

أَجُنَّ أَمْ أَسْلَمَتْهُ ٱلْفَاضِحَاتُ إِلَىٰ حَدٍّ مِنَ ٱلسَّيْفِ مَنْ يَعْلَقْ بِهِ يُودِ

يقولُ : أجُنَّ ديانٌ ؛ أي : هل أصابَهُ الجُنونُ ؟! أم أسلمَتْهُ الفاضحاتُ ؛ وهيَ الأمانيُّ التي غَرَّتْهُ ، ففضحَتْهُ حينَ خرجَ إليكَ ، فتركَتْهُ إلىٰ حدِّ السيفِ ، ومَنْ يَعلَقْ بهِ . . يودِ ؛ أي : يهلكْ .

أَلْحَقْتَهُ صَاحِبَيْهِ فَٱسْتَمَرَّ بِهِمْ ضَرْبٌ يُفَرِّقُ ضَبَّاتِ ٱلْقَمَاحِيدِ

يقولُ : فعلتَ بديَّانٍ ما فعلتَ بصاحبَيهِ قبلَهُ ، فاستمرَّ بهِم ضربٌ مِنَ السيفِ يُفرِّقُ الضَّبَّاتِ ؛ يعني : أوصالَ الرأسِ ، [والقَمَحْدوةُ] : العظمُ الناتئُ في مُؤخَّرِ الرأسِ بينَ القفا وأعلى الرأسِ .

أَعْذَرَ مَنْ فَرَّ مِنْ حَرْبٍ صَبَرْتَ لَهَا يَوْمَ ٱلْحُصَيْنِ شِعَارٌ غَيْرُ مَجْحُودِ

يقولُ : مَنْ فرَّ مِنْ ذٰلكَ اليومِ الذي صبرتَ أنتَ فيهِ . . جاءَ بما يُعذَرُ عليهِ ، والحصينُ : رجلٌ برزَ هٰذا الممدوحُ إليهِ فأهزمَهُ ، والشِّعارُ : العلامةُ في الكلامِ الذي يَتعارفُ الناسُ بهِ في القتالِ .

يَوْمَ ٱسْتَضَبَّتْ سِجِسْتَانُ طَوَائِفَهَا عَلَيْكَ مِنْ طَالِبٍ وَتْراً وَمَحْقُودِ

يقولُ : **يومَ استضبَّتْ سجستانُ طوائفَها** ؛ أي : أغرتْ طوائفَها ؛ وهيَ الجماعاتُ ، أخذَهُ مِنَ الضَّبِّ ؛ وهيَ العداوةُ ، كأنَّهُم قالوا : احموا بلدَكُم ، واذكروا مَنْ قُتِلَ منكم ، واحتموا لأنفسِكُم .

وقولُهُ : (مِنْ طالبٍ وَتراً ومحقودِ) أي : بعضُهُم يَطلبُ وَتراً ، وبعضُهُم يَطلبُ حقداً ، **والوَترُ** : الطَّلبُ بالدمِ ، **والحقدُ** : العداوةُ .

نَاهَضْتَهُمْ ذَائِدَ ٱلْإِسْلَامِ تَقْرَعُهُمْ عَنْهُ ثَلَاثَ وَمَثْنَىٰ بِٱلْمَوَاحِيدِ

ناهضْتَهُم ؛ يعني : أهلَ سجستانَ ، تَذودُ عنِ الإسلامِ ، فتلقىٰ منهُم ثلاثةَ رجالٍ ، ورجلَينِ ، **وتَقرعُهُم** : تضربُهُم ، **والمواحيدُ** : جمعُ موحدةٍ .

تَجُودُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ أَنْتَ ٱلضَّنِينُ بِهَا وَٱلْجُودُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْجُودِ

يقولُ : تجودُ بنفسِكَ في الحربِ ؛ إذ أنتَ **الضَّنينُ بها** في السِّلمِ ، **والجودُ بالنفسِ** أكثرُ مِنَ الجودِ بالمالِ .

تِلْكَ ٱلْأَزَارِقُ إِذْ ضَلَّ ٱلدَّلِيلُ بِهَا لَمْ يُخْطِهَا ٱلْقَصْدُ مِنْ أَسْيَافِ دَاوُودِ

يقولُ : تلكَ الأزارقُ إذ ضلَّ الدليلُ بهِمُ ؛ الذي قادَهُم إلى الكفرِ . . لم يخطِها أسيافُ داوودَ إذ قصدَتْ إليهِم .

كَانَ ٱلْحُصَيْنُ يُرَجِّي أَنْ يَفُوزَ بِهَا حَتَّىٰ أَخَذْتَ عَلَيْهِ بِٱلْأَخَادِيدِ

يقولُ : كانَ هـٰذا الخارجيُّ يطمعُ أن يفوزَ بها ، حتىٰ أخذتَ عليهِ بأفواهِ الطرقِ ، فلم تدعْهُ يقوىٰ .

مَا زَالَ يَعْنُفُ بِٱلنُّعْمَىٰ وَيَغْمِطُهَا حَتَّى ٱسْتَقَلَّ بِهِ عُودٌ عَلَىٰ عُودِ

يغمطُها ؛ أي : يكفرُها ، **ويَعنُفُ** ؛ أي : يُسرِفُ ويجاوزُ الحقَّ حتىٰ صَلبْتَهُ .

وَضَعْتَهُ حَيْثُ تَرْتَابُ ٱلرِّيَاحُ بِهِ وَتَحْسُدُ ٱلطَّيْرَ فِيهِ أَضْبُعُ ٱلْبِيدِ

يقولُ : جعلتَهُ في مكانٍ تبلغُ الطَّيرُ ولا تبلغُهُ الضَّبعُ ، فتحسدُ الطيرَ .

تَغْدُو ٱلضَّوَارِي فَتَرْمِيهِ بِأَعْيُنِهَا تَسْتَنْشِقُ ٱلْجَوَّ أَنْفَاساً بِتَصْعِيدِ

يقولُ : تنظرُ إليهِ في الخشبةِ السباعُ الضَّاريةُ بأكلِ اللحمِ ، فترفعُ رؤوسَها إليهِ فتستنشقُ رائحتَهُ .

يَتْبَعْنَ أَفْيَاءَهُ طَوْراً وَمَوْقِعَهُ يَلَغْنَ فِي عَلَقٍ مِنْهُ وَتَجْسِيدِ

يقولُ : تأتي هٰذهِ الضَّاريةُ فتمشي حيثُ يمشي ظلُّهُ ، ويلعقنَ ما سقطَ مِنْ صديدِهِ ودمِهِ ، **والجسدُ** : الدمُ .

فَكَانَ فَارِطَ قَوْمٍ حَانَ مَكْرَعُهُمْ بِأَرْضِ [زَاذَانَ] شَتَّىٰ فِي ٱلْمَوَارِيدِ

الفارطُ : المُتقدِّمُ القومَ إلى الماءِ ليطَّلعَ أكثيرٌ هوَ أم قليلٌ ، فضربَهُ مثلاً للحصينِ وأصحابِهِ الذينَ اتبعوهُ إلىٰ مكانٍ هلكوا معَهُ ، ومَكرعُهُم : شربُهُمُ الموتَ .

يَوْمَ جُرَاشَةَ إِذْ شَيْبَانَ مُوجِفَةٌ يَنْجُونَ مِنْكَ بِشِلْوٍ مِنْهُ مَقْدُودِ

يقولُ : **يومَ جُرَاشةَ إذ شيبانُ موجفةٌ** ؛ أي : سريعةٌ تهربُ ، وشيبانُ : قبيلةٌ ، **وجُرَاشةُ** : رجلٌ ؛ يقولُ : يهربونَ بشلوٍ ؛ أي : جسدٍ بلا رأسٍ قد قُدِّدَ ؛ أي : قُطِّعَ بالسيفِ .

زَاحَفْتَهُ بِٱبْنِ سُفْيَانَ فَكَانَ لَهُ ثَنَاءُ يَوْمٍ بِظَهْرِ ٱلْغَيْبِ مَشْهُودِ

ابنُ سفيانَ : رجلٌ مِنْ أصحابِ الممدوحِ ؛ يقولُ : ناهضتُهُ بهٰذا الرجلِ ، فكانَ لهُ ثناءٌ عرفَهُ مَنْ غابَ كأنَّهُ شهدَهُ .

نَجَا قَلِيلاً وَوَافَىٰ زَجْرُ عَائِفِهِ بِيَوْمِهِ طَيْرَ مَنْحُوسٍ وَمَسْعُودِ

يقولُ : **نجا قليلاً** ؛ أي : مهزوماً في يومٍ كانَ منحوساً علىٰ جُرَاشةَ ،

ومسعوداً علىٰ داوودَ ، **والعائفُ** : الذي يزجرُ الطيرَ ؛ أي : يفهمُها في خطورِها وطيرانِها .

وَلَّىٰ وَقَدْ جَرَعَتْ مِنْهُ ٱلْقَنَا جُرَعاً حَيَّ ٱلْمَخَافَةِ مَيْتاً غَيْرَ مَوْءُودِ

يقولُ : هربَ هـٰذا الرجلُ وقد شربَتِ الرِّماحُ في دمِهِ حينَ طُعِنَ بها ، **غيرَ موءودٍ** ؛ أي : غيرَ مدفونٍ .

زَالَتْ حُشَاشَتُهُ عَنْ صَدْرِ مُعْتَدِلٍ دَانِي ٱلْكُعُوبِ بَعِيدِ ٱلصَّدْرِ أُمْلُودِ

يقولُ : نجَتْ بقيةُ نفسِهِ عن صدرِ رمحٍ معتدلٍ أصابَهُ ، **أُملودٍ** : أملسَ .

إِذَا ٱلسُّيُوفُ أَصَابَتْهُ تَقَطَّعَ فِي سُرَادِقٍ بِحَوَامِي ٱلْخَيْلِ مَمْدُودِ

يقولُ : **إذا السيوفُ أصابَتْهُ** . . تقطَّعَ بدنُهُ منها ، ويعني **بالسرادقِ** : الغبارَ الذي أثارَتْهُ حوافرُ الخيلِ .

يَفْدِي بِمَا نَحَلَتْهُ مِنْ خِلَافَتِهِ حُشَاشَةَ ٱلرَّكْضِ مِنْ جَرْدَاءَ قَيْدُودِ

يفدي بقيةَ قُوَّةِ فرسِهِ في الجريِ بخلافتِهِ ؛ يعني : أنَّهُ يقولُ لفرسِهِ : انجُ فدتْكَ خلافتي ، **والجَرداءُ** : القصيرُ الشعرِ .

حَلَّ ٱللِّوَاءَ وَخَالَ ٱلْخِدْرَ عَائِذَهُ فَعَاذَ بِٱلْخِدْرِ تِرْبُ ٱلْكَاعِبِ ٱلرُّودِ

يقولُ : لمَّا قهرَ الرئيسُ مِنَ الأمراءِ[1] . . **حلَّ اللواءَ** ؛ وهوَ العقدةُ التي في القناةِ ، فظنَّ **الخدرَ عائذَهُ** ؛ أي : منجيَهُ ؛ أي : إذا كانَ بينَ النساءِ . . لم يُطلَبْ بعدُ ، يَعُدُّ نفسَهُ مِنَ النساءِ .

وَإِنْ يَكُنْ شَبَّهَا حَرْباً وَقَدْ خَمَدَتْ فَنَائِياً حَيْثُ لَا هِيدٍ وَلَا هِيدِ

يقولُ : فإن يكنْ شبَّ الحربَ حرباً وقد خمدَتْ قبلَ ذٰلكَ . . فقد بَعُدَ

---

(١) في « شرح ديوان صريع الغواني » (ص ١٦٧) : (الأمرة) .

بحيثُ لا يرىٰ عمراناً ، ولا يسمعُ فيهِ هِيداً ولا هِيدَ ؛ [وهُما] كلمتانِ يُزجَرُ بهِما الإبلُ .

كُـلٌّ مَـثَـلْـتَ بِـهِ فِـي مِـثْـلِ خُـطَّـتِـهِ قَـتْـلاً وَأَضْـجَـعْـتَـهُ فِـي غَـيْـرِ مَـلْـحُـودِ

يقولُ : **كلٌّ مثلتَ** ؛ أي : جزيتَهُ بمثلِ فعلِهِ قتلاً ، **وأضجعتَهُ في غيرِ ملحودٍ** ؛ أي : تركتَهُ في الضِّحِّ قتيلاً[1] .

عَـافُـوا رِضَـاكَ فَـعَـاقَـتْـهُـمْ بِـعَـقْـوَتِـهِـمْ عَـنِ ٱلْـحَـيَـاةِ مَـنَـايَـاهُـمْ لِـمَـوْعُـودِ

يقولُ : **عافوا رضاكَ** ؛ أي : كرهوا رضاكَ ، وعاقَتْهُم مَناياهُم ؛ أي : منعَتْهُمُ الحياةُ **بعقْوَتِهِم** ؛ أي : بفَنائِهِم ، **لموعودٍ** ؛ أي : لأجلٍ .

وَأَنْـتَ بِٱلسِّـنْـدِ إِذْ هَـاجَ ٱلصَّـرِيـخُ بِـهَـا وَٱسْـتَـنْـفَـدَتْ حَـرْبُـهَـا كَـيْـدَ ٱلْـمَـكَـايِـيـدِ

الصَّريخُ : المستغيثُ والمستنصرُ ، واستنفدَتْ حربُ السِّندِ **كيدَ المكاييدِ** ؛ أي : فَرَغَتْ تلكَ الحربُ بكيدِ كلِّ مِكيادٍ ، حتىٰ عجزوا عنها ، وانقطعَ كيدُهُم فيها .

وَٱسْـتَـغْـزَرَ ٱلْـقَـوْمُ كَـأْسـاً مِـنْ دِمَـائِـهِـمُ وَأَحْـدَقَ ٱلْـمَـوْتُ بِـٱلْـكُـرَّارِ وَٱلْـحِـيـدِ

يقولُ : **استغزرَ القومُ** ؛ أي : شربَ بعضُهُم دماءَ بعضِهِم ؛ يريدُ : قتلَ بعضُهُم بعضاً ، **وأحدقَ الموتُ بالكرَّارِ** ؛ **الكُرَّارُ في الحربِ** : الذينَ يكرُّونَ فيها ، **والحِيدُ** : المنهزمونَ ؛ يقولُ : لم ينفعْ عنكَ المنهزمُ انهزامَهُ ؛ لإحاطةِ الحربِ بهِ ، **والحِيدُ** : جمعُ أحيدَ .

رَدَدْتَ أَهْـمَـالَـهَـا ٱلْـقُـصْـوَىٰ مُـخَـيَّـسَـةً وَشِـمْـتَ بِـٱلْـبِـيـضِ عَـوْرَاتِ ٱلْـمَـرَاصِـيـدِ

أهمالُها ؛ أي : صعبُها ، **والأهمالُ** : جمع هملٍ ؛ وهوَ الشيءُ المُسيَّبُ ، وأصلُهُ : في البهائمِ التي ليسَ لها راعٍ ، فهيَ صعبةٌ ؛ يقولُ : رضتَ

---

(١) في « شرح ديوان صريع الغواني » (ص ١٦٧) : (الفحص) بدل (الضح) .

صعبَها ؛ يعني : الحربَ ، مُخيَّسةً ؛ أي : مُذلَّلةً .

وقولُهُ : (شمتَ بالبيضِ) يقولُ : قتلتَ الإنجادَ ، فشمتَ عوراتِهِم ؛ أي : تركتَ عوراتِهِم باديةً في الصُّبحِ مِنْ غيرِ سترٍ [1] .

كُنْتَ ٱلْمُهَلَّبَ حَتَّىٰ شَكَّ عَالِمُهُمْ ثُمَّ ٱنْفَرَدْتَ وَلَمْ تُسْبَقْ بِتَسْوِيدِ

يعني : المُهلَّبَ بنَ أبي صفرةَ ، وكانَ جدَّ الممدوحِ ؛ يقولُ : قمتَ في تلكَ الحربِ مَقامَ المُهلَّبِ حتىٰ ظنَّ عالِمُهُم أنَّكَ المُهلَّبُ ، ثمَّ انفردتَ بخصالِكَ في هٰذهِ الحربِ حتىٰ تبينتَ للناسِ ، وعرفَ أنَّكَ داوودُ .

لَمْ تَقْبَلِ ٱلسِّلْمَ إِلَّا بَعْدَ مَقْدِرَةٍ وَلَا تَأَلَّفْتَ إِلَّا بَعْدَ تَبْدِيدِ

يقولُ : لم تَقبلِ السِّلمَ مِنْ أهلِ السِّندِ إلَّا بعدَما قدرتَ عليهِم ، ولا جمعتَهُم إلَّا بعدَ تبديدٍ ؛ أي : بعدَما بدَّدتَهُم بالحربِ ، والإيقاعِ بهِم والقتلِ .

حَتَّىٰ أَجَابُوكَ مِنْ مُسْتَأْمِنٍ حَذِرٍ رَاجٍ وَمُنْتَظِرٍ حَتْفاً وَمَثْمُودِ

يقولُ : حتىٰ أجابوكَ ؛ بعضُهُم يطلبُ منكَ الأمانَ ، ويحذرُ سطوتَكَ ، وبعضُهُم مثمودٌ ؛ أي : لم يبقَ مِنْ أجلِهِ إلَّا قليلٌ ؛ يعني : الجرحىٰ .

أَهْدَىٰ إِلَيْكَ عَلَى ٱلشَّحْنَاءِ أُلْفَتَهُمْ مَوْتٌ تَفَرَّقَ فِي شَتَّىٰ عَبَادِيدِ

العباديدُ : المُتفرِّقونَ ؛ يقولُ : أهدى الموتُ إليكَ أُلفتَهُم معَ العداوةِ التي بينَكَ وبينَهُم .

وَفِي يَدَيْكَ بَقَايَا مِنْ سَرَاتِهِمُ هُمُ لَدَيْكَ عَلَىٰ وَعْدٍ وَتَوْعِيدِ

يقولُ : وفي يدَيكَ بقايا مِنْ سَرَاتِهِم ؛ أي : أشرافِهِم ؛ يرجونَكَ ويخافونَكَ ؛ لأنَّكَ أخذتَهُم علىٰ غيرِ عهدٍ .

---

(١) في « شرح ديوان صريع الغواني » (ص ١٦٨) : (الفحص) بدل (الصبح) ، وتقدمت قريباً بلفظ (الضحّ) .

إِنْ تَعْفُ عَنْهُمْ فَأَهْلُ ٱلْعَفْوِ أَنْتَ وَإِنْ   تُـمْـضِ ٱلْـعِـقَـابَ فَـأَمْـرٌ غَـيْـرُ مَـرْدُودِ

يقولُ : إن تَعفُ عنهُم . . فأنتَ أهلٌ للعفوِ ، وإن قتلتَهُم . . فأمرُكَ نافذٌ .

اِسْمَعْ فَإِنَّكَ قَدْ هَيَّجْتَ مَلْحَمَةً   وَفَـدْتَ مِـنْـهَـا بِـأَرْوَاحِ ٱلـصَّـنَـادِيـدِ

يقولُ : اسمعْ مدحي لكَ ؛ **فقد هَيَّجتَ ملحمةً** : رجعتَ منها بأرواحِ أهلِ السِّندِ .

اِقْذِفْ أَبَا مَالِكٍ فِيهَا يَكُنْكَ بِهَا   وَيَـسْـعَ فِـيـهَـا بِـجَـدٍّ مِـنْـكَ مَـجْـدُودِ

أبا مالكٍ[1] : ولدُهُ ؛ يقولُ لهُ : ألقِ ولدَكَ في الحربِ . . يقمْ مَقامَكَ **فيها بجَدٍّ** ؛ أي : بختٍ **مجدودٍ** ؛ أي : مبخوتٍ .

يَمْضِي بِعَزْمِكَ أَوْ يَجْرِي بِشَأْوِكَ أَوْ   يَـفْـرِي بِـحَـدِّكَ كُـلٌّ غَـيْـرُ مَـحْـدُودِ

الشَّأوُ : الطلقُ ، **يفري** : يقطعُ ، **والحدُّ ها هنا** : النجدةُ .

لَا يَعْدَمَنْكَ حِمَى ٱلْإِسْلَامِ مِنْ مَلِكٍ   أَقَـمْـتَ قُـلَّـتَـهُ مِـنْ بَـعْـدِ تَـأْوِيـدِ

يقولُ : لا فقدَكَ حمى الدِّينِ ؛ فإنَّكَ قد حميتَهُ ، وأقمتَ **قُلَّتَهُ بعدَ تأويدٍ** ، وهوَ المَيلُ ؛ أي : كانَ مالَ فقوَّمتَهُ .

كَفَيْتَ فِي ٱلْمُلْكِ حَتَّىٰ لَمْ يَقِفْ أَحَدٌ   عَـلَىٰ ضِـيَـاعٍ وَلَـمْ يَـحْـزَنْ لِـمَـفْـقُـودِ

يقولُ : كفيتَ بالملكِ حتَّىٰ لم يقلْ أحدٌ : يا حسرتاهْ علىٰ فلانٍ ما كانَ أحماهُ !! **ولم يقفْ أحدٌ علىٰ ضياعٍ** ؛ أي : حمدوكَ .

أَعْطَيْتَهُمْ مِنْكَ نُصْحاً لَا كَفَاءَ لَهُ   وَأَيَّـدُوكَ بِـرُكْـنٍ غَـيْـرِ مَـهْـدُودِ

يقولُ : أعطيتَ بني العباسِ نصحاً منكَ لا قبالَ لهُ ، **وأيَّدوكَ** هم **بركنٍ غيرِ مهدودٍ** ؛ أي : غيرِ منهدمٍ .

---

(١) في « ديوان صريع الغواني » مع الشرح أيضاً (ص ١٧٠) : (ملك) بدل (مالك) في الموضعين .

لَمْ يَبْعَثِ ٱلدَّهْرُ يَوْماً بَعْدَ لَيْلَتِهِ إِلَّا ٱنْبَعَثْتَ لَهُ بِٱلبَأْسِ وَٱلْجُودِ
أَجْرَىٰ لَكَ ٱللهُ أَيَّامَ ٱلْحَيَاةِ عَلَىٰ فِعْلٍ حَمِيدٍ وَجَدٍّ غَيْرِ مَنْكُودِ

يريدُ : جعلَ اللهُ لكَ أيامَ حياتِكَ مباركةً ، لا تفقدُ فيها فعلاً محموداً ، وبختاً صاعداً .

لَا يَفْقِدُ ٱلدِّينُ خَيْلاً أَنْتَ قَائِدُهَا يُعْهَدْنَ فِي كُلِّ ثَغْرٍ غَيْرِ مَعْهُودِ

غيرِ معهودٍ : يريدُ : أنَّهُ يغزو إلى العدوِّ بمواضعَ لم يدخلْها أحدٌ .

مُحَمَّلَاتٍ إِذَا آبَتْ غَنَائِمُهَا وَمُقْدِمَاتٍ عَلَىٰ نَصْرٍ وَتَأْيِيدِ

يريدُ : هٰذهِ الخيلُ ـ إذا رجعَتْ ـ مُحْقَباتٌ ، وإذا مضتْ . . هيَ منصورةٌ ومُؤيَّدةٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ .

هُنَاكَ أَنَّكَ مَغْدَىٰ كُلِّ مُلْتَمِسٍ جُوداً وَأَنَّكَ مَأْوَىٰ كُلِّ مَطْرُودِ

يقولُ : مَنْ طلبَ جوداً . . فعندَكَ يجدُهُ ، ومَنْ طردَهُ أهلُهُ . . فأنتَ تأويهِ وتجيرُهُ عمَّن يَطلبُهُ .

تَسْتَأْنِفُ ٱلْحَمْدَ فِي دَهْرٍ أَوَائِلُهُ مَوْسُومَةٌ بِفَعَالٍ مِنْكَ مَحْمُودِ

تستأنفُ الحمدَ ؛ أي : تبتدئُهُ في دهرٍ أوائلُهُ موسومةٌ بفَعالِكَ الجميلةِ المحمودةِ التي تُحمَدُ عليها .

إِذَا عَزَمْتَ عَلَىٰ أَمْرٍ بَطَشْتَ بِهِ وَإِنْ أَنَلْتَ فَنَيْلاً غَيْرَ تَصْرِيدِ

يقولُ : **وإن أنلتَ** ؛ أي : أعطيتَ عطاءً غيرَ قليلٍ .

عَوَّدْتَ نَفْسَكَ عَادَاتٍ خُلِقْتَ لَهَا صِدْقَ ٱلْحَدِيثِ وَإِنْجَازَ ٱلْمَوَاعِيدِ

الإنجازُ : تنفيذُ الوعدِ بالوفاءِ ، **والمواعيدُ** : جمعُ موعودٍ .

❁ ❁ ❁

داوودُ هٰذا الذي امتدحَهُ مسلمٌ بهٰذهِ القصيدةِ الفريدةِ . . كانَ أحدَ قُوَّادِ الرشيدِ ، ولفظُ القائدِ في ذٰلكَ العصرِ كانَ لقباً لأُمراءِ العسكرِ ، وأهلُ بيتِ هٰذا الممدوحِ إلى المُهلَّبِ ، كانوا في تلكَ الوظيفةِ لملوكِ أعصرِهم ، فكانَ المُهلَّبُ رضيَ اللهُ عنهُ أحدَ التابعينَ ، وأبوهُ أبو صفرةَ أحدُ الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهُ . . مُتولّياً رئاسةَ العسكرِ العراقيّ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ في إمارةِ الحَجَّاجِ .

وإذا عرفتَ أنَّ الممدوحَ كانَ أميرَ عسكرٍ . . **فعليكَ أن تَتأمَّلَ الشِّعرَ** ؛ لتعرفَ كيفَ يُمدَحُ مثلُهُ ، دونَ ما إذا كانَ الممدوحُ ملكاً ، أو كاتباً ، أو جابيَ خراجٍ مثلاً ، **فلكلِّ كلامٌ يَخُصُّهُ** ، ومعانٍ تناسبُهُ كما تراهُ فيما تَطَّلِعُ عليهِ مِنَ القصائدِ في الأغراضِ المختلفةِ .

❋ ❋ ❋

[قصيدةٌ لأبي تمامٍ في مدحِ المعتصمِ باللهِ]

وقالَ **أبو تمامٍ حبيبُ بنُ أوسٍ الطائيُّ** يَمدحُ أميرَ المؤمنينَ المعتصمَ باللهِ أبا إسحاقَ محمدَ بنَ هارونَ الرشيدِ ، وكانَ أشجعَ أولادِ الرشيدِ ، غريبَ الفصاحةِ والفهمِ علىٰ أُمِّيَّتِهِ ؛ فإنَّهُ لم يَقرأْ كما قرأَ إخوتُهُ .

وسببُ هـٰذهِ القصيدةِ : أنَّ أحدَ أصحابِ الأخبارِ للمعتصمِ وردَ عليهِ يوماً وهوَ في مجلسِ شرابِهِ ، فأخبرَهُ أنَّ بقريةٍ مِنْ قرىٰ عَمُّوريَّةَ أسيرةٌ هاشميةٌ أضرَّ بها مَنْ هيَ في يدِهِ ، فنادَتْ : **وا معتصماهْ** ، فقالَ لها : **سيأتيكِ المعتصمُ علىٰ فرسٍ أبلقَ** ؛ يَهزأُ بها .

فقالَ المعتصمُ عندَ سماعِ ذٰلكَ : لبيكِ لبيكِ ، وأمرَ ساقيَهُ أن يَختِمَ على الكأسِ الذي كانَ معَهُ لمناولتِهِ إيَّاهُ ، وحلفَ أنَّهُ لا يَشربُهُ إلَّا بعدَ إنقاذِ الأسيرةِ ، وأمرَ أن **يُجهَّزَ الجيشُ بخيلٍ بُلْقٍ** .

ولمَّا صَمَّمَ على الخروجِ مِنْ فورِهِ . . قالَ لهُ المُنجِّمونَ : إنَّ هـٰذهِ الساعةَ لا تَصلُحُ للخروجِ ، وأبدَوا حُجَّتَهُم في ذٰلكَ ، فلم يصغِ لهُم ، وكانَ الفتحُ والسعادةُ علىٰ خلافِ حكمِ المُنجِّمينَ ، فذٰلكَ ما يشيرُ لهُ أبو تمامٍ في أوَّلِ القصيدةِ ، وكانَ أصحابُ عَمُّوريَّةَ يقولونَ بحكمِ تنجيمِهِم : إنَّهُ إذا جاءَ المعتصمُ بجيشِهِ في هـٰذهِ الأيامِ ولم يَنتصِرْ قبلَ نضجِ التينِ والعنبِ . . فإنَّهُ لا ينتصرُ بعدُ ، ولا تُفتَحُ البلدُ أبداً ، وكانوا لذٰلكَ يحاولونَ تأخيرَ الحربِ حتىٰ تمضيَ تلكَ المُدَّةُ ، فعاجلَهُم ، وفتحَ البلدَ قبلَهُ ، ولذٰلكَ الإشارةُ بقولِهِ : (تسعونَ ألفاً كآسادِ الشرىٰ . . .) البيتَ ، وبعضُ مَنْ لم يَطَّلعْ علىٰ هـٰذا . . عابَ أبا تمامٍ بهـٰذا البيتِ في هـٰذهِ القصيدةِ قائلاً : إنَّ لفظَهُ مِنَ الألفاظِ المُبتذَلةِ الساقطةِ .

ولمَّا أنشدَ هٰذهِ القصيدةَ . . طلبَ المعتصمُ طرباً بها إعادة إنشادِها ، فأعادَهُ ، وأنشدَها ثالثةً مِنْ نفسِهِ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ تجلو هٰذهِ العروسَ ؟! وأمرَ بعَدِّ أبياتِها ، وأجازَهُ لكلِّ بيتٍ بألفٍ ، رحمَهُمُ اللهُ تعالىٰ[1] : [من البسيط]

اَلسَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ ٱلْكُتُبِ ... فِي حَدِّهِ ٱلْحَدُّ بَيْنَ ٱلْجِدِّ وَٱللَّعِبِ

بِيضُ ٱلصَّفَائِحِ لَا سُودُ ٱلصَّحَائِفِ فِي ... مُتُونِهِنَّ جِلَاءُ ٱلشَّكِّ وَٱلرِّيَبِ

وَٱلْعِلْمُ فِي شُهُبِ ٱلْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ ... بَيْنَ ٱلْخَمِيسَيْنِ لَا فِي ٱلسَّبْعَةِ ٱلشُّهُبِ

أَيْنَ ٱلرِّوَايَةُ بَلْ أَيْنَ ٱلنُّجُومُ وَمَا ... صَاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

تَخَرُّصاً وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبِ

النَّبْعُ والغَرَبُ والشَّوحطُ : ثلاثةُ أنواعٍ لجنسٍ واحدٍ مِنَ الشجرِ ، فما نبتَ منهُ في أعلى الجبلِ . . يُسمَّىٰ نَبعاً ، وهوَ أصلبُها ؛ لجفافِ الهواءِ هناكَ ، وتعرُّضِهِ للشمسِ ، **والغَرَبُ** : ما في وسطِ الجبلِ ، **والشَّوحطُ** : ما في أدناهُ ؛ وهوَ أضعفُها ، لمكانِ زيادةِ الرطوبةِ هناكَ ، ومِنَ النبعِ تُعمَلُ القِسيُّ .

عَجَائِباً زَعَمُوا ٱلْأَيَّامَ مُجْفِلَةً ... عَنْهُنَّ فِي صَفَرِ ٱلْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبِ

وَخَوَّفُوا ٱلنَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ ... إِذَا بَدَا ٱلْكَوْكَبُ ٱلْغَرْبِيُّ ذُو ٱلذَّنَبِ

وَصَيَّرُوا ٱلْأَبْرُجَ ٱلْعُلْيَا مُرَتَّبَةً ... مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غَيْرَ مُنْقَلِبِ

يَقْضُونَ بِٱلْأَمْرِ عَنْهَا وَهْيَ غَافِلَةٌ ... مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطُبِ

لَوْ بَيَّنَتْ قَطُّ أَمْراً قَبْلَ مَوْقِعِهِ ... لَمْ يَخْفَ مَا حَلَّ بِٱلْأَوْثَانِ وَٱلصُّلُبِ

فَتْحَ ٱلْفُتُوحِ تَعَالَىٰ أَنْ يُحِيطَ بِهِ ... نَظْمٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ ٱلْخُطَبِ

---

(١) انظر « ديوان أبي تمام » (١/٤٠ ـ ٧٣) .

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ لَهُ   وَتَبْرُزُ ٱلْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا ٱلْقُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ ٱنْصَرَفَتْ   عَنْكَ ٱلْمُنَىٰ حُفَّلاً مَعْسُولَةَ ٱلْحَلَبِ

أَبْقَيْتَ جَدَّ بَنِي ٱلْإِسْلَامِ فِي صَعَدٍ   وَٱلْمُشْرِكِينَ وَدَارَ ٱلْحَرْبِ فِي صَبَبِ

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَنْ تُفْتَدَىٰ جَعَلُوا   فِدَاءَهَا كُلَّ أُمٍّ بَرَّةٍ وَأَبِ

وَبَرْزَةُ ٱلْوَجْهِ قَدْ أَعْيَتْ رِيَاضَتُهَا   كِسْرَىٰ وَصَدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَرِبِ

مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبْلَ ذَٰلِكَ قَدْ   شَابَتْ نَوَاصِي ٱللَّيَالِي وَهْيَ لَمْ تَشِبِ

بِكْرٌ فَمَا ٱفْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ   وَلَا تَرَقَّتْ إِلَيْهَا هِمَّةُ ٱلنُّوَبِ

حَتَّىٰ إِذَا مَخَّضَ ٱللهُ ٱلسِّنِينَ لَهَا   مَخْضَ ٱلْحَلِيبَةِ كَانَتْ زُبْدَةَ ٱلْحِقَبِ

أَتَتْهُمُ ٱلْكُرْبَةُ ٱلسَّوْدَاءُ سَادِرَةً   مِنْهَا وَكَانَ ٱسْمُهَا فَرَّاجَةَ ٱلْكُرَبِ

جَرَىٰ لَهَا ٱلْفَأْلُ نَحْساً يَوْمَ أَنْقَرَةٍ   إِذْ غُودِرَتْ وَحْشَةَ ٱلسَّاحَاتِ وَٱلرَّحَبِ

لَمَّا رَأَتْ أُخْتَهَا بِٱلْأَمْسِ قَدْ خَرِبَتْ   كَانَ ٱلْخَرَابُ لَهَا أَعْدَىٰ مِنَ ٱلْجَرَبِ

كَمْ بَيْنَ حِيطَانِهَا مِنْ فَارِسٍ بَطَلٍ   قَانِي ٱلذَّوَائِبِ مِنْ آنِي دَمٍ سَرِبِ

بِسُنَّةِ ٱلسَّيْفِ وَٱلْخَطِّيِّ مِنْ دَمِهِ   لَا سُنَّةِ ٱلدِّينِ وَٱلْإِسْلَامِ مُخْتَضِبِ

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهَا   لِلنَّارِ يَوْماً ذَلِيلَ ٱلصَّخْرِ وَٱلْخَشَبِ

غَادَرْتَ فِيهَا بَهِيمَ ٱللَّيْلِ وَهْوَ ضُحىً   يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ ٱللَّهَبِ

حَتَّىٰ كَأَنَّ جَلَابِيبَ ٱلدُّجَىٰ رَغِبَتْ   عَنْ لَوْنِهَا أَوْ كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

ضَوْءٌ مِنَ ٱلنَّارِ وَٱلظَّلْمَاءُ عَاكِفَةٌ   وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحىً شَحِبِ

فَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وَقَدْ أَفَلَتْ   وَٱلشَّمْسُ وَاجِبَةٌ مِنْ ذَا وَلَمْ تَجِبِ

تَصَرَّحَ ٱلدَّهْرُ تَصْرِيحَ ٱلْغَمَامِ لَهَا   عَنْ يَوْمِ هَيْجَاءَ مِنْهَا طَاهِرٍ جُنُبِ

لَمْ تَطْلُعِ ٱلشَّمْسُ فِيهِ يَوْمَ ذَاكَ عَلَىٰ ... بَانٍ بِأَهْلٍ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَىٰ غَرَبِ (١)
مَا رَبْعُ مَيَّةَ مَعْمُوراً يَطِيفُ بِهِ ... غَيْلَانُ أَبْهَىٰ رُبىً مِنْ رَبْعِهَا ٱلْخَرِبِ
وَلَا ٱلْخُدُودُ وَإِنْ أُدْمِينَ مِنْ خَجَلٍ ... أَشْهَىٰ إِلَىٰ نَاظِرِي مِنْ خَدِّهَا ٱلتَّرِبِ
سَمَاجَةً غَنِيَتْ مِنَّا ٱلْعُيُونُ بِهَا ... عَنْ كُلِّ حُسْنٍ بَدَا أَوْ مَنْظَرٍ عَجَبِ
وَحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تَبْدُو عَوَاقِبُهُ ... جَاءَتْ بَشَاشَتُهُ عَنْ سُوءِ مُنْقَلَبِ
لَمْ يَعْلَمِ ٱلْكُفْرُ كَمْ مِنْ أَعْصُرٍ كَمَنَتْ ... لَهُ ٱلْمَنِيَّةُ بَيْنَ ٱلسُّمْرِ وَٱلْقُضُبِ
تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِٱللهِ مُنْتَقِمٍ ... لِلهِ مُرْتَقِبٍ فِي ٱللهِ مُرْتَهَبِ
وَمُطْعِمُ ٱلنَّصْلِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ (٢) ... يَوْماً وَلَا حُجِبَتْ عَنْ رُوحِ مُحْتَجِبِ
لَمْ يَغْزُ قَوْماً وَلَمْ يَنْهَضْ إِلَىٰ بَلَدٍ ... إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ ٱلرُّعُبِ
لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ ٱلْوَغَىٰ لَغَدَا ... مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ
رَمَىٰ بِكَ ٱللهُ بُرْجَيْهَا فَهَدَّمَهَا ... وَلَوْ رَمَىٰ بِكَ غَيْرُ ٱللهِ لَمْ يُصِبِ
مِنْ بَعْدِمَا أَشَّبُوهَا وَاثِقِينَ بِهَا ... وَٱللهُ مِفْتَاحُ بَابِ ٱلْمَعْقِلِ ٱلْأَشِبِ
وَقَالَ ذُو أَمْرِهِمْ لَا مَرْتَعٌ صَدَدٌ ... لِلسَّارِحِينَ وَلَيْسَ ٱلْوِرْدُ مِنْ كَثَبِ
أَمَانِياً سَلَبَتْهُمْ نُجْحَ هَاجِسِهَا ... ظُبَا ٱلسُّيُوفِ وَأَطْرَافُ ٱلْقَنَا ٱلسُّلُبِ
إِنَّ ٱلْحِمَامَيْنِ مِنْ بِيضٍ وَمِنْ سُمُرٍ ... [دَلْوَا] ٱلْحَيَاتَيْنِ مِنْ مَاءٍ وَمِنْ عُشُبِ
لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ ... كَأْسَ ٱلْكَرَىٰ وَرُضَابَ ٱلْخُرَّدِ ٱلْعُرُبِ
عَدَاكَ حَرُّ ٱلثُّغُورِ ٱلْمُسْتَضَامَةِ عَنْ ... بَرْدِ ٱلثُّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا [ٱلْحَصِبِ]

---

(١) في « ديوان أبي تمام » (١/٥٥) : (عزب) بدل (غرب) .
(٢) في « ديوان أبي تمام » (١/٥٨) : (ومُطْعَمُ النصرِ) بدل (ومطعم النصل) .

أَجَبْتُهُ مُعْلِناً بِٱلسَّيْفِ مُنْصَلِتاً وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ ٱلسَّيْفِ لَمْ تُجِبِ
حَتَّىٰ تَرَكْتَ عَمُودَ ٱلشِّرْكِ مُنْقَعِراً وَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى ٱلْأَوْتَادِ وَٱلطُّنُبِ
لَمَّا رَأَى ٱلْحَرْبَ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ تُوفَلِسٌ وَٱلْحَرْبُ مُشْتَقَّةُ ٱلْمَعْنَىٰ مِنَ ٱلْحَرَبِ
غَدَا يُصَرِّفُ بِٱلْأَمْوَالِ [جِزْيَتَهَا] فَعَزَّهُ ٱلْبَحْرُ ذُو ٱلتَّيَّارِ وَٱلْعِيَبِ
هَيْهَاتَ زُعْزِعَتِ ٱلْأَرْضُ ٱلْوَقُورُ بِهِ عَنْ غَزْوِ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوِ مُكْتَسِبِ
لَمْ يُنْفِقِ ٱلذَّهَبَ ٱلْمُرْبِي بِكَثْرَتِهِ عَلَى ٱلْحَصَىٰ وَبِهِ فَقْرٌ إِلَى ٱلذَّهَبِ
إِنَّ ٱلْأُسُودَ أُسُودَ ٱلْغَابِ هِمَّتُهَا يَوْمَ ٱلْكَرِيهَةِ فِي ٱلْمَسْلُوبِ لَا ٱلسَّلَبِ
وَلَّىٰ وَقَدْ أَلْجَمَ ٱلْخَطِّيُّ مَنْطِقَهُ بِسَكْتَةٍ تَحْتَهَا ٱلْأَحْشَاءُ فِي صَخَبِ
أَحْسَىٰ قَرَابِينَهُ صَرْفَ ٱلرَّدَىٰ وَمَضَىٰ يَحْتَثُّ أَنْجَىٰ مَطَايَاهُ مِنَ ٱلْهَرَبِ
مُوَكَّلاً بِيَفَاعِ ٱلْأَرْضِ يُشْرِفُهُ مِنْ خِفَّةِ ٱلْخَوْفِ لَا مِنْ خِفَّةِ ٱلطَّرَبِ
إِنْ يَعْدُ مِنْ حَرِّهَا عَدْوَ ٱلظَّلِيمِ فَقَدْ أَوْسَعْتَ جَاحِمَهَا مِنْ كَثْرَةِ ٱلْحَطَبِ
تِسْعُونَ أَلْفاً كَآسَادِ ٱلشَّرَىٰ نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ ٱلتِّينِ وَٱلْعِنَبِ
يَا رُبَّ حَوْبَاءَ لَمَّا ٱجْتُثَّ دَابِرُهُمْ طَابَتْ وَلَوْ ضُمِّخَتْ بِٱلْمِسْكِ لَمْ تَطِبِ
وَمُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ ٱلسُّيُوفِ بِهِ حَيَّ ٱلرِّضَا عَنْ رَدَاهُمْ مَيِّتَ ٱلْغَضَبِ
وَٱلْحَرْبُ قَائِمَةٌ فِي مَأْزِقٍ لَجِبٍ تَجْثُو ٱلرِّجَالُ بِهِ صُغْراً عَلَى ٱلرُّكَبِ
كَمْ نِيلَ تَحْتَ سَنَاهَا مِنْ سَنَا قَمَرٍ وَتَحْتَ عَارِضِهَا مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ
كَمْ كَانَ فِي قَطْعِ أَسْبَابِ ٱلرِّقَابِ بِهَا إِلَى ٱلْمُخَدَّرَةِ ٱلْعَذْرَاءِ مِنْ سَبَبِ
كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ ٱلْهِنْدِيِّ مُصْلَتَةً تَهْتَزُّ مِنْ قُضُبٍ تَهْتَزُّ فِي كُثُبِ
بِيضٌ إِذَا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ حُجْبِهَا رَجَعَتْ أَحَقَّ بِٱلْبِيضِ أَبْدَاناً مِنَ ٱلْحُجُبِ

خَلِيفَةَ ٱللهِ جَازَى ٱللهُ سَعْيَكَ عَنْ   جُرْثُومَةِ ٱلدِّينِ وَٱلْإِسْلَامِ وَٱلْحَسَبِ

بَصُرْتَ بِٱلرَّاحَةِ ٱلْكُبْرَىٰ فَلَمْ تَرَهَا   تُنَالُ إِلَّا عَلَىٰ جِسْرٍ مِنَ ٱلتَّعَبِ

إِنْ كَانَ بَيْنَ صُرُوفِ ٱلدَّهْرِ مِنْ رَحِمٍ   مَوْصُولَةٍ أَوْ ذِمَامٍ غَيْرِ مُنْقَضِبِ

فَبَيْنَ أَيَّامِكَ ٱللَّاتِي نُصِرْتَ بِهَا   وَبَيْنَ أَيَّامِ بَدْرٍ أَقْرَبُ ٱلنَّسَبِ

أَبْقَتْ بَنِي ٱلْأَصْفَرِ ٱلْمُصْفَرِّ كَٱسْمِهِمُ   صُفْرَ ٱلْوُجُوهِ وَجَلَّتْ أَوْجُهَ ٱلْعَرَبِ

* * *

[قصيدةٌ لابنِ نباتةَ السعديِّ في مدحِ ابنِ بويهَ]

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ نباتةَ السَّعديُّ ـ وهوَ أحدُ أشياخِ الشريفِ الرضيّ ـ يمدحُ عضدَ الدولةِ وتاجَ المِلَّةِ ابنَ بويهَ في النَّيروزِ ، وكانَ قدِ احتفلَ في جلوسِهِ سنةَ سبعٍ وستينَ وثلاثِ مئةٍ ، وكانوا يَتَّخذونَ هٰذا اليومَ ـ وهوَ يومُ حُلولِ الشمسِ في المِيزانِ ـ موسماً عيديّاً على السَّنَنِ القديمِ في العَجَمِ ، وكذٰلكَ كانوا يَتَّخذونَ يومَ حُلولِ الشمسِ في الحملِ ، ويُسمَّى المِهرجانَ (١) :

[من الطويل]

سَتَعْلَمُ أَيَّ [ٱلْغَايَتَيْنِ] أُرِيدُ ... فَإِنَّ ٱلْهُوَيْنَىٰ لِلرِّجَالِ قُيُودُ

أُحِبُّ مِنَ ٱلْفِتْيَانِ كُلَّ غَشَمْشَمٍ ... لَهُ شِيَعٌ مِنْ نَفْسِهِ وَعَدِيدُ

يُنَهْنِهُهُ ٱلْأَعْدَاءُ وَهْوَ مُصَمِّمٌ ... هَجُومٌ عَلَىٰ مَا يَكْرَهُونَ وَرُودُ

يُخَاطِرُ فِي حُبِّ ٱلثَّنَاءِ بِنَفْسِهِ ... وَهَلْ لِغُلَامٍ فِي ٱلزَّمَانِ خُلُودُ

وَمَوْلىً أُدَارِي طَيْشَهُ وَهْوَ نَافِرٌ ... [أَذَبُّ] كَأُنْبُوبِ ٱلْيَرَاعِ شَرُودُ

أُكَابِدُ مِنْهُ غَصَّةً مَا يَسِيغُهَا ... مِنَ ٱلْقَوْمِ إِلَّا حَازِمٌ وَجَلِيدُ

يُعِينُ عَلَيَّ ٱلْخَصْمَ لَا يَسْتَعِينُهُ ... وَأَدْفَعُ عَنْ حَوْبَائِهِ وَأَذُودُ

إِذَا مَا رَأَيْتَ ٱلرُّمْحَ يَعْسِلُ نَحْوَهُ ... تَعَرَّضَ نَحْرٌ دُونَهُ وَوَرِيدُ

وَقُلْتُ تَعَلَّمْ أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ ... لَهَا كَاشِحٌ مِنْ أَهْلِهَا وَحَسُودُ

وَأَنَّ نَوَامِيسَ ٱلرِّجَالِ قَدِيمَةٌ ... تَوَارَثَ عَادٌ مُكْرَهاً وَثَمُودُ

وَلَٰكِنَّ تَاجَ ٱلْمِلَّةِ ٱلْيَوْمَ حَلَّهَا ... عَلَى ٱلدَّهْرِ حَتَّىٰ لَيْسَ فِيهِ عُقُودُ

---

(١) انظر « ديوان ابن نباتة السعدي » (١/٥٤٨ ـ ٥٥٣) .

فَتىً هَجَرَ ٱللَّذَّاتِ وَٱلْعَيْشُ مُونِقٌ ... رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلطُّرَّتَيْنِ بَرُودُ
وَقَاسَىٰ بَدِيعَاتِ ٱلْأُمُورِ بِنَفْسِهِ ... إِلَىٰ أَنْ عَلَاهُ ٱلشَّيْبُ وَهْوَ وَلِيدُ
لَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِكْرَةٌ عَضُدِيَّةٌ ... يُصَرَّفُ وَعْدٌ بِينَهَا وَوَعِيدُ
تَرَحَّلُ فِيهَا لِلْفَعَالِ عَزَائِمٌ ... وَتَنْزِلُ فِيهَا لِلْهُمُومِ وُفُودُ
وَفَضَّلَهُ حَزْمٌ وَعَزْمٌ وَنَائِلٌ ... وَهَمٌّ لَهُ فِي ٱلْمَكْرُمَاتِ بَعِيدُ
وَصَبْرٌ إِذَا نَابَتْ خُطُوبٌ مُلِمَّةٌ ... يَقُومُ لَهَا وَٱلْفَاعِلُونَ قُعُودُ
تَلُوحُ وَرَاءَ ٱلنَّقْعِ غُرَّةُ وَجْهِهِ ... كَمَا لَاحَ مِنْ ضَوْءِ ٱلصَّبَاحِ عَمُودُ
فَمَا وَلَدَتْ بِيضُ ٱلْحَواصِنِ مِثْلَهُ ... وَلَا نُوَبُ ٱلْأَيَّامِ وَهْيَ وَلُودُ
أَطَبُّ بِدَاءٍ مَا يُصَابُ دَوَاؤُهُ ... وَأَعْلَمُ بِٱلْأَنْوَاءِ أَيْنَ تَجُودُ
وَأَطْعَنُ مِنْهُ فِي نِيَاطِ كَتِيبَةٍ ... بِهَا ٱلسَّيْفُ أَعْمَىٰ وَٱلسِّنَانُ بَلِيدُ
تَسِيرُ أَمَامَ ٱلْجَيْشِ قَبْلَ مَسِيرِهِ ... كَتَائِبُ مِنْ آرَائِهِ وَجُنُودُ
ثَلَاثِينَ شَهْراً مِنْ مَشَارِقِ فَارِسٍ ... إِلَى ٱلرُّومِ نَقْعٌ سَاطِعٌ وَوَئِيدُ
وَمُرْدٌ عَلَىٰ حَدِّ ٱلْمُتُونِ رِمَاحُهُمْ ... وَجُرْدٌ عَلَىٰ أَكْتَافِهِنَّ لُبُودُ
ثَنَاهُنَّ عَنْ أَرْضِ ٱلْحِمَىٰ مُتَنَكِّبٌ ... يُرِيدُ بِهِنَّ ٱللهُ حَيْثُ يُرِيدُ
فَإِنْ لَمْ تَذُقْ فِيهَا ٱلرُّقَادَ فَطَالَمَا ... سَهِرْتَ وَأَيْقَاظُ ٱلْخُطُوبِ رُقُودُ
شَفَيْتَ مِنَ ٱلْغِلِّ ٱلْكَمِينِ عِصَابَةً ... تَكِيدُ مَعَ ٱلشَّيْطَانِ حَيْثُ تَكِيدُ (١)
إِذَا تُرِكَتْ يَوْماً تَقُولُ فَإِنَّهَا ... تَصُولُ وَكُلُّ ٱلضَّارِيَاتِ أُسُودُ
فَيَا غَنَماً نَامَتْ بِمِصْرَ رِعَاؤُهَا ... بِكِ ٱلذِّئْبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبَهَامِ عَمِيدُ

---

(١) في « ديوان ابن نباتة السعدي » (١/٥٥١) : (يكيد) .

دَعِي مَرْتَعَ ٱلْآرَامِ مِنْ بَطْنِ جَاسِمٍ إِلَى ٱلرَّمْلِ يَنْمِي حَمْضُهُ وَيَزِيدُ
وَلَا تُرِدِي بِٱلْغُوطَتَيْنِ وَقِيعَةً يُغَازِلُهَا لَمْعَ ٱلْغَزَالَةِ سِيدُ
فَإِنِّي أَظُنُّ ٱلرِّيحَ سَوْفَ تَدُلُّهُ عَلَيْكِ وَبَيْنَ ٱلْمَنْهَلَيْنِ بَرِيدُ
وَخَادَعَهَا عَنْ جَدِّهَا وَمَرَاحِهَا ذُؤَالَةُ مِثْلُ ٱلسَّمْهَرِيِّ يَمِيدُ
تَطَامَنْ لَهَا وَٱنْصُبْ حِبَالَكَ حَجْرَةً فَإِنَّ نُوَارَ ٱلْوَحْشِ سَوْفَ تَرُودُ
وَإِنْ شَرَدَتْ وَٱلْعِقْدُ حُلَّ نِظَامُهُ فَأَكْبَرُ ظَنِّي أَنَّهَا سَتَعُودُ
وَسَرَّكَ بِٱلْفُسْطَاطِ جَمْعٌ أَظُنُّهُ [يَغُرُّكَ] لَوْ عَضَّ ٱلْحَدِيدَ حَدِيدُ
أَإِنْ عُطِّلَتْ كَأْسُ ٱلنَّدِيمِ وَرُشِّحَتْ (١) لِغَايَتِهَا قَبُّ ٱلْأَبَاطِلِ قُودُ
وَأَسْرَعَ غِبَّ ٱلْمَحْضِ فِي غُلَوَائِهَا فَلَمْ يَبْقَ فِيهَا لِلصَّنِيعِ مَزِيدُ
تَمَنَّيْتَ فِي لَهْوِ ٱلْحَدِيثِ لِقَاءَهَا وَإِنَّكَ مَا لَمْ تَلْقَهَا لَسَعِيدُ
وَإِنَّ عَلَيْهَا جُنَّةٌ فَارِسِيَّةٌ مُنَاقِلُهَا (٢) يَوْمَ ٱلطِّرَادِ طَرِيدُ
وَكُلُّ رَقِيقِ ٱلشَّفْرَتَيْنِ كَأَنَّهُ وَقَدْ أَخْلَقَتْهُ ٱلْحَادِثَاتُ جَدِيدُ
عَقَائِقُ أَمَّا لَمْعُهَا فَبَوَارِقٌ عَلَيْكَ وَأَمَّا وَقْعُهَا فَرُعُودُ
يُعَوِّدُهَا ضَرْبَ ٱلْجَمَاجِمِ قَاهِرٌ عَلَى ٱلنَّاسِ مَعْبُودُ ٱلْجَلَالِ مَجِيدُ

افتخرَ في مطلعِ القصيدةِ بكونِهِ ذا بأسٍ وعزيمةٍ ، وقفَّاهُ بأثرِ ذٰلكَ ، ثمَّ افتخرَ بالمحافظةِ علىٰ نسبةِ الصُّحبةِ أوِ القرابةِ كيفَما كانَ الصَّاحبُ أوِ القريبُ في قولِهِ : (ومولىً) ، وبالغَ في ذٰلكَ ، وأحسنَ فيهِ تقريرَ مذهبِهِ .

ثمَّ عادَ إلىٰ خطابِ نفسِهِ يُسلِّيها بما يكونُ عذراً يبني عليهِ احتمالَ عيوبِ

(١) في « ديوان ابن نباتة السعدي » (١/٥٥٢) : (عوطيت) بدل (عطلت) .
(٢) في « ديوان ابن نباتة السعدي » (١/٥٥٣) : (مطاعنها) بدل (مناقلها) .

الصَّاحبِ أوِ القريبِ في قولِهِ : (وقلتُ تَعلَّمْ) ، وعطفَ عليهِ معلوماً آخَرَ ؛ وهوَ أنَّ نواميسَ الرجالِ ـ أي : حيلَهُم وأشراكَ مكايدِهِم ـ ما زالَتْ في الناسِ قديماً ، واستدركَ علىٰ ذٰلكَ مُتخلِّصاً للمدحِ بأنَّ ممدوحَهُ أزالَ تلكَ الحيلَ وكشفَ الأمورَ ، وضَمَّنَ معنىٰ (حلَّ) في قولِهِ : (حلَّها على الدهرِ) معنىٰ (ضيعَ) ، مثلَ قولِهِم : (ضيَّعتَ علىٰ فلانٍ تعبَهُ في كذا) .

ثمَّ استرسلَ في المدحِ اللائقِ بالملوكِ ذوي الهممِ العاليةِ والعزائمِ الماضيةِ ، مشيراً إلىٰ وقائعِ الممدوحِ وحروبِهِ ، وسعةِ مملكتِهِ ، مائلاً إلىٰ ذكرِ بعضِ الجهاتِ ـ كمصرَ ـ برداءةِ السياسةِ ، وكونِها تحتَ خطرِ أن يُلتفتَ إليها ، ويومي إلىٰ عسكرِها بالتحذيرِ والنصيحةِ ؛ بتركِ التعرُّضِ إلىٰ معارضتِهِ .

وشعرُ ابنِ نباتةَ هٰذا ـ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ ـ يطلبُ بشِدَّةِ دقَّتِهِ وبُعْدِ إشارتِهِ ممَّنْ يَطَّلِعُ عليهِ أن يَتلبَّثَ في تعقُّلِهِ وتَفهُّمِ أغراضِهِ بيتاً بيتاً ، وفصلاً فصلاً .

❋ ❋ ❋

[مِنْ شعرِ الشريفِ الرضيِّ في النَّسيبِ]

ومِنْ شعرِ الشريفِ محمدٍ الرضيِّ ـ وشعرُهُ كما سبقَ التنبيهُ عليهِ كثيرٌ جدّاً ، وديوانُهُ موجودٌ بدارِ الكتبِ الكبيرةِ ، فلنكتفِ مِنْ شعرِهِ بإيرادِ ما يكونُ أُنموذجاً يُستدَلُّ بهِ علىٰ باقيهِ ، فإن أردتَ استيفاءَ قراءتِهِ . . فقد علمتَ مكانَهُ ـ قولُهُ في النَّسيبِ ، وطريقتُهُ فيهِ تُسمَّىٰ **بالطَّريقةِ الغراميةِ**(١) : [من البسيط]

يَا ظَبْيَةَ ٱلْبَانِ تَرْعَىٰ فِي خَمَائِلِهَا ... لِيَهْنَكِ ٱلْيَوْمَ أَنَّ ٱلْقَلْبَ مَرْعَاكِ

اَلْمَاءُ عِنْدَكِ مَبْذُولٌ لِشَارِبِهِ ... وَلَيْسَ يُرْوِيكِ إِلَّا [مَدْمَعِي] ٱلْبَاكِي

هَبَّتْ لَنَا مِنْ رِيَاحِ ٱلْغَوْرِ رَائِحَةٌ ... بَعْدَ ٱلرُّقَادِ عَرَفْنَاهَا بِرَيَّاكِ

ثُمَّ ٱنْثَنَيْنَا إِذَا مَا هَزَّنَا طَرَبٌ ... عَلَى ٱلرِّحَالِ تَعَلَّلْنَا بِذِكْرَاكِ

سَهْمٌ أَصَابَ وَرَامِيهِ بِذِي سَلَمٍ ... مَنْ بِٱلْعِرَاقِ لَقَدْ أَبْعَدْتِ مَرْمَاكِ

حَكَتْ لِحَاظُكِ مَا فِي ٱلرِّيمِ مِنْ مُلَحٍ ... يَوْمَ ٱللِّقَاءِ وَكَانَ ٱلْفَضْلُ لِلْحَاكِي

كَأَنَّ طَرْفَكِ يَوْمَ ٱلْجِزْعِ يُخْبِرُنَا ... بِمَا طَوَىٰ عَنْكِ مِنْ أَسْمَاءِ [قَتْلَاكِ]

أَنْتِ ٱلنَّعِيمُ لِقَلْبِي وَٱلْغَرَامُ لَهُ ... فَمَا أَمَرَّكِ فِي قَلْبِي [وَأَحْلَاكِ]

عِنْدِي رَسَائِلُ شَوْقٍ لَسْتُ أَذْكُرُهَا ... لَوْلَا ٱلرَّقِيبُ لَقَدْ بَلَّغْتُهَا فَاكِ

وَعْدٌ لِعَيْنِكِ عِنْدِي مَا وَفَيْتُ بِهِ ... يَا قُرْبَ مَا كَذَبَتْ عَيْنِيَ عَيْنَاكِ

سَقَىٰ مِنىً وَلَيَالِي ٱلْخَيْفِ مَا شَرِبَتْ ... مِنَ ٱلْغَمَامِ وَحَيَّاهَا وَحَيَّاكِ

إِذْ يَلْتَقِي كُلُّ ذِي دَيْنٍ وَمَاطِلَهُ ... مِنَّا وَيَجْتَمِعُ ٱلْمَشْكُوُّ وَٱلشَّاكِي

---

(١) انظر « ديوان الشريف الرضي » (٢/١٠٧ ـ ١٠٨) .

لَمَّا غَدَا ٱلسِّرْبُ يَعْطُو بَيْنَ أَرْحُلِنَا مَا كَانَ فِيهِمْ غَرِيمُ ٱلْقَلْبِ إِلَّاكِ
هَامَتْ بِكِ ٱلْعَيْنُ لَمْ [تَتْبَعْ] سِوَاكِ هَوىً مَنْ أَعْلَمَ ٱلْعَيْنَ أَنَّ ٱلْقَلْبَ يَهْوَاكِ
يَا حَبَّذَا نَفْحَةٌ مَرَّتْ بِفِيكِ لَنَا وَنُطْفَةٌ غَمَسَتْ فِيهَا ثَنَايَاكِ
وَحَبَّذَا وَقْفَةٌ وَٱلرَّكْبُ مُعْتَقِلٌ عَلَىٰ ثَرىً وَخَدَتْ فِيهِ مَطَايَاكِ
لَوْ كَانَتِ ٱللِّمَّةُ ٱلسَّوْدَاءُ مِنْ عُدَدِي يَوْمَ ٱلْغَمِيمِ لَمَا أَفْلَتِّ أَشْرَاكِي

وقولُهُ (١) : [من البسيط]

يَا لَيْلَةَ ٱلسَّفْحِ أَلَّا عُدْتِ ثَانِيَةً سَقَىٰ زَمَانَكِ هَطَّالٌ مِنَ ٱلدِّيَمِ
مَاضٍ مِنَ ٱلْعَيْشِ لَوْ يُفْدَىٰ بَذَلْتُ لَهُ كَرَائِمَ ٱلْمَالِ مِنْ خَيْلٍ وَمِنْ نَعَمِ
لَمْ أَقْضِ مِنْكِ لُبَانَاتٍ ظَفِرْتُ بِهَا فَهَلْ لِيَ ٱلْيَوْمَ إِلَّا زَفْرَةُ ٱلنَّدَمِ
فَلَيْتَ عَهْدَكِ إِذْ لَمْ يَبْقَ لِي أَبَداً لَمْ يُبْقِ عِنْدِي عَقَابِيلاً مِنَ ٱلسَّقَمِ
تَعَجَّبُوا مِنْ تَمَنِّي ٱلْقَلْبِ مُؤْلِمَهُ وَمَا دَرَوْا أَنَّهُ خِلْوٌ مِنَ ٱلْأَلَمِ
رُدُّوا عَلَيَّ لَيَالِيَّ ٱلَّتِي سَلَفَتْ لَمْ أَنْسَهُنَّ وَلَا بِٱلْعَهْدِ مِنْ قِدَمِ
أَقُولُ لِلَّائِمِ ٱلْمُهْدِي مَلَامَتَهُ ذُقِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنِ ٱسْطَعْتَ ٱلْمَلَامَ لُمِ
وَظَبْيَةٍ مِنْ ظِبَاءِ ٱلْإِنْسِ عَاطِلَةٍ تَسْتَوْقِفُ ٱلْعَيْنَ بَيْنَ ٱلْخَمْصِ وَٱلْهَضَمِ
لَوْ أَنَّهَا بِفِنَاءِ ٱلْبَيْتِ سَائِحَةٌ لَصِدْتُهَا وَٱبْتَدَعْتُ ٱلصَّيْدَ فِي ٱلْحَرَمِ
قَدَرْتُ مِنْهَا بِلَا رُقْبَىٰ وَلَا حَذَرٍ عَلَى ٱلَّذِي نَامَ عَنْ لَيْلَىٰ وَلَمْ أَنَمِ
بِتْنَا ضَجِيعَيْنِ فِي ثَوْبَيْ هَوىً وَتُقىً يَلُفُّنَا ٱلشَّوْقُ مِنْ فَرْعٍ إِلَىٰ قَدَمِ

---

(١) انظر « ديوان الشريف الرضي » (٢/٢٧٣ ـ ٢٧٥) .

وَأَمْسَتِ ٱلرِّيحُ كَٱلْغَيْرَىٰ تُجَاذِبُنَا عَلَى ٱلْكَثِيبِ فُضُولُ ٱلرَّيْطِ وَٱللِّمَمِ
يَشِي بِنَا ٱلطِّيبُ أَحْيَاناً وَآوِنَةً يُضِيئُنَا ٱلْبَرْقُ مُجْتَازاً عَلَىٰ أَضَمِ
وَبَاتَ بَارِقُ ذَاكَ ٱلثَّغْرِ يُوضِحُ لِي مَوَاقِعَ ٱللَّثْمِ فِي دَاجٍ مِنَ ٱلظُّلَمِ
وَبَيْنَنَا عِفَّةٌ بَايَعْتُهَا بِيَدِي عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهَا وَٱلرَّعْيِ لِلذِّمَمِ
يُوَلِّعُ ٱلطَّلُّ يُرْدِينَا وَقَدْ نَسَمَتْ رُوَيْحَةُ ٱلْفَجْرِ بَيْنَ ٱلضَّالِ وَٱلسَّلَمِ
وَأَكْتُمُ ٱلصُّبْحَ عَنْهَا وَهْيَ غَافِلَةٌ حَتَّىٰ تَكَلَّمَ عُصْفُورٌ عَلَىٰ عَلَمِ
فَقُمْتُ أَنْفُضُ ثَوْباً مَا تَعَلَّقَهُ غَيْرُ ٱلْعَفَافِ وَرَاءَ ٱلْغَيْبِ وَٱلْكَرَمِ
وَأَلْمَسَتْنِي وَقَدْ جَدَّ ٱلْوَدَاعُ بِنَا كَفّاً يُشِيرُ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلْعَنَمِ
وَأَلْثَمَتْنِيَ ثَغْراً مَا عَدَلْتُ بِهِ أَرْيَ ٱلْجَنَىٰ بِبَنَاتِ ٱلْوَابِلِ ٱلرُّذُمِ
ثُمَّ ٱنْثَنَيْنَا وَقَدْ رَابَتْ ظَوَاهِرُنَا وَفِي بَوَاطِنِنَا بُعْدٌ مِنَ ٱلتُّهَمِ
يَا حَبَّذَا لَمَّةٌ بِٱلرَّمْلِ ثَانِيَةٌ وَوَقْفَةٌ بِبُيُوتِ ٱلْحَيِّ مِنْ أَمَمِ
وَحَبَّذَا نَهْلَةٌ مِنْ فِيكِ بَارِدَةٌ يُعْدِي عَلَىٰ حَرِّ قَلْبِي بَرْدُهَا بِفَمِي
دَيْنٌ عَلَيْكِ فَإِنْ تَقْضِيهِ أَحْيَ بِهِ وَإِنْ أَبَيْتِ تَقَاضَيْنَا إِلَىٰ حَكَمِ
عَجِبْتُ مِنْ بَاخِلٍ عَنِّي بِرِيقَتِهِ وَقَدْ بَذَلْتُ لَهُ دُونَ ٱلْأَنَامِ دَمِي
مَا [سَاعَفَتْنِي] ٱللَّيَالِي بَعْدَ بَيْنِهِمُ إِلَّا بَكَيْتُ لَيَالِينَا بِذِي سَلَمِ
وَلَا ٱسْتَجَدَّ فُؤَادِي فِي ٱلزَّمَانِ هَوىً إِلَّا ذَكَرْتُ هَوَىٰ أَيَّامِنَا ٱلْقُدُمِ
لَا تَطْلُبَنَّ لِيَ ٱلْأَبْدَالَ بَعْدَهُمُ فَإِنَّ قَلْبِيَ لَا يَرْضَىٰ بِغَيْرِهِمِ

❋ ❋ ❋

[مِنْ شعرِ مهيارٍ الدَّيلَميِّ]

ومِنْ شعرِ مِهيارٍ ـ وقدْ سلكَ طريقةً يدعو الأدبُ إلىٰ سلوكِها ؛ لرفعةِ رتبتِها مِنَ البلاغةِ ؛ وهيَ أنَّهُ يجعلُ غزلَ القصيدةِ مُتضمِّناً المعنى الذي قصدَ إنشاءَها لأجلِهِ ـ هـٰذهِ القصيدةُ .

وسببُها : أنَّه سعىٰ بهِ ساعٍ عندَ ملكِ ناحيتِهِ ، وافترىٰ عليهِ أنَّهُ عثرَ بكنزٍ ، فحبسَهُ ذٰلك الملكُ ليلةً ليُخلِّصَهُ منهُ كما جرت بهِ العادةُ في غالبِ الزمانِ مِنْ أخذِ الملوكِ ما يجدُ الناسُ مِنَ الكنوزِ ، ثمَّ تَحقَّقَ عندَ الملكِ كذبُ السِّعايةِ ، فأطلقَهُ ، وعادَ لبِرِّهِ ، فأنشأَها وضَمَّنَها تهنئةً بعيدِ الفطرِ(١) : [من الطويل]

أَمَـا وَهَـوَاهَـا عِـذْرَةً وَتَـنَـصُّـلَا ... لَقَدْ نَقَلَ ٱلْوَاشِي إِلَيْهَا فَأَمْحَلَا

سَـعَـىٰ جَـهْـدَهُ لَـٰكِنْ تَـجَـاوَزَ حَـدَّهُ ... وَكَـثَّـرَ فَـٱرْتَـابَـتْ وَلَـوْ شَـاءَ قَـلَّـلَا

وَقَـالَ فَلَـمْ تُـقْـبَـلْ وَلَـٰكِنْ تَـلَـوَّمَـتْ ... عَـلَـىٰ أَنَّـهُ مَـا قَـالَ إِلَّا لِـتَـقْـبَـلَا

فَـطَـارَحَـهَـا أَنِّـي سَـلَـوْتُ فَـهَـلْ رَأَىٰ ... لَـهُ ٱلذَّمُّ مِثْلِي عَنْ هَوىً أَنَّهُ سَلَا

أَأَنْفُضُ طَوْعاً حُبَّهَا عَنْ جَوَانِحِي ... وَإِنْ كَـانَ حُـبّـاً لِـلْـجَـوَانِـحِ مُـثْـقِـلَا

أَبَى ٱللهُ وَٱلْـقَـلْـبُ ٱلْـوَفِـيُّ بِـعَـهْـدِهِ ... وَإِلْـفٌ إِذَا عُـدَّ ٱلْـهَـوَىٰ كَـانَ أَوَّلَا

أَيَـا صَـاحِـبَـيْ نَـجْـوَايَ يَـوْمَ سُـوَيْـقَـةٍ ... أَنَـاةً وَإِنْ لَـمْ تُـسْـعِـدَا فَـتَـجَـمَّـلَا

سَلَا ظَبْيَةَ ٱلْوَادِي وَمَا ٱلظَّبْيُ مِثْلُهَا ... وَإِنْ كَـانَ مَـصْـقُـولَ ٱلتَّـرَائِـبِ أَكْـحَـلَا

أَأَنْتِ أَمَرْتِ ٱلْبَدْرَ أَنْ يَصْدَعَ ٱلدُّجَىٰ ... وَعَـلَّـمْـتِ غُـصْـنَ ٱلْـبَـانِ أَنْ يَـتَـمَـيَّـلَا

---

(١) انظر « ديوان مهيار الديلمي » (٣/٢٣٢ ـ ٢٣٧) .

وَحَرَّمْتِ يَوْمَ ٱلْبَيْنِ وَقْفَةَ سَاعَةٍ عَلَىٰ عَاشِقٍ ظَنَّ ٱلْوَدَاعَ مُحَلَّلَا
جَمَعْتِ عَلَيْهِ حُرْقَةَ ٱلدَّمْعِ وَٱلْجَوَىٰ وَمَا ٱجْتَمَعَ ٱلدَّاءَانِ إِلَّا لِيَقْتُلَا
هَبِي لِيَ عَيْنِي وَٱحْمِلِي كُلْفَةَ ٱلْأَسَىٰ عَلَى ٱلْقَلْبِ إِنَّ ٱلْقَلْبَ أَصْبَرُ لِلْبَلَا
أَرَاكِ بِوَجْهِ ٱلشَّمْسِ وَٱلْبُعْدُ بَيْنَنَا فَأَقْنَعُ تَشْبِيهاً بِهَا وَتَمَثُّلَا
وَأَذْكُرُ عَذْباً مِنْ رُضَابِكِ مُسْكِراً فَمَا أَشْرَبُ ٱلصَّهْبَاءَ إِلَّا تَعَلُّلَا
هَنِيئاً لِحُبِّ ٱلْمَالِكِيَّةِ إِنَّهُ رَخِيصٌ لَهُ مَا عَزَّ مِنِّي وَمَا غَلَا
تَعَلَّقْتُهَا غِرّاً وَلِيداً وَشَيَّبَتْ وَشِبْتُ وَنَاشِي حُبِّهَا مَا تَكَهَّلَا
وَوَحَّدَهَا فِي ٱلْحُسْنِ قَلْبِي فَمَا لَهُ وَإِنْ وَجَدَ ٱلْأَبْدَالَ أَنْ يَتَبَدَّلَا
رَعَى ٱللهُ قَلْبِي مَا أَبَرَّ بِمَنْ جَفَا وَأَصْبَرَهُ فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلَا
وَأَكْرَمَ عَهْدِي لِلصَّدِيقِ فَإِنَّهُ قَلِيلٌ عَلَى ٱلْحَالَاتِ أَنْ يَتَحَوَّلَا
وَلَيَّنَ أَيَّامِي عَلَيَّ فَإِنَّنِي أُزَاحِمُ ثَهْلَاناً بِهِنَّ وَيَذْبُلَا
وَأَهْلُ زَمَانٍ لَا هَوَادَةَ بَيْنَهُمْ إِذَا ٱسْتُؤْمِنُوا كَانُوا أَخَبَّ وَأَخْتَلَا
صَدِيقُ نِفَاقٍ أَوْ عَدُوُّ فَضِيلَةٍ مَتَىٰ طُبَّ كَانَ ٱلدَّاءُ أَدْهَىٰ وَأَعْضَلَا
وُلُوجٌ عَلَى ٱلشَّرِّ ٱلَّذِي يَرْصُدُونَهُ مَتَىٰ وَجَدُوا يَوْماً إِلَى ٱلشَّرِّ مَدْخَلَا
إِذَا مَا رَأَوْا عِنْدَ ٱمْرِئٍ زَادَ يَوْمِهِ مَشَوْا حَسَداً أَوْ بَاتَ جَوْعَانَ مُرْمِلَا
وَفِي ٱلْأَرْضِ عَنْهُمْ مَذْهَبٌ وَتَفَسُّحٌ فَمَنْ لِيَ أَنْ أَسْطِيعَ أَنْ أَتَرَحَّلَا
أَهُمُّ وَلَٰكِنْ مِنْ وَرَائِي جَوَاذِبٌ أَخَافُ عَلَىٰ أَعْطَانِهَا أَنْ تَسَلَّلَا (١)
وَتُعْلِقُنِي ٱلْآمَالُ مِنْ قُلَلِ ٱلْعُلَا فَأَجْعَلُهَا مِنْهُمْ مَلَاذاً وَمَعْقِلَا

---

(١) في « ديوان مهيار الديلمي » (٣/٢٣٣) : (تشللا) .

نَعَمْ عِنْدَ رُكْنِ ٱلدِّينِ وَٱبْنِ قَوَامِهِ غِنىً وَمُرَادٌ أَنْ أُضَامَ وَأُسْمَلَا (١)
وَفِي يَدِهِ ٱلْبَيْضَاءِ يَقْطُرُ مَاؤُهَا رَبِيعٌ يَرُدُّ ٱلْجَدْبَ أَخْضَرَ مُبْقِلَا
وَبِٱلْقَصْرِ مِنْ دَارِ ٱلسَّلَامِ مُتَوَّجٌ بِإِشْرَاقِهِ أَخْزَى ٱلْبُدُورَ وَأَخْجَلَا
تَرَىٰ خَرَزَاتِ ٱلْمُلْكِ فَوْقَ جَبِينِهِ كَوَاكِبَ نُورٍ ضَوْءُهَا يَمْلَأُ ٱلْفَلَا
يُمِيتُ ٱلنُّفُوسَ قَاطِباً [مُتَنَمِّراً] وَيُحْيِي أَوَاناً بَاسِماً مُتَهَلِّلَا
إِذَا كُفِرَ ٱلنَّعْمَاءُ شَامَ سُيُوفَهُ وَإِنْ سُئِلَ ٱلْإِغْضَاءَ شَامَ ٱلتَّفَضُّلَا
قَرِيبٌ [إِلَى ٱلْمَوْلَىٰ بَعِيدٌ] بِعِزِّهِ عَلَىٰ مَغْمَزِ ٱلْأَعْدَاءِ أَنْ يَتَسَهَّلَا
إِذَا مَنَّ أَعْطَىٰ حُكْمَهُ مُتَثَبِّتاً وَإِنْ هَمَّ أَمْضَىٰ أَمْرَهُ مُتَعَجِّلَا
حَوَىٰ حَوْزَةَ ٱلدُّنْيَا فَدَبَّرَ أَمْرَهَا مَلِيّاً بِتَقْوِيمِ ٱلْأُمُورِ مُعَدِّلَا
أَطَاعَتْهُ أَعْنَاقُ ٱلْبِلَادِ وَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ ٱلْقُلُوبُ رَغْبَةً لَا تَعَمُّلَا
وَدَانَتْ لَهُ ٱلْأَقْدَارُ حَتَّىٰ تَصَرَّفَتْ عَلَىٰ أَمْرِهِ ٱلْمَاضِي صُعُوداً وَنُزَّلَا
إِذَا طَلَبَ ٱلْأَعْدَاءَ [أَنْفَذَ] جَحْفَلاً لَهَا مَا مِنَ ٱلْإِقْبَالِ يَتْبَعُ جَحْفَلَا
كَفَاهُ مَكَانَ ٱلسَّيْفِ وَٱلرُّمْحِ جَدُّهُ فَلَوْ شَاءَ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ حَارَبَ أَعْزَلَا
وَكَمْ عَادَةٍ لِلّٰهِ فِي ٱلنَّصْرِ عِنْدَهُ تَضَمَّنَ بِٱسْتِمْرَارِهَا وَتَكَفَّلَا
وَمِنْ آيَةٍ قَامَتْ بِتَثْبِيتِ مُلْكِهِ وَقَدْ كَادَتِ ٱلْأَقْدَامُ أَنْ تَتَزَلْزَلَا
ظَهَرْتَ جَلَالَ ٱلدَّوْلَتَيْنِ بِفَضْلِهَا وَمُعْجِزِهَا حَتَّىٰ ظَنَنَّاكَ مُرْسَلَا
رَأَى ٱللّٰهُ أَنَّ ٱلْأَرْضَ أَصْلَحُ سِيرَةً عَلَيْكَ وَأَنَّ ٱلنَّاسَ أَجْمَلُ [مَحْفَلَا]
وَأَنَّكَ تَأْوِي فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَيْهِ مُنِيباً نَحْوَهُ مُتَبَتِّلَا

(١) في « ديوان مهيار الديلمي » (٣/٢٣٣) : (وأهملا) .

فَأَوْلَاكَ فِي ضِيقِ ٱلشَّدَائِدِ فُرْجَةً ... وَأَعْطَاكَ مَنْجىً فِي ٱلْخُطُوبِ وَمَوْئِلَا
وَكَمْ آبِقٍ مِنْ رِقِّ [مُلْكِكَ] غَامِطٍ ... لِنُعْمَاكَ لَمْ يَنْهَضْ بِمَا قَدْ تَحَمَّلَا
عَفَوْتَ مِرَاراً عَنْ تَمَادِي ذُنُوبِهِ ... فَأَنْظَرْتَهُ بِٱلْعَفْوِ حَتَّىٰ تَوَغَّلَا
وَبِٱلْأَمْسِ لَجُّوا فِي ٱلشِّقَاقِ وَأَجْلَبُوا ... عَلَيْكَ وَظَنُّوهَا وَحَاشَاكَ فَيْصَلَا
فَلَمْ يَجْنِ ضَعْفُ ٱلرَّأْيِ إِلَّا عَلَيْهِمُ ... وَلَا ٱزْدَدْتَ إِلَّا قُوَّةً وَتَأَثُّلَا
فَسَائِلْ بِهِمْ إِمَّا طَرِيداً مُشَرَّداً ... يَلُوذُ بِصَفْحٍ أَوْ قَتِيلاً مُجَدَّلَا
فَلَا زَالَ مَنْ عَادَاكَ أَبْعَدَ شُقَّةً ... وَأَخْبَثَ أَيَّاماً وَأَخْشَنَ مَنْزِلَا
وَلَا زَالَتِ ٱلرَّايَاتُ وَٱسْمُكَ حَلْيُهَا ... خَوَافِقُ تَحْوِي ٱلْأَرْضَ سَهْلاً وَأَجْبُلَا
إِلَىٰ أَنْ تَرَىٰ بِيضَ ٱلْمُلُوكِ وَسُودَهَا ... قِيَاماً عَلَىٰ أُخْرَىٰ بِسَاطِكَ مُثَّلَا
وَبُلِّغْتَ مِنْ نَجْمَيْكَ يَا بَدْرُ كُلَّمَا ... تُؤَمِّلُ فِي نَجْمٍ عَلَىٰ أُفُقٍ عَلَا
قَدِيمُهُمَا وَٱلطَّالِعُ ٱلْآنَ قَابِساً ... ضِيَاءَكَ حَتَّىٰ يَسْتَتِمَّ وَيَكْمُلَا
وَكَانَا عَلَى ٱلْأَعْدَاءِ [سَيْفَيْ] تَنَاصُرٍ ... شَبِيهَكَ فِيمَا أَحْدَثَا وَتَقَيَّلَا
وَشَدَّاكَ وَٱلضِّرْغَامُ أَمْنَعُ جَانِباً ... وَأَنْهَضُ إِقْدَاماً إِذَا كَانَ مُشْبِلَا
وَكُثِّرْتَ بِٱلْأَوْلَادِ تُرْهِفُ مُنْصُلاً ... طَرِيراً إِلَى ٱلدُّنْيَا وَتَطْبَعُ مُنْصُلَا
أُصُولُهُمُ مَنْصُورَةٌ بِفُرُوعِهِمْ ... إِذَا قَامَ مِنْهُمْ آخِرٌ كَانَ أَوَّلَا
لَكُمْ فِي رِقَابِ ٱلنَّاسِ أَمْرَاسُ ذِمَّةٍ ... بَعِيدٌ عَلَى ٱسْتِحْصَافِهَا أَنْ تُحَلَّلَا
مَفَاتِيحُ هَـٰذَا ٱلرِّزْقِ بَيْنَ أَكُفِّكُمْ ... وَنُصْرَةُ دِينِ ٱللهِ بِيضاً وَذُبَّلَا
فَمَا تَشْهَدُونَ ٱلْحَرْبَ إِلَّا إِذَا غَلَتْ ... وَلَا تَشْتَرُونَ ٱلْحَمْدَ إِلَّا إِذَا غَلَا
أَتَعْرِفُ يَا مَوْلَى ٱلْمُلُوكِ كَقِصَّةٍ ... بُلِيتُ بِهَا بِٱلْأَمْسِ وَٱلْحُرُّ يُبْتَلَىٰ

أَبَعْدَ قُنُوعِي بِٱلثِّمَارِ تَعَفُّفاً[1] وَهَجْرِيَ أَبْوَابَ ٱلْمُلُوكِ تَعَذُّلَا
وَظُلْمِيَ [فَضْلِي] وَٱهْتِضَامِي تَوَحُّدِي مَخَافَةَ أَنْ أُوذَىٰ وَأَنْ أُتَبَذَّلَا
يُسِيءُ رَعَاعُ ٱلنَّاسِ عِنْدَكَ سُمْعَتِي وَتَشْعُرُ أَنِّي حُزْتُ مَالاً مُؤَثَّلَا
وَيُغْرِي بِإِفْقَارِي وَأَنْتَ ٱلَّذِي تَرَىٰ لِمِثْلِيَ أَنْ يَغْنَىٰ وَأَنْ يَتَمَوَّلَا
وَلَٰكِنَّهَا مَا غَيَّرَتْ لَكَ شِيمَةً كَرُمْتَ بِهَا إِلَّا قَلِيلاً كَلَا وَلَا
وَلَمَّا سَعَى ٱلسَّاعِي فَجَاءَكَ كَاذِباً عَلَيَّ بِجَوْرٍ كُنْتَ أَعْلَىٰ وَأَعْدَلَا
أَتَاكَ بِزُورٍ فَاتِحاً فَمَهُ بِهِ فَأَلْقَمْتَهُ بِٱلرَّدِّ تُرْباً وَجَنْدَلَا
تَسَرَّعَ فِيهَا جَالِباً لَكَ إِثْمَهَا وَلَٰكِنْ أَرَاكَ ٱلْحَقُّ أَنْ تَتَمَهَّلَا
فَلَمْ تَأْلُنِي كَشْفاً لِصِدْقِ بَرَاءَتِي وَلَا نَظَراً فِي قِصَّتِي وَتَأَمُّلَا
وَزَنْتَ بِذِكْرِ ٱلْمَالِ مَجْدَكَ فِي ٱلْعُلَا فَكَانَ وِزَانُ ٱلْمَجْدِ عِنْدَكَ أَثْقَلَا
وَحَكَّمْتَ رَأْياً طَاهِرِيّاً وَهِمَّةً بُوَيْهِيَّةً مَا طَبَّقَتْ كَانَ مَفْصِلَا
فَأَرْضَاكَ مِنِّي ٱلصِّدْقُ لَمَّا عَلِمْتَهُ بِبَيِّنَةٍ لَمْ أَسْتَعِرْهَا تَقَوُّلَا
فَإِنْ فَاجَأَتْنِي هَجْمَةٌ مِنْ طُرُوقِهَا تَرَوَّعَ مِنْهَا جَانِبِي وَتَوَجَّلَا
حُبِسْتُ وَلَٰكِنْ كَانَ حَبْساً مُشَرِّفاً أَنَافَ بِذِكْرِي وَٱعْتِقَالاً مُجَمِّلَا
لَئِنْ عَدَّ قَوْمٌ نَكْبَةً حَبْسَ لَيْلَةٍ لَقَدْ كُنْتُ مَنْكُوباً مِنَ ٱلنَّاسِ مُعْزَلَا
وَسَبَّبَ لِي هَٰذَا ٱلْمُقَامُ تَرَفُّعِي وَقَدْ كُنْتُ عَنْهُ سَاهِياً وَمُغَفَّلَا
مَكَانٌ تَمَنَّاهُ ٱلْكَوَاكِبُ عِزَّةً فَتَبْغِي إِلَيْهِ مَهْبِطاً وَتَنَزُّلَا
وَمَنْ لِجَبِينِ ٱلشَّمْسِ لَوْ خَرَّ سَاجِداً لِأَرْضِكَ أَوْ وَافَىٰ ثَرَاكَ مُقَبِّلَا

(١) في « ديوان مهيار الديلمي » (٣/٢٣٥) : (بالثماد) يعني : الماء القليل ، بدل (بالثمار) .

لَبِسْتُ بِهِ ثَوْباً ضَفَا لِيَ فَخْرُهُ بَمَدْحِكَ مَجْرُوراً عَلَيَّ مُذَيَّلَا
سَيَعْلَمُ مَنْ جَرَّ ٱلسِّعَايَةَ أَنَّهُ بِكُرْهِي إِلَىٰ مَا جَرَّ نَفْعِي تَوَصَّلَا
لَقَدْ غَرَسَ ٱلتَّعْرِيضُ بِي فِي [وَبِيئَةٍ] مَتَى ٱسْتُثْمِرَتْ أَجْنَتْهُ صَاباً وَحَنْظَلَا
إِذَا وَسَمَتْ عِرْضَ ٱللَّئِيمِ بِمِيسَمٍ مِنَ ٱلذَّمِّ بَاقٍ وَدَّ لَوْ كَانَ أَغْفَلَا
فَكَانَ شَقِيّاً خَابَ عِنْدَكَ سَعْيُهُ وَفُزْتُ وَكُنْتَ ٱلْمُنْعِمَ ٱلْمُتَفَضِّلَا
أَقِمْ فِيَّ مِنْ عَادَاتِ سَيْبِكَ سُنَّةً هِيَ ٱلْغَيْثُ أَوْ كَانَتْ أَعَمَّ وَأَجْزَلَا
فَكَمْ مِنْ نَوَالٍ مُشْرِفٍ (١) قَدْ حَقَرْتَهُ وَقَلَّلْتَ مِنْ جُمَّاعِهِ فَتَقَلَّلَا
وَعَارِفَةٍ لَوْ يُسْأَلُ ٱلْبَحْرُ بَعْضَهَا تَعَذَّرَ فِي إِخْرَاجِهَا وَتَبَخَّلَا
وَكُنْ مُرْغِماً خَصْمِي بِأَمْرٍ مُشَرِّفٍ تَوَفَّرَ لِي مِنْهُ ٱلْجَمَالُ ٱلْمُعَجَّلَا
وَتَجْبُرُ مِنْ جَاهِي ٱلْكَسِيرِ وَخَلَّتِي فَأَجْدَرُ مَنْ أَسْمَنْتَ مَنْ كُنْتَ مُهْزِلَا
وَثِقْ بِجَزَاءٍ شِعْرُ عَبْدِكَ ضَامِنٌ لِمَا طَابَ مِنْهُ فِي ٱلشِّفَاهِ وَمَا حَلَا
مِنَ ٱلْبَاقِيَاتِ ٱلصَّالِحَاتِ أَرُوضُهَا بِنَفْسِي إِذَا طَابَتْ وَقَلْبِي إِذَا خَلَا
سَوَائِرَ يَقْطَعْنَ ٱلْبِلَادَ حَوَامِلاً دُعَاءً مُجَاباً أَوْ ثَنَاءً مُبَجَّلَا
إِذَا مَا كَسَوْتَ ٱلْعِيدَ مِنْهُنَّ لِبْسَةً تَرَفَّلَ فِيهَا تَائِهاً وَتَخَيَّلَا
وَمَدَّ يَدَ ٱلرَّاجِي نَوَالَكَ مُدْلِياً بِحُرْمَتِهَا مُسْتَشْفِعاً مُتَوَسِّلَا
يُبَشِّرُ عَنْهَا أَنَّهُ عَائِدٌ بِهَا عَلَيْكَ مَدَى ٱلْأَيَّامِ عُمْراً وَأَطْوَلَا
هُوَ ٱلْيَوْمُ أَعْطَاهُ ٱلْإِلَـٰهُ فَضِيلَةً كَمَا كُنْتَ مِمَّنْ يَحْمِلُ ٱلْأَمْرَ مُفْضِلَا
فَقَابِلْ بِهِ وَجْهَ ٱلْخُلُودِ مُبَلِّغاً شُرُوطَ ٱلْمُنَىٰ مَا كَرَّ عِيدٌ وَأَقْبَلَا

---

(١) في « ديوان مهيار الديلمي » (٢٣٧/٣) : (مسرف) بدل (مشرف) .

تُزَخْرَفُ جَنَّاتُ ٱلْعُلَا لَكَ مُفْطِراً   وَصَائِمَ فَرْضٍ كُنْتَ أَوْ مُتَنَفِّلَا

وَكُنْ مُفْطِراً بِٱلْبِرِّ وَٱلْبَسْ عَلَى ٱلتُّقَىٰ   ثَوَابَكَ وَٱنْزِعْ صَوْمَكَ ٱلْمُتَقَبَّلَا

إِلَىٰ أَنْ تَرَىٰ صُمَّ ٱلْجِبَالِ فَلَائِقاً   مُسَيَّرَةً وَٱلْجَوَّ مَاءً مُسَلْسَلَا

إِذَا مَا ٱنْجَلَىٰ صُبْحٌ وَلَسْتَ مُمَلَّكاً   عَلَيْنَا فَلَا شُقَّ ٱلظَّلَامُ وَلَا ٱنْجَلَىٰ

❋ ❋ ❋

[مِنْ شعرِ الوزيرِ الطُّغرائيِّ في مدحِ أبي الفتحِ السَّلجوقيِّ]

ويلتحقُ بمَنْ سبقَ ذكرُهُم مِنْ مشاهيرِ شعراءِ هٰذهِ الطَّبقةِ في جلالةِ المحلِّ ، وعُلُوِّ المكانةِ ، وتمامِ الإجادةِ . . الأميرُ أبو فراسٍ الحارثُ بنُ سعيدٍ الحمدانيُّ ، وقد مضىٰ مثالُ شعرِهِ[1] ، والوزيرُ مؤيدُ الدِّينِ الطُّغرائيُّ صاحبُ « لاميةِ العجمِ » المشهورةِ ، وأبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدٍ التهاميُّ ، فلا بدَّ مِنْ تمثيلِ شعرِهِما ؛ لإتمامِ الفائدةِ .

فمِنْ شعرِ الوزيرِ المذكورِ : قولُهُ يَمدحُ أبا الفتحِ مسعودَ بنَ محمدٍ السَّلجوقيَّ المُلقَّبَ بقسيمِ أميرِ المؤمنينَ ، وكانَ الملوكُ مِنَ العجمِ أيامَ قُوَّةِ الدولةِ العباسيَّةِ يُدعى الواحدُ منهُم : مولىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فلمَّا قَوِيَ أمرُ سلطنةِ العجمِ ، وضَعُفَتِ الدَّولةُ . . كانَ يُلقَّبُ الواحدُ منهُم قسيمَ أميرِ المؤمنينَ ، وكانَ الطُّغرائيُّ بعضَ وزرائِهِم[2] : [من الكامل]

نَظَرِي إِلَىٰ لَمْعِ ٱلْوَمِيضِ حَنِينُ ... وَتَنَفُّسِي لِصَبَا ٱلْأَصِيلِ أَنِينُ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ نَازِلَةِ ٱلْحِمَىٰ ... أَنَّ ٱلْحَبَائِلَ وَٱلسِّهَامَ عُيُونُ
[رَكَزُوا] بِأَبْوَابِ ٱلْقِبَابِ رِمَاحَهُمْ ... وَوَرَاءَهُنَّ أَهِلَّةٌ وَغُصُونُ
آسَادُ مَلْحَمَةٍ وَأُدْمُ صَرِيمَةٍ ... تَحْتَ ٱلْأَكِلَّةِ فَٱلْكِنَاسُ عَرِينُ
وَمَضَوْا يَشِيمُونَ ٱلْوَمِيضَ وَقَدْ هَفَا ... بِخُفُوقِهِ خَضْلُ ٱلرَّبَابِ هَتُونُ
إِلَّا يَكُنْ نَعَبَ ٱلْغُرَابُ بِبَيْنِهِمْ ... أُصُلاً فَقَدْ نَعَبَتْ سَحَائِبُ جُونُ
بَاتُوا وَنَجْوَى ٱلْبَيْنِ بَيْنَ رِحَالِهِمْ ... فَوْضَىٰ وَمُسْتَرَقُ ٱلْحَدِيثِ شُجُونُ

(١) انظر (٤/١١٥) .

(٢) انظر « ديوان الطغرائي » (ص ٣٧٦ ـ ٣٨٥) .

وَتَحَمَّلُوا سَحَراً وَحَشْوُ حُدُوجِهِمْ صُوَرُ [ٱلْجَآذِرِ] وَٱلظِّبَاءُ ٱلْعِينُ
وَوَرَاءَ أَصْدَافِ ٱلْحُدُوجِ يَمُرُّهَا هُوجُ ٱلرَّكَائِبِ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونُ
إِنَّ ٱلْأُلَىٰ أَقْوَتْ رُبُوعُهُمُ لَهُمْ بَيْنَ ٱلْأَضَالِعِ مَنْزِلٌ مَسْكُونُ
نُشِرَتْ رُبُوعُهُمْ بِعَوْدِ قَطِينِهَا فَنُشُورُ رَبْعٍ أَنْ يَعُودَ قَطِينُ
وَمَلِيحَةٍ بَكَرَتْ عَلَيَّ مُلِيحَةً سَحَراً وَقَدْ صَبَغَ ٱلْخُدُودَ جُفُونُ
قَالَتْ عَهِدْتُكَ لَا تُرَاعُ لِحَادِثٍ وَحَصَاةُ قَلْبِكَ لَا تَكَادُ تَلِينُ
فَٱلْيَوْمَ مَا لَكَ مُسْتَكِيناً يَمْتَرِي مَخْزُونَ دَمْعِكَ قَلْبُكَ ٱلْمَحْزُونُ
تَبْغِي سُلُوِّي وَهْوَ أَعْوَزُ مَطْلَبٍ وَطِلَابُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ جُنُونُ
فَأَجَبْتُهَا كُفِّي ٱلْمَلَامَ وَأَقْصِرِي كُلٌّ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ رَهِينُ
لَمْ يُبْقِ عِنْدِي لِلتَّجَلُّدِ مَوْضِعاً بَيْنٌ بِتَفْرِيقِ ٱلْجَمِيعِ قَمِينُ
وَلَقَدْ أَثَرْتُ ٱلْعِيسَ مَا لِظُهُورِهَا مِمَّا أَضَرَّ بِهَا ٱلسِّفَارُ بُطُونُ
مَشَقَ ٱلسُّهُوبُ لُحُومَهُنَّ وَعَرَّقَتْ أَشْلَاءَهُنَّ فَكُلُّ حَرْفٍ نُونُ
يَرْسُفْنَ فِي قَيْدِ ٱلْكَلَالِ كَأَنَّمَا حَرَكَاتُهُنَّ وَقَدْ جَهِدْنَ سُكُونُ
وَلَقَدْ تَرَىٰ وَٱلرِّيحُ رَاسِفَةٌ إِذَا قِيسَتْ إِلَيْهَا وَٱلْوَمِيضُ حَرُونُ
وَكَأَنَّهَا وَٱللَّيْلُ وَحْفٌ فَاحِمٌ عُوجُ ٱلْمَدَارَىٰ وَٱلظَّلَامُ قُرُونُ
يَرْمِي بِهِنَّ نِيَاطَ كُلِّ تَنُوفَةٍ هِمَمٌ وَهَمٌّ فِي ٱلضُّلُوعِ كَمِينُ
هِمَمٌ تُعَاوِرُهَا ٱلْهُمُومُ وَعَزْمَةٌ عَذْرَاءُ شَيَّبَهَا ٱلْخُطُوبُ ٱلْعُونُ
وَإِذَا طَغَىٰ بَحْرُ ٱلزِّمَاعِ فَمَا لَهُ إِلَّا ٱلْقِلَاصُ ٱلْيَعْمُلَاتُ سَفِينُ
وَإِذَا نَبَا ٱلْوَطَنُ ٱلْعَسُوفُ بِأَهْلِهِ فَظُهُورُهُنَّ لِمَنْ حَمَلْنَ حُصُونُ

يَخْبِطْنَ أَحْشَاءَ ٱلدَّيَاجِي أَوْ يُرَىٰ ... لِلصُّبْحِ خَدٌّ وَاضِحٌ وَجَبِينُ
وَلَقَدْ سَلَبْتُ مِرَاحَهُنَّ إِلَىٰ حِمَىٰ ... مَلِكٍ لَهُ رَبُّ ٱلسَّمَاءِ مُعِينُ
مَسْعُودٍ ٱلْمَيْمُونِ طَائِرُهُ ٱلَّذِي ... جَدُّ ٱلْمُنِيخِ بِبَابِهِ مَيْمُونُ
مَلِكِ ٱلْمُلُوكِ ٱبْنِ ٱلسَّلَاطِينِ ٱلْأُلَىٰ ... مَلَكُوا رِقَابَ ٱلْعَالَمِينَ وَدِينُوا
رَكَزُوا بِبُرْقَةَ وَٱلصَّعِيدِ رِمَاحَهُمْ ... وَٱلْهِنْدُ مَرْبِطُ خَيْلِهِمْ وَٱلصِّينُ
مَلَكُوا ٱلْأَعِنَّةَ وَٱلْأَسِنَّةَ وَٱلظُّبَا ... تَحْتَ ٱلْعَجَاجِ بَوَارِقٌ وَدُجُونُ
مَجْدٌ تُوُورِثَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ... وَٱلدَّهْرُ مُقْتَبَلٌ وَآدَمُ طِينُ
فَٱلْعِزُّ أَقْعَسُ وَٱلْجَنَابُ مُمَنَّعٌ ... وَٱلْمَجْدُ أَتْلَعُ وَٱلْفِنَاءُ حَصِينُ
شُغِفَتْ بِدَعْوَتِهِ ٱلْمَنَابِرُ يَافِعاً ... وَصَبَا إِلَيْهِ ٱلْمُلْكُ وَهْوَ جَنِينُ
شَرِقُ ٱلْبَنَانِ بِجُودِهِ غَدِقُ ٱلنَّدَىٰ ... كِلْتَا يَدَيْهِ لِلْعُفَاةِ يَمِينُ
لِلْمُلْكِ مَأْوىً فِي ظِلَالِ يَمِينِهِ ... يَأْوِي إِلَيْهِ ٱلنَّصْرُ وَٱلتَّمْكِينُ
طَرِبُ ٱلشَّمَائِلِ حِينَ تَنْآدُ ٱلْقَنَا ... ثَمِلاً وَيَشْرَقُ بِٱلدِّمَاءِ وَتِينُ
يَنْجَابُ عَنْهُ ٱلنَّقْعُ وَهْوَ كَأَنَّهُ ... قَمَرٌ لَهُ سَعْدُ ٱلسُّعُودِ قَرِينُ
وَٱلْمَشْرِفِيَّةُ فِي ٱلْعَجَاجِ لَوَامِعٌ ... وَٱلْأَعْوَجِيَّةُ فِي ٱلصُّفُوفِ صَفُونُ
وَعَلَيْهِ [نَشْرُ] مِظَلَّةٍ مَكْفُوفَةٍ ... بِٱلدُّرِّ وَٱلْيَاقُوتِ وَهْوَ ثَمِينُ
سَوْدَاءُ حَمْرَاءُ ٱلْحِفَافِ كَأَنَّهَا ... زَهْرُ ٱلشَّقَائِقِ فِي ٱلرِّيَاضِ تَبِينُ
رُفِعَتْ تَرُدُّ ٱلشَّمْسَ عَنْ شَمْسٍ لَهَا ... نُورٌ إِذَا ٱعْتَكَرَ ٱلظَّلَامُ مُبِينُ
شَمْسَانِ يَكْتَنِفَانِهَا مِنْ فَوْقِهَا ... شَمْسٌ وَآخَرُ تَحْتَهَا مَدْجُونُ
فَبِنُورِ تِلْكَ أَضَاءَتِ ٱلدُّنْيَا وَذَا ... ضَاءَتْ بِهِ ٱلدُّنْيَا وَعَزَّ ٱلدِّينُ

فَلَكٌ يَدُورُ عَلَىٰ ذُؤَابَةِ تَاجِهِ　　وَيَكُونُ أَنَّىٰ دَارَ حَيْثُ يَكُونُ
تَمْشِي ٱلْمُلُوكُ ٱلصِّيدُ تَحْتَ رِكَابِهِ　　وَيُظِلُّهُ بِجَنَاحِهِ جِبْرِينُ
وَٱلْجُرْدُ مُثْقَلَةُ ٱلرِّقَابِ يَؤُودُهَا　　حَمْلُ ٱلنُّضَارِ يَكُدُّهَا وَيَزِينُ
سَبَقَتْ حَوَافِرُهَا ٱلنَّوَاظِرَ فَٱسْتَوَىٰ　　سَبْقٌ إِلَىٰ غَايَاتِهَا وَشُفُونُ
لَوْلَا تَرَامِي ٱلْغَايَتَيْنِ لَأَقْسَمَ ٱلرَّ　　اؤُونَ أَنَّ حِرَاكَهَا تَسْكِينُ
قَدْ كَانَ يُشْبِهُهَا ٱلْبُرُوقُ لَوَ ٱنَّهَا　　لَمْ يَعْتَلِقْهَا أَعْيُنٌ وَظُنُونُ
مِنْ كُلِّ جَيَّاشِ ٱلْعِنَانِ إِذَا جَرَىٰ　　يَوْمَ ٱلرِّهَانِ فَسَبْقُهُ مَضْمُونُ
إِنْ يَفْرَعِ ٱلطَّوْدَ ٱلْأَشَمَّ فَأَجْدَلٌ　　أَوْ يَرْكَبِ ٱلْبَحْرَ ٱلْخِضَمَّ فَنُونُ
بِأَخِيهِ شَدَّ ٱللَّهُ أَزْرَ جَلَالِهِ　　فَوَزِيرُهُ مِنْ أَهْلِهِ هَارُونُ
قِدْحَانِ قَدْ نَبَتِ ٱلْحَوَادِثُ عَنْهُمَا　　فَٱلْعُودُ صُلْبٌ وَٱلْغِرَارُ سَنِينُ
جُمِعَا عَلَىٰ رَغْمِ ٱلْعِدَا وَتَسَانَدَا　　فَكِلَاهُمَا صَدْقُ ٱلْقَنَاةِ مَتِينُ
سَبَقَ ٱلْمُجَلِّي وَٱلْمُصَلِّي دُونَهُ　　وَوَرَاءَهُ كُلُّ ٱلْبَرِيَّةِ دُونُ
يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِي بِجَلَالِهِ　　قُضِيَ ٱلْقَضَاءُ وَكُوِّنَ ٱلتَّكْوِينُ
مَرْضَاتُهُ تُحْيِي وَيُرْدِي سُخْطُهُ　　فَهُمَا حَيَاةٌ لِلْوَرَىٰ وَمَنُونُ
عَاثَتْ ذُؤَالَةُ فِي ٱلْقَطِيعِ وَمَا لَهُ　　رَاعٍ وَأَضْحَى ٱللِّصُّ وَهْوَ أَمِينُ
وَتَنَازَعَ ٱلْمُلْكَ ٱلشَّعَاعَ عِصَابَةٌ　　لَمْ يُدْرَ أَيُّهُمُ بِهِ ٱلْمَفْتُونُ
وَتَنَاهَبُوا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلُ ذُو ٱلْ　　ـقَرْنَيْنِ يَمْلِكُهُ وَلَا قَارُونُ
فَبِكُلِّ أَرْضٍ رَايَةٌ وَعِصَابَةٌ　　جُمِعَتْ وَحَرْبٌ لَا تُطَاقُ زَبُونُ
جَرِّدْ عَزِيمَتَكَ ٱلْمَتِينَةَ إِنَّهَا　　فِتَنٌ رَكَدْنَ سُهُولُهُنَّ حُزُونُ

فَبُغَاثُهَا مُسْتَنْسِرٌ وَشَرَارُهَا ... نَارٌ تُشَبُّ وَدُودُهَا تِنِّينُ

وَكَأَنَّمَا ٱلدُّنْيَا وَقَدْ شُحِنَتْ بِهَا ... بَحْرٌ تَكَفَّأَ فُلْكُهُ ٱلْمَشْحُونُ

وَٱرْمِ ٱلصُّفُوفَ بِمِثْلِهِنَّ وَشُنَّهَا ... شَعْوَاءَ يُنْسَىٰ عِنْدَهَا صِفِّينُ

وَٱشْدُدْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ عَمِّكَ إِنَّهُ ... مَوْلَاكَ وَهْوَ بِمَا تُحِبُّ ضَمِينُ

وَٱطْلُعْ عَلَيْهِ بِرَايَةٍ مَنْصُورَةٍ ... إِقْبَالُهُ بِطُلُوعِهَا مَقْرُونُ

أَبَنِي ٱلْمُلُوكِ ٱلصِّيدِ إِنَّ وَرَاءَكُمْ ... خَطْباً إِذَا دَبَّرْتُمُوهُ يَهُونُ

مِنْ قَبْلِ ذَا خَانَ ٱلْأَمِينُ شَقِيقَهُ ... فَأُدِيلَ مِنْهُ لِبَغْيِهِ ٱلْمَأْمُونُ

غَلَبَ ٱلْعَبِيدُ عَلَىٰ مَقَرِّ سَرِيرِكُمْ ... وَٱلْعَبْدُ خَوَّارُ ٱلْقَنَاةِ مَهِينُ

هِيَ جَوْلَةُ ٱلضَّحَّاكِ عَمَّ بَلَاؤُهَا ... كُلَّ ٱلْأَنَامِ فَأَيْنَ أَفْرِيدُونُ

فَٱنْهَضْ لَهَا بِٱلْعَزْمِ يَكْنُفُهُ ٱلظُّبَا ... وَٱلسَّابِرِيَّةُ نَسْجُهَا مَوْضُونُ

وَٱعْصِفْ عَلَيْهِمْ بِٱلْقَوَاضِبِ عَصْفَةً ... تَذَرُ ٱلرِّقَابَ ٱلْغُلْبَ وَهْيَ دَرِينُ

كَايِلْهُمُ بِٱلصَّاعِ صَاعاً وَٱجْزِهِمْ ... بِتِرَاتِهِمْ إِنَّ ٱلتِّرَاتِ دُيُونُ

إِنَّ ٱلْهَوَىٰ وَٱلرَّأْيَ مَالَا نَحْوَكُمْ ... بِرَكَائِبِي وَهَوَى ٱلرِّجَالِ فُنُونُ

أَبْغِي نِهَايَاتِ ٱلْعُلَا وَسَجِيَّتِي ... تَأْبَى ٱلتَّوَسُّطَ فَٱلتَّوَسُّطُ هُونُ

فَٱسْلَمْ لِأُدْرِكَ فِيكَ مَا أَمَّلْتُهُ ... ظَنّاً وَظَنُّ ٱلْأَلْمَعِيِّ يَقِينُ

هٰذا الشعرُ يستعيدُكَ النظرَ فيهِ ، ويستدعيكَ التأمُّلَ في مطالعِهِ ومقاطعِهِ ؛ لتَعرِفَ مِنْ أينَ كانَ عُلُوُّ رتبتِهِ مِنَ البلاغةِ ؛ فإنَّكَ لا تجدُ الشاعرَ قصدَ فيهِ إلى النِّكاتِ وزخرفتِهِ بالمُحسِّناتِ كما هوَ حالُ المُتأخِّرينَ ، وإنَّما قصدَ أن يكونَ الشعرُ مُتخيَّرَ اللفظِ ، مُحكَمَ التركيبِ ، مُتحدِّرَ السلاسةِ ، لا يَتوقَّفُ اللسانُ في إنشادِهِ ، معَ صحَّةِ معانيهِ ، وتمكُّنِ حدودِ فصولِهِ .

وممَّا يكادُ أن يكونَ مِنِ اختراعِ الوزيرِ المذكورِ : جمعُهُ بينَ مدحِ الفتيانِ مِنْ حيِّ الأحبابِ وغزلِ الفتياتِ منهُم ، وقد تابعَهُ في ذٰلكَ وتَوسَّعَ شهابُ الدينِ معتوقٌ الموسويُّ مِنْ مُتأخِّري أهلِ الإجادةِ ، فأكثرُ غزلِهِ مِنْ أوَّلِهِ إلىٰ آخِرِهِ لا يخلو مِنْ ذٰلكَ .

* * *

[مرثيةُ أبي الحسنِ التهاميِّ في ابنٍ لهُ]

ومِنْ شعرِ أبي الحسنِ التهاميِّ قصيدتُهُ الفريدةُ ، البالغةُ في بابِها غايةً لم يبلغْها سواها ، التي يرثي في أوَّلِها صغيراً لهُ أجابَ داعيَ ربِّهِ ، ويفتخرُ في آخِرِها بفضلِهِ ، ويشكو زمانَهُ وحاسديهِ ؛ وهيَ هٰذهِ[1] : [من الكامل]

حُكْمُ ٱلْمَنِيَّةِ فِي ٱلْبَرِيَّةِ جَارِ ... مَا هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

بَيْنَا يُرَى ٱلإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِراً ... حَتَّىٰ يُرَىٰ خَبَراً مِنَ ٱلأَخْبَارِ

طُبِعَتْ عَلَىٰ كَدَرٍ وَأَنْتَ تُرِيدُهَا ... صَفْواً مِنَ ٱلأَقْذَارِ وَٱلأَكْدَارِ

وَمُكَلِّفُ ٱلأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا ... مُتَطَلِّبٌ فِي ٱلْمَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

وَإِذَا رَجَوْتَ ٱلْمُسْتَحِيلَ فَإِنَّمَا ... تَبْنِي ٱلرَّجَاءَ عَلَىٰ شَفِيرٍ هَارِ

فَٱلْعَيْشُ نَوْمٌ وَٱلْمَنِيَّةُ يَقْظَةٌ ... وَٱلْمَرْءُ بَيْنَهُمَا خَيَالٌ سَارِ

فَٱقْضُوا مَآرِبَكُمْ عِجَالاً إِنَّمَا ... أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ ٱلأَسْفَارِ

وَتَرَاكَضُوا خَيْلَ ٱلشَّبَابِ وَبَادِرُوا ... أَنْ تُسْتَرَدَّ فَإِنَّهُنَّ عَوَارِ

فَٱلدَّهْرُ يَخْدَعُ بِٱلْمُنَىٰ وَيُغِصُّ إِنْ ... هَنَّا وَيَهْدِمُ مَا بَنَىٰ بِبَوَارِ

لَيْسَ ٱلزَّمَانُ وَإِنْ حَرَصْتَ مُسَالِماً ... خُلُقُ ٱلزَّمَانِ عَدَاوَةُ ٱلأَحْرَارِ

إِنِّي وُتِرْتُ بِصَارِمٍ ذِي رَوْنَقٍ ... أَعْدَدْتُهُ لِطِلَابَةِ ٱلأَوْتَارِ

وَٱلنَّفْسُ إِنْ رَضِيَتْ بِذَٰلِكَ أَوْ أَبَتْ ... مُنْقَادَةٌ بِأَزِمَّةِ ٱلْمِقْدَارِ

أُثْنِي عَلَيْهِ بِأَثْرِهِ وَلَوَ ٱنَّهُ ... لَمْ يَغْتَبِطْ أَثْنَيْتُ بِٱلآثَارِ

---

(١) انظر « ديوان التهامي » (ص ٤٦١ ـ ٤٧٣) .

يَا كَوْكَباً مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرَهُ وَكَذَاكَ عُمْرُ كَوَاكِبِ ٱلْأَسْحَارِ
وَهِلَالَ أَيَّامٍ مَضَىٰ لَمْ يَسْتَدِرْ بَدْراً وَلَمْ يُمْهَلْ لِوَقْتِ سِرَارِ
عَجِلَ ٱلْخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أَوَانِهِ فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظِنَّةِ ٱلْإِبْدَارِ
وَٱسْتُلَّ مِنْ أَتْرَابِهِ وَلِدَاتِهِ كَٱلْمُقْلَةِ ٱسْتُلَّتْ مِنَ ٱلْأَشْفَارِ
فَكَأَنَّ قَلْبِي قَبْرُهُ وَكَأَنَّهُ فِي طَيِّهِ سِرٌّ مِنَ ٱلْأَسْرَارِ
إِنْ يُعْتَبَطْ صِغَراً فَرُبَّ مُقَحَّمٍ يَبْدُو ضَئِيلَ ٱلشَّخْصِ لِلنُّظَّارِ
إِنَّ ٱلْكَوَاكِبَ فِي عُلُوِّ مَحَلِّهَا لَتُرَىٰ صِغَاراً وَهْيَ غَيْرُ صِغَارِ
وَلَدُ ٱلْمُعَزَّىٰ بَعْضُهُ فَإِذَا مَضَىٰ بَعْضُ ٱلْفَتَىٰ فَٱلْكُلُّ فِي ٱلْآثَارِ
أَبْكِيهِ ثُمَّ أَقُولُ مُعْتَذِراً لَهُ وُفِّقْتَ حِينَ تَرَكْتَ أَلْأَمَ دَارِ
جَاوَرْتُ أَعْدَائِي وَجَاوَرَ رَبَّهُ شَتَّانَ بَيْنَ جِوَارِهِ وَجِوَارِي
أَشْكُو بُعَادَكَ لِي وَأَنْتَ بِمَوْضِعٍ لَوْلَا ٱلرَّدَىٰ لَسَمِعْتَ فِيهِ مَزَارِي
وَٱلشَّرْقُ نَحْوَ ٱلْغَرْبِ أَقْرَبُ شُقَّةً مِنْ بُعْدِ تِلْكَ ٱلْخَمْسَةِ ٱلْأَشْبَارِ
هَيْهَاتَ قَدْ عَلِقَتْكَ أَسْبَابُ ٱلرَّدَىٰ وَٱغْتَالَ عُمْرَكَ قَاطِعُ ٱلْأَعْمَارِ
وَلَقَدْ جَرَيْتَ كَمَا جَرَيْتُ لِغَايَةٍ فَبَلَغْتَهَا وَأَبُوكَ فِي ٱلْمِضْمَارِ
فَإِذَا نَطَقْتُ فَأَنْتَ أَوَّلُ مَنْطِقِي وَإِذَا سَكَتُّ فَأَنْتَ فِي إِضْمَارِي
أُخْفِي مِنَ ٱلْبُرَحَاءِ نَاراً مِثْلَمَا يُخْفِي مِنَ ٱلنَّارِ ٱلزِّنَادُ ٱلْوَارِي
وَأُخَفِّضُ ٱلزَّفَرَاتِ وَهْيَ صَوَاعِدٌ وَأُكَفْكِفُ ٱلْعَبَرَاتِ وَهْيَ جَوَارِ
وَشِهَابُ نَارِ ٱلْحُزْنِ إِنْ طَاوَعْتَهُ أَوْرَىٰ وَإِنْ عَاصَيْتَهُ مُتَوَارِي

وَأَكُفُّ نِيرَانَ ٱلْأَسَىٰ وَلَرُبَّمَا … غُلِبَ ٱلتَّصَبُّرُ فَٱرْتَمَتْ بِشِرَارِ
ثَوْبُ ٱلرِّيَاءِ يَشِفُّ عَمَّا تَحْتَهُ … وَإِذَا ٱلْتَحَفْتَ بِهِ فَإِنَّكَ عَارِ
قَصُرَتْ جُفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنُهَا … أَمْ صُوِّرَتْ عَيْنِي بِلَا أَشْفَارِ
جَفَتِ ٱلْكَرَىٰ حَتَّىٰ كَأَنَّ غِرَارَهُ … عِنْدَ ٱغْتِمَاضِ ٱلْعَيْنِ وَخْزُ غِرَارِ
وَلَوِ ٱسْتَزَارَتْ رَقْدَةٌ لَطَحَا بِهَا … مَا بَيْنَ أَجْفَانِي مِنَ ٱلتَّيَّارِ
أُحْيِي ٱللَّيَالِي ٱلتِّمِّ وَهْيَ تُمِيتُنِي … وَيُمِيتُهُنَّ تَبَلُّجُ ٱلْأَسْحَارِ
حَتَّىٰ رَأَيْتُ ٱلصُّبْحَ تَهْتِكُ كَفُّهُ … بِٱلضَّوْءِ رَفْرَفَ خَيْمَةٍ كَٱلْقَارِ
وَٱلصُّبْحُ قَدْ غَمَرَ ٱلنُّجُومَ كَأَنَّهُ … سَيْلٌ طَغَا فَطَفَا عَلَى ٱلنُّوَّارِ
لَوْ كُنْتَ تُمْنَعُ خَاضَ دُونَكَ فِتْيَةٌ … مِنَّا بِحَارَ عَوَامِلٍ وَشِفَارِ
وَدَحَوْا فُوَيْقَ ٱلْأَرْضِ أَرْضاً مِنْ دَمٍ … ثُمَّ ٱنْثَنَوْا فَبَنَوْا سَمَاءَ غُبَارِ
قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ حَسِبْتَهَا … خُلُجاً تَمُدُّ بِهَا أَكُفُّ بِحَارِ
لَوْ أَشْرَعُوا أَيْمَانَهُمْ فِي طُولِهَا … طَعَنُوا بِهَا عَوْضَ ٱلْقَنَا ٱلْخَطَّارِ
جَنَبُوا ٱلْجِيَادَ إِلَى ٱلْمَطِيِّ وَرَاوَحُوا … بَيْنَ ٱلسُّرُوجِ هُنَاكَ وَٱلْأَكْوَارِ
وَكَأَنَّمَا مَلَؤُوا عِيَابَ دُرُوعِهِمْ … وَغُمُودَ أَنْصُلِهِمْ سَرَابَ قِفَارِ
وَكَأَنَّمَا صَنَعُ ٱلسَّوَابِغِ عَزَّهُ … مَاءُ ٱلْحَدِيدِ فَصَاغَ مَاءَ قَرَارِ
زَرَداً فَأَحْكَمَ كُلَّ مُوصَلِ حَلْقَةٍ … بِحُبَابِهِ فِي مَوْضِعِ ٱلْمِسْمَارِ
فَتَسَرْبَلُوا بِمُتُونِ مَاءٍ جَامِدٍ … وَتَقَنَّعُوا بِحُبَابِ مَاءٍ جَارِ
أُسْدٌ وَلَـٰكِنْ يُؤْثِرُونَ بِزَادِهِمْ … وَٱلْأُسْدُ لَيْسَ تَدِينُ بِٱلْإِيثَارِ

يَتَزَيَّنُ ٱلنَّادِي بِحُسْنِ وُجُوهِهِمْ كَتَزَيُّنِ ٱلْهَالَاتِ بِٱلْأَقْمَارِ
يَتَعَطَّفُونَ عَلَى ٱلْمُجَاوِرِ فِيهِمُ بِٱلْمُنْفِسَاتِ تَعَطُّفَ ٱلْأَظْآرِ
مِنْ كُلِّ مَنْ جَعَلَ ٱلظُّبَا أَنْصَارَهُ وَكَرُمْنَ وَٱسْتَغْنَىٰ عَنِ ٱلْأَنْصَارِ
وَإِذَا هُوَ ٱعْتَقَلَ ٱلْقَنَاةَ حَسِبْتَهَا صِلّاً تَأَبَّطَهُ هِزَبْرٌ ضَارِ
وَٱللَّيْثُ إِنْ ثَاوَرْتَهُ لَمْ يَعْتَمِدْ إِلَّا عَلَى ٱلْأَنْيَابِ وَٱلْأَظْفَارِ
[زَرَدَ] ٱلدِّلَاصَ مِنَ ٱلطِّعَانِ [بِرُمْحِهِ] فِي ٱلْجَحْفَلِ ٱلْمُتَضَايِقِ ٱلْجَرَّارِ (١)
مَا بَيْنَ ثَوْبٍ بِٱلدِّمَاءِ مُضَمَّخٍ زَلَقٍ وَنَقْعٍ بِٱلطِّرَادِ مُثَارِ
وَٱلْهُونُ فِي ظِلِّ ٱلْهُوَيْنَىٰ كَامِنٌ وَجَلَالَةُ ٱلْأَخْطَارِ فِي ٱلْإِخْطَارِ
تَنْدَىٰ أَسِرَّةُ وَجْهِهِ وَيَمِينُهُ فِي حَالَةِ ٱلْإِعْسَارِ وَٱلْإِيسَارِ
وَيَمُدُّ نَحْوَ ٱلْمَكْرُمَاتِ أَنَامِلاً لِلرِّزْقِ فِي أَثْنَائِهِنَّ مَجَارِ
يَحْوِي ٱلْمَعَالِي كَاسِباً أَوْ غَالِباً أَبَداً [يُدَانِي] دُونَهَا وَيُدَارِي
قَدْ لَاحَ فِي لَيْلِ ٱلشَّبَابِ كَوَاكِبٌ إِنْ أُمْهِلَتْ آلَتْ إِلَى ٱلْإِسْفَارِ
وَتَلَهُّبُ ٱلْأَحْشَاءِ شَيَّبَ مَفْرِقِي هَٰذَا ٱلضِّيَاءُ شُوَاظُ تِلْكَ ٱلنَّارِ
شَابَ ٱلْقَذَالُ وَكُلُّ غُصْنٍ صَائِرٌ فَيْنَانُهُ ٱلْأَحْوَىٰ إِلَى ٱلْإِزْهَارِ
وَٱلشِّبْهُ مُنْجَذِبٌ فَلِمْ [بِيضُ] ٱلدُّمَىٰ عَنْ بِيضِ مَفْرِقِهِ ذَوَاتُ نِفَارِ
وَتَوَدُّ لَوْ جَعَلَتْ سَوَادَ قُلُوبِهَا وَسَوَادَ أَعْيُنِهَا خِضَابَ عِذَارِ

---

(١) في « ديوان التهامي » (ص ٤٦٦) :

زَرَدَ ٱلدِّلَاصَ مِنَ ٱلطِّعَانِ بِرُمْحِهِ مِثْلُ ٱلْأَسَاوِرِ فِي يَدِ ٱلْإِسْوَارِ
وَيَجُرُّ حِينَ يَجُرُّ صَعْدَةَ رُمْحِهِ فِي ٱلْجَحْفَلِ ٱلْمُتَضَايِقِ ٱلْجَرَّارِ

لَا تَنْفِرُ ٱلظَّبْيَاتُ عَنْهُ فَقَدْ رَأَتْ كَيْفَ ٱخْتِلَافُ ٱلنَّبْتِ فِي ٱلْأَطْوَارِ
شَيْئَانِ يَنْقَشِعَانِ أَوَّلَ وَهْلَةٍ ظِلُّ ٱلشَّبَابِ وَخُلَّةُ ٱلْأَشْرَارِ
لَا حَبَّذَا ٱلشَّيْبُ ٱلْوَفِيُّ وَحَبَّذَا ظِلُّ ٱلشَّبَابِ ٱلْخَائِنِ ٱلْغَدَّارِ
وَطَرِي مِنَ ٱلدُّنْيَا ٱلشَّبَابُ وَرُوقُهُ فَإِذَا ٱنْقَضَىٰ فَقَدِ ٱنْقَضَتْ أَوْطَارِي
قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ وَمَا حَسَنَاتُهُ عِنْدِي وَلَا آلَاؤُهُ بِقِصَارِ
نَزْدَادُ هَمّاً كُلَّمَا ٱزْدَدْنَا غِنىً وَٱلْفَقْرُ كُلُّ ٱلْفَقْرِ فِي ٱلْإِكْثَارِ
مَا زَادَ فَوْقَ ٱلزَّادِ خَلَّفَ ضَائِعاً فِي حَادِثٍ أَوْ وَارِثٍ أَوْ عَارِ
إِنِّي لَأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا [ضَمَّتْ] صُدُورُهُمُ مِنَ ٱلْأَوْغَارِ
نَظَرُوا صَنِيعَ ٱللهِ بِي فَعُيُونُهُمْ فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ
لَا ذَنْبَ لِي قَدْ رُمْتُ كَتْمَ فَضَائِلِي فَكَأَنَّمَا بُرْقِعْتُ وَجْهَ [نَهَارِ]
وَسَتَرْتُهَا بِتَوَاضُعِي فَتَطَلَّعَتْ أَعْنَاقُهَا تَعْلُو عَلَى ٱلْأَسْتَارِ
وَمِنَ ٱلرِّجَالِ مَعَالِمٌ وَمَجَاهِلٌ وَمِنَ ٱلنُّجُومِ غَوَامِضٌ وَدَرَارِي
وَٱلنَّاسُ مُشْتَبِهُونَ فِي إِيرَادِهِمْ وَتَفَاضُلُ ٱلْأَقْوَامِ فِي ٱلْإِصْدَارِ
عَمْرِي لَقَدْ أَوْطَأْتُهُمْ طُرُقَ ٱلْعُلَا فَعَمُوا فَلَمْ يَقِفُوا عَلَىٰ آثَارِي
لَوْ أَبْصَرُوا بِقُلُوبِهِمْ لَٱسْتَبْصَرُوا وَعَمَى ٱلْبَصَائِرِ مِنْ عَمَى ٱلْأَبْصَارِ
هَلَّا سَعَوْا سَعْيَ ٱلْكِرَامِ فَأَدْرَكُوا أَوْ سَلَّمُوا لِمَوَاقِعِ ٱلْأَقْدَارِ
وَفَشَتْ خِيَانَاتُ ٱلثِّقَاتِ وَغَيْرِهِمْ حَتَّى ٱتَّهَمْنَا رُؤْيَةَ ٱلْأَبْصَارِ
وَلَرُبَّمَا ٱعْتَضَدَ ٱلْحَلِيمُ بِجَاهِلٍ لَا خَيْرَ فِي يُمْنَىٰ بِغَيْرِ يَسَارِ

[مِنْ شعرِ التهاميّ في مدحِ الأميرِ أبي نصرِ بنِ مروانَ]

وقولُهُ يَمدحُ الأميرَ نصيرَ الدَّولةِ أبا نصرِ بنَ مروانَ بميَّافارقينَ (١) : [من البسيط]

عَبَسْنَ مِنْ شَعَرٍ فِي ٱلرَّأْسِ مُبْتَسِمِ ... مَا نَفَّرَ ٱلْبِيضَ مِثْلُ ٱلْبِيضِ فِي ٱللِّمَمِ
ظَنَّتْ شَبِيبَتَهُ تَبْقَىٰ وَمَا عَلِمَتْ ... أَنَّ ٱلشَّبِيبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَى ٱلْهَرَمِ
مَا شَابَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلُقِي ... وَلَا وَفَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرَمِي
وَإِنَّمَا ٱعْتَاضَ رَأْسِي غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... وَٱلشَّيْبُ فِي ٱلرَّأْسِ دُونَ ٱلشَّيْبِ فِي ٱلشِّيَمِ
بِٱلنَّفْسِ قَائِلَةٌ فِي يَوْمِ رِحْلَتِنَا ... هَوَاكَ عِنْدِي فَسِرْ إِنْ شِئْتَ أَوْ أَقِمِ
فَبُحْتُ وَجْداً فَلَامَتْنِي فَقُلْنَ لَهَا ... لَا تَعْذُلِيهِ فَلَمْ يَلْؤُمْ وَلَمْ يَلُمِ
لَمَّا صَفَا قَلْبُهُ شَفَّتْ سَرَائِرُهُ ... وَٱلشَّيْءُ فِي كُلِّ صَافٍ غَيْرُ مُكْتَتَمِ
بَعْضُ ٱلتَّفَرُّقِ أَدْنَىٰ لِلِّقَاءِ وَكَمْ ... لَاءَمْتَ شَمْلاً بِشَمْلٍ غَيْرِ مُلْتَئِمِ
كَيْفَ ٱلْمُقَامُ بِأَرْضٍ لَا يُخَافُ بِهَا ... وَلَا يُرَجَّىٰ شَبَا رُمْحِي وَلَا قَلَمِي
فَقَبَّلَتْنِيَ تَوْدِيعاً فَقُلْتُ لَهَا ... كُفِّي فَلَيْسَ ٱرْتِشَافُ ٱلْخَمْرِ مِنْ شِيَمِي
لَوْ لَمْ يَكُنْ رِيقُهَا خَمْراً لَمَا ٱنْتَطَقَتْ ... بِلُؤْلُؤٍ مِنْ حَبَابِ ٱلثَّغْرِ مُنْتَظَمِ
وَلَوْ تَيَقَّنْتُ غَيْرَ ٱلرَّاحِ فِي فَمِهَا ... مَا كُنْتُ مِمَّنْ يَصِيدُ ٱللَّثْمَ بِٱللَّثَمِ
وَزَادَ رِيقَتَهَا فِي ثَغْرِهَا شِيَماً ... عَلَىٰ حَصَىٰ بَرَدٍ مِنْ ثَغْرِهَا شَبِمِ
إِنِّي لَأَطْرُفُ طَرْفِي عَنْ مَحَاسِنِهَا ... تَكَرُّماً وَأَكُفُّ ٱلْكَفَّ عَنْ أَمَمِ
وَلَا أَهُمُّ وَلِي نَفْسٌ تُنَازِعُنِي ... أَسْتَغْفِرُ ٱللهَ إِلَّا سَاعَةَ ٱلْحُلُمِ

---

(١) انظر « ديوان التهامي » (ص ٣٣٣ ـ ٣٥٠) .

لَا أَكْفُرُ ٱلطَّيْفَ نُعْمَىٰ أَنْشَرَتْ رِمَماً		مِنَّا كَمَا تَفْعَلُ ٱلْأَرْوَاحُ بِٱلرِّمَمِ
حَيَّا فَأَحْيَا فَأَغْنَتْنَا زِيَارَتُهُ		عَنِ ٱعْتِسَافِ ٱلْفَلَا بِٱلْأَيْنُقِ ٱلرُّسُمِ
وَصْلُ ٱلْخَيَالِ وَوَصْلُ ٱلْخَوْدِ إِنْ بَخِلَتْ		سِيَّانِ مَا أَشْبَهَ ٱلْوُجْدَانَ بِٱلْعَدَمِ
وَٱلدَّهْرُ كَٱلطَّيْفِ بُؤْسَاهُ وَأَنْعُمُهُ		عَنْ غَيْرِ فَضْلٍ فَلَا تَمْدَحْ وَلَا تَلُمِ
لَا تَحْمَدِ ٱلدَّهْرَ فِي بَأْسَاءَ يَكْشِفُهَا		فَلَوْ أَرَدْتَ دَوَامَ ٱلْبُؤْسِ لَمْ يَدُمِ
خَالِفْ هَوَاكَ فَلَوْلَا أَنَّ أَهْوَنَهُ		سِحْرٌ لَمَا ٱقْتُنِصَ ٱلْعِقْبَانُ بِٱلرَّخَمِ
تَرْجُو ٱلشِّفَاءَ بِجَفْنَيْهَا وَسُقْمِهِمَا		وَهَلْ رَأَيْتَ شِفَاءً جَاءَ مِنْ سَقَمِ
وَتَدَّعِي بِصَبَا نَجْدٍ فَإِنْ خَطَرَتْ		كَانَتْ جَوىً لَكَ دُونَ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ
وَكَيْفَ يُطْفِي صَبَا نَجْدٍ صَبَابَتَهُ		وَٱلرِّيحُ زَائِدَةٌ فِي كُلِّ مُضْطَرِمِ
أَصْبُو وَأَصْحُو وَلَمْ يَكْلَمْ بِبَائِقَةٍ		عِرْضِي كَمَا تُكْلَمُ ٱلْأَعْرَاضُ بِٱلْكَلِمِ
وَلَا أُحِبُّ ثَنَاءً لَا يُصَدِّقُهُ		فِعْلِي وَلَا أَرْتَضِي فِي ٱلْمَجْدِ بِٱلتُّهَمِ
لَا تَحْسَبِي حَسَبَ ٱلْآبَاءِ مَكْرُمَةً		لِمَنْ يُقَصِّرُ عَنْ غَايَاتِ مَجْدِهِمِ
حُسْنُ ٱلرِّجَالِ بِحُسْنَاهُمْ وَفَخْرُهُمُ		بِطَوْلِهِمْ فِي ٱلْمَعَالِي لَا بِطُولِهِمِ
مَا ٱغْتَابَنِي حَاسِدٌ إِلَّا شَرُفْتُ بِهِ		فَحَاسِدِي مُنْعِمٌ فِي زِيِّ مُنْتَقِمِ
فَٱللهُ يَكْلَأُ حُسَّادِي بِأَنْعُمِهِمْ		عِنْدِي وَإِنْ وَقَعَتْ عَنْ غَيْرِ قَصْدِهِمِ
يُنَبِّهُونَ عَلَىٰ فَضْلِي إِذَا كُتِبَتْ (١)		صَحِيفَتِي فِي ٱلْمَعَالِي عُنْوِنَتْ بِهِمِ
يَا طَالِبَ ٱلْمَجْدِ فِي ٱلْآفَاقِ مُجْتَهِداً		وَٱلْمَجْدُ أَقْرَبُ مِنْ سَاقٍ إِلَىٰ قَدَمِ

---

(١) في « ديوان التهامي » (ص ٣٣٩) : (كُبِتَتْ) .

قُـلْ نَـصْـرُ دَوْلَـةِ دِيـنِ ٱللهِ لِـي أَمَـلٌ قَوْلِي وَقَدْ نِلْتَ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْهِمَمِ
كَـمْ حِدْتُ عَنْهُ فَنَادَتْنِي فَضَائِلُهُ يَا حَاتِمَ ٱلْأَدَبِ ٱمْدَحْ حَاتِمَ ٱلْكَرَمِ
وَقَادَنِـي نَـحْـوَهُ ٱلتَّوْفِيقُ ثُـمَّ دَعَـا هَـٰذَا ٱلطَّرِيقُ إِلَى ٱلْعَلْيَاءِ فَٱسْتَقِمِ
وَقَـصْـرُهُ عَـرَفَاتُ ٱلْعُـرْفِ فَٱغْـنَ بِـهِ وَكَـفُّـهُ كَـعْـبَـةُ ٱلْـعَـلْـيَـاءِ فَٱسْـتَـلِـمِ
تَـرَى ٱلْـمُـلُـوكَ عَـلَـىٰ أَبْـوَابِـهِ عُـصَـباً وَفْداً فَدَعْ غَيْرَهُمْ مِنْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ
يَـحُـفُّـهُ كُـلُّ مَـحْـفُـوفٍ [بِـمَـوْكِـبِـهِ] عِـزّاً وَيَـخْـدُمُـهُ ذُو ٱلْـجُـنْـدِ وَٱلْـخَـدَمِ
تَـظَـلُّ مُـزْدَحِـمَـاتٍ فِـي مَـوَاكِـبِـهِ تِـيجَانُ كُلِّ مَهِيبِ ٱلْبَأْسِ وَٱلنِّقَمِ
تَـفَـيَّـؤُوا ظِـلَّ مُـلْـكٍ مِـنْـهُ مُـحْـتَـشَـمٍ وَرُبَّ مُـلْـكٍ مُـذَالٍ غَـيْـرِ مُـحْـتَـشَـمِ
وَٱلْمُلْكُ كَٱلْغَابِ مِنْهُ خِدْرُ ذِي لِبَدٍ وَمِـنْـهُ مُـرْتَـبَـعٌ لِـلـشَّـاءِ وَٱلـنَّـعَـمِ
هُـمْ أَعْـظَـمُ ٱلـنَّـاسِ أَقْـدَاراً وَمَـقْـدِرَةً لَـٰكِنْ أَتَىٰ فَضْلُهُ مِنْ دُونِ فَضْلِهِمِ
إِذَا بَـدَا طَـبَّـقَ ٱلـتَّـقْـبِـيـلُ سَـاحَـتَـهُ فَمَا عَلَى ٱلْأَرْضِ شِبْرٌ غَيْرُ مُلْتَثَمِ
فَـسَـاحَـةُ ٱلـثَّـغْـرِ ثَـغْـرٌ أَشْـنَـبٌ رَتَـلٌ مُـفَـلَّـجٌ فَـهْـوَ مَـرْشُـوفٌ بِـكُـلِّ فَـمِ
كَـأَنَّ أَرْضَـكَ مِـغْـنَـاطِـيسُ كُـلِّ فَـمٍ فَٱلطَّبْعُ يَجْذِبُهَا بِٱلطَّوْعِ وَٱلرَّغَمِ
لَـمَّـا عَـلَـوْتَ غَـمَـرْتَ ٱلْـعَـالَـمِينَ نَـدىً وَٱلْمُزْنُ تَعْلُو فَتُرْوِي ٱلْأَرْضَ بِٱلدِّيَمِ
تَـرْقَـا وَمَـا رَقَـأَتْ نُـعْـمَـاكَ عَـنْ أَحَـدٍ بُورِكْتَ بُورِكْتَ مِنْ عَالٍ وَمُنْسَجِمِ
مُـقَـسَّـمٌ فِـي ٱلْـعُـلَا لِـلْـيُـمْـنِ يَـمْـنَـتُـهُ وَٱلْـيُـسْـرِ يُـسْـرَتُـهُ وَٱلْـكُـلُّ لِـلْـكَـرَمِ
إِنْ قَـالَ لَا فَـهْـيَ آلَاءٌ مُـضَـاعَـفَـةٌ وَإِنْ يَـقُـلْ نَـعَـماً أَفْـضَـتْ إِلَىٰ نِـعَـمِ
تَـبْـدُو صَـرَامَـتُـهُ فِـي مَـاءِ غُـرَّتِـهِ وَٱلْمَاءُ بَعْضُ صِفَاتِ ٱلصَّارِمِ ٱلْحَذِمِ
هُـوَ ٱلْـجَـرِيءُ عَـلَـىٰ مَـالٍ يَـجُـودُ بِـهِ وَٱلْكَرُّ فِي ٱلْجُودِ مِثْلُ ٱلْكَرِّ فِي ٱلْبُهَمِ

مُفَرَّقُ ٱلْجُودِ مَقْسُومٌ مَوَاهِبُهُ … فِي عِلْيَةِ ٱلنَّاسِ وَٱلْأَوْسَاطِ وَٱلْحَشَمِ

وَٱلْغَيْثُ إِنْ جَادَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَزَّعَهُ … بَيْنَ ٱلشَّنَاخِيبِ وَٱلْغِيطَانِ وَٱلْأَكَمِ

بِهِ إِلَىٰ كُلِّ شَرْبٍ لِلْعُلَا ظَمَأٌ … بَرْحٌ وَمَهْمَا ٱرْتَوَىٰ مِنْ مَائِهِنَّ ظَمِي

وَيَعْتَرِيهِ إِلَىٰ بَذْلِ ٱللُّهَىٰ نَهَمٌ … وَٱلظَّرْفُ أَجْمَعُهُ فِي ذَٰلِكَ ٱلنَّهَمِ

إِلَيْكَ نَظَّمْتُ أَجْوازَ ٱلْفَلَاةِ عَلَىٰ … وَجْنَاءَ تَهْوَى ٱنْقِضَاضَ ٱلْجَارِحِ ٱلْقَرِمِ

كَأَنَّمَا ٱلْبِيدُ مِنْ دَامِي مَنَاسِمِهَا … مَصَاحِفٌ كُتِبَتْ أَعْشَارُهَا بِدَمِ

أَخْفَافُهَا شَاكِلَاتٌ كُلَّ [مُشْكِلَةٍ] … بِحُمْرَةٍ مُعْجَمَاتٌ كُلَّ مُنْعَجِمِ

وَأَدْهَمٌ وَاضِحُ ٱلْأَوْضَاحِ مُشْتَرِكٌ … بَيْنَ ٱلنَّهَارِ وَبَيْنَ ٱللَّيْلِ مُنْقَسِمِ

لِلضَّوْءِ أَرْسَاغُهُ إِلَّا حَوَافِرَهُ … فَإِنَّهُنَّ مَعَ ٱلْجِلْبَابِ لِلظُّلَمِ

مُحْلَوْلِكٌ عَلِقَ ٱلتَّحْجِيلُ أَكْرُعَهُ … كَمَا تَعَلَّقَ بَدْءُ ٱلنَّارِ بِٱلْفَحَمِ

جَرَىٰ فَجَلَّىٰ مُحَيَّا ٱلصُّبْحِ غُرَّتَهُ … لَثْماً وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْسَاغِ وَٱلْحَذَمِ

أَضْحَىٰ لِعَذْلِكَ ثَغْرُ ٱلثَّغْرِ مُبْتَسِماً … وَكَانَ قَبْلُ عَبُوساً غَيْرَ مُبْتَسِمِ

مَا يَنْقِمُ ٱلثَّغْرُ إِلَّا أَنْ مَحَوْتَ بِهِ … لَيْلاً مِنَ ٱلظُّلْمِ كَانُوا مِنْهُ فِي ظُلَمِ

عَفَفْتَ عَنْهُمْ فَزَادُوا عِفَّةً وَتُقىً … فَهُمْ مِنَ ٱلْأَمْنِ وَٱلْإِيمَانِ فِي حَرَمِ

قَدْ عَظَّمَ ٱللَّهُ أَمْلَاكاً مَلَكْتَ بِهَا … بَنِي عَقِيلٍ وَمَا يَحْوُونَ مِنْ نِعَمِ

لَوْ لَمْ تَحُزْهَا أَبَا نَصْرٍ لَمَا وَجَدَتْ … كُفْئاً يُشَاكِلُ فِي أَصْلٍ وَلَا كَرَمِ

لَوْ تَطْلُبُ ٱلشَّمْسُ غَيْرَ ٱلْبَدْرِ مَا ٱتَّصَلَتْ … بِمِثْلِهِ فِي سَنَاءِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْعِظَمِ

زَادَتْ إِلَىٰ عِزِّهَا عِزّاً بِهَا مُضَرٌ … وَرُبَّمَا صِيدَتِ ٱلْعَلْيَاءُ بِٱلْحُرَمِ

خَمْسُونَ أَلْفاً يُغَطِّي ٱلْبَرَّ جَمْعُهُمُ … بِمَوْجِ بَحْرٍ مِنَ ٱلْمَاذِيِّ مُلْتَطِمِ

مِـنْ كُـلِّ مَـنْ يَـتَـلَـقَّـىٰ وَجْـهَ زَائِـرِهِ بِـكَـوْكَـبٍ كَـهِـلَالِ ٱلْـفِـطْـرِ مُـلْـتَـئِـمِ
يُـحَـزَّبُـونَ عَـلَـىٰ مَـخْـبُـورَةٍ غَـنِـيَـتْ عَـنِ ٱلْأَعِـنَّـةِ وَٱسْـتَـغْـنَـوْا عَـنِ ٱلْـحُـزُمِ (١)
لِصَاهِلِ ٱلْخَيْلِ مِنْ تَحْتِ ٱلرِّمَاحِ بِهِمْ كَمَا تَزَاءَرَ غُلْبُ ٱلْأُسْدِ فِي ٱلْأُجُمِ
قَوْمٌ يَرَوْنَ ٱحْتِضَارَ ٱلْعُمْرِ مَكْرُمَةً فَلَيْسَ تُفْضِي بِهِمْ سِنٌّ إِلَىٰ هَرَمِ
وَنَغْمَةُ ٱلسَّيْفِ أَحْلَىٰ نَغْمَةٍ خُلِقَتْ إِذَا تَرَنَّمَ بَعْدَ ٱلْبِيضِ فِي ٱللِّمَمِ
وَٱلْعَيْشُ فِي لَفِّ أَفْرَاسٍ مُكَلَّمَةٍ بِمِثْلِهِنَّ وَفُرْسَانٌ بِمِثْلِهِمِ
إِذِ ٱلْأَسِنَّةُ فِي ٱلْهَيْجَاءِ أَلْسِنَةٌ يُعْرِبْنَ عَنْ كُلِّ مِقْدَامٍ وَمُنْهَزِمِ
مُحْمَرَّةٌ مِنْ دَمِ ٱلْأَبْطَالِ أَنْصُلُهُمْ كَأَنَّمَا نَصَلُوا ٱلْأَرْمَاحَ بِٱلْعَنَمِ
قَدْ كُنْتُ أُنْكِرُ شِعْرِي حِينَ حَاوَلَهُ مِنِّي وَحَاشَاكَ أَمْلَاكٌ بِلَا هِمَمِ
لَا يَأْلَمُونَ لِنَقْصِ ٱلْبُخْلِ وَهْوَ بِهِمْ مُبَرِّحٌ كَيْفَ لِلْأَمْوَاتِ بِٱلْأَلَمِ
خَيْرُ ٱلْمَنَاقِبِ مَا كَانَ ٱلْبَيَانُ لَهُ سِلْكاً وَفُصِّلَ بِٱلْأَمْثَالِ وَٱلْحِكَمِ
[رِثْ] كُلَّ مَنْ بَخِلَتْ كَفَّاهُ مِنْ مَلِكٍ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ خُزَّانٌ لِغَيْرِهِمِ
ذُو ٱلْجُودِ يُورِثُ فِي مَحْيَاهُ أَنْعُمَهُ وَٱلنِّكْسُ يُورَثُ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ وَٱلْعَدَمِ
وَقِيمَةُ ٱلْمَرْءِ مَا جَادَتْ بِهِ يَدُهُ وَقَدْرُكَ ٱلْأَنْفَسُ ٱلْأَعْلَىٰ مِنَ ٱلْقِيَمِ
وَٱلْفَضْلُ أَشْيَاءُ شَتَّىٰ أَنْتَ جُمْلَتُهَا وَصِيغَةٌ أَنْتَ مَعْنَاهَا فَدُمْ [تَدُمِ]

بينَ القصيدتَينِ بونٌ بعيدٌ والشاعرُ واحدٌ ، فما كلُّ حينٍ يَجودُ الطَّبعُ بما تهوى النفوسُ ، وما أردأَ تشبيهَهُ ـ وهوَ عنهُ في غنيةٍ ـ في قولِهِ : (كأنَّما البيدُ مِنْ دامي مناسِمِها . . .) البيتَ ؛ فإنَّهُ جمعَ إلىٰ سوءِ الأدبِ كونَهُ صورةً

---

(١) في « ديوان التهامي » (ص ٣٤٧) :
مُـجَـرَّبُـونَ عَـلَـىٰ مَـخْـبُـورَةٍ غَـنِـيَـتْ عَـنِ ٱلْأَعِـنَّـةِ فَٱسْـتَـغْـنَـوْا عَـنِ ٱلْـحُـزُمِ

اختراعيةً ليسَ لها في الخارجِ واقعٌ ؛ إذ ليسَ مِنَ المعهودِ أن تُكتَبَ أعشارُ المصاحفِ بالدمِ .

وبعدُ : فليسَ في القصيدةِ غيرُ أبياتٍ ، وإنَّما أوردتُها لتعرفَ ما أشرنا إليهِ مِنْ تفاوتِ القولِ حتىٰ على الشاعرِ الواحدِ ، فلا تَغترَّ بشهرةِ المشهورِ ولٰكنْ تُحكِّمُ معرفتَكَ ، وعرضُ [ما] تجدُهُ علىٰ ما تَقرَّرَ مِنَ القوانينِ التي بموافقتِها ومخالفتِها يردأُ القولُ ويجودُ .

* * *

[قصيدةٌ للأَرَّجانيِّ في مدحِ المسترشدِ باللهِ]

هـٰذا ؛ وليسَ يَقصُرُ عن درجةِ هـٰؤلاءِ خاتمةُ هـٰذهِ الطَّبقةِ القاضي **ناصحُ الدِّينِ أحمدُ الأَرَّجانيُّ** ، وكانَ مُكثِراً ، حتىٰ قيلَ : إنَّهُ كانَ فرضَ علىٰ نفسِهِ أن يقولَ كلَّ يومٍ ولو أربعةَ أبياتٍ ، لـٰكنِ المُدوَّنُ مِنْ شعرِهِ قليلٌ ، **وهـٰذا مثالُهُ** :

قالَ يمدحُ الإمامَ المسترشدَ باللهِ (١) : [من الطويل]

كَأَنَّكَ بِٱلْأَحْبَابِ قَدْ جَدَّدُوا ٱلْعَهْدَا ... وَأَنْجَزَتِ ٱلْأَيَّامُ مِنْ وَصْلِهِمْ وَعْدَا

وَعَادُوا إِلَىٰ مَا عَوَّدُونَا فَأَصْبَحُوا ... وَقَدْ أَنْعَمَتْ نُعْمٌ وَقَدْ أَسْعَدَتْ سُعْدَىٰ

أَمَانِيَ لَا تُدْنِي نَوىً غَيْرَ أَنَّهَا ... تُعَلِّلُ مِنَّا أَنْفُساً مُلِئَتْ وَجْدَا

وَجَمْرَةُ شَوْقٍ كُلَّمَا لَامَ لَائِمٌ ... وَرَدَّدَ مِنْ أَنْفَاسِهِ زَادَهَا وَقْدَا

أَحِنُّ إِلَىٰ لَيْلَىٰ عَلَىٰ قُرْبِ دَارِهَا ... حَنِينَ ٱلَّذِي يَشْكُو لِأُلَّافِهِ بُعْدَا

وَلِي سِلْكُ جِسْمٍ مِلْؤُهُ دُرُّ أَدْمُعٍ ... فَلَوْلَا ٱلْعِدَا أَمْسَيْتُ فِي جِيدِهَا عِقْدَا

أُكَتِّمُ جَهْدِي حُبَّهَا وَهْوَ قَاتِلِي ... وَكَامِنُ نَارِ ٱلزَّنْدِ لَا يُحْرِقُ ٱلزَّنْدَا

هِلَالِيَّةٌ قَوْماً وَبُعْدُ مَنَازِلٍ ... فَهَلْ مِنْ سَناً مِنْهَا إِلَىٰ مُقْلَةٍ يُهْدَىٰ

غَزَالِيَّةٌ لِلنَّاظِرِينَ إِذَا بَدَتْ ... إِنِ ٱنْتَقَبَتْ عَيْناً وَإِنْ سَفَرَتْ خَدَّا

إِذَا زُرْتُهَا جَرَّ ٱلرِّمَاحَ فَوَارِسٌ ... لِتَقْصِيدِهَا فِيمَنْ يَرُومُ لَهَا قَصْدَا

وَحَالُوا بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا دُونَ ثَغْرِهَا ... كَمَا [ثَارَ] يَحْمِي ٱلنَّحْلُ بِٱلْإِبَرِ ٱلشَّهْدَا

وَآخِرُ عَهْدِي يَوْمَ جَرْعَاءِ مَالِكٍ ... بِمُنْعَرَجِ ٱلْوَادِي وَأَظْعَانُهُمْ تُحْدَىٰ

---

(١) انظر « ديوان الأرجاني » (١/٣٣٢ ـ ٣٤٠) .

وَلَمَّا دَنَتْ وَٱلسِّتْرُ مُرْخىً وَدُونَهَا غَيَارَىٰ غَدَتْ تَغْلِي صُدُورُهُمُ حِقْدَا
تَقَدَّمْتُ أَبْغِي أَنْ أَبِيعَ بِنَظْرَةٍ إِلَىٰ سِجْفِهَا رُوحِي لَقَدْ رَخُصَتْ جِدَّا
أَسِفْتُ عَلَىٰ مَاضِي عُهُودِ أَحِبَّتِي وَهَلْ يَمْلِكُ ٱلْمَحْزُونُ لِلْفَائِتِ ٱلرَّدَّا
أَبَوْا أَنْ يَبِيتَ ٱلصَّبُّ إِلَّا مُعَذَّباً إِذَا بَعُدُوا شَوْقاً وَإِنْ قَرُبُوا صَدَّا
مَتَىٰ وَرَدُوا بِي مَنْهَلاً مِنْ وِصَالِهِمْ قَضَىٰ هَجْرَهُمْ أَنْ يَسْبِقَ ٱلصَّدَرُ ٱلْوِرْدَا
فَكَمْ حَادَ بِي إِنْ لَمْ أَنَلْ مِنْهُمُ مُنىً وَكَمْ عَادَ بِي إِنْ لَمْ أَجِدْ مِنْهُمُ بُدَّا
وَمَا قَاتِلِي إِلَّا لَوَاحِظُ شَادِنٍ مِنَ ٱلرَّاعِيَاتِ ٱلْقَلْبَ لَا ٱلْبَانَ وَٱلرَّنْدَا
عَجِبْتُ لِلَيْلَىٰ وَهْيَ جِدُّ فَرُوقَةٍ وَقَدْ صَرَعَتْ يَوْمَ ٱللِّقَا فَارِساً نَجْدَا
كَأَنَّ مَعَاجَ ٱلْعِيسِ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ وَقَدْ طَفِقَتْ تَصْطَادُ غِزْلَانُهُ ٱلْأُسْدَا
أَظَلَّتْهُ أَيَّامُ ٱلْإِمَامِ بِعَدْلِهِ فَلَمْ يَخْشَ رِيمٌ أَحْوَرٌ أَسَداً وَرْدَا
بِحَقٍّ إِلَيْهِ ٱللهُ أَلْقَىٰ أُمُورَنَا وَللهُ أَوْفَىٰ نَاقِدٍ لِلْوَرَىٰ نَقْدَا
فَقَدْ زَيَّنَ ٱلدُّنْيَا بِآثَارِ كَفِّهِ سَمَاحاً وَخَلَّاهَا لِأَبْنَائِهَا زُهْدَا
يُؤَرِّقُهُ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ لِيَأْمَنُوا إِذَا ٱلدَّهْرُ أَنْحَىٰ نَحْوَهُمْ حَادِثاً إِدَّا
قُلُوبُ ٱلْعِدَا مِنْهُ حِذَاراً كَقَلْبِهِ عَلَيْنَا وَعَيْنَاهُ كَأَعْيُنِهِمْ سُهْدَا
إِذَا مَا ٱلْهُمُومُ ٱلْمُسْهِرَاتُ طَرَقْنَهُ ضُيُوفاً قَرَاهَا جَمْعُهُ ٱلْجِدَّ وَٱلْجَدَّا
وَكَٱلصُّبْحِ مُبْيَضّاً لَهُ ٱلرَّأْيُ يَنْتَضِي إِذَا مَا أَظَلَّ ٱلْخَطْبُ كَٱللَّيْلِ مُسْوَدَّا
بِمُسْتَرْشِدٍ بِٱللهِ مُسْتَخْلِفٍ لَهُ مَلِيكٌ يُرِيكَ ٱللهُ طَاعَتَهُ رُشْدَا
يَحُولُ حِجَابُ ٱلْعِزِّ دُونَ لِقَائِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَعْيَا عَلَىٰ طَالِبٍ رِفْدَا
وَتَنْهَى ٱلْعُيُونَ ٱلشَّمْسُ عَنْهَا إِذَا ٱعْتَلَتْ بُهُوراً وَإِنْ كَانَتْ بِأَنْوَارِهَا تُهْدَىٰ

فَدُمْ لِلْعُلَا يَا خَيْرَ مَنْ مَطَرَ ٱلْوَرَىٰ   نَوَالاً فَلَمْ نَعْرِفْ لَهُ فِي ٱلنَّدَىٰ نِدَّا
وَأَنْتَ ٱلَّذِي قَدْ ضَمَّهُ ٱلْبُرْدُ مِنْ تُقىً   وَمِنْ كَرَمٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرِثَ ٱلْبُرْدَا
وَوُلِّيتَ مِنْ مُلْكِ ٱلْقَضِيبِ شَبِيهَ مَا   تَوَلَّاهُ مَنْ كَانَ ٱلْمُشِيرُ بِهِ جِدَّا
وَمَا هُوَ إِلَّا أَمْرُ أُمَّتِهِ ٱلَّذِي   إِلَيْكَ ٱنْتَهَىٰ إِذْ كُنْتَ مِنْ بَيْنِهَا فَرْدَا
سَرَائِرُ لِلّٰهِ ٱنْطَوَتْ فِي أَمَائِرٍ   أُولُو ٱلْعِلْمِ قَدْ كَانَتْ إِلَىٰ فَهْمِهَا أَهْدَىٰ
إِذَا لَمَحَتْهَا فِطْنَةٌ عَرَبِيَّةٌ   غَدَتْ أَلْسُناً عِنْدَ ٱلْحِجَاجِ لَكُمْ لُدَّا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱبْنَيْ نِزَارٍ تَمَلَّكَا   لَهُ ٱلْقُبَّةَ ٱلْحَمْرَاءَ وَٱلْفَرَسَ ٱلنَّهْدَا
وَكَانَ لِهَـٰذَا بِٱلسِّيَادَةِ حُجَّةً   وَهَـٰذَا يَقُودُ ٱلْخَيْلَ نَحْوَ ٱلْوَغَىٰ جُرْدَا
دَلِيلَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا بِوُضُوحِهِ   لَكَ ٱللّٰهُ رَبُّ ٱلْعَرْشِ أَهْدَى ٱلَّذِي أَهْدَىٰ
نُحِبُّكَ لَا حُبَّ ٱعْتِيَادٍ وَإِنَّمَا   بِذَاكَ عَلَيْنَا ٱللّٰهُ قَدْ أَخَذَ ٱلْعَهْدَا
وَمَا إِنْ نَرَىٰ أَجْراً عَلَى ٱللّٰهِ وَاجِباً   لِمَسْعَىٰ رَسُولِ ٱللّٰهِ إِلَّا لَكَ ٱلْوُدَّا
بِكُمْ آلَ عَبَّاسٍ يُعَاذُ وَمِنْكُمُ   يُعَادُ لَنَا جَزْلُ ٱلْعَطَاءِ كَمَا يُبْدَا
وَأَنْتُمْ شَفِعْتُمْ لِلْحَيَا عِنْدَ حَبْسِهِ   فَأَطْلَقْتُمُوهُ حَائِزِينَ لَهُ حَمْدَا
فَهَلْ غَيْرُكُمْ مِنْ آلِ بَيْتِ مَكَارِمٍ   إِذَا ٱفْتَخَرُوا كَانَ ٱلْغَمَامُ لَهُمْ عَبْدَا
لَكُمْ سَنَّ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْخِلَافَةَ آدَمٌ   وَمِنْ أَجْلِكُمْ لَمْ يَأْسَ إِذْ فَارَقَ ٱلْخُلْدَا
وَفِي ظَهْرِ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ خَبِيئَةٌ   أَكُفُّكُمُ حَتَّىٰ غَدَتْ نَارُهُ بَرْدَا
وَلَوْلَا ٱلَّذِي أَصْبَحْتُمُ خُلَفَاءَهُ   لَمَا كَانَ مِنْ كَوْنٍ مَعَادٌ وَلَا مَبْدَا
وَلَمْ تُخْلَفُوا حَتَّىٰ غَدَا غَايَةَ ٱلَّتِي   تَنَاهَتْ فَمَا عَنْهَا لِذِي نُهْيَةٍ مَغْدَىٰ
تَرَكْتَ بَنِي ٱلْإِلْحَادِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ   وَقَدْ هَدَّ سَيْفُ ٱللّٰهِ بُنْيَانَهُمْ هَدَّا

هُمُ خَلَطُوا ٱلْإِسْلَامَ بِٱلْكُفْرِ خَلْطَةً فَصَيَّرْتَ حَدَّ ٱلسَّيْفِ بَيْنَهُمُ ٱلْحَدَّا
إِذَا ٱلْكَفُّ أَبْدَتْ بِٱغْتِصَابٍ إِشَارَةً إِلَىٰ حَقِّكَ ٱلْمَوْرُوثِ لَمْ تَصْحَبِ ٱلزَّنْدَا
إِذَا رَأْسُ طَاغٍ مَالَ عَنْكَ جَهَالَةً أَبَىٰ حَيْنُهُ إِلَّا ٱلْقَنَاةَ لَهُ قَدَّا
وَمَا ٱرْتَدَّ مُنْحَازٌ فَرُدَّ بِذِلَّةٍ إِلَى ٱلدِّينِ إِلَّا سُرْعَةَ ٱلنَّفَسِ ٱرْتَدَّا
بَقِيتَ لِدَهْرٍ لَمْ تَدَعْ أَهْلَهُ سُدىً وَدِينٍ جَعَلْتَ ٱلسَّيْفَ مِنْ دُونِهِ سَدَّا
إِلَيْكَ أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ سَرَتْ بِنَا رَكَائِبُ أَدْنَتْ مِنْ مَوَاقِفِكَ ٱلْوَفْدَا
لَطَمْنَ بِأَيْدِيهِنَّ خَدّاً مِنَ ٱلْفَلَا عَلَىٰ عَجَلٍ حَتَّىٰ تَرَكْنَ بِهِ خَدَّا
وَقَدْ وَفَدَ ٱلْعَبْدُ ٱلْقَدِيمُ وَلَاؤُهُ لِيُتْبِعَ طُرْفاً مِنْ مَدَائِحِكُمْ تُلْدَا
وَمَا ٱلشِّعْرُ قَاضٍ وَاجِباً مِنْ حُقُوقِكُمْ لَدَيَّ وَلَٰكِنْ مِنْ مُقِلٍّ غَدَا جُهْدَا
وَلَوْلَا مَنَاهِي دِينِ جُودٍ شَرَعْتَهُ عَمَمْتُ بَنَاتِ ٱلْفِكْرِ مِنْ أَنَفٍ وَأْدَا
فِدىً لَكَ نَفْسِي فِي ٱلْعَبِيدِ مِنَ ٱلرَّدَىٰ فَمِثْلِيَ مَنْ يَفْدِي وَمِثْلُكَ مَنْ يُفْدَىٰ
بَقَاءَكَ أَرْجُو ٱللهَ رَبِّي وَظِلَّهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ طُرّاً أَنْ يَمُدَّهُمَا مَدَّا
تَصُومُ عَلَىٰ يُمْنٍ وَتُفْطِرُ دَائِماً وَتَطْلُعُ فِي أُفْقِ ٱلْعُلَا أَبَداً سَعْدَا
وَتَبْقَىٰ إِلَىٰ أَنْ تُبْلِيَ ٱلدَّهْرَ خَالِداً وَلَا سَرَفٌ لِلسَّيْفِ أَنْ يُبْلِيَ ٱلْغِمْدَا (١)

* * *

(١) في « ديوان الأرجاني » (١/٣٤٠) : (شرف) بدل (سرف) .

الطبقةُ الثالثةُ

أشهرُ أهلِها : محمدُ بنُ نباتةَ المصريُّ ، وعصريُّهُ عبدُ العزيزِ بنُ سرايا الحليُّ ، فلنقتصرْ في التمثيلِ علىٰ ما نوردُهُ لهُما .

[قصيدةٌ لابنِ نباتةَ المصريِّ في مدحِ النبيِّ ﷺ]

قالَ ابنُ نباتةَ يَمدحُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ [1] : [من الطويل]

صَحَا ٱلْقَلْبُ لَوْلَا نَسْمَةٌ تَتَخَطَّرُ ... وَلَمْعَةُ بَرْقٍ بِٱلْغَضَا تَتَسَعَّرُ

وَذِكْرُ جَبِينِ ٱلْمَالِكِيَّةِ إِنْ بَدَا ... هِلَالُ ٱلدُّجَىٰ وَٱلشَّيْءُ بِٱلشَّيْءِ يُذْكَرُ

سَقَى ٱللهُ أَكْنَافَ ٱلْغَضَا سُبُلَ ٱلْحَيَا ... وَإِنْ كُنْتُ أُسْقَىٰ أَدْمُعاً تَتَحَدَّرُ

وَعَيْشاً نَضَا عَنْهُ ٱلزَّمَانُ بَيَاضُهُ ... وَخَلَّفَهُ فِي ٱلرَّأْسِ يُزْهَىٰ وَيَزْهَرُ

تَغَيَّرَ ذَاكَ ٱللَّوْنُ مَعْ مَنْ أُحِبُّهُ ... وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَا عَزُّ لَا يَتَغَيَّرُ

وَكَانَ ٱلصِّبَا لَيْلاً وَكُنْتُ كَحَالِمٍ ... فَيَا أَسَفِي وَٱلشَّيْبُ كَٱلصُّبْحِ يُسْفِرُ

يُعَلِّلُنِي تَحْتَ ٱلْعِمَامَةِ كَتْمُهُ ... فَيَعْتَادُ قَلْبِي حَسْرَةً حِينَ أَحْسِرُ

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ صَوْمٌ عَنِ ٱلصِّبَا ... وَقَلْبٌ عَلَىٰ عَهْدِ ٱلْحِسَانِ مُفَطَّرُ

تَذَكَّرْتُ أَوْطَانَ ٱلْوِصَالِ فَأَشْهَبٌ ... مِنَ ٱلدَّمْعِ فِي مَيْدَانِ خَدِّي وَأَحْمَرُ

إِذَا لَمْ تَفِضْ عَيْنِي ٱلْعَقِيقَ فَإِذْ رَأَتْ [2] ... مَنَازِلَهُ بِٱلْوَصْلِ تُبْهَىٰ وَتَبْهَرُ

وَإِنْ لَمْ تُوَاصِلْ عَادَةَ ٱلسَّفْحِ مُقْلَتِي ... فَلَا عَادَهَا عَيْشٌ بِمَغْنَاهُ أَخْضَرُ

---

(١) انظر « ديوان ابن نباتة المصري » (ص ١٨٠ ـ ١٨٣) .

(٢) في « ديوان ابن نباتة المصري » (ص ١٨٠) : (فلا رأت) بدل (فإذ رأت) .

لَيَالِيَ تَجْنِي ٱلْحُسْنَ فِي أَوْجُهِ ٱلدُّمَىٰ وَتَجْنِي عَلَىٰ أَجْسَامِنَا حِينَ تَنْظُرُ
يُؤَثِّرُ فِي خَدِّ ٱلْمَلِيحَةِ لَحْظُهَا وَإِنْ كَانَ فِي مِيثَاقِهَا لَا يُؤَثِّرُ
إِذَا حَلَّ مُبْيَضُّ ٱلْمَشِيبِ بِعَارِضٍ فَمَا هُوَ إِلَّا لِلْمَدَامِعِ مُمْطِرُ
كَأَنِّيَ لَمْ أَتْبَعْ صِباً وَصَبَابَةً خَلِيعَ عِذَارٍ حَيْثُ مَا هِمْتُ أُعْذَرُ
وَلَمْ أَطْرُقِ ٱلْحَيَّ ٱلْخَصِيبَ زَمَانَهُ يُقَابِلُنِي زَهْرٌ لَدَيْهِ وَمِزْهَرُ
وَغَيْدَاءَ أَمَّا جَفْنُهَا فَمُؤَنَّثٌ كَلِيلٌ وَأَمَّا لَحْظُهَا فَمُذَكَّرُ
يَرُوقُكَ جَمْعُ ٱلْحُسْنِ فِي لَحَظَاتِهَا عَلَىٰ أَنَّهُ بِٱلطَّرْفِ جَمْعٌ مُكَسَّرُ
مِنَ ٱلْغِيدِ تُخْفِيهَا ٱلظُّبَا بِحِجَابِهَا وَلَٰكِنَّهَا كَٱلْبَدْرِ فِي ٱلْمَاءِ يَظْهَرُ
يَشِفُّ وَرَاءَ ٱلْمَشْرِفِيَّةِ خَدُّهَا كَمَا شَفَّ مِنْ دُونِ ٱلزُّجَاجَةِ مُسْكِرُ
وَلَا عَيْبَ فِيهَا غَيْرُ سِحْرِ جُفُونِهَا وَأَحْبِبْ بِهَا سَحَّارَةً حِينَ تَسْحَرُ
إِذَا جَرَّدَتْ مِنْ بُرْدِهَا فَهْيَ عَبْلَةٌ وَإِنْ جَرَّدَتْ أَلْحَاظَهَا فَهْيَ عَنْتَرُ
إِذَا خَطَرَتْ فِي ٱلرَّوْضِ طَابَ كِلَاهُمَا فَلَمْ نَدْرِ مَنْ أَزْهَىٰ وَأَشْهَىٰ وَأَعْطَرُ
خَلِيلَيَّ كَمْ رَوْضٍ نَزَلْتُ فِنَاءَهُ وَفِيهِ رَبِيعٌ لِلنَّزِيلِ وَجَعْفَرُ
وَفَارَقْتُهُ وَٱلطَّيْرُ صَافِرَةٌ بِهِ وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهْيَ تَصْفُرُ
إِلَىٰ أَعْيُنٍ بِٱلْمَاءِ نَضَّاخَةِ ٱلصَّفَا إِذَا سُدَّ مِنْهَا مَنْخِرٌ جَاشَ مِنْخَرُ
نَدَامَايَ مِنْ خَوْدٍ وَرَاحٍ وَقَيْنَةٍ ثَلَاثُ شُخُوصٍ [كَاعِبَانِ] وَمُعْصِرُ
قَضَيْتُ لُبَانَاتِ ٱلشَّبِيبَةِ وَٱلْهَوَىٰ وَطَوَّلْتُ حَتَّىٰ آنَ أَنِّي مُقَصِّرُ
وَرُبَّ طَمُوحِ ٱلْعَزْمِ أَدْمَاءَ جَسْرَةٍ يَظَلُّ بِهَا عَزْمِي عَلَى ٱلْبِيدِ يَجْسُرُ
طَوَتْ بِذِرَاعَيْ وَخْدِهَا شُقَّةَ ٱلْفَلَا وَكَفُّ ٱلثُّرَيَّا فِي دُجَى ٱللَّيْلِ تَشْبُرُ

بِصُمِّ ٱلْحَصَىٰ تَرْمِي ٱلْحُدَاةَ كَأَنَّمَا ... تَغَارُ عَلَىٰ مَحْبُوبِهَا حِينَ يُذْكَرُ
إِذَا مَا حُرُوفُ ٱلْعِيسِ خُطَّتْ بِقَفْرَةٍ ... غَدَتْ مَوْضِعَ ٱلْعُنْوَانِ وَٱلْعِيسُ أَسْطُرُ
فَلِلّٰهِ حَرْفٌ لَا تُرَامُ كَأَنَّهَا ... بِوَشْكِ ٱلسُّرَىٰ حَرْفٌ لَدَى ٱلْبِيدِ مُضْمَرُ
[تَخَطَّتْ] بِنَا أَرْضَ ٱلشَّآمِ إِلَىٰ حِمىً ... بِهِ رَوْضَةٌ رَيَّا ٱلْجَنَابِ وَمِنْبَرُ
إِلَىٰ حَرَمِ ٱلْأَمْنِ ٱلْمَنِيعِ جِوَارُهُ ... إِذَا ظَلَّتِ ٱلْأَصْوَاتُ بِٱلرَّوْعِ تَجْأَرُ
إِلَىٰ مَنْ هُوَ ٱلتِّبْرُ ٱلْخَلَاصُ لِنَاقِدٍ ... غَدَاةَ ٱلثَّنَا وَٱلصَّفْوَةُ ٱلْمُتَخَيَّرُ
نَبِيٌّ أَتَمَّ ٱللهُ صُورَةَ فَخْرِهِ ... وَآدَمُ فِي فَخَّارِهِ يَتَصَوَّرُ
نَظِيمُ ٱلْعُلَا وَٱلْأُفْقُ مَا مَدَّ طِرْسَهُ ... [وَلَا ٱلزَّهْرُ إِلَّا وَٱلْكَوَاكِبُ] تُنْثَرُ
وَلَا لِعَصَا ٱلْجَوْزَاءِ فِي ٱلشُّهْبِ آيَةٌ ... وَبَحْرُ ٱلدُّجَىٰ مِنْ تَحْتِها يَتَفَجَّرُ
نَبِيٌّ لَهُ مَجْدٌ قَدِيمٌ وَسُؤْدَدٌ ... هَمِيمٌ وَأَخْبَارٌ تَجِلُّ وَتُخْبِرُ
تَحَزَّمَ جِبْرِيلٌ لِخِدْمَةِ وَحْيِهِ ... وَأَقْبَلَ عِيسَىٰ بِٱلْبِشَارَةِ يَجْهَرُ
فَمَنْ ذَا يُضَاهِيهِ وَجِبْرِيلُ خَادِمٌ ... لِمَقْدَمِهِ ٱلْعَالِي وَعِيسَىٰ مُبَشِّرُ
تَهَاوَتْ لِمَأْتَاهُ ٱلنُّجُومُ كَأَنَّهَا ... تُشَافِهُ بِٱلْخَدِّ ٱلثَّرَىٰ وَتُعَفِّرُ
وَيَنْضُبُ [طَامٍ] مِنْ بُحَيْرَةِ سَاوَةٍ ... وَلِمْ لَا وَقَدْ [فَاضَتْ] بِكَفَّيْهِ أَبْحُرُ
نَبِيٌّ لَهُ ٱلْحَوْضَانِ هَٰذِي أَصَابِعٌ ... تَفِيضُ وَهَٰذَا فِي ٱلْقِيَامَةِ كَوْثَرُ
وَعَنْ جَاهِهِ ٱلنَّارَانِ هَٰذِي بِفَارِسٍ ... تَبُوخُ وَهَٰذِي فِي غَدٍ حِينَ نُحْشَرُ
إِذَا مَا تَشَفَّعْنَا بِهِ كُفَّ غَيْظُهَا ... وَقَالَتْ عِبَارَاتُ ٱلصِّرَاطِ لَنَا ٱعْبُرُوا
تَنَقَّلَ نُوراً بَيْنَ أَصْلَابِ سَادَةٍ ... فَلِلّٰهِ مِنْهُ فِي [سَمَا] ٱلْفَضْلِ نَيِّرُ
وَمِنْ أَجْلِهِ جِيءَ ٱلذَّبِيحَانِ بِٱلْفِدَا ... وَصِينَ دَمٌ بَيْنَ ٱلدِّمَاءِ مُطَهَّرُ

وَلَـمَّـا أَرَادَ ٱللهُ إِظْـهَـارَ دِيـنِـهِ ... بَدَا قَمَراً وَٱلشِّرْكُ كَٱللَّيْلِ يَكْفُرُ
فَجَلَّى ٱلدُّجَىٰ وَٱسْتَوْثَقَ ٱلدِّينُ وَاضِحاً ... [وَقَامَ] بِنَصْرِ ٱللهِ دَاعٍ مُظَفَّرُ
عَزَائِمُ مَنْ لَا يَخْتَشِي يَوْمَ غَزْوِهِ ... رَدىً وَعَطاً مَنْ لَيْسَ لِلْفَقْرِ يَحْذَرُ
عَلَا عَنْ مُحَاكَاةِ ٱلْغَمَامِ لِفَضْلِهِ ... وَكَيْفَ يُحَاكِيهِ ٱلْخُدَيْمُ ٱلْمُسَخَّرُ
يُظَلِّلُهُ وَقْتَ ٱلْمَسِيرِ وَتَارَةً ... يُشِيرُ إِلَيْهَا بِٱلْبَنَانِ فَتُمْطِرُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْقَطْرَ فِي ٱلْغَيْمِ فَارِسٌ ... إِذَا بَرَزَتْ آلَاؤُهُ يَتَعَطَّرُ
هُوَ ٱلْبَحْرُ فَيَّاضُ ٱلْمَوَارِدِ لِلْوَرَىٰ ... وَلَٰكِنَّهُ ٱلْعَذْبُ ٱلَّذِي لَا يُكَدَّرُ
فَمَنْ لِي بِلَفْظٍ جَوْهَرِيٍّ قَصَائِداً ... يُنَظَّمُ حَتَّىٰ يَمْدَحَ ٱلْبَحْرَ جَوْهَرُ
وَهَيْهَاتَ أَنْ [تُحْصَىٰ] بِتَقْرِيرِ مَادِحٍ ... مَنَاقِبُ فِي ٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ تُقَرَّرُ
إِذَا شُعَرَاءُ ٱلذِّكْرِ قَامَتْ بِمَدْحِهِ ... فَمَا قَدْرُ مَا تُنْشِي ٱلْأَنَامُ وَتَشْعُرُ
نَبِيٌّ زَكَا أَصْلاً وَفَرْعاً وَأَقْبَلَتْ ... إِلَيْهِ أُصُولٌ فِي ٱلثَّرَىٰ تَتَجَرَّرُ
وَخَاطَبَهُ وَحْشُ ٱلْمَهَامِهِ آنِساً ... إِلَيْهِ وَمَا عَنْ ذَٰلِكَ ٱلْحُسْنِ يَنْفِرُ
لَهُ رَاحَةٌ فِيهَا عَلَى ٱلْبَأْسِ وَٱلنَّدَىٰ ... دَلَائِلُ حَتَّىٰ فِي ٱلْجَمَادِ تُؤَثِّرُ
فَبَيْنَا ٱلْعَصَا فِيهَا وَرِيقٌ قَضِيبُهَا ... إِذَا هُوَ مَشْحُوذُ ٱلْغِرَارَيْنِ أَبْتَرُ
كَذَا فَلْتَكُنْ فِي شُكْرِهَا وَصِفَاتِهَا ... يَدٌ بَيْنَ أَوْصَافِ ٱلنَّبِيِّينَ تُشْكَرُ
سَخَتْ وَمَحَتْ شَكْوَىٰ قَتَادَةَ فَٱغْتَدَتْ ... بِهَا ٱلْعَيْنُ تَجْرِي أَوْ بِهَا ٱلْعَيْنُ تُبْصِرُ
لَعَمْرِي لَقَدْ سَارَتْ صِفَاتُ مُحَمَّدٍ ... كَذَاكَ ٱلنُّجُومُ ٱلزَّاهِرَاتُ تُسَيَّرُ
أَرَىٰ مُعْجِزَ ٱلرُّسْلِ ٱنْطَوَىٰ بِٱنْطِوَائِهِمْ ... وَمُعْجِزُهُ حَتَّى ٱلْقِيَامَةِ يُنْشَرُ
كَبِيرُ فَخَارِ ٱلذِّكْرِ فِي ٱلْخَلْقِ كُلَّمَا ... تَلَا قَارِئٌ أَوْ قَالَ أَللهُ أَكْبَرُ

هُوَ ٱلْمُرْتَقِي ٱلسَّبْعَ ٱلطِّبَاقَ إِلَىٰ مَدىً ... لِجِبْرِيلَ عَنْهُ مَوْقِفٌ مُتَأَخِّرُ

هُوَ ٱلثَّابِتُ ٱلْعَلْيَا عَلَىٰ كُلِّ مُرْسَلٍ ... بِحَيْثُ لَهُ فِي حَضْرَةِ ٱلْقُدْسِ مَحْضَرُ

هُوَ ٱلْمُصْطَفَىٰ وَٱلْمُقْتَفَىٰ لَا مَنَارُهُ ... تُحَطُّ وَلَا أَنْوَارُهُ تَتَكَدَّرُ

إِلَيْكَ رَسُولَ ٱللهِ مُدَّتْ مَطَالِبِي ... عَلَىٰ أَنَّها أَضْحَتْ عَلَى ٱلْفَوْزِ تَقْصُرُ

خُلِقْتَ شَفِيعاً لِلأَنَامِ مُشَفَّعاً ... فَرَجْوَاكَ فِي ٱلدَّارَيْنِ أَجْدَىٰ وَأَجْدَرُ

وَلِي حَالَتَا دُنْيَا وَأُخْرَىٰ أَرَاهُمَا ... يَمُرَّانِ بِي فِي عِيشَةٍ تَتَمَرَّرُ

حَيَاةٌ وَلَٰكِنْ بَيْنَ ذُلٍّ وَغُرْبَةٍ ... فَلَا ٱلْعِزُّ يُسْتَحْلَىٰ وَلَا ٱلْبَيْنُ يَفْتُرُ

وَعَزْمٌ إِلَى ٱلْأُخْرَىٰ يَهُمُّ نُهُوضُهُ ... وَلَٰكِنَّهُ بِٱلذَّنْبِ كَٱلظَّهْرِ مُوقَرُ

تَصَبَّرْتُ فِي هَٰذَا وَذَاكَ كَأَنَّنِي ... مِنَ ٱلْعَجْزِ وَٱلْبُؤْسَىٰ قَتِيلٌ مُصَبَّرُ

وَهَا أَنَا قَدْ أَبْلَغْتُ عُذْرِيَ قَاصِداً ... وَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلنُّجْحَ لَا يُتَعَذَّرُ

عَلَيْكَ صَلَاةُ ٱللهِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... يُعَبِّرُ عَنْ غَرْسِ ٱلْجِنَانِ وَيَعْبَرُ (١)

وَآلِكَ وَٱلصَّحْبِ ٱلَّذِينَ عَلَيْهِمُ ... تُحَلُّ حُبَا مَدْحٍ وَتُعْقَدُ خِنْصَرُ

بِجَاهِكَ عِنْدَ ٱللهِ أَقْبَلْتُ لَائِذاً ... وَتَكْبُرُ حَاجَاتِي وَجَاهُكَ أَكْبَرُ

وَنَظَّمْتُ شِعْرِي فِيكَ يُزْهَىٰ قَصِيدَةً ... عَلَىٰ كُلِّ بَيْتٍ لِي مِنَ ٱلشِّعْرِ يَعْمُرُ

مُعَظَّمَةَ ٱلْمَعْنَىٰ يُكَرَّرُ لَفْظُهَا ... فَيَحْلُو لَنَا مِنْهَا ٱلْكَلَامُ ٱلْمُكَرَّرُ

دَنَتْ مِنْ صِفَاتِ ٱلْفَضْلِ مِنْكَ فَإِنَّهَا ... لَتَفْضُلُ مَا أَبْدَاهُ طَيٌّ وَبُحْتُرُ

وَمَا ضَرَّهَا إِذْ كَانَ نَشْرُ نَسِيمِهَا ... رَخَاءً إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ صَرْصَرُ

---

(١) في « ديوان ابن نباتة المصري » (تُعبّر عن غرس الجنان وتعبر) .

ينبغي لكَ أيُّها الطالبُ الراغبُ في معرفةِ جودةِ الصِّناعةِ الشعريَّةِ أن تُكرِّرَ النظرَ في هـٰذا الشعرِ ، وتَتأمَّلَهُ بيتاً بيتاً ؛ حتىٰ تقفَ علىٰ ما أَسكنَ كلّاً منها مِنْ أنواعِ البديعِ .

وحسبُكَ شاهداً علىٰ براعةِ الاستهلالِ وما ينبغي أن يُصدَّرَ بهِ المديحُ النبويُّ مِنَ النَّسيبِ ؛ فإنَّهُ بدأَ الكلامَ بقولِهِ : (صحا القلبُ) ، وهيَ عبارةٌ عربيةٌ ابتدأَ بها زهيرٌ قصائدَ وغيرُهُ ، فهيَ تصرفُ خيالَكَ إلى العربِ ، وتشعرُ أنَّهُ يريدُ القولَ في تلكَ الناحيةِ .

ثمَّ خرجَ عن هـٰذهِ الإشارةِ الخفيَّةِ إلىٰ ما هوَ أوضحُ منها ، فذكرَ النسمةَ ، ولمعةَ البرقِ ، والغضا ، ثمَّ مضىٰ في ذكرِ الأماكنِ الحجازيَّةِ علىٰ طريقةِ الغرامِ ، حتىٰ تَخلَّصَ إلى المدحِ .

[قصيدةٌ أخرىٰ لابنِ نباتةَ المصريِّ في تهنئةِ ملكٍ وتعزيتِهِ]

ومِنْ بديعِ شعرِهِ : قصيدتُهُ التي جمعَ فيها بينَ تهنئةِ ملكٍ وتعزيتِهِ بأبيهِ وإن كانَ قد سُبِقَ بهِ كما عرفتَ ، ولـٰكنَّهُ قد أجادَ الاتباعَ ، وأحسنَ ما شاءَ ، وهيَ هـٰذهِ[1] : [من الطويل]

هَـنَـاءٌ مَـحَـا ذَاكَ ٱلْـعَـزَاءَ ٱلْـمُـقَـدَّمَـا ... فَمَا عَبَسَ ٱلْمَحْزُونَ حَتَّىٰ تَبَسَّمَا

ثُـغُـورُ ٱبْـتِـسَـامٍ فِـي ثُـغُـورِ مَـدَامِـعٍ ... شَبِيهَانِ لَا يَمْتَازُ ذُو ٱلسَّبْقِ مِنْهُمَا

تَـدِرُّ مَـجَـارِي ٱلـدَّمْـعِ وَٱلْـبِـشْـرُ وَاضِـحٌ ... كَوَابِلِ غَيْثٍ فِي ضُحَى ٱلشَّمْسِ قَدْ هَمَىٰ

سَقَى ٱلْغَيْثُ عَنَّا تُرْبَةَ ٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي ... تَـدَانَـتْ لَـهُ ٱلـدُّنْـيَـا وَعَـزَّ بِـهِ ٱلْـحِـمَىٰ

مَـلِـيـكَـانِ هَـٰذَا قَـدْ هَـوَىٰ لِـضَـرِيـحِـهِ ... بِـرَغْـمِـي وَهَـٰذَا صَـانَـهُ ٱللهُ قَـدْ سَـمَـا

---

(١) انظر « ديوان ابن نباتة المصري » (ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠) .

وَدَوْحَـةِ فَـضْـلٍ شَـادَوِيٍّ تَـكَـافَـأَتْ فَـغُـصْـنٌ ذَوَىٰ مِـنْـهَـا وَآخَـرُ قَـدْ نَـمَـا

فَـقَـدْنَـا لِأَعْـنَـاقِ ٱلْـبَـرِيَّـةِ مَـالِـكـاً وَشِـمْـنَـا لِأَنْـوَاعِ ٱلْـجَـمِـيـلِ مُـتَـمِّـمَـا

إِذَا ٱلْأَفْـضَـلُ ٱلْمُـلْكِ ٱعْـتَـبَـرْتَ مَـقَـامَـهُ وَجَـدْتَ زَمَانَ ٱلْمُلْكِ قَدْ عَادَ مِثْلَمَا

أَعَادَ مَعَالِي ٱلْبَيْتِ حَتَّىٰ حَسِبْتُهُ بِـوَزْنِ ٱلـثَّـنَـا وَٱلْـحَـمْـدِ بَـيْـتـاً مُـنَـظَّـمَـا

وَنَـادَاهُ مُـلْـكٌ قَـدْ تَـقَـادَمَ إِرْثُـهُ فَـقَـامَ كَـمَـا تَـرْضَـى ٱلْـعُـلَا وَتَـقَـدَّمَـا

تُـقَـابِـلُ مِـنْـهُ مُـقْـلَـةُ ٱلـدَّهْـرِ سُـؤْدَداً صَمِيماً وَيَنْضُو ٱلرَّأْيُ عَضْباً مُصَمِّمَا

وَيَـقْـسِـمُ فِـيـنَـا كُـلَّ سَـهْـمٍ مِـنَ ٱلـنَّـدَىٰ وَيَـبْـعَـثُ لِلْأَعْـدَاءِ فِـي ٱلـرَّوْعِ أَسْـهُـمَـا

كَـأَنَّ دِيَـارَ ٱلْـمُـلْـكِ غَـابٌ إِذَا ٱنْـقَـضَـىٰ بِـهِ ضَـيْـغَـمٌ أَنْـشَـا لَـهُ ٱلـدَّهْـرُ ضَـيْـغَـمَـا

كَـأَنَّ عِـمَـادَ ٱلْـبَـيْـتِ غَـيْـرُ مُـقَـوَّضٍ وَقَـدْ قُـمْـتَ يَـا أَزْكَـى ٱلْأَنَـامِ وَأَحْـزَمَـا

نَـهَـضْـتَ فَـمَـا قُـلْـنَـا سِـيَـادَةُ مَـعْـشَـرٍ تَـدَاعَـتْ وَلَا بُـنْـيَـانُ قَـوْمٍ تَـهَـدَّمَـا

أَمَـا وَٱلَّـذِي أَعْـطَـاكَ مَـا أَنْـتَ أَهْـلُـهُ لَـقَـدْ شَـادَ فِـي عَـلْـيَـاكَ رُكْـنـاً مُـعَـظَّـمَـا

وَقَـدْ أُنْـشِـرَ ٱلْأَسْـلَافُ بِـٱلْـخَـلَـفِ ٱلَّـذِي(١) تَـمَـكَّـنَ فِـي عَـلْـيَـائِـهِ وَتَـحَـكَّـمَـا

وَإِنْ تَـكُ أَوْقَـاتُ ٱلْـمُـؤَيَّـدِ قَـدْ خَـلَـتْ فَـقَـدْ جَـدَّدَتْ عَـلْـيَـاكَ وَقْـتـاً وَمَـوْسِـمَـا

عَـلَـيْـهِ سَـلَامُ ٱللهِ مَـا ذَرَّ شَـارِقٌ وَرَحْـمَـتُـهُ مَـا شَـاءَ أَنْ يَـتَـرَحَّـمَـا

هُـوَ ٱلْـغَـيْـثُ وَلَّـىٰ بِـٱلـثَّـنَـاءِ مُـشَـيَّـعـاً وَأَبْـقَـاكَ بَـحْـراً بِـٱلْـمَـوَاهِـبِ مُـفْـعَـمَـا

لَـكَ ٱللهُ مَـا أَبْـهَـىٰ وَأَبْـهَـرَ طَـلْـعَـةً وَأَشْـرَفَ أَخْـلَاقـاً وَأَفْـضَـلَ مُـنْـتَـمَـىٰ

بِـكَ ٱنْـبَـسَـطَـتْ فِـيـنَـا ٱلـتَّـهَـانِـي وَأَنْـشَـأَتْ رَبِـيـعَ ٱلْـهَـنَـا حَـتَّـىٰ نَـسِـيـنَـا ٱلْـمُـحَـرَّمَـا

---

(١) في « ديوان ابن نباتة المصري » (ص ٤٣٠) : (الإسلام) بدل (الأسلاف) .

وَبِٱسْمِكَ فِي ٱلدُّنْيَا ٱسْتَقَرَّتْ مَحَاسِنٌ ... يُقِرُّ سَنَاهَا ٱلنَّاظِرَ ٱلْمُتَوَسِّمَا
نَوَالٌ كَمَا يَسْرِي ٱلسَّحَابُ مُطَبَّقاً ... وَبَأْسٌ كَمَا يَمْضِي ٱلْقَضَاءُ مُحَتَّمَا
وَفَضْلٌ بِهِ [ٱلْأَلْفَاظُ] لِلْعَجْزِ أُخْرِسَتْ ... وَعِزٌّ بِهِ قَلْبُ ٱلْحَسُودِ تَكَلَّمَا
أَعَدْتَ حَيَاةَ ٱلْمُقْتِرِينَ وَقَدْ عَفَتْ ... فَأَنْتَ ٱبْنُ أَيُّوبٍ وَإِلَّا ٱبْنُ مَرْيَمَا
إِذَا ٱلْغَيْثُ صَلَّىٰ خَلْفَ جَدْوَاكَ رَاكِعاً ... ثَنَتْ عَزْمَهُ لِلْإِعْتِرَافِ فَسَلَّمَا
يَرَاعُكَ يَوْمَ ٱلسِّلْمِ يَنْهَلُّ دِيمَةً ... وَسَيْفُكَ يَوْمَ ٱلْحَرْبِ يَنْهَلُّ فِي ٱلدِّمَا
وَذِكْرُ نَدَىٰ كَفَّيْكَ يُدْنِي مِنَ ٱلْغِنَىٰ ... وَلَثْمُ ثَرَىٰ نَعْلَيْكَ يُرْوِي مِنَ ٱلظَّمَا
لَكَ ٱلْمُلْكُ إِرْثاً وَٱكْتِسَاباً فَقَدْ غَدَا ... كِلَا طَرَفَيْهِ فِي ٱلسِّيَادَةِ مَعْلَمَا
وَمِثْلُكَ إِمَّا لِلسَّرِيرِ مُنَعَّماً ... يَثُوبُ وَإِمَّا لِلْجَوَادِ مُطَهَّمَا
وَلَمَّا عَقَدْنَا بِٱسْمِ عَلْيَاكَ خِنْصَراً ... رَأَيْنَا مِنَ ٱلتَّحْقِيقِ أَنْ نَتَخَتَّمَا
أَيَا مَلِكاً قَدْ أَنْجَدَ ٱلنَّاسُ [عَزْمَهُ] ... فَأَنْجَدَ مَدْحُ ٱلنَّاسِ فِيهِ وَأَتْهَمَا
سَبَقْتُ لَكَ ٱلْمُدَّاحَ قِدْماً وَبَادَرَتْ ... يَدَا كَلِمِي فَٱسْتَلْزَمَتْ مِنْكَ مَلْزَمَا
لَيَالِيَ أُنْشِي فِي أَبِيكَ مَدَائِحاً ... وَفِيكَ وَأَرْوِي مُسْنَدَ ٱلْفَضْلِ عَنْكُمَا
وَأَغْدُو بِأَنْوَاعِ ٱلْجَمِيلِ مُطَوَّقاً ... فَأَسْجَعُ فِي أَوْصَافِهِ مُتَرَنِّمَا
وَأَسْتَوْضِحُ ٱلْعَلْيَاءَ فِيكَ فِرَاسَةً ... بِمُلْكِكَ لَا أُعْطِي عَلَيْهَا مُنَجِّمَا
فَعِشْ لِلْوَرَىٰ وَٱسْلَمْ سَعِيداً مُهَنَّأً ... فَحَظُّ ٱلْوَرَىٰ فِي أَنْ تَعِيشَ وَتَسْلَمَا
وَسِرْ فِي أَمَانِ ٱللهِ وَٱقْدُمْ بِفَضْلِهِ ... أَسَرَّ ٱلْوَرَىٰ مَسْرىً وَأَيْمَنَ مَقْدِمَا
أَعَدْتَ زَمَانَ ٱلْبِشْرِ وَٱلْجُودِ وَٱلثَّنَا ... إِلَىٰ أَنْ مَلَأْتَ ٱلْعَيْنَ وَٱلْكَفَّ وَٱلْفَمَا

في قولِهِ : (فقدنا لأعناقِ . . .) البيتَ . . تلميحٌ بمالكٍ ومُتمَّمٍ ابنَيْ نويرةَ السابقِ ذكرُهُما[1] ، وقولُهُ : (ولا بنيانُ قومٍ تَهدَّما) أي : كما قالَ الأوَّلُ ومنهُ ضُمِّنَ[2] : [من الطويل]

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ وَاحِدٍ وَلَٰكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

* * *

(١) تقدم (٣/٢٤٦ ـ ٢٤٧) .
(٢) انظر « وفيات الأعيان » (١/١٨٣ ـ ١٨٤) ، وذكر بين البيتين بيتاً ثالثاً .

[قصيدةٌ للحِلِّيّ في مدحِ الناصرِ بنِ قلاوونَ]

ومِنْ جيِّدِ شعرِ الصَّفيِّ ـ وديوانُهُ كبيرٌ ، قَسَّمَهُ اثنيْ عشرَ باباً في أجناسِ المعاني ، وكلُّهُ مفيدٌ ، وميلُهُ للمعنىٰ أكثرُ مِنْ ميلِهِ للفظِ ، علىٰ أنَّهُ شديدُ الملاحظةِ للبديعِ ـ قصيدتُهُ التي يَمدحُ بها الناصرَ محمدَ بنَ قلاوونَ أحدَ ملوكِ الديارِ المصريةِ ، وعارضَ بها قصيدةً لأبي الطيبِ ، وقدِ اقترحَ عليهِ أهلُ الديوانِ ذٰلكَ ، ومطلعُ قصيدةِ أبي الطيبِ المعارضةِ (١) : [من الكامل]

بِأَبِي ٱلشُّمُوسُ ٱلْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا ... اَللَّابِسَاتُ مِنَ ٱلْحَرِيرِ جَلَابِبَا

وقد ضَمَّنَ الصَّفيُّ صدرَ المَطلعِ دلالةً على المعارضةِ ، وهٰذهِ قصيدةُ **الصَّفيِّ** (٢) : [من الكامل]

أَسْبَلْنَ مِنْ فَوْقِ ٱلنُّهُودِ ذَوَائِبَا ... فَتَرَكْنَ حَبَّاتِ ٱلْقُلُوبِ ذَوَائِبَا

وَجَلَوْنَ فِي صُبْحِ ٱلْوُجُوهِ أَشِعَّةً ... غَادَرْنَ فَوْدَ ٱللَّيْلِ مِنْهَا شَائِبَا

بِيضٌ دَعَاهُنَّ ٱلْغَبِيُّ كَوَاعِبَا ... وَلَوِ ٱسْتَبَانَ ٱلرُّشْدَ قَالَ كَوَاكِبَا

وَرَبَائِبٌ فَإِذَا رَأَيْتَ نِفَارَهَا ... مِنْ بَسْطِ أُنْسِكَ خِلْتَهُنَّ رَبَارِبَا

سَفَّهْنَ رَأْيَ ٱلْمَانَوِيَّةِ عِنْدَمَا ... أَسْبَلْنَ مِنْ ظُلَمِ ٱلشُّعُورِ غَيَاهِبَا

وَسَفَرْنَ لِي فَرَأَيْنَ شَخْصاً حَاضِراً ... شَدَهَتْ بَصِيرَتُهُ وَقَلْباً غَائِبَا

أَشْرَقْنَ فِي حُلَلٍ كَأَنَّ أَدِيمَهَا ... شَفَقٌ تَدَرَّعَهُ ٱلشُّمُوسُ جَلَابِبَا

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٨٠) .

(٢) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٥٩ ـ ٦٢) .

وَغَرَبْنَ فِي كِلَلٍ فَقُلْتُ لِصَاحِبِي بِأَبِي ٱلشُّمُوسُ ٱلْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا
وَمُعَرْبَدِ ٱللَّحَظَاتِ يَثْنِي عِطْفَهُ فَيُخَالُ مِنْ مَرَحِ ٱلشَّبِيبَةِ شَارِبَا
حُلْوُ ٱلتَّعَتُّبِ وَٱلدَّلَالِ يَرُوقُهُ عَتَبِي وَلَسْتُ أَرَاهُ إِلَّا عَاتِبَا
عَاتَبْتُهُ فَتَضَرَّجَتْ وَجْنَاتُهُ وَٱزْوَرَّ أَلْحَاظاً وَقَطَّبَ حَاجِبَا
فَأَذَابَنِي ٱلْخَدُّ ٱلْكَلِيمُ وَطَرْفُهُ ذُو ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ ٱلْغَدَاةَ مُغَاضِبَا
ذُو مَنْظَرٍ تَغْدُو ٱلْقُلُوبُ لِحُسْنِهِ نَهْباً وَإِنْ مَنَحَ ٱلْعُيُونَ مَوَاهِبَا
لَا بِدْعَ إِنْ وَهَبَ ٱلنَّوَاظِرَ حُظْوَةً مِنْ نُورِهِ وَدَعَاهُ قَلْبِي نَاهِبَا
فَمَوَاهِبُ ٱلسُّلْطَانِ قَدْ كَسَتِ ٱلْوَرَىٰ نِعَماً وَتَدْعُوهُ ٱلْقَسَاوِرُ سَالِبَا
اَلنَّاصِرُ ٱلْمَلِكُ ٱلَّذِي خَضَعَتْ لَهُ صِيدُ ٱلْمُلُوكِ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا
مَلِكٌ يَرَىٰ تَعَبَ ٱلْمَكَارِمِ رَاحَةً وَيَعُدُّ رَاحَاتِ ٱلْفَرَاغِ مَتَاعِبَا
بِمَكَارِمٍ تَذَرُ ٱلسَّبَاسِبَ أَبْحُراً وَعَزَائِمٍ تَدَعُ ٱلْبِحَارَ سَبَاسِبَا
لَمْ تَخْلُ أَرْضٌ مِنْ ثَنَاهُ وَلَوْ خَلَتْ مِنْ ذِكْرِهِ مُلِئَتْ قَناً وَقَوَاضِبَا
تُرْجَىٰ مَوَاهِبُهُ وَيُرْهَبُ بَطْشُهُ مِثْلُ ٱلزَّمَانِ مُسَالِماً وَمُحَارِبَا
فَإِذَا سَطَا مَلَأَ ٱلْقُلُوبَ مَهَابَةً وَإِذَا سَخَا مَلَأَ ٱلْأَكُفَّ مَوَاهِبَا
كَٱلْغَيْثِ يَبْعَثُ مِنْ عَطَاهُ وَابِلاً سَبْطاً وَيُرْسِلُ مِنْ سَطَاهُ حَاصِبَا
كَٱللَّيْثِ يَحْمِي غَابَهُ بِزَئِيرِهِ طَوْراً وَيُنْشِبُ فِي ٱلْقَنِيصِ مَخَالِبَا
كَٱلسَّيْفِ يُبْدِي لِلنَّوَاظِرِ مَنْظَراً طَلْقاً وَيُمْضِي فِي ٱلْهِيَاجِ مَضَارِبَا
كَٱلسَّيْلِ يُحْمَدُ مِنْهُ عَذْبٌ وَاصِلٌ وَيَعُدُّهُ قَوْمٌ عَذَاباً وَاصِبَا
كَٱلْبَحْرِ يُهْدِي لِلنُّفُوسِ نَفَائِساً مِنْهُ وَيُبْدِي لِلْعُيُونِ عَجَائِبَا

فَـإِذَا نَـظَـرْتَ نَـدَىٰ يَـدَيْـهِ وَرَأْيَـهُ   لَـمْ تَـلْـقَ إِلَّا صَـيِّـبـاً أَوْ صَـائِـبَـا
أَبْـقَـىٰ قَـلَاوُونُ ٱلْـفَـخَـارَ لِـوُلْـدِهِ   إِرْثَـاً وَفَـازُوا بِـٱلـثَّـنَـاءِ مَـكَـاسِـبَـا
قَـوْمٌ إِذَا سَـئِـمُـوا ٱلـصَّـوَافِـنَ صَـيَّـرُوا   لِـلْـمَـجْـدِ أَخْـطَـارَ ٱلْأُمُـورِ مَـرَاكِـبَـا
عَشِقُوا ٱلْحُرُوبَ [تَيَمُّناً] بِلِقَا ٱلْعِدَا   فَـكَـأَنَّـهُـمْ حَـسِـبُـوا ٱلْـعُـدَاةَ حَـبَـائِـبَـا
وَكَـأَنَّـمَـا ظَـنُّـوا ٱلـسُّـيُـوفَ سَـوَالِـفـاً   وَٱلـلُّـدْنَ قَـدّاً وَٱلْـقِـسِـيَّ حَـوَاجِـبَـا
يَـا أَيُّـهَـا ٱلْـمَـلِـكُ ٱلْـعَـزِيـزُ وَمَـنْ لَـهُ   شَـرَفٌ يَـجُـرُّ عَـلَـى ٱلـنُّـجُـومِ ذَوَائِـبَـا
أَصْـلَـحْـتَ بَـيْـنَ ٱلْـمُـسْـلِـمِـينَ بِـهِـمَّـةٍ   تَـذَرُ ٱلْأَجَـانِـبَ بِـٱلْـوِدَادِ أَقَـارِبَـا
وَوَهَـبْـتَـهُـمْ زَمَـنَ ٱلْأَمَـانِ فَـمَـنْ رَأَىٰ   مَـلِـكـاً يَـكُـونُ لَـهُ ٱلـزَّمَـانُ مَـوَاهِـبَـا
قَـرَؤُوا خِـطَـابـاً كَـانَ خَـطْـبـاً فَـادِحـاً   لَـهُـمْ وَكُـتْـبـاً كُـنَّ قَـبْـلُ كَـتَـائِـبَـا
وَحَـرَسْـتَ مُـلْـكَـكَ مِـنْ رَجِـيـمٍ مَـارِدٍ   بِـصَـوَارِمٍ إِنْ صُـلْـتَ كُـنَّ كَـوَاكِـبَـا
حَـتَّـىٰ إِذَا خَـطَـفَ ٱلْـمُـكَـافِـحُ خَـطْـفَـةً   أَتْـبَـعْـتَـهُ مِـنْـهَـا شِـهَـابـاً ثَـاقِـبَـا
لَا يَـنْـفَـعُ ٱلـتَّـجْـرِيـبُ خَـصْـمَـكَ بَـعْـدَمَـا   أَفْـنَـيْـتَ مَـنْ أَفْـنَـى ٱلـزَّمَـانَ تَـجَـارِبَـا
صَـرَّمْـتَ شَـمْـلَ ٱلْـمَـارِقِـيـنَ بِـمَـارِقٍ   تُـبْـدِيـهِ مَـسْـلُـوبـاً فَـيَـرْجِـعُ سَـالِـبَـا
صَـافِـي ٱلْـفِـرِنْـدِ حَـكَـىٰ صَـبَـاحـاً جَـامِـداً   أَبْـدَى ٱلـنَّـجِـيـعَ بِـهِ شُـعَـاعـاً ذَائِـبَـا
وَكَـتِـيـبَـةٍ تَـذَرُ ٱلـصَّـهِـيـلَ رَوَاعِـداً   وَٱلْـبِـيـضَ بَـرْقـاً وَٱلْـعَـجَـاجَ سَـحَـائِـبَـا
حَـتَّـىٰ إِذَا رِيـحُ ٱلْـجِـلَادِ حَـدَتْ لَـهَـا   مَـطَـرَتْ فَـكَـانَ ٱلْـوَبْـلُ نَـبْـلاً صَـائِـبَـا
بِـذَوَابِـلٍ مُـلْـسٍ يُـخَـلْـنَ أَرَاقِـمـاً   وَشَـوَازِبٍ جُـرْدٍ يُـخَـلْـنَ عَـقَـارِبَـا
تَـطَـأُ ٱلـصُّـدُورَ مِـنَ ٱلـصُّـدُورِ كَـأَنَّـمَـا   تَـعْـتَـاضُ مِـنْ وَطْءِ ٱلـتُّـرَابِ تَـرَائِـبَـا
فَـأَقَـمْـتَ تَـقْـسِـمُ لِـلْـوُحُـوشِ وَظَـائِـفـاً   فِـيـهَـا وَتَـصْـنَـعُ لِـلـنُّـسُـورِ مَـآدِبَـا

وَجَعَلْتَ هَامَاتِ ٱلْكُمَاةِ مَنَابِراً　　وَأَقَمْتَ حَدَّ ٱلسَّيْفِ فِيهَا خَاطِبَا

يَا رَاكِبَ ٱلْخَطَرِ ٱلْجَلِيلِ وَقَوْلُهُ　　فَخْرٌ بِمَجْدِكَ لَا عَدِمْتَ ٱلرَّاكِبَا

صَيَّرْتَ أَسْحَارَ ٱلسَّمَاحِ بَوَاكِراً　　وَجَعَلْتَ أَيَّامَ ٱلْكِفَاحِ غَيَاهِبَا

وَبَذَلْتَ لِلْمُدَّاحِ صَفْوَ خَلَائِقٍ　　لَوْ أَنَّهَا لِلْبَحْرِ طَابَ مَشَارِبَا

فَرَأَوْكَ فِي جَنْبِ ٱلنُّضَارِ مُفَرِّطاً　　وَعَلَىٰ صَلَاتِكَ وَٱلصِّلَاتِ مُوَاظِبَا

إِنْ يَحْرُسِ ٱلنَّاسُ ٱلنُّضَارَ بِحَاجِبٍ　　كَانَ ٱلسَّمَاحُ لِعَيْنِ مَالِكَ حَاجِبَا

لَمْ يَمْلَؤُوا فِيكَ ٱلْبُيُوتَ غَرَائِباً　　إِلَّا وَقَدْ مَلَؤُوا ٱلْبُيُوتَ رَغَائِبَا

أَوْلَيْتَنِي قَبْلَ ٱلْمَدِيحِ عِنَايَةً　　وَمَلَأْتَ عَيْنِي هَيْبَةً وَمَوَاهِبَا

وَرَفَعْتَ قَدْرِي فِي ٱلْأَنَامِ وَقَدْ رَأَوْا　　مِثْلِي لِمِثْلِكَ خَاطِباً وَمُخَاطِبَا

فِي مَجْلِسٍ سَاوَى ٱلْخَلَائِقَ فِي ٱلنَّدَىٰ　　وَتَرَتَّبَتْ فِيهِ ٱلْمُلُوكُ مَرَاتِبَا

وَافَيْتُهُ فِي ٱلْفُلْكِ أَسْعَىٰ جَالِساً　　فَخْراً عَلَىٰ مَنْ جَاءَ يَمْشِي رَاكِبَا

فَأَقَمْتُ أُنْفِذُ فِي ٱلزَّمَانِ أَوَامِراً　　مِنِّي وَأُنْشِبُ فِي ٱلْخُطُوبِ مَخَالِبَا

وَسَقَتْنِيَ ٱلدُّنْيَا غَدَاةَ وَرَدْتُهُ　　صَفْواً وَمَا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

أي : كما مَطَرَتِ المعارضَ حيثُ يقولُ : (أَظْمَتْني الدنيا) ، وكانَ ذٰلكَ بسببٍ تَعرِفُهُ إذا قرأتَ شرحَ قصيدةِ أبي الطيبِ .

فَطَفِقْتُ أَمْلَأُ مِنْ ثَنَاكَ وَنَشْرِهِ　　حُقُباً وَأَمْلَأُ مِنْ نَدَاكَ حَقَائِبَا

أُثْنِي فَتُثْنِينِي صِفَاتُكَ مُظْهِراً　　عِيّاً وَكَمْ أَعْيَتْ صِفَاتُكَ خَاطِبَا

لَوْ أَنَّ أَعْضَائِي جَمِيعاً أَلْسُنٌ　　تُثْنِي عَلَيْكَ لَمَا قَضَيْتُ ٱلْوَاجِبَا

ولهُ في بابِ الآدابِ والحِكَمِ حِسانُ مقاطيعَ يَحسُنُ بالطَّالبِ حفظُها .

منها قولُهُ[(١)] : [من المنسرح]

صَاحِبْ إِذَا مَا صَحِبْتَ ذَا أَدَبٍ   مُهَذَّباً زَانَ خَلْقَهُ ٱلْخُلُقُ
وَلَا تُصَاحِبْ مَنْ فِي طَبَائِعِهِ   شَرٌّ فَإِنَّ ٱلطِّبَاعَ تُسْتَرَقُ

أي : كما يقولُ الناسُ : الطَّبعُ لصٌّ ، وفي الشعرِ القديمِ[(٢)] : [من الطويل]

عَنِ ٱلْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ   فَكُلُّ قَرِينٍ بِٱلْمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وفي الحديثِ الشَّريفِ : « كُلُّ ٱمْرِئٍ يُحْشَرُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ »[(٣)] .

ومنها قولُهُ[(٤)] : [من الخفيف]

أَقْلِلِ ٱلْمَزْحَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱحْتِرَازاً   فَبِإِفْرَاطِهِ ٱلدِّمَاءُ تُرَاقُ
قِلَّةُ ٱلسُّمِّ لَا تَضُرُّ وَقَدْ يَقْـ   ـتُلُ مِنْ فَرْطِ أَكْلِهِ ٱلدِّرْيَاقُ

الدِّرياقُ : مُركَّبٌ يُعطىٰ مَنْ أصابَهُ سمٌّ ليبرأَ ، وقد قيلَ : قليلُ الضَّارِّ خيرٌ مِنْ كثيرِ النافعِ ، والإفراطُ ـ كما عرفتَ ـ في أكثرِ الأشياءِ ذميمٌ .

وقولُهُ[(٥)] : [من البسيط]

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ ٱلْخَيْرِ تَنْجُ بِهِ   مِنْ زَلَّةِ ٱللَّفْظِ بَلْ مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ
ٱحْرِسْ كَلَامَكَ مِنْ خِلٍّ تُنَادِمُهُ   إِنَّ ٱلنَّدِيمَ لَمُشْتَقٌّ مِنَ ٱلنَّدَمِ

---

(١) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤) .
(٢) هو لعدي بن زيد في « ديوانه » (ص ١٠٦) .
(٣) أخرجه أبو داوود (٤٨٠٠) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .
(٤) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٤) .
(٥) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٥) .

وقولُهُ [1] : [من الكامل]

اِسْمَعْ مُخَاطَبَةَ ٱلْجَلِيسِ وَلَا تَكُنْ ... عَجِلاً بِنُطْقِكَ قَبْلَ مَا تَتَفَهَّمُ

لَمْ تُعْطَ مِنْ أُذُنَيْكَ نُطْقاً وَاحِداً ... إِلَّا لِتَسْمَعَ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ

وقولُهُ [2] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْغِنَىٰ لَشِهَابٌ كُلَّمَا ٱعْتَكَرَتْ ... دُجَى ٱلْخُطُوبِ جَلَا مِنْهَا حَنَادِسَهَا

لَا تَنْفَعُ ٱلْخَمْسَةُ ٱلْأَسْمَاءُ مُحْدِقَةً ... لَدَيْكَ إِلَّا إِذَا مَا كَانَ سَادِسَهَا

أي : الغنىٰ ، فلا ينفعُكَ أبٌ شريفٌ ، وأخٌ عظيمٌ ، وأحماءٌ كرامٌ ، ومَنطِقٌ كما يكونُ ، وكلُّ ما يَتعلَّقُ بكَ مِنَ الأشياءِ . . إلَّا إذا كانَ الغنىٰ لها قريناً ، رزقَنا اللهُ الغنىٰ ، وجعلَنا مِنَ الشاكرينَ .

وقولُهُ [3] : [من المتقارب]

تَأَمَّلْ إِذَا مَا كَتَبْتَ ٱلْكِتَابَ ... سُطُورَكَ مِنْ بَعْدِ إِحْكَامِهَا

وَهَذِّبْ عِبَارَةَ طَرْزِ ٱلْكَلَا ... مِ وَٱسْتَوْفِ سَائِرَ أَقْسَامِهَا

فَقَدْ قِيلَ إِنَّ عُقُولَ ٱلرِّجَا ... لِ تَحْتَ أَسِنَّةِ أَقْلَامِهَا

❋ ❋ ❋

(١) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦) .

(٢) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٩) .

(٣) انظر « ديوان صفي الدين الحلي » (ص ٤٤٩) .

الجهةُ الثانيةُ

[في عشرةِ أصولٍ يعتمدُها الكاتبُ في المكاتباتِ]

في أمورٍ كليَّةٍ يَتعيَّنُ علىٰ مريدِ الصِّناعةِ : التمكُّنُ مِنْ معرفتِها واعتبارِها ؛ ليأتيَ بها علىٰ وجهِها .

وأوردَها أبو العباسِ أحمدُ القَلْقَشَنْديُّ في كتابِهِ « صبحِ الأعشىٰ » ، وسمَّاها : أصولاً يعتمدُها الكاتبُ في المكاتباتِ ؛ وهيَ عشرةٌ :

[حسنُ الافتتاحِ]

الأصلُ الأوَّلُ (١) : حسنُ الافتتاحِ المطلوبُ في سائرِ أنواعِ الكلامِ مِنْ نثرٍ ونظمٍ ، ممَّا يُوجِبُ التحسينَ ؛ ليكونَ داعيةً لاستماعِ ما بعدَهُ ، ويَرجِعُ حسنُ الافتتاحِ في المكاتبةِ إلىٰ معنيَينِ :

المعنى الأوَّلُ : أن يكونَ الحسنُ فيهِ راجعاً إلى المبتدأ بهِ :

إمَّا الافتتاحُ بالحمدِ للهِ كما في بعضِ المُكاتباتِ ؛ لأنَّ النفوسَ تَتشوَّقُ إلى الثناءِ على اللهِ تعالىٰ ، أو بالسلامِ الذي جعلَهُ الشارعُ مُفتتحَ الخطابِ ، أو نحوِ ذٰلك .

وإمَّا بالافتتاحِ بما فيهِ تعظيمُ المكتوبِ إليهِ ، مِنْ تقبيلِ الأرضِ أوِ اليدِ ، أوِ الدعاءِ لهُ ، أو غيرِ ذٰلكَ ؛ فإنَّ أمرَ المكاتباتِ مبنيٌّ على التملُّقِ ، واستجلابِ الخواطرِ ، وتآلفِ القلوبِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يجري هٰذا المَجرىٰ علىٰ ما يقتضيهِ اصطلاحُ كلِّ زمنٍ في الابتداءاتِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٧٤) .

المعنى الثاني : أن يكونَ الحسنُ فيهِ راجعاً إلىٰ ما يُوجِبُ التحسينَ ؛ مِنْ سهولةِ اللفظِ ، وصحَّةِ السَّبكِ ، ووضوحِ المعنىٰ ، وتجنُّبِ الحشوِ ، وغيرِ ذٰلكَ ؛ كما كتبَ الأستاذُ أبو الفضلِ بنُ العميدِ عن ركنِ الدَّولةِ بنِ بويهَ إلىٰ مَنْ عصىٰ عليهِ ، مُفتتِحاً كتابَهُ بقولِهِ[1] : (كتابي إليكَ وأنا مُتردِّدٌ بينَ طمعٍ فيكَ ، ويأسٍ منكَ ، وإقبالٍ عليكَ ، وإعراضٍ عنكَ ؛ فإنَّكَ تُدِلُّ بسابقِ خدمةٍ أيسرُها يُوجِبُ رعايةً ، ويقتضي محافظةً وعنايةً ، ثمَّ تشفعُها بحادثِ غلولٍ وخيانةٍ ، وتتبعُها بخلافٍ ومعصيةٍ ، أدنىٰ ذٰلكَ يُحبِطُ أعمالَكَ ، ويُسقِطُ كلَّ ما يُرعىٰ لكَ) .

وكما كتبَ أبو [حفصٍ] بنُ بردٍ الأندلسيُّ عن ملكِهِ إلىٰ مَنْ عصىٰ ثمَّ عادَ إلى الطَّاعةِ[2] : (أمَّا بعدُ : فإنَّ الغلبةَ لنا والظُّهورَ عليكَ جلباكَ إلينا علىٰ قدمِكَ دونَ عهدٍ ولا عقدٍ يمنعانِ مِنْ إراقةِ دمِكَ ، ولٰكنَّا لمَّا وهبَ اللهُ لنا مِنَ الإشرافِ علىٰ سرائرِ الرئاسةِ والحفظِ لشرائعِ السياسةِ . . تأمَّلنا مَنْ ساسَ جهتَكَ قبلَنا ، فوجدْنا يدَ سياستِهِ خرقاءَ ، وعينَ حزامتِهِ عوراءَ ، وقَدَمَ مداراتِهِ شلَّاءَ ؛ لأنَّهُ مالَ عن ترغيبِكَ فلم ترجُهُ ، وعن ترهيبِكَ فلم تخشَهْ ، فأدَّتْكَ جانحتُكَ إلىٰ طلابِ المطاعمِ الدنيَّةِ ، وقِلَّةُ مهابتِكَ إلى التهالُكِ على المعاصي الوبيَّةِ) .

* * *

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٢٧٥/٦) .
(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٢٧٥/٦) .

[براعةُ الاستهلالِ]

الأصلُ الثاني : براعةُ الاستهلالِ المطلوبةُ في كلِّ فنٍّ مِنْ فنونِ الكلامِ ؛ بأن يأتيَ في صدرِ المُكاتبةِ بما يَدُلُّ علىٰ عَجُزِها ؛ فإن كانَ الكتابُ بفتحٍ . . أتىٰ في أوَّلِهِ بما يَدُلُّ على التهنئةِ ، أو بتعزيةٍ . . أتىٰ في أوَّلِهِ بما يَدُلُّ على التعزيةِ ، أو في غيرِ ذٰلكَ مِنَ المعاني . . أتىٰ في أوَّلِهِ بما يَدُلُّ عليهِ ؛ ليُعلَمَ مِنْ مبدأ الكلامِ ما المرادُ .

كما يُحكىٰ : أنَّ عمرَو بنَ مسعدةَ كاتبَ المأمونِ أمرَ كاتبَهُ أن يكتبَ إلى الخليفةِ كتاباً يُعرِّفُهُ فيهِ أنَّ بقرةً ولدَتْ عِجلاً وجهُهُ وجهُ إنسانٍ ، فكتبَ[١] : (أمَّا بعدُ : حمداً للهِ خالقِ الأنامِ في بطونِ الأنعامِ) .

وفُضلاءُ الكُتَّابِ وأئمَّتُهُم يَعتنونَ بذٰلكَ كلَّ الاعتناءِ ، ويرونَ تركَهُ إخلالاً بالصَّنعةِ ، ونقصاً في الكتابةِ ، حتىٰ إنَّ الوزيرَ ضياءَ الدِّينِ بنَ الأثيرِ في « المثلِ السائرِ » قد عابَ أبا إسحاقَ الصَّابئَ ـ علىٰ جلالةِ قدرِهِ في الكتابةِ ، واعترافِهِ لهُ بالتقدُّمِ في الصِّناعةِ ـ بكتابٍ كتبَهُ بفتحِ بغدادَ وهزيمةِ التركِ ، فقالَ في أوَّلِهِ[٢] : (الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، الملكِ الحقِّ المبينِ ، الوحيدِ الفريدِ ، العليِّ المجيدِ ، الذي لا يُوصَفُ إلَّا بسَلْبِ الصِّفاتِ ، ولا يُنعَتُ إلَّا برفعِ النعوتِ ، الأزليِّ بلا ابتداءٍ ، الأبديِّ بلا انتهاءٍ ، القديمِ لا إلىٰ أمدٍ محدودٍ ، الدائمِ لا إلىٰ أجلٍ معدودٍ ، الفاعلِ لا مِنْ مادَّةٍ امتدَّها ، الصَّانعِ لا بآلةٍ استعملَها ، الذي لا تُدرِكُهُ الأعينُ بألحاظِها ، ولا تَحُدُّهُ الألسنُ بألفاظِها ، ولا تُخلِقُهُ العصورُ بمرورِها ، ولا تَهدِمُهُ الدُّهورُ بكُرورِها ، ولا تجاريهِ أقدامُ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٢٧٦/٦) .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٢٧٦/٦) .

النظراءِ والأشكالِ ، ولا تزاحمُهُ مناكبُ القُرناءِ والأمثالِ ، بل هوَ الصَّمدُ الذي لا كفؤَ لهُ ، والفردُ الذي لا [توءمَ] معَهُ ، والحيُّ الذي لا تَخترِمُهُ المَنونُ ، والقَيُّومُ الذي لا تَشغلُهُ الشُّؤونُ ، والقديرُ الذي لا تَؤُودُهُ المُعضِلاتُ ، والخبيرُ الذي لا تَعييهِ المشكلاتُ) .

فقالَ[1] : (إنَّ هٰذهِ التحميدةَ لا تناسبُ الكتابَ الذي افتتحَهُ بها ، وإنَّما تَصلُحُ أن تُوضَعَ في صدرِ مُصنَّفٍ مِنْ [مُصنَّفاتِ] أصولِ الدِّينِ ؛ ككتابِ « الشاملِ » للجوينيِّ ، وكتابِ « الاقتصادِ » للغزاليِّ ، وما جرىٰ مَجراهُما ، فأمَّا أن تُوضَعَ في أوَّلِ كتابِ فتحٍ . . فلا) .

ثمَّ مِنَ المُكاتباتِ ما يَعسُرُ معَهُ الإتيانُ ببراعةِ الاستهلالِ ، فيأتي بها فيما يلي ذٰلكَ مِنَ الكلامِ في مُقدِّمةِ المكاتبةِ ، قبلَ الخوضِ في المقصودِ ، ولا يهملُها جملةً ، علىٰ أنَّ الشيخَ شهابَ الدِّينِ محموداً الحلبيَّ رحمَهُ اللهُ قد ذكرَ في كتابِهِ « حسنِ التوسُّلِ » : أنَّهُ إن عَسُرَ عليهِ براعةُ الاستهلالِ . . أتىٰ بما يُقارِبُ المعنىٰ .

وبكلِّ حالٍ : فإذا أتىٰ ببراعةِ استهلالٍ في أوَّلِ مكاتبةٍ . . استصحبَها إلى الفراغِ مِنَ الخُطبةِ إن كانَ الكتابُ مُفتتَحاً بخُطبةٍ ، وإلَّا . . استصحبَها إلى الفراغِ مِنْ مُقدِّمةِ الكتابِ الآتي بيانُها .

* * *

(١) القائل هو ابن الأثير .

[المقدمةُ المشتملةُ على المقاصدِ الجليلةِ للموضوعِ]

الأصلُ الثالثُ : المُقدِّمةُ التي يلزمُ أن يأتيَ بها في صدرِ الكتبِ المشتملةِ على المقاصدِ الجليلةِ ؛ تأسيساً لما يأتي بهِ في [مكاتبتِهِ] ، مثلَ أن يأتيَ في صدرِ كتبِ الحثِّ على الجهادِ : بذكرِ افتراضِهِ على الأُمَّةِ ، وما وعدَ اللهُ تعالىٰ بهِ مِنْ نصرِ أوليائِهِ ، وخذلانِ أعدائِهِ ، وإعزازِ المُوحِّدينَ ، وقمعِ الملحدينَ ، وفي صدورِ كتبِ الفتحِ : بإنجازِ وعدِ اللهِ الذي وعدَهُ أهلَ الطَّاعةِ مِنَ النصرِ والظَّفَرِ ، وإظهارِ دينِهِ على الدِّينِ كلِّهِ ، وفي صدورِ كتبِ جبايةِ الخَراجِ : يُصدِّرُ بحاجةِ قيامِ الملكِ إلى الاستعانةِ بما يستخرجُ مِنْ حقوقِ السُّلطانِ في عمارةِ الثغورِ ، وتحصينِ الأعمالِ ، وتقويةِ الرجالِ ، ونحوِ ذٰلكَ ممَّا يجري علىٰ هٰذا النمطِ ؛ فقد قيلَ : إنَّهُ لا يَحسُنُ بالكاتبِ أن يخليَ كلامَهُ وإن كانَ وجيزاً مِنْ مُقدِّمةٍ يفتتحُهُ بها وإن وقعَتْ في حرفَينِ أو ثلاثةٍ ؛ ليُوفِّيَ التأليفَ حقَّهُ .

قالَ في « موادِّ البيانِ »[1] : وعلىٰ هٰذا السبيلِ جرَتْ سُنَّةُ الكتَّابِ في جميعِ الكتبِ مِنْ أيِّ نوعٍ مِنَ المعاني ؛ كالفتوحِ ، والتهاني ، والتعازي ، والتهادي ، والاستخبارِ ، والاستبطاءِ ، والإحمادِ ، والإذمامِ ، وغيرِها ؛ ليكونَ ذٰلكَ بساطاً لِمَا يريدُ القولَ فيهِ ، وحُجَّةً يستظهرُ بها السُّلطانَ ؛ لأنَّ كلَّ كلامٍ لا بدَّ لهُ مِنْ فَرْشٍ يُفرَشُ قبلَهُ ؛ ليكونَ منهُ بمنزلةِ الأساسِ مِنَ البنيانِ ، قالَ : ويُرجَعُ في هٰذهِ المُقدِّماتِ إلىٰ معرفةِ الكاتبِ ما يَستحِقُّهُ كلُّ نوعٍ مِنْ أنواعِ الكلامِ مِنَ المُقدِّماتِ التي تشاكلُها .

ثمَّ قالَ : والطريقُ في إصابةِ المرمىٰ في هٰذهِ المُقدِّماتِ : أن تُجعَلَ

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٧٨ ـ ٢٧٩) .

مشتملةً علىٰ ما بعدَها مِنَ المقاصدِ والأغراضِ ، وأن يُوضَعَ للأمرِ الخاصّ مُقدِّمةٌ خاصَّةٌ ، وللأمرِ العامّ مُقدِّمةٌ عامَّةٌ ، ولا يُطوِّلَ في موضعِ الاقتصارِ ، ولا يُقصِّرَ في موضعِ الإيجازِ ، ولا يجعلَ أغراضَها بعيدةَ المأخذِ ، مُعتاصةً على المُتصفِّحِ ؛ وذٰلكَ أنَّ الكاتبَ ربَّما قصدَ إظهارَ القدرةِ على الكلامِ ، والتصرُّفَ في وجوهِ النطقِ ، فخرجَ إلى الإملالِ والإضجارِ الذي تَتبرَّمُ منهُ النفوسُ وذَوُو الأخطارِ الجليلةِ .

أمَّا الكتبُ التي لا تشتملُ على المقاصدِ الجليلةِ ؛ كرقاعِ التحفِ والهدايا ونحوِها . . فقد ذكرَ في « موادِّ البيانِ » : أنَّهُ لا تُجعَلُ لها مُقدِّمةٌ ؛ فإنَّ ذٰلكَ غيرُ جائزٍ ولا واقعٍ موقعَهُ ، ألا ترىٰ أنَّهُمُ استحسنوا قولَ بعضِهِم في صدرِ رقعةٍ مقترنةٍ بتحفةٍ في يومِ مِهرجانٍ : (هٰذا يومٌ جرتْ فيهِ العادةُ بأن تُهدِيَ العبيدُ فيهِ إلى السادةِ) ، واستظرفوا الكاتبَ ؛ لإيجازِهِ ، وتقريبِ المأخذِ .

* * *

[معرفة مراتبِ الألفاظِ ومواقِعِها]

الأصلُ الرابعُ : مواقعُ الألفاظِ الدائرةُ في الكتبِ والوادي واحدٌ ، فيلزمُ أن يميزَ موقعَ كلٍّ ليضعَهُ مكانَهُ ، قالَ في « ذخيرةِ الكُتَّابِ »[١] : يجبُ على الكاتبِ الرئيسِ أن يَعرِفَ مرتبةَ الألفاظِ ومواقعَها ؛ ليُرتِّبَها ويُفرِّقَ بينَها فرقاً يَقِفُهُ على الواجبِ ، وينتهي بهِ إلى الصَّوابِ ، فيخاطبُ كلّاً في مكاتبتِهِ بما يَستحِقُّهُ مِنَ الخطابِ ؛ فإنَّهُ قبيحٌ بهِ أن يكونَ خطابُهُ أوَّلاً خطابَ الرئيسِ للمَرؤوسِ ، ويتبعُ ذٰلكَ بخطابِ المرؤوسِ للرئيسِ ، أو يبدأَ بخطابِ المرؤوسِ للرئيسِ ، ثمَّ يتبعُهُ بخطابِ الرئيسِ للمرؤوسِ .

قالَ : ومتى استمرَّ الكاتبُ علىٰ هـٰذهِ المخالفةِ مِنَ الألفاظِ والمناقضةِ . . نقصَتِ المعاني ، ورذلَتِ الألفاظُ ، وسقطَتِ المقاصدُ ، وكانَ الكاتبُ قد أخلَّ مِنَ الصِّناعةِ بمعظمِها ، وتركَ مِنَ البلاغةِ غايةَ مُحكَمِها ، بل يجبُ إن بدأَ بخطابِ رئيسٍ أو نظيرٍ أو مرؤوسٍ . . أن يكونَ ما يَتخلَّلُ مكاتبتَهُ مِنَ الألفاظِ على اتساقٍ إلىٰ آخِرِها ، واطِّرادٍ مِنْ غيرِ مخالفةٍ بينَها ولا مُضادَّةٍ ولا مناقضةٍ .

نعم ؛ يَحسُنُ ذٰلكَ في معاتباتِ الإخوانِ ، والمداعباتِ الجاريةِ بينَ الخِلَّانِ .

وفي هـٰذا الأصلِ : يَندرجُ الفرقُ بينَ نحوِ (أصدرْنا هـٰذهِ المكاتبةَ) أو (أصدرناها) ، وبينَ (أُصدِرَتْ) وبينَ (صَدَرَتْ) ، فـ (أصدرناها) أعلىٰ

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٠) .

بالنسبةِ للمكتوبِ إليهِ ؛ للتصريحِ فيها بالضَّميرِ العائدِ على الرئيسِ الذي صدرَتِ المكاتبةُ عنهُ ؛ إذِ الشيءُ يَشرُفُ بشرفِ مُتعلَّقِهِ ، ويلي ذٰلكَ في الرتبة (أُصدِرَتْ) لاقتضائِها إصداراً في الجملةِ ، والإصدارُ لا بدَّ لهُ مِنْ مُصدِرٍ ، وذٰلكَ المُصدِرُ هوَ الرئيسُ الصَّادرةُ عنهُ في الحقيقةِ ، وإنَّما كانَتْ دونَ الأُولىٰ للتصريحِ بالضَّميرِ هناكَ دونَ هنا ، ودونَ ذٰلك في الرتبةِ (صَدَرَتْ) لاقتضاءِ الحالِ صدورَها بنفسِها دونَ دلالةٍ على المُصدِرِ أصلاً .

والفرقُ بينَ (ونُبدي لعلمِهِ) وبينَ (نُوضِّحُ لعلمِهِ) ، فـ (نبدي لعلمِهِ) أعلىٰ بالنسبةِ إلى المكتوبِ إليهِ ؛ لأنَّ الإبداءَ يرجعُ في المعنىٰ إلىٰ إظهارِ شيءٍ خفيٍّ ، والإيضاحَ يرجعُ إلىٰ بيانِ مشكلٍ ، وحصولُ الإشكالِ المحتاجِ إلى الإيضاحِ ربَّما دلَّ علىٰ بُعْدِ فهمِ المُخاطَبِ عنِ المقصودِ ، بخلافِ إظهارِ الخفيِّ ؛ فإنَّهُ لا ينتهي إلىٰ هٰذا الحدِّ .

والفرقُ بينَ (علمُهُ الكريمُ) و(علمُهُ المباركُ) ، فالكريمُ أعلىٰ مِنَ المباركِ ؛ لأنَّ في الكريمِ عراقةَ أصلٍ وشرفٍ قد تُوجَدُ في المباركِ وقد تَتخلَّفُ عنهُ .

والفرقُ بينَ (ومرسومُنا لفلانٍ بكذا) وبينَ (والمرسومُ لهُ بكذا) ، فـ (مرسومُنا) أعلىٰ بالنسبةِ إلى المكتوبِ عنهُ ؛ لاشتمالِهِ علىٰ نونِ الجمعِ المقتضيةِ للتعظيمِ ، ولذٰلكَ اختصَّتْ بالملوكِ دونَ غيرِهِم ، بخلافِ (والمرسومُ لهُ) فإنَّهُ عارٍ عن ذٰلكَ .

والفرقُ بينَ (والمسؤولُ) وبينَ (والمستمدُّ) ، فإنَّ (المسؤولَ) أعلىٰ بالنسبةِ إلى المكتوبِ عنهُ ؛ فإنَّ (المسؤولَ) يَتضمَّنُ نوعَ ذلَّةٍ ، بخلافِ الاستمدادِ ؛ فإنَّهُ لا يستلزمُ ذٰلكَ .

والفرقُ بينَ (بلغَنا) وبينَ (أُنهِيَ إلىٰ علمِنا) ، وبينَ (اتصلَ بنا) ،

فـ (اتصلَ بنا) أعلىٰ مِنْ (أُنهِيَ إلىٰ علمِنا) لِمَا في معنى الاتصالِ مِنَ التلاصقِ ، بخلافِ الإنهاءِ ، و(أُنهِيَ إلىٰ علمِنا) أعلىٰ مِنْ (بلغَنا) لأنَّ البلوغَ قد يكونُ علىٰ لسانِ الآحادِ .

والفرقُ بينَ (**أنهىٰ فلانٌ كذا**) وبينَ (**عَرَّفَنا كذا**) ، فـ (عَرَّفَنا) أعلىٰ بالنسبةِ إلىٰ رافعِ الخبرِ ؛ لأنَّ في التعريفِ مزيةَ قُربٍ مِنَ الرئيسِ ، بخلافِ الإنهاءِ ؛ فإنَّهُ لا يقتضي ذٰلكَ .

والفرقُ بينَ (**وردَتْ مكاتبتُهُ**) وبينَ (**وردَتْ علينا مكاتبتُهُ**) فـ (وردَتْ علينا) أعلىٰ بالنسبةِ إلىٰ صاحبِ المكاتبةِ الواردةِ ؛ لتخصيصِها بالورودِ على الرئيسِ ، بخلافِ الورودِ المطلقِ .

والفرقُ بينَ (**عُرِضَ علينا مكاتبتُكَ**) وبينَ (**وقفْنا علىٰ مكاتبتِكَ**) ، فـ (وقفنا) أعلىٰ بالنسبةِ إلىٰ صاحبِ المكاتبةِ ؛ لأنَّ الوقوفَ عليها يكونُ بنفسِهِ ، والعرضُ يكونُ مِنْ غيرِهِ .

والفرقُ بينَ (**وشكرتُ اللهَ تعالىٰ علىٰ سلامتِهِ**) وبينَ (**وتوالىٰ شكري للهِ تعالىٰ**) ، فـ (توالىٰ شكري) أعلىٰ بالنسبةِ إلى المكتوبِ إليهِ ؛ لِمَا فيه مِنْ معنى التَّكرارِ ومزيدِ الشكرِ المعروفِ بالاحتفالِ .

والفرقُ بينَ (**ورغبتُ إلى اللهِ تعالىٰ**) وبينَ (**وضَرَعْتُ إلى اللهِ تعالىٰ**) ، فـ (ضرعتُ) أعلىٰ مِنْ (رغبتُ) لِمَا في الضَّراعةِ مِنْ مزيدِ الابتهالِ في الطَّلبِ ، بخلافِ الرغبةِ ؛ فإنَّها لا تبلغُ هٰذا المبلغَ .

والفرقُ بينَ (**وقابلتُ أمرَهُ بالطَّاعةِ**) وبينَ (**وامتثلتُ أمرَهُ بالطَّاعةِ**) ، فـ (امتثلتُ أمرَهُ) أعلىٰ مِنْ (قابلتُ أمرَهُ) لِمَا في الامتثالِ مِنْ معنى الإذعانِ والانقيادِ ، بخلافِ المقابلةِ .

والفرقُ بينَ (وشفعتُ لهُ) وبينَ (وسألتُ فيهِ) فالسؤالُ أعلىٰ في حقِّ المسؤولِ مِنَ الشفاعةِ ؛ لِمَا في الشفاعةِ مِنْ رفعةِ المَقامِ المُؤدِّي إلىٰ قَبولِ الشفاعةِ .

والفرقُ بينَ (وخاطبتُ فلاناً في أمرِهِ) وبينَ (وتَحدَّثتُ في أمرِهِ) ، فـ (تَحدَّثتُ) أشدُّ في تواضعِ المُتكلِّمِ مِنْ (خاطبتُ) لأنَّ الخطابَ مِنَ الألفاظِ الخاصَّةِ التي لا يتعاطَاها كلُّ أحدٍ ، بخلافِ التحدُّثِ .

والفرقُ بينَ (تشريفي بكذا) وبينَ (إسعافي بكذا) ، فـ (الإسعافُ) أعلىٰ رتبةً مِنَ (التشريفِ) لِمَا فيهِ مِنْ دعوى الحاجةِ والفاقةِ إلى المطلوبِ ، بخلافِ التشريفِ ، و(إتحافي) دونَ (تشريفي) لأنَّ الإتحافَ قد لا يقتضي تشريفاً .

والفرقُ بينَ قولِهِ (نزلَ عندَهُ) وبينَ قولِهِ (نزلَ بساحتِهِ) ، فـ (الساحةُ) أعلىٰ ؛ لِمَا فيها مِنْ معنى الفسحةِ والاتساعِ .

قلتُ [١] : وربَّما وجبَ اجتنابُ هٰذهِ الكلمةِ ؛ لملاحظة وقوعِها في قولِهِ عزَّ ذكرُهُ ، ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [٢] ، كما وردَ عن بعضِ الصَّحابةِ : أنَّهُ سمعَ إنساناً يقولُ : انصرفوا بنا ، فقالَ : ألم تسمعْ : ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [٣] ، فقلْ : انقلبوا بنا ؛ لتكونَ موافقاً قولَهُ تعالىٰ : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ ﴾ [٤] .

والفرقُ بينَ (فيحيطُ علمُهُ بذٰلكَ) وبينَ (فيعلمَ ذٰلكَ) ، فـ (يحيطُ

---

(١) القائل هو المؤلف ضمن نقله لكلام العلامة القلقشندي من « صبح الأعشىٰ » .
(٢) سورة الصافات : (١٧٧) .
(٣) سورة التوبة : (١٢٧) .
(٤) سورة آل عمران : (١٧٤) .

علمُهُ) أعلىٰ مِنْ (يعلمُ ذٰلكَ) لأنَّ في قولِهِ : (فيحيطُ علمُهُ بذٰلكَ) نسبةً إلىٰ سعةِ العلمِ ؛ لِمَا فيه مِنْ معنى الإحاطةِ ، بخلافِ (فيعلمُ ذٰلكَ) .

* * *

[معرفةُ مراتبِ الأدعيةِ ومواقِعِها]

الأصـلُ الـخـامسُ : الأدعـيـةُ الـتـي جـرتْ عـادةُ الـسـلـفِ وتـبـعَـهُـمُ الـخلـفُ باستعمالِها في المكاتباتِ ، والنظرُ فيها مِنْ ستةِ أوجهٍ :

الأَوَّلُ : أن يَعـرِفَ مـراتـبَ الـدعـاءِ ؛ ليـوقـعَـهـا فـي مـواقـعِـهـا ، ويـوردَهـا فـي مواردِها ، ويأتي ذٰلكَ في عدَّةِ أدعيةٍ :

منها : الدعاءُ بإطالةِ البقاءِ ، والدعاءُ بإطالةِ العمرِ ، فالدعاءُ بإطالةِ البقاءِ أرفعُ مِنَ الدعاءِ بإطالةِ العمرِ ؛ وذٰلكَ أنَّ البقاءَ لا يَدُلُّ علىٰ مُدَّةٍ تنقضي ؛ لأنَّهُ ضدُّ الفَناءِ ، والعمرُ يدلُّ علىٰ مُدَّةٍ تنقضي ، ولذٰلكَ يُوصَفُ اللهُ تعالىٰ بالبقاءِ ، ولا يُوصَفُ بالعمرِ ، قالَ في « موادِّ البيانِ »(١) : ومِنْ هنا جُعِلَ الدعاءُ بإطالةِ البقاءِ أوَّلَ مراتبِ الدعاءِ ، وخُصَّ بالخلفاءِ ، وجُعِلَ ما يليهِ لِمَنْ دونَهُم ، ويتلوهُ الدعاءُ بالمَدِّ في العمرِ ، فيكونُ دونَ الدعاءِ بالإطالةِ ؛ لأنَّ الوصفَ بطولِ الزمانِ أبلغُ مِنَ الوصفِ بالمَدِّ فيهِ ؛ مِنْ حيثُ إنَّ المَدَّ قابلٌ للمُدَّةِ الطويلةِ والمُدَّةِ القصيرةِ ، ولذٰلكَ صارَتْ مرتبةُ الطُّولِ أقربَ إلىٰ مرتبةِ البقاءِ مِنْ مرتبةِ المَدِّ .

ومنها : الدعاءُ بدوامِ النعمةِ ، والدعاءُ بمضاعفتِها ، فالدعاءُ بالمضاعفةِ أعلىٰ ؛ لأنَّ الدوامَ غايتُهُ استصحابُ ما هو عليهِ ، والمضاعفةُ مقتضيةٌ للزيادةِ علىٰ ذٰلكَ .

ومنها : الدعاءُ بعزِّ الأنصارِ ، وبعزِّ النصرِ ، وبعزِّ النُّصرةِ ، وقدِ اصطلحَ كُتَّابُ الزمانِ علىٰ أن جعلوا أعلاها الدعاءَ بعزِّ الأنصارِ ؛ لأنَّ عزَّ أنصارِهِ عزٌّ لهُ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٤) .

بالضَّرورةِ ، معَ ما فيهِ مِنْ تعظيمِ القدرِ ورفعةِ الشأنِ ؛ إذِ الأنصارُ لا تكونُ إلَّا لملكٍ عظيمٍ أو أميرٍ كبيرٍ ، والدعاءُ بعزِّ النصرِ أعلىٰ مِنَ الدعاءِ بعزِّ النُّصرةِ ؛ لِمَا في الأوَّلِ مِنْ معنى التذكيرِ ، وهوَ أرفعُ رتبةً مِنَ التأنيثِ ، علىٰ أنَّهُ لو جُعِلَ الدعاءُ بعزِّ النصرِ أعلىٰ مِنَ الدعاءِ بعزِّ الأنصارِ . . لكانَ لهُ وجهٌ ؛ لِمَا في عزِّ النصرِ مِنَ الغَناءِ عن عزِّ الأنصارِ .

ومنها : الدعاءُ بعزِّ الأحكامِ ، والدعاءُ بتأييدِ الأحكامِ ، فالدعاءُ بعزِّ الأحكامِ أعلىٰ ؛ لأنَّ المرادَ بالتأييدِ التقويةُ ؛ فقد تُوجَدُ القُوَّةُ ولا عزَّ معَها .

وينبغي للكاتبِ أن يحترزَ في تنزيلِ كلِّ أحدٍ مِنَ المكتوبِ إليهِم منزلتَهُ في الدعاءِ ، فلا ينقصُ أحداً عن حقِّهِ ، ولا يزيدُهُ فوقَ حقِّهِ ، فقد قالَ في « موادِّ البيانِ »[1] : إنَّ الملوكَ تسمحُ ببدَرَاتِ المالِ ، ولا تسمحُ بالدعوةِ الواحدةِ .

* * *

الثاني : أنْ يَعرِفَ ما يناسبُ كلَّ واحدٍ مِنْ أربابِ المناصبِ الجليلةِ مِنَ الدعاءِ ، فيَخُصَّهُ بهِ ؛ فيأتي بالدعاءِ في **المكاتبةِ للملوكِ** بإطالةِ البقاءِ ، ودوامِ السُّلطانِ ، وخلودِ الملكِ ، وما أشبهَ ذٰلكَ .

ويأتي في **المكاتبةِ إلى الأمراءِ** بالدعاءِ بعزِّ الأنصارِ ، وعزِّ النصرِ ، ومضاعفةِ النعمةِ ومداومتِها ، وما شاكلَ ذٰلكَ ، علىٰ أنَّ ابنَ شيثٍ قد ذكرَ في « معالمِ الكتابةِ »[2] : أنَّ الدعاءَ بعزِّ النصرِ ومضاعفةِ الاقتدارِ كانَ في الدولةِ الأيوبيَّةِ ممَّا يَختصُّ بالسُّلطانِ دونَ غيرِهِ .

ويأتي في **المكاتباتِ للوزراءِ** مِنْ أربابِ الأقلامِ ومَنْ في معناهُم . . بالدعاءِ

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٥) .
(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٥) .

بسبوغِ النعماءِ ، وتخليدِ السعادةِ ، ودوامِ المجدِ ، وما يضاهي ذٰلكَ .

ويأتي في **المكاتباتِ للقُضاةِ والحُكَّامِ** بالدعاءِ بعزِّ الأحكامِ ، وتأييدِ الأحكامِ ، وما يطابقُ ذٰلكَ .

ويأتي في **المكاتبةِ إلى التجَّارِ** بالدعاءِ بمزيدِ الإقبالِ ، وخلودِ السعادةِ ، وشبهِ ذٰلكَ .

ويأتي في **الإخوانياتِ** ومكاتبةِ النظراءِ مِنَ الدعاءِ بما يقتضيهِ الحالُ بينَهُم مِنَ الودِّ والإدلالِ ؛ بحَسَبِ ما يراهُ الكاتبُ ، ويؤدِّي إليهِ اجتهادُهُ ، قالَ في « موادِّ البيانِ »(١) : وقد كانوا يختارونَ في الدعاءِ للأدباءِ : أبقاكَ اللهُ ، وأكرمَكَ اللهُ ، وفي الدعاءِ للابنِ والحُرْمةِ : أبقاكَ اللهُ ، وأمتعَ بكَ .

أمَّا أهلُ الكفرِ . . فقدِ اصطلحوا على الدعاءِ لهُم بطولِ البقاءِ وما في معناهُ ، أمَّا جوازُ أصلِ الدعاءِ لهُم . . فلِمَا رُوِيَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ استسقىٰ ، فسقاهُ يهوديٌّ ، فقالَ لهُ : « جَمَّلَكَ اللهُ » ، فما رُئِيَ الشيبُ في وجهِهِ حتىٰ ماتَ(٢) ، فدلَّ علىٰ جوازِ الدعاءِ للكافرِ بما لا ضررَ فيهِ على المسلمينَ ، ما لم يَنضمَّ إليهِ قُوَّةٌ ونحوُ ذٰلكَ ، بل ربَّما كانَ في طولِ بقائِهِ حملُ جزيةٍ أو غنيمةٌ أو ثوابُ جهادٍ ونحوُ ذٰلكَ .

❋

والثالثُ : أن يَعرفَ ما يناسبُ كلَّ حالةٍ مِنْ حالاتِ المُكاتباتِ ، فيأتي لكلِّ حالةٍ بما يناسبُها مِنَ الدعاءِ ، قالَ في « موادِّ البيانِ »(٣) : ينبغي أن تكونَ الأدعيةُ دالَّةً علىٰ مقاصدِ الكتابِ ؛ فإن كانَ في الهناءِ . . أتىٰ بما يناسبُهُ ،

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٦) .

(٢) أخرجه ابن السني في « عمل اليوم والليلة » (٢٨٩) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٧) .

وكذٰلكَ الحالُ في كلِّ معنىً مِنَ المعاني التي يكتبُ فيها ؛ مِنَ التعزيةِ ، وشكرِ النعمةِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ؛ فإنَّهُ متىٰ خرجَ الدعاءُ عنِ المناسبةِ وباينَ المقصودَ . . خرجَ عن جادَّةِ الصِّناعةِ ، وتَوجَّهَ اللَّومُ على الكاتبِ ، لا سيَّما إذا أتىٰ بما يُضادُّ المرادَ ، كما حكىٰ أبو هلالٍ العسكريُّ في « الصِّناعتَينِ »(١) : أن بعضَهُم كتبَ إلىٰ محبوبتِهِ : عصمَنا اللهُ وإيَّاكِ ممَّا يُكرَهُ ، فكتبَتْ إليهِ : يا غليظَ الطَّبعِ ؛ إنِ استُجِيبَ لكَ . . لم نلتقِ أبداً !!

ويَختلِفُ الحالُ في ذٰلكَ باختلافِ حالِ المكاتباتِ :

فتارةً يكونُ باعتبارِ الشيءِ المكتوبِ بسببِهِ ؛ كما يُكتَبُ في معنى البشارةِ بجلوسِ الملكِ علىٰ تختِ المُلْكِ : لا زالَ أمرُهُ ، وأمتعَهُ مِنَ البشائرِ بما يَتوضَّحُ علىٰ جبينِ الصَّباحِ بشرُهُ ، وما يَترجَّحُ علىٰ ميزانِ الكواكبِ قدرُهُ ، وما يَنفسِحُ مِنْ أوقاتِ أمنٍ لا يختلفُ فيها زيدُهُ وعمرُهُ .

وكما يُكتَبُ في البُشرىٰ بفتحٍ : ولا زالَتْ آياتُ النصرِ تُتلىٰ عليهِ مِنْ صُحُفِ البشائرِ ، ونفائسُ الظَّفَرِ تُجلىٰ علىٰ سِرِّهِ في أسعدِ طائرٍ ، وفواتحُ الفتحِ تُزْهىٰ بهِ الأَسِرَّةُ وتزهو بنورِهِ المنابرُ .

وكما يُكتَبُ في التهنئةِ بعافيةٍ : ولا برحَ في بردِ الصِّحةِ رافلاً ، بعزمِهِ وحزمِهِ كافلاً ، والإقبالُ لجنابِهِ العالي بالهناءِ بعافيةٍ واصلاً .

وتارةً يكونُ باعتبارِ حالِ المكتوبِ إليهِ التي هوَ بصددِها ؛ كما يُكتَبُ لِمَنْ خرجَ إلى الغزوِ : وحَفَّهُ بلطفِهِ فلا يخيبُ ، وهَيَّأَ لهُ النصرَ والفتحَ القريبَ ، وجعلَ علىٰ يدَيهِ دمارَ الكُفَّارِ ، حتىٰ لا يَبقىٰ لهُم بشِدَّةِ بأسِهِ مِنَ السلامةِ نصيبٌ .

---

(١) انظر « الصناعتين » (ص ١٦٥) ، و« صبح الأعشىٰ » (٢٨٧/٦) .

وكما يُكتَبُ إلىٰ مَنْ خرجَ إلى الصَّيدِ : وأمتعَهُ بصُيودِهِ ، وجعلَ الأقدارَ مِنْ جنودِهِ ، وأراهُ مِنْ مصارعِ أعدائِهِ لسيوفِهِ ورماحِهِ ما يَراهُ مِنْ مصارعِ صيدِهِ ببُزاتِهِ وفهودِهِ .

وكما يُكتَبُ لِمَنْ خرجَ في سفرٍ : وقضىٰ بقُرْبِ رَجْعتِهِ ، وجعلَهُ كالهلالِ في مسيرِهِ سببُ رفعتِهِ ، وسَكَّنَ بقدومِهِ أشواقَ أوليائِهِ وأهلِ مَحبَّتِهِ .

وكما يُكتَبُ لِمَنْ خرجَ لتخضيرِ البلادِ : وألبسَ البلادَ بقدومِهِ أخضرَ الأثوابِ ، وأحلَّهُ أشرفَ محلٍّ وأخضرَ جنابٍ .

وتارةً يكونُ باعتبارِ وظيفةِ المكتوبِ إليهِ التي هوَ قائمٌ بها ؛ كما يُكتَبُ إلىٰ [كافلِ] المملكةِ : ولا زالَتْ كفايةُ كفالتِهِ تزيدُ على الآمالِ ، ويَتقرَّبُ إلى اللهِ تعالىٰ بصالحِ الأعمالِ ، ويَكفُلُ ما بينَ أقصى الجنوبِ وأقصى الشَّمالِ .

وكما يُكتَبُ إلىٰ قاضٍ : ويَفصِلُ بينَ الخصومِ بأحكامِهِ المُسدَّدةِ ، وأقضيتِهِ التي بها قواعدُ الإسلامِ مُمهَّدةٌ ، وأبنيةُ الشرعِ المُطهَّرةُ وأركانُهُ مُشيَّدةٌ .

وكما يُكتَبُ إلىٰ مُتصوِّفٍ : وأعادَ مِنْ بركاتِ تَهجُّداتِهِ ، وأنارَ اللياليَ بصالحِ دعواتِهِ .

وتارةً يكونُ باعتبارِ بلدِ المكتوبِ إليهِ وناحيتِهِ ؛ كما يُكتَبُ إلىٰ نائبِ الشامِ : ولا زالَ النصرُ حليةَ أيَّامِهِ ، وشامةَ شامِهِ ، وغَمامةَ ما يخلفُ علىٰ بلدِهِ المُخْصِبِ مِنْ غَمامِهِ [1] .

وكما يُكتَبُ إلىٰ نائبِ حلبَ في زمنِ الحروبِ : ولا زالَ يُعَدُّ ليومٍ تَشيبُ فيهِ الوِلدانُ ، [ويُصَدُّ دونَهُ] كُلُّ محاربٍ بينَ الشَّهباءِ والميدانِ ، ويَعُمُّ حلبَ

(١) في « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٨٩) : (يحلِّق) بدل (يخلف) .

مِنْ حلي أيامِهِ ما لا يُفقَدُ معَهُ إلَّا اسمُ ابنِ حمدانَ ، ونحوُ ذٰلكَ ممَّا يَنخرِطُ في هٰذا السلكِ .

وتارةً يكونُ باعتبارِ اسمِ المكتوبِ إليهِ ولقبِهِ ؛ كما يُكتَبُ إلىٰ مَنْ لقبُهُ سيفُ الدِّينِ : ولا زالَ سيفُهُ في رقابِ أعدائِهِ مُغمَداً ، وحدُّهُ يَذَرُ كلَّ ملحِدٍ مُلْحَداً .

وكما يُكتَبُ إلىٰ مَنْ لقبُهُ عزُّ الدِّينِ : ولا زالَ عِزُّهُ دائماً ، والزمانُ في خدمتِهِ قائماً ، وطَرْفُ الدَّهرِ عن مراقبةِ سعادتِهِ نائماً .

وكما يُكتَبُ إلىٰ مَنْ لقبُهُ شمسُ الدِّينِ : ولا زالَتْ شمسُ سعادتِهِ مُشرِقةً ، وأغصانُ فضلِهِ بالعوارفِ مُورِقةً ، وعيونُ طوارقِ الغيرِ عنهُ في كلِّ زمنٍ مُطرِقةً .

وكما يُكتَبُ إلىٰ مَنْ لقبُهُ ناصرُ الدِّينِ : ونصرَ عزائمَهُ ، وشكرَ مكارمَهُ ، ووَفَّرَ مِنَ الحسناتِ مغانمَهُ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الأمورِ التي ستقفُ على الكثيرِ منها في الكلامِ علىٰ مقاصدِ الكتابِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

الرابعُ : أن يَعرِفَ مواضعَ الدعاءِ على المكتوبِ إليهِ ، ومَنِ الذي يُصرَّحُ بذٰلكَ في المكاتبةِ إليهِ ، وقد ذكرَ ابنُ شيثٍ في « معالمِ الكتابةِ »(١) : أنَّ الدعاءَ في صدورِ الكتبِ كانَ مِنْ عوائدِ مكاتبةِ الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ؛ مثلُ : وقصمَ ، وأذلَّ ، وقهرَ ، وحصدَ ، وكذٰلك المماثلُ والمقاربُ ، فأمَّا مِنَ الأعلىٰ إلى الأدنىٰ . . فلم يكنْ ذٰلكَ معروفاً عندَ المُتقدِّمينَ ، لا سيَّما إذا كانَ الكتابُ عنِ السلطانِ ، ثمَّ قالَ : ولٰكنْ قد أُفْلِتَ الحبلُ في ذٰلكَ الآنَ ، قالَ : ولا يُقالُ للأدنىٰ غيرُ : كُبِتَ عدوُّهُ ، أو ضدُّهُ ، أو حاسدُهُ خاصَّةً .

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٠) .

ومنها : أن يَعرِفَ ما كرهَهُ الكُتَّابُ مِنَ الدعاءِ فيتجنبَهُ ، وهوَ علىٰ ضربَينِ :

الضَّربُ الأوَّلُ : ما كرهوهُ في المكاتبةِ إلىٰ كلِّ أحدٍ ، قالَ في « موادِّ البيانِ »[١] : كانَتْ عادتُهُم جاريةً أن يَتجنَّبوا مِنَ الأدعيةِ ما لا محصولَ لهُ ؛ كقولِهِم : جعلَني اللهُ فداكَ ، وقدَّمَني إلى السُّوءِ دونَكَ ؛ لِمَا في ذٰلكَ مِنَ التصنُّعِ والملقِ الذي لا يرضاهُ السُّلطانُ ؛ لأنَّ نفسَ الداعي لا تسمحُ باستجابتِهِ ، ويُؤيِّدُ ما ذكرَهُ : ما كتبَ بهِ ابنُ عبدِ ربِّهِ إلىٰ بعضِ أصدقائِهِ[٢] : جُعِلتُ فداكَ على الصحَّةِ والحقيقةِ ، لا علىٰ مَجرى المكاتبةِ ومذهبِ العادةِ .

قالَ في « موادِّ البيانِ »[٣] : وإنَّما يَحسُنُ ذٰلكَ مِنَ الخواصِّ الذينَ يَتحقَّقونَ أنَّ بقاءَهُم معذوقٌ ببقاءِ رؤسائِهِم[٤] ، وثباتَ نعمِهِم مقرونٌ بثباتِ أيامِ سلاطينِهِم ؛ لأنَّه يَصدُرُ عن عقائدَ مُستحكِمةٍ مِنْ بذلِ الأنفسِ دونَهُم .

وما ذهبَ إليهِ مِنْ كراهةِ ذٰلكَ . . قد نُقِلَ في « صناعةِ الكتابِ » مثلُهُ عن مالكِ بنِ أنسٍ ، واحتجَّ لهُ بما رُوِيَ عنِ الزبيرِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : جُعِلتُ فداكَ ، فقالَ لهُ : « مَا تَرَكْتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدُ ؟! »[٥] ، علىٰ أنَّ بعضَهُم قد أجازَ ذٰلكَ ؛ احتجاجاً بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لبعضِ مَنْ كانَ يرمي دونَهُ يومَ أُحُدٍ : « ٱرْمِ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي »[٦] ، وبما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قالَ لَهُ : « أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ ٱللهُ بِهِنَّ ؟ » ، قالَ : نعم ، جعلَني اللهُ فداكَ[٧] ،

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٠) .
(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٠) .
(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٠) .
(٤) يقال : فلان معذوق بالشر ؛ أي : موسوم به .
(٥) أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » (٨٥٠١) عن الحسن رحمه الله تعالىٰ .
(٦) أخرجه البخاري (٢٩٠٥) ، ومسلم (٢٤١١) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٧) أخرجه الطبراني في « الدعاء » (١٩٧٢) .

ولـم يُنكِرْ عليهِ ، فلعلَّ إنكـارَهُ عليهِ كـانَ لـحالةٍ قـارنَـتِ الدعـاءَ بذٰلكَ ، وفي معنىٰ ذٰلكَ كلُّ ما يجري هـٰذا المَجرىٰ ونحوَهُ .

الضَّربُ الثاني : ما يَختصُّ كراهتُهُ بالبعضِ دونَ البعضِ ؛ وهوَ نوعانِ :

ـ **النـوعُ الأوَّلُ** : ما يَـختـصُّ بـالـرجـالِ ؛ فمِنْ ذٰلكَ : ما ذكـرَهُ فـي « مـوادِّ البيانِ »[1] : أنَّهم كانوا لا يستحسنونَ الدعاءَ بالإمتاعِ ؛ نحوَ : أمتعَ اللهُ بكَ ، وأمتعَني اللهُ بكَ ، في حقِّ الإخوانِ .

ومـمَّـا يُـحكـىٰ فـي ذٰلكَ : أنَّ مـحـمـدَ بـنَ عـبـدِ الـمـلـكِ الـزيَّـاتَ كـتـبَ إلـىٰ عبـدِ اللهِ بـنِ طـاهـرٍ فـي كـتـابٍ : وأمـتـعَ بـكَ ، فكتـبَ إليـهِ عبـدُ اللهِ بـنُ طاهرٍ : [من المنسرح]

أَحُـلْـتَ عَـمَّـا عَـهِـدْتُ مِـنْ أَدَبِـكْ ... أَمْ نِـلْـتَ مُـلْـكـاً فَـتِـهْـتَ فِـي كُـتُـبِـكْ

أَتْـعَـبْـتَ كَـفَّـيْـكَ مِـنْ مُـكَـاتَـبَـتِـي ... حَـسْـبُـكَ مِـمَّـا يَـزِيـدُ فِـي تَـعَـبِـكْ

إِنَّ جَـفَـاءً كِـتَـابُ ذِي مِـقَـةٍ ... يَـكُـونُ فِـي صَـدْرِهِ وَأَمْـتَـعَ بِـكْ

فأجابَهُ محمدُ بنُ عبدِ الملكِ الزيَّاتُ معتذراً بقولِهِ : [من المنسرح]

كَـيْـفَ أَخُـونُ ٱلْإِخَـاءَ يَـا أَمَـلِـي ... وَكُـلُّ شَـيْءٍ أَنَـالُ مِـنْ سَـبَـبِـكْ

إِنْ يَـكُ جَـهْـلٌ أَتَـاكَ مِـنْ قِـبَـلِـي ... فَـعُـدْ بِـفَـضْـلٍ عَـلَـيَّ فِـي أَدَبِـكْ

ـ **النوعُ الثاني** : ما يَختصُّ بالنساءِ : فقد ذكرَ أبو جعفرٍ النَّحَّاسُ : أنَّهُ لا يُقالُ في مكاتبتِهِنَّ : وأدامَ كرامتَكِ ، ولا : وأتـمَّ نعمتَهُ عليكِ ، ولـٰكنْ : لديكِ .

أمَّا منعُ الدعاءِ لهنَّ بالكرامةِ . . فلِمَا حَكىٰ محمدُ بنُ عمرَ المدائنيُّ : أنَّ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩١) .

بعضَ عُمَّالِ زبيدةَ كتبَ إليها كتاباً بسببِ ضِياعِ لها ، فوَقَّعَتْ لهُ علىٰ ظهرِ كتابِهِ : أردتَ أن تدعوَ لنا فدعوتَ علينا !! فأصلحْ خطأَكَ في كتابِكَ ، وإلَّا . . صرفناكَ عن جميعِ أعمالِكَ .

فأدركَهُ القلقُ ، وجعلَ يَتصفَّحُ الكتابَ ويَعرِضُهُ على الكُتَّابِ ، فلا يجدُ فيهِ شيئاً ، إلىٰ أن عرضَهُ علىٰ بعضِ أهلِ المعرفةِ ، فقالَ : إنَّما كرهَتْ دعاءَكَ في صدرِ كتابِكَ بقولِكَ : (وأدامَ كرامتَكِ) لأنَّ كرامةَ النساءِ دفنُهُنَّ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ : « دَفْنُ ٱلْبَنَاتِ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ »[1] ، فغَيَّرَ ذٰلكَ الحرفَ مِنْ كتابِهِ ، وأعادَهُ إليها ، فوَقَّعَتْ لهُ علىٰ ظهرِهِ : أحسنتَ ولا تعدْ .

الخامسُ : أن يَتجنَّبَ الخلافَ في الدعاءِ في فصولِ الكتابِ ، ولا يواليَ بينَ دعوتَينِ منهُ ، فأمَّا الخلافُ في الدعاءِ . . فقالَ أبو جعفرٍ النَّحَّاسُ[2] : هوَ مثلُ أن يقولَ : أطالَ اللهُ بقاءَ سيدي ؛ بلفظِ الغَيبةِ ، ثمَّ يقولَ بعدَ ذٰلكَ : وبَلَّغَكَ أملكَ ؛ بلفظِ الخطابِ ، وأمَّا المُوالاةُ بينَ دعوتَينِ ، ولا يأتي بهِما مُتفِقتَينِ . . كأن يُقالَ : حرسَ اللهُ الأميرَ ، أعزَّهُ اللهُ .

السادسُ : أن يَتجنَّبَ وقوعَ اللَّبْسِ في الدعاءِ ، فإذا ذكرَ الرئيسَ معَ عدوِّهِ مثلاً . . لم يدعُ للرئيسِ حينَئذٍ ؛ فإنَّهُ لو ذهبَ يقولُ : وقد كانَ مِنْ عدوِّ سيِّدِي أبقاهُ اللهُ كذا . . لاحتُمِلَ عودُ الدعاءِ إلى الرئيسِ وإلىٰ عدوِّهِ !!

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١/٢٩٠) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، وخُرِّج مُخرج العزاء .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٣) .

[معرفةُ الألقابِ وصفاتِها ومقدارِ مَن يكتبُ إليهِ]

الأصلُ السادسُ : أن يعرفَ ما يناسبُ المكتوبَ إليهِ مِنَ الألقابِ ، فيعطيَهُ حقَّهُ منها ، ويَتعلَّقُ الغرضُ مِنْ ذٰلكَ بثلاثةِ أمورٍ :

أحدُها : أن يَعرِفَ ما يناسبُ كلَّ لقبٍ مِنَ الألقابِ الأصولِ ؛ كالمَقامِ ، والمَقرِّ ، والجَنابِ ، والمَجلسِ . . في زمانِنا ، فيعطيَ كلَّ أحدٍ مِنَ المكتوبِ إليهِم ما يليقُ بهِ مِنْ ذٰلكَ ، فيجعلَ المَقامَ لأكابرِ الملوكِ ، والمَقرَّ لِمَنْ دونَهُم مِنَ الملوكِ ، وللرتبةِ العليا مِنْ أهلِ المملكةِ ، والجَنابَ للرتبةِ الثالثةِ مِنَ الملوكِ ، والرتبةِ الثانيةِ مِنْ أهلِ الدولةِ ، والمجلسَ للرتبةِ الرابعةِ مِنَ الملوكِ ، والرتبةِ الثالثةِ مِنْ أهلِ الدولةِ ، ومجلسَ الأميرِ لِمَنْ دونَ ذٰلكَ مِنْ أهلِ الدولةِ على المصطلحِ المُستقِرِّ عليهِ الحالُ .

❁ ❁ ❁

الثاني : أن يَعرِفَ ما يناسبُ كلَّ لقبٍ مِنَ الألقابِ الأصولِ مِنَ الألقابِ والنعوتِ التابعةِ لذٰلكَ ، فيُتبِعَ كلَّ واحدٍ مِنَ الأصولِ بما يناسبُهُ مِنَ الفروعِ .

❁ ❁

الثالثُ : أن يَعرِفَ مِقدارَ المكتوبِ إليهِ ، فيوفيَهُ قسطَهُ مِنَ الألقابِ في الكثرةِ والقِلَّةِ بحَسَبِ ما يَجري عليهِ الاصطلاحُ ؛ فقد ذكرَ في « معالمِ الكتابةِ »(١) : أنَّ السُّلطان لا يكثرُ في المكاتبةِ إليهِ مِنْ نُعُوتِهِ ، بل يَقتصِرُ على الأشياءِ التي تكونُ فيهِ ؛ مثلُ العالمِ العادلِ ، أمَّا غيرُ ذٰلكَ . . فيقعُ باللقبَينِ المشهورَينِ ؛ وهُما : نعتُهُ المفردُ ، ونعتُهُ المضافُ إلى الدِّينِ ، وأنَّهُ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٤ ـ ٢٩٥) .

فيِ الكتابةِ عنِ السُّلطانِ كلَّما زِيدَ في النعوتِ . . كانَ أميزَ ؛ لأنَّها علىٰ سبيلِ التشريفِ مِنَ السُّلطانِ ، ويجعلُ المضافَ إلى الدِّينِ مُتوسِّطاً بينَ الألقابِ ، لا في أوَّلِها .

❋ ❋ ❋

[مراعاةُ مقاصدِ المكاتباتِ]

الأصلُ السابعُ : أن يراعيَ مقاصدَ المُكاتباتِ ، فيأتيَ لكلِّ مقصدٍ بما يناسبُهُ ، ومدارُ ذٰلكَ علىٰ أمرَينِ :

الأمرُ الأوَّلُ : أن يأتيَ معَ كلِّ كلمةٍ بما يَليقُ بها ، ويَتخيَّرَ لكلِّ لفظةٍ ما يشاكلُها ، قالَ ابنُ عبدِ ربّهِ (١) : وليكنْ ما تَختِمُ بهِ فصولَكَ في موضعِ ذكرِ البلوىٰ ؛ مثلَ : نسألُ اللهَ رفعَ المحذورِ ، وصرفَ المكروهِ ، وأشباهَ ذٰلكَ ، وفي موضعِ ذكرِ المصيبةِ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، وفي موضعِ ذكرِ النعمةِ : الحمدُ للهِ خالصاً ، والشكرُ للهِ واجباً ، وما شاكلَ ذٰلكَ .

قالَ في « موادِّ البيانِ » (٢) : وإذا ذكرَ البلوىٰ . . شفعَها بالاستعانةِ باللهِ تعالىٰ ، والرجوعِ إليهِ فيها ، وردَّ الأمرَ إلىٰ حولِهِ وقُوَّتِهِ .

قالَ ابنُ عبدِ ربّهِ (٣) : فإنَّ هٰذهِ المواضعَ ممَّا يَتعيَّنُ على الكاتبِ أن يَتفقَّدَها ويَتحفَّظَ فيها ؛ فإنَّ الكاتبَ إنَّما يصيرُ كاتباً بأن يضعَ كلَّ معنىً في موضعِهِ ، ويُعلِّقَ كلَّ لفظٍ علىٰ طبقِهِ في المعنىٰ .

وممَّا يَلتحِقُ بذٰلكَ أيضاً : أنَّهُ إذا ذكرَ الرئيسَ في أثناءِ المُكاتبةِ . . دعا لهُ ؛ مثلُ أن يقولَ عندَ ذكرِ السُّلطانِ : خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ، وعندَ ذكرِ الأميرِ الكبيرِ : عزَّ نصرُهُ ، أو : أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصارَهُ ، وعندَ ذكرِ الحاكمِ : أيَّدَ اللهُ تعالىٰ أحكامَهُ ، وما أشبهَ ذٰلكَ ممَّا يجري هٰذا المَجرىٰ .

---

(١) انظر « العقد الفريد » (٤/١٨٤) .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٥) .

(٣) انظر « العقد الفريد » (٤/١٨٤) .

الأمرُ الثاني : أن يَتخطَّى التصريحَ إلى التلويحِ والإشارةِ إذا ألجأَتْهُ الحالُ إلى المكاتبةِ بما لا يجوزُ كشفُهُ وإظهارُهُ علىٰ [صراحتِهِ] ممَّا في ذكرِهِ علىٰ نصِّهِ هتكُ سترٍ ، أو في حكايتِهِ إطراحُ مهابةِ السلطانِ ، وإسماعُهُ ما يلزمُ منهُ إخلالُ الأدبِ في حقِّهِ ، كما لو أطلقَ عدوُّهُ لسانَهُ فيهِ بلفظٍ قبيحٍ يَسوءُهُ سماعُهُ ، قالَ في « موادِّ البيانِ »(١) : فيَحتاجُ المنشئُ إلى استعمالِ التوريةِ في هٰذهِ المواضعِ ، والتلطفِ في العبارةِ عن هٰذهِ المعاني ، وإبرازِها في صورةٍ تقتضي توفيةَ حقِّ السُّلطانِ في التوقيرِ والإجلالِ والإعظامِ والتنزيهِ عنِ المخاطبةِ بما لا يجوزُ إمرارُهُ علىٰ سمعِهِ ، وإيصالِ المعنىٰ إليهِ مِنْ غيرِ خيانةٍ في طيِّ ما لا غنىٰ بهِ عن علمِهِ ، قالَ : وهٰذا ممَّا لا يَستقِلُّ بهِ إلَّا المُبرِّزُ في الصِّناعةِ ، المُتصرِّفُ في تأليفِ الكلامِ .

وهاكَ مثالاً يرشدُكَ إلىٰ معرفةِ ما ينبغي أن تكتبَ بهِ إذا مرَّ بكَ شيءٌ مِنْ هٰذا البابِ ؛ فالقليلُ عندَ مَنْ يَستعمِلُ فكرَهُ يهدي إلى الكثيرِ : اتَّفقَ أن أخَّرَ أميرُ المؤمنينَ المأمونُ عنِ الجندِ إطلاقَ مُرتَّباتِهِم مدَّةً طويلةً ، حتىٰ دعاهُم ذٰلكَ إلى الشكوىٰ والتزيُّدِ في الكلامِ ، والقدحِ في السياسةِ ، كما يقتضيهِ وصولُ الإنسانِ إلىٰ سوءِ المعيشةِ ، معَ تكليفِهِ شاقَّ العملِ ، فكتبَ أحدُ رؤساءِ كُتَّابِهِ عمرُو بنُ مسعدةَ يُعرِّفُهُ الحالَ ، ويَستعطِفُهُ على العسكرِ بصرفِ مُرتَّبَاتِهِ ، وهٰذهِ صورةُ الكتابِ : (بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، كتابي إلىٰ أميرِ المؤمنينَ ومَنْ قِبَلي مِنْ أجنادِهِ وقُوَّادِهِ في الطَّاعةِ والانقيادِ علىٰ أحسنِ ما يكونُ عليهِ طاعةُ جندٍ تَأخَّرَتْ أرزاقُهُم ، واختلَّتْ أحوالُهُم)(٢) .

فإنَّهُ لم يذكرْ في هٰذا الكتابِ انحرافَ رأيِ المأمونِ عن جادَّةِ الصَّوابِ في

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٥) .

(٢) انظر « العقد الفريد » (٢/٢٧٢) .

قِلَّةِ الاهتمامِ بالنظرِ في أمرِ العسكرِ الذي هوَ أَوَّلُ مُهِمٍّ مِنْ مُهِمَّاتِ الملكِ ، ولم يذكرْ ما صدرَ عنِ العسكرِ مِنْ سوءِ المَقالِ ، وتواترِ الشَّكوىٰ ، وتزيُّدِ الكلامِ ، وتصريحِهِم بأنَّ هٰذهِ الحالَ ربَّما اضطَرَّتْ إلى العصيانِ والخروجِ عن ربقةِ الخدمةِ الجنديةِ ؛ للتردُّدِ في الآفاقِ طلباً للمَعاشِ بغيرِ تلكَ الجهةِ ، وإنَّما لَمَّحَ بذٰلكَ تلميحاً ، وذَكَّرَهُ الأشياءَ بذكرِ أضدادِها ، فالطَّاعةُ تُذكِّرُ المعصيةَ ، وسَلِمَ الكاتبُ مِنَ الجهتَينِ ، فلم يكنْ للأميرِ أن ينتقدَ عليهِ شيئاً ، ولا للعسكرِ أن يقولوا : إنَّكَ بَلَّغْتَ حالَنا التي اضطرَّتْنا إليها مضايقةُ المعيشةِ في كلماتٍ قليلةٍ وَفَتْ بالمقصودِ حقَّ الوفاءِ .

ويُحكىٰ عن أحمدَ بنِ يوسفَ قالَ[1] : دخلتُ على المأمونِ وفي يدِهِ كتابٌ لعمرِو بنِ مسعدةَ وهوَ في صحنِ دارِهِ يَقرؤُهُ المَرَّةَ بعدَ المرَّةِ ، ثمَّ التفتَ إليَّ فقالَ : أَحسَبُكَ مُفكِّراً فيما رأيتَ ، قلتُ : نعم ، وقى اللهُ أميرَ المؤمنينَ المكارهَ ، قالَ : ليسَ بمكروهٍ ، ولٰكنْ قرأتُ كلاماً وافقَ صفةَ البلاغةِ للرشيدِ ؛ سمعتُهُ يقولُ : **البلاغةُ** : التقرُّبُ مِنَ المعنى البعيدِ ، والتباعدُ مِنْ حشوِ الكلامِ ، ودلالةُ القليلِ على الكثيرِ ، فما كنتُ أتوهَّمُ كلاماً يردُ علىٰ هٰذهِ الصفةِ حتىٰ قرأتُ هٰذا الكتابَ ، وسأقضي حَقَّهُ ؛ وكانَ ذٰلكَ سبباً لأن أمرَ بصرفِ مُرتَّبِ ثمانيةِ أشهرٍ .

❋ ❋ ❋

(١) انظر « العقد الفريد » (٢/٢٧٢) .

[معرفةُ طبقاتِ المخاطبينَ ورتبِهِم]

الأصلُ الثامنُ : أن يَعرِفَ مِقدارَ فهمِ كلِّ طبقةٍ مِنَ المُخاطَبينَ في المُكاتباتِ مِنَ اللسانِ ، فيُخاطِبَ كلَّ أحدٍ بما يناسبُهُ مِنَ اللفظِ وما يصلُ إليهِ فهمُهُ مِنَ الخطابِ ، قالَ أبو هلالٍ العسكريُّ في كتابِهِ « الصِّناعتَين »[1] : **أوَّلُ ما ينبغي أن تستعملَ في كتابِكَ** : مُكاتبةُ كلِّ فريقٍ علىٰ مِقدارِ طبقتِهِم في الكلامِ ، وقُوَّتِهِم في المَنطِقِ ، وستعرفُ ذٰلكَ فيما سننقلُهُ مِنْ كتبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إلى العجمِ والعربِ[2] .

قالَ في « موادِّ البيانِ »[3] : يجبُ على الكاتبِ أن ينتقلَ في استعمالِ الألفاظِ علىٰ حَسَبِ ما تقتضيهِ رُتَبُ الخطابِ والمُخاطَبينَ ، وأوجهُ الأحوالِ المتغايرةِ والأوقاتِ المختلفةِ ؛ ليكونَ كلامُهُ مشاكلاً لكلٍّ منها ؛ فإنَّ أحكامَ الكلامِ تَتغيَّرُ بحكمِ الأزمنةِ والأمكنةِ ، ومنازلِ المُخاطَبينَ والمُكاتَبينَ .

ومِنْ هنا ترىٰ أنَّ كُتَّابَ بني أميةَ استعملوا مِنْ ألفاظِ العربيةِ الفحلةَ والمتينةَ الجزلةَ ما لم يَستعمِلْ مثلَهُ كُتَّابُ الدَّولةِ العباسيَّةِ ؛ لأنَّ كُتَّابَ الدولةِ الأمويةِ قصدوا ما شاكلَ زمانَهُمُ الذي استفاضَتْ فيهِ علومُ العربِ ولغاتُها ، حتىٰ عُدَّتْ في جملةِ الفضائلِ التي يُثابَرُ على اقتنائِها ، والأمكنةَ التي نزلَها ملوكُهُم مِنْ بلادِ العربِ ، والرجالَ الذينَ كانَتِ الكتبُ تَصدُرُ إليهِم ، وأهلَ الفصاحةِ واللَّسَنِ والخطابةِ والشعرِ .

أمَّا زمانُ بني العباسِ . . فإنَّ الهممَ تَقاصرَتْ عمَّا كانَتْ مُقبِلةً علىٰ تطلُّبِهِ

(١) الصناعتين (ص ١٦٠) ، وانظر « صبح الأعشىٰ » (٢٩٦/٦) .

(٢) انظر (٣٠١/٤) .

(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٢٩٧/٦ ـ ٢٩٩) .

فيما تَصرَّمَ مِنَ العلومِ المُقدَّمِ ذكرُها ، وشُغِلَتْ بغيرِها ؛ كعلومِ الدِّينِ ، ونزلَ ملوكُهُم ديارَ العراقِ وما يجاورُها مِنْ بلادِ فارسَ ، وليسَ استفاضةُ لغةِ العربِ فيها باستفاضتِها في أرضِ الحجازِ والشامِ ، ومِنَ المعلومِ أنَّ القومَ الذينَ كانوا يكاتبونَ عنهُم لا يجارونَ تلكَ الطَّبقةَ في الفصاحةِ والمعرفةِ بدلالةِ الكلامِ ، فانتقلَ كُتَّابُها عنِ اللفظِ المتينِ الجزلِ إلى اللفظِ الرقيقِ السهلِ ، وكذٰلكَ انتقلَ مُتأخِّرو الكُتَّابِ عن ألفاظِ المُتقدِّمينَ إلىٰ ما هوَ أعذبُ منها وأخفُّ ؛ للمعنى المُتقدِّمِ ذكرُهُ .

قالَ : وحينَئذٍ ينبغي للكاتبِ أن يراعيَ هٰذهِ الأحوالَ ، ويُوقِعَ المشاكلةَ بينَ ما يكتبُهُ وبينَها ، فإذا احتاجَ إلىٰ إصدارِ كتابٍ إلىٰ ناحيةٍ مِنَ النواحي . . فلينظرْ في أحوالِ قاطنيها ؛ فإن كانوا مِنَ الأدباءِ البلغاءِ العارفينَ بنظمِ الكلامِ وتأليفِهِ . . فليودعْ كتابَهُ الألفاظَ الجزلةَ التي إذا حُلِّيَتْ بها المعاني زادَتْها فخامةً في القلوبِ ، وجلالةً في الصُّدورِ ، وإن كانوا ممَّنْ لا يُفرِّقُ بينَ خاصِّ الكلامِ وعامِّهِ . . فليُضمِّنْ كتابَهُ الألفاظَ التي يتساوىٰ سامعوها في إدراكِ معانيها ؛ فإنَّهُ متىٰ عدلَ عن ذٰلكَ . . ضاعَ كلامُهُ ، ولم يصلْ معنىٰ ما كتبَ فيهِ إلىٰ مَنْ كاتبَهُ ؛ لأنَّ الكلامَ البليغَ إنَّما هوَ موضوعٌ بإزاءِ أفهامِ البلغاءِ والفصحاءِ ، فأمَّا العوامُّ والحشوةُ . . فإنَّما يصلُ إلىٰ أفهامِهِمُ الكلامُ العاطلُ مِنْ حليِ النظمِ ، العاري مِنْ كسوةِ التأليفِ ، فيجبُ على الكاتبِ أن يَستعمِلَ في مخاطبةِ مَنْ هٰذهِ صورتُهُ أدنىٰ رتبِ البلاغةِ وأقربِها مِنْ أفهامِ العامَّةِ والأممِ الأعجميةِ إذا كتبَ .

ثمَّ قالَ : إنَّ الكتبَ السُّلطانيةَ منها كتبُ الفتوحاتِ والسلاماتِ ونحوِها ، وهيَ مُحتمِلةٌ للألفاظِ الفصيحةِ الجَزْلةِ ، والإطالةِ القاضيةِ بإشباعِ المعنىٰ ، ووصولِهِ إلىٰ أفهامِ كافَّةِ سامعيهِ مِنَ الخاصِّ والعامِّ ، ومنها كتبُ الخراجِ

وجبايتِهِ ، وأمورِ المعاملاتِ والحسابِ ، وهيَ لا تَحتمِلُ اللفظَ الفصيحَ ، ولا الكلامَ الوجيزَ ؛ لأنَّها مبنيةٌ علىٰ تمثيلِ ما يعملُ بهِ ، وإفهامِ مَنْ لا يصلُ المعنىٰ إلىٰ فهمِهِ إلَّا بالبيانِ الشافي في العبارةِ ، ومنها مخاطبةُ السُّلطانِ عن نفسِهِ ، فيجبُ فيها مخاطبتُهُ علىٰ قَدْرِ مكانِهِ في الخدمةِ ، فيَستعمِلُ مِنَ الألفاظِ المُتوسِّطةَ ، ولا يجوزُ أن يَستعمِلَ فيها الفصيحةَ التي لا تُحتمَلُ مِنْ تابعٍ في حقِّ متبوعٍ ؛ لِمَا فيهِ مِنْ تعاطي التفاصحِ علىٰ سلطانِهِ ، وهوَ غيرُ جائزٍ في أدبِ الملوكِ ، وكذٰلكَ لا يجوزُ فيهِ تعاطي الألفاظِ المُبتذلةِ الدائرةِ بينَ السُّوقةِ ؛ لِمَا في ذٰلكَ مِنَ الوضعِ مِنَ السُّلطانِ بمقابلتِهِ إيَّاهُ بما لا يشبهُ رتبتَهُ .

وأمَّا الكتبُ الإخوانياتُ النافذةُ في التهاني والتعازي . . فإنَّها تَحتمِلُ الألفاظَ الغريبةَ القويَّةَ الأخذِ بمجامعِ القلوبِ ، الواقعةَ أحسنَ المواقعِ مِنَ النفوسِ ؛ لأنَّها مبنيةٌ علىٰ تحسينِ اللفظِ ، وتزيينِ النظمِ ، وإظهارُ البلاغةِ فيها مُستحسَنٌ ، واقعٌ موقعَهُ .

قلتُ (١) : والذي تُراعى الفصاحةُ والبلاغةُ فيهِ مِنَ المُكاتباتِ عنِ الأبوابِ السُّلطانيةِ في زمانِنا . . مُكاتباتُ ملوكِ المغربِ ؛ كصاحبِ تُونُسَ ، وصاحبِ تِلِمْسَانَ ، وصاحبِ فاسٍ ، وصاحبِ غرناطةَ مِنَ الأندلسِ ، وكذٰلكَ القاناتُ العظامُ مِنْ ملوكِ المشرقِ ، ومَنْ يجري هٰذا المَجرىٰ ممَّنْ تَشتمِلُ بلادُهُ على العلماءِ بالبلاغةِ وصناعةِ الكتابةِ ، ويظهرُ ذٰلكَ بالاستخبارِ عن بلادِهِم ، وبالاطِّلاعِ علىٰ كتبِهِمُ الصَّادرةِ عن ملوكِهِم إلى الأبوابِ السُّلطانيةِ ، بخلافِ مَنْ لا عنايةَ لهُ بذاكَ ؛ كحُكَّامِ أصاغرِ البلدانِ ، وأصحابِ اللغاتِ العجميةِ

---

(١) القائل هو العلامة القلقشندي في « صبح الأعشىٰ » (٦/٢٩٩) .

مِنَ الرُّومِ والفرنجِ والسُّودانِ ومَنْ في معناهُم ؛ فإنَّهُ يجبُ خطابُهُم بالألفاظِ الواضحةِ ، إلَّا أن يكونَ في بعضِ بلادِهِم مَنْ يَتعاطى البلاغةَ مِنَ الكُتَّابِ ؛ ووردَتْ كتبُهُم علىٰ نهجِها ؛ فإنَّهُ ينبغي مكاتبتُهُم علىٰ سننِ البلغاءِ .

تنبيهٌ (١)

[في أنَّ المرادَ بالفصيحِ عندَ الخاصةِ]

لم يُرِدِ الشيخُ في هٰذا الكلامِ السالفِ باللفظِ الفصيحِ وغيرِهِ ما يَدُلُّكَ عليهِ حدُّ الفصاحةِ المُصدَّرُ بهِ فنُّ المعاني ؛ فإنَّ الفصيحَ لا يجوزُ العدولُ عنهُ في خطابِ مَنْ كانَ ، وإنَّما يريدُ بالفصيحِ : ما لا يدورُ إلَّا بينَ خاصَّةِ الناسِ وأهلِ المعرفةِ منهُم ؛ مثلاً : مِنْ أسماءِ (الأسدِ) : الغضنفرُ ، والضِّرغامُ ، والرأبالُ ، وحيدرةُ ، وأسامةُ ، وهيَ لا يَستعمِلُها إلَّا خاصَّةُ الناسِ ، والعامَّةُ إنَّما يَستعمِلونَ مِنْ أسمائِهِ لفظَ (السَّبُع) ، فهوَ يريدُ ذٰلكَ بالفصيحِ وغيرِ الفصيحِ .

❋ ❋ ❋

(١) التنبيهُ من المؤلف ضمن نقله لكلام العلامة القلقشندي .

[مراعاةُ رتبةِ المكتوبِ عنهُ وإليهِ في الخطابِ]

الأصلُ التاسعُ : أن يراعيَ رتبةَ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ إليهِ في الخطابِ ، فيُعبِّرَ عن كلِّ واحدٍ منهُما بما يليقُ بهِ ، [ويُخاطبَ] المكتوبَ إليهِ بما يَليقُ بمقامِهِ .

فأمَّا المكتوبُ عنهُ . . فيختلفُ الحالُ فيهِ باختلافِ منصبِهِ ورتبتِهِ ، فيُعبِّرُ في الكتبِ الصَّادرةِ عن أبوابِ الخلافةِ بأميرِ المؤمنينَ ؛ مثلُ أن يُقالَ : فجرىٰ أمرُ أميرِ المؤمنينَ في كذا علىٰ كذا وكذا ، وأوعزَ أميرُ المؤمنينَ إلىٰ فلانٍ بكذا ، واقتضىٰ رأيُ أميرِ المؤمنينَ كذا ، وخرجَ أمرُ أميرِ المؤمنينَ بكذا ، ونفذَ أمرُ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ فلانٍ بكذا ، وما شاكلَ ذٰلكَ ، وربَّما عَبَّرَ عنهُ بالسُّلطانِ ؛ مثلُ أن يُقالَ في حقِّ المخالفينَ : وحاربوا عساكرَ السُّلطانِ ، أو وضعوا خراجَ السُّلطانِ ، وما أشبهَ ذٰلكَ .

وقالَ ابن شيثٍ (١) : ويُخاطِبُ بالمواقفِ المُقدَّسةِ الشريفةِ ، والعَتَباتِ العاليةِ ، ومَقرِّ الرحمةِ ، ومَحَلِّ الشرفِ ، وذكرَ المقرُّ الشهابيُّ بنُ فضلِ اللهِ في التعريفِ نحوَهُ فقالَ : ويُخاطِبُ بالدِّيوانِ العزيزِ ، والمَقامِ الأشرفِ ، والجانبِ الأعلىٰ أوِ الشريفِ ، وبأميرِ المؤمنينَ مُجرَّدةً عن سيدِنا ومولانا ، ومَرَّةً غيرَ مُجرَّدةٍ معَ مراعاةِ المناسبةِ والتسديدِ والمقاربةِ .

قالَ : وسببُ الخطابِ بالدِّيوانِ العزيزِ الخُضْعانُ عن مخاطبةِ الخليفةِ نفسِهِ ، وتنزيلُ الخطابِ منزلةَ مَنْ يُخاطِبُ نفسَ الدِّيوانِ ، والمعنيُّ بهِ ديوانُ الإنشاءِ ؛ إذِ الكتبُ وأنواعُ المُخاطَباتِ إليهِ واردةٌ ، وعنهُ صادرةٌ .

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٠) .

وإن كانَ المكتوبُ عنهُ مَلِكاً . . فقد جرتِ العادةُ أنْ يُعبَّرَ عنهُ بنونِ الجمعِ للتعظيمِ ، فيُقالَ : فعلْنا كذا ، وأمرْنا بكذا ، واقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ كذا ، وبرزَتْ مراسيمُنا بكذا ، ومرسومُنا إلىٰ فلانٍ أن يَتقدَّمَ بكذا ، أو يَتقدَّمَ أمرُهُ بكذا ، وما أشبهَ ذٰلكَ ؛ وذٰلكَ أنَّ ملوكَ الغربِ كانوا يَجْرُونَ علىٰ ذٰلكَ في مُخاطباتِهِم ، فجرتِ الملوكُ علىٰ سَنَنِهِم في ذٰلكَ ، وفي معنى الملوكِ في ذٰلكَ سائرُ الرؤساءِ ؛ مِنَ الأمراءِ والوزراءِ والعلماءِ والكُتَّابِ ونحوِهِم ؛ مِنْ ذوي الأقدارِ العليَّةِ ، والأخطارِ الجليلةِ ، والمراتبِ السنيَّة ، في الدِّينِ والدنيا ، ممَّنْ يَصلُحُ أن يكونَ آمراً وناهياً إذا كتبوا إلىٰ أتباعِهِم ومأمورِيهم ؛ إذ كانَتْ هٰذهِ النونُ ممَّا يُختَصُّ بذوي التعظيمِ دونَ غيرِهِم ، وشاهدُ ذٰلكَ مِنَ القرآنِ العظيمِ : قولُهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴾[1] ، فدَعَاهُ دعاءَ المُفرَدِ ؛ لعدمِ المشاركةِ لهُ في ذٰلكَ الاسمِ ، وسألَهُ سؤالَ الجمعِ ؛ لمكانِ العظمةِ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ الواردةِ موردَ الاختصاصِ لهُ ، كما في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾[2] ، وقولِهِ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾[3] ، وقولِهِ : ﴿ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾[4] ، وغيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ .

قالَ في « معالمِ الكتابةِ »[5] : وقد أخذَ كُتَّابُ المغربِ هٰذا معَ ولاةِ أمورِهِم في الجمعِ بالميمِ ؛ فخاطبوا الواحدَ مُخاطَبةَ الجمعِ ؛ مثلَ : أنتُم ، وفعلتُم ، وأمرتُم ، وما أشبهَ ذٰلكَ .

---

(١) سورة المؤمنون : (٩٩) ، وقعت الآية في الأصل وفي « صبح الأعشىٰ » (٣٠١/٦) هٰكذا : (حتىٰ إذا حضر أحدهم الموت . . .) .

(٢) سورة مريم : (٤٠) .

(٣) سورة يسٓ : (١٢) .

(٤) سورة الحجر : (٢٣) .

(٥) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠١/٦) .

قلتُ [1] : والأمرُ في ذٰلكَ عندَهُم مُستمِرٌّ إلى الآنَ .

وإن كانَ المكتوبُ عنهُ مرؤوساً بالنسبةِ إلى المكتوبِ إليهِ ؛ كالتابعِ ومَنْ في معناهُ . . فقالَ في « موادِّ البيانِ » [2] : ينبغي أن يَتحفَّظَ في الكتبِ النافذةِ عنهُ عنِ الإتيانِ بنونِ العظمةِ وغيرِها مِنَ الألفاظِ التي فيها تعظيمُ شأنِ المكتوبِ عنهُ ؛ مثلُ أن يقولَ : أمرتُ بكذا ، أو نهيتُ عن كذا ، وأوعزتُ بكذا ، أو تَقدَّمَ أمري إلىٰ فلانٍ بكذا ، أو أُنهِيَ إليَّ كذا ، أو خرجَ أمري بكذا ، وما في معنىٰ ذٰلكَ ممَّا لا يُخاطِبُ بهِ الأتباعُ رؤساءَهُم ، بل يَعدِلُ عن مثلِ هٰذهِ الألفاظِ إلىٰ ما يُؤدِّي إلىٰ معناها ، ممَّا لا عظمةَ فيهِ ؛ مثلُ أن يقولَ : وجدتُ صوابَ الرأيِ كذا ففعلتُهُ ، ورأيتُ السياسةَ تقتضي كذا فأمضيتُهُ ، وما أشبهَ ذٰلكَ إن كانَ عُرْفُ الكُتَّابِ على الخطابِ بالتاءِ ، وإلَّا . . قالَ : وجدَ المملوكُ صوابَ الرأيِ كذا ، ورأى السياسةَ تقتضي كذا فأمضاهُ ، وما يجري هٰذا المَجرىٰ .

وأمَّا المكتوبُ إليهِ . . فقالَ أبو هلالٍ العسكريُّ في كتابِ « الصِّناعتَينِ » [3] : ينبغي أن يَعرِفَ قدرَ المكتوبِ إليهِ مِنَ الرُّؤساءِ والنظراءِ والعلماءِ والوكلاءِ ؛ ليُفرِّقَ بينَ مَنْ يُكتَبُ إليهِ : (أنا أفعلُ كذا) ، ومَنْ يُكتَبُ إليهِ : (نحنُ نفعلُ كذا) ، فـ (أنا) مِنْ كلامِ الأشباهِ والإخوانِ ، و(نحنُ) مِنْ كلامِ الملوكِ ، ويُفرِّقَ بينَ مَنْ يُكتَبُ إليهِ : (فإن رأيتَ) وبينَ مَنْ يُكتَبُ إليهِ : (فرأيَكَ) .

قالَ في « موادِّ البيانِ » [4] : وذٰلكَ أنَّ قولَهُم : (فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا) لفظُ النظراءِ والمساوينَ ، بخلافِ : (فرأيَكَ) فإنَّهُ لا يكتبُهُ إلىٰ جليلٍ مُعظَّمٍ ؛

(١) القائل هو العلامة القلقشندي في « صبح الأعشىٰ » (٣٠٢/٦) .
(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٢/٦) .
(٣) الصناعتين (ص ١٦٤ ـ ١٦٥) ، وانظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٢/٦) .
(٤) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٢/٦) .

لتضمُّنِهِ معنى الأمرِ ، والتقديرُ : فَرَهْ رأيَكَ ، علىٰ أنَّ الأخفشَ قد أنكرَ هـٰذا على الكُتَّابِ ؛ لأنَّ أقلَّ الناسِ يقولُ للسُّلطانِ : انظرْ في أموري ، ولفظُهُ لفظُ الأمرِ ، ومعناهُ السؤالُ ، وذكرَ مثلَهُ في « صناعةِ الكُتَّابِ » عنِ النحويينَ .

قالَ في « موادِّ البيانِ »(١) : وحُجَّةُ الكُتَّابِ أنَّ المشافهةَ تَحتمِلُ ما لا تَحتمِلُهُ المُكاتبةُ ؛ لأنَّ المُشافهةَ تكونُ بما يَحضُرُ الإنسانَ ولا يَتمكَّنُ مِنْ تقييدِهِ وترتيبِهِ ، بخلافِ المُكاتبةِ ، فلا عذرَ لصاحبِها في الإخلالِ بالأدبِ .

قالَ في « موادِّ البيانِ »(٢) : لا ينبغي أن يكونَ خطابُكَ لجميعِ طبقاتِ الناسِ علىٰ صورةٍ واحدةٍ ؛ وذٰلكَ أنَّ المعانيَ التي يُكتَبُ فيها وإن كانَ كلٌّ جنساً بعينِهِ ؛ كالتهنئةِ ، والتعزيةِ ، والاعتذارِ ، والعتابِ ، والاستظهارِ ، ونحوِ ذٰلكَ . . فإنَّهُ لا يجوزُ أن يخرجَ المعنىٰ لكلِّ مُخاطَبٍ علىٰ صيغةٍ واحدةٍ مِنَ اللفظِ ، بل ينبغي أن يخرجَ في الصِّيغةِ المشاكلةِ للمُخاطَبِ اللَّائقةِ بقدرِهِ ورتبتِهِ ؛ ألا ترىٰ أنَّكَ لو خاطبتَ سلطاناً أو وزيراً بالتعزيةِ عن مصيبةٍ مِنْ مصائبِ الدنيا . . لَمَا جازَ أن تبنيَ الكلامَ علىٰ وعظِهِ وتبصيرِهِ ، وإرشادِهِ وتذكيرِهِ ، وحَضِّهِ على الأخذِ بحظٍّ مِنَ الصَّبرِ ، ومجانبةِ الجزعِ ، وتلقِّي الحادثاتِ بالتسليمِ والرضا ؟! وإنَّما الصَّوابُ أن تبنيَ الخطابَ علىٰ أنَّهُ أعلىٰ شأناً ، وأرفعُ مكاناً ، وأصحُّ جزماً ، وأرجحُ حلماً مِنْ أن يُعزَّىٰ ، بخلافِ المُتأخِّرِ في الرتبةِ ؛ فإنَّهُ إنَّما يُعزَّىٰ تنبيهاً وتذكيراً وتصبيراً ، وتعريفاً للواجبِ في تلقِّي السَّراءِ بالشكرِ ، والضَّرَّاءِ بالصبرِ ، ونحوَ ذٰلكَ .

وكذٰلك إذا كاتبتَ رئيساً في معنى الاستزادةِ والشَّكوىٰ . . لا يجوزُ أن تأتيَ بمعناهُما في ألفاظِهِما الخاصَّةِ ، بل يجبُ أن تعدلَ عنِ الشَّكوىٰ إلىٰ ألفاظِ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٣) .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٤ ـ ٣٠٥) .

الشكرِ ، وعن ألفاظِ الاستزادةِ إلىٰ ألفاظِ الاستعطافِ والسؤالِ في النظرِ ؛ لتكونَ قد رَتَّبتَ كلامَكَ في رتبتِهِ ، وأخرجتَ معناكَ مُخرَجَ مَنْ يستدعي الزيادةَ ، لا مَنْ يشكو التقصيرَ .

وكذٰلكَ لو وقعَ واقعٌ للسلطانِ فنصحتَهُ . . لم يجزْ أن توردَ ذٰلكَ موردَ التنبيهِ علىٰ ما أغفلَهُ ، والإيقاظِ لِمَا أهملَهُ ، والتعريفِ مِنَ الصَّوابِ لِمَا جهلَهُ ؛ لأنَّ ذٰلكَ ممَّا لا تَحتمِلُهُ الرُّؤساءُ مِنَ الأتباعِ ، ولٰكنْ تبني الخطابَ علىٰ أنَّ السلطانَ أعلىٰ وأجلُّ رأياً ، وأصحُّ فكراً ، وأكثرُ إحاطةً بصدورِ الأمورِ وأعجازِها ، وأنَّ آراءَ خدمِهِ جزءٌ مِنْ رأيِهِ ، وأنَّهُم إنَّما يَتفرَّسونَ مخايلَ الإصابةِ بما وقفوا عليهِ مِنْ سلوكِ مذهبِهِ ، والتأدُّبِ بأدبِهِ ، والارتياضِ بسياستِهِ ، والتنقُّلِ في خدمتِهِ ، [وأنَّ] ممَّا يَفرِضونَهُ في حكمِ الإشفاقِ والاهتمامِ ، وما يُسبغُ عليهِم مِنَ الإنعامِ . . المطالعةَ بما يجري في أوهامِهِم ، ويَحدُثُ في أفكارِهِم مِنَ الأمورِ التي يَتخيَّلونَ في العملِ بها مصلحةً للدولةِ ، وعمارةَ المملكةِ ، يَتصفَّحُهُ [بأصالةِ] رأيِهِ التي هيَ أوفرُ وأثبتُ ، فإنِ استصوبَهُ . . أمضاهُ ، وإن رأىٰ خلافَهُ . . ألغاهُ ، وكانَ الأعلىٰ ما يراهُ . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ ممَّا يَجري هٰذا المَجرىٰ .

❋ ❋ ❋

[مراعاةُ مواقعِ الآياتِ والسجعِ في الكتبِ]

الأصلُ العاشرُ : أن يراعيَ مواقعَ آياتِ القرآنِ والسَّجعَ في الكتبِ ، وذكرَ أبياتِ الشعرِ في المكاتباتِ .

أمَّا آياتُ القرآنِ الكريمِ . . فقد ذكرَ ابنُ شيثٍ في « معالمِ الكتابةِ »[(١)] : أنَّها في صدرِ الكتبِ قد يذكرُها الأدنىٰ للأعلىٰ في معنىٰ ما يَكتُبُ بهِ ؛ مثلُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾[(٢)] ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[(٣)] . . . إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الآياتِ المناسبةِ للوقائعِ ، وإن كانَتْ في أثناءِ الكتبِ . . فقدِ استشهدَ بها جماعةٌ مِنَ الكُتَّابِ في خلالِ كتبِهِم .

❊ ❊ ❊

وأمَّا السَّجعُ . . فقد ذكرَ ابنُ شيثٍ[(٤)] : أنَّهُ لا يُفرَّقُ فيهِ بينَ كتابِ الأعلىٰ للأدنىٰ وبالعكسِ ، وأنَّهُ بما يُكتَبُ عنِ السُّلطانِ أليقُ ، لٰكنْ قد ذكرَ بعضُ المُتأخِّرينَ أنَّ الكتابةَ بالسَّجعِ أنقصُ في حقِّ المكتوبِ إليهِ ؛ وقضيتُهُ : أنَّهُ لا يُكتَبُ بهِ إلَّا مِنْ أعلىٰ لأدنىٰ ، إلَّا أنَّ الذي جرىٰ عليهِ مصطلحُ كُتَّابِ الزمانِ تخصيصُهُ ببعضِ الكتبِ دونَ بعضٍ مِنَ الجانبَينِ .

❊ ❊

وأمَّا الشعرُ . . فيوردُهُ حيثُ يَحسُنُ إيرادُهُ ، ويَمنعُهُ حيثُ يَحسُنُ منعُهُ ،

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٦) .

(٢) سورة يوسف : (٩٦) .

(٣) سورة فاطر : (٣٤) .

(٤) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٧) .

فليسَ كلُّ مكاتبةٍ يَحسُنُ فيها إيرادُ الشعرِ ، بل يَختلِفُ الحالُ في ذٰلكَ بحَسَبِ المكتوبِ عنهُ والمكتوبِ إليهِ .

❊

فأمَّا المُكاتباتُ الصَّادرةُ عنِ الملوكِ والصَّادرةُ إليهِم . . فقد ذكرَ في « موادِّ البيانِ »[١] : أنَّهُ لا يُتمثَّلُ فيها بشيءٍ مِنَ الشعرِ إجلالاً لهُم مِنْ شوبِ العبارةِ عن عزائمِهِم وأوامرِهِم ونواهيهِم والأخبارِ المرفوعةِ إليهِم . . بما يُخالِفُ نمطَها ووضعَها ، ولأنَّ الشعرَ صناعةٌ مغايرةٌ لصناعةِ الترسُّلِ ، وإدخالُ بعضِ صنائعِ الكلامِ في بعضٍ غيرُ مستحسنٍ .

قلتُ[٢] : الذي ذكرَهُ عبدُ الرحيمِ بنُ شيثٍ في كتابِهِ « معالمِ الكتابةِ ومواضعِ الإصابةِ »[٣] : أنَّهُ يُجتَنَبُ الشعرُ في المكاتباتِ الصَّادرةِ عنِ الملوكِ دونَ غيرِهِم ، وهوَ مُعارِضٌ لِمَا ذكرَهُ في « موادِّ البيانِ » ، وكأنَّهُ في « موادِّ البيانِ » يريدُ الكتبَ النافذةَ عنِ الملوكِ إلىٰ مَنْ دونَهُم ، أو مَنْ دونَهُم إليهِم ، أمَّا الملوكُ والخلفاءُ إذا كتبوا إلىٰ مَنْ ضاهاهُم في أُبَّهةِ الملكِ ، وقاربَهُم في عُلُوِّ الرتبةِ . . فإنَّهُ لا يمتنعُ التمثُّلُ بأبياتِ الشعرِ فيها ؛ تطريزاً للنثرِ بالنظمِ ، وجمعاً بينَ جنسَيِ الكلامِ اللَّذَينِ هُما خُلاصةُ مقاصدِهِ .

وما زالَتِ الخلفاءُ والملوكُ السالفةُ يُخلِّلونَ كتبَهُم الصَّادرةَ عنهُم إلىٰ نظرائِهِم في عُلُوِّ الرتبةِ بالأبياتِ الرقيقةِ الألفاظِ ، البديعةِ المعاني ؛ للاستشهادِ على الوقائعِ المكتوبِ بسببِها ، كما كتبَ أميرُ المؤمنينَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ تمالأَ عليهِ القومُ واجتمعوا علىٰ قتلِهِ إلىٰ عليِّ بنِ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٧/٦) .
(٢) هو العلامة القلقشندي في « صبح الأعشىٰ » (٣٠٧/٦) .
(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٧/٦) .

أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ[1] : أمَّا بعدُ : فقد بلغَ السيلُ الزُّبىٰ ، وجاوزَ الحزامُ الطُّبْيَيْنِ ، وطمعَ فيَّ مَنْ تُعجِزُهُ المدافعةُ عن نفسِهِ ، فأقبلْ إليَّ صديقاً كنتَ أو عدوّاً .

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ[2]

وكما كتبَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ إلىٰ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ في جوابِ كتابٍ لهُ حينَ جرىٰ بينَهُما التنازعُ في الخلافةِ ، فقالَ في أثناءِ كتابِهِ[3] : وزعمتَ أنِّي لكلِّ الخلفاءِ حسدتُ ، وعلىٰ كلِّهِم بغيتُ ، فإن يكُ ذٰلكَ كذٰلكَ . . فليسَتِ الجنايةُ عليكَ ، فيكونَ العذرُ إليكَ .

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا[4]

وعلىٰ ذٰلكَ جرىٰ كثيرٌ مِنْ خلفاءِ الدَّولتَينِ الأمويةِ والعباسيةِ ، كما حكى العسكريُّ في « الأوائل »[5] : أنَّ أهلَ حمصَ وثبوا بعاملِها فأخرجوهُ ، ثمَّ وثبوا بعدَهُ بعاملٍ آخَرَ ، فأمرَ المُتوكِّلُ إبراهيمَ بنَ عباسٍ أن يكتبَ إليهِم كتاباً يُحذِّرُهُم فيهِ ويَختصرَ ، فكتبَ : أمَّا بعدُ : فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يرىٰ مِنْ حقِّ اللهِ تعالىٰ عليهِ فيما يُقوِّمُ بهِ مِنْ زيغٍ ويَلُمُّ مِنْ شعثٍ ثلاثاً يُقدِّمُ بعضَهُنَّ أمامَ بعضٍ ؛ فأُولاهُنَّ : ما يستظهرُ بهِ مِنْ عظةٍ وحُجَّةٍ ، ثمَّ ما يشفعُ بهِ مِنْ تحذيرٍ وتنبيهٍ ، ثمَّ التي لا يقعُ حسمُ الداءِ بغيرِها .

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٨) .

(٢) من الطويل .

(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٨) .

(٤) من الطويل ، وعزاه في « التذكرة الحمدونية » (٦/١٨٦) لأبي ذؤيب الهذلي ضمن أبيات ، والبيت بتمامه :

وَعَيَّرَهَا ٱلْوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

(٥) الأوائل (١/٣٩٠) .

أَنَاةٌ فَإِنْ لَمْ تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَهَا ... وَعِيداً فَإِنْ لَمْ يُجْدِ أَجْدَتْ عَزَائِمُهْ[1]

ومِمَّنْ كانَ كثيرَ التمثُّلِ بالشعرِ في المُكاتباتِ مِنْ خلفاءِ بني العباسِ ويَصدُرُ إليهِ المُكاتباتُ كذٰلكَ . . الناصرُ لدينِ اللهِ .

يُحكىٰ : أنَّ الملكَ الأفضلَ عليَّ ابنَ السُّلطانِ صلاحِ الدينِ يوسفَ صاحبِ دمشقَ حينَ تَعصَّبَ عليهِ أخوهُ الملكُ العزيزُ عثمانُ وعمُّهُ الملكُ العادلُ أبو بكرٍ . . كتبَ إلى الناصرِ لدينِ اللهِ يستجيشُهُ عليهِما كتاباً ، يشيرُ فيهِ إلىٰ ما يَعتقِدُهُ الشِّيعةُ في أنَّ الحقَّ في الخلافةِ كانَ لعليٍّ ، وأنَّ أبا بكرٍ وعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُما تَقدَّما عليهِ ؛ إذ كانَ الناصرُ يميلُ إلى التشيُّعِ وكتبَ فيهِ[2] : [من البسيط]

مَوْلَايَ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ ... عُثْمَانَ قَدْ غَصَبَا بِٱلسَّيْفِ حَقَّ عَلِيِّ

فَٱنْظُرْ إِلَىٰ حَظِّ هَٰذَا ٱلْاسْمِ كَيْفَ لَقِي ... مِنَ ٱلْأَوَاخِرِ مَا لَاقَىٰ مِنَ ٱلْأُوَلِ

فكتبَ إليهِ الناصرُ الجوابَ عن ذٰلكَ وكتبَ فيهِ : [من الكامل]

وَافَىٰ كِتَابُكَ يَا بْنَ يُوسُفَ نَاطِقاً ... بِٱلْحَقِّ يُخْبِرُ أَنَّ أَصْلَكَ طَاهِرُ

غَصَبُوا عَلِيّاً حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ ... بَعْدَ ٱلنَّبِيِّ لَهُ بِيَثْرِبَ نَاصِرُ

فَٱصْبِرْ فَإِنَّ عَلَى ٱلْإِلَٰهِ حِسَابَهُمْ ... وَٱبْشِرْ فَنَاصِرُكَ ٱلْإِمَامُ ٱلنَّاصِرُ

وعلىٰ ذٰلكَ جرى الملوكُ القائمونَ علىٰ خلفاءِ بني العباسِ في مُكاتباتِهِم أيضاً .

كما كتبَ أبو إسحاقَ الصَّابئُ عن مُعِزِّ الدَّولةِ ابنِ بويهَ إلىٰ عُدَّةِ الدَّولةِ أبي تغلبَ كتاباً يذكرُ لهُ فيهِ خلافَ قريبَينِ لهُ لم يمكنْهُ مساعدةُ أحدِهِما على

---

(١) من الطويل .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٠٩) .

الآخَرِ ، واستشهدَ فيهِ بقولِ المُتلمِّسِ[1] : [من الطويل]

وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِثْلَ قَاطِعِ كَفِّهِ ... بِكَفٍّ لَهُ أُخْرَىٰ فَأَصْبَحَ أَجْذَمَا

فَلَمَّا ٱسْتَقَادَ ٱلْكَفَّ بِٱلْكَفِّ لَمْ يَجِدْ ... لَهُ دَرَكاً فِي أَنْ يَبِينَا فَأَحْجَمَا

وعلىٰ هٰذا النهجِ جرى الحالُ في الدَّولةِ الأيوبيَّةِ بالدِّيارِ المصريَّةِ ، كما كتبَ القاضي الفاضلُ عنِ السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ يوسفَ بنِ أيوبَ إلىٰ ديوانِ الخلافةِ ببغدادَ ، عندَ قتلِ ابنِ رئيسِ الرُّؤساءِ وزيرِ الخليفةِ كتاباً ليسليَ الخليفةَ عنهُ ، وكانَ ممَّنْ أساءَ السيرةَ وأكثرَ القتلَ ، مُتمثِّلاً بالبيتَينِ المَقولَينِ في أبي حفصٍ الخلالِ وزيرِ أبي العبَّاسِ السفَّاحِ ، وكانَ يُعرَفُ بوزيرِ آلِ محمدٍ[2] : [من الكامل]

إِنَّ ٱلْمَكَارِهَ قَدْ تُسَرُّ وَرُبَّمَا ... كَانَ ٱلسُّرُورُ بِمَا كَرِهْتَ جَدِيرَا

إِنَّ ٱلْوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ مُحَمَّدٍ ... أَوْدَىٰ فَمَنْ يَشْنَاكَ كَانَ وَزِيرَا

وكما كتبَ القاضي محيي الدِّينِ بنُ عبدِ الظاهرِ عنِ المنصورِ قلاوونَ إلىٰ صاحبِ اليمنِ في جوابِ تعزيةٍ أرسلَها إليهِ في ولدِهِ الملكِ الصالحِ ، معَ تعريضِهِ في أمرٍ لهُ بأنَّ الحروبَ ما تشغلُ عنها المصائبُ في الأولادِ ، مستشهداً فيهِ بقولِهِ[3] : [من الوافر]

إِذَا ٱعْتَادَ ٱلْفَتَىٰ خَوْضَ ٱلْمَنَايَا ... فَأَهْوَنُ مَا تَمُرُّ بِهِ ٱلْوُحُولُ

وكما كتبَ صاحبُنا الشيخُ علاءُ الدِّينِ البيريُّ رحمَهُ اللهُ عنِ الظاهرِ برقوقَ صاحبِ الديارِ المصريَّةِ جواباً لصاحبِ تُونُسَ مِنْ بلادِ المغربِ ، واستشهدَ فيهِ لبلاغةِ الكتابِ الواردِ عنهُ بقولِهِ[4] : [من الخفيف]

وَكَلَامٍ كَدَمْعِ صَبٍّ غَرِيبٍ ... رَقَّ حَتَّى ٱلْهَوَاءُ يَكْثُفُ عِنْدَهْ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣٠٩/٦) .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١٠/٦) .

(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١٠/٦) .

(٤) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١٠/٦) .

رَاقَ لَفْظاً وَرَقَّ مَعْنىً فَأَضْحَىٰ ... كُلُّ سِحْرٍ مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ عَبْدَهْ

وعلىٰ ذٰلكَ جرتْ ملوكُ المغربِ مِنْ بني مرينٍ وغيرُهُم ، كما كتبَ بعضُ كُتَّابِ السُّلطانِ ، أبو الحسنِ المرينيُّ ، عنهُ إلى السُّلطانِ الملكِ الناصرِ محمدِ بنِ قلاوونَ صاحبِ الديارِ المصريةِ ، كتاباً يخبرُهُ في خلالِهِ أنَّ صاحبَ بجايةَ خرجَ عن طاعتِهِ ، فغزاهُ وأوقعَ بهِ وبجيوشِهِ حتىٰ قمعَهُ ، مستشهداً فيهِ بقولِ القائلِ (١) : [من السريع]

إنْ عَادَتِ ٱلْعَقْرَبُ عُدْنَا لَهَا ... وَكَانَتِ ٱلنَّعْلُ لَهَا حَاضِرَهْ

إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المكاتباتِ الملوكيَّةِ التي لا تُحصىٰ كثرةً ، بل ربَّما وقعَ التمثُّلُ بالشعرِ في المكاتباتِ عنِ الخلفاءِ والملوكِ إلىٰ مَنْ دونَهُم وبالعكسِ ، كما حكى العسكريُّ في « الأوائلِ »(٢) : أنَّ رافعاً رفعَ كتاباً إلى الرشيدِ ، وكتبَ في أسفلِهِ : [من الطويل]

إِذَا جِئْتُ عَاراً أَوْ رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ... فَنَفْسِي عَلَىٰ نَفْسِي مِنَ ٱلْكَلْبِ أَهْوَنُ

فكتبَ إليهِ الرشيدُ كتاباً ، وكتبَ في أسفلِهِ : [من الطويل]

وَرَفْعُكَ نَفْساً طَالِباً فَوْقَ قَدْرِهَا ... يَسُوقُ لَكَ ٱلْحَتْفَ ٱلْمُعَجَّلَ وَٱلذُّلَّا

❊

وبالجملةِ : فمذاهبُ الناسِ في التمثُّلِ بالشعرِ في المُكاتباتِ الملوكيَّةِ مختلفةٌ ، ومقاصدُهُم متباينةٌ بحَسَبِ الأغراضِ ، ولذٰلكَ أوردَ الشيخُ جمالُ الدِّينِ بنُ نباتةَ هٰذهِ المسألةَ في جملةِ سؤالاتِهِ التي سألَ عنها كُتَّابَ الإنشاءِ بدمشقَ ، مُخاطِباً بها الشيخَ شهابَ الدِّينِ محمودَ الحلبيِّ ، وهوَ يومَئذٍ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣١٠ ـ ٣١١) .
(٢) الأوائل (١/٣٩١) .

صاحبُ ديوانِ الإنشاءِ بها ، فقالَ[1] : ومَنْ كرهَ الاستشهادَ في مكاتبةِ الملوكِ بالأشعارِ ؟! وكيفَ تركَها علىٰ ما فيها مِنَ الآثارِ ؟!

* * *

أمَّا المُكاتباتُ الإخوانياتُ بالتهاني والتعازي والتزاورِ والتهادي والمداعباتِ وسائرِ أنواعِ الرِّقاعِ في فنونِ المكاتباتِ . . فقد قالَ في « موادِّ البيانِ »[2] : إنَّهُ يجوزُ أن تُودَعَ أبياتُ الشعرِ علىٰ سبيلِ التمثُّلِ وعلىٰ سبيلِ الاختراعِ ؛ مُحتجّاً بأنَّ الصَّدرَ الأوَّلَ كانوا يستعملونَ ذٰلكَ في هٰذهِ المواضعِ ، وهٰذا الذي ذكرَهُ لا خفاءَ فيهِ ، وكتبُ الرسائلِ المدونةُ مِنْ كلامِ المُتقدِّمينَ والمُتأخِّرينَ مِنْ كُتَّابِ المشرقِ والمغربِ شاهدةٌ بذٰلكَ ، ناطقةٌ باستعمالِ الشعرِ في صدورِ المُكاتباتِ وأثنائِها ونهاياتِها ، ما بينَ البيتِ والبيتَينِ فأكثرَ ، حتى القصائدِ الطِّوالِ ، وأكثرُ ما يقعُ مِنْ ذٰلكَ البيتُ المفردُ والبيتانِ فما حولَ ذٰلكَ ، كما استشهدَ القاضي الفاضلُ في بعضِ مكاتباتِهِ في الشوقِ بقولِهِ[3] : [من الطويل]

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمُ مَعِي

وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

وكما كتبَ أيضاً لبعضِ إخوانِهِ في جوابِ كتابٍ : [من الطويل]

وَكَمْ قُلْتُ [حَقّاً] لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ ... وَمَا قُلْتُ إِجْلَالاً لَهُ لَيْتَهُ عِنْدِي

وكما كتبَ في وصفِ كتابٍ وردَ عليهِ مستشهداً بقولِهِ : [من الكامل]

وَحَسِبْتُهُ وَٱلطَّرْفُ مَعْقُودٌ بِهِ ... وَجْهَ ٱلْحَبِيبِ بَدَا لِوَجْهِ مُحِبِّهِ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١١/٦) .
(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١١/٦) .
(٣) انظر « صبح الأعشىٰ » (٣١١/٦ ـ ٣١٢) .

إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المُكاتباتِ التي لا يأخذُها حصرٌ ، ولا تدخلُ تحتَ حدٍّ .

انتهىٰ ما أردتُ نقلَهُ مِنْ كتابِ « صبح الأعشىٰ » في هـٰذا الموضعِ ، وإنَّما أوردتُـهُ بصورتِهِ معَ قابليتِهِ للاختصارِ ؛ لأكونَ قد أحضرتُ ذهنَكَ كلاماً لمُؤلِّفٍ جليلٍ في التعريفِ بصناعةِ الإنشاءِ ، يكونُ لهُ مجالٌ بعدَ فهمِهِ ، واعتبارُ ما يرشدُ إليهِ أن يحاولَ تهذيبَ عبارةٍ تفيدُ معناهُ ، وتُبيِّنُ مَغزاهُ .

ثمَّ إنَّهُ ليسَ الغرضُ مِنْ إيقافِكَ عليهِ أنَّكَ تتَّبعُ كلَّ ما يأمرُكَ بهِ ويُنبِّهُكَ عليهِ دونَ أن تَستعمِلَ ذوقَكَ في الاستحسانِ ، وأنتَ مستندٌ إليهِ مسترشدٌ بهِ ، حتىٰ تخرجَ منهُ إلىٰ ما يناسبُ وقتَكَ ، ويستصوبُهُ أهلُ عصرِكَ الذينَ أحوالُكَ مربوطةٌ بأحوالِهِم ، ومنافعُكَ معقودةٌ برضاهُم ، فلكلِّ مقامٍ مقالٌ ، ولكلِّ زمانٍ رجالٌ .

هـٰذا ؛ وإذا أردتَ استيفاءَ معرفةِ اختلافِ اصطلاحِ الكُتَّابِ في كلِّ عصرٍ مِنَ العصورِ الخاليةِ في فواتحِ الكتبِ وخواتمِها ، وما يَختصُّ بكلِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ المكاتباتِ . . فالموجودُ مِنْ كتابِ « صبحِ الأعشىٰ » بدارِ الكتبِ الكبيرةِ يكفيكَ لهـٰذا الغرضِ .

❋ ❋ ❋

الجهةُ الثالثةُ

[في ذكرِ أمثلةٍ معينةٍ لفهمِ هـٰذهِ الصناعةِ]

في أمثلةٍ تستعينُ بتفهُّمِها وتأمُّلِ سياقاتِها مِنْ فواتحِها إلىٰ خواتمِها علىٰ تربيةِ ذهنِكَ في هـٰذهِ الصِّناعةِ ، واختيارِ ما يرشدُكَ اللهُ لاختيارِهِ ؛ مِنْ مذهبٍ تذهبُهُ في تأليفِ الكلامِ ، وتنويعِهِ علىٰ حَسَبِ طبقاتِ مَنْ تكاتبُهُم ، وكفىٰ هـٰذهِ الصِّناعةَ شرفاً أن كانَ ابتداءُ تمثيلِها بما صدرَ عن حضرةِ المصطفىٰ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، ومنهُ تَعرِفُ حقَّ المعرفةِ كيفَ يختلفُ حالُ الكتابةِ باختلافِ حالِ المكتوبِ إليهِ .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ لقيصرِ الرُّومِ]

فمِنْ كتبِهِ للعجمِ ـ وبعضُها يشبهُ بعضاً ـ كتابُهُ الصَّادرُ لقيصرِ الرُّومِ يدعوهُ إلى الإسلامِ ، وهـٰذهِ صورتُهُ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ ٱلرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ ٱلْإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، أَسْلِمْ يُؤْتِكَ ٱللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ ٱلْأَرِيسِيِّينَ ، وَ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ »(١) .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ لكسرىٰ ملكِ الفرسِ]

ومنها : كتابُهُ الصَّادرُ إلىٰ كسرىٰ ملكِ الفرسِ في ذٰلكَ الغرضِ ، وهـٰذهِ

---

(١) سورة آل عمران : (٦٤) ، والحديث أخرجه البخاري (٧ ، ٢٩٤١) ، ومسلم (١٧٧٣) من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما عن سيدنا أبي سفيان رضي الله عنه .

صورتُهُ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَىٰ كِسْرَىٰ عَظِيمِ فَارِسَ ، سَلَامٌ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ وَآمَنَ بِٱللهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ ٱللهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَإِنِّي أَنَا رَسُولُ ٱللهِ إِلَى ٱلنَّاسِ كَافَّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ، وَأَسْلِمْ تَسْلَمْ ؛ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ . . فَإِنَّ [إِثْمَ] ٱلْمَجُوسِ عَلَيْكَ »(١) .

فكانَ الافتتاحُ بـ (مِنْ فلانٍ إلىٰ فلانٍ) سُنَّةً ، سواءٌ كانَتْ الكتابةُ مِنْ رئيسٍ أو مرؤوسٍ ، حتىٰ كتبَ النجاشيُّ ملكُ الحبشةِ : إلىٰ محمدٍ رسولِ اللهِ مِنَ النجاشيِّ ، وكتبَ خالدُ بنُ الوليدِ في بعضِ كتبِهِ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ وكانَ قد بعثَهُ في ناحيةٍ : لمحمدٍ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ مِنْ خالدِ بنِ الوليدِ ، فكانَتْ سُنَّةً ثانيةً التزمَها الناسُ بعدُ في خطابِ المرؤوسِ للرئيسِ ؛ لِمَا تَجدَّدَ مِنَ العظمةِ الملكيةِ والجلالةِ السلطانيةِ .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ لأكيدرَ صاحبِ دومةِ الجندلِ]

ومِنْ كتبِهِ للعربِ : كتابُهُ الصَّادرُ لأُكَيْدِرَ صاحبِ دومةِ الجندلِ ، وهٰذهِ صورتُهُ :

« مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ لِأُكَيْدِرَ ، حِينَ أَجَابَ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ ، وَخَلَعَ ٱلْأَنْدَادَ وَٱلْأَصْنَامَ ، مَعَ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ سَيْفِ ٱللهِ فِي دُومَةِ ٱلْجَنْدَلِ وَأَكْنَافِهَا : إِنَّ لَنَا ٱلضَّاحِيَةَ مِنَ ٱلضَّحْلِ ، وَٱلْبُورَ وَٱلْمَعَامِيَ وَأَغْفَالَ ٱلْأَرْضِ ، وَٱلْحَلْقَةَ وَٱلسِّلَاحَ وَٱلْحَافِرَ وَٱلْحِصْنَ ، وَلَكُمُ ٱلضَّامِنَةُ مِنَ ٱلنَّخْلِ ، وَٱلْمَعِينُ مِنَ ٱلْمَعْمُورِ ، لَا تُعْزَلُ سَارِحَتُكُمْ ، وَلَا تُعَدُّ فَارِدَتُكُمْ ، وَلَا يُحْظَرُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّبَاتُ ، تُقِيمُونَ ٱلصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا ، وَتُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ بِحَقِّهَا ، عَلَيْكُمْ بِذَٰلِكَ عَهْدُ ٱللهِ وَٱلْمِيثَاقُ »(٢) .

---

(١) انظر « شرح المواهب اللدنية » للزرقاني (١٤/٥ ـ ١٥) .

(٢) انظر « الروض الأنف » (٣٩٧/٧ ـ ٣٩٨) .

تفسيرُ ألفاظِهِ وبيانُ مقصودِهِ :

الأندادُ : جمعُ نِدٍّ بكسرِ النونِ ؛ وهوَ ضدُّ الشيءِ الذي يخالفُهُ في أمورِهِ ، وينادُّهُ ؛ أي : يخالفُهُ ، مأخوذٌ مِنْ نَدَّ البعيرُ ؛ إذا شردَ ، والمرادُ : ما كانوا يتخذونَهُ آلهةً مِنْ دونِ اللهِ .

والأصنامُ : جمعُ صَنَمٍ ؛ وهوَ ما اتُّخِذَ إلـٰهاً مِنْ دونِ اللهِ ، وقيلَ : ما كانَ لهُ جسمٌ أو صورةٌ ، فإن لم يكنْ لهُ جسمٌ ولا صورةٌ . . فهوَ وثنٌ .

والأكنافُ بالنونِ : جمعُ كَنَفٍ بالتحريكِ ، وهوَ الجانبُ والناحيةُ .

والضَّاحيةُ بالضَّادِ المعجمةِ والحاءِ المهملةِ : الناحيةُ البارزةُ التي لا حائلَ دونَها ، والمرادُ هنا : أطرافُ الأرضِ .

والضَّحْلُ بفتحِ الضادِ المعجمةِ وسكونِ الحاءِ المهملةِ : القليلُ مِنَ الماءِ ، وقيلَ : الماءُ القريبُ مِنَ المكانِ ، وبالتحريكِ : مكانُ الضحلِ .

والبورُ : الأرضُ التي لم تُزرَعْ ؛ وهوَ بالفتحِ مصدرٌ وصفَ بهِ .

والمعامي : المجهولةُ مِنَ الأرضِ ، التي ليسَ فيها أثرُ عمارةٍ ، واحدُها معمىً .

وأغفالُ الأرضِ بالغينِ المعجمةِ والفاءِ : الأرضُ التي ليسَ فيها أثرٌ يُعرَفُ ؛ كأنَّها مغفولٌ عنها .

والحَلْقةُ بسكونِ اللامِ : السلاحُ عامّاً ، وقيلَ : الدروعُ خاصّاً .

والسِّلاحُ : ما أُعِدَّ للحربِ مِنْ آلةِ الحديدِ ممَّا يُقاتَلُ بهِ ، والسيفُ وحدَهُ يُسمَّىٰ سلاحاً .

والضَّامنةُ مِنَ النخلِ بالضَّادِ المعجمةِ والنونِ : ما كانَ داخلاً في العمارةِ مِنَ النخيلِ وتَضمَّنَتْهُ أمصارُهُم وقُراهم ، وقيلَ : سُمِّيَتْ ضامنةً لأنَّ أربابها

ضمنوا عمارتَها وحفظَها ، فهيَ ذاتُ ضمانٍ ، كعيشةٍ راضيةٍ ؛ بمعنىٰ : ذاتِ رضاً .

والمَعينُ مِنَ المعمورِ : الماءُ الذي ينبعُ مِنَ العينِ في العامرِ مِنَ الأرضِ .

وقولُهُ : (**لا تُعزَلُ سارحتُكُم**) بالزاي المعجمة ؛ أي : لا تُصرَفُ ماشيتُكُم وتُمالُ عنِ الرعيِ ، ولا تُمنَعُ .

وقولُهُ : (**ولا تُعَدُّ فاردتُكُم**) أي : لا تُضَمُّ إلىٰ غيرِها وتُحشَرُ إلى الصَّدقةِ حتىٰ تُعَدَّ معَ غيرِها وتُحسَبَ ، **والفاردةُ** : الزائدةُ على الفريضةِ .

ولا يُحظَرُ عليكُمُ النباتُ بالظاءِ المعجمةِ ؛ أي : لا تُمنعونَ مِنَ الزرعِ والمرعىٰ حيثُ شئتُم .

والحَظْرُ : المنعُ ، ومقصودُهُ : تمييزُ ما يكونُ للسلطانِ فيهِ إطلاقُ التصرُّفِ وليسَ داخلاً في حوزةِ أحدٍ مِنْ غيرِهِ وإعلامُهُم بذٰلكَ .

ومعنىٰ كونِ الحلقةِ والحافرِ والحصنِ للسلطانِ : أنَّهُ متىٰ أمرَ باستعمالِها في الجهادِ . . وجبَ عليهِم الامتثالُ حَسَبَ ما يُؤمَرونَ بهِ وإن كانَتْ لهُم مُلْكاً اختصاصياً ، بخلافِ الأشياءِ المُتقدِّمةِ .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ لوائلِ بن حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معَ تفسيرِ ألفاظِهِ]

ومنها : كتابُهُ الصَّادرُ لوائلِ بنِ حُجْرٍ أحدِ عظماءِ حضرموتَ وأمثالِهِ منهُم ، **وهٰذهِ صورتُهُ** : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَى ٱلْأَقْيَالِ ٱلْعَبَاهِلَةِ وَٱلْأَرْوَاعِ ٱلْمَشَابِيبِ ، [وفيهِ] : وَفِي ٱلتِّيعَةِ شَاةٌ ، لَا مُقَوَّرَةُ ٱلْأَلْيَاطِ ، وَلَا ضِنَاكٌ ، وَأَنْطُوا ٱلثَّبَجَةَ ، وَفِي ٱلسُّيُوبِ ٱلْخُمُسُ ، وَمَنْ زَنَىٰ مِنَ ٱمْبَكْرِ . . فَٱصْقَعُوهُ مِئَةً ، وَٱسْتَوْفِضُوهُ عَاماً ، وَمَنْ زَنَىٰ مِنَ ٱمْثَيِّبِ . . فَضَرِّجُوهُ بِٱلْأَضَامِيمِ ، وَلَا تَوْصِيمَ

فِي ٱلدِّينِ ، وَلَا غُمَّةَ فِي فَرَائِضِ ٱللهِ تَعَالَىٰ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ ، وَوَائِلُ بْنُ حُجْرٍ يَتَرَفَّلُ عَلَى ٱلْأَقْيَالِ »[1] .

تفسيرُ ألفاظِهِ :

الأقيالُ : جمعُ قَيْلٍ بفتحٍ فسكونٍ ؛ الملكُ أو مَنْ ينوبُ عنهُ إذا غابَ ، والمرادُ في الحديثِ : الأوَّلُ .

والعباهلةُ : في « القاموس » : (العباهلةُ : المقرُّونَ علىٰ ملكِهِم ، فلم يُزالوا عنهُ)[2] .

والأرواعُ : جمعُ رائعٍ ، مِنْ راعَ ؛ أي : أفزعَ مَنْ رَآهُ لجمالِهِ أو جلالِهِ .

والمشابيبُ : جمعُ مشبوبٍ ؛ وهوَ الجميلُ الزاهرُ اللونِ ؛ مِنْ شَبَّ النارَ ؛ ألهبَها .

والتِّيعةُ بكسرٍ فسكونٍ : أربعونَ شاةً ، وتُطلَقُ علىٰ أدنىٰ ما تجبُ فيهِ الصَّدقةُ مِنَ الحيوانِ .

والمُقوَّرةُ الألياطِ : المسترخيةُ الجلودِ مِنْ أقورَ .

واللِّيطُ بكسرٍ فسكونٍ ، والضِّناكُ بزنةِ كِتابٍ : الموثقةُ الخلقُ السمينةُ ؛ أي : شاةُ الصَّدقةِ لا تكونُ مِنَ المهازيلِ ولا مِنَ الكرائمِ ، بل تكونُ وسطاً ، وهوَ المرادُ بقولِهِ : وأنطوا الثَّبَجةَ ؛ أي : أعطوا ، بالنونِ مكانَ العينِ ؛ وهيَ لغتُهُم ، والثَّبَجة بفتحتَينِ : الوسطُ ، ومنهُ : ثبجُ البحرِ .

السُّيوبُ : جمعِ سيبٍ ؛ وهوَ العطيةُ ، وأُريدَ بهِ في الحديثِ : الرِّكازُ ؛ وهوَ دفينُ الجاهليةِ .

---

(١) انظر « الشفا » (ص ١١٨ ـ ١١٩) .

(٢) القاموس المحيط (١٨/٤) ، مادة (ع ب هـ ل) .

وفي قولِهِ : (مِنَ ٱمْبكرِ) و(مِنَ ٱمْثيبِ) جرىٰ علىٰ لغتِهِم مِنْ إبدالِ لامِ التعريفِ ميماً .

والصقعُ : الضَّربُ ، والاستيفاضُ : التغريبُ ، والأضاميمُ : الحجارةُ الصغارُ ، والتوصيمُ : الفترةُ والتواني ، وترفَّلَ عليهِم : ترأَّسَ .

وقد رُوِيَ هٰذا الكتابُ بصورةٍ أخرىٰ ؛ وهيَ هٰذهِ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَى ٱلْأَقْيَالِ ٱلْعَبَاهِلَةِ مِنْ أَهْلِ حَضْرَمَوْتَ ؛ بِإِقَامَةِ ٱلصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ ٱلزَّكَاةِ ؛ عَلَى ٱلتِّيعَةِ ٱلشَّاةُ ، وَٱلتِّيمَةُ لِصَاحِبِهَا ، وَفِي ٱلسُّيُوبِ ٱلْخُمُسُ ، لَا خِلَاطَ وَلَا وِرَاطَ ، وَلَا شَنَاقَ وَلَا شِغَارَ ، وَمَنْ أَجْبَىٰ . . فَقَدْ أَرْبَىٰ ، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ »[1] .

التيمةُ : بكسرٍ فسكونٍ ، وبالهمزِ بدلَ الياءِ لغةٌ : ما زادَ على الفريضةِ حتىٰ تبلغَ الفريضةُ الأخرىٰ ، أو هيَ غيرُ السائمةِ .

والخِلاطُ : أن يَخلِطَ الرجلُ مالَهُ بمالِ غيرِهِ لتسقطَ عنهُ الزكاةُ .

والوِراطُ : أن يخفيَهُ في ورطةٍ مِنَ الأرضِ حتىٰ لا يراهُ الساعي .

والشِّناقُ : المشاركةُ في الشَّنَقِ بفتحتَينِ ؛ وهوَ العفوُ بينَ الفريضتَينِ .

والشِّغَارُ : نكاحٌ في الجاهليةِ ؛ وهوَ أن يُزوِّجَ الرجلُ ابنتَهُ أو أختَهُ مِنْ رجلٍ ويَتزوَّجَ ابنةَ ذٰلكَ الرجلِ أو أختَهُ ، علىٰ أن يكونَ بُضْعُ كلٍّ منهُما صَداقَ الأخرىٰ .

وقولُهُ : (ومَنْ أجبىٰ . . فقد أربىٰ) قيلَ في تفسيرِهِ : إنَّ الإجباءَ هوَ بيعُ الزرعِ قبلَ بدوِّ صلاحِهِ ، أو أن يبيعَ الرجلُ سلعةً بثمنٍ معلومٍ إلىٰ أجلٍ معلومٍ ثمَّ يشتريَها بأقلَّ مِنْ ذٰلكَ الثمنِ ، وأربىٰ : وقعَ في الربا .

---

(١) انظر « أسد الغابة » (٣/٥٠) .

ومِنْ هٰذهِ الكتبِ تَقِفُ علىٰ أصلٍ ؛ وهوَ أنَّ مَنْ يَستحِقُّ المدحَ . . يُمدَحُ بإيرادِ صفاتِهِ الكماليةِ في صدرِ الكتابِ إليهِ ، كما جرىٰ عليهِ العملُ بعدُ .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ لخالدِ بنِ الوليدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ومِنْ كتبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لأهلِ الإسلامِ : كتابُهُ الصَّادرُ لخالدِ بنِ الوليدِ جواباً عن كتابِهِ لهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بإسلامِ بني الحارثِ ، وقد أُرسِلَ إليهِم ، وهٰذهِ صورتُهُ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَىٰ خَالِدِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ ٱللهَ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ كِتَابَكَ جَاءَنِي مَعَ رَسُولِكَ يُخْبِرُنِي أَنَّ بَنِي ٱلْحَارِثِ قَدْ أَسْلَمُوا قَبْلَ أَنْ تُقَاتِلَهُمْ ، وَأَجَابُوا إِلَىٰ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْإِسْلَامِ ، وَشَهِدُوا أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنْ قَدْ هَدَاهُمُ ٱللهُ بِهُدَاهُ ، فَبَشِّرْهُمْ وَأَنْذِرْهُمْ ، وَأَقْبِلْ وَلْيُقْبِلْ مَعَكَ وَفْدُهُمْ ، وَٱلسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ ٱللهِ وَبَرَكَاتُهُ »(١) .

[كتابُ رسولِ اللهِ ﷺ للمنذرِ بنِ ساوىٰ]

وكتابُهُ الصَّادرُ إلى المنذرِ بنِ ساوىٰ ، وكانَ عاملاً للفُرْسِ على البحرَينِ ، وهٰذهِ صورتُهُ : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ ٱللهِ إِلَى ٱلْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَىٰ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ ٱللهَ ٱلَّذِي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي أُذَكِّرُكَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ . . فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ . . فَقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ نَصَحَهُمْ . . فَقَدْ نَصَحَ لِي ، وَإِنَّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيْراً ، وَإِنِّي قَدْ شَفَّعْتُكَ فِي

---

(١) انظر « السيرة النبوية » لابن هشام (٢/٥٩٣) .

قَوْمِكَ ، فَٱتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ ٱلذُّنُوبِ ، فَٱقْبَلْ لَهُمْ ، وَإِنَّكَ مَهْمَا تُصْلِحْ . . لَنْ نَعْزِلَكَ ، وَمَنْ أَقَامَ عَلَىٰ مَجُوسِيَّتِهِ . . فَعَلَيْهِ ٱلْجِزْيَةُ »(١) .

وقولُهُ : (أحمدُ إليكَ) علىٰ تقديرِ مُتوجِّهاً إليكَ .

وعلىٰ صُوَرِ كتبِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ جرىٰ عملُ الخلفاءِ الراشدينَ ، ولم يكنْ يُذكَرُ في صدورِ الكتبِ بعدَ الحمدِ الصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، حتىٰ زادَها الرشيدُ ، وعُدَّتْ مِنْ مناقبِهِ ، فكانَ يكتبُ : (أحمدُ إليكَ اللهَ ، وأسألُهُ أن يصليَ . . .) .

[كتابُ سيدِنا أبي بكرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأهلِ الرِّدَّةِ]

ومِنْ كُتُبِ الخلفاءِ : كتابُ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ لأهلِ الرِّدَّةِ حينَ وَلِيَ الخلافةَ ، ورجعَ كثيرٌ مِنَ العربِ عنِ الإسلامِ ، وهاذهِ صورتُهُ : (مِنْ أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إلىٰ مَنْ بلغَهُ كتابي هاذا مِنْ عامَّةٍ أو خاصَّةٍ ، أقامَ على الإسلامِ أو رجعَ عنهُ ، سلامٌ علىٰ مَنِ اتبعَ الهدىٰ ، ولم يرجعْ بعدَ الهدىٰ إلى الضَّلالةِ والعمىٰ ، فإنِّي أحمدُ إليكُمُ اللهَ الذي لا إلهَ إلَّا هوَ ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، وأُقِرُّ بما جاءَ بهِ .

أمَّا بعدُ : فإنَّ اللهَ أرسلَ محمداً بالحقِّ مِنْ عندِهِ إلىٰ خلقِهِ بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى اللهِ بإذنِهِ وسراجاً منيراً ؛ لينذرَ مَنْ كانَ حيّاً ، ويحقَّ القولُ على الكافرينَ ، يهدي اللهُ للحقِّ مَنْ أجابَ إليهِ ، وضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ بإذنِهِ مَنْ أدبرَ عنهُ ، حتىٰ صارَ إلى الإسلامِ طوعاً وكرهاً .

---

(١) انظر « شرح المواهب اللدنية » للزرقاني (٥/٣٤ ـ ٣٦) .

ثُمَّ تُوُفِّيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ وقد نَفَّذَ لأمرِ اللهِ ونصحَ لأُمَّتِهِ ، وقضى الذي عليهِ ، وكانَ اللهُ قد بيَّنَ لهُ ذٰلكَ ولأهلِ الإسلامِ في الكتابِ الذي أنزلَهُ ؛ فقالَ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) ، وقالَ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ (٢) ، وقالَ للمؤمنينَ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (٣) ، فمَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ وحدَهُ لا شريكَ لهُ . . فإنَّ اللهَ بالمِرصادِ ، حيٌّ قيومٌ ، لا يموتُ ، ولا تأخذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ ، حافظٌ لأمرِهِ ، مُنتقِمٌ مِنْ عدوِّهِ بحزبِهِ .

وإنِّي أوصيكم بتقوى اللهِ ، وحظِّكُم ونصيبِكُم مِنَ اللهِ ، وما جاءَ بهِ نبيُّكُم ، وأن تهتدوا بهديِهِ ، وأن تعتصموا بدينِ اللهِ ، فإنَّ مَنْ لم يهدِ اللهُ . . ضلَّ ، وكلُّ مَنْ لم يعافِهِ مبتلىً ، وكلُّ مَنْ لم ينصرْهُ مخذولٌ ؛ فمَنْ هداهُ اللهُ . . كانَ مَهديّاً ، ومَنْ أضلَّهُ . . كانَ ضالّاً ، مَنْ يهدي اللهُ . . فهوَ المهتدي ، ومَنْ يضللْ . . فلن تجدَ لهُ وليّاً مرشداً ، ولم يُقبَلْ منهُ في الدنيا عملٌ حتىٰ يُقِرَّ بهِ ، ولم يُقبَلْ لهُ في الآخرةِ صرفٌ ولا عدلٌ .

وقد بلغَني رجوعُ مَنْ رجعَ منكم عن دينِهِ بعدَ أن أقرَّ بالإسلامِ وعملَ بهِ ؛ اغتراراً باللهِ ، وجهالةً بأمرِهِ ، وإجابةً للشيطانِ ، وقالَ اللهُ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٤) ، وقالَ

(١) سورة الزمر : (٣٠) .
(٢) سورة الأنبياء : (٣٤) .
(٣) سورة آل عمران : (١٤٤) .
(٤) سورة الكهف : (٥٠) .

جلَّ ذكرُهُ : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (١) .

وإنِّي نَفَّذتُ إليكُم خالدَ بنَ الوليدِ في جيشٍ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ والتابعينَ بإحسانٍ ، وأمرتُهُ ألَّا يقاتلَ أحداً ولا يقتلَهُ حتىٰ يدعوَهُ إلىٰ داعيةِ اللهِ ؛ فمَنِ استجابَ وأقرَّ وكفَّ وعملَ صالحاً . . قُبِلَ منهُ ، وأعانَهُ عليهِ ، ومَنْ أبىٰ . . أن يقاتلَهُ علىٰ ذٰلكَ ، ولا يبقيَ علىٰ أحدٍ منهُم قَدَرَ عليهِ ، وأن يُحرِقَهُم بالنيرانِ ، ويقتلَهُم كلَّ قِتلةٍ ، ويسبيَ النساءَ والذَّراريَّ ، ولا يقبلَ مِنْ أحدٍ إلَّا الإسلامَ ؛ فمَنْ آمنَ . . فهوَ خيرٌ لهُ ، ومَنْ تركَهُ . . فلن يُعجِزَ اللهَ ، وقد أمرتُ رسولي أن يقرأَ كتابي في كلِّ مجمعٍ لكُم ، والداعيةُ الأذانُ ؛ فإن أذَّنَ المسلمونَ فأذَّنوا . . كفُّوا عنهُم ، وإن لم يُؤَذِّنوا . . سألوهُم ما عليهِم ، فإن أبَوا . . عاجلوهُم ، وإن أقرُّوا . . قُبِلَ منهُم ، وحملَهُم علىٰ ما ينبغي لهُم) (٢) .

ومِنْ هٰذا الكتابِ تَستدِلُّ علىٰ جوازِ تحليةِ الكلامِ ببعضِ ألفاظِ القرآنِ ، وتَعرِفُ الفرقَ بينَ الاقتباسِ والاستشهادِ ، وتنظرُ كيفَ تَستعمِلُ الشِّدَّةَ في موضعِها .

[كتابُ سيدِنا عمرَ بنِ الخطابِ لعمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا]

صورةُ كتابٍ صدرَ مِنْ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ ـ وهوَ أوَّلُ مَنْ وضعَ هٰذا اللقبَ للخليفةِ ، وكانَ قبلُ يكتبُ : مِنْ خليفةِ خليفةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، فاستطالَ ذٰلكَ علىٰ مَنْ يجيءُ بعدَهُ ، فإنَّهُ يلزمُ أن يُكرِّرَ بقدرِ عددِ سلفِهِ ـ إلىٰ عمرِو بنِ العاصِ وهوَ عاملٌ علىٰ

(١) سورة فاطر : (٦) .

(٢) انظر « تاريخ الطبري » (٣/٢٥٠ ـ ٢٥١) .

مصرَ مِنْ طرفِهِ : مِنْ عبدِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ إلىٰ عمرِو بنِ العاصِ ، سلامٌ عليكَ .

أمَّا بعدُ : فقد بلغَني أنَّهُ فشتْ لكَ فاشيةٌ مِنْ خيلٍ وإبلٍ وبقرٍ وعبيدٍ ، وعهدي بكَ قبلَ ذٰلكَ ولا مالَ لكَ ، فاكتبْ إليَّ : مِنْ أينَ أصلُ هٰذا المالِ (١) .

[جوابُ سيدِنا عمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

جوابُ عمرٍو عن هٰذا الكتابِ : لعبدِ اللهِ عمرَ أميرِ المؤمنينَ ، سلامٌ عليكَ ، فإنِّي أحمدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ .

أمَّا بعدُ : فإنَّهُ أتاني كتابُ أميرِ المؤمنينَ يَذكُرُ فيهِ فاشيةَ مالٍ فشا لي ، وإنَّهُ يَعرِفُني قبلَ ذٰلكَ ولا مالَ لي ، وإنِّي أُعلِمُ أميرَ المؤمنينَ أنِّي ببلدٍ السعرُ فيهِ رخيصٌ ، وإنِّي أعالجُ مِنَ الزراعةِ ما يعالجُهُ الناسُ ، وفي رزقِ أميرِ المؤمنينَ سعةٌ ، وواللهِ ؛ لو رأيتُ خيانتَكَ حلالاً . . ما خنتُكَ ، فأقصرْ أيُّها الرجلُ ؛ فإنَّ لنا أحساباً هيَ خيرٌ مِنَ العملِ لكَ إن رجعنا إليها . . عشنا بها ، ولعمري ؛ إنَّ عندَكَ مَنْ لا يَذُمُّ معيشةً ، ولا تُذَمُّ لهُ ، وإن كانَ ذٰلكَ . . لم يفتحْ لكَ قفلاً ، ولم يشركْكَ في عملٍ .

يريدُ عمرَ ، وأنَّهُ مِنْ أهلِ البيوتِ الشريفةِ التي جرتْ عادةُ مَنْ دونَهُم مِنْ طبقاتِ الناسِ ألَّا يستنكفوا مِنْ خدمتِهِم ، فيمكنُ أن يحصلَ لهُ الغنىٰ بذٰلكَ الطريقِ دونَ أن يكونَ حاكماً ، وفي آخرِ الكلامِ استشهدَ بمَنْ حصلَ لهُ الغنىٰ بتلكَ الطريقِ مِنْ أهلِهِ ؛ كعثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ (٢) .

---

(١) انظر « العقد الفريد » (١/٤٦) .

(٢) انظر « العقد الفريد » (١/٤٧) .

[كتابُ سيدِنا عثمانَ لسيدِنا عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا]

صورةُ كتابٍ صدرَ مِنْ أميرِ المؤمنينَ عثمانَ بنِ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ إلىٰ عليٍّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وكانَ خرجَ إلى الينبعِ ، وقد أحاطَ الناسُ بعثمانَ ، وهيَ هـٰذهِ : أمَّا بعدُ : فقد بلغَ السَّيلُ الزُّبىٰ ، وجاوزَ الحزامُ الطُّبْيَينِ ، وطمعَ فيَّ كلُّ مَنْ كانَ يَضعُفُ عن نفسِهِ ، ولم يغلبْكَ مثلُ مغلبٍ ، فأقبلْ إليَّ صديقاً كنتَ أو عدوّاً .

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولاً فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ (١)

الزُّبيةُ بضمٍّ فسكونٍ : حفرةٌ تُعمَلُ في رأسِ جبلٍ علىٰ طريقِ السَّبُعِ ، وتُغطَّىٰ بغطاءٍ خفيفٍ ليسقطَ السَّبُعُ في الحفرةِ إذا مرَّ عليهِ ، وهيَ مِنْ طرقِ صيدِهِ ، وهيَ مثلٌ لبلوغِ الشرِّ غايةً بعيدةً ، وكذٰلكَ مجاوزةُ الحزامِ الطُّبْيَينِ ؛ وهوَ مُثنَّىٰ طُبْيٍ بكسرٍ أو ضمٍّ فسكونٍ ، حلمةُ الضَّرْعِ مِنْ ذواتِ الخُفِّ والحافرِ والظِّلفِ ، وقولُهُ : (لم يغلبْكَ مثلُ مغلبٍ) قطعةٌ مِنْ قولِ امرئِ القيسِ (٢) : [من الطويل]

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

❊

وكفاكَ هـٰذا القَدرُ مثالاً لِمَا كانَ عليهِ كتبُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وخلفائِهِ رضيَ اللهُ عنهُم قبلَ أميرِ المؤمنينَ عليٍّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وأمَّا هوَ . . فكلامُهُ البحرُ الذي لا ساحلَ لهُ ، وإذا اطلعتَ عليهِ . . عرفتَ كيفَ تَصرَّفَ أُمراءُ الكلامِ في البلاغةِ .

وقد جمعَ الشريفُ الرضيُّ مِنْ كلامِهِ مجموعاً صالحاً سمَّاهُ « نهجَ

---

(١) تقدم (٤/٢٩٥) ، وانظر « تاريخ المدينة » لابن شبة (٤/١١٩٩) .

(٢) انظر « ديوان امرئ القيس » (ص ٤٤) .

البلاغةِ » ، وشرحَهُ ابنُ أبي الحديدِ شرحاً كبيراً في مُجلَّداتٍ كثيرةٍ ، فمَنْ أرادَ توفيرَ حظِّهِ وشحنَ خاطرِهِ مِنْ أشرفِ الكلامِ بعدَ القرآنِ وحديثِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ . . فليطلبْ ذٰلكَ الكتابَ ، ويَقرأْهُ بتأمُّلٍ لألفاظِهِ ، وتفهُّمٍ لأغراضِهِ ، ولا بأسَ أن نوردَ لكَ منهُ ما يكونُ داعياً لبذلِ جهدِكَ في طلبِهِ .

[كتابُ سيدِنا عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للأشترِ النخعيِّ]

هٰذهِ صورةُ عهدٍ كتبَهُ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ لمالكٍ المعروفِ بالأشترِ النخعيِّ ـ وهوَ مِنْ أجلِّ أصحابِهِ ، وكانَ يقولُ فيهِ : مالكٌ لي كما كنتُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ـ حينَ أرسلَهُ والياً علىٰ مصرَ[1] :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هٰذا ما أمرَ بهِ عبدُ اللهِ عليٌّ أميرُ المؤمنينَ مالكَ بنَ الحارثِ الأشترَ في عهدِهِ حينَ ولَّاهُ مصرَ جبايةَ خَراجِها ، وجهادَ عدوِّها ، وإصلاحَ أهلِها ، وعِمارةَ بلادِها .

أمرَهُ بتقوى اللهِ ، وإيثارِ طاعتِهِ ، واتباعِ ما أمرَ بهِ في كتابِهِ مِنْ فرائضِهِ وسننِهِ التي لا يسعدُ أحدٌ إلَّا باتباعِها ، ولا يشقىٰ إلَّا معَ جحودِها وإضاعتِها ، وأن يَنصُرَ اللهَ سبحانَهُ بيدِهِ وقلبِهِ ولسانِهِ ؛ فإنَّهُ جلَّ اسمُهُ قد تَكفَّلَ بنصرِ مَنْ نصرَهُ ، وإعزازِ مَنْ أعزَّهُ .

وأمرَهُ أن يكسرَ مِنْ نفسِهِ عندَ الشهواتِ ، ويزعَها عندَ الجَمَحاتِ ؛ فإنَّ النفسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ إلَّا ما رحمَ اللهُ .

ثمَّ اعلمْ يا مالكُ : أنِّي قد وجهتُكَ إلىٰ بلادٍ قد جرتْ دُوَلاً قبلَكَ مِنْ

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٣٠ ـ ١١٧) .

عدلٍ أو جورٍ ، وأنَّ الناسَ ينظرونَ في أمورِكَ في مثلِ ما كنتَ تنظرُ فيهِ مِنْ أمورِ الولاةِ قبلَكَ ، ويقولونَ فيكَ كما كنتَ تقولُهُ فيهِم ، وإنَّما يُستَدلُّ على الصالحينَ بما يُجري اللهُ لهُم علىٰ ألسنةِ عبادِهِ ، فليكنْ أحبَّ الذَّخائرِ إليكَ ذخيرةً العملُ الصالحُ ، فاملكْ هواكَ ، وشُحَّ بنفسِكَ عمَّا لا يَحِلُّ لكَ ؛ فإنَّ الشُّحَّ بالنفسِ الإنصافُ منها فيما [أحبَّتْ] وكرِهَتْ .

وأشعر قلبَكَ الرحمةَ للرعيَّةِ ، والمحبةَ لهُم ، واللطفَ بهِم ، ولا تكونَنَّ عليهِم سَبُعاً ضارياً تغتنمُ أكلَهُم ؛ فإنَّهُم صنفانِ : إمَّا أخٌ لكَ في الدِّينِ ، وإمَّا نظيرٌ لكَ في الخلقِ ، يفرطُ منهُم الزللُ ، وتَعرِضُ لهُمُ العللُ ، ويُؤتىٰ علىٰ أيديهِم في العمدِ والخطأِ ، فأعطِهِم مِنْ عفوِك وصفحِكَ مثلَ الذي تُحِبُّ وترضىٰ أن يعطيَكَ اللهُ مِنْ عفوِهِ وصفحِهِ ؛ فإنَّكَ فوقَهُم ، ووالِيَ الأمرِ عليكَ فوقَكَ ، واللهُ فوقَ مَنْ ولَّاكَ ، وقدِ استكفاكَ أمرَهُم ، وابتلاكَ بهِم .

ولا تَنصِبَنَّ نفسَكَ لحربِ اللهِ ؛ فإنَّهُ لا يَدَيْ لكَ بنقمتِهِ ، ولا غنىٰ بكَ عن عفوِهِ ورحمتِهِ ، ولا تَندمَنَّ علىٰ عفوٍ ، ولا تَجنحنَّ بعقوبةٍ ، ولا تُسرِعَنَّ إلىٰ بادرةٍ وجدتَ عنها مندوحةً ، ولا تَقولَنَّ : إنِّي مُؤمَّرٌ آمُرُ فأُطاعُ ؛ فإنَّ ذٰلكَ إدغالٌ في القلبِ ، ومنهكةٌ للدِّينِ ، وتَقرُّبٌ مِنَ الغيرِ .

وإذا أحدثَ لكَ ما أنتَ فيهِ مِنْ سلطانِكَ أُبَّهةً أو مخيلةً . . فانظرْ إلىٰ عظمِ مُلكِ اللهِ فوقَكَ ، وقدرتِهِ منكَ علىٰ ما لا تَقدِرُ عليهِ مِنْ نفسِكَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ يطامِنُ إليكَ مِنْ طماحِكَ ، ويَكُفُّ عنكَ مِنْ غَربِكَ ، ويضيءُ إليكَ ممَّا عزبَ عنكَ مِنْ عقلِكَ ، وإيَّاكَ ومساماةَ اللهِ في عظمتِهِ ، والتشبُّهَ بهِ في جبروتِهِ ؛ فإنَّ اللهَ يُذِلُّ كلَّ جبَّارٍ ، ويُهِينُ كلَّ مختالٍ .

أنصفِ اللهَ وأنصفِ الناسَ مِنْ نفسِكَ ، ومِنْ خاصَّةِ أهلِكَ ، ومَنْ لكَ فيهِ هوىً مِنْ رعيَّتِكَ ؛ فإنَّكَ إلَّا تفعلْ . . تظلمْ ، ومَنْ ظلمَ عبادَ اللهِ . . كانَ اللهُ

خصمَهُ دونَ عبادِهِ ، ومَنْ خاصمَهُ اللهُ . . أدحضَ حُجَّتَهُ ، وكانَ للهِ حرباً حتىٰ يَنزِعَ ويتوبَ .

وليسَ شيءٌ أدعىٰ إلىٰ تغييرِ نعمةِ اللهِ وتعجيلِ نقمتِهِ مِنْ إقامةٍ علىٰ ظلمٍ ؛ فإنَّ اللهَ سميعٌ دعوةَ المظلومينَ ، وهوَ للظالمينَ بالمِرصادِ .

وليكنْ أحبُّ الأمورِ إليكَ أوسطَها في الحقِّ ، وأعمَّها في العدلِ ، وأجمعَها لرضا الرعيَّةِ ؛ فإنَّ سُخْطَ العامَّةِ يُجحِفُ برضا الخاصَّةِ ، وإنَّ سُخْطَ الخاصَّةِ يُغتفَرُ معَ رضا العامَّةِ ، وليسَ أحدٌ مِنَ الرعيَّةِ أثقلَ على الوالي مؤنةً في الرخاءِ ، وأقلَّ معونةً لهُ في البلاءِ ، وأكرهَ للإنصافِ ، وأسألَ بالإلحافِ ، وأقلَّ شكراً عندَ الإعطاءِ ، وأبطأَ عذراً عندَ المنعِ ، وأضعفَ صبراً عندَ مُلِمَّاتِ الدَّهرِ . . مِنْ أهلِ الخاصَّةِ ، وإنَّما عَمودُ الدِّينِ ، وجماعُ المسلمينَ ، والعدَّةُ للأعداءِ . . العامَّةُ مِنَ الأُمَّةِ ، فليكنْ صغوُكَ لهُم (١) ، وميلُكَ معَهُم ، وليكنْ أبعدُ رعيتِكَ منكَ وأشنؤُهُم عندَكَ . . أطلبَهُم لمعايبِ الناسِ ؛ فإنَّ في الناسِ عيوباً الوالي أحقُّ مَنْ سترَها ، فلا تَكشِفَنَّ عمَّا غابَ عنكَ منها ؛ فإنَّما عليكَ تطهيرُ ما ظهرَ لكَ ، واللهُ يحكمُ علىٰ ما غابَ عنكَ ، فاسترِ العورةَ ما استطعتَ . . يسترِ اللهُ منكَ ما تحبُّ سترَهُ مِنْ رعيَّتِكَ .

أطلقْ عنِ الناسِ عقدةَ كلِّ حقدٍ ، واقطعْ عنكَ سببَ كلِّ وترٍ ، وتغابَ عن كلِّ ما لا يَصِحُّ لكَ ، ولا تَعجلَنَّ إلىٰ تصديقِ ساعٍ ؛ فإنَّ الساعيَ غاشٌّ وإن تَشبَّهَ بالناصحينَ ، ولا تُدخِلَنَّ في مشورتِكَ بخيلاً يَعدِلُ بكَ عنِ الفضلِ ، ويَعِدُكَ الفقرَ ، ولا جباناً يُضعِفُكَ عنِ الأمورِ ، ولا حريصاً يُزيِّنُ لكَ الشَّرَهَ بالجورِ ، فإنَّ البخلَ والجبنَ والحرصَ غرائزُ شتىٰ يَجمعُها سوءُ الظَّنِّ باللهِ .

شرُّ وزرائِكَ مَنْ كانَ قبلَكَ للأشرارِ [وزيراً] ومَنْ شركَهُم في الآثامِ ، فلا

---

(١) في « شرح نهج البلاغة » (١٧/٣٥) : (صفوك) .

يكونُنَّ لكَ بطانةً ؛ فإنَّهُم أعوانُ الأَثَمةِ ، وإخوانُ الظَّلَمةِ ، وأنتَ واجدٌ منهُم خيرَ الخلفِ ؛ ممَّنْ لهُم مثلُ آرائِهِم ونفاذِهِم ، وليسَ عليهِ مثلُ آصارِهِم وأوزارِهِم ؛ ممَّنْ لا يعاونُ ظالماً علىٰ ظلمِهِ ، ولا آثماً علىٰ إثمِهِ ، أولـٰئكَ أخفُّ عليكَ مؤنةً ، وأحسنُ لكَ معونةً ، وأحنىٰ عليكَ عطفاً ، وأقلُّ لغيرِكَ إلفاً ، فاتخذْ أولـٰئكَ خاصَّةً لخلواتِكَ وحفلاتِكَ ، ثمَّ ليكنْ آثرُهُم عندَكَ أقولَهُم لكَ بمرِّ الحقِّ ، وأقلَّهُم مساعدةً فيما يكونُ منكَ ممَّا كرهَ اللهُ لأوليائِهِ ، واقعاً ذٰلكَ مِنْ هواكَ حيثُ وقعَ .

والصقْ بأهلِ الورعِ والصِّدقِ ، ثمَّ رُضْهُم علىٰ ألَّا يُطروكَ ، ولا يُبجِّحوكَ بباطلٍ لم تفعلْهُ ؛ فإنَّ كثرةَ الإطراءِ تُحدِثُ الزهوَ ، وتدني مِنَ العِزَّةِ .

ولا يكونَنَّ المُحسِنُ والمسيءُ عندَكَ بمنزلةٍ سواءٍ ؛ فإنَّ في ذٰلك تزهيداً لأهلِ الإحسانِ في الإحسانِ ، وتدريباً لأهلِ الإساءةِ على الإساءةِ ، وألزِمْ كلّاً منهُم ما ألزمَ نفسَهُ .

واعلمْ : أن ليسَ شيءٌ بأدعىٰ إلىٰ حسنِ ظنِّ والٍ برعيتِهِ مِنْ إحسانِهِ إليهِم ، وتخفيفِهِ المؤناتِ عليهِم ، وتركِ استكراهِهِ إيَّاهُم علىٰ ما ليسَ لهُ قبلَهُم ، فليكنْ منكَ في ذٰلكَ أمرٌ يجمعُ لكَ حسنَ الظنِّ برعيتِكَ ؛ فإنَّ حسنَ الظنِّ يقطعُ عنكَ نصباً طويلاً ، وإنَّ أحقَّ مَنْ حَسُنَ ظنُّكَ بهِ . . لَمَنْ حَسُنَ بلاؤُكَ عندَهُ ، وإنَّ أحقَّ مَنْ ساءَ ظنُّكَ بهِ . . لَمَنْ ساءَ بلاؤُكَ عندَهُ .

ولا تنقضْ سُنَّةً صالحةً عَمِلَ بها صدورُ هـٰذهِ الأُمَّةِ ، واجتمعَتْ بها الأُلفةُ ، وصلحَتْ عليها الرعيةُ ، ولا تُحدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بشيءٍ ممَّا مضىٰ مِنْ تلكَ السننِ ، فيكونَ الأجرُ لِمَنْ سنَّها ، والوزرُ عليكَ بما نقضتَ منها .

وأكثرْ مدارسةَ العلماءِ ، ومناقشةَ الحكماءِ ؛ في تثبيتِ ما صَلَحَ عليهِ أمرُ بلادِكَ ، وإقامةِ ما استقامَ بهِ الناسُ قبلَكَ .

واعلمْ : أنَّ الرعيَّةَ طبقاتٌ لا يَصلُحُ بعضُها إلَّا ببعضٍ ، ولا غنىٰ ببعضِها عن بعضٍ ؛ فمنها جنودُ اللهِ ، ومنها كتابُ العامَّةِ والخاصَّةِ ، ومنها قُضاةُ العدلِ ، ومنها عمالُ الإنصافِ والرفقِ ، ومنها أهلُ الجزيةِ والخَراجِ مِنْ أهلِ الذِّمَّةِ ومسلمةِ الناسِ ، ومنها التجَّارُ وأهلُ الصِّناعاتِ ، ومنها الطَّبقةُ السفلىٰ مِنْ ذوي الحاجةِ والمَسكنةِ ، وكلٌّ قد سمَّى اللهُ سهمَهُ ، ووضعَ علىٰ حدِّهِ وفريضتِهِ في كتابِهِ أو سُنَّةِ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ عهداً منهُ عندَنا محفوظاً .

فالجنودُ بإذنِ اللهِ حصونُ الرعيةِ ، وزينُ الولاةِ ، وعزُّ الدينِ ، وسبلُ الأمنِ ، وليسَ تقومُ الرعيةُ إلَّا بهِم ، ثمَّ لا قوامَ للجنودِ إلَّا بما يُخرِجُ اللهُ تعالىٰ لهُم مِنَ الخراجِ الذي يَقوَونَ بهِ في جهادِ عدوِّهِم ، ويعتمدونَ عليهِ فيما أصلحَهُم ، ويكونُ مِنْ وراءِ حاجتِهِم ، ثمَّ لا قوامَ لهٰذَينِ الصنفينِ إلَّا بالصنفِ الثالثِ مِنَ القُضاةِ والعُمَّالِ والكُتَّابِ ؛ لِمَا يحكمونَ مِنَ المعاقدِ ، ويجمعونَ مِنَ المنافعِ ، ويُؤتمَنونَ عليهِ مِنْ خواصِّ الأمورِ وعوامِّها ، ولا قوامَ لهُم جميعاً إلَّا بالتجَّارِ وذوي الصِّناعاتِ فيما يجتمعونَ عليهِ مِنْ مرافقِهِم ، ويقيمونَهُ مِنْ أسواقِهِم ، ويكفونَهُم مِنَ الترفُّقِ بأيديهِم ، ممَّا لا يبلغُهُ رفقُ غيرِهِم ، ثمَّ الطَّبقةُ السفلىٰ مِنْ أهلِ الحاجةِ والمسكنةِ الذينَ يَحِقُّ رفدُهُم ومعونتُهُم ، وفي اللهِ لكلٍّ سعةٌ ، ولكلٍّ على الوالي حقٌّ بقدرِ ما يُصلِحُهُ .

فولِّ مِنْ جنودِكَ أنصحَهُم في نفسِكَ للهِ ولرسولِهِ ولإمامِكَ ، وأطهرَهُم جيباً ، وأفضلَهُم حلماً ؛ ممَّنْ يبطئُ عنِ الغضبِ ، ويستريحُ إلى العذرِ ، ويرأفُ بالضُّعفاءِ ، وينبو على الأقوياءِ ؛ ممَّن لا يثيرُهُ العنفُ ، ولا يقعدُ بهِ الضَّعفُ .

ثمَّ الصقْ بذوي المروءاتِ والأحسابِ ، وأهلِ البيوتاتِ الصالحةِ والسوابقِ الحسنةِ ، ثمَّ أهلِ النجدةِ والشجاعةِ ، والسخاءِ والسماحةِ ؛ فإنَّهُم جماعٌ مِنَ الكرمِ ، وشعبٌ مِنَ العُرْفِ .

ثـمَّ تفقَّدْ مِنْ أمورِهِم ما يَتفقَّدُهُ الوالدانِ مِنْ ولدِهِما ، ولا يتفاقمنَّ في نفسِكَ شيءٌ قَوَّيتَهُم بهِ ، ولا تَحقِرَنَّ لطفاً تتعاهدُهُم بهِ وإن قلَّ ؛ فإنَّهُ داعيةٌ إلىٰ بذلِ النصيحةِ لكَ ، وحسنِ الظنِّ بكَ ، ولا تدعْ تَفقُّدَ لطيفِ أمورِهِم اتكالاً علىٰ جسيمِها ؛ فإنَّ لليسيرِ مِنْ لطفِكَ موضعاً ينتفعونَ بهِ ، وللجسيمِ موقعاً لا يستغنونَ عنهُ .

وليكنْ آثرُ رؤوسِ جندِكَ عندَكَ مَنْ واساهم في معونتِهِ ، وأفضلَ عليهِم مِنْ جِدَتِهِ بما يَسعُهُم ويَسَعُ مَنْ وراءَهُم مِنْ خُلُوفِ أهلِهِم ، حتىٰ يكونَ همُّهُم همّاً واحداً في جهادِ العدوِّ ؛ فإنَّ عطفَكَ عليهِم يُعطِّفُ قلوبَهُم عليكَ ، ولا تَصِحُّ نصيحتُهُم إلَّا بحيطتِهِم علىٰ ولاةِ أمورِهِم ، وقِلَّةِ استثقالِ دولِهِم ، وتركِ استبطاءِ انقطاعِ مُدَّتِهِم .

فافسحْ في آمالِهِم ، وواصلْ مِنْ حسنِ الثناءِ عليهِم ، وتعديدِ ما أبلىٰ ذوي البلاءِ منهُم ؛ فإنَّ كثرةَ الذِّكرِ لحسنِ فعالِهِم تَهزُّ الشجاعَ ، وتُحرِّكُ الناكلَ إن شاءَ اللهَ تعالىٰ .

ثـمَّ اعرفْ لكلِّ امرئٍ منهُم ما أبلىٰ ، ولا تَضُمَّنَّ بلاءَ امرئٍ إلىٰ غيرِهِ ، ولا تقصرَنَّ بهِ دونَ غايةِ بلائِهِ ، ولا يدعوَنَّكَ شرفُ امرئٍ إلىٰ أن تُعظِّمَ مِنْ بلائِهِ ما كانَ صغيراً ، ولا ضعةُ امرئٍ أن تَستصغرَ مِنْ بلائِهِ ما كانَ عظيماً ، وارددْ إلى اللهِ ورسولِهِ ما يُضلعُكَ مِنَ الخُطوبِ ، ويشتبهُ عليكَ مِنَ الأمورِ ، فقد قالَ اللهُ سبحانَهُ لقومٍ أحبَّ إرشادَهُم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (١) ، فالردُّ إلى اللهِ الأخذُ بمُحكَمِ كتابِهِ ، والردُّ إلى الرسولِ الأخذُ بسُنَّتِهِ الجامعةِ غيرِ المُفرِّقةِ .

ثـمَّ اخترْ للحكمِ بينَ الناسِ أفضلَ رعيَّتِكَ في نفسِكَ ، ممَّنْ لا تضيقُ بهِ

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

الأمورُ ، ولا تمحكُهُ الخصومُ ، ولا يتمادىٰ في الزَّلَّةِ ، ولا يحصرُ عنِ الفيءِ إلى الحقِّ إذا عرفَهُ ، ولا تَشرُفُ نفسُهُ علىٰ طمعٍ ، ولا يكتفي بأدنىٰ فهمٍ دونَ أقصاهُ ، أوقفَهُم في الشبهاتِ ، وآخذَهُم بالحججِ ، وأقلَّهُم تبرُّماً بمراجعةِ الخصمِ ، وأصبرَهُم علىٰ تكشيفِ الأمورِ ، وأصرمَهُم عندَ اتضاحِ الحكمِ ؛ ممَّنْ لا يزدهيهِ إطراءٌ ، ولا يستميلُهُ إغراءٌ ، وأولـٰئكَ قليلٌ .

ثـمَّ أكثرْ تعاهدَ قضائِهِ ، وأفسحْ لهُ في البذلِ ما يُزيحُ علَّتَهُ ، ويَقِلُّ معَهُ حاجتُهُ إلى الناسِ ، وأعطِهِ مِنَ المنزلةِ لديكَ ما لا يطمعُ فيهِ غيرُهُ مِنْ خاصَّتِكَ ، لتأمنَ بذٰلكَ اغتيالَ الرجالِ لهُ عندَكَ .

فانظرْ في ذٰلكَ نظراً بليغاً ؛ فإنَّ هـٰذا الدِّينَ قد كانَ أسيراً في أيدي الأشرارِ ، يُعمَلُ فيهِ بالهوىٰ ، وتُطلَبُ بهِ الدنيا .

ثـمَّ انظرْ في أمورِ عُمَّالِكَ ؛ فاستعملْهُم اختباراً ، ولا تُولِّهِم محاباةً وأثرةً ؛ فإنَّهُم جماعٌ مِنْ شعبِ الجورِ والخيانةِ ، وتَوخَّ منهُم أهلَ التجربةِ والحياءِ مِنْ أهلِ البيوتاتِ الصالحةِ ، والقدمِ في الإسلامِ المُتقدِّمةِ ؛ فإنَّهُم أكرمُ أخلاقاً ، وأصحُّ أعراضاً ، وأقلُّ في المطامعِ إشراقاً ، وأبلغُ في عواقبِ الأمورِ نظراً .

ثـمَّ أسبغْ عليهِمُ الأرزاقَ ؛ فإنَّ ذٰلكَ قُوَّةٌ لهُم على استصلاحِ أنفسِهِم ، وغنىً لهُم عن تناولِ ما تحتَ أيديهِم ، وحُجَّةٌ عليهِم إن خالفوا أمرَكَ أو خانوا أمانتَكَ ، ثـمَّ تفقَّدْ أعمالَهُم ، وابعثِ العيونَ مِنْ أهلِ الصِّدقِ والوفاءِ عليهِم ؛ فإنَّ تعاهدَكَ في السرِّ لأمورِهِم حَدْوةٌ لهُم على استعمالِ الأمانةِ ، والرفقِ بالرعيَّةِ ، وتحفظْ مِنَ الأعوانِ ، فإن أحدٌ منهُم بسطَ يدَهُ إلىٰ خيانةٍ اجتمعَتْ بها عليهِ عندَكَ أخبارُ عيونِكَ . . اكتفيتَ بذٰلكَ شاهداً ، فبسطتَ عليهِ العقوبةَ في بدنِهِ ، وأخذتَهُ بما أصابَ مِنْ عملِهِ ، ثـم نصبتَهُ بمَقامِ المَذلَّةِ ، ووسمتَهُ بالخيانةِ ، وقلَّدتَهُ عارَ التُّهَمَةِ .

وتفقَّدْ أمرَ الخَراجِ بما يُصلِحُ أهلَهُ ، فإنَّ في صلاحِهِ وصلاحِهِم صلاحاً لِمَنْ سواهُم ، ولا صلاحَ لِمَنْ سواهُم إلَّا بهِم ؛ لأنَّ الناسَ كلَّهُم عيالٌ على الخَراجِ وأهلِهِ ، وليكنْ نظرُكَ في عمارةِ الأرضِ أبلغَ مِنْ نظرِكَ في استجلابِ الخَراجِ ؛ لأنَّ ذلكَ لا يدركُ إلَّا بالعمارةِ ، ومَنْ طلبَ الخَراجَ بغيرِ عمارةٍ . . أخربَ البلادَ ، وأهلكَ العبادَ ، ولم يستقمْ أمرُهُ إلَّا قليلاً ، فإن شَكَوا ثِقَلاً ، أو عِلَّةً ، أوِ انقطاعَ شربٍ أو بالَّةٍ(١) ، أو إحالةَ أرضٍ اغتمرَها غرقٌ ، أو أجحفَ بها عطشٌ . . خَفَّفتَ عنهُم بما ترجو أن يَصلُحَ بهِ أمرُهُم .

ولا يثقلنَّ عليكَ شيءٌ خفَّفتَ بهِ المؤنةَ عنهُم ؛ فإنَّهُ ذخرٌ يعودونَ بهِ عليكَ في عمارةِ بلدِكَ ، وتزيينِ ولايتِكَ ، معَ استجلابِكَ حسنَ ثنائِهِم ، وتبجُّحِكَ باستفاضةِ العدلِ فيهِم ، مُعتمِداً فضلَ قُوَّتِهِم ؛ بما ذخرتَ عندَهُم مِنْ إجمامِكَ لهُم ، والثقةِ منهُم بما دعوتَهُم إليهِ ، لِمَا سبقَ مِنْ عدلِكَ عليهِم ، ورفقِكَ بهِم ، فربَّما حدثَ مِنَ الأمورِ ما إذا [عَوَّلتَ] فيهِ عليهِم مِنْ بعدُ . . احتملوهُ طَيِّبةً أنفسُهُم ؛ فإنَّ العمرانَ يَحتمِلُ ما حمَّلتَهُ ، وإنَّما يأتي خرابُ الأرضِ مِنْ إعوازِ أهلِها ، وإنَّما يُعوزُ أهلُها ؛ لإشرافِ أنفسِ الولاةِ على الجمعِ ، وسوءِ ظنِّهِم بالبقاءِ ، وقِلَّةِ انتفاعِهِم بالعِبَرِ .

ثمَّ انظرْ في حالِ كُتَّابِكَ ، فولِّ على أمورِكَ خيرَهُم ، واخصصْ رسائِلَكَ التي تُدخِلُ فيها مكايدَكَ وأسرارَكَ بأجمعِهِم لوجوهِ صالحِ الأخلاقِ ؛ ممَّنْ لا تبطرُهُ الكرامةُ فيجترئَ بها عليكَ في خلافٍ لكَ بحضرةِ ملأٍ ، ولا تُقصِّرُ بهِ الفضلةُ(٢) عن إيرادِ مكاتباتِ عُمَّالِكَ عليكَ ، وإصدارِ جواباتِها على الصَّوابِ عنكَ ، وفيما يأخذُ لكَ ويعطي منكَ ، ولا يُضعِفُ عقداً اعتقدَهُ لكَ ، ولا

---

(١) البالَّة : المطر .

(٢) في « شرح نهج البلاغة » (٧٥/١٧) : (الغفلة) بدل (الفضلة) .

يَعجزُ عن إطلاقِ ما عُقِدَ عليكَ ، ولا يَجهلُ مبلغَ قدرِ نفسِهِ في الأمورِ ؛ فإنَّ الجاهلَ بقدرِ نفسِهِ يكونُ بقدرِ غيرِهِ أجهلَ .

ثمَّ لا يكنِ اختيارُكَ إيَّاهُم علىٰ فراستِكَ [واستنامِكَ] وحسنِ الظنِّ منكَ ؛ فإنَّ الرجالَ يَتعرَّفونَ لفراساتِ الولاةِ بتصنُّعِهِم وحسنِ خدمتِهِم ، وليسَ وراءَ ذٰلكَ مِنَ النصيحةِ والأمانةِ شيءٌ ، ولٰكنِ اختبرْهُم بما وُلُّوا للصَّالحينَ قبلَكَ ، فاعمدْ لأحسنِهِم في العامَّةِ أثراً ، وأعرفِهِم بالأمانةِ وَجْهاً ؛ فإنَّ ذٰلكَ دليلٌ علىٰ نصيحتِكَ للهِ ، ولِمَنْ وليتَ أمرَهُ ، واجعلْ لرأسِ كلٍّ مِنْ أمورِكَ رأساً منهُم ، لا يقهرُهُ كبيرُها ، ولا يَتشتَّتُ عليهِ كثيرُها ، ومهما كانَ في كتابِكَ مِنْ عيبٍ فتغابيتَ عنهُ . . ألزمتَهُ .

ثمَّ استوصِ بالتُّجَّارِ وذوي الصِّناعاتِ ، وأوصِ بهِم خيراً ، المقيمِ منهُم ، والمُضطرِبِ بمالِهِ ، والمُترفِّقِ ببدنِهِ ؛ فإنَّهُم موادُّ المنافعِ ، وأسبابُ المرافقِ ، وجُلَّابُها مِنَ المتباعدِ والمطارحِ في بَرِّكَ وبحرِكَ ، وسهلِكَ وجبلِكَ ، وحيثُ لا يلتئمُ الناسُ لمواضعِها ، ولا يَجترِئُونَ عليها ؛ فإنَّهُم سِلْمٌ لا تُخافُ بائقتُهُ ، وصُلحٌ لا تُخشىٰ غائلتُهُ ، وتَفقَّدْ أمورَهُم بحضرتِكَ ، وفي حواشي بلادِكَ .

واعلمْ معَ ذٰلكَ : أنَّ في كثيرٍ منهُم ضيقاً فاحشاً ، وشحّاً قبيحاً ، [واحتكاراً] للمنافعِ ، وتحكُّماً في البياعاتِ ، وذٰلكَ بابُ مَضرَّةٍ للعامَّةِ ، وعيبٌ على الولاةِ ، فامنعْ مِنَ الاحتكارِ ؛ فإنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ منعَ منهُ .

وليكنِ البيعُ بيعاً سمحاً ؛ بموازينِ عدلٍ ، وأسعارٍ لا تُجحِفُ بالفريقَينِ مِنَ البائعِ والمبتاعِ ، فمَنْ قارفَ حُكْرةً بعدَ نهيِكَ إيَّاهُ . . فنَكِّلْ بهِ ، وعاقبْ مِنْ غيرِ إسرافٍ .

ثــمَّ اللهَ اللهَ في الطَّبقةِ السُّفلىٰ مِن الذينَ لا حيلةَ لهُم ، والمساكينِ والمحتاجينَ ، وأهلِ البؤسِ والزَّمْنَىٰ ؛ فإنَّ في هٰذهِ الطَّبقةِ قانعاً ومُعترّاً ،

واحفظْ للهِ ما استحفظَكَ مِنْ حقِّهِ فيهِم ، واجعلْ لهُم قسماً مِنْ بيتِ مالِكَ ، وقسماً مِنْ غلَّاتِ صوافي الإسلامِ في كلِّ بلدٍ ؛ فإنَّ للأقصىٰ منهُم مثلَ الذي للأدنىٰ ، وكلٌّ قدِ استُرعِيتَ حقَّهُ .

ولا يَشغلَنَّكَ عنهُم بطرٌ ؛ فإنَّكَ لا تُعذَرُ بتضييعِ التافهِ لإحكامِكَ الكبيرَ المُهِمَّ ، فلا تشخصْ همَّكَ عنهُم ، ولا تُصعِّرْ خَدَّكَ لهُم ، وتَفقَّدْ أمورَ مَنْ لا يصلُ إليكَ منهُم ؛ ممَّنْ تقتحمُهُ العيونُ ، وتحقرُهُ الرجالُ ، ففرِّغْ لأولـٰئكَ ثقتَكَ مِنْ أهلِ الخشيةِ والتواضعِ ، فليرفعْ إليكَ أمورَهُم ، ثـمَّ اعملْ فيهِم بالإعذارِ إلى اللهِ سبحانَهُ يومَ تلقاهُ ؛ فإنَّ هـٰؤلاءِ مِنْ بينِ الرعيَّةِ أحوجُ إلى الإنصافِ مِنْ غيرِهِم ، وكلٌّ فأعذرْ إلى اللهِ في تأديةِ حقِّهِ إليهِ .

وتَعهَّدْ أهلَ اليُتْمِ وذوي الرِّقَّةِ في السنِّ ؛ ممَّنْ لا حيلةَ لهُ ، ولا يَنصِبُ للمسألةِ نفسَهُ ، وذٰلكَ على الولاةِ ثقيلٌ ، وقد يُخفِّفُهُ اللهُ علىٰ أقوامٍ طلبوا العافيةَ ، فصبَّروا أنفسَهُم ، ووثقوا بصدقِ موعودِ اللهِ لهُم .

واجعلْ لذوي الحاجاتِ منكَ قسماً تُفرِّغُ لهُم فيهِ شخصَكَ ، وتجلسُ لهُم مجلساً عامّاً ، [فتتواضعُ] فيهِ للذي خلقَكَ ، وتُقْعِدُ عنهُم جندَكَ وأعوانَكَ مِنْ أحراسِكَ وشرطِكَ ، حتىٰ يُكلِّمَكَ مُتكلِّمُهُم غيرَ متعتعٍ ؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ يقولُ في غيرِ موطنٍ : « لَنْ تُقَدَّسَ أُمَّةٌ لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ مِنَ ٱلْقَوِيِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ »(١) .

ثـمَّ احتملِ الخُرْقَ منهُم والعِيَّ ، ونحّ عنقَ الضِّيقِ والأنفةِ(٢) . . يبسطِ اللهُ عليكَ بذٰلكَ أكنافَ رحمتِهِ ، ويُوجِبْ لكَ ثوابَ طاعتِهِ ، وأعطِ ما أعطيتَ هنيئاً ، وامنعْ في إجمالٍ وإعذارٍ .

---

(١) انظر « البدر المنير » (٩/٥٤١ ـ ٥٤٦) .

(٢) في « شرح نهج البلاغة » (١٧/٨٨) : (عنهم الضيق والأنف) بدل (عنق الضيق والأنفة) .

ثـمَّ أمورٌ مِنْ أمـورِكَ لا بدَّ لكَ مِنْ مباشرتِها ؛ منها إجابةُ عُمَّالِكَ بما يعيا عنهُ كُتَّابُكَ ، ومنها إصدارُ حاجاتِ الناسِ عندَ ورودِها عليكَ ممَّا يُحرِجُ صدورَ أعوانِكَ ، وأمضِ لكلِّ يومٍ عملَهُ ، فإنَّ لكلِّ يومٍ ما فيهِ ، واجعلْ لنفسِكَ فيما بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ أفضلَ تلكَ المواقيتِ ، وأجزلَ تلكَ الأقسامِ ، وإن كانَتْ كلُّها للهِ إذا صَلَحَتْ فيها النيةُ ، وسَلِمَتْ منها الرعيةُ .

وليكنْ في خاصَّةِ ما تُخلِصُ للهِ بهِ دينَكَ إقامةُ فرائضِهِ التي هيَ لهُ خاصَّةً ، فأعطِ اللهَ مِنْ بدنِكَ في ليلِكَ ونهارِكَ ، ووَفِّ ما تَقرَّبتَ بهِ إلى اللهِ سبحانَهُ مِنْ ذٰلكَ كاملاً غيرَ مثلومٍ ولا منقوصٍ ، بالغاً مِنْ بدنِكَ ما بلغَ .

وإذا قمتَ في صلاتِكَ للناسِ فلا تكونَنَّ مُنفِّراً ولا مُضيِّعاً ؛ فإنَّ في الناسِ مَنْ بهِ العِلَّةُ ، ولهُ الحاجةُ ، وقد سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ حينَ وَجَّهَنِي إلى اليمنِ : كيفَ أُصلِّي بهِم ؟ فقالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَضْعَفِهِمْ ، وَكُنْ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً »(١) .

وأمَّا بعدَ هٰذا : فلا تُطوِّلَنَّ احتجابَكَ عن رعيَّتِكَ ؛ فإنَّ احتجابَ الوُلاةِ عنِ الرعيَّةِ شعبةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وقِلَّةُ عِلْمٍ بالأمورِ ، والاحتجابُ منهُم يقطعُ عنهُم علمَ ما احتجبوا دونَهُ ، فيَصغُرُ عندَهُمُ الكبيرُ ، ويَعظُمُ الصَّغيرُ ، ويَقبُحُ الحسنُ ، ويَحسنُ القبيحُ ، ويُشابُ الحقُّ بالباطلِ ، وإنَّما الوالي بشرٌ لا يَعرفُ ما تـوارىٰ عنهُ الناسُ بهِ مِنَ الأمـورِ ، وليسَتْ على الحقِّ سماتٌ تُعرَفُ بها ضروبُ الصِّدقِ مِنَ الكذبِ ، وإنَّما أنتَ أحدُ رجلَينِ : إمَّا امرُؤٌ سخَتْ نفسُكَ بالبذلِ في الحقِّ ، ففيمَ احتجابُكَ مِنْ واجبِ حقٍّ تعطيهِ ، أو فعلٍ كريمٍ تبديهِ ؟! أو مبتلىً بالمنعِ فما أسرعَ كفَّ الناسِ عن مسألتِكَ إذا أيسوا مِنْ

---

(١) أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/٥٦) عن سيدنا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه .

بَذلِكَ معَ أنَّ أكثرَ حاجاتِ الناسِ إليكَ ما لا مؤنةَ فيهِ عليكَ ؛ مِنْ شَكاةِ مَظلِمةٍ ، أو طلبِ إنصافٍ في معاملةٍ .

ثُمَّ إنَّ للوالي خاصَّةً وبطانةً ، فيهِم استكثارٌ وتطاولٌ ، وقلةُ إنصافٍ في معاملةٍ ، فاحسمْ مؤنةَ أولـٰئكَ بقطعِ أسبابِ تلكَ الأحوالِ ، ولا تَقطعَنَّ لأحدٍ مِنْ حاشيتِكَ وحامَّتِكَ قطيعةً ، ولا يَطمعَنَّ منكَ في اعتقادِ عُقدةٍ تَضُرُّ بمَنْ يليها مِنَ الناسِ في شِرْبٍ أو عملٍ مشتركٍ ، يحملونَ مؤنتَهُ علىٰ غيرِهِم ، فيكونَ مهنأُ ذٰلكَ لهُم دونَكَ ، وعيبُهُ عليكَ في الدنيا والآخرةِ .

وألزمِ الحقَّ مَنْ لزمَهُ مِنَ القريبِ والبعيدِ ، وكنْ في ذٰلكَ صابراً مُحتسِباً ، واقعاً ذٰلكَ مِنْ قرابتِكَ وخواصِّكَ حيثُ وقعَ ، وابتغِ عاقبتَهُ بما يَثقلُ عليكَ ؛ فإنَّ مَغبَّةَ ذٰلكَ محمودةٌ .

وإن ظنَّتِ الرعيةُ بكَ حيفاً . . فأصحرْ لهُم بعذرِكَ ، واعدِلْ عنكَ ظنونَهُم بإصحارِكَ ، فإنَّ في ذٰلكَ إعذاراً تبلغُ فيهِ حاجتَكَ مِنْ تقويمِهِم على الحقِّ ، ولا تَدفعَنَّ صُلْحاً دعاكَ إليهِ عدوُّكَ للهِ فيهِ رضاً ؛ فَإنَّ في الصُّلحِ دعةً لجنودِكَ ، وراحةً مِنْ همومِكَ ، وأمناً لبلادِكَ ، ولـٰكنِ الحذرَ كلَّ الحذرِ مِنْ عدوِّكَ بعدَ صلحِهِ ، فإنَّ العدوَّ ربَّما قاربَ ليتغفَّلَ ، فخُذْ بالحزمِ ، واتَّهِمْ في ذٰلكَ حسنَ الظنِّ ، وإن عقدتَ بينَكَ وبينَ عدوِّكَ عُقدةً ، أو ألبستَهُ منكَ ذمَّةً . . فحُطْ عهدَكَ بالوفاءِ ، وارعَ ذمَّتَكَ بالأمانةِ ، واجعلْ نفسَكَ جُنَّةً دونَ ما أعطيتَ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْ فرائضِ اللهِ شيءٌ الناسُ أشدُّ عليهِ اجتماعاً معَ تفريقِ أهوائِهِم وتشتُّتِ آرائِهِم . . مِنْ تعظيمِ الوفاءِ بالعهودِ ، وقد لزمَ ذٰلكَ المشركونَ فيما بينَهُم دونَ المسلمينَ ؛ لما استوبَلُوا مِنْ عواقبِ الغدرِ ، فلا تَغدِرَنَّ بذمَّتِكَ ، ولا تَخيسَنَّ بعهدِكَ ، ولا تَختِلَنَّ عدوَّكَ ؛ فإنَّهُ لا يَجترِئُ على اللهِ إلَّا جاهلٌ شقيٌّ .

وقد جعلَ اللهُ عهدَهُ وذمَّتَهُ أمناً أفضاهُ بينَ العبادِ برحمتِهِ ، وحريماً يسكنونَ إلىٰ منعتِهِ ويستفيضونَ إلىٰ جوارِهِ ، فلا إدغالَ ، ولا مدالسةَ ، ولا خداعَ فيهِ .

ولا تعقدْ عقداً تُجوِّزُ فيهِ العللَ ، ولا تُعوِّلَنَّ علىٰ لحنِ القولِ بعدَ التأكيدِ والتوثقةِ لضيقِ أمرٍ لزمَكَ فيهِ عهدُ اللهِ إلىٰ طلبِ انفساخِهِ بغيرِ الحقِّ ؛ فإنَّ صبرَكَ علىٰ ضيقِ أمرٍ ترجو انفراجَهُ وفضلَ عاقبتِهِ . . خيرٌ مِنْ غدرٍ تَخافُ تبعتَهُ ، وأن تحيطَ بكَ فيهِ مِنَ اللهِ طِلْبةٌ لا تستقيلُ فيها دنياكَ ولا آخرتَكَ .

إيَّاكَ والدماءَ وسفكَها بغيرِ حلِّها ؛ فإنَّهُ ليسَ شيءٌ أدعىٰ لنقمةٍ ، ولا أعظمَ لتبعةٍ ، ولا أحرىٰ بزوالِ نعمةٍ وانقطاعِ مُدَّةٍ . . مِنْ سفكِ الدماءِ بغيرِ حقِّها ، واللهُ سبحانَهُ يتوَلَّى الحكمَ بينَ العبادِ فيما تسافكوا مِنَ الدماءِ يومَ القيامةِ ، فلا تُقوِّيَنَّ سلطانَكَ بسفكِ دمٍ حرامٍ ، فإنَّ ذٰلكَ ممَّا يضعفُهُ ويوهنُهُ ، بل يزيلُهُ ويَنقلُهُ .

ولا عذرَ لكَ عندَ اللهِ ولا عندي في قتلِ العمدِ ؛ لأنَّ فيهِ قَوَدَ البدنِ ، وإنِ ابتُليتَ بخطأٍ وأفرطَ عليكَ سوطُكَ أو يدُكَ بعقوبةٍ ؛ فإنَّ في الوكزةِ وما فوقَها مقتلةً ، فلا تَطمحَنَّ بكَ نخوةُ سلطانِكَ عن أن تُؤدِّيَ إلىٰ أولياءِ المقتولِ حقَّهُم .

وإيَّاكَ والإعجابَ بنفسِكَ ، والثقةَ بما يُعجِبُكَ منها ، وحبَّ الإطراءِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ مِنْ أوثقِ فرصِ الشيطانِ في نفسِهِ ؛ ليمحقَ ما يكونُ مِنْ إحسانِ المحسنِ .

وإيَّاكَ والمنَّ علىٰ رعيَّتِكَ ، والتزيُّدَ فيما كانَ مِنْ فعلِكَ ، وأن تَعِدَهُم فتتبعَ موعدَكَ بخُلفِكَ ؛ فإنَّ المنَّ يبطلُ الإحسانَ ، والتزيدَ يذهبُ بنورِ الحقِّ ،

والخُلْفَ يُوجِبُ المقتَ عندَ اللهِ والناسِ ، قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وإيَّاكَ والعجلةَ بالأمورِ قبلَ أوانِها ، والتساقطَ فيها عندَ إمكانِها ، أو اللَّجاجةَ فيها إذا تنكَّرَتْ ، أوِ الوهنَ عنها إذا استوضحَتْ ، فضعْ كلَّ أمرٍ موضعَهُ ، وأوقعْ كلَّ عملٍ موقعَهُ .

وإيَّاكَ والاستئثارَ بما الناسُ فيهِ أسوةٌ ، والتغابيَ عمَّا تُعنىٰ بهِ ممَّا قد [وضحَ] للعيونِ ـ أي : الجواسيسِ ـ فإنَّهُ مأخوذٌ منكَ لغيرِكَ ، وعمَّا قليلٍ تنكشفُ عنكَ أغطيةُ الأمورِ ، وينتصفُ منكَ المظلومُ .

املِكْ حميَّةَ نفسِكَ ، وسَوْرةَ حَدِّكَ ، وسطوةَ يدِكَ ، وغَرْبَ لسانِكَ ، واحترسْ مِنْ كلِّ ذٰلكَ بكفِّ البادرةِ ، وتأخيرِ السَّطوةِ ، حتىٰ يسكنَ غضبُكَ ، [فتملكَ] الاختيارَ .

ولن تَحكُمَ ذٰلكَ مِنْ نفسِكَ حتىٰ تكثرَ همومُكَ بذكرِ المعادِ إلىٰ ربِّكَ ، والواجبُ عليكَ أن تَتذكَّرَ ما مضىٰ لِمَنْ تَقدَّمَكَ ؛ مِنْ حكومةٍ عادلةٍ ، أو سُنَّةٍ فاضلةٍ ، أو أثرٍ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، أو فريضةٍ في كتابِ اللهِ ؛ فتقتديَ بما تشاهدُهُ ممَّا عملنا بهِ فيها ، وتجتهدَ لنفسِكَ في اتباعِ ما عهدتُ إليكَ في عهدي هٰذا ، واستوثقتُ بهِ مِنَ الحُجَّةِ لنفسي عليكَ ؛ لكي لا يكونَ لكَ عِلَّةٌ عندَ تَسرُّعِ نفسِكَ إلىٰ هواها .

وأنا أسألُ اللهَ بسعةِ رحمتِهِ ، وعظيمِ قدرتِهِ علىٰ إعطاءِ كلِّ رغبةٍ ؛ أن يُوفِّقَني وإيَّاكَ لِمَا فيهِ رضاهُ ؛ مِنَ الإقامةِ على العذرِ الواضحِ إليهِ وإلىٰ خلقِهِ ، معَ حسنِ الثناءِ في العبادِ ، وجميلِ الأثرِ في البلادِ ، وتمامِ النعمةِ ، وتضعيفِ

(١) سورة الصف : (٣) .

الكرامةِ ، وأن يَختِمَ لي ولكَ بالسعادةِ والشهادةِ ، إنَّا إلى اللهِ راغبونَ ، والسلامُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ الطيبينَ الطاهرينَ [1] .

❁ ❁ ❁

مَنْ شاءَ ينظرُ إلىٰ جمالِ البلاغةِ ظاهرةً في صورِها ، مُتبرّجةً في زينةِ ملابسِها وأنواعِ حَلْيِها . . فليطلْ ترديدَ نظرِهِ في فصولِ هٰذا الكتابِ الوافي بجميعِ ما يَحسُنُ لكلِّ إنسانٍ أن يَتأدَّبَ ويأخذَ لهُ منهُ حظاً في أخلاقِهِ وأعمالِهِ ، لا يَخُصُّ ذٰلكَ أميراً دونَ مأمورٍ وإن كانَ وضعُهُ علىٰ نصيحةِ والٍ يَتولّىٰ أمورَ بعضِ العبادِ .

ورأيتُ في « شرحِهِ » كلاماً منقولاً عن بعضِ عقلاءِ مَنْ تَقدَّمَ بهِمُ الزمانُ ، يَشتمِلُ علىٰ آدابٍ ينبغي لِمَنْ يريدُ الاستكمالَ أن يَتفهمَها ويَتأدَّبَ بها ، فوجدتُ تعقيبَهُ بإثباتِ ذٰلكَ ؛ حيثُ كانَ أهمَّ أغراضِ هٰذا الكتابِ تعريفُ طلبةِ العلمِ أنَّ ألزمَ شيءٍ يطلبونَهُ ، وأكبرَ أمرٍ ينبغي أن يحاولوا تحصيلَهُ ؛ لتطيبَ حياتُهُم ، وتجملَ بهِم أوقاتُهُم ، وتَتحلّىٰ بهِم أُمَّتُهُم . . إنَّما هيَ الآدابُ التي يلتئمونَ بها معَ جميعِ طبقاتِ الناسِ ، ويكونُ لهُم معَ كلِّ طبقةٍ منها كلامٌ يَعمُرُ قلوبَهُم ، ويَتصرَّفُ في عقولِهِم ؛ حتىٰ يكونوا منهُم بتلكَ المكانةِ التي صارَتْ غيرَ مأهولةٍ إلَّا بالقليلِ .

فمِنْ ذٰلكَ ما نقلَهُ ابنُ أبي الحديدِ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ « آدابِ ابنِ المُقفَّعِ » قالَ : (لا يكونَنَّ صحبتُكَ للسلطانِ إلَّا بعدَ رياضةٍ منكَ لنفسِكَ علىٰ طاعتِهِم في المكروهِ عندَكَ ، وموافقتِهِم فيما خالفَكَ ، وتقديمِ [2] الأمورِ علىٰ أهوائِهِم دونَ هواكَ ، فإن كنتَ حافظاً إذا ولَّوكَ ، حَذِراً إذا قرَّبوكَ ، أميناً إذا ائتمنوكَ . .

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي النقل عن « شرح نهج البلاغة » (١٧/٣٠ ـ ١١٧) .

(٢) في « شرح نهج البلاغة » (١٧/٧٦ ـ ٧٧) : (تقدير) بدل (تقديم) .

تُعلِّمُهُم وكأنَّكَ تَتعلَّمُ منهُم ، وتُؤدِّبُهُم وكأنَّكَ تَتأدَّبُ بهِم ، وتشكرُ لهُم ولا تُكلِّفْهُم الشكرَ ، ذليلاً إنْ صرموكَ ، راضياً إن أسخطوكَ ، وإلَّا . . فالبعدَ عنهُم كلَّ البعدِ ، والحذرَ منهُم كلَّ الحذرِ .

وإن وجدتَ عنِ السُّلطانِ وصحبتِهِ غنىً . . فاستغنِ عنهُ ؛ فإنَّهُ مَنْ يَخدُمُ السلطانَ حقَّ خدمتِهِ يُخلِّي بينَهُ وبينَ لذَّةِ الدنيا وعملِ الآخرةِ ، ومَنْ يَخدُمُهُ غيرَ حقِّ الخدمةِ . . فقدِ احتملَ وزرَ الآخِرةِ ، وعَرَّضَ نفسَهُ للهلكةِ ، والفضيحةِ في الدنيا ، فإذا صحبتَ السُّلطانَ . . فعليكَ بطولِ الملازمةِ في غيرِ إملالٍ ، وإذا نزلتَ [منهُ] بمنزلِ الثقةِ . . فاعزلْ عنهُ كلامَ المَلَقِ ، ولا تكثرْ لهُ مِنَ الدعاءِ ، ولا تردنَّ عليهِ كلاماً [في حفلٍ] وإن أخطأَ ، فإذا خلوتَ بهِ . . فبصِّرْهُ في رِفْقٍ ، ولا يكونَنَّ طلبُكَ ما عندَهُ بالمسألة ، ولا تَستبطئْهُ وإن أبطأَ ، ولا تُخبرَنَّهُ أنَّ لكَ عليهِ حقّاً ، وأنَّكَ [تعتمدُ] عليهِ ببلاءٍ ، وإنِ استطعتَ ألَّا ينسىٰ حقَّكَ وبلاءَكَ بتجديدِ النصحِ والاجتهادِ . . فافعلْ ، ولا تُعطِيَنَّهُ المجهودَ كلَّهُ مِنْ نفسِكَ في أوَّلِ صحبتِكَ لهُ ، وأعدَّ موضعاً للمزيدِ ، وإن سألَ غيرَكَ شيئاً . . فلا تكنِ المجيبَ .

واعلمْ : أنَّ استلابَكَ الكلامَ خفةٌ فيكَ ، واستخفافٌ منكَ بالسائلِ والمسؤولِ ، فما أنتَ قائلٌ إن قالَ لكَ السائلُ : ما إيَّاكَ سألتُ ؟! أو قالَ المسؤولُ : أجبْ بمجالستِهِ ومحادثتِهِ أيُّهَا المُعجَبُ بنفسِهِ ، والمُستخِفُّ بسلطانِهِ ؟!) (١) .

معنىٰ هٰذهِ الجملةِ الأخيرةِ : أنَّ المسؤولَ يُقرِّعُ المجيبَ الذي لم يُسأَلْ بتفويضِ الجوابِ إليهِ ، وسكوتِهِ هوَ عنهُ ، فلعلَّ المُستعجِلَ لم يكنْ فهمَ الغرضَ ، ولا وصلَ إلىٰ ما يَعلَمُ المسؤولُ ، فهوَ يقولُ لهُ : أجبْ لا بعلمٍ ، بل

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٧٦ ـ ٧٧) .

بسببِ كونِ السُّلطانِ جعلَكَ لهُ جليساً ، وأعدَّكَ لمحادثتِهِ أحياناً ، فإن كانَ ذٰلكَ كافياً في الإجابةِ دونَ علمٍ . . فافعلْ .

❊ ❊

وهٰذهِ الآدابُ التي انتهتْ بهٰذا الفاضلِ إليها المشاهدةُ والتجربةُ ، وأبقاها بالعبارةِ عنها حسنةً لِمَنْ بعدَهُ . . يَستحِقُّ مِنَ الناسِ شكرَها ، ويستدعي مِنَ اللهِ جزيلَ أجرِها ، لا شبهةَ في لزومِها لِمَنْ يريدُ صحبةَ أهلِ القهرِ والاستبدادِ والعظمةِ والكبرياءِ مِنْ ذوي الرئاسةِ ؛ فإنَّ لهُم حدوداً يَحدُّونَها لأنفسِهِم تجبُ رعايتُها ؛ طلباً للسلامةِ منهُم ، وإن كانَ بعضُها لا يَخُصُّ ذٰلكَ المَقامَ ، والاطلاعُ على الأحوالِ المختلفةِ يميزُ لكَ اختلافَ الآدابِ حَسَبَ الهيئاتِ المُتغيِّرةِ ؛ فإنَّ تلكَ الأحوالَ الشديدةَ لا تلزمُ لصحبةِ نبيٍّ ومَنْ سارَ بسيرتِهِ ، أو قاربَ ذٰلكَ .

[نصيحةُ الأميرِ عبدِ الملكِ بن صالحٍ لمعلِّمِ الصِّبيانِ]

ومِنْ ذٰلكَ ما نقلَهُ مِنْ نصيحةِ عبدِ الملكِ بنِ صالحٍ لرجلٍ كانَ عندَهُ مُعلِّمَ صبيانٍ ، فلمَّا وجدَهُ ذا أدبٍ ولطفٍ . . أرادَ أن يتخذَهُ سميراً يأتنسُ بهِ ، وعبدُ الملكِ هٰذا أحدُ الأمراءِ مِنْ بني العباسِ أيامَ الرشيدِ ، وكانَ شهماً فصيحاً ، ذا عزمٍ وحزمٍ ، وكانَ الرشيدُ يَخافُهُ على الملكِ ، فكانَ بذٰلكَ بينَهُما ماجرياتٌ يطلعُكَ عليها التاريخُ ، وهٰذهِ هيَ النصيحةُ : قالَ (١) :

يا عبدَ اللهِ ؛ كنْ على التماسِ الحظِّ بالسكوتِ أحرصَ منكَ على التماسِهِ بالكلامِ ؛ فإنَّهُم قالوا : إذا أعجبَكَ الكلامُ . . فاصمتْ ، وإذا أعجبَكَ الصَّمتُ . . فتكلَّمْ .

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٧٧ ـ ٧٨) .

واعلمْ : أنَّ أصعبَ الملوكِ معاملةً الجبارُ الفطنُ المُتفقِّدُ ؛ فإنِ ابتليتَ بصحبتِهِ . . فاحترسْ ، وإن عُوفِيتَ . . فاشكرِ اللهَ على السلامةِ ؛ فإنَّ السلامةَ أصلُ كلِّ نعمةٍ .

لا تساعدْني علىٰ ما يَقبُحُ بي ، ولا تَردَّنَّ علىٰ خطأً في مجلسٍ ، ولا تُكلِّفْني جوابَ التشميتِ والتهنئةِ ، ودعْ عنكَ : كيفَ أصبحَ الأميرُ ؛ وكيفَ أمسىٰ ، وكلِّمْني بقدرِ ما أستنطقُكَ ، واجعلْ بدلَ التقريظِ لي صوابَ الاستماعِ منِّي .

واعلمْ : أنَّ صوابَ الاستماعِ أحسنُ مِنْ صوابِ القولِ ، وإذا سمعتَني أتحدَّثُ . . فلا يَفوتَنَّكَ منهُ شيءٌ ، وأرني فهمَكَ إيَّاهُ في طَرْفِكَ ووجهِكَ ، فما ظنُّكَ بالملكِ وقد أحلَّكَ محلَّ المُعجَبِ بما يُسمِعُكَ إيَّاهُ ، وأحللتَهُ بمَحَلِّ مَنْ لا تَسمعُهُ منهُ ، وهٰذا يحبطُ إحسانَكَ ، ويُسقِطُ حقَّ حرمتِكَ .

ولا تستدعِ الزيادةَ مِنْ كلامي بما تُظهِرُ مِنِ استحسانِ ما يكونُ منِّي ، فمَنْ أسوأُ حالاً ممَّنْ يَستلِذُّ الملوكَ بالباطلِ (١) ، وذٰلكَ يَدُلُّ علىٰ تهاونِهِ بقدرِ ما أوجبَ اللهُ تعالىٰ مِنْ حقِّهِم .

واعلمْ : أنِّي جعلتُكَ مُؤدِّباً بعدَ أن كنتَ مُعلِّماً ، [وجعلتُكَ] جليساً مُقرَّباً بعدَ أن كنتَ معَ الصبيانِ مباعداً ؛ فمتىٰ لم تَعرِفْ نقصانَ ما خرجتَ منهُ . . لم تَعرِفْ رجحانَ ما دخلتَ فيهِ ، وقد قالوا : مَنْ لم يَعرِفْ سوءَ ما أَولىٰ . . لم يَعرِفْ حسنَ ما أبلىٰ .

في قولِهِ : (فمَنْ أسوأُ حالاً) إيجازٌ ، والمعنىٰ : فإنَّ استدعاءَ الزيادةِ طلبٌ للاستلذاذِ بحديثِ الملكِ ، وهوَ قبيحٌ ، سواءٌ كانَ بحقٍّ أو باطلٍ ، تمويهاً

---

(١) في « شرح نهج البلاغة » (١٧/٧٨) : (يستكذُّ الملوك بالباطل) بدل (يستلذُّ الملوك بالباطل) .

على الملكِ ، لـٰكنْ إذا كانَ بالباطلِ . . كانَتِ الإساءةُ فيهِ فاحشةً ، وهوَ ما فرَّعَهُ بقولِهِ : (فمَنْ أسوأُ حالاً . . .) إلىٰ آخِرِهِ .

[وصيةُ أبرويزَ أحدِ الأكاسرةِ لكاتبِهِ]

ومِنْ ذٰلكَ : ما نقلَهُ مِنْ وصيةِ أبرويزَ أحدِ الأكاسرةِ لكاتبِهِ ؛ وهيَ هـٰذه : قالَ لهُ[1] :

اكتمِ السِّرَّ ، واصدقِ الحديثَ ، واجتهدْ في النصيحةِ ، وعليكَ بالحذرِ ؛ فإنَّ لكَ عليَّ ألَّا أعجلَ عليكَ حتىٰ أستأنيَ لكَ ، ولا أقبلَ فيكَ قولاً حتىٰ أستيقنَ ، ولا أُطمِعَ فيكَ أحداً فتغتالَ .

واعلمْ : أنَّكَ بمنجاةِ رفعةٍ فلا تَحُطَّها ، وفي ظلِّ مملكةٍ فلا تستزيلَنَّهُ .

قاربِ الناسَ مجاملةً مِنْ نفسِك ، وباعدْهُم مسامحةً مِنْ عدوِّكَ ، واقصدْ إلى الجميلِ ازدراعاً لغدِكَ ، وتَنزَّهْ صوناً لمروءتِكَ ، وتَحبَّبْ عندي بما قدرتَ عليهِ .

احذرْ لا تُسرِعَنَّ الألسنةُ عليكَ ، ولا تَقبحَنَّ الأُحدوثةُ عنكَ ، وصُنْ نفسَكَ صونَ الدُّرَّةِ الصافيةِ ، وأخلصْها إخلاصَ الفضةِ البيضاءِ ، وعاتبْها معاتبةَ الحَذِرِ المُشفِقِ ، وحَصِّنْها تحصينَ المدينةِ المنيعةِ .

لا تَدعَنَّ أن ترفعَ إليَّ الصغيرَ ؛ فإنَّه بدلٌ عنِ الكبيرِ ، ولا تَكتمَنَّ عنِّي الكبيرَ ؛ فإنَّهُ ليسَ بشاغلٍ عنِ الصغيرِ ، هَذِّبْ أمورَكَ ثُمَّ القني بها ، وأحكمْ أمرَكَ ثُمَّ راجعْني فيهِ ، ولا تَجترئَنَّ عليَّ فأمتعضَ ، ولا تَنقبِضَنَّ عنِّي فأَتَّهِمَ ، ولا تُمرضَنَّ ما تلقاني بهِ ، ولا تَخدجنَّهُ ، وإذا أفكرتَ فلا تعجلْ ، وإذا كتبتَ فلا تُعذِرْ ، ولا تَستعِنْ بالفضولِ ؛ فإنَّها علاوةٌ على الكفايةِ ، ولا تقصرنَّ عنِ

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٨١ ـ ٨٢) .

التحقيقِ ؛ فإنَّها هجنةٌ بالمقالةِ ، ولا تلبسْ كلاماً بكلامٍ ، ولا تُبعِدَنْ معنىً عن معنىً .

وأكرمْ لي كتابَكَ عن ثلاثٍ : خضوعٍ يَستخِفُّهُ ، وانتشارٍ يهجنُهُ ، ومعانٍ تُعقَدُ به ، واجمعِ الكثيرَ ممَّا تريدُ في القليلِ ممَّا تقولُ ، وليكنْ بسطةُ كلامِكَ علىٰ كلامِ السُّوقةِ كبسطةِ الملكِ الذي تُحدِّثُهُ على الملوكِ .

لا يكنْ ما نلتَهُ عظيماً ، وما تتكلَّمُ به صغيراً ؛ فإنَّما كلامُ الكاتبِ علىٰ مِقدارِ الملكِ ، فاجعلْهُ عالياً كعُلُوِّهِ ، وفائقاً [كتفوُّقِهِ] ؛ فإنَّما جماعُ الكلامِ كلِّهِ خصالٌ أربعٌ ، سؤالُكَ الشيءَ ، وسؤالُكَ عنِ الشيءِ ، وأمرُكَ بالشيءِ ، وخبرُكَ عنِ الشيءِ ، فهٰذهِ الخصالُ دعائمُ المقالاتِ ، إنِ التُمِسَ إليها خامسٌ . . لم يُوجَدْ ، وإن نُقِصَ منها واحدٌ . . لم تَتِمَّ ، فإذا أمرتَ . . فأحكمْ ، وإذا سألتَ . . فأوضحْ ، وإذا طلبتَ . . فأسمحْ ، وإذا أخبرتَ . . فحَقِّقْ ؛ فإنَّكَ إذا فعلتَ ذٰلكَ . . أخذتَ بجراثيمِ القولِ كلِّهِ ، فلم تَشتبِهْ عليكَ واردةٌ ، ولم تُعجِزْكَ صادرةٌ .

أثبتْ في دواوينِكَ ما أخذتَ ، وأحصنْ فيها ما أخرجتَ ، وتَيقَّظْ لِمَا تعطي ، وتَجرَّدْ لِمَا تأخذُ ، ولا يَغلِبَنَّكَ النسيانُ عنِ الإحصاءِ ، ولا الأناةُ عنِ التقدُّمِ ، ولا تُخرِجَنَّ وزنَ قيراطٍ في غيرِ حقٍّ ، ولا تُعظِّمَنَّ إخراجَ الألوفِ الكثيرةِ في الحقِّ ، وليكنْ ذٰلكَ كلُّهُ عن مؤامرتي .

[وصيةُ أكثمَ بنِ صيفيٍّ لقومِهِ]

ومِنْ ذٰلكَ : ما نقلَهُ مِنْ وصيةِ أكثمَ بنِ صيفيٍّ ـ أحدِ حكماءِ العربِ في الجاهليةِ ـ لقومِهِ مِنْ تميمٍ ؛ وهيَ هٰذهِ : قالَ [١] :

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/١٢٠ ـ ١٢١) .

يا بني تميمٍ ؛ لا يَفوتَنَّكُم وعظي إن فاتَكُمُ الدهرُ بنفسي ، إنَّ بينَ حَيْزومِي وصدري لَكلاماً لا أجدُ لهُ مواقعَ إلَّا أسماعَكُم ، ولا مَقارَّ إلَّا قلوبَكُم ، فتَلقَّوهُ بأسماعٍ مصغيةٍ ، وقلوبٍ واعيةٍ . . تَحمَدُوا مغبَّتَهُ : الهوىٰ يَقظانُ ، والعقلُ راقدٌ ، والشَّهواتُ مُطلَقةٌ ، والحزمُ معقولٌ ، والنفسُ مهملةٌ ، والرويَّةُ مقيدةٌ ، ومِنْ جهةِ التواني وتركِ الروَّيةِ يتلفُ الحزمُ ، ولن يَعدَمَ المشاورُ مرشداً ، والمُستبدُّ برأيِهِ موقوفٌ علىٰ مداحضِ الزللِ ، ومَنْ سَمَّعَ . . سُمِّعَ بهِ ، ومصارعُ الرجالِ تحتَ بروقِ الطَّمعِ ، ولوِ اعتبرتَ مواقعَ المِحَنِ ما وُجِدَتْ إلَّا في مقاتلِ الكرامِ ، وعلى الاعتبارِ طريقُ الرشادِ ، ومَنْ سلكَ الجددَ . . أمِنَ العثارَ ، ولن يَعدَمَ الحسودُ أن يُتعِبَ قلبَهُ ، ويَشغلَ فكرَهُ ، ويؤرثَ غيظَهُ ، ولا تجاوزَ مَضرَّتُهُ نفسَهُ .

يا بني تميمٍ ؛ الصَّبرُ علىٰ جرعِ الحلمِ أعذبُ مِنْ جنىٰ ثمرِ الندامةِ ، ومَنْ جعلَ عِرْضَهُ دونَ مالِهِ . . استَهدَفَ للذمِّ ، وكَلْمُ اللسانِ أنكىٰ مِنْ كَلْمِ السِّنانِ ، والكلمةُ مرهونةٌ ما لم تنجُمْ مِنَ الفمِ ، فإذا نجمَتْ . . فهيَ أسدٌ مُحرَّبٌ ، أو نارٌ تَلَهَّبُ ، ورأيُ الناصحِ اللبيبِ دليلٌ لا يجورُ ، ونَفاذُ الرأيِ في الحربِ أجدىٰ مِنَ الطَّعنِ والضَّربِ .

[نصيحةُ أردشيرَ بنِ بابكَ إلى الملوكِ مِنْ بعدِهِ]

ومنْ ذٰلكَ : ما نقلَهُ مِنْ كتابِ أولِ ملوكِ الأكاسرةِ بعدَ ملوكِ الطَّوائفِ ، ينصحُ بهِ مَنْ يجيءُ بعدَهُ مِنَ الملوكِ ، وفيهِ مِنَ الفوائدِ السياسيةِ ما لا يَخُصُّ الملوكَ دونَ عامَّةِ الناسِ ؛ وهوَ هٰذا : قالَ [1] :

رشادُ الوالي خيرٌ للرعيةِ مِنْ خصبِ الزمانِ ، الملكُ والدِّينِ توءمانِ ، لا

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٢٤/١٧ ـ ١٣٠) .

قوامَ لأحدِهِما إلَّا بصاحبِهِ ، فالدِّينُ أُسُّ المُلْكِ وعمادُهُ ، ثمَّ صارَ المَلِكُ حارسَ الدِّينِ ، فلا بدَّ للملكِ مِنْ أُسِّهِ ، ولا بدَّ للدِّينِ مِنْ حارسِهِ ، فأمَّا ما لا حارسَ لهُ . . فضائعٌ ، وأمَّا ما لا أُسَّ لهُ . . فمهدومٌ .

إنَّ رأسَ ما أخافُ عليكُم مبادرةُ السفلةِ إيَّاكم إلىٰ دراسةِ الدِّينِ وتأويلِهِ والتفقُّهِ فيهِ ، فتحملُكُم الثقةُ بقُوَّةِ الملكِ على التهاونِ بهِم ، فتحدثُ في الدِّينِ رئاساتٌ منتشراتٌ سرّاً بمَنْ قد وترتُم وجفوتُم ، وحرمتُم وأخفتُم وصَغَّرتُم مِنْ سفلةِ الناسِ والرعيةِ وحشوِ العامَّةِ ، ثمَّ لا تنشبُ تلكَ الرئاساتُ أن تُحدِثَ خَرْقاً في الملكِ ، ووهناً في الدولةِ .

واعلموا : أنَّ سلطانَكُم علىٰ أجسادِ الرعيةِ ، لا علىٰ قلوبِها ، وإن غلبتُمُ الناسَ علىٰ ما في أيديهِم . . فلن تغلبوهُم علىٰ ما في عقولِهِم وآرائِهِم ومكايدِهِم .

واعلموا : أنَّ العاقلَ المحرومَ سالٌّ عليكُم لسانَهُ ، وهوَ أقطعُ سيفَيهِ ، وأنَّ أشدَّ ما يضرُّ بكُم مِنْ لسانِهِ ما صرفَ الحيلةَ فيهِ إلى الدِّينِ ، فكانَ [للدنيا] يحتجُّ ، وللدِّينِ فيما يظهرُ يَتعصَّبُ ، فيكونُ للدِّينِ [بكاؤُهُ] وإليهِ [دعاؤُهُ] ، ثمَّ هوَ أوجدُ للتابعينَ والمُصدِّقينَ والمناصحينَ والموازرينَ ؛ لأنَّ تعصُّبَ الناسِ مُوكَّلٌ بالملوكِ ، ورحمتُهُم ومَحبتُهُم مُوكَّلةٌ بالضُّعفاءِ المغلوبينَ ، فاحذروا هـٰذا المعنىٰ كلَّ الحذرِ .

واعلموا : أنَّهُ ليسَ ينبغي للملكِ أن يَعرِفَ للعبادِ والنُّسَّاكِ بأنْ يكونوا أَولىٰ منهُ بالدِّينِ ، ولا أحدبَ عليهِ ولا أغضبَ لهُ ، وأن يخليَ النُّسَّاكَ والعُبَّادَ مِنَ الأمرِ والنهيِ في نسكِهِم ودينِهِم ؛ فإنَّ خروجَ النُّسَّاكِ وغيرِهِم مِنَ الأمرِ والنهيِ عيبٌ على الملوكِ وعلى المملكةِ ، وثُلْمةٌ بينةُ الضَّررِ على الملكِ وعلىٰ مَنْ بعدَهُ .

واعلموا : أنَّهُ قد مضىٰ قبلَنا مِنْ أسلافِنا ملوكٌ كانَ الملكُ منهُم يَتعهَّدُ الحمايةَ بالتفتيشِ ، والجماعةَ بالتفصيلِ ، والفراغَ بالأشغالِ . . كتعهُّدِ جسدِهِ بقصِّ فضولِ الشعرِ والظُّفرِ ، وغسلِ الدَّرَنِ والغمصِ ، ومداواةِ ما ظهرَ مِنَ الأدواءِ وما بطنَ ، وقد كانَ مِنْ أولـٰئكَ الملوكِ مَنْ صحَّةُ ملكِهِ أحبُّ إليهِ مِنْ صحَّةِ جسدِهِ ، فتتابعَتْ تلكَ الأملاكُ بذٰلكَ ، كأنَّهُم ملكٌ واحدٌ ، وكأنَّ أرواحَهُم روحٌ واحدةٌ ، يُمكِّنُ أولُهُم لآخِرِهِم ، ويُصدِّقُ آخِرُهُم أوَّلَهُم ، تَجتمِعُ أنباءُ أسلافِهِم ومواريثُ آرائِهِم وثمراتُ عقولِهِم عندَ الباقي منهُم بعدَهُم ، وكأنَّهُم جلوسٌ معَهُ ، يُحدِّثونَهُ ويشاورونَهُ ، حتىٰ كانَ علىٰ رأسِ دارا بنِ دارا ما كانَ مِنْ غلبةِ الإسكندرِ الروميِّ علىٰ ما غلبَ عليهِ مِنْ ملكِهِ ، وكانَ إفسادُهُ أمرَنا ، وتفرقتُهُ جماعتَنا ، وتخريبُهُ عمرانَ مملكتِنا . . أبلغَ لهُ فيما أرادَ مِنْ سفكِ دمائِنا ، فلمَّا أذنَ اللهُ عزَّ وجلَّ في جمعِ مملكتِنا ، وإعادةِ أمرِنا . . كانَ مِنْ بعثِهِ إيَّانا ما كانَ ، وبالاعتبارِ يُتَّقَى العثارُ ، والتجارِبُ الماضيةُ دُستورٌ يرجعُ إليهِ في الحوادثِ الآتيةِ .

واعلموا : أنَّ طباعَ الملوكِ علىٰ غيرِ طباعِ الرعيةِ والسُّوقةِ ، فإنَّ الملكَ يطيفُ بهِ العزُّ والأمنُ والسرورُ والقدرةُ علىٰ ما يريدُ ، والأنفةُ والجراءةُ والطيشُ والبطرُ ، وكلَّما ازدادَ في العمرِ تَنفُّساً ، وفي الملكِ سلامةً . . ازدادَ مِنْ هـٰذهِ الطَّبائعِ والأخلاقِ ، حتىٰ يسلمَهُ ذٰلكَ إلىٰ سُكْرِ السُّلطانِ الذي هوَ أشدُّ مِنْ سُكْرِ الشرابِ ، فينسى النَّكَباتِ والعَثَراتِ ، والغِيرَ والدَّوائرَ ، وفحشَ تَسلُّطِ الأيامِ ، ولؤمَ غلبةِ الدَّهرِ ، فيرسلُ يدَهُ بالفعلِ ، ولسانَهُ بالقولِ ، وعندَ حسنِ الظَّنِّ بالأيَّامِ تَحدُثُ الغِيَرُ ، وتزولُ النعمُ ، وقد كانَ مِنْ أسلافِنا وقُدماءِ ملوكِنا مَنْ يُفكِّرهُ عِزُّهُ الذُّلَّ ، وأمنُهُ الخوفَ ، وسرورُهُ الكآبةَ ، وقدرتُهُ المَعْجَزَةَ ، وذٰلكَ هوَ الرجلُ الكاملُ ، قد جمعَ بهجةَ الملوكِ ، وفكرةَ السُّوقةِ ، ولا كمالَ إلَّا في جمعِهِما .

واعلموا : أنَّكُم ستُبلونَّ على الملكِ بالأزواجِ والأولادِ والقرباءِ والوزراءِ والأخدانِ والأنصارِ والأعوانِ والمُتقرّبينَ والنُّدماءِ والمُضحِكينَ ، وكلُّ هٰؤلاءِ ـ إلَّا قليلاً ـ أن يأخذَ لنفسِهِ أحبُّ إليهِ مِنْ أن يعطيَ منها ، وإنَّما عملُهُ سوقٌ ليومِهِ ، وذخيرةٌ لغدِهِ ، فنصيحتُهُ للملوكِ فضلُ نصيحتِهِ لنفسِهِ ، وغايةُ الصَّلاحِ عندَهُ صلاحُ نفسِهِ ، وغايةُ الفسادِ عندَهُ فسادُها ، يقيمُ للسُّلطانِ سوقَ المَودَّةِ ما أقامَ لهُ سوقَ الأرباحِ والمنافعِ .

إذا استوحشَ الملكُ مِنْ ثقاتِهِ . . أطبقَتْ عليهِ ظُلَمُ الجهالةِ .

أخوفُ ما يكونُ العامَّةُ . . أخوفُ ما يكونُ الوزراءُ .

واعلموا : أنَّ كثيراً مِنْ وزراءِ الملوكِ مَنْ يحاولُ استبقاءَ دولتِهِ وأيامِهِ بإيقاعِ [الاضطرابِ] والخبطِ في أطرافِ مملكةِ الملكِ ؛ ليحتاجَ الملكُ إلىٰ رأيِهِ وتدبيرِهِ ، فإذا عرفتُم ذٰلكَ مِنْ وزيرٍ مِنْ وزرائِكُم . . فاعزلوهُ ؛ فإنَّهُ يُدخِلُ الوهنَ والنقصَ على الملكِ والرعيةِ لصلاحِ حالِ نفسِهِ ، ولا تقومُ نفسُهُ بهٰذهِ النفوسِ كلِّها .

واعلموا : أنَّ ذهابَ الدولةِ يَنشأُ مِنْ قِبَلِ إهمالِ الرعيةِ بغيرِ أشغالٍ معروفةٍ ، ولا أعمالٍ معلومةٍ ، فإذا نشأَ الفراغُ . . تَولَّدَ منهُ النظرُ في الأمورِ ، والفكرُ في الفروعِ والأصولِ ، فإذا نظروا في ذٰلكَ . . نظروا فيهِ بطباعٍ مختلفةٍ ، فتختلفُ بهِمُ المذاهبُ ، ويَتولَّدُ مِنِ اختلافِ مذاهبِهِم تعاديهِم وتضاغُنُهُم ، وهُم معَ اختلافِهِم هٰذا متفقونَ ومجتمعونَ علىٰ بغضِ الملوكِ ، فكلُّ صنفٍ منهُم إنَّما يجري إلىٰ فجيعةِ الملكِ بملكِهِ ، ولٰكنَّهُم لا يجدونَ سُلَّماً إلىٰ ذٰلكَ أوثقَ مِنَ الدِّينِ والناموسِ ، ثمَّ يَتولَّدُ مِنْ تعاديهِم أنَّ الملكَ لا يستطيعُ جمعَهُم علىٰ أهواءٍ واحدةٍ ، فإذا انفردَ باختصاصِ بعضِهِم . . صارَ عدوَّ بقيَّتِهِم .

وفي طباعِ العامَّةِ استثقالُ الولاةِ وملالُهُم ، والنفاسةُ عليهِم ، والحسدُ

لهُم ، وفي الرعيَّةِ المحرومُ والمضروبُ والمُقامُ عليهِ الحدودُ ، ويَتولَّدُ مِنْ كثرتِهِم معَ عداوتِهِم أن يجبنَ الملكُ عنِ الإقدامِ عليهِم ، فإنَّ في إقدامِ الملكِ على الرعيةِ كلِّها كافةً تغريراً بملكِهِ ، ويَتولَّدُ مِنْ جبنِ الملوكِ عنِ الرعيةِ استعجالُهُم عليهِ وهُم أقوىٰ عدوٍّ لهُ وأخلقُهُ بالظَّفرِ ؛ لأنَّهُ حاضرٌ معَ الملكِ في دارِ ملكِهِ ، فمَنْ أفضىٰ إليهِ الملكُ بعدي . . فلا يكونَنَّ بإصلاحِ جسدِهِ أشدَّ اهتماماً منهُ بهٰذهِ الحالِ ، ولا يكونَنَّ لشيءٍ مِنَ الأشياءِ أكرهَ وأنكرَ منهُ لرأسٍ صارَ ذنباً ، وذنبٍ صارَ رأساً ، ويدٍ مشغولةٍ صارَتْ فارغةً ، أو غنيٍّ صارَ فقيراً ، أو عاملٍ مصروفٍ ، أو أميرٍ معزولٍ .

واعلموا : أنَّ سياسةَ الملكِ وحراستَهُ ألَّا يكونَ ابنُ الكاتبِ إلَّا كاتباً ، وابنُ الجنديِّ إلَّا جنديّاً ، وابنُ التاجرِ إلَّا تاجراً ، وهٰكذا في جميعِ الطَّبقاتِ ؛ فإنَّهُ يَتولَّدُ مِنْ تَنقُّلِ الناسِ عن حالاتِهِم أن يلتمسَ كلُّ امرئٍ منهُم فوقَ مرتبتِهِ ، فإذا انتقلَ . . أوشكَ أن يرىٰ شيئاً أرفعَ ممَّا انتقلَ إليهِ ، فيحسدَهُ وينافسَهُ ، وفي ذٰلكَ مِنَ الضَّررِ المُتولِّدِ ما لا خفاءَ بهِ .

فإن عَجَزَ ملكٌ منكُم عن إصلاحِ رعيَّتِهِ كما أوصيناهُ . . فلا يكنْ للقميصِ القَمِلِ أسرعَ خلعاً منهُ لِمَا لبسَ مِنْ قميصِ ذٰلكَ الملكِ .

واعلموا : أنَّهُ ليسَ ملكٌ إلَّا وهوَ كثيرُ الذِّكرِ لِمَنْ يلي الأمرَ بعدَهُ ، ومِنْ إفسادِ أمرِ الملكِ ذكرُهُ ولاةَ العهودِ ؛ فإنَّ في ذٰلكَ ضروباً مِنَ الضَّررِ ، وإنَّ ذٰلكَ دخولُ عداوةٍ بينَ الملكِ ووليِّ عهدِهِ ؛ لأنَّهُ تطمحُ عيناهُ إلى الملكِ ، ويصيرُ لهُ أحبابٌ وأخدانٌ يَمنُّونَهُ ذٰلكَ ، ويَستبطئونَ موتَ الملكِ ، ثمَّ إنَّ الملكَ يَتوحَّشُ منهُ ، وتَنساقُ الأمورُ إلىٰ هلاكِ أحدِهِما .

ولٰكنْ لينظرِ الوالي منكُم للهِ تعالىٰ ، ثمَّ لنفسِهِ ، ثمَّ للرعيةِ ، ويَنتخِبْ وليّاً للعهدِ مِنْ بعدِهِ ، ولا يُعلِمُهُ ذٰلكَ ولا أحداً مِنَ الخلقِ ، قريباً كانَ أو بعيداً ،

ثمَّ يكتبُ اسمَهُ في أربعِ صحائفَ ، ويَختِمُها بخاتمِهِ ، ويَضعُها عندَ أربعةِ نفرٍ مِنْ أعيانِ أهلِ المملكةِ ، ثمَّ لا يكونُ منهُ في سرِّهِ وعلانيتِهِ أمرٌ يُستدَلُّ بهِ علىٰ وليِّ عهدِهِ مَنْ هوَ ، لا في إدناءٍ وتقريبٍ يُعرَفُ بهِ ، ولا في إقصاءٍ وإعراضٍ يُسترابُ لهُ ، وليتقِ ذٰلكَ في اللحظةِ والكلمةِ .

فإذا هلكَ الملكُ . . جُمِعَتْ تلكَ الصَّحائفُ إلى النسخةِ التي تكونُ في خزانةِ الملكِ ، فتُفَضُّ جميعاً ، ثمَّ يُنَوَّهُ حينئذٍ باسمِ ذٰلكَ الرجلِ ، فيلقى المُلكَ إذا لقيَهُ بحداثةِ عهدٍ بحالِ السُّوقةِ ، ويَلبَسُهُ إذا لبسَهُ ببصرِ السُّوقةِ وسمعِها ، فإنَّ في معرفتِهِ بحالِهِ قبلَ إفضاءِ الملكِ إليهِ سكراً تُحدِثُهُ عندَهُ ولايةُ العهدِ ، ثمَّ يلقاهُ المُلكُ فيزيدُهُ سكراً إلىٰ سكرِهِ ، فيعمىٰ ويصمُّ ، هٰذا معَ ما لا بدَّ أن يلقاهُ أيامَ ولايةِ العهدِ مِنْ حيلِ العُتاةِ ، وبغيِ الكذَّابينَ ، وترقيةِ النمَّامينَ ، وإيغارِ صدرِهِ ، وإفسادِ قلبِهِ علىٰ كثيرٍ مِنْ رعيَّتِهِ وخواصِّ دولتِهِ ، وليسَ ذٰلكَ بمحمودٍ ولا صالحٍ .

واعلموا : أنَّهُ ليسَ للملكِ أن يَحلِفَ ، لأنَّهُ لا يَقدِرُ أحدٌ على استكراهِهِ ، وليسَ لهُ أن يغضبَ ؛ لأنَّهُ قادرٌ ، والغضبُ لقاحُ الشرِّ والندامةِ ، وليسَ لهُ أن يعبثَ ويلعبَ ؛ لأنَّ اللعبَ والعبثَ مِنْ عملِ الفراغِ ، وليسَ لهُ أن يفرغَ ؛ لأنَّ الفراغَ مِنْ أمرِ السُّوقةِ ، وليسَ لهُ أن يحسدَ أحداً إلَّا علىٰ حسنِ التدبيرِ ، وليسَ لهُ أن يَخافَ ؛ لأنَّهُ لا يدَ فوقَ يدِهِ .

واعلموا : أنَّكُم لن تَقدِروا علىٰ أن تَختِموا أفواهَ الناسِ مِنَ الطَّعنِ والإزراءِ عليكُم ، ولا قدرةَ لكُم علىٰ أن تجعلوا القبيحَ مِنْ أفعالِكُم حسناً ، فاجتهدوا في أن تَحسُنَ أفعالُكُم كلُّها وألَّا تجعلوا للعامَّةِ إلى الطَّعنِ عليكُم سبيلاً .

واعلموا : أنَّ لباسَ الملكِ ومطعمَهُ مُقارِبٌ للباسِ السُّوقةِ ومطعمِهِم ، وليسَ فضلُ الملكِ على السُّوقةِ إلَّا بقدرتِهِ على اقتناءِ المحامدِ واستفادةِ

المكارمِ ؛ فإنَّ الملكَ إذا شاءَ . . أحسنَ ، وليسَ كذٰلكَ السُّوقةُ .

واعلموا : أنَّ لكلِّ ملكٍ بطانةً ، ولكلِّ رجلٍ مِنْ بطانتِهِ بطانةً ، ثمَّ لكلِّ امرئٍ مِنْ بطانةِ البطانةِ بطانةً ، حتىٰ يَجتمِعَ في ذٰلكَ أهلُ المملكةِ ، فإذا أقامَ الملكُ بطانتَهُ علىٰ حالِ الصَّوابِ . . أقامَ كلُّ امرئٍ منهُم بطانتَهُ علىٰ مثلِ ذٰلكَ ، حتىٰ يَجتمِعَ على الصَّلاحِ عامَّةُ الرعيةِ .

احذروا باباً واحداً طالَما أمنتُهُ فضرَّني ، وحَذِرْتُهُ فنفعَني ، احذروا إفشاءَ السرِّ بحضرةِ الصِّغارِ مِنْ أهليكُم وخدمِكُم ؛ فإنَّهُ ليسَ يَصغُرُ واحدٌ منهُم عن حملِ ذٰلكَ السرِّ كاملاً لا يتركُ منهُ شيئاً حتىٰ يَضعَهُ حيثُ تكرهونَ ؛ إما سقطاً أو غشّاً .

واعلموا : أنَّ في الرعيةِ صنفاً أتَوُا الملوكَ مِنْ قبلِ النصائحِ لهُم ، والتمسوا إصلاحَ منازلِهِم بإفسادِ منازلِ الناسِ ، وهُم أعداءُ الملوكِ ، ومَنْ عادى الملوكَ والناسَ كلَّهُم . . فقد عادىٰ نفسَهُ .

واعلموا : أنَّ الدَّهرَ حاملُكُم علىٰ طبقاتٍ ؛ فمنها حالُ السَّخاءِ حتىٰ يدنوَ أحدُكُم مِنَ السَّرفِ ، ومنها حالُ التقديرِ حتىٰ يدنوَ مِنَ البخلِ ، ومنها حالُ الأناةِ حتىٰ يدنوَ مِنَ البلادةِ ، ومنها حالُ انتهازِ الفرصةِ حتىٰ يدنوَ مِنَ الخفَّةِ ، ومنها حالُ الطَّلاقةِ في اللسانِ حتىٰ يدنوَ مِنَ الهذرِ ، ومنها حالُ الأخذِ بحكمةِ الصَّمتِ حتىٰ يدنوَ مِنَ العِيِّ ، فالملكُ منكم جديرٌ أن يبلغَ مِنْ كلِّ طبقةٍ في محاسنِها حدَّها ، فإذا وقفَ عليهِ . . ألجمَ نفسَهُ عمَّا وراءَهُ .

واعلموا : أنَّ ابنَ الملكِ وأخاهُ وابنَ عمِّهِ يقولُ : كدتُ أكونُ ملكاً ، وبالحريِّ ألَّا أموتَ حتىٰ أكونَ ملكاً ، فإذا قالَ ذٰلكَ . . قالَ ما لا يَسُرُّ الملكَ ، وإن كتمَهُ . . فالداءُ في كلِّ مكتومٍ ، وإذا تَمنَّىٰ ذٰلكَ . . جعلَ الفسادَ سُلَّماً إلى الصَّلاحِ ، ولم يكنِ الفسادُ سُلَّماً إلىٰ صلاحٍ قطُّ .

وقد رسمتُ لكُم مثالاً ؛ اجعلوا المُلكَ لا ينبغي إلَّا لأبناءِ الملوكِ مِنْ بناتِ عمومتِهِم ، ولا يَصلُحُ مِنْ أولادِ بناتِ العمّ إلَّا كاملٌ غيرُ سخيفِ العقلِ ، ولا عازبِ الرأيِ ، ولا ناقصِ الجوارحِ ، ولا مطعونٍ عليهِ في الدِّينِ ، فإنَّكُم إذا فعلتُم ذٰلكَ . . قلَّ طُلَّابُ المُلْكِ ، وإذا قَلَّ طُلَّابُهُ . . استراحَ كلُّ امرئٍ إلىٰ ما يليهِ ، ونزعَ إلىٰ حدٍّ يليهِ ، وعرفَ حالَهُ ، ورضيَ معيشتَهُ ، واستطابَ زمانَهُ[(١)] .

وحيثُ جرىٰ ذكرُ الإسكندرِ وتفرقتُهُ مملكةَ فارسَ بينَ أبناءِ الملوكِ الذين قيلَ لهُم : ملوكُ الطَّوائفِ ، وكانَ ملكُهُم فاصلاً بينَ سلسلتَي الملوكِ مِنَ الفُرْسِ ، آخِرُ أولاهُما دارا بن دارا ، وأولُ الثانية أردشيرُ . . فلا بأسَ أن نُثبِتَ في هٰذا الموضعِ كتابَ الإسكندرِ إلىٰ شيخِهِ الحكيمِ أرسطو ؛ يَستشيرُهُ فيما يفعلُ بأبناءِ الملوكِ : أيقتلُهُم أم يبقيهِم ، وجوابَ الحكيمِ لهُ عن ذٰلكَ .

[كتابُ الإسكندرِ إلى الحكيمِ أرسطو]

وهٰذِهِ صورةُ كتابِ الإسكندرِ : قالَ[(٢)] :

عليكَ أيُّها الحكيمُ منَّا السلامُ ، **أمَّا بعدُ** : فإنَّ الأفلاكَ الدائرةَ والعللَ السماويةَ وإن كانَتْ أسعدَتْنا بالأمورِ التي أصبحَ الناسُ لنا بها دائنينَ . . فإنَّا جِدُّ واجدينَ لمَسِّ الاضطرارِ إلىٰ حكمتِكَ ، غيرَ جاحدينَ لفضلِكَ ، والإقرارِ بمنزلتِكَ ، والاستنامةِ إلىٰ مشورتِكَ ، والاقتداءِ برأيِكَ ، والاعتمادِ لأمرِكَ وفهمِكَ ؛ لِمَا بلونا مِنْ إجداءِ ذٰلكَ علينا ؛ وذُقنا مِنْ جنىٰ منفعتِهِ ، حتىٰ صارَ ذٰلكَ بنجوعِهِ فينا وترسُّخِهِ في أذهانِنا كالغذاءِ لنا ، فما ننفكُّ نعولُ عليهِ ،

---

(١) إلىٰ هنا ينتهي النقل عن « شرح نهج البلاغة » .

(٢) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٥٥ ـ ٥٦) .

ونَستمِدُّ منهُ استمدادَ الجداولِ مِنَ البحورِ ، وتعويلَ الفروعِ على الأصولِ ، وقُوَّةُ الأشكالِ بالأشكالِ .

وقد كانَ ممَّا سبقَ إلينا مِنَ النصرِ والفَلْجِ ، وأُتيحَ لنا مِنَ الظَّفَرِ والقهرِ ، وبلغنا في العدوّ مِنَ النكايةِ والبطشِ ما يَعجِزُ القولُ عن وصفِهِ ، ويَقصُرُ شكرُ المُنعِمِ عن موقعِ الإنعامِ بهِ ، وكانَ مِنْ ذٰلكَ أن جاوزنا أرضَ سوريةَ والجزيرةَ إلىٰ بابلَ وأرضِ فارسَ ، فلمَّا حللنا بعَقوةِ أهلِها وساحةِ بلادِهِم . . لم يكنْ إلَّا ريثَما تَلقَّانا نفرٌ منهُم برأسِ ملكِهِم هديَّةً إلينا ، وطلباً للحظوةِ عندَنا ، فأمرنا بصلبِ مَنْ جاءَ بهِ وشهرتِهِ ؛ لسوءِ بلائِهِ ، وقِلَّةِ ارعوائِهِ ووفائِهِ .

ثمَّ أمرنا بجمعِ مَنْ كانَ هناكَ مِنْ أولادِ ملوكِهِم وأحرارِهِم وذوي الشَّرفِ منهُم ، فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامُهُم وأحلامُهُم ، حاضرةً ألبابُهُم وأذهانُهُم ، رائعةً مناظرُهُم ومناطقُهُم ، دليلاً علىٰ أنَّ ما يظهرُ مِنْ رُوائِهِم ومنطقِهِم أنَّ وراءَهُ مِنْ قُوَّةِ أيديهِم وشدَّةِ نجدتِهِم وبأسِهِم ما لم يكنْ ليكونَ معَهُ لنا سبيلٌ إلىٰ غلبتِهِم وإعطائِهِم بأيديهِم لولا أنَّ القضاءَ أدالَنا منهُم ، وأظفرَنا بهِم ، وأظهرَنا عليهِم ، ولم نرَ بعيداً مِنَ الرأيِ في أمرِهِم أن نستأصلَ شأفتَهُم ونَجتَثَّ أصلَهُم ونُلحِقَهُم بمَنْ مضىٰ مِنْ أسلافِهِم ؛ لتسكنَ القلوبُ بذٰلكَ إلى الأمنِ مِنْ جرائرِهِم وبوائقِهِم ، فرأينا ألَّا نعجلَ بإسعافٍ بادئَ الرأيِ في قتلِهِم دونَ الاستظهارِ عليهِ بمشورتِكَ فيهِم ، فارفعْ إلينا رأيَكَ فيما استشرناكَ فيهِ بعدَ صحَّتِهِ عندَكَ ، وتقليبِكَ إيَّاهُ بجليِّ نظرِكَ ، وسلامٌ لأهلِ السلامِ ، فليكنْ علينا وعليكَ .

[جوابُ الحكيمِ أرسطو إلى الإسكندرِ]

وهٰذهِ صورةُ جوابِ الحكيمِ إلى الملكِ : قالَ [١] :

---

(١) انظر « شرح نهج البلاغة » (١٧/٥٦ ـ ٥٨) .

لملكِ الملوكِ وعظيمِ العظماءِ ، الإسكندرِ المُؤيَّدِ بالنصرِ على الأعداءِ ، المُهدىٰ لهُ الظَّفَرُ بالملوكِ ، مِنْ أصغرِ عبيدِهِ وأقلِّ خولِهِ أرسطو البَخُوعِ بالسجودِ والتذلُّلِ في السلامِ والإذعانِ في الطَّاعةِ .

أمَّا بعدُ : فإنَّهُ لا قُوَّةَ بالمَنطِقِ وإنِ احتشدَ الناطقُ فيهِ ، واجتهدَ في تثقيفِ معانيه ، وتأليفِ حروفِهِ ومبانيهِ . . على الإحاطةِ بأقلِّ ما تنالُهُ القدرةُ مِنْ بسطةِ عُلُوِّ الملكِ ، وسُمُوِّ ارتفاعِهِ عن كلِّ قولٍ ، وإبرازِهِ عن كلِّ وصفٍ ، وقد كانَ تَقرَّرَ عندي مِنْ مُقدِّماتِ إعلامِ فضلِ الملكِ في صهلةِ سبقِهِ ، وبروزِ شأوِهِ ، ويُمنِ نقيبتِهِ ؛ مذ أَدَّتْ إليَّ حاسَّةُ بصري صورةَ شخصِهِ ، وأطربَ في حسنِ سمعِي صوتُ لفظِهِ ، ووقعَ وهمي علىٰ تعقُّبِ نجاحِ رأيِهِ ، أيامَ كنتُ أُؤدِّي إليهِ مِنْ تكلُّفِ تعليمي إيَّاهُ ما أصبحتُ قاضياً علىٰ نفسي بالحاجةِ إلىٰ تعلُّمِهِ منهُ ، ومهما يكنْ منِّي إليهِ في ذٰلكَ . . فإنَّما هوَ عَقلٌ مردودٌ إلىٰ عقلِهِ ، مستنبطةُ أواليهِ وتواليهِ مِنْ علمِهِ وحكمتِهِ .

وقدْ جلَّىٰ إليَّ كتابُ الملكِ ومخاطبتُهُ إيَّايَ ومسألتُهُ عمَّا لا يَتخالجُني الشكُّ في أنَّ لقاحَ ذٰلكَ وإنتاجَهُ مِنْ عندِهِ ، فعنهُ صدرَ ، وعليهِ وردَ ، وأنا فيما أشيرُ بهِ على الملكِ وإنِ اجتهدتُ فيهِ واحتشدتُ لهُ وتجاوزتُ حدَّ الوسعِ والطاقةِ في استنظافِهِ واستقصائِهِ . . كالعدمِ معَ الوجودِ ، وما لا يَتجزَّأُ في جنبِ معظمِ الأشياءِ ، ولـٰكنِّي غيرُ ممتنعٍ مِنْ إجابةِ الملكِ إلىٰ ما سألَ معَ علمي ويقيني بعظيمِ غناهُ عنِّي ، وشدَّةِ فاقتي إليهِ ، وأنا رادٌّ إلى الملكِ ما أكتسبُهُ منهُ ، ومشيرٌ عليهِ بما أخذتُهُ منهُ ؛ فقائلٌ لهُ :

إنَّ لكلِّ تربةٍ ـ لا محالةَ ـ قسماً مِنَ الفضائلِ ، وإنَّ لفارسَ قسمَها مِنَ النجدةِ والقُوَّةِ ، وإنَّكَ إن تقتلْ أشرافَهُم . . تُخلِّفِ الوضعاءَ علىٰ أعقابِهِم ، وتورثْ سفلتَهُم منازلَ عليتِهِم ، وتغلبْ أدنياءَهُم علىٰ مراتبِ

ذوي أخطارِهِم ، ولـم يُبتَلَ الملوكُ قطُّ ببلاءٍ هوَ أعظمُ عليهِم وأشدُّ توهيناً لسلطانِهِم مِنْ غلبةِ السَّفلةِ وذلِّ الوجوهِ ، فاحذرِ الحذرَ كلَّهُ أن تُمكِّنَ تلكَ الطَّبقةَ مِنَ الغلبةِ والحركةِ ؛ فإنَّهُم إن نجمَ منهُم بعدَ اليومِ علىٰ جندِكَ وأهلِ بلادِكَ ناجمٌ . . دهمَهُم منهُ ما لا رويةَ فيهِ ولا بقيةَ معَهُ ، فانصرفْ عن هٰذا الرأيِ إلىٰ غيرِهِ .

واعمَدْ إلىٰ مَنْ قبلَكَ مِنْ أولٰئكَ العظماءِ والأحرارِ ؛ فوزِّعْ بينَهُم مملكتَهُم ، وألزِم اسمَ الملكِ كلَّ مَنْ ولَّيتَهُ منهُم ، واعقدِ التاجَ علىٰ رأسِهِ وإن صَغُرَ ملكُهُ ، فإنَّ المُتسمِّيَ بالملكِ لازمٌ لاسمِهِ ، والمعقودَ التاجِ علىٰ رأسِهِ لا يخضعُ لغيرِهِ ، فليسَ ينشبُ ذٰلكَ أن يوقعَ كلَّ ملكٍ منهُم بينَهُ وبينَ صاحبِهِ تدابراً وتقاطعاً ، وتغالباً على الملكِ ، وتفاخراً بالمالِ والجندِ حتىٰ يَنسَوا بذٰلكَ أضغانَهُم عليكَ ، وأوتارَهُم فيكَ ، ويعودَ حربُهُم لكَ حرباً بينَهُم ، وحنقُهُم عليكَ حنقاً منهُم علىٰ أنفسِهِم ، ثمَّ لا يزدادونَ في ذٰلكَ بصيرةً إلَّا أحدثوا لكَ بها استقامةً ؛ إن دنوتَ منهُم . . [دانوا] لكَ ، وإن نأيتَ عنهُم . . تَعزَّزوا بكَ ، حتىٰ يثبَ مَنْ ملكَ منهُم علىٰ جارِهِ باسمِكَ ، ويسترهبَهُ بجندِكَ ، وفي ذٰلكَ شاغلٌ لهُم عنكَ ، وأمانٌ لأحداثِهِم بعدَكَ ، وإن كانَ لا أمانَ للدهرِ ولا ثقةَ بالأيامِ .

قد أدَّيتُ إلى الملكِ ما رأيتُهُ لي حظّاً ، وعليَّ حقّاً مِنْ إجابتي إيَّاهُ إلىٰ ما سألَني عنهُ ، ومحضتُهُ النصيحةَ فيهِ ، والملكُ أعلىٰ عيناً ، وأنفذُ رويَّةً ، وأفضلُ رأياً ، وأبعدُ هِمَّةً فيما استعانَ بي عليهِ ، وكَلَّفَني تبيينَهُ ، والمشورةَ عليهِ فيهِ ، لا زالَ الملكُ مُتعرِّفاً مِنْ عوائدِ النعمِ ، وعواقبِ الصنعِ ، وتوطيدِ الملكِ ، وتنفيسِ الأجلِ ، ودركِ الأمل . . ما تأتي فيهِ قدرتُهُ علىٰ غايةِ أقصىٰ ما تَنالُهُ قدرةُ البشرِ ، والسلامُ الذي لا انقضاءَ لهُ ولا انتهاءَ ، ولا غايةَ ولا فناءَ ، فليكنْ على الملكِ .

ومِنْ كتابِ أرسطو هٰذا يستحكمُ لكَ فهمُ قولِ ابنِ المُقفَّعِ السابقِ : (تُعلِّمُهُم وكأنَّكَ تَتعلَّمُ منهُم ، وتُؤدِّبُهُم وكأنَّكَ تَتأدَّبُ بهِم) ، وتَعرِفُ كيفَ ذٰلكَ ، ومنهُ تَعرِفُ أيضاً ـ إذ كانَ ترجمةَ كلامٍ يونانيٍّ ـ أنَّ التشبيهَ والاستعارةَ لا يَخصَّانِ اللغةَ العربيةَ ؛ مِنْ مثلِ قولِهِ : (صهلةِ سبقِكَ ، وبروزِ شأوِكَ) .

وفي قولِهِ : (أواليهِ وتواليهِ) تغييرُ اللفظِ لأجلِ تحصيلِ الازدواجِ بينَ الكلمتَينِ بقلبِ لفظِ (أوائلَ) ، وقد ثبتَ جوازُ ذٰلكَ حيثُ كانَ التغييرُ مقارباً بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ لنائحاتٍ خرجنَ خلفَ الرجالِ : « ٱرْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ »[1] ، فغيَّرَ (موزوراتٍ) مِنَ الوزرِ لذٰلكَ .

[كتابٌ مِنْ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ للحجَّاجِ معَ جوابِهِ]

صورةُ كتابٍ مِنْ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ للحجَّاجِ بنِ يوسفَ وجوابُهُ منهُ لهُ : تَشتمِلُ عليهِما حكايةٌ مناسبةٌ للغرضِ المُعوَّلِ عليهِ في نقلِ هٰذهِ الكتبِ ؛ لِمَا احتوَتْ عليهِ مِنَ الكَلِمِ العربيِّ ، والأحوالِ التي تُحِبُّ الأنفسُ الشريفةُ الاطِّلاعَ عليها .

قالَ عمرُو بنُ بحرٍ الجاحظُ[2] : كانَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ سنانَ قريشٍ وسيفَها رأياً وحزماً ، وعابدَها قبلَ أن يُستخلَفَ ورعاً وزهداً ، فجلسَ يوماً في خاصَّتِهِ ، فقبضَ علىٰ لحيتِهِ فشمَّها مليّاً ، ثمَّ اجترَّ نفسَهُ ونفخَ نفخةً أطالَها ، ثمَّ نظرَ في وجوهِ القومِ فقالَ : ما أقولُ يومَ المسألة عن أمرِ الحَجَّاجِ وقد أدحضَ المُحتجُّ على العليمِ بما طوتْهُ الحُجُبُ ؟ أما إنَّ تمليكي لهُ قرنَ بي لوعةً يُلهِبُها التَّذكارُ ، كيفَ وقد علمتُ فتعاميتُ ، وسمعتُ فتصاممتُ ، وحملَةُ الكرامُ الكاتبونَ ؟! واللهِ ؛ لكأنِّي آلفُ هٰذا الطَّعنَ علىٰ نفسي بعدَ أن

(١) أخرجه ابن ماجه (١٦٦٣) عن سيدنا علي رضي الله عنه .
(٢) انظر « العقد الفريد » (٥/٢٠ ـ ٢٩) .

نعَتِ الأيامُ بتصرُّفِها نفساً حقَّ لها الوعيدُ بتصرُّمِ الزوالِ ، وما أبقتِ الشبهةُ للباقي مُتعلَّقاً ، وما هوَ إلَّا الغلُّ الكامنُ ، اللهمَّ ؛ أنتَ لي أوسعُ ، غيرَ منتصرٍ ولا معتذرٍ .

قلتُ : هـٰذا الكلامُ يختبرُ بهِ ما في نفوسِ القومِ الذينَ ظهرَ منهُم أماراتُ الغيظِ مِنَ الحجَّاجِ علىٰ ثقةِ عبدِ الملكِ بهِ واختيارِهِ علىٰ غيرِهِ ، وطرحَ كلَّ ما يُقالُ فيهِ علماً منهُ بأنَّهُ لا يقومُ أحدٌ بما قامَ بهِ الحجَّاجُ .

ثمَّ قالَ : يا كاتبُ ؛ هاتِ الدَّواةَ والقرطاسَ ، فقعدَ كاتبُهُ بينَ يدَيهِ ، وأملىٰ عليهِ : بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، مِنْ عبدِ اللهِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ إلى الحجَّاجِ بنِ يوسفَ .

أمَّا بعدُ : فقد أصبحتُ بأمرِكَ بَرِماً ، يقعدُني الإشفاقُ ، ويقيمُني الرجاءُ ، عجزتُ في دارِ [السعةِ] وتوسُّطِ الملكِ وحينِ المهلِ واجتماعِ الفكرِ . . ألتمسُ العذرَ في أمرِكَ ؛ فأنا ـ لعمرُ اللهِ ـ في دارِ الجزاءِ ، وعدمِ السُّلطانِ ، واشتغالِ النفسِ ، والركونِ إلى الذلةِ مِنْ نفسي ، والتوقُّعِ لِمَا طُوِيَتْ عليهِ الصُّحفُ . . أَعجِزُ ، وقد كنتُ أشركتُكَ فيما طَوَّقَني اللهُ حملَهُ ، وألاثَ بحقوي مِنْ أمانةِ اللهِ في هـٰذا الخَلْقِ المرعيِّ ، فدُلِلتُ منهُ على الحزمِ والجِدِّ في إماتةِ بدعةٍ وإنعاشِ سُنَّةٍ ، فقعدتَ عن تلكَ ، ونهضتَ بما عاندَها ، حتىٰ صرتَ حُجَّةَ العائبِ ، [وعذرَ] اللاعنِ والشاهدِ القائمِ ، فلعنَ اللهُ أبا عقيلٍ وما نجلَ ، فألأمُ والدٍ وأخبثُ نسلٍ ، فلعمري ؛ ما ظلمَكُمُ الزمانُ ، ولا قعدَتْ بكُمُ المراتبُ ، لقد ألبستُكُم مَلبسَكُم ، وأقعدتُكُم علىٰ روابي خططِكُم ، وأحلتُكُم علىٰ قدرِ منعتِكُم ، فكنتُم بينَ حافرٍ وناقلٍ وماتحٍ في الفَلَواتِ القفرةِ ، ما تَقدَّمَ بكُمُ الإسلامُ ، ولقد تأخَّرتُم ، وما الطائفُ منَّا ببعيدٍ يجهلُ أهلَهُ .

ثمَّ قمتَ بنفسِكَ ، وطمحتَ بهِمَّتِكَ ، وسَرَّكَ انتضاءُ سيفِكَ ، فاستخرجَكَ أميرُ المؤمنينَ مِنْ أعوانِ روحِ بنِ زنباعٍ وشرطتِهِ وأنت علىٰ معاونتِهِ يومَئذٍ محسودٌ ، فهفا أميرُ المؤمنينَ ، واللهُ يُصلِحُ بالتوبةِ والغفرانِ زَلَّتَهُ ، [وكأنِّي] بكَ وكأنَّ ما لو لم يكنْ . . لكانَ خيراً ممَّا كانَ ، كلُّ ذٰلكَ مِنْ تجاسرِكَ وتحاملِكَ على المخالفةِ لرأيِ أميرِ المؤمنينَ ، فقرعتَ صفاتِنا ، وهتكتَ حجبَنا ، وبسطتَ يدَيكَ تحفنُ بهِما مِنْ كرائمِ ذوي الحقوقِ اللازمةِ والأرحامِ الواشجةِ في أوعيةِ ثقيفٍ !!

فأستغفرُ اللهَ لذنبٍ ما لهُ عذرٌ ، فلئنِ استقالَ أميرُ المؤمنينَ فيكَ الرأيَ . . فلقد حالَتِ البصيرةُ في ثقيفٍ بصالحِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ (١) ؛ إذِ ائتمنَهُ على الصَّدقاتِ وكانَ عبدَهُ ، فهربَ بها عنهُ ، وما هوَ إلَّا اختبارٌ للثقةِ ، والمطلبُ لمواضعِ الكفايةِ ، فقعدَ فيهِ الرجاءُ كما قعدَ بأميرِ المؤمنينَ فيما نَصَّبَكَ لهُ ، فكأنَّ هٰذا ألبسَ أميرَ المؤمنينَ ، ثوبَ العزاءِ ، ونهضَ بعذرِهِ إلى استنشاقِ نسيمِ الروحِ ، فاعتزلْ عملَ أميرِ المؤمنينَ ، وأظعنْ عنهُ باللعنةِ اللازمةِ والعقوبةِ الناهكةِ إن شاءَ اللهُ ، إذا استحكمَ لأميرِ المؤمنينَ ما يحاولُ مِنْ رأيِهِ ، والسلامُ .

ودعا عبدُ الملكِ مولىً لهُ يُقالُ لهُ : نباتةُ ، لهُ لسانٌ وفضلُ رأيٍ ، فناولَهُ الكتابَ ، ثمَّ قالَ لهُ : يا نباتةُ ، العجلَ ثمَّ العجلَ حتىٰ تأتيَ العراقَ ، فضعْ هٰذا الكتابَ في يدِ الحجَّاجِ ، وتَرقَّبْ ما يكونُ منهُ ، فإن جبنَ عندَ قراءتِهِ واستيعابِ ما فيهِ . . فاقلعْهُ عن عملِهِ ، وانقلعْ معَهُ حتىٰ تأتيَ بهِ ، وهَدِّئِ الناسَ حتىٰ يأتيَهُم أمري بما تَصِفُني بهِ في حينِ انقلاعِكَ مِنْ حُبِّي لهُمُ السلامةَ ، وإن هشَّ للجوابِ ، ولم تأخذْهُ الحَيرةُ . . فخذْ منهُ ما يجيبُ بهِ ، وأقرِرْهُ علىٰ عملِهِ ، ثمَّ اعجلْ عليَّ بجوابِهِ .

---

(١) في « العقد الفريد » : (٥/٢٢) : (جالت البصيرة) بدل (حالت البصيرة) .

قالَ نباتةُ : فخرجتُ قاصداً إلى العراقِ ، فضمَّتْني الصحاري والفيافي ، واحتواني القرُّ ، وأخذَ منِّي السفرُ حتىٰ وصلتُ ، فلمَّا وردتُهُ . . أُدخِلتُ عليهِ وعليَّ شحوبُ مُضنىً ، وقد توسَّطَ خدمَهُ مِنْ نواحيهِ ، وتَدثَّرَ بمطرفِ خزٍّ أدكنَ ، ولاثَ بهِ الناسُ مِنْ بينِ قائمٍ وقاعدٍ ، فلمَّا نظرَ إليَّ ـ وكانَ لي عارفاً ـ قعدَ ، ثمَّ تبسَّمَ تَبسُّمَ الوَجِلِ ، ثمَّ قالَ : أهلاً بكَ يا نباتةُ ، أهلاً بمولىٰ أميرِ المؤمنينَ ، لقد أثَّرَ فيكَ سفرُكَ ، وأعرفُ أميرَ المؤمنينَ بكَ ضنيناً ، فليتَ شعري !! ما دَهِمَكَ أو دَهِمَني عندَهُ ؟ قالَ : فسلمتُ وقعدتُ ، فسألَ : ما حالُ أميرِ المؤمنينَ وخولِهِ ؟

فلمَّا هدأَ . . أخرجتُ لهُ الكتابَ ، فناولتُهُ إيَّاهُ ، فأخذَهُ منِّي مُسرِعاً ويدُهُ تُرعَدُ ، ثمَّ نظرَ في وجوهِ الناسِ ، فما شعرتُ إلَّا وأنا معَهُ ليسَ معَنا ثالثٌ ، وصارَ كلُّ مَنْ يطيفُ مِنْ خدمِهِ يلقاهُ خالياً ، لا يسمعونَ منَّا إلَّا الصوتَ ، فلا يقربونَ ، ففكَّ الكتابَ فقرأَهُ ، وجعلَ يتثاءَبُ ويُردِّدُ تثاؤبَهُ ، ويَسيلُ العرقُ علىٰ جبينِهِ وصُدغَيهِ علىٰ شِدَّةِ البردِ مِنْ تحتِ قلنسوتِهِ ، وعلىٰ رأسِهِ عمامةُ خزٍّ خضراءُ ، وجعلَ يشخصُ إليَّ ببصرِهِ ساعةً كالمُتوهِّمِ ، ثمَّ يعودُ إلىٰ قراءةِ الكتابِ ، ويلاحظُني النظرَ كالمُتفهِّمِ ، إلَّا أنَّهُ واجمٌ ثمَّ يُعاوِدُ الكتابَ ، وإنِّي لأقولُ : ما أراهُ يُثبِتُ حروفَهُ مِنْ شدَّةِ [اضطرابِ] يدِهِ ، حتى استقصىٰ قراءَتَهُ ، ثمَّ مالَتْ يدُهُ حتىٰ وقعَ الكتابُ على الفراشِ ، ورجعَ إليهِ ذهنُهُ ، فمسحَ العرقَ عن جبينِهِ ثمَّ قالَ مُتمثِّلاً : [من الكامل]

وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

قَبُحَ واللهِ منَّا الحسنُ يا نباتةُ ، وتواكلَتْنا عندَ أميرِ المؤمنينَ الألسنُ ، وما هٰذا إلا سانحُ فكرةٍ نَمَّقَها مُرْصِدٌ يكلَبُ بقصَّتِنا معَ حسنِ رأيِ أميرِ المؤمنينَ فينا ، يا غلامُ ؛ فتبادرَ الغِلمانُ الصيحةَ فمُلِئَ علينا منهُمُ المجلسُ ،

حتىٰ دَفَّأَتْني منهُمُ الأنفاسُ ، فقالَ : الدواةَ والقرطاسَ ، فأُتِيَ بدواةٍ وقرطاسٍ ، فكتبَ بيدِهِ وما رفعَ القلمَ إلَّا مُستمِدّاً ، حتىٰ سطرَ مثلَ خدِّ الفرسِ .

فلمَّا فرغَ . . قالَ لي : يا نباتةُ ؛ هل علمتَ ما جئتَ بهِ فنسمعَكَ ما كتبنَا ؟ قلتُ : لا ، قالَ : إذاً حسبُكَ منَّا مثلُهُ ، ثمَّ ناولَني الجوابَ ، وأمرَ لي بجائزةٍ فأجزلَ ، وجَرَّدَ لي كساءً ، ودعا لي بطعامٍ ، فأكلتُ ، ثمَّ قالَ : نكلُكَ إلىٰ ما أُمرتَ بهِ مِنْ عجلةٍ أو توانٍ ، وإنِّي لَأُحِبُّ مقارنتَكَ والأُنسَ برؤيتِكَ ، فقلتُ : كانَ معي قفلٌ مفتاحُهُ عندَكَ ، ومفتاحُ قفلِكَ عندي ، فما جدتُ لكَ الوافيةَ بالأمرَينِ (١) ، فأقفلتَ المكروهَ ، وفتحتَ العافيةَ ، وما ساءَني ذٰلكَ ، وما أُحِبُّ أن أزيدَكَ بياناً .

قلتُ : الوافيةُ : الوفاءُ ، وقولُهُ : (فأقفلتَ) دعاءٌ ؛ أي : جعلَني اللهُ سبباً لانصرافِ المكروهِ ، وإقبالِ المحبوبِ .

ثمَّ قالَ : ثمَّ نهضتُ ، وقامَ مُودِّعاً لي ، فالتزمَني وقالَ : بأبي أنتَ وأُمِّي ، ربَّ لفظةٍ مسموعةٍ ومحتقرٍ نافعٍ ، فكنْ كما أظنُّ ، فخرجتُ مُستقبِلاً وجهي ، حتىٰ وردتُ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فوجدتُهُ مُنصرِفاً مِنْ صلاةِ العصرِ ، فلمَّا رآني . . قالَ : ما اجتواكَ المضجعُ يا نباتةُ ؟ فقلتُ : مَنْ خافَ مِنْ وجهِ الصَّباحِ . . أدلجَ ، فسلَّمتُ وانتبذتُ عنهُ ، فتركَني حتىٰ سكنَ جأشي .

ثمَّ قالَ : مهيمْ ؟ فدفعتُ إليهِ الكتابَ ، فقرأَهُ مُتبسِّماً ، فلمَّا مضىٰ فيهِ . . ضحكَ حتىٰ بدتْ لهُ سنٌّ سوداءُ ، ثمَّ استقصاهُ ، فانصرفَ إليَّ فقالَ : كيفَ رأيتَ إشفاقَهُ ؟ قالَ : فقصصتُ عليهِ ما رأيتُ منهُ ، فقالَ : صلواتُ اللهِ على الصَّادقِ الأمينِ ؛ « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْراً » .

---

(١) العبارة في « العقد الفريد » (٥/٢٥) : (فأحدثت لك) بدل (فما جدت لك) .

ثمَّ قذفَ الكتابَ إليَّ ، فقالَ : اقرأْ ، فقرأتُهُ ، فإذا فيهِ :

بسمِ اللهِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، لعبدِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ ، وخليفةِ ربِّ العالمينَ ، والمُؤيَّدِ بالولايةِ ، المعصومِ مِنْ خطلِ القولِ وزللِ الفعلِ بكفالةِ اللهِ الواجبةِ لذوي أمرِهِ ، مِنْ عبدٍ اكتنفَتْهُ الذلَّةُ ، ومدَّ بهِ الصَّغارُ إلىٰ وخيمِ المرتعِ ووبيلِ المكرعِ ، مِنْ جائلٍ قادحٍ ومعترٍّ فادحٍ (١) ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ التي اتَّسعَتْ فوسعَتْ ، وكانَ بها التقوىٰ إلىٰ أهلِها قائداً ، فإنِّي أحمدُ اللهَ إليكَ راجياً لعطفِكَ بعطفِهِ ، الذي لا إلـٰهَ إلَّا هوَ .

أمَّا بعدُ : كانَ اللهُ لكَ بالدَّعةِ في دارِ الزوالِ ، والأمنِ في دارِ الزلزالِ ؛ فإنَّهُ مَنْ عُنِيَتْ بهِ فكرتُكَ يا أميرَ المؤمنينَ مخصوصاً ، فما هوَ إلَّا سعيدٌ يؤثرُ ، أو شقيٌّ يوترُ ، وقد حجبَني عن نواظرِ السَّعدِ لسانٌ مرصدٌ ، ونافثُ حقدٍ انتهزَ بهِ الشيطانُ حينَ الفكرةِ ، فافتتحَ بهِ أبوابَ الوسواسِ بما تحتويهِ الصُّدورُ ، فوا غوثاهْ باستعاذةِ أميرِ المؤمنينَ مِنْ رجيمٍ إنَّما سلطانُهُ على الذينَ يَتولَّونَهُ ، واعتصاماً بالتوكُّلِ علىٰ مَنْ خَصَّهُ بما أجزلَ لهُ مِنْ قسمِ الإيمانِ وصادقِ السنَّةِ ، فقد أرادَ اللعينُ أن يفتقَ لأوليائِهِ فتقاً نبا عنهُ كيدُهُ ، وكَثُرَ عليهِ تَحسُّرُهُ ، بليَّةٌ قرعَ بها فكرَ أميرِ المؤمنينَ مُلبِّساً ، وكادحاً [ومؤرشاً] ؛ ليَفُلَّ مِنْ غَرْبِهِ الذي نصبَني ، ويصيبَ ثأراً لم يزلْ بهِ موتوراً ، وأذكرَهُ قديمَ ما مَتَّ بهِ الأوائلُ حتىٰ لحقْتُ بمثلِهِ منهُم وبما كنتُ أبلوهُ مِنْ خِسَّةِ أقدارٍ ومزاولةِ أعمالٍ ، إلىٰ أن وصلتُ ذٰلك بالتشرُّطِ لروحِ بنِ زنباعٍ .

وقد علمَ أميرُ المؤمنينَ بفضلِ ما اختارَ اللهُ لهُ تباركَ وتعالىٰ مِنَ العلمِ المأثورِ الماضي ؛ بأنَّ الذي عُيِّرَ بهِ القومُ [مِنْ] مصانعِهِم مِنْ أشدِّ ما كانَ يزاولُهُ أهلُ القُدْمةِ الذينَ اجتبى اللهُ منهُم ، وقدِ اعتصموا وامتعضوا مِنْ ذكرِ ما كانَ ، وارتفعوا بما يكونُ ، وما جهلَ أميرُ المؤمنينَ ـ وللبيانِ موقعُهُ غيرَ

---

(١) في « العقد الفريد » (٥/٢٥) : (من جليل فادح ومعتدٍ قادح) .

مُحتجٍّ ولا مُعتدٍ ـ أنَّ متابعةَ روحِ بنِ زنباعٍ طريقٌ إلى الوسيلةِ لِمَن أرادَ مَنْ فوقَهُ ، وأنَّ رَوْحاً لم يُلبِسْني العزمَ الذي بهِ رفعَني أميرُ المؤمنينَ عن خولِهِ ، وقد ألصقَتْني بروحِ بنِ زنباعٍ هِمَّةٌ لم تزلْ نواظرُها ترمي بيَ البعيدَ ، وتطالعُ الأعلامَ .

وقد أخذتُ مِنْ أميرِ المؤمنينَ نصيباً اقتسمَهُ الإشفاقُ مِنْ سخطِهِ ، والمواظبةُ علىٰ موافقتِهِ ، فما بقيَ لنا بعدَ الإصابةِ أمرٌ تجولُ بهِ النفسُ وتطرفُ النواظرُ ، ولقد سرتُ بعينِ أميرِ المؤمنينَ سيرَ المُتثبِّطِ لِمَنْ يتلوهُ ، المُتطاوِلِ لِمَنْ يقدمُهُ ، غيرَ مُنبتٍّ مُوجِفٍ ، ولا مُتثاقلٍ مُجحِفٍ ، ففُتُّ الطالبَ ، ولحقتُ الهاربَ ، حتىٰ ثارَتِ السُّنَّةُ ، وبادَتِ البدعةُ ، وخسأَ الشيطانُ ، وحملَتِ الأديانُ إلى الجادَّةِ العظمىٰ والطَّريقةِ المثلىٰ .

فهـأنذا يا أميرَ المؤمنينَ نُصبَ المسألةِ لِمَنْ رامَني ، وقد عقدتُ الحبوةَ ، وقرنتُ الوَظِيفَينِ لقائلٍ مُحتجٍّ ، أو لائمٍ مُلتجٍّ ، وأميرُ المؤمنينَ وليُّ المظلومِ ، ومعقلُ الخائفِ ، وستُظهِرُ لهُ المحنةُ نبأَ أمري ، ولكلِّ نبأٍ مُستقرٌّ ، وما حفنتُ يا أميرَ المؤمنينَ في أوعيةِ ثقيفٍ حتىٰ رَوِيَ الظمآنُ ، وبطنَ الغرثانُ ، وغَصَّتِ الأوعيةُ ، وانقدَّتِ الأوكيةُ في آلِ مروانَ ، فأخذَتْ ثقيفُ فضلاً صارَ لها ، لولاهُ . . لقطنَتِ السابلةُ (١) .

ولقد كانَ ممَّا أنكرَهُ أميرُ المؤمنينَ مِنْ تحاملِي ، وكانَ ممَّا لو لم يكنْ . . لعظمَ الخطبُ فوقَ ما كانَ ، وإنَّ أميرَ المؤمنينَ لرابعُ أربعةٍ ؛ أحدُهُمُ ابنةُ شعيبٍ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ؛ إذ رمتَ بالظنِّ [غرضَ] اليقينِ تَفرُّساً في النجيِّ المصطفىٰ بالرسالةِ ، فحقَّ لها فيهِ الرجاءُ ، وزالَتْ شبهةُ الشكِّ بالاختبارِ ، وقبلَها العزيزُ في يوسفَ ، ثمَّ الصِّدِّيقُ في الفاروقِ رحمةُ اللهِ عليهِما ، وأميرُ

---

(١) في « العقد الفريد » (٥/٢٧) : (لولاهم للقطته السابلة) .

المؤمنينَ في الحجّاجِ ، وما حسدَ الشيطانُ [يا أميرَ] المؤمنينَ خاملاً ، ولا شَرِقَ بغيرِ شجىً ، فكم غبطةٍ [يا أميرَ] المؤمنينَ الرجيمُ أدبرَ منها ولهُ عُواءٌ ، وقد قَلَّتْ حيلتُهُ ووهنَ كيدُهُ يومَ كيتَ وكيتَ ، ولا أظنُّ أذكرَ لها مِنْ أميرِ المؤمنينَ .

ولقد سمعتُ لأميرِ المؤمنينَ في صالحٍ صلواتُ اللهِ عليهِ في ثقيفٍ مقالاً ، هجمَ بي الرجاءُ لعدلِهِ عليهِ بالحُجَّةِ في ردِّهِ بمُحكَمِ التنزيلِ ، علىٰ لسانِ ابنِ عمِّهِ خاتمِ النبيينَ وسيدِ المرسلينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ؛ فقد أخبرَ عنِ اللهِ عزَّ وجلَّ بحكايةٍ [عنِ] الملأ مِنْ قريشٍ عندَ الاختيارِ والافتخارِ وقد نفخَ الشيطانُ في مناخرِهِم ؛ قالوا : لولا نُزِّلَ هـٰذا القرآنُ علىٰ رجلٍ مِنَ القريتَينِ عظيمٍ ، فوقعَ اختيارُهُم عندَ المباهاةِ بنفخةِ [الكفر] وكبرِ الجاهليةِ على الوليدِ بنِ المغيرةِ المخزوميّ وأبي مسعودٍ الثقفيّ ، فصارا في الافتخارِ بهِما صِنوَينِ ، ما أنكرَ اجتماعَهُما مِنَ الأُمَّةِ مُنكِرٌ فِي مدِّ صوتِ القرآنِ ومُبلِّغِ الوحيِ ، وإن كانَ لَيُقالُ للوليدِ في الأُمَّةِ يومَئذٍ : ريحانةُ قريشٍ ، وما ردَّ ذٰلكَ العزيزُ تعالىٰ إلَّا بالرحمةِ الشاملةِ في القسمِ السابقِ ؛ فقالَ عزَّ وجلَّ : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (١) .

وما قَدَّمَتْني ـ يا أميرَ المؤمنينَ ـ ثقيفٌ في الاحتجاجِ لها ، وإنَّ لها مقالاً رحباً ، ومعاندةً قديمةً ، إلَّا أنَّ هـٰذا مِنْ أيسرِ ما يَحتجُّ بهِ العبدُ المُشفِقُ علىٰ سيّدِهِ المُغضَبِ ، والأمرُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ ، عزلَ أم أقرَّ ، وكلاهُما عدلٌ مُتَّبَعٌ ، وصوابٌ معتدلٌ ، والسلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ ورحمةُ اللهِ .

قالَ نباتةُ : فأتيتُ على الكتابِ بمحضرِ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ ، فلمَّا استوعبتُهُ . . سارقتُهُ النظرَ على الهيبةِ منهُ ، فصادفَ لحظي لحظَهُ ،

---

(١) سورة الزخرف : (٣٢) .

فقالَ : اقطعْهُ ، ولا تُعلِمَنَّ بما كانَ أحداً ، فلمَّا ماتَ عبدُ الملكِ . . فشا عنِّي الخبرُ .

إنَّكَ تنظرُ أيُّها الطالبُ مِنْ هٰذهِ الحكايةِ بلاغةً عاليةً ، وسياسةً محكمةً ، تَعرِفُ منها قدرَ ما كانَ عليهِ عبدُ الملكِ والحجَّاجُ ، وكيفَ كانَ عَلوُّ أمرِ الدولةِ [يومَ ذاكَ] .

[كتابٌ آخرُ مِنْ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ للحجاجِ معَ جوابِهِ]

وهٰذهِ حكايةٌ ثانيةٌ هيَ أوفقُ بالغرضِ مِنَ الأُولىٰ ، تَشتمِلُ أيضاً علىٰ كتابٍ وجوابِهِ لهُما(١) ، وأمورٍ تستفيدُ بمعرفتِها زيادةَ مُكنةٍ ممَّا تحاولُ أن تصلَ إلىٰ معرفتِهِ ، والتحقُّقِ بما يَستبينُ لكَ مِنْ آدابِهِ .

قالَ سعيدُ بنُ جويريةَ(٢) : خرجَتْ خارجةٌ على الحجَّاجِ بنِ يوسفَ ، فأرسلَ إلىٰ أنسِ بنِ مالكٍ أن يخرجَ معَهُ ، فأبىٰ ، فكتبَ إليهِ يشتمُهُ ، فكتبَ أنسُ بنُ مالكٍ إلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ يشكوهُ ، وأدرجَ كتابَ الحجَّاجِ في جوفِ كتابِهِ .

قالَ إسماعيلُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبي المهاجرِ : بعثَ إليَّ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ في ساعةٍ لم يكنْ يبعثُ إليَّ في مثلِها ، فدخلتُ عليهِ وهوَ أشدُّ ما كانَ حَنَقاً وغيظاً ، فقالَ : يا إسماعيلُ ؛ ما أشدَّ عليَّ أن تقولَ الرعيةُ : ضَعُفَ أميرُ المؤمنينَ وضاقَ ذرعُهُ في رجلٍ مِنْ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ؛ لا يقبلُ لهُ حسنةً ، ولا يتجاوزُ لهُ عن سيئةٍ ، فقلتُ : وما ذاكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : أنسُ بنُ مالكٍ خادمُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ كتبَ إليَّ يذكرُ

---

(١) كذا في الأصل ، والمراد : تشتمل علىٰ كتاب من الحجاج وأنس بن مالك رضي الله عنه إلىٰ عبد الملك ، وجوابه لهما ، كما يظهر من السياق .

(٢) انظر « العقد الفريد » (٥/٣٦ ـ ٤١) .

أنَّ الحجَّاجَ قد أضرَّ بهِ وأساءَ جوارَهُ ، وقد كتبتُ في ذٰلكَ كتابَينِ ؛ كتاباً إلىٰ أنسِ بنِ مالكٍ ، والآخَرَ إلى الحجَّاجِ ، فاقبضْهُما ثمَّ اخرجْ على البريدِ ، فإذا وردتَ العراقَ . . فابدَأْ بأنسِ بنِ مالكٍ فادفعْ لهُ كتابي ، وقل لهُ : اشتدَّ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ما كانَ مِنَ الحجَّاجِ إليكَ ، ولن يأتيَ إليكَ أمرٌ تَكرهُهُ إن شاءَ اللهُ ، ثمَّ ائتِ الحجَّاجَ فادفعْ إليهِ كتابَهُ ، وقلْ لهُ : قدِ اغتررتَ بأميرِ المؤمنينَ غرَّةً لا أظنُّهُ يخطئُكَ [شرُّها] ، ثمَّ افهمْ ما يَتكلَّمُ بهِ وما يكونُ منهُ حتىٰ تُفهِمَني إيَّاهُ إذا قدمتَ عليَّ إن شاءَ اللهُ .

قالَ إسماعيلُ : فقبضتُ الكتابَينِ ، وخرجتُ على البريدِ حتىٰ قدمتُ العراقَ ، فبدأتُ بأنسِ بنِ مالكٍ في منزلِهِ ، فدفعتُ إليهِ كتابَ أميرِ المؤمنينَ ، وأبلغتُهُ رسالتَهُ ، فدعا لهُ وجزاهُ خيراً ، فلمَّا فرغَ مِنْ قراءةِ الكتابِ . . قلتُ لهُ : أبا حمزةَ ؛ إنَّ الحجَّاجَ عاملٌ ، ولو وُضِعَ لكَ في جامعةٍ . . قدرَ أن يَضرَّكَ وينفعَكَ ، فأنا أريدُ أن تصالحَهُ ، قالَ : ذٰلكَ إليكَ ، لا أخرجُ عن رأيِكَ .

ثمَّ أتيتُ الحجَّاجَ ، فلمَّا رآني . . رَحَّبَ وقالَ : واللهِ ؛ لقد كنتُ أحبُّ أن أراكَ في بلدي هٰذا ، قلتُ : وأنا واللهِ قد كنتُ أحبُّ أن أراكَ وأقدمَ عليكَ بغيرِ ما أُرسلتُ بهِ إليكَ ، قالَ : وما ذاكَ ؟ قلتُ : فارقتُ الخليفةَ وهوَ أغضبُ الناسِ عليكَ ، قالَ : ولمَ ؟ قالَ : فدفعتُ إليهِ الكتابَ ، فجعلَ يَقرؤُهُ وجبينُهُ يَعرَقُ ، فمسحَهُ بيمينِهِ ، ثمَّ قالَ : اركب بنا إلىٰ أنسِ بنِ مالكٍ ، قلتُ لهُ : لا تفعلْ ؛ فإنِّي سأتلطَّفُ بهِ حتىٰ يكونَ هوَ الذي يأتيكَ ، وذٰلكَ للَّذي أشرتُ عليهِ مِنْ مصالحتِهِ .

قالَ : ففكَّ كتابَ أميرِ المؤمنينَ ، فإذا فيهِ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، مِنْ عبدِ اللهِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ إلى الحجَّاجِ بنِ يوسفَ ، أمَّا بعدُ : فإنَّكَ عبدٌ طمَتْ بكَ الأمورُ ، فطغيتَ وعلوتَ فيها حتىٰ جزتَ قدرَكَ ، وعدوتَ

طورَكَ ، وايمُ اللهِ يا بنَ المستفرمةِ بعَجَمِ زبيبِ الطائفِ ؛ لأغمزَنَّكَ كبعضِ غمزاتِ الليوثِ للثعالبِ ، ولأركُضَنَّكَ ركضةً تَدخلُ منها في وِجارِكَ .

اذكرْ مكاسبَ آبائِكَ بالطَّائفِ ؛ إذ كانوا ينقلونَ الحجارةَ علىٰ أكتافِهِم ، ويحفرونَ الآبارَ في المناهلِ بأيديهِم ، فقد نسيتَ ما كنتَ عليهِ أنتَ وآباؤُكَ مِنَ الدَّناءةِ واللؤمِ والضَّراعةِ .

وقد بلغَ أميرَ المؤمنينَ استطالةٌ منكَ علىٰ أنسِ بنِ مالكٍ خادمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ ، جراءةً منكَ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، وغِرَّةً بمعرفةِ غِيَرِهِ [ونقماتِهِ] وسطواتِهِ علىٰ مَنْ خالفَ سبيلَهُ ، وعمدَ إلىٰ غيرِ محبَّتِهِ ، ونزلَ عندَ سخطتِهِ ، وأظنُّكَ أردتَ أن تَرُوزَهُ بها لتعلمَ ما عندَهُ مِنَ التغييرِ والتنكيرِ فيها ؛ فإن سُوِّغتَها . . مضيتَ قُدُماً ، وإن غصصتَ بها . . ولَّيتَ دبراً ، فعليكَ لعنةُ اللهِ مِنْ عبدٍ أخفشِ العينَينِ ، أصكِّ الرجلَينِ ، ممسوحِ الجاعرتَينِ .

وايمُ اللهِ ؛ لو أنَّ أميرَ المؤمنينَ علمَ أنَّكَ اجترمتَ منهُ جُرماً ، وانتهكتَ لهُ عِرْضاً فيما كتبَ بهِ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ . . لَبعثَ إليكَ مَنْ يَسحبُكَ ظهراً لبطنٍ حتىٰ ينتهيَ بكَ إلىٰ أنسِ بنِ مالكٍ ، فيحكمَ فيكَ بما أحبَّ ، ولم يخفَ علىٰ أميرِ المؤمنينَ نبؤُكَ ، ولكلِّ نبأٍ مُستقرٌّ ، وسوفَ تعلمونَ .

قالَ إسماعيلُ : فانطلقتُ إلىٰ أنسٍ ، فلم أزلْ بهِ حتى انطلقَ معي إلى الحجَّاجِ ، فلمَّا دخلنا عليهِ . . قالَ : يغفرُ اللهُ لكَ أبا حمزةَ ، عجلتَ باللَّائمةِ ، وأغضبتَ علينا أميرَ المؤمنينَ ، ثمَّ أخذَ بيدِهِ فأجلسَهُ معَهُ على السريرِ ، فقالَ أنسٌ : إنَّكَ تزعمُ أنَّا الأشرارُ ، واللهُ سمَّانا الأنصارَ ، وقلتَ : إنَّا مِنْ أبخلِ الناسِ ، واللهُ يقولُ فينا : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (١) ،

---

(١) سورة الحشر : (٩) .

وزعمتَ أنَّا أهلُ نفاقٍ ، واللهُ تعالىٰ يقولُ فينا : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ [1] ، فكانَ المخرجُ والمشتكىٰ في ذٰلكَ إلى اللهِ وإلىٰ أميرِ المؤمنينَ ، فتولَّىٰ مِنْ ذٰلكَ ما ولَّاهُ اللهُ ، وعرفَ مِنْ حقِّنا ما جهلتَ ، وحفظَ منَّا ما ضيَّعتَ ، وسيحكمُ في ذٰلكَ ربٌّ هوَ أرضىٰ للمُرضىٰ ، وأسخطُ للمسخطِ ، وأقدرُ على الغيرِ ؛ في يومٍ لا يشوبُ الحقَّ فيهِ الباطلُ ، ولا النورَ الظلمةُ ، ولا الهدى الضَّلالةُ ، واللهِ ؛ لو أنَّ اليهودَ أوِ النصارىٰ رأت مِنْ خدمِ موسى بنِ عمرانَ أو عيسى بنِ مريمَ يوماً واحداً . . لرأتْ لهُ ما لم ترَوا لي في خدمةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ عشرَ سنينَ .

قالَ : فاعتذرَ إليهِ الحجَّاجُ وتَرضَّاهُ حتىٰ قبلَ عذرَهُ ورضيَ عنهُ ، وكتبَ برضاهُ وقَبولِهِ عذرَهُ ، ولم يزلِ الحجَّاجُ لهُ مُعظِّماً هائباً حتىٰ هلكَ رضيَ اللهُ عنهُ .

وكتبَ الحجَّاجُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، أمَّا بعدُ : أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ وأبقاهُ وسَهَّلَ حظَّهُ وحاطَهُ ولا [عدمناهُ] ، فإنَّ إسماعيلَ بنَ أبي المهاجرِ رسولَ أميرِ المؤمنينَ أعزَّ اللهُ نصرَهُ ، قدمَ عليَّ بكتابِ أميرِ المؤمنينَ ـ أطالَ اللهُ بقاءَهُ ، وجعلَني مِنْ كلِّ مكروهٍ فداءَهُ ـ بذكرِ شتيمتي ، وتوبيخي بآبائي ، وتعييري بما كانَ قبلَ نزولِ النعمةِ بي مِنْ عندِ أميرِ المؤمنينَ أتمَّ اللهُ نعمتَهُ عليهِ وإحسانَهُ إليهِ ، ويُذكِّرُني أميرُ المؤمنينَ جعلَني اللهُ فداءَهُ استطالةً منِّي علىٰ أنسِ بنِ مالكٍ خادمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، جراءةً [منِّي] علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، وغرَّةً بمعرفةِ غيرِهِ ، ونقماتِهِ وسطواتِهِ علىٰ مَنْ خالفَ سبيلَهُ وعمدَ إلىٰ غيرِ

(١) سورة الحشر : (٩) .

محبَّتِهِ ، ونزلَ عندَ سخطتِهِ ، وأميرُ المؤمنينَ ـ أصلحَهُ اللهُ ـ مِنْ قرابتِهِ مِنْ محمَّدٍ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ إمامِ الهدىٰ وخاتمِ النبيينَ أحقُّ مَنْ أقالَ عثرتي ، وعفا عن ذنبي ، فأمهلَني ولم يعجلْني عندَ هفوتي ، لِلذي جُبِلَ عليهِ مِنْ كريمِ طبائعِهِ ، وما قَلَّدَهُ اللهُ مِنْ أمورِ عبادِهِ .

فرأيُ أميرِ المؤمنينَ أصلحَهُ اللهُ في تسكينِ روعتي ، و [إفراجِ] كُربتي ؛ فقد مُلِئتُ رعباً وفَرَقاً مِنْ سطوتِهِ ، وفجأةِ نقمتِهِ ، وأميرُ المؤمنينَ ـ أقالَهُ اللهُ العثراتِ ، وتجاوزَ لهُ عنِ السيئاتِ ، وضاعفَ لهُ الحسناتِ ، وأعلىٰ لهُ الدرجاتِ ـ أحقُّ مَنْ صفحَ وعفا ، وتَغمَّدَ وأبقىٰ ، ولم يُشمِتْ فيَّ عدوّاً مكبّاً ، ولا حسوداً مصبّاً ، ولم يُجرِّعْني غصصاً ، والذي وصفَ أميرُ المؤمنينَ مِنْ صنيعتِهِ إليَّ ، وتنويهِهِ لي بما أسندَ إليَّ مِنْ عملِهِ ، وأوطأَني مِنْ رقابِ رعيَّتِهِ . . فصادقٌ فيهِ ، مجزيٌّ بالشكرِ عليهِ ، والتوسُّلُ منِّي إليهِ بالولايةِ ، والتقرُّبُ لهُ بالكفايةِ ، وقد عاينَ إسماعيلُ بنُ أبي المهاجرِ ـ رسولُ أميرِ المؤمنينَ وحاملُ كتابِهِ ـ مِنْ نزولي عندَ مَسرَّةِ أنسِ بنِ مالكٍ ، وخضوعي عندَ كتابِ أميرِ المؤمنينَ ، وإقلاقِهِ إيَّايَ ، ودخولِهِ بالمصيبةِ عليَّ ، ما سيعلمُهُ أميرُ المؤمنينَ (١) .

فإن رأىٰ أميرُ المؤمنينَ ـ طَوَّقَني اللهُ بشكرِهِ ، وأعانَني علىٰ تأديةِ حقِّهِ ، وبَلَّغَني إلىٰ ما فيهِ موافقةُ مرضاتِهِ ، ومَدَّ لي في أجلِهِ ـ . . أن يأمرَ لي بكتابٍ مِنْ رضاهُ وسلامةِ صدرِهِ ما يُؤمِّنُني بهِ مِنْ سفكِ دمي ، وبردِّ ما شردَ مِنْ نومي ، ويَطمئنُّ بهِ قلبي ؛ فقد وردَ عليَّ أمرٌ جليلٌ خطبُهُ ، عظيمٌ أمرُهُ ، شديدٌ عليَّ كربُهُ ، أسألُ اللهَ ألَّا يُسخِطَ أميرَ المؤمنينَ ، وأن يثبتَهُ في حزمِهِ وعزمِهِ ، وسياستِهِ وفراستِهِ ، ومواليهِ وحشمِهِ ، وعُمَّالِهِ وصنائعِهِ ؛ ممَّا يُحمَدُ بهِ حسنُ

---

(١) في « العقد الفريد » (٥/٤٠) : (ودخوله [عليَّ] بالمصيبة ، علىٰ ما سيعلمه أمير المؤمنين وينهيه إليه) .

رأيِهِ ، وبُعْدُ هِمَّتِهِ ؛ إنَّهُ وليُّ أميرِ المؤمنينَ ، والذابُّ عن سلطانِهِ ، والصَّانعُ لهُ في أمرِهِ ، والسلامُ .

فحَدَّثَ إسماعيلُ أنَّهُ لمَّا قرأَ أميرُ المؤمنينَ الكتابَ . . قالَ : يا كاتبُ ؛ أفرِخْ روعَ أبي محمدٍ ، فكتبَ إليهِ بالرضا عنهُ .

❁ ❁ ❁

إنَّكَ تعلمُ أيُّها الطالبُ مِنْ كتابِ عبدِ الملكِ هٰذا وجوابِهِ للحجَّاجِ والي العراقِ مِنْ قِبَلِهِ : أنَّ القومَ كانوا يستجيزونَ العقوبةَ بالشتمِ والإفحاشِ في السبِّ واللعنِ عندَ عِظَمِ الجنايةِ ، وكيفَ يَتملَّقُ الضَّعيفُ للقويِّ ، ويَحتمِلُ ما يَرِدُ عليهِ منهُ ، ويَتلقَّاهُ بالرضا والتسليمِ ، وقولُ عبدِ الملكِ : (يا بن المستفرمةِ بعَجَمِ زبيبِ الطائفِ) من الإفحاشِ في السبِّ ؛ فإنَّ الاستفرامَ : هوَ أن تأخذَ المرأةُ شيئاً مِنَ الأمورِ الحرّيفةِ كالشبِّ والعفصِ وبزرِ العنبِ الذي هوَ العَجَمُ ، فتجعلَهُ في خرقةٍ ، وتضعَهُ في فرجِها ؛ لينكمشَ فيضيقَ .

وفي قولِ عبدِ الملكِ صدرَ كلامِهِ : (لا يُقبَلُ لهُ حسنةٌ ، ولا يُتجاوزُ لهُ عن سيئةٍ) إشارةٌ إلىٰ وصيَّةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ بالأنصارِ لِمَنْ يَتولَّى الأمرَ بعدَهُ ؛ أن يقبلَ مِنْ محسنِهِم ، ويَتجاوزَ عن مسيئِهِم [١] ، وبهٰذِهِ الوصيةِ احتجَّ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ على الأنصارِ في أنَّهُ لا حقَّ لهُم في الخلافةِ ، حيثُ كانوا موصىً بهِم ، فالوالي إذاً يكونُ مِنْ غيرِهِم ، فقبلوا ذٰلكَ منهُ ، وانكفُّوا عن طلبِ الخلافةِ بعد مَا كانَ مِنَ الحبابِ بنِ المنذرِ يومَ السقيفةِ ؛ إذ يقولُ حالَ المشورةِ : (أنا جُذَيلُها المُحكَّكُ ، وعُذَيقُها المُرَجَّبُ ؛ منَّا أميرٌ ومنكُم أميرٌ) [٢] رضيَ اللهُ عنِ الجميعِ .

---

(١) أخرجه البخاري (٩٢٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ، ومسلم (٢٥١٠) عن سيدنا أنس رضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٣٠) .

[كتابٌ مِنْ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ للحجاجِ معَ جوابِهِ]

وهٰذهِ حكايةٌ ثالثةٌ تَشتمِلُ علىٰ كتابٍ مِنْ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ أيامَ ولايةِ أخيهِ الوليدِ إلى الحجَّاجِ ، وجوابِهِ مِنَ الحجَّاجِ إليهِ[1] : قالوا : كانَ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ يكتبُ إلى الحجَّاجِ في أيامِ أخيهِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ كُتُباً ، فلا ينظرُ لهُ فيها ، فكتبَ :

بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، مِنْ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ إلى الحجَّاجِ بنِ يوسفَ ، سلامٌ علىٰ أهلِ الطَّاعةِ مِنْ عبادِ اللهِ .

أمَّا بعدُ : فإنَّكَ امرؤٌ مهتوكٌ عنهُ حجابُ الحقِّ ، مُولَعٌ بما عليكَ لا لكَ ، مُنصرِفٌ عن منافعِكَ ، تاركٌ لحظِّكَ ، مُستخِفٌّ بحقِّ اللهِ وحقِّ أوليائِهِ ، لا ما سلفَ إليكَ مِنْ خيرٍ يعطفُكَ ، ولا ما عليكَ لا لكَ تصرفُهُ في مُهمَّةٍ مِنْ أمرِك ، معموهٌ معصوصٌ عنِ الحقِّ اعصيصاءً ، لا تسكتُ عن قبيحٍ ، ولا ترعوي عن إساءةٍ ، ولا ترجو للهِ وقاراً ؛ حتىٰ دعيتَ فاحشاً سبَّاباً ، فقسْ شبرَكَ بفترِكَ .

وايمُ اللهِ ؛ لئن أمكنَني اللهُ منكَ . . لأَدوسَنَّكَ دَوسةً تلينُ منها فرائصُكَ ، ولأجعلَنَّكَ شريداً في الجبالِ تلوذُ بأطرافِ الشمالِ ، ولَأُعلِّقَنَّ الروميةَ الحمراءَ بثدَييها ، علمَ اللهُ ذٰلكَ منِّي ، فقِدْماً غرَّتْكَ العافيةُ ، وانتحيتَ أعراضَ الرجالِ ، فإنَّكَ قدرتَ فبذختَ ، وظفرتَ فتعدَّيتَ ، فرويدَكَ حتىٰ تنظرَ كيفَ يكونُ مصيرُكَ إن كانَتْ بي وبكَ مُدَّةٌ أَتعلَّقُ بها ، وإن تكُ الأخرىٰ . . فأرجو أن تؤولَ إلىٰ مَذلَّةٍ ذليلةٍ ، وخزيةٍ طويلةٍ ، ويُجعَلَ مصيرُكَ في الآخرةِ شرَّ مصيرٍ ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ الحجَّاجُ : بسمِ اللهِ الرحمٰنِ الرحيمِ ، مِنَ الحجَّاجِ بنِ يوسفَ إلىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ ، سلامٌ علىٰ مَنِ اتَّبع الهدىٰ .

---

(١) انظر « العقد الفريد » (٥/٤١ ـ ٤٣) .

أمَّا بعدُ : فإنَّكَ كتبتَ إليَّ تذكرُ أنِّي امرؤٌ مهتوكٌ عنِّي حجابُ الحقّ ، مُولَعٌ بما عليَّ لا لي ، مُنصرِفٌ عن منافعي ، تاركٌ لحظِّي ، مُستخِفٌّ بحقِّ اللهِ وحقِّ وليِّ الحقّ ، وتذكرُ أنَّكَ ذو مصاولةٍ .

ولَعمري ؛ إنَّكَ لصبيٌّ حديثُ السنِّ ، تُعذَرُ بقلَّةِ عقلِكَ ، وحداثةِ سنِّكَ ، ويرقبُ فيكَ غيرُكَ ، فأمَّا كتابُكَ إليَّ . . فلعمري ؛ لقد ضَعُفَ فيهِ عقلُكَ ، واستخفَّ به حلمُكَ ، فللهِ أبوكَ ، أفلا انتصرتَ بقضاءِ اللهِ دونَ قضائِكَ ، ورجاءِ اللهِ دونَ رجائِكَ ، وأمتَّ غيظَكَ ، وأنمتَ عدوَّكَ ، وسترتَ عنهُ تدبيرَكَ ، ولم تُنبِّهْهُ فيلتمسَ مِنْ مكايدتِكَ ما تلتمسُ مِنْ مكايدتِهِ ؟! ولٰكنَّكَ لم تشفِ بالأمورِ علماً ، ولم تُرزَقْ مِنْ أمرِكَ حزماً ، جمعتَ أموراً دلَّاكَ فيها الشيطانُ علىٰ أسوأ أمرِكَ ، فكانَ الجفاءُ مِنْ خليقتِكَ ، والحمقُ مِنْ طبيعتِكَ ، وأقبلَ الشيطانُ بكَ وأدبرَ ، وحَدَّثَكَ أنَّكَ لن تكونَ كاملاً حتىٰ تَتعاطىٰ ما يعيبُكَ ، فتزحلقَتْ صخرتُكَ لقولِهِ(١) ، واتسعَتْ جوانبُها لكذبِهِ .

وأمَّا قولُكَ : (لو مَلَّكَكَ اللهُ . . لَعلَّقتَ زينبَ بنةَ يوسفَ بثدَييها) فأرجو أن يكرمَها اللهُ بهوانِكَ ، وألَّا يُوفِّقَ ذٰلكَ لكَ إن كانَ ذٰلكَ مِنْ رأيِكَ ، معَ أنِّي أعرفُ أنَّكَ كتبتَ إليَّ والشيطانُ بينَ كتفَيكَ ، فشرُّ مُمْلٍ علىٰ شرِّ كاتبٍ راضٍ بالخسفِ ، فأحرىٰ بالحمقِ ألَّا يَدلَّكَ علىٰ هدىً ، ولا يَرُدَّكَ إلَّا إلىٰ ردىً ، ومالَ بكَ الأملُ ، وتَحلَّبَ فوكَ للخلافةِ ، فأنتَ شامخُ البصرِ ، طامحُ النظرِ ، تَظنُّ أنَّكَ حينَ تملكُها لا تنقطعُ عنكَ مُدَّتُها ؟! إنَّها لنعمةُ اللهِ ، أسألُ اللهَ أن يلهمَكَ فيها الشكرَ ، معَ أنِّي أرجو أن ترغبَ فيما رغبَ فيهِ أبوكَ وأخوكَ ، فأكونَ لكَ مثلي لهما ، وإن نفخَ الشيطانُ في منخرِكَ . . فهوَ أمرٌ أرادَ اللهُ نزعَهُ عنكَ ، وإخراجَهُ إلىٰ مَنْ هوَ أكملُ بهِ منكَ ، ولَعمري ؛

---

(١) في « العقد الفريد » (٥/٤٢) : (فتحذلقت حنجرتك لقوله) .

إنَّها النصيحةُ ، فإن تقبلْها . . فمثلُها قُبِلَ ، وإن تَردَّها عليَّ . . اقتطعتُها دونَكَ ، وأنا الحجاجُ .

❋ ❋ ❋

زينبُ بنةُ يوسفَ : أختُ الحجَّاجِ ، هيَ التي أرادَها سليمانُ بقولِهِ : (الروميةَ الحمراءَ) يشتمُها بذلكَ ، وقولُ الحجَّاجِ : (تَحلَّبَ فوكَ للخلافةِ) كقولِ الناسِ : (سالَ لعابُهُ لكذا ، وجرىٰ ريقُهُ) .

في هٰذهِ القصَّةِ ظهرَتْ مِنْ سليمانَ جهالاتٌ :

منها : ما قالَهُ الحجَّاجُ في كتابِهِ مِنْ تنبيهِ عدوِّهِ لِمَا أضمرَ لهُ ، فإمَّا أن يلتمسَ لهُ المكايدَ ، وإمَّا أن يَحترِسَ منهُ حتىٰ لا يبلغَ فيهِ مرامَهُ .

ومنها : تَوعُّدُهُ أوانَ عجزِهِ بمنتظرِ قدرةٍ تكونُ أو لا تكونُ .

ومنها : تَعرُّضُهُ لتحرُّكِ غيرةِ السلطانِ القائمِ وسوءِ ظنِّهِ بهِ ، وربَّما كانَ ذٰلكَ سبباً لإيقاعِهِ بهِ وذهابِهِ بنفسِهِ ، فقد قيلَ : المُلْكُ عقيمٌ ؛ يعني : أنَّهُ ربَّما دعا الملكَ بحادثةٍ مِنَ الحوادثِ إلىٰ أن يقتلَ ابنَهُ أو أخاهُ .

ومنها : قرنُهُ نفسَهُ علىٰ صغرِ سنِّهِ برجلٍ نكرةٍ داهيةٍ تَصرَّفَتْ بهِ الأحوالُ ، ومرَّتْ علىٰ رأسِهِ حوادثُ الأيامِ ، حتىٰ عرفَ وجوهَ المنافعِ والمَضارِّ .

وَٱبْـنُ ٱلـلَّـبُـونِ إِذَا مَـا لُـزَّ فِـي قَـرَنٍ ... لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ ٱلْبُزْلِ ٱلْقَنَاعِيسِ (١)

❋ ❋ ❋

---

(١) من البسيط .

[تقسيمُ ابنِ خلدونَ الإنشاءَ إلىٰ طبقاتٍ]

هـٰذهِ صـورةُ مـا كـانَـتْ عـليـهِ الـكـتـابـةُ فـي الـطَّـبـقـةِ الأُولـىٰ ، لا تـرىٰ فـي الـكـتـابـةِ زيـادةً عـنِ الـمـقـصـودِ ، وعـنـايـةُ صـاحـبِـهِ إنَّـمـا هـيَ إيـفـاءُ تـأديـةِ المرادِ .

ومثلُ هـٰذهِ الكتابةِ هوَ الذي أرادَ ابنُ خلدونَ بالمرسلِ مِنْ قسمَيِ الكتابةِ ، ومدحَهُ وعابَ غيرَهُ ، وهـٰذا هوَ الفصلُ الذي أبانَ فيهِ ذٰلكَ ؛ قالَ : (اعلمْ : أنَّ لسانَ العربِ وكلامَهُم علىٰ فنَّينِ :

الشعرُ المنظومُ : وهوَ الكلامُ الموزونُ المُقفَّىٰ ؛ ومعناهُ : الذي تكونُ أوزانُهُ كلُّها علىٰ رويٍّ واحدٍ ؛ وهوَ القافيةُ .

والنثرُ : وهوَ الكلامُ غيرُ الموزونِ .

وكلُّ واحدٍ مِنَ الفنَّينِ يَشتمِلُ علىٰ فنونٍ ومذاهبَ في الكلامِ .

فأمَّا الشعرُ . . فمنهُ : المدحُ ، والهجاءُ ، والرثاءُ .

وأمَّا النثرُ . . فمنهُ السَّجعُ الذي يُؤتىٰ بهِ قطعاً ، ويُلتزَمُ في كلِّ كلمتَينِ منهُ قافيةٌ واحدةٌ ، ومنهُ المُرسَلُ ؛ وهوَ الذي يُطلَقُ فيهِ الكلامُ إطلاقاً ، ولا يُقطَّعُ أجزاءً ، بل يُرسَلُ إرسالاً مِنْ غيرِ تقييدٍ بقافيةٍ ، ويُستعمَلُ في الخُطَبِ والدعاءِ ، وترغيبِ الجمهورِ وترهيبِهِم .

وأمَّا القرآنُ وإن كانَ مِنَ المنثورِ . . إلَّا أنَّهُ خارجٌ عنِ الوصفَينِ ، وليسَ يُسمَّىٰ مرسلاً مطلقاً ، ولا مسجعاً ، بل مُفصَّلٌ بآياتٍ ينتهي إلىٰ مقاطعَ يشهدُ الذَّوقُ بانتهاءِ الكلامِ عندَها ، ثمَّ يُعادُ الكلامُ في الآيةِ الأخرىٰ بعدَها ويُثنَّىٰ مِنْ غيرِ التزامِ حرفٍ يكونُ سجعاً ولا قافيةً ؛ وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ

أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾(١) ، وقالَ ﴿ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾(٢) ، ويُسمَّىٰ أواخرُ الآياتِ منها فواصلَ ؛ إذ ليسَتْ أسجاعاً ، ولا التُزِمَ فيها ما يُلتزَمُ في السجعِ ، ولا هيَ أيضاً قوافٍ .

وأُطلِقَ اسمُ المثانِي علىٰ آياتِ القرآنِ كلِّها على العمومِ لِمَا ذكرناهُ ، واختصَّتْ بأُمِّ القرآنِ للغلبةِ فيها ؛ كالنجمِ للثريَّا ، ولهٰذا سُمِّيَتِ السبعَ المثانيَ ، وانظر هٰذا معَ ما قالَهُ المُفسِّرونَ في تعليلِ تسميتِها بالمثاني . . يشهدْ لكَ الحقُّ برجحانِ ما قلناهُ .

واعلمْ : أنَّ لكلِّ واحدٍ مِنْ هٰذه الفنونِ أساليبَ تَخْتَصُّ بهِ عندَ أهلِهِ ، ولا تصلحُ للفنِّ الآخرِ ولا تستعملُ فيهِ ؛ مثلُ النسيبِ المختصِّ بالشعرِ ، والحمدِ والدعاءِ المختصِّ بالخطبِ ، والدعاءِ المختصِّ بالمخاطباتِ ، وأمثالُ ذٰلكَ .

وقدِ [استعملَ] المُتأخِّرونَ أساليبَ الشعرِ وموازينَهُ في المنثورِ ؛ مِنْ كثرةِ الأسجاعِ ، والتزامِ التقفيةِ ، وتقديمِ النسيبِ بينَ يدَيِ الأغراضِ ، وصارَ هٰذا المنثورُ ـ إذا تأمَّلتَهُ ـ مِنْ بابِ الشعرِ وفنِّهِ ، ولم يفترقا إلَّا في الوزنِ ، واستمرَّ المُتأخِّرونَ مِنَ الكُتَّابِ علىٰ هٰذهِ الطريقةِ ، واستعملوها في المُخاطَباتِ السُّلطانيةِ ، وقصروا الاستعمالَ في المنثورِ كلِّهِ علىٰ هٰذا الفنِّ الذي ارتضَوهُ ، وخلطوا الأساليبَ فيهِ ، وهجروا المرسلَ [وتناسَوهُ] ، وخصوصاً أهلَ المشرقِ ، وصارَتِ المُخاطباتُ السُّلطانيَّةُ لهٰذا العهدِ عندَ الكُتَّابِ الغفلِ جاريةً علىٰ هٰذا الأسلوبِ الذي أشرنا إليهِ ، وهوَ غيرُ صوابٍ مِنْ جهةِ البلاغةِ ؛ لِمَا يُلاحَظُ في تطبيقِ الكلامِ علىٰ مقتضى الحالِ مِنْ أحوالِ المُخاطِبِ والمُخاطَبِ .

وهٰذا الفنُّ المنثورُ المُقفَّىٰ أدخلَ المُتأخِّرونَ فيهِ أساليبَ الشعرِ ، فوجبَ

---

(١) سورة الزمر : (٢٣) .

(٢) سورة الأنعام : (٩٧) .

أن تُنزَّهَ المُخاطَباتُ السُّلطانيةُ عنهُ ، والمحمودُ في المُخاطَباتِ السلطانيةِ الترسُّلُ ؛ وهوَ إطلاقُ الكلامِ وإرسالُهُ مِنْ غيرِ تسجيعٍ إلَّا في الأقلِّ النادرِ ، وحيثُ ترسلُهُ المَلَكةُ إرسالاً مِنْ غيرِ تكلُّفٍ لهُ ، ثُمَّ إعطاءُ الكلامِ حقَّهُ في مطابقتِهِ لمقتضى الحالِ ؛ فإنَّ المَقاماتِ مختلفةٌ ، ولكلِّ مَقامٍ أسلوبٌ يَخُصُّهُ ؛ مِنْ إطنابٍ ، أو إيجازٍ ، أو حذفٍ ، أو إثباتٍ ، أو تصريحٍ ، أو إشارةٍ وكنايةٍ واستعارةٍ .

وأمَّا إجراءُ المُخاطَباتِ السُّلطانيةِ علىٰ هٰذا النحوِ الذي هوَ أساليبُ الشعرِ . . فمذمومٌ ، وما حملَ عليهِ أهلَ العصرِ إلَّا استيلاءُ العجمةِ علىٰ ألسنتِهِم ، وقصورُهُم لذٰلكَ عن إعطاءِ الكلامِ حَقَّهُ في مطابقتِهِ لمقتضى الحالِ ، فعَجَزوا عنِ الكلامِ المرسلِ ؛ لبعدِ أمدِهِ في البلاغةِ ، وانفساخِ خطوِهِ [1] ، وولعوا بهٰذا السجعِ يُلفِّقونَ بهِ ما نقصَهُم مِنْ تطبيقِ الكلامِ على المقصودِ ومقتضى الحالِ فيهِ ، ويجبرونَهُ بذٰلكَ القدرِ مِنَ التزيينِ بالأسجاعِ والألقابِ البديعيةِ ، ويغفلونَ عمَّا سوىٰ ذٰلكَ .

وأكثرُ مَنْ أخذَ بهٰذا الفنِّ وبالغَ فيهِ في سائرِ أنحاءِ كلامِهِم . . كُتَّابُ المشرقِ وشعراؤُهُ لهٰذا العهدِ ، حتىٰ إنَّهُم لَيُخِلُّونَ بالإعرابِ في الكلماتِ والتصريفِ إذا دخلَتْ لهُم في تجنيسٍ أو مطابقةٍ لا يجتمعانِ معَهُما ، فيُرجِّحونَ ذٰلكَ الصنفَ مِنَ التجنيسِ ، ويَدَعونَ الإعرابَ ، ويفسدونَ بُنيةَ الكلمةِ ؛ عساها تصادفُ التجنيسَ) [2] .

[تقسيمُ طبقاتِ الإنشاءِ إلىٰ ثلاثٍ]

فتأمَّلْ ذٰلكَ بما قدَّمناهُ لكَ . . تَقِفْ علىٰ صحَّةِ ما ذكرناهُ ، فإذا قرأتَ

(١) في « مقدمة ابن خلدون » : (وانفساح خطوبه) .

(٢) انظر « مقدمة ابن خلدون » (ص ٥٦٦ ـ ٥٦٨) .

هٰذا الفصلَ مِنْ كلامِ ابنِ خلدونَ . . علمتَ أنَّهُ قد حصلَ في الإنشاءِ تغيُّراتٌ تقتضي التقسيمَ إلىٰ طبقاتٍ كما كانَ في الشعرِ ، وبالاستقراءِ وتشابهِ الكيفيةِ وتقاربِها في كلِّ عصرٍ . . تجدُ أنَّها ثلاثُ طبقاتٍ كطبقاتِ الشُّعراءِ :

فأوَّلاها : الأُمَّةُ العربيةُ التي انتهتْ بانتهاءِ دولةِ بني أميةَ ؛ فإنَّ عبدَ الحميدِ بنَ يحيىٰ كاتبَ مروانَ آخِرَ ملوكِهِم . . يُعَدُّ فاتحاً للطبقةِ الثانيةِ ؛ حيثُ أطالَ النفسَ في الكلامِ ، وفسحَ في العباراتِ ، وزادَ عنِ المقاصدِ زيادةً تُخرِجُ الكلامَ عن حدِّ الإفادةِ ، وتُدخِلُهُ في كونِهِ أداءَ رسمٍ ، وإقامةَ شعيرةٍ مِنْ شعائرِ الملكِ ؛ فإنَّهُ يحتاجُ لإجراءِ ما تَضمَّنَهُ إلىٰ تلخيصٍ وتفتيشٍ عنِ المقصودِ ؛ بحيثُ إذا وردَ الكتابُ علىٰ مأمورٍ بأمرٍ ينفذُهُ . . قالَ لكاتبِهِ : خذْ هٰذا الكتابَ ، واقرأْهُ وتأمَّلْ ما فيهِ ، واستخرجْ لي غرضَهُ ، وخُذْ لي مآلَهُ ، فيَتعَبُ الكاتبُ في ذٰلكَ حتىٰ يُلخِّصَ عبارةً صغيرةً تَتضمَّنُ المقصودَ ، فتكونَ هيَ روحَ الكتابِ والمُعوَّلَ عليهِ فيهِ ، ويكونَ الباقي بمنزلةِ اللغوِ .

وإنَّنا لم نجدْ كثرةَ الكلامِ وإطالةَ [الكتب] إلَّا عندَ انتهاءِ الدولةِ وإشرافِها على الزوالِ ، تجدُ ذٰلكَ في كلِّ عصرٍ ، بخلافِ الحالِ في أوائلِ الدُّوَلِ وحينَ قُوَّتِها ، وكأنَّ كثرةَ الأشغالِ بمُهِمَّاتِ الأمورِ إذ ذاكَ لا تَدَعُ موضعاً لكثرةِ الأقوالِ ، يَدُلُّكَ علىٰ ذٰلكَ ما نُقِلَ عن جعفرِ بنِ يحيىٰ مِنْ قولِهِ لكُتَّابِهِ : إنِ استطعتُم أن تجعلوا كتبَكُم كلَّها توقيعاتٍ . . فافعلوا[1] .

والتوقيعُ : هوَ ما يكتبُهُ الكاتبُ عنِ السُّلطانِ فمَنْ دونَهُ مِنْ أُولي الأمرِ في أواخرِ الكتبِ بما يريدُ المكتوبُ عنهُ إجراءَهُ ؛ وذٰلكَ يكونُ بعباراتٍ صغيرةٍ وافيةٍ بالغرضِ ، مُتمكِّنةٍ في بابِ البلاغةِ ، فقد كانَ الناسُ يطلبونَ توقيعاتِ

---

(١) انظر « أدب الكُتَّاب » للصولي (ص ١٣٤) .

جعفرِ بنِ يحيىٰ ، ويتنافسونَ في الحصولِ عليها ، حتىٰ قيلَ : إنَّ الورقةَ مِنْ كتبِهِ ربَّما اشتُرِيَتْ بدينارٍ .

وأمَّا عندَ انتهاءِ الدولةِ . . فإنَّ الأمورَ تكونُ قد تَمهَّدَتْ ، والأحوالَ قدِ اطمأنَّتْ ، وأقبلَ العظماءُ والرؤساءُ على استعمالِ اللَّذَّاتِ ، والمُضيِّ معَ الشهواتِ ، وتسييرِ الأعمالِ على الترتيبِ والتمهيدِ الذي تعبَ فيهِ أوائلُ تلكَ الدولةِ ، وحينَئذٍ تكونُ أوقاتُهُم فارغةً ، يجدُ المُقالُ لهُ فيها مجالاً فيتَّسِعُ ، وتَطولُ الكتبُ إلىٰ ذٰلكَ الحدِّ المذمومِ الذي وقعَتِ الإشارةُ إليهِ والتصريحُ بهِ مِنِ ابنِ خلدونَ ومَنْ تكلَّمَ مثلَ كلامِهِ ؛ فقد قيلَ : إنَّ عبدَ الحميدِ بنَ يحيىٰ كتبَ عن سلطانِهِ كُتُباً جاءَتْ وقرَ بعيرٍ ، ولٰكنْ لم يبقَ مِنْ كلامِهِ شيءٌ يَتناقلُهُ الناسُ ؛ لانمحاءِ دولتِهِ ، وذهابِ آثارِها ، وخمودِ ذكرِها ؛ إمَّا لمحبةِ الدولةِ القائمةِ ، أوِ الخوفِ منها والتملُّقِ لها ، كما هوَ الحالُ في كلِّ دولةٍ تذهبُ بقيامِ غيرِها .

[وصيةُ عبدِ الحميدِ بنِ يحيىٰ للكُتَّابِ بمحاسنِ الآدابِ]

إلَّا أنَّهُ قد بقيَ مِنْ كلامِ عبدِ الحميدِ هٰذا كتابٌ أوصىٰ فيهِ الكُتَّابَ بمحاسنِ الآدابِ ؛ وهوَ مُشتمِلٌ علىٰ أدبٍ لا يَخُصُّ الكُتَّابَ ، وهٰذِهِ صورتُهُ (١) :

أمَّا بعدُ : حفظَكُم اللهُ يا أهلَ صناعةِ الكتابةِ ، وحاطَكُم ووَفَّقَكُم وأرشدَكُم ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلَ الناسَ بعدَ الأنبياءِ والمرسلينَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أجمعينَ ومِنْ بعدِ الملوكِ المكرمينَ أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقةِ سواءً ، وصَرَّفَهُم في صنوفِ الصِّناعاتِ وضروبِ المحاولاتِ إلىٰ أسبابِ معاشِهِم وأبوابِ أرزاقِهِم ، فجعلَكُم معشرَ الكُتَّابِ في أشرفِ الجهاتِ ؛ أهلِ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (١/٨٥ ـ ٨٩) .

الأدبِ والمروءاتِ ، والعلمِ والرزانةِ ، بكم تنتظمُ للخلافةِ محاسنُها ، وتستقيمُ أمورُها ، وبنصحائِكم يُصلِحُ اللهُ للخلقِ سلطانَهُم ، وتَعمُرُ بلدانُهم ، لا يستغني الملكُ عنكم ، ولا يُوجَدُ كافٍ إلَّا منكُم ، فموقعُكُم مِنَ الملوكِ موقعُ أسماعِهِمُ التي بها يسمعونَ ، وأبصارِهِمُ التي بها يبصرونَ ، وألسنتِهِمُ التي بها ينطقونَ ، وأيديهِمُ التي بها يَبطِشونَ ، فأمتعكَمُ اللهُ بما خَصَّكُم مِنْ فضلِ صناعتِكُم ، ولا نزعَ عنكُم ما أضفاهُ مِنَ النعمةِ عليكُم .

وليسَ أحدٌ مِنْ أهلِ الصناعاتِ كلِّها أحوجَ إلى اجتماعِ خلالِ الخيرِ المحمودةِ وخصالِ الفضلِ المذكورةِ المعدودةِ منكُم أيُّهَا الكُتَّابُ ؛ إذا كنتُم علىٰ ما يأتي في هٰذا الكتابِ مِنْ صفتِكُم ؛ فإنَّ الكاتبَ يحتاجُ في نفسِهِ ، ويحتاجُ منهُ صاحبُهُ الذي يثقُ بهِ في مُهِمَّاتِ أمورِهِ . . أن يكونَ حليماً في موضعِ الحلمِ ، فهيماً في موضعِ الحُكْمِ ، مِقداماً في موضعِ الإقدامِ ، مِحجاماً في موضعِ الإحجامِ ، مُؤثِراً للعفافِ والعدلِ والإنصافِ ، كَتوماً للأسرارِ ، وفيّاً عندَ الشدائدِ ، عالماً بما يأتي مِنَ النوازلِ ، يضعُ الأمورَ مواضعَها ، والطَّوارقَ في أماكنِها ، قد نظرَ في كلِّ فنٍّ مِنْ فنونِ العلمِ فأحكمَهُ وإن لم يُحكِمْهُ . . أخذَ منهُ بمِقدارِ ما يكتفي بهِ ، يَعرِفُ بغريزةِ عقلِهِ ، وحسنِ أدبِهِ ، وفضلِ تجربتِهِ . . ما يَرِدُ عليهِ قبلَ ورودِهِ ، وعاقبةَ ما يَصدُرُ عنهُ قبلَ صدورِهِ ، فيُعِدُّ لكلِّ أمرٍ عدَّتَهُ وعتادَهُ ، ويُهيِّئُ لكلِّ وجهٍ هيئتَهُ وعادتَهُ .

فتنافسوا يا معشرَ الكُتَّابِ في صنوفِ الآدابِ ، [وتَفقَّهوا] في الدينِ ، وابدؤوا بعلمِ كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ والفرائضِ ، ثمَّ العربيةِ ؛ فإنَّها [ثقافُ] ألسنتِكُم ، ثمَّ أجيدوا الخطَّ ؛ فإنَّهُ حليةُ كتبِكُم ، وارؤُوا الأشعارَ ، واعرفوا غريبَها ومعانيَها ، وأيامَ العربِ والعجمِ ، وأحاديثَها وسيرَها ؛ فإنَّ ذٰلكَ مُعِينٌ لكُم علىٰ ما تسمُو إليهِ هممُكُم ، ولا تُضيِّعوا النظرَ في الحسابِ ؛ فإنَّهُ قوامُ

كُتَّابِ الخراجِ ، وارغبوا بأنفسِكُم عنِ المطامعِ ، سَنيِّها ودَنيِّها ، وسَفسافِ الأمورِ ومَحاقرِها ؛ فإنَّها مذلَّةٌ للرقابِ ، مفسدةٌ للكُتَّابِ ، ونزِّهوا صناعتَكُم عنِ الدناءةِ ، واربؤوا بأنفسِكُم عنِ السِّعايةِ والنميمةِ وما فيهِ أهلُ الجهالاتِ ، وإياكُم والكبرَ والسخفَ والعظمةَ ؛ فإنَّها عداوةٌ مجتلبةٌ مِنْ غيرِ إحنةٍ ، وتحابُّوا في اللهِ عزَّ وجلَّ في صناعتِكُم وتواصُوا عليها بالذي هوَ أليقُ لأهلِ الفضلِ والعدلِ والنبلِ مِنْ سلفِكُم .

وإن نبا الزمانُ برجلٍ منكُم . . فاعطفوا عليهِ ، وواسوهُ حتىٰ يرجعَ إليهِ حالُهُ ، ويثوبَ إليهِ أمرُهُ ، وإن أقعدَ أحداً منكُمُ الكبرُ عن مكسبِهِ ولقاءِ إخوانِهِ . . فزوروهُ وعظِّموهُ وشاوروهُ ، واستظهروا بفضلِ تجربتِهِ وقديمِ معرفتِهِ ، وليكنِ الرجلُ منكُم علىٰ مَنِ اصطنعَهُ واستظهرَ بهِ ليومِ حاجتِهِ إليهِ . . أحوطَ منهُ علىٰ ولدِهِ وأخيهِ ؛ فإن عرضَتْ في الشغلِ محمدةٌ . . فلا يَصرِفْها إلَّا إلىٰ صاحبِهِ ، وإن عرضَتْ مَذمَّةٌ . . فليحملْها هوَ مِنْ دونِهِ ، وليحذرِ السقطةَ والزلَّةَ والمَلَلَ عندَ تغيُّرِ الحالِ ؛ فإنَّ العيبَ إليكُم ـ مَعشرَ الكُتَّابِ ـ أسرعُ منهُ إلى الفِرَاءِ ، وهوَ لكم أفسدُ منهُ لها .

فقد علمتُم أنَّ الرجلَ منكُم إذا صحبَهُ مَنْ يَبذُلُ لهُ مِنْ نفسِهِ ما يجبُ لهُ عليهِ من حقِّهِ . . فواجبٌ عليهِ أن يعتقدَ لهُ مِنْ وفائِهِ وشكرِهِ واحتمالِهِ ونصيحتِهِ وكتمانِ سِرِّهِ وتدبيرِ أمرِهِ ما هوَ جزاءٌ لحقِّهِ ، ويُصدِّقُ ذٰلكَ فعلُهُ عندَ الحاجةِ إليهِ ، والاضطرارِ إلىٰ ما لديهِ .

فاستشعِروا ذٰلكَ ـ وَفَّقَكُمُ اللهُ ـ مِنْ أنفسِكُم في حالةِ الرخاءِ والشدَّةِ ، والحرمانِ والمواساةِ والإحسانِ ، والسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، فنعمَتِ الشِّيمةُ هٰذهِ لِمَنْ وُسِمَ بها مِنْ أهلِ هٰذهِ الصِّناعةِ الشريفةِ .

وإذا وليَ الرجلُ منكُم أو صُيِّرَ إليهِ مِنْ أمرِ خلقِ اللهِ وعيالِهِ أمرٌ . .

فليراقبِ اللهَ عزَّ وجلَّ ، وليؤثرْ طاعتَهُ ، وليكنْ على الضّعيفِ رفيقاً ، وللمظلومِ مُنصِفاً ، فإنَّ الخلقَ عيالُ اللهِ ، وأحبُّهُم إليهِ أرفقُهُم بعيالِهِ ، ثمَّ ليكنْ بالعدلِ حاكماً ، وللأشرافِ مُكرِماً ، وللفيءِ مُوفِّراً ، وللبلادِ عامراً ، وللرعيةِ مُتألِّفاً ، وعن أذاهُم مُتخلِّفاً ، وليكنْ في مجلسِهِ متواضعاً حليماً ، وفي سِجِلَّاتِ خَراجِهِ واستقضاءِ حقوقِهِ رفيقاً .

وإذا صحبَ أحدُكُم رجلاً . . فليختبرْ خلائقَهُ ، فإذا عرفَ حسنَها وقبيحَها . . أعانَهُ علىٰ ما يوافقُهُ مِنَ الحسنِ ، واحتالَ علىٰ صرفِهِ عمَّا يَهواهُ مِنَ القبيحِ بألطفِ حيلةٍ وأجملِ وسيلةٍ ، وقد علمتُم أنَّ سائسَ البهيمةِ إذا كانَ بصيراً بسياستِها . . التمسَ معرفةَ أخلاقِها ، فإن كانَتْ رَموحاً . . لم يهجْها إذا ركبَها ، وإن كانَتْ شبوباً . . اتَّقاها مِنْ بينِ يدَيها ، وإن خافَ منها شُروداً . . تَوقَّاها مِنْ ناحيةِ رأسِها ، وإن كانَتْ حَروناً . . قمعَ برفقٍ هواها في طرقِها ، فإنِ استمرَّتْ . . عطفَها يسيراً ، فيَسلَسُ لهُ قيادُها ، وفي هٰذا الوصفِ مِنَ السياسةِ دلائلُ لِمَنْ ساسَ الناسَ وعاملَهُم ، وجَرَّبَهُم وداخلَهُم .

والكاتبُ لفضلِ أدبِهِ ، وشريفِ صنعتِهِ ، ولطيفِ حيلتِهِ ، ومعاملتِهِ لِمَنْ [يحاورُهُ] مِنَ الناسِ ويناظرُهُ ، ويفهمُ عنهُ أو يخافُ سطوتَهُ . . أَولىٰ بالرفقِ لصاحبِهِ ومداراتِهِ وتقويمِ أَودِهِ مِنْ سائسِ البهيمةِ التي لا تَحِيرُ جواباً ، ولا تَعرِفُ صواباً ، ولا تفهمُ خطاباً ؛ إلَّا بقدرِ ما يُصيِّرُها إليهِ صاحبُها الراكبُ عليها ، ألا [فأمعنوا] ـ رحمَكُمُ اللهُ ـ في النظرِ ، وأعملوا ما أمكنَكُم فيهِ مِنَ الرويةِ والفكرِ . . تأمنوا بإذنِ اللهِ ممَّنْ صحبتُمُوهُ النبوةَ والاستثقالَ والجفوةَ ، ويصيرُ[1] منكُم إلى الموافقةِ ، وتصيروا منهُ إلى المؤاخاةِ والشفقةِ إن شاءَ اللهُ .

---

(١) كذا في الأصل و« صبح الأعشىٰ » (١/٨٧) بإثبات الياء .

ولا يُجاوِزَنَّ الرجلُ منكُم في هيئةِ مجلسِهِ ومَلبسِهِ ومَركبِهِ ومَطعمِهِ ومَشربِهِ وخَدَمِهِ وغيرِ ذٰلكَ مِنْ فنونِ أمرِهِ قدرَ حقِّهِ ؛ فإنَّكُم معَ ما فَضَّلَكُمُ اللهُ بهِ مِنْ شرفِ صنعتِكُم . . خَدَمةٌ ، لا تُحملونَ في خدمتِكُم على التقصيرِ ، وحفظةٌ لا تُحتمَلُ منكُم أفعالُ التضييعِ والتبذيرِ ، واستعينوا علىٰ أفعالِكُم بالقصدِ في كلِّ ما ذكرتُهُ لكُم وقصصتُهُ عليكُم .

واحذروا متالفَ السرفِ ، وسوءَ عاقبةِ الترفِ ؛ فإنَّهُما يُعقِبانِ الفقرَ ، ويُذِلَّانِ الرقابَ ، ويَفضحانِ أهلَهُما ، ولا سيّما الكُتَّابِ وأربابِ الآدابِ ، وللأمورِ أشباهٌ ، وبعضُها دليلٌ علىٰ بعضٍ ، فاستدلُّوا علىٰ مؤتنفِ أعمالِكُم بما سبقَتْ إليهِ تجربتُكُم ، ثمَّ اسلكوا مِنْ مسالكِ التدبيرِ أوضحَها محجَّةً ، وأصدقَها حُجَّةً ، وأحمدَها عاقبةً .

واعلموا : أنَّ للتدبيرِ آفةً مُتلفةً ؛ وهوَ الوصفُ الشاغلُ لصاحبِهِ عن إنفاذِ علمِهِ ورويتِهِ ، فليقصدِ الرجلُ منكُم في مجلسِهِ قصدَ الكافي في مَنطِقِهِ ، وليوجزْ في ابتدائِهِ وجوابِهِ ، وليأخذْ بمجامعِ حُجَجِهِ ، فإنَّ ذٰلكَ مصلحةٌ لفعلِهِ ، ومدفعةٌ للشاغلِ مِنْ إكثارِهِ ، وليضرعْ إلى اللهِ في صلةِ توفيقِهِ ، وإمدادِهِ بتسديدِهِ ؛ مخافةَ وقوعِهِ في الغلطِ المُضِرّ ببدنِهِ وعقلِهِ وأدبِهِ ؛ فإنَّهُ إن ظنَّ منكُم ظانٌّ ، أو قالَ قائلٌ : إنَّ الذي برزَ منِّي جميلُ صنعتُهُ ، وقُوَّةُ حركتِهِ إنَّما هوَ بفضلِ حيلتِهِ وحسنِ تدبيرِهِ(١) . . فقد تَعرَّضَ بحسنِ ظنِّهِ أو مقالتِهِ إلىٰ أن يَكِلَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ إلىٰ نفسِهِ ، فيصيرَ منها إلىٰ غيرِ كافٍ ، وذٰلكَ علىٰ مَنْ تَأمَّلَهُ غيرُ خافٍ .

ولا يقلْ أحدٌ منكُم : إنَّهُ أبصرُ بالأمورِ وأحملُ لأعباءِ التدبيرِ مِنْ مرافقِهِ في صناعتِهِ ، ومصاحبِهِ في خدمتِهِ ؛ فإنَّ أعقلَ الرجلَينِ عندَ ذوي الألبابِ مَنْ

---

(١) في « صبح الأعشىٰ » : (إن الذي برز من جميل صنعته ، وقوة حركته . . .) .

رمىٰ بالعجبِ وراءَ ظهرِهِ ، ورأىٰ أنَّ أصحابَهُ أعقلُ منهُ وأجملُ في طريقتِهِ .

وعلىٰ كلِّ واحدٍ مِنَ الفريقَينِ أن يَعرِفَ فضلَ نعمِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ ؛ مِنْ غيرِ اغترارٍ برأيِهِ ، ولا تزكيةٍ لنفسِهِ ، ولا يكاثرَ علىٰ أخيهِ أو نظيرِهِ ، وصاحبِهِ وعشيرِهِ .

وحمدُ اللهِ واجبٌ على الجميعِ ؛ وذٰلكَ بالتواضعِ لعظمتِهِ ، والتذلُّلِ لعِزَّتِهِ ، والتحدُّثِ بنعمتِهِ ، وأنا أقولُ في كتابي هٰذا ما سبقَ بهِ المثلُ : مَنْ تلزمُهُ النصيحةُ . . يلزمُهُ العملُ ، وهوَ جوهرُ هٰذا الكتابِ وغُرَّةُ كلامِهِ ، بعدَ الذي فيهِ مِنْ ذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلذٰلكَ جعلتُهُ آخِرَهُ وتَمَّمتُهُ بهِ ، تَولَّانا اللهُ وإيَّاكُم يا معشرَ الطَّلبةِ والكتبةِ بما يَتولَّىٰ بهِ مَنْ سبقَ علمُهُ بإسعادِهِ وإرشادِهِ ؛ فإنَّ ذٰلكَ إليهِ وبيدِهِ ، والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ .

❁ ❁

قولُ عبدِ الحميدِ في آفةِ التدبيرِ : هو ما سبقَتِ الإشارةُ إلىٰ وجوبِ التحرُّزِ منهُ مِنْ زيادةِ الكلامِ على المقاصدِ زيادةً تمنعُ صاحبَ الكاتبِ وهوَ أميرُهُ عن إنفاذِ علمِهِ وإعمالِ رويتِهِ في تلكَ المقاصدِ ، فيجبُ الاقتصارُ علىٰ أقوى الحججِ بمنفعةِ ما يُرادُ إجراؤُهُ ، ولا يذهبْ كثيراً مِنَ الأوقاتِ بالاشتغالِ في الأوصافِ وعددِ المحاسنِ والمساوي بالعباراتِ المختلفةِ ، إلَّا حيثُ يقتضي الحالُ ذٰلكَ .

ومشاهيرُ هٰذهِ الطَّبقةِ التي افتتحَها عبدُ الحميدِ هٰذا كثيرٌ ؛ كالربيعيِّ ، والفضلِ ابنِهِ ، ويعقوبَ بنِ داوودَ ، وبني برمكَ ، ومحمدِ بنِ عبدِ الملكِ الزيَّاتِ في أوائلِ الدولةِ العباسيَّةِ وبني الفراتِ ، والأستاذِ ابنِ العميدِ ، والصَّاحبِ إسماعيلَ بنِ عبادٍ ، وأبي إسحاقَ الصَّابئِ ، وأبي الفضلِ أحمدَ المعروفِ ببديعِ الزمانِ وأبي بكرٍ الخوارزميِّ في أواسطِها .

[أمثلةٌ للطبقةِ الثانيةِ]

وهٰذهِ أمثلةٌ تَعرِفُ بها ما كانَ عليهِ حالُ الكتابةِ في هٰذهِ الطَّبقةِ التي تُعقِبُها الطَّبقةُ الثالثةُ المفتتحةُ بعبدِ الرحيمِ البَيْسانيِّ المشهورِ بالقاضي الفاضلِ وزيرِ صلاحِ الدِّينِ يوسفَ بنِ أيوبَ أوَّلِ ملوكِ الكردِ بمصرَ :

[كتابُ المعتصمِ إلىٰ نواحي بلادِ المسلمينَ]

صورةُ كتابٍ عنِ المعتصمِ إلىٰ نواحي بلادِ الإسلامِ : يَتضمَّنُ شكرَ اللهِ على الظَّفَرِ بعدوٍّ ، والبشارةَ بذٰلكَ (١) :

أمَّا بعدُ : فالحمدُ للهِ الذي جعلَ العاقبةَ لدينِهِ ، والعصمةَ لأوليائِهِ ، والعِزَّ لِمَنْ نصرَهُ ، والفلجَ لِمَنْ أطاعَهُ ، والحقَّ لِمَنْ عرفَ حَقَّهُ ، وجعلَ دائرةَ السَّوْءِ علىٰ مَنْ عصاهُ ، وصدفَ عنهُ ، ورغبَ عن ربوبيتِهِ ، وابتغىٰ إلـٰهاً غيرَهُ ، لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، يَحمَدُهُ أميرُ المؤمنينَ حمدَ مَنْ لا يَعبدُ غيرَهُ ، ولا يَتوكَّلُ إلَّا عليهِ ، ولا يُفَوِّضُ أمرَهُ إلَّا إليهِ ، ولا يرجو الخيرَ إلَّا مِنْ عندِهِ ، والمزيدَ إلَّا مِنْ سعةِ فضلِهِ ، ولا يَستعينُ في أحوالِهِ كلِّها إلَّا بهِ ، ويَسألُهُ أن يصليَ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ ، وصفوتِهِ مِنْ عبادِهِ ، الذي ارتضاهُ لنبوَّتِهِ ، وابتعثَهُ بوحيِهِ ، واختصَّهُ بكرامتِهِ ، فأرسلَهُ بالحقِّ شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً ، وداعياً إلى اللهِ بإذنِهِ وسراجاً منيراً .

والحمدُ للهِ الذي [تَوجَّهَ] لأميرِ المؤمنينَ بصنعِهِ ، فيَسَّرَ لهُ أمرَهُ ، وصَدَّقَ لهُ ظنَّهُ ، وأنجحَ لهُ طلبتَهُ ، وبلغَ لهُ محبَّتَهُ ، وأدركَ المسلمونَ بثأرِهِم علىٰ يدِهِ ، وقتلَ عدوَّهُم ، وأسكنَ رَوعتَهُم ، ورحمَ فاقتَهُم ، وآنسَ وَحشتَهُم ، فأصبحوا آمنينَ مطمئنينَ ، مقيمينَ في ديارِهِم ، مُتمكِّنينَ في أوطانِهِم ، بعدَ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٤٠٠ ـ ٤٠٤) .

القتلِ [والخوفِ] والتشريدِ ، وطولِ العَناءِ وتتابعِ البلاءِ ؛ مَنّاً مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ علىٰ أميرِ المؤمنينَ بما خَصَّهُ بهِ ، وصنعاً لهُ فيما وَفَّقَهُ لطلبِهِ ، وكرامةً زادَها فيما أجرىٰ علىٰ يدِهِ .

فالحمدُ للهِ كثيراً كما هوَ أهلُهُ ، وتَرغُّباً إلى اللهِ في تمامِ نعمِهِ ودوامِ صنعِهِ ، وسعةِ ما عندَهُ بمَنِّهِ ولطفِهِ .

ولا يَعلَمُ أميرُ المؤمنينَ ـ معَ كثرةِ أعداءِ المسلمينَ ، وتَكنُّفِهِم إيَّاهُم مِنْ أقطارِهِم ، والضَّغائنِ التي في قلوبِهِم علىٰ أهلِهِ ، وما يَترصَّدونَهُ مِنَ العداوةِ ، ويَنطوُونَ عليهِ مِنَ المكايدةِ ؛ إذ كانَ هوَ الظَّاهرَ عليهِم ، والآخذَ منهُم ـ عدوّاً كانَ أعظمَ بليَّةً ، ولا أجلَّ خَطْباً ، ولا أشدَّ كَلَباً ، ولا أبلغَ مكايدةً ، ولا أرمىٰ بمكروهٍ . . مِنْ هٰؤلاءِ الكَفَرةِ الذينَ [يغزوهُمُ][1] المسلمونَ ، فيستعلونَ عليهِم ، ويضعونَ أيديَهُم حيثُ شاؤوا منهُم ، ولا يقبلونَ لهُم صلحاً ، ولا يميلونَ معَهُم إلىٰ موادعةٍ وإن كانَتْ لهُم علىٰ طُولِ الأيامِ وتَصرُّفِ الحالاتِ وبعضِ ما لا يزالُ يكونُ مِنْ فتراتِ وُلاةِ الثغورِ . . أدنىٰ دولةٍ مِنْ دولاتِ الظَّفَرِ ، وخُلْسةٍ مِنْ خلسِ الحربِ ؛ كانَ بما لهُم مِنْ خوفِ العاقبةِ في ذٰلكَ مُنغِّصٌ لِمَا تَعجَّلوا مِنْ سرورِهِ ، وما يَتوقَّعونَ مِنَ الدَّوائرِ بعدُ مُكدِّرٌ لِمَا وصلَ إليهِم مِنْ فرحةٍ .

فأمَّا اللعينُ بَابَكُ وكَفَرَتُهُ . . فإنَّهُم كانوا يَغزونَ أكثرَ ممَّا يُغزَونَ ، وينالونَ أكثرَ ممَّا يُنالُ منهُم ، ومنهُمُ المُنحرِفونَ عنِ الموادعةِ ، المُتوحِّشونَ عنِ المراسلةِ ، ومَنْ أُديلوا مِنْ تتابعِ الدولِ ، ولم يخافوا عاقبةً تدركُهُم ، ولا دائرةً تدورُ عليهِم ، وكانَ ممَّا وَطَّأَ ذٰلكَ ومَكَّنَهُ لهُم : أنَّهُم قومٌ ابتدؤوا أمرَهُم علىٰ حالِ تشاغلٍ مِنَ السُّلطانِ ، وتتابعٍ مِنَ الفتنِ ،

---

(١) في الأصل : (يغزونهم) .

[واضطرابٍ][(١)] مِنَ الحيلِ ، فاستقبلوا أمرَهُم بعِزَّةٍ مِنْ أنفسِهِم ، واستشارةٍ مِنْ ذوي آرائِهِم ، فأجلَوْا مَنْ حولَهُم لتخلُصَ البلادُ لهُم ، ثمَّ أخربوا البلادَ ليَعِزَّ مطلبُهُم ، وتَشتدَّ المؤنةُ ، وتعظُمَ الكلفةُ ، ويقوَوْا في ذاتِ أيديهِم ، فلم يتوافَ قُوَّادُ السُّلطانِ إلَّا وقد توافَتْ إليهِمُ القُوَّةُ مِنْ كلِّ جانبٍ ، فاستفحلَ أمرُهُم ، وعَظُمَتْ شوكتُهُم ، واشتدَّتْ ضروراتُهُم[(٢)] ، واستجمعَ لهُم كيدُهُم ، وكثُرَ عددُهُم واعتدادُهُم ، وتَمكَّنَتِ الهيبةُ في صدورِ الناسِ منهُم ، وتَحقَّقَ في نفوسِهِم أنَّ كلَّ ما يَعِدُهُمُ الكافرُ ويُمنِّيهِم أخذٌ باليدِ ، وكانَ الذي بقيَ عندَهُم منهُ كالذي مضىٰ ، وبدونِ هٰذا ما يُخْتَدَعُ الأريبُ ، ويُستنزَلُ العاقلُ ، ويُعتَقَلُ الفطنُ ، فكيفَ بمَنْ لا فكرةَ لهُ ولا رويَّةَ عندَهُ ؟!

هٰذا معَ كلِّ ما في قلوبِهِم مِنْ حسدِ أهلِ النعمِ ، ومنافستِهِم علىٰ ما في أيديهِم ، وتقطُّعِهِم حسراتٍ في أثرِ ما خُصُّوا بهِ ، وأنَّهُم إلَّا يكونوا يرونَ أنفسَهُم أحقَّ بذٰلكَ . . فإنَّهُم فيهِ سواءٌ .

ولم يزلْ أميرُ المؤمنينَ قبلَ أن تُفضِيَ إليهِ الخلافةُ مادّاً عنقَهُ ، مُوجِّهاً هِمَّتَهُ إلىٰ أن يوليَهُ اللهُ أمرَ هٰؤلاءِ الكَفَرَةِ ، ويُملِّكَهُ حربَهُم ، [ويَجعلَهُ] القارعَ لهُم عن دينِهِ ، [والمناجزَ] لهُم عن حَقِّهِ ، فلم يكنْ يألو في ذٰلكَ حرصاً وطلباً واحتيالاً ، فكانَ أميرُ المؤمنينَ رضيَ اللهُ عنهُ يأبىٰ ذٰلكَ ، لضنِّهِ بهِ ، وصيانتِهِ لهُ .

فلمَّا أفضى اللهُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ بخلافتِهِ ، وأطلقَ الأمرَ في يدِهِ . . لم يكنْ شيءٌ أحبَّ إليهِ ولا آخذَ بقلبِهِ مِنْ معاجلةِ الكافرِ وكَفَرَتِهِ ، وأعـزَّهُ اللهُ وأعانَهُ ، فللهِ الحمدُ علىٰ ذٰلكَ وتَيسُّرِهِ ، فأعدَّ مِنْ أموالِهِ

---

(١) في الأصل : (واطراب) .

(٢) كذا في الأصل و« صبح الأعشىٰ » (٦/٤٠٢) ، ولعل الأنسب : (ضراوتهم) .

[أخطرَها] ، ومِنْ قُوَّادِ جيشِهِ أعلمَهُم بالحربِ ، وأنهضَهُم بالمُعضِلاتِ ، ومِنْ أوليائِهِ وأبناءِ دعوتِهِ ودعوةِ آبائِهِ صلواتُ اللهِ عليهِم أحسنَهُم طاعةً ، وأشدَّهُم نكايةً ، وأكثرَهُم عدَّةً ، ثمَّ أتبعَ الأموالَ بالأموالِ ، والرجالَ بالرجالِ ، مِنْ خاصَّةِ مواليهِ وعددِ غلمانِهِ ، وقبلَ ذٰلكَ ما اتَّكلَ عليهِ مِنْ صنْعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، ووَجَّهَ إليهِ مِنْ [رعبتِهِ] ، فكيفَ رأى الكافرُ اللعينُ وأصحابُهُ الملاعينُ أنَّ اللهَ يكذبُ ظنونَهُم ، ويشفي صدورَ أوليائِهِ منهُم ، يقتلونَهُم كيفَ شاؤوا في كلِّ موطنٍ ومعتركٍ ، ما دامَتْ عندَ أنفسِهِم مقاومةٌ ؟!

فلمَّا ذلُّوا وقلُّوا وكرهوا الموتَ . . صاروا لا يَتراءَونَ إلَّا في رؤوسِ الجبالِ ، ومضايقِ الطرقِ ، وخلفَ الأوديةِ ، ومِنْ وراءِ الأنهارِ ، وحيثُ لا تنالُهُمُ الخيلُ ؛ طلباً للمطاولةِ ، وانتظاراً للدوائرِ ، فكادَهُمُ اللهُ عندَ ذٰلكَ وهوَ خيرُ الكائدينَ ، واستدرجَهُم حتىٰ جمعَهُم إلىٰ حصنِهِم معتصمينَ فيهِ عندَ أنفسِهِم ، فجعلَ اعتصامَهُم جُبناً لهُم ، وصنعاً لأوليائِهِ ، وإحاطةً منهُ بهِم ، تباركَ وتعالىٰ ، فجمعَهُم وحصرَهُم ؛ لكي لا تبقىٰ منهُم بقيةٌ ، ولا تُرجىٰ لهُم عاقبةٌ ، ولا يكونَ الدِّينُ إلَّا للهِ ، ولا العاقبةُ إلَّا لأوليائِهِ ، ولا التعسُ والنكسُ إلَّا لِمَنْ خذلَهُ .

فلمَّا حصرَهُمُ اللهُ ، وحبسَهُم عليهِم ، ودانَتْهُم مصارعُهُم . . سَلَّطَهُمُ اللهُ عليهِم كيدٍ واحدةٍ ، يَختطفونَهُم بسيوفِهِم ، ويَنتظمونَهُم برماحِهِم ، فلا يجدونَ ملجأً ولا مهرباً ، ثمَّ أمكنَهُم مِنْ أهاليهِم وأولادِهِم ، ونسائِهِم وحرمِهِم ، وصيَّروا الدارَ دارَهُم ، والمَحَلَّةَ مَحَلَّتَهُم ، والأموالَ قسماً بينَهُم ، والأهلَ إماءً وعبيداً .

وفوقَ ذٰلكَ كلِّهِ ما أعدَّ اللهُ لهٰؤلاءِ مِنَ الرحمةِ والثوابِ ، وما أعدَّ لأولٰئكَ

مِنَ الخزيِ والعقابِ ، وصارَ الكافرُ بَابَكُ لا فيمَنْ قُتِلَ فسلمَ مِنْ ذلِّ الغلبةِ ، ولا فيمَنْ نجا فعاينَ في الحياةِ بعضَ العوضِ ، ولا فيمَنْ أُصيبَ فيشتغلَ بنفسِهِ عنِ المصيبةِ بما سواهُ ، لـٰكنَّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ أطلقَهُ [وسدَّ] مذاهبَهُ ، وتركَهُ بينَ الذلِّ والخوفِ ، والغصَّةِ والحسرةِ ، حتىٰ إذا ذاقَ طعمَ ذٰلكَ كلِّهِ ، وفهمَهُ وعرفَ موقعَ المصيبةِ ، وظنَّ معَ ذٰلكَ كلِّهِ أنَّهُ علىٰ طريقٍ مِنَ النجاةِ . . ضربَ اللهُ وجهَهُ ، وأعمىٰ بصرَهُ ، وسدَّ عليهِ ، وأخذَ بسمعِهِ وبصرِهِ ، وحازَهُ إلىٰ مَنْ لا يرقُّ لهُ ، ولا يرثي لمصرعِهِ .

فامتثلَ ما أمرَ بهِ الأفشينُ حيدرُ بنُ طاووسٍ مولىٰ أميرِ المؤمنينَ في أمرِهِ ، فبثَّ لهُ الحبائلَ ، ووضعَ عليهِ الأرصادَ ، ونصبَ لهُ الأشراكَ ؛ حتىٰ أظفرَهُ اللهُ بهِ أسيراً ذليلاً ، موثقاً في الحديدِ ، يراهُ في تلكَ الحالةِ مَنْ كانَ يراهُ ربّاً ، ويرى الدائرةَ عليهِ مَنْ كانَ يظنُّ أنَّها ستكونُ لهُ ، فالحمدُ للهِ الذي أعزَّ دينَهُ ، وأظهرَ حجَّتَهُ ، ونصرَ أولياءَ مَنْ أهلكَ أعداءَهُ ، حمداً يُقضَىٰ بهِ الحقُّ ، وتَتِمُّ بهِ النعمةُ ، وتَتَّصِلُ بهِ الزيادةُ .

والحمدُ للهِ الذي فتحَ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ، وحَقَّقَ ظنَّهُ ، وأنجحَ سعيَهُ ، وحازَ لهُ أجرَ هـٰذا الفتحِ [وذخرَهُ] وشرفَهُ ، وجعلَهُ خالصاً لتمامِهِ وكمالِهِ بأكملِ الصنعِ وأحسنِ الكفايةِ ، ولا خلا مِنْ سرورٍ يراهُ ، وبشارةٍ تَتجَدَّدُ لهُ عندَهُ ، فالحمدُ للهِ أوَّلاً ، والحمدُ للهِ آخِراً ، والحمدُ للهِ علىٰ عطاياهُ التي لا تُحصىٰ ، ونعمِهِ التي لا تُنسىٰ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

وهـٰذا الكتابُ مِنَ البليغِ المرسلِ الوافي ، إذا تأمَّلتَهُ . . وجدتَهُ قد شرحَ الحالَ علىٰ أحسنِ وجهٍ وأجملِهِ ، لم يغادرْ دقيقةً إلَّا أظهرَها ، وأكملَ الحديثَ عنها ، مِنْ أوَّلِ فكرةٍ إلىٰ آخرِ عاقبةٍ .

[كتابُ الخليفةِ الطَّائعِ إلىٰ أبي كيجارَ بنِ بُوَيهِ]

وهٰذهِ صورةُ كتابٍ مِنْ إنشاءِ أبي إسحاقَ الصَّابئِ : عنِ الخليفةِ الطَّائعِ ، إلىٰ صمصامِ الدولةِ ابنِ عضدِ الدولةِ بنِ بويهِ ، بسببِ كردويهِ الخارجِ عنِ الطاعةِ [1] :

مِنْ عبدِ اللهِ عبدِ الكريمِ الإمامِ الطَّائعِ للهِ أميرِ المؤمنينَ ، إلىٰ صمصامِ الدولةِ وشمسِ المِلَّةِ ، أبي كيجارَ بنِ عضدِ الدولةِ وتاجِ المِلَّةِ ، مولىٰ أميرِ المؤمنينَ : سلامٌ عليكَ ، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يَحمدُ إليكَ اللهَ الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ ، ويسألُهُ أن يُصلِّيَ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ .

أمَّا بعدُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَكَ ـ : فإنَّ أميرَ المؤمنينَ وإن كانَ قد بَوَّأَكَ المنزلةَ العليا ، وأنالَكَ مِنْ أُثْرتِهِ الغايةَ القصوىٰ ، وجعلَ لكَ ما كانَ لأبيكَ عضدِ الدولةِ وتاجِ المِلَّةِ رحمةُ اللهِ عليهِ مِنَ القَدْرِ والمَحَلِّ ، والموضعِ الأرفعِ الأجلِّ . . فإنَّهُ يُوجِبُ لكَ عندَ كلِّ أثرٍ يكونُ لكَ في الخدمةِ ، ومَقامِ حمدٍ تقومُهُ في حمايةِ البيضةِ . . إنعاماً يظاهرُهُ ، وإكراماً يتابعُهُ ويواترُهُ ، واللهُ يُؤيِّدُكَ مِنْ توفيقِهِ وتسديدِهِ ، ويُمِدُّكَ بمعونتِهِ وتأييدِهِ ، ويخيرُ لأميرِ المؤمنينَ فيما رأيُهُ مُستمرٌّ عليهِ مِنْ مزيدِكَ وتمكينِكَ ، والإنافةِ بكَ وتعظيمِكَ ، وما توفيقُ أميرِ المؤمنينَ إلَّا باللهِ ، عليهِ يتوكَّلُ وإليهِ ينيبُ .

وقد عرفتَ ـ أدامَ اللهُ عزَّكَ ـ ما كانَ مِنْ أمرِ كردويهِ كافرِ نعمةِ أميرِ المؤمنينَ ونعمتِكَ ، وجاحدِ صنيعِهِ وصنيعِكَ ؛ في الوثبةِ التي وثبَها ، والكبيرةِ التي ارتكبَها ، وتقديرِهِ أن ينتهزَ الفرصةَ التي لم يُمكِّنْهُ اللهُ منها ، بل كانَ مِنْ وراءِ دفعِهِ وردِّهِ عنها ، ومعاجلتِكَ إيَّاهُ الحربَ التي أصلاهُ اللهُ نارَها ، وقَنَّعَهُ عارَها

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٩٦ ـ ٣٩٧) .

وشنارَها ، حتى انهزمَ والأوغادَ الذينَ شركوهُ في إثارةِ الفتنةِ علىٰ أقبحِ أحوالِ الذلَّةِ والقِلَّةِ ، بعدَ القتلِ الذَّريعِ ، والإثخانِ [الوجيعِ] ، فالحمدُ للهِ علىٰ هٰذهِ النعمةِ التي جَلَّ موقعُها ، وبانَ على الخاصَّةِ والعامَّةِ أثرُها ، ولزمَ أميرَ المؤمنينَ خصوصاً والمسلمينَ عموماً نشرُها ، والحديثُ بها ، وهوَ المسؤولُ إقامتَها وإدامتَها برحمتِهِ .

وقد رأىٰ أميرُ المؤمنينَ أن يجازيَكَ عن هٰذا الفتحِ العظيمِ ، والمَقامِ المجيدِ الكريمِ ؛ بخِلَعٍ تامَّةٍ ، ودابَّتَينِ ومركبَينِ [ذهباً] مِنْ مراكبِهِ ، وسيفٍ وطوقٍ وسوارٍ مُرَصَّعٍ ، فتلقَّ ذٰلكَ بشكرِهِ عليهِ ، والاعتدادِ بنعمتِهِ فيهِ ، والبسْ خلعَ أميرِ المؤمنينَ وتَكرِمتَهُ ، وسِرْ مِنْ بابِهِ علىٰ حملانِهِ ، وأظهرْ ما حباكَ بهِ لأهلِ حضرتِهِ ؛ ليُعِزَّ اللهُ بكَ وليَّهُ ووليَّكَ ، ويُذِلَّ عدوَّهُ وعدوَّكَ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ تعالىٰ وبركاتُهُ .

[تعزيةُ الخليفةِ المقتفي للسلطانِ مسعودٍ بوفاةِ ابنِهِ]

وهٰذهِ صورةُ كتابِ تعزيةٍ : عنِ الخليفةِ المقتفي إلى السُّلطانِ مسعودِ بنِ محمدِ بنِ ملكشاهٍ السَّلْجُوقيِّ عندَ وفاةِ ابنِهِ (١) :

مِنْ عبدِ اللهِ أبي عبدِ اللهِ محمدٍ المقتفي لأمرِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ ، إلىٰ شاهنشاهٍ المعظمِ ، مولى الأممِ ، مالكِ رقابِ العربِ والعَجَمِ ، جلالِ دينِ اللهِ ، ظهيرِ عبادِ اللهِ ، حافظِ بلادِ اللهِ ، معينِ خليفةِ اللهِ ، غياثِ الدُّنيا والدِّينِ ، ناصرِ الإسلامِ والمسلمينَ ، محيي الدَّولةِ القاهرةِ ، مُعِزِّ المِلَّةِ الزاهرةِ ، عمادِ المِلَّةِ الباهرةِ ؛ أبي الفتحِ مسعودِ بنِ محمدٍ ملكشاهٍ ، قسيمِ أميرِ المؤمنينَ : سلامٌ عليكَ ، فإنَّ أميرَ المؤمنينَ يَحمدُ إليكَ اللهَ

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٣٩٧ ـ ٣٩٩) .

الذي لا إلٰهَ إلَّا هوَ ، ويَسألُهُ أن يُصلِّيَ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ ويُسلِّمَ تسليماً .

أمَّا بعدُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَكَ ، وأدامَ عِزَّكَ وتأييدَكَ ، وسعادتَكَ ونعمتَكَ ، وأحسنَ حفظَكَ وكلاءتَكَ ورعايتَكَ ، وأمتعَ أميرَ المؤمنينَ بكَ ، [وبالنعمةِ] الجليلةِ والموهبةِ الجزيلةِ والمِنحةِ النفيسةِ فيكَ وعندَكَ ، ولا أخلاهُ منكَ ـ : فإنَّ أَولىٰ مَنِ ادَّرعَ للحوادثِ جُنَّةَ الاصطبارِ ، ونظرَ أحوالَ الدنيا في تقلُّبِها بعينِ الاعتبارِ ، ورجعَ إلى اللهِ في قدرِهِ وقضائِهِ ، وسَلَّمَ لأمرِهِ الذي لا رادَّ لهُ في امتحانِهِ وابتلائِهِ ، وعرفَ أنَّ لهُ سبحانَهُ في كلِّ ما يجريهِ علىٰ عبادِهِ حكمةً باطنةً ، ومصلحةً كامنةً ؛ مِنْ خيرٍ عاجلٍ ييسرُهُ ، وثوابِ آجلٍ يُؤخِّرُهُ لهُم إلىٰ يومِ الجزاءِ ويَدَّخِرُهُ ، وفائدةٍ هوَ أدرىٰ بها وأعلمُ ، وفعلةٍ فيها أتقنَ وأحكمَ . . مَنْ خَصَّهُ بما خَصَّكَ اللهُ بهِ مِنَ الدِّينِ الراجحِ ، والخُلُقِ الصالحِ ، والمُعتقَدِ الواضحِ ، والنعمِ التي جادَكَ في كلِّ يومٍ سحابُها ، واتَّسعَتْ بينَ يدَيكَ عندَ مضايقِ الأمورِ رحابُها ، وأنِسَتْ إذا استوحشَتْ مِنَ العاجزينَ عنِ ارتباطِها بالشُّكرِ صحابُها ، والمناقبِ التي فرعتَ بها صهواتِ المجدِ ، وتَملَّكتَ رقَّ الثناءِ والحمدِ ، وعلوتَ فيها عنِ المساجلِ والمطاولِ ، وبَعُدَ ما [حضرَ] لكَ منها عن أن تَنالَهُ يدُ متناولٍ .

وتأدَّىٰ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ ـ أمتعَهُ اللهُ ببقائِكَ ، ودافعَ لهُ عن حَوبائِكَ ـ نبأُ الحادثةِ بسليلِكَ الذي اختارَ اللهُ لهُ كريمَ جوارِهِ ، فأحبَّ لهُ الانتقالَ إلىٰ محلِّ الفوزِ ومدارِهِ ، فوجدَ لذٰلكَ وجوماً مُوفَّراً ، وهمّاً للسكونِ مُنفِّراً ، وتَوزُّعاً تقتضيهِ المشاركةُ لكَ فيما ساءَ وسرَّ ، والمساهمةُ الحاصلةُ في كلِّ ما حلا مِنَ الأمورِ وأمرَّ ، وأمرَ عندَ ورودِ هٰذا الخبرِ بالتصدِّي للعزاءِ ، وإعلانِ ما يعلنُ عن مقاسمتِكَ في الضَّرَّاءِ ـ دفعَها اللهُ عنكَ ـ والسَّراءِ ، إلىٰ ما أبانَ عنِ انصرافِ الهممِ الإماميةِ إليكَ فيما خَصَّ وعمَّ مِنْ حالِكَ ، واستجلابِهِ لكَ

دواعيَ المَسارِّ في حِلِّكَ وتَرحالِكَ ، وكونِ الأفكارِ الشريفةِ موكلةً بكلِّ ما حمىٰ مِنَ الروائعِ قلبَكَ ، وأعذبَ شربَكَ ، وأنتَ حقيقٌ بمعرفةِ هٰذهِ الحالِ مِنْ طويَّتِهِ لكَ ونيَّتِهِ ، ورأيِهِ فيكَ وشفقتِهِ ، ورعايةِ مصلحتِكَ منهُ بعينٍ كاليةٍ ، ورجوعِهِ مِنَ المحافظةِ في حقِّكَ إلىٰ ألفةٍ بالصَّفاءِ حاليةٍ ، وتلقِّي الرزيَّةِ التي أرادَها اللهُ وقضاها ، وأنفذَ مشيئتَهُ فيها وأمضاها ؛ بالصَّبرِ المأمورِ بهِ ، والاحتسابِ والتسليمِ الموعودِ عليهِ بجزيلِ الثوابِ ، علماً أنَّ الأقدارَ لا تُغالَبُ ، وغريمَها لا يُطالَبُ ، وأن لا سبيلَ لأحدٍ مِنْ خلقِهِ إلى البقاءِ ، ولا طريقَ للخلودِ في دارِ الفَناءِ ، ولا دافعَ لحكمِهِ جَلَّتْ عظمتُهُ فيما قَدَّرَهُ مِنَ الآجالِ ، وسبقَ في علمِهِ مِنَ الرَّوائعِ في الابتلاءِ والأوجالِ ، وما يزالُ التطلُّعُ واقعاً إلىٰ وصولِ جوابِكَ الدالِّ على السلوةِ التي هيَ أليقُ بكَ ، والأدعىٰ إلىٰ حصولِ بغيتِكَ مِنْ رضا اللهِ وأربِكَ لتُحَطَّ الأنسةُ معَ وصولِهِ في رحالِها ، وتؤذنَ بصرفِ الهمومِ الجاريةِ لأجلِكَ وارتحالِها .

هٰذهِ مناجاةُ أميرِ المؤمنينَ لكَ أدامَ اللهُ تأييدَكَ وأمتعَ بكَ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ .

[صورةُ جوابٍ عنِ المقتفي]

وهٰذهِ صورةُ جوابٍ عنِ المقتفي إلىٰ غياثِ الدينِ مسعودٍ السَّلْجُوقيّ حيثُ كتبَ يخبرُهُ بعودِ خارجٍ إلى الطاعةِ[1] :

مِنْ عبدِ اللهِ أبي عبدِ اللهِ محمدٍ الإمامِ المقتفي لأمرِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ ، إلىٰ غياثِ الدِّينِ ـ وساقَ ما تَقدَّمَ مِنَ الألقابِ ثمَّ قالَ ـ :

أمَّا بعدُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَكَ ـ : فإنَّ كتابَكَ عُرِضَ بحضرةِ أميرِ المؤمنينَ

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٤٤٨ ـ ٤٤٩) .

مُعرِباً عن إخبارِ سعادتِكَ ، وجريِ الأمورِ علىٰ إرادتِكَ ، وبلوغِ الأغراضِ مِنَ الوجهةِ التي تَوجَّهتَ إليها ، والأطرافِ التي أشرقَتْ سعادتُكَ عليها ، بميامنِ ما تُكِنُّهُ مِنَ الطاعةِ الإماميةِ وتُضمِرُهُ ، وتَعتقِدُهُ مِنَ الإخلاصِ وتستشعرُهُ ، وإنَّ ركنَ الدِّينِ محمداً ومَنِ انضمَّ إلىٰ جملتِهِ ، وانتظمَ في سلكِ موافقتِهِ ؛ لمَّا ظفروا منكَ بذمامٍ اطمأنوا إليهِ وسكنوا ، وأمانٍ وثقوا بهِ وركنوا . . أبصروا الرشدَ فاتبعوهُ ، واستجابوا الداعيَ إذ سمعوهُ ، وأذعنوا بطاعتِكَ مسرعينَ ، وانقادوا إلىٰ متابعتِكَ مهطعينَ ، على استقرارِ مسيرِهِم تحتَ لوائِكَ إلىٰ بابِ [همذانَ] ؛ ليكونَ تقريرُ القواعدِ الجامعةِ للمصالحِ عندَ وصولِها ، والتوفُّرُ علىٰ تحرّي ما تَقَرُّ بهِ الخواطرُ معَ حلولِها ، ووقفَ عليهِ وعرفَ مضمونَهُ وجَدَّدَ ذٰلكَ لديهِ مِنَ الابتهاجِ والاغتباطِ الواضحِ المنهاجِ . . ما تقتضيهِ الثقةُ بولائِكَ ، واعتمادُهُ وتعويلُهُ علىٰ جميلِ معتقدِكَ ، واعتضادُهُ مِنْ طاعتِكَ بحبلٍ لا تنقضُ الأيامُ مُبرَمَهُ ، وسكونُهُ مِنْ ولائِكَ إلىٰ وزرٍ لا تروعُ المخاوفُ حرمَهُ ، وواصلَ شكرَ اللهِ تعالىٰ علىٰ ما شهدَتْ بهِ هٰذهِ النعمةُ العميمةُ والموهبةُ الجسيمةُ مِنْ إجابةِ الأدعيةِ التي ما زالَتْ جنودُها نحوَكَ مُجهَّزةً ، ووعودُهُ ـ جَلَّتْ عظمتُهُ ـ بقَبولِ أمثالِها مُنجَّزةً ، وإمدادُكَ منها بأمدادٍ تستدعي لكَ النصرَ وتَستنزلُهُ ، وتستكملُ الحظَّ مِنْ كلِّ خيرٍ وتستجزلُهُ ، وبلغَ الأملُ منكَ فيمَنْ هوَ العدَّةُ للمُلِمَّاتِ ، والحامي بتقريرِ الأنسِ مِنْ روائعِ الشتاتِ ، ومَنْ بقاؤُهُ يَكُفُّ عنِ الامتدادِ أكفَّ الخُطوبِ ، ويطلقُ وجوهَ المَسارِّ مِنْ عقلِ القطوبِ ، ويأبى اللهُ العادلُ في حكمِهِ وحكمتِهِ ، الرؤوفُ بعبادِهِ وخليفتِهِ . . إلَّا إعلاءَ كلمةِ الحقِّ بالهممِ الإماميَّةِ ، والإجراءَ علىٰ عوائدِ [صنيعتِهِ] الخفيةِ ، الكافلةِ بصلاحِ العبادِ والرعيةِ .

وقد أُقِيمَتْ أسواقُ التهنئةِ بهٰذهِ البشرىٰ ، وأفادَتْ جَذَلاً تتابعُ وفودِهِ

تَترىٰ ، لا سيَّما معَ الإشارةِ إلىٰ قُرْبِ الأوبةِ التي تدني كلَّ صلاحٍ وتجلبُهُ ، وتزيلُ كلَّ خللٍ أتعبَ القلوبَ وتذهبُهُ .

وإلى الباري جلَّ اسمُهُ الرغبةُ في اختصاصِكَ مِنْ عنايتِهِ بأحسنِ ما عهدتَهُ وأجملِهِ ، وصلةِ آخرِ وقتِكَ في نُجْحِ المساعي [بأوَّلِهِ] ، وألَّا يخليَ الدارَ العزيزةَ مِنْ إخلاصِكَ في ولائِها ، ورغبتِكَ في تحصيلِ مراضيها وشريفِ آرائِها .

هٰذهِ مناجاةُ أميرِ المؤمنينَ ـ أدامَ اللهُ تأييدَكَ وأمتعَ بكَ ـ جرىٰ فيها علىٰ عادةِ تَكرمتِهِ ، وأعربَ بها عنِ اعتقادِهِ فيكَ وطويَّتِهِ ، ومكانِكَ الأثيلِ في شريفِ حضرتِهِ ، وابتهاجِهِ بنعمةِ اللهِ عندَكَ وخيرتِهِ ، فتأمَّلْها تأمُّلاً يشاكلُ طاعتَكَ الصَّافيةَ مِنَ الشوائبِ والأقذاءِ ، وتَلقَّها بصدقِ الاعتمادِ عليها وحسنِ الإصغاءِ . . تفزْ بالإصابةِ قداحُكَ ، ويقربُ بالتوفيقِ مغداكَ ومراحُكَ ، إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ ، والسلامُ عليكَ ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ .

[جوابُ الحافظِ لدينِ اللهِ أبي الميمونِ للأميرِ ابنِ ظهيرِ الدِّينِ]

وهٰذهِ صورةُ جوابٍ عنِ الحافظِ لدينِ اللهِ ، أحدِ الفاطميينَ ؛ حيثُ وردَ عليهِ كتابٌ مِنْ أحدِ أمرائِهِ وكانَ أرسلَهُ إلى الدِّيارِ الشاميَّةِ ، وقد أخبرَ هٰذا الأميرُ في كتابِهِ أنَّهُ حَسَّنَ لفخرِ الملكِ التوجُّهَ إلىٰ مصرَ ، وأثنىٰ عليهِ بحسنِ اجتهادِهِ في قتالِ الإفرنجِ بطرابلسَ وقتلِهِ عظيمَهُم (١) :

مِنْ عبدِ اللهِ ووليِّهِ عبدِ المجيدِ أبي الميمونِ الإمامِ الحافظِ لدينِ اللهِ أميرِ المؤمنينَ ، إلى الأميرِ فلانٍ .

أمَّا بعدُ : فإنَّهُ عُرِضَ بحضرةِ أميرِ المؤمنينَ كتابُكَ مِنْ يدِ فتاهُ ووزيرِهِ ،

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٤٥٠ ـ ٤٥١) .

وصفِيِّهِ وظهيرِهِ ، العبدِ الأجلِّ الأفضلِ ، الذي بذلَ نفسَهُ في نصرةِ الدِّينِ يداً ولساناً ، وأوضحَ اللهُ للدولةِ الحافظيَّةِ بوزارتِهِ حُجَّةً وبرهاناً ، وأسبغَ النعمةَ علىٰ أهلِها ؛ فإنَّهُ جعلَهُ فيهِم ناظراً ولهُم سلطاناً ، ووَفَّقَهُ في حسنِ التدبيرِ ، والعملِ بما يقضي بمصالحِ الصغيرِ والكبيرِ ، ولمَّا أعادَ المملكةَ إلىٰ أفضلِ ما كانَتْ عليهِ مِنَ النضرةِ والبهجةِ ، ولم يُخْرِجِ المادحينَ لها إذا اختلفوا عنِ التحقيقِ وصدقِ اللَّهجةِ ؛ فقد ساوَتْ سياستُهُ بينَ البعيدِ والقريبِ ، وأخذَ كلٌّ منها بأجزلِ حظٍّ وأوفرِ نصيبٍ ، وسارَتْ سيرتُهُ الفاضلةُ في الآفاقِ سيرَ المثلِ ، واستوجَبَ مِنْ خالقِهِ أجرَ مَنْ جمعَ في طاعتِهِ بينَ القولِ والعملِ ، وشفعَ عَرْضَهُ مِنْ وصفِكَ وشكرِكَ ، والثناءِ عليكَ وإطابةِ ذكرِكَ ، وإنهاءِ ما أنتَ عليهِ مِنَ الولاءِ ، وشكرِ الآلاءِ ، بما يضاهي ما ذكرتَهُ فيهِ ، ممَّا عُلِمَ عندَ تلاوتِهِ ، وأُصغِيَ إليهِ عندَ قراءتِهِ ، وقدِ استقرَّ بحضرةِ أميرِ المؤمنينَ مكانُكَ مِنَ المشايعةِ ، وموقعُكَ مِنَ المخالصةِ ، وكونُكَ مِنْ ولاءِ الدَّولةِ علىٰ قضيةٍ أكسبَتْكَ شرفاً تفيَّأتَ ظلالَهُ ، وأفاضَتْ عليكَ ملبساً جررتَ أذيالَهُ ، وسمتْ بكَ إلىٰ مَحَلٍّ لا يُباهىٰ مَنْ بلغَهُ ، ولا يُطاوَلُ مَنْ نالَهُ ، وكنتَ في ذٰلكَ سالكاً للمنهجِ القويمِ ، ومُعتقِداً ما عليهِ أهلُ بيتِكَ في القديمِ ؛ لا جرمَ أنَّهُ عادَ عليكَ مِنْ حسنِ رأيِ أميرِ المؤمنينَ بما تَقصُرُ عنهُ كلُّ أمنيةٍ ، ويَشهدُ لكَ بمخالصةٍ جمعتَ فيها بينَ عملٍ ونيةٍ ، واللهُ يضاعفُ أجرَكَ على اعتصامِكَ مِنْ طاعةِ أميرِ المؤمنينَ بالحبلِ المتينِ ، ويوزِعُكَ شكرَ ما منحَكَ مِنَ الاستضاءةِ بنورِ الحقِّ المبينِ .

فأمَّا الأميرُ فخرُ الملكِ رواجُ ، وبعثُكَ لهُ على الوصولِ إلى البابِ ، وحضُّكَ إيَّاهُ على التعلُّقِ مِنَ الخدمةِ بمحصدِ الأسبابِ . . فما كانَ الإذنُ لهُ في ذٰلكَ إلَّا لأنَّ كتابَهُ وصلَ يلتمسُهُ ، وعرضَ فيهِ نفسَهُ ، وبذلَ المناصحةَ والخدمةَ ، وسألَ سؤالَ مَنْ يَعرِفُ قدرَ العارفةِ بالإجابةِ إليهِ وموقعَ النعمةِ ، فأجيبَ إلىٰ

ذٰلكَ إسعافاً لهُ بمرادِهِ ، وعملاً برأيِ الدَّولةِ فيمَنْ يرغبُ إلى التحيُّزِ إليها مِنْ أقطارِهِ وبلادِهِ ، وإلَّا . . فلا حاجةَ لها إليهِ ولا إلىٰ غيرِهِ ؛ لأنَّ اللهَ تعالىٰ ـ ولهُ الحمدُ ـ وَفَّرَ حظَّها مِنَ الأولياءِ والأشياعِ ، والأنصارِ والأتباعِ ، والعساكرِ والجيوشِ ، والأجنادِ والأنجادِ ، والأعوانِ الأقوياءِ الشِّدادِ ، وعبيدِ الطَّاعةِ الذينَ يتبارَوْنَ في النصحِ ، ويتنافسونَ في الاجتهادِ والحرصِ علىٰ سعةِ الأموالِ وعمارةِ الأعمالِ ، وجمعِ الرجالِ في العزائمِ بينَ الأفعالِ والأقوالِ ، ولو وصلَ المذكورُ . . لكانَتِ المنَّةُ للدولةِ عليهِ ، والحاجةُ لهُ في ذٰلكَ لا إليهِ ، قالَ اللهُ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١) .

وأمَّا توجُّهُهُ إلىٰ طرابلسَ ، وظفرُهُ بالعدوِّ فيها . . فاللهُ تعالىٰ يُعِزُّ الإسلامَ وينشرُ لواءَهُ ، ويعلي منارَهُ [ويخذلُ] أعداءَهُ ، وينصرُ عساكرَهُ وأجنادَهُ ، ويبلغُهُ في أحزابِ الكفرِ والضَّلالِ مرادَهُ ، وهوَ عزَّ وجلَّ يُمتِّعُكَ [مِنَ الولاءِ] بما منحَكَ ، وينيلُكَ في دينِكَ ودنياكَ أملَكَ ومقترحَكَ ، فاعلمْ هٰذا ، واعملْ بهِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[كتابُ الصَّابئِ عنِ ابنِ بُوَيهَ إلى المطيعِ للهِ]

وهٰذهِ صورةُ كتابٍ مِنْ إنشاءِ الصَّابئِ ، عن عزِّ الدولةِ أحدِ ملوكِ ذٰلكَ العصرِ ، أنفذَهُ إلىٰ خليفتِهِ المطيعِ للهِ ، وقد قصدَ أبا تغلبَ الحمدانيَّ أحدَ الأمراءِ إذ ذاكَ ، حيثُ خرجَ عنِ الطَّاعةِ ، فانهزمَ أبو تغلبَ ، وفرَّ هارباً (٢) :

لعبدِ اللهِ الفضلِ المطيعِ أميرِ المؤمنينَ ، مِنْ عبدِهِ وصنيعتِهِ عزِّ الدولةِ ابنِ مُعزِّ الدولةِ مولىٰ أميرِ المؤمنينَ ، سلامٌ علىٰ أميرِ المؤمنينَ ورحمةُ اللهِ ،

---

(١) سورة الحجرات : (١٧) .

(٢) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٤٨٣ ـ ٤٩٢) .

فإنّي أحمدُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ اللهَ الذي لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ، وأسألُهُ أن يُصلِّيَ علىٰ محمدٍ عبدِهِ ورسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ .

أمَّا بعدُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المؤمنينَ ، وأدامَ لهُ العزَّ والتأييدَ ، والتوفيقَ والتسديدِ ، والعلوَّ والقدرةَ ، والظُّهورَ والنصرةَ ـ : [فالحمدُ] للهِ العليِّ العظيمِ ، الأزليِّ القديمِ ، المنفردِ بالكبرياءِ والملكوتِ ، المُتوحِّدِ بالعظمةِ والجبروتِ ، الذي لا تَحُدُّهُ الصفاتُ ، ولا تَحوزهُ الجهاتُ ، ولا تحصرُهُ قرارةُ مكانٍ ، ولا يُغيِّرُهُ مرورُ زمانٍ ، ولا تمثلُهُ العيونُ بنواظرِها ، ولا تُخيِّلُهُ القلوبُ بخواطرِها ، فاطرِ السماواتِ وما تُظِلُّ ، وخالقِ الأرضِ وما تُقِلُّ ، الذي دلَّ بلطيفِ صفتِهِ علىٰ جليلِ حكمتِهِ ، وبَيَّنَ بجليِّ برهانِهِ علىٰ خفيِّ وجدانِهِ ، واستغنىٰ بالقدرةِ عنِ الأعوانِ ، واستعلىٰ بالعزَّةِ عنِ الأقرانِ ، البعيدِ عن كلِّ معادلٍ ومضارعٍ ، الممتنعِ عن كلِّ مطاولٍ ومقارعٍ ، الدائمِ الذي لا يزولُ ولا يحولُ ، العادلِ الذي لا يَظلِمُ ولا يَجورُ ، الكريمِ الذي لا يَضَنُّ ولا يَبخلُ ، الحليمِ الذي لا يَعجلُ ولا يَجهلُ ، ذٰلكمُ اللهُ ربُّكُم ، لا إلـٰهَ إلَّا هوَ ، فادعوهُ مخلصينَ لهُ الدِّينَ ، منزلِ الرحمةِ علىٰ كلِّ وليٍّ تَوكَّلَ عليهِ ، وفَوَّضَ إليهِ ، وأْتمرَ لأوامرِهِ ، وازدجرَ بزواجرِهِ ، ومُحِلِّ النقمةِ بكلِّ عدوٍّ صدَّ عن سبيلِهِ وسَنَنِهِ ، وصدفَ عن فرائضِهِ وسُننِهِ ، وحادَّهُ في مكسبِ يدِهِ ومسعاةِ قدمِهِ ، وخائنةِ عينِهِ وخافيةِ صدرِهِ ، وهوَ راتعٌ رتعةَ النَّعَمِ السائمةِ ، في أكلاءِ النِّعَمِ السابغةِ ، وجاهلٌ جهلَها بشكرِ آلائِها ، ذاهلٌ ذهولَها عن طُرُقِ استيفائِها ، فلا يلبثُ أن يُنْزَعَ سرابيلَها صاغراً ، ويَتعرَّىٰ منها حاسراً ، ويَجعلَ اللهُ كيدَهُ في تضليلٍ ، ويوردَهُ شرَّ الموردِ الوبيلِ ، إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عملَ المفسدينَ ، ولا يَهدي كيدَ الخائنينَ .

والحمدُ للهِ الذي اصطفىٰ للنبوَّةِ أحقَّ عبادِهِ بحملِ أعبائِها ، وارتداءِ

ردائِها ؛ محمداً صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وسَلَّمَ ، وعَظَّمَ خطرَهُ وكَرَّمَ ، فصدعَ بالرسالةِ ، وبالغَ في الدلالةِ ، ودعا إلى الهدايةِ ، ونجَّىٰ مِنَ الغوايةِ ، ونقلَ الناسَ عن طاعةِ الشيطانِ الرجيمِ ، إلىٰ طاعةِ الرحمـٰنِ الرحيمِ ، وأعلقَهُم بحبائلِ خالقِهِم ورازقِهِم ، وعصمةِ محييهِم ومميتِهِم ، بعدَ انتحالِ الأكاذيبِ والأباطيلِ ، واستشعارِ المحالاتِ والأضاليلِ ، والتهوُّكِ في الاعتقاداتِ الذائدةِ عنِ النعيمِ ، السائقةِ إلى العذابِ الأليمِ ، فصلَّى اللهُ عليهِ مِنْ ناطقٍ بالحقّ ، ومنقذٍ للخلقِ ، وناصحٍ للربِّ ، ومُؤدٍّ للفرضِ ، صلاةً زاكيةً ، رائحةً غاديةً ، تزيدُ على اختلافِ الليلِ والنهارِ ، وتَعاقبِ الأعوامِ والأدوارِ .

والحمدُ للهِ الذي انتخبَ أميرَ المؤمنينَ مِنْ ذٰلكَ السنخِ الشريفِ ، والعنصرِ المنيفِ ، والعترةِ الثابتِ أصلُها ، المُمتدِّ ظلُّها ، الطَّيبِ جناها ، الممنوعِ حماها ، وحازَ لهُ مواريثَ آبائِهِ الطَّاهرينَ ، صلواتُ اللهِ عليهِم أجمعينَ ، واختصَّهُ مِنْ بينِهِم بتطاولِ أمدِ الخلافةِ ، واستحصافِ حبلِها في يدِهِ ، ووَفَّقَهُ لإصابةِ الغرضِ مِنْ كلِ مرمىً يرميهِ ، ومَقصِدٍ ينتحيهِ ، وهوَ جلَّ ثناؤُهُ الحقيقُ بإتمامِ ذٰلكَ عليهِ ، والزيادةِ فيهِ لديهِ .

وأحمدُهُ سبحانَهُ حمداً أبتدئُهُ ثمَّ أعيدُهُ ، وأُكرِّرُهُ وأستزيدُهُ ؛ علىٰ أن أهَّلَ ركنَ الدَّولةِ أبا عليٍّ ، وعضدَ الدولةِ أبا شجاعٍ ، مولىٰ أميرِ المؤمنينَ ، وأهَّلَني للأثرةِ التي بذذْنا فيها الأكفاءَ ، وفُقْنا فيها القرناءَ ، وتَقطَّعَتْ دونَها أنفاسُ المنافسينَ ، وتَضرَّمَتْ عليها أحشاءُ الحاسدينَ ، وإذ أَولاني في كلِّ مغزىً في خدمةِ أميرِ المؤمنينَ أغزوهُ ، ومنحىً أنحوهُ ، ورأبٍ أرأبُهُ ، وشعثٍ أَلُمُّهُ ، وعدوٍّ أُرغمُهُ ، وزائغٍ أُقوّمُهُ . . أفضلَ ما أَولاهُ عبادَهُ السليمةَ غُيُوبُهُم ، النقيَّةَ جُيوبُهُم ، المأمونةَ ضمائرُهُم ، المشحوذةَ بصائرُهُم ؛ مِنْ تمكينِ يدِهِ ، وتثبيتِ قدمِهِ ، ونصرِ رأيِهِ ، وإعلاءِ كلمِهِ ، وتقريبِ بغيتِهِ ، وإنالةِ أمنيَّتِهِ ،

وكذٰلكَ يكونُ مَنْ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ اعتزاؤُهُ ، وبشعارِهِ اعتزازُهُ ، وعن زنادِهِ قدحُهُ ، وفي طاعتِهِ كدحُهُ ، واللهُ وليُّ ما خوَّلَنيهِ مِنْ هٰذهِ المنقبةِ ، وسوَّغَنيهِ مِنْ هٰذهِ الموهبةِ ، وأن يَتوحَّدَ أميرُ المؤمنينَ في جميعِ خَدَمِهِ الذائدينَ عن حوزتِهِ ، المنتمينَ إلىٰ دعوتِهِ ؛ بيمنِ الطَّائرِ ، وسعادةِ الطَّالعِ ، ونجاحِ المطلبِ ، وإدراكِ الأربِ ، وفي أعدائِهِ الغامصينَ لنعمتِهِ ، الناقضينَ مواثيقَ بيعتِهِ ؛ بإضراعِ الخدِّ ، وإتعاسِ الجدِّ ، وإخفاقِ الأملِ ، وإحباطِ العملِ .

ولم يزلْ مولانا أميرُ المؤمنينَ ينكرُ قديماً مِنْ فضلِ اللهِ بنِ ناصرِ الدولةِ أحوالاً حقيقاً مثلُها بالإنكارِ ، ومُستحِقّاً مَنْ ارتكبَها للإعراضِ ، وأنا أذهبُ في حفظِ غيبِهِ ، وإجمالِ محضرِهِ ، وتمحُّلِ حُجَّتِهِ وتلفيقِها ، وتأليفِ معاذيرِهِ وتنميقِها . . مذهبي الذي أعمُّ بهِ كلَّ مَنْ جرىٰ في ناشئِ دولتِهِ ، ومغتذٍ بنعمتِهِ ، ومنتسبٍ إلىٰ ولايتِهِ ، ومُشتهرٍ بصنعتِهِ ، وأقدرُ أن أستصلحَهُ لأميرِ المؤمنينَ وأصلحَهُ لنفسِهِ ؛ بالتوقيفِ علىٰ مسالكِ الرشادِ ، ومناهجِ السَّدادِ ، وهوَ يريني أن قد قبلَ وارعوىٰ ، وأبصرَ واهتدىٰ ، حتىٰ رغبتُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ فيما شفَّعَني مُتفضِّلاً فيهِ ؛ مِنْ تقليدِهِ أعمالَ أبيهِ ، والقناعةِ منهُ في الضَّمانِ بميسورِ بذلِهِ ، وإيثارِهِ بهِ علىٰ مَنْ هوَ فوقَهُ مِنْ كبراءِ إخوتِهِ وأهلِهِ .

فلمَّا بلغَ هٰذهِ الحالَ . . ألطَّ بالمالِ ، وخاسَ بالعهدِ ، وطَرَّقَ لفسخِ العقدِ ، وأجرىٰ إلىٰ أمورٍ كرهتُها ، ونَفِدَ الصَّبرُ منِّي عليها ، وخفتُ أن أستمرَّ على الإغضاءِ عنها والمسامحةِ فيها ، فيطلعَ اللهُ منِّي علىٰ إضاعةِ الاحتياطِ في أمرٍ قَلَّدَني أميرُ المؤمنينَ زمامَهُ ، وضَمَّنَني دَرَكَهُ ، وإرجائي لرجلٍ قَبِلَ في الاعتمادِ عليهِ رأيي ، وعَوَّلَ في أخذِهِ بما يلزمُهُ علىٰ نظري واستيفائي ، فتناولتُهُ بأطرافِ العذلِ مُلَوِّحاً ، ثمَّ بتأنيبِهِ مُفصِحاً مُصرِّحاً .

ورسمتُ لعبدِ أميرِ المؤمنينَ الناصحِ أبي طاهرٍ أن يُحدِّثَهُ ويدخلَ عليهِ مِنْ طريقِ المشورةِ والرفقِ إلىٰ أخرىٰ ، وينتقلَ معَهُ بينَ اللِّينِ والخشونةِ طوراً فطوراً ، ففعلَ ذٰلكَ علىٰ رسمِهِ في التأنِّي لكلِّ فاسدٍ حتىٰ يَصلُحَ ، ولكلِّ أبيٍّ حتىٰ يَسمحَ ، ولم يدعِ التناهيَ في وعظِهِ ، والتماديَ في نصحِهِ ، وتعريفَهُ سوءَ عاقبةِ اللَّجاجِ ، وشنعةَ مَغبَّةِ الإحراجِ ، وهوَ يزيدُ طمعاً في الأموالِ وشرهاً ، وعمىً في الرأيِ وعمهاً ، إلىٰ أن كادَ أمرُنا معَهُ يخرجُ عن حدِّ الانتظارِ ، إلىٰ حدِّ الرضا بالإصرارِ ، فاستأنفتُ ادِّراعَ الحزمِ ، وامتطاءَ العزمِ ، ونهضتُ إلىٰ أعمالِ الموصلِ وعندي أنَّهُ يغنيني عنِ الإتبابِ ، ويَتلقَّاني بالأعتابِ ، وينقادُ إلى المرادِ ، ويَتجنَّبُ طريقَ العنادِ .

فحينَ عرفَ خبرَ مسيري ، وجدي فيهِ وتشميري . . برزَ بروزَ المخالفِ المكاشفِ ، وتَجرَّدَ تَجرُّدَ المواقعِ المواقفِ ، وهوَ معَ ذٰلكَ إذا ازددتُ منهُ قرباً . . ازدادَ منِّي بُعداً ، وإذا دلفتُ إليهِ ذراعاً . . نكصَ عنِّي باعاً .

وتوافَتْ إلىٰ حضرتي وجوهُ القبائلِ مِنْ عقيلٍ وشيبانَ وغيرِهما ، في الجمعِ الكثيفِ مِنْ [صعاليكِهما] والعددِ الكثيرِ مِنْ [صناديدِهما] ، داخلينَ في الطَّاعةِ ، مُتصرِّفينَ في عوارضِ الخدمةِ ، فلمَّا شارفتُ الحديثةَ . . انتقضَتْ عزائمُ صبرِهِ ، وَتقوَّضَتْ دعائمُ أمرِهِ ، وبَطَلَتْ أمانيُّهُ ووساوسُهُ ، واضمحلَّتْ خواطرُهُ وهواجسُهُ ، [واضطربَ] عليهِ مِنْ ثقاتِهِ وغلمانِهِ مَنْ كانَ بهِم يَعتضِدُ ، وعليهِم يَعتمِدُ ، ورأَوا خِذلانَهُ ، والأخذَ لنفوسِهِم ومفارقتَهُ ، والطَّلبَ لحظوظِهِم ، وحصلَ بحضرتي إلىٰ هٰذهِ الغايةِ زُهاءَ خمسِ مئةِ رجلٍ ذوي خيلٍ مختارةٍ ، وأسلحةٍ شاكَّةٍ ، فصادفوا عندي ما أمَّلُوا مِنْ فائضِ الإحسانِ ، وغامرِ الامتنانِ ، وذكروا عمَّنْ وراءَهُم مِنْ نظرائِهِم الحرصَ على الاستئمانِ ، وأنَّهُم يَردونَ ولا يَتأخَّرونَ ، ويبادرونَ ولا يتوانونَ .

ولمَّا رأىٰ ذٰلكَ . . لم يملكْ نفسَهُ أن مضىٰ هارباً علىٰ طريقِ سنجارَ ، منكشفاً عن هـٰذهِ الدِّيارِ ، قانعاً مِنْ تلكَ الآمالِ الخائبةِ ، والظُّنونِ الكاذبةِ ؛ بسلامةِ حُشاشةٍ هيَ رهينةُ غيِّها ، وصريعةُ بغيها .

وكانَ انهزامُهُ بعدَ أن فعلَ الفعلَ السَّخيفَ ، وكادَ بالكيدِ الضَّعيفِ . . بأن غَرَّقَ سفنَ الموصلِ ، وأحرقَ جسرَها ، واستذمَّ إلىٰ أهلِها ، وتَزوَّدَ منهُمُ اللعنَ المطيفَ بهِ أينَ يَمَّمَ ، الكائنَ معَهُ حيثُ خَيَّمَ .

ودخلتُها يومي هـٰذا ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ـ دخولَ الغانمِ الظَّافرِ ، المستعلنِ الظاهرِ ، فسكَّنتُ مِنْ نفوسِ سُكَّانِها ، وشرحتُ صدورَ قُطَّانِها ، وأعلمتُهُم ما أمرَني بهِ أميرُ المؤمنينَ ـ أعلا اللهُ أمرَهُ ـ مِنْ تأنيسِ وَحشتِهِم ، ونظمِ [أُلفتِهِم] ، وضمِّ نشرِهِم ، ولمِّ شعثِهِم ، وإجمالِ السيرةِ فيهِم في ضروبِ معاملاتِهِم وعُلَقِهِم ، وصنوفِ مُتصرَّفاتِهِم ومعايشِهِم ، وكَثُرَ منهُمُ الثناءُ والدعاءُ ، واللهُ سامعٌ ما رفعوا ، ومجيبٌ ما سألوا .

وأَجْلَتْ حالُ هـٰذا الجاهلِ ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ـ عن أقبحِ هزيمةٍ ، وأذلِّ هضيمةٍ ؛ لأنَّهُ لم يلقَ لقاءَ الباخعِ بالطَّاعةِ ، المعتذرِ مِنْ سالفِ التفريطِ والإضاعةِ ، ولا لقاءَ المُصدِّقِ لدعواهُ في الاستقلالِ بالمقارعةِ ، المُحقِّقِ لزعمِهِ في الثباتِ للمدافعةِ ، ولا كانَ في هـٰذَينِ الأمرَينِ بالبَرِّ التقيِّ ، ولا الفاجرِ القويِّ ، بل جمعَ بينَ نقيصةِ شقاقِهِ وغدرِهِ ، وفضيحةِ جبنِهِ وخورِهِ ، منتهكاً للصَّلاحِ ، عادلاً عنِ الصَّوابِ ، قد ذهبَ عنهُ الرشادُ ، وضربَتْ بينَه وبينَه الأسدادُ ، وأنزلَهُ اللهُ منزلةَ مثلِهِ ؛ ممَّنْ أساءَ حفظَ الوديعةِ ، وجوارَ الصَّنيعةِ ، واستوجبَ نزعَهُما منهُ .

وتأمَّلتُ ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ـ أمرَهُ على التجريبِ ، وتصفحتُهُ بالتقليبِ ؛ فإذا هوَ الرجلُ الذي أطاعَ فيهِ أبوهُ هوىٰ أُمِّهِ ، وعصىٰ دواعيَ رأيِهِ

وحزمِهِ ، وقَدَّمَهُ مِنْ ولدِهِ علىٰ مَنْ هوَ آنسُ رشداً ، وأكبرُ سنّاً ، وأثبتُ جأشاً ، وأجرىٰ جناناً ، وأشجعُ قلباً ، وأوسعُ صدراً ، وأجدرُ لمخايلِ النجابةِ وشمائلِ اللبابةِ .

فلمَّا اجتمعَتْ لهُ أسبابُ القدرةِ والثروةُ ، وأمكنَتْهُ مناهزُ الغرةِ والفرصةِ . . وثبَ عليهِ وثبةَ السِّرحانِ ، في ثلَّةِ الضَّانِ ، وجزاهُ جزاءَ أُمِّ عامرٍ لمجيرِها ؛ إذ فرتْهُ بأنيابِها وأظفارِها ، واجتمع وأخوهُ مِنَ الأُمِّ ، المُرتضِع معَهُ لبانَ الإثـمِ ؛ المُكنىٰ بأبي البركاتِ وليسَ بأبٍ لها ، ولا حَرٍ بشيءٍ منها ، علىٰ أن صرعاهُ وعاقاهُ ، وقبضا عليهِ وأوثقاهُ ، وأقرَّاهُ مِنْ قلعتَيهِما حيثُ يُقَرُّ العتاةُ ، ويُعاقَبُ الجُناةُ ، ثـمَّ أتبعا ذٰلكَ باستحلالِ دمِهِ ، وإفاضةِ مهجتِهِ ، غيرَ راعيَينِ فيهِ حقَّ الأُبـوَّةِ ، ولا حانيَينِ عليهِ حُنُوَّ البنوَّةِ ، ولا مُتذمِّمَينِ مِنَ الإقدامِ علىٰ مثلِهِ ممَّنْ تَقدَّمَتْ عندَ سلطانِهِ قدمُهُ ، وتَوكَّدَتْ أواصرُهُ وعصمُهُ ، ولا راحمَينِ لهُ مِنْ ضَعفِ شيخوختِهِ ، ولا مصغيَينِ إلىٰ وصيةِ اللهِ إيَّاهُما بهِ ، التي نصَّها في محكمِ كتابِهِ ، وكَرَّرَها في آيهِ وبيِّناتِهِ ؛ إذ يقولُ : ﴿ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) ، وإذ يقولُ : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (٢) .

فبأيِّ وجهٍ يلقى اللهَ قاتلُ والدٍ حدبٍ قد أُمِرَ ألَّا ينهرَهُ ؟! وبأيِّ لسانٍ يَنطِقُ يومَ يُسأَلُ عمَّا استجازَهُ فيهِ وفعلَهُ ؟! وتاللهِ ؛ لو أنَّ بمكانِهِ عدوّاً لهُما قد قارضَهُما الذحولَ ، وقارعَهُما عنِ النفوسِ . . لَقَبُحَ بهِما أن يلؤُما ذٰلكَ

---

(١) سورة لقمان : (١٤) .

(٢) سورة الإسراء : (٢٣ ـ ٢٤) .

اللُّؤمَ عندَ الظَّفَرِ بهِ ، وأن يركبا تلكَ الخُطَّةَ الشنعاءَ في الأخذِ بناصيتِهِ ولم يرضَ فضلُ اللهِ بما أتاهُ إليهِ حتى استوفىٰ حدودَ قطعِ الرَّحِمِ ؛ بأن تَتبَّعَ أكابرَ إخوتِهِ السالكينَ خلافَ سبيلِهِ ، المُتبرّئينَ المستبرئينَ إلى اللهِ مِنْ عظيمِ ما اكتسبَ ، ووخيمِ ما احتقبَ ؛ لما غضبوا لأبيهِم ، وامتعضوا مِنَ المُستحِلِّ فيهِ وفيهِم ، فقبضَ علىٰ محمدِ بنِ ناصرِ الدٰولةِ حيلةً وغيلةً ، وغدراً ومكيدةً ، ونابذَ حمدانَ بنَ ناصرِ الدولةِ منابذةً خارَ اللهُ لهُ فيها ؛ بأن أصارَهُ مِنْ فِناءِ أميرِ المؤمنينَ إلى الجانبِ العزيزِ ، والحرزِ الحريزِ ، وأن أجرى اللهُ علىٰ يدِهِ الحربَ الواقعةَ بينَهُ وبينَ المعروفِ بكنيتِهِ أبي البركاتِ ، التي لقَّاهُ اللهُ فيها بخسَهُ ، وأتلفَ نفسَهُ ، وصرعَهُ بعقوقِهِ وبغيِهِ ، وقَنَّعَهُ بعارِهِ وخزيِهِ ، وهوَ معَ ذاكَ لا يتعظُ ولا ينزعُ ، ولا ينزجرُ ولا يقلعُ ؛ إصراراً على الجرائرِ التي اللهُ عنها حسيبُهُ ، وبها طليبُهُ ، والدنيا والآخرةُ مرصدتانِ لهُ بالجزاءِ المحقوقِ عليهِ ، والعقابِ المسوقِ إليهِ .

وأعظمُ مِنْ هـٰذا كلِّهِ ـ أيدَ اللهُ أميرَ المؤمنينَ ـ خطباً ، وأوعرُ مسلكاً ولحباً ؛ أنَّ مِنْ شرائطِ العهدِ الذي كانَ عُهِدَ إليهِ ، والعقدِ الذي عُقِدَ لهُ ، والضَّمانِ المُخفَّفِ مبلغُهُ عنهُ ، المأخوذِ عفوُهُ منهُ : أن يتناهىٰ في ضبطِ الثغورِ ، وجهادِ الرومِ ، وحفظِ الأطرافِ ، ورمّ الأكنافِ ، فما وفَّىٰ بشيءٍ مِنْ ذٰلكَ ، بل عدلَ عنهُ إلى الاستئثارِ بالأموالِ واقتطاعِها ، وإحرازِها في مكانِها وقلاعِها ، والضَّنِّ بها دونَ الإخراجِ في وجوهِها ، والوضعِ لها في حقوقِها ، وأن تراخىٰ في أمرِ عظيمِ الرومِ مُهمِلاً ، واطَّرحَ الفكرَ فيهِ مُغْفلاً ، حتىٰ هجمَ في الدِّيارِ ، وأثَّرَ الآثارَ ، ونكأَ القلوبَ ، وأبكى العيونَ ، وصدعَ الأكبادَ ، وأحرَّ الصُّدورَ ، فما كانَ عندَهُ فيهِ ما يكونُ عندَ المسلمِ القارئِ لكتابِ اللهِ ؛ إذ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ

وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾(١) .

بل صدفَ عن ذكرِ اللهِ لاهياً ، وعدلَ عن كتابِهِ ساهياً ، واستفسخَ ذٰلكَ البيعَ والعقدَ ، واستنجزَ الوعيدَ لا الوعدَ ، ولاطفَ طاغيةَ الرومِ وهاداهُ ، وأمارَهُ وأعطاهُ ، وصانعَهُ بمالِ المسلمينَ الذي يلزمُهُ ـ إن سلمَ دينُهُ وصحَّ يقينُهُ ـ أن ينفقَهُ في مرابطِهِم ، ويَذُبَّ بهِ عن حريمِهِم ، وأبىٰ إلَّا أن يعكسَ ويلفتَهُ عن وجهتِهِ ؛ بالنقلِ إلىٰ عدوِّهِم ، وإدخالِ الوهنِ بذٰلكَ عليهِم ، وقادَ إليهِ مِنَ الخيلِ العِتاقِ ما هوَ الآنَ عونٌ للكفرِ على الإيمانِ ، ونجدةٌ للطَّاغيةِ على السُّلطانِ ، وكانَ فيما أتحفَهُ بهِ الخمرُ التي حظرَ اللهُ عليهِ أن يشربَها ويسقيَها ، وأمرَهُ بأن يجتنبَها ويجتويَها ، وصُلبانُ ذهبٍ صاغَها لهُ ، وتَقرَّبَ بها إليهِ تَقرُّباً قد باعدَهُ اللهُ فيهِ عنِ الإصابةِ والأصالةِ ، وأدناهُ مِنَ الجهالةِ والضَّلالةِ ، حتىٰ كأنَّهُ عامِلٌ مِنْ عُمَّالِهِ وبِطْرِيقٌ مِنْ بطارقتِهِ .

فأمَّا فشلُهُ عن مكافحتِهِ ، ولهجُهُ بملاطفتِهِ . . فضدُّ الذي أمرَهُ اللهُ بهِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾(٢) .

وأما نقلُهُ ما نقلَ مِنَ الخيلِ عن ديارِ المسلمِين إلىٰ ديارِ أعدائِهِم . . فنقيضُ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(٣) .

---

(١) سورة التوبة : (١١١) .

(٢) سورة التوبة : (١٢٣) .

(٣) سورة الأنفال : (٦٠) .

وأمَّا إهداؤُهُ الخمرَ والصُّلبانَ . . فخلافُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

كلُّ ذٰلكَ عناداً لربِّ العالمينَ ، وطمساً لأعلامِ الدِّينِ ، وضنّاً بما حامىٰ عليهِ مِنْ ذٰلكَ الحُطامِ المجموعِ مِنَ الحرامِ ، المُثمرِ عنِ الآثامِ ، المُقتطَعِ مِنْ فيءِ الإسلامِ .

وقد فعلَ الآن بي وبالعساكرِ التي معي ومَنْ يَضُمُّ ولاءَ أميرِ المؤمنينَ ، الذينَ هُم إخوتُهُ وصحبُهُ إن كانَ مؤمناً ، وأنصارُهُ وحزبُهُ إن كانَ موقناً . . مِنْ توعيرِ المسالكِ ، وتغريقِ السُّفنِ ، وتضييقِ الأقواتِ ، واستهلاكِ الأزوادِ ؛ ليُوصِّلَ إلينا الضُّرَّ ، ويُلحِقَ بنا الجهدَ ، فعلَ العدوِّ المبينِ ، المخالفِ في الدِّينِ ، فهل يُؤمَّلُ في هٰذا النادِّ المعاندِ والشاذِّ الشاردِ ؟! وهل يَطمعُ مِنْ مثلِهِ في حقٍّ يقضيهِ ، أو فرضٍ يؤدِّيهِ ، أو عهدٍ يرعاهُ ، أو [ذمامٍ] يَحفظُهُ ، وهوَ للهِ عاصٍ ، ولإمامِهِ مخالفٌ ، ولوالدِهِ قاتلٌ ، ولرحمِهِ قاطعٌ ؟!

كلا واللهِ ، بل هوَ الحقيقُ بأن تُثنىٰ إليهِ الأعنَّةُ ، وتُشرَعَ نحوَهُ الأسنَّةُ ، وتُنصَبَ لهُ الأرصادُ ، وتُشحَذَ لهُ السُّيوفُ الحِدادُ ؛ ليقطعَ اللهُ بها دابرَهُ ، ويَجُبَّ غاربَهُ ، ويَصرَعَهُ مَصرَعَ الأثيمِ المليمِ ، المُستحِقِّ للعذابِ الأليمِ ، أو يفيءَ إلى الحقِّ إفاءةَ الداخلِ فيهِ بعدَ خروجِهِ ، العائدِ إليهِ بعدَ مروقِهِ ، التائبِ المنيبِ النازعِ المستقيلِ ، فيكونَ حكمُهُ شبيهاً بحكمِ الراجعِ عنِ الردَّةِ ، المحمولِ علىٰ ظاهرِ الشريعةِ ، واللهُ يهدي مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيمٍ .

فالحمدُ للهِ الذي هدانا المراشدَ ، ووقفَ بنا على السبيلِ المنجيةِ لنا ، والمقاصدِ المفضيةِ إلىٰ رضاهُ ، المؤمنةِ مِنْ سطاهُ .

---

(١) سورة المائدة : (٩٠) .

والحمدُ للهِ الذي أعزَّ أميرَ المؤمنينَ بالنصرِ ، وأعطاهُ لواءَ القهرِ ، وجعلَ أولياءَهُ الغالبينَ ، وأعداءَهُ السافلينَ الهابطينَ ، وهنَّأَهُ اللهُ هـٰذا الفتحَ ، ولا أخلاهُ مِنْ أشكالٍ لهُ تقفوهُ وتتبعُهُ ، وأمثالٍ تتلوهُ وتشفعُهُ ، واصلاً فيها إلىٰ ما وصلَ إليهِ فيهِ ؛ مِن حيازتِهِ مهناً لم يُسفَكْ فيهِ دمٌ ، ولم يُنتهَكْ مُحرَّمٌ ، ولم يُنَلْ جهدٌ ، ولم يمسَّ نصبٌ .

أنهيتُ إلىٰ أميرِ المؤمنينَ ذٰلكَ ؛ ليضيفَ صنعَ اللهِ لهُ فيهِ إلى السالفِ مِنْ عوارفِهِ عندَهُ وأياديهِ ، وليُجدِّدَ مِنْ شكرِهِ ما يكونُ داعياً إلى الإدامةِ والمزيدِ ، مقتضياً للفوزِ والتأييدِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[كتابُ الملكِ صلاحِ الدِّينِ إلىٰ مَقَرِّ الخلافةِ ببغدادَ]

وهـٰذِهِ صورةُ كتابٍ مِنْ إنشاءِ الفاضلِ ، الذي سلفَ القولُ بأنَّهُ أوَّلُ الطَّبقةِ الثالثةِ : عن ملكِهِ صلاحِ الدِّينِ يوسفَ مِنْ مصرَ إلىٰ مَقرِّ الخلافةِ بغدادَ ، بالبشارةِ عن فتحِ بلدٍ مِنْ بلادِ النُّوبةِ ، وانهزامِ ملكِها وعساكرِهِ[١] :

صلواتُ اللهِ التي أعدَّها لأوليائِهِ وادَّخرَها ، وتحياتُهُ التي قذفَ بشهبِها شياطينَ أعدائِهِ ودحرَها ، وبركاتُهُ التي دعا بها كلَّ مُوحِّدٍ فأجابَ ، وانقشعَ بها غمامُ الغمِّ وظلامُ الظلمِ فانجابَ عن أَنْجابٍ ، وزكاتُهُ التي هيَ للمؤمنينَ سكنٌ ، وسلامُهُ الذي لا يعتري الموقنينَ في ترديدِهِ حَصَرٌ ولا لَكَنٌ ، علىٰ مولانا عاقدِ ألويةِ الإيمانِ ، وصاحبِ دورِ الزمانِ ، وساحبِ ذيلِ الإحسانِ ، وغالبِ حزبِ الشيطانِ ، الذي [زلزلَتْ] إمامتُهُ قدمَ الباطلِ ، وحَلَّتْ خلافتُهُ ترائبَ الدَّهرِ العاطلِ ، واقتضتْ سيوفُهُ ديونَ الدِّينِ مِنْ كلِّ غريمٍ ماطلٍ ، وأمضَتْ غَرْبَ كلِّ عزمٍ للحقِّ مفلولٍ ، وأطلعَتْ غاربَ نجمِ كلِّ هدىً آفلٍ ،

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٥١١ ـ ٥١٥) .

وشفعَتْ يقظاتُ استغفارِهِ إلىٰ غافرِ ذنبِ كلِّ غافلٍ ، وعلىٰ آبائِهِ الغايةِ والمفزعِ ، والملاذِ في وقتِ الفزعِ ، والقائمينَ بحقوقِ اللهِ إذ قعدَ الناسُ ، والحاكمينَ بعدلِ اللهِ إذ عُدِمَ القسطاسُ ، والمستضيئينَ بأنوارِ الإلهامِ الموروثةِ مِنَ الوحيِ إذ أعجزَ الاقتباسُ ، والصَّابرينَ في البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ الباسِ ، خُزَّانِ الحِكَمِ وحُفَّاظِها ، ومعاني النعمِ وألفاظِها ، وأعلامِ العلومِ المنشورةِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، وكالئي الروحِ المنتشرةِ بكلاءةِ يدِ الإمامةِ ، ومَنْ لا يَنفُذُ سهمُ عملٍ إلا إذا شُحِذَ بولايتِهِم ، ولا يَتألَّقُ صبحُ هدايةٍ إلَّا إذا استصبحَ الساري بدلالتِهِم .

المملوكُ يُقبِّلُ الأرضَ بمطالعِ الشرفِ ومنازلِهِ ، ومرابعِ المجدِ ومعاقِلِه ، ومجالسِ الجودِ ، [ومَحَالِّ] السجودِ ، ومختلفِ أنباءِ الرحمةِ المُنزَّلةِ ، ومرسىٰ أطوارِ البسيطةِ المتزلزلةِ ، ومفترِّ مباسمِ الإمامةِ ، ومَجَرِّ مساحبِ الكرامةِ ، ومكانِ جنوحِ أجنحةِ الملائكةِ حيثُ يدخلونَ مِنْ كلِّ بابٍ مُسلِّمينَ ، وتتبعُهُم ملوكُ الأرضِ مستسلمينَ ، ومشاهدُ الإسلامِ كيومٍ أُنزِلَ فيهِ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] ، [وينعقدُ] على الولايةِ ؛ فأمَّا غيرُهُ . . فلهُ قولُهُ : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم ﴾[2] ، ويناجيها بلسانٍ جليِّ الإخلاصُ الصَّادقُ عقيدتُهُ ، ونشاطُ الولاءِ السابقِ عقيلتُهُ[3] ، وأرهفَ الإيمانُ الناصعُ مضاربَهُ ، وأفسخَ المعتقدُ الناصحُ مذاهبَهُ ، فأعربَ عن خاطرٍ لم يَخطُرْ فيهِ لغيرِ الولاءِ خَطْرةٌ ، وقلبٍ أعانَهُ علىٰ ورودِ الولاءِ [أنَّ] صفاءَ المصافاةِ فيهِ فِطْرَةٌ .

واللهُ سبحانَهُ يزيلُ عنهُ في شرفِ المثولِ عوائقَ القدرِ وموانعَهُ ، ويكشفُ

---

(١) سورة المائدة : (٣) .

(٢) سورة التوبة : (١٢٣) .

(٣) في « صبح الأعشىٰ » (٥١٣/٦) : (بلسانٍ جلَّى الإخلاصُ الصادقُ عقيدتَهُ ، وأنشطَ الولاءُ السابقُ عقيلتَهُ) .

لهُ عن قناعِ الأنـوارِ التي ليسَتْ هِمَّتُهُ بما دونَ نظرِها قانعةً ، وكـانَ تـوَجَّهَ منصوراً بجيشِ دعائِهِ قبلَ جيشِ لوائِهِ ، وبعسكرِ إقبالِهِ قبلَ عسكرِ قتالِهِ ، وبنصالِ سلطانِهِ قبلَ نصالِ أجفانِهِ ، لا جرمَ أنَّ كتائبَ الرعبِ سارَتْ أمامَ الكتائبِ ، وقواضبَ الحذرِ غمضَتْ في جفونِها عيونُ القواضبِ ، وسارَ أولياءُ أميرِ المؤمنينَ الذينَ تجمَّعوا مِنْ كلِّ أُمَّةٍ ، وتداعَوا بلسانِ النعمةِ ، وتَصرَّفوا بيدِ الخدمةِ ، وصالوا بسيفِ العزمةِ ، متواخيةً نيَّاتُهُم في الإقدامِ ، متآلفةً طويَّاتُهُم في طاعةِ الإمامِ ؛ كالبنيانِ المرصوصِ انتظاماً ، وكالغابِ المُشجَّرِ أعلاماً ، وكالنهارِ الماتعِ حديداً وهَّاجاً ، وكالليلِ الشاملِ عَجاجاً عَجَّاجاً ، وكالنهرِ المتدافعِ أصحاباً ، وكالمشطِ المُطَّردِ اصطحاباً ، فما أُبْصِرَتْ رياضُها المزهرةُ ، وغياضُها المُشجَّرةُ . . إلَّا دَلَّتْ على أنَّ السَّحابَ الذي سقاهُم كريمٌ ، والإنعامَ الذي غمرَهُم عظيمٌ ، والدنيا التي وسعَتْهُم مِنْ عزمتِهِم تظعنُ وتقيمُ .

ولمَّا علمَ العدوُّ أنَّ الخطبَ المظنونَ قد صَرَّحَ خطابُهُ ، والأملَ المخدوعَ قد صفرَ وِطابُهُ . . راسلَ ورأىٰ أنَّ سلَّ السيوفِ يغمدُهُ ، وماكَرَ وما كرَّ لعلمِهِ أنَّ الحتفَ يَعْمِدُهُ ، واندفع هارباً هائباً ، وخضعَ كائباً كاذباً ، فمضى المملوكُ قُدُماً ، وحَمَّلَهُ ظلمَهُ وقد خابَ مَنْ حملَ ظُلْماً ، وأجابَهُ بأنَّهُ إن وَطِئَ البساطَ برجلِهِ وإلَّا . . وطِئَهُ برأسِهِ ، وإن قدمَ على المملوكِ بأملِهِ ، وإلَّا . . أقدمَهُ [بيأسِهِ] ، وإن أظهرَ أثرَ التوبةِ ، وإلَّا . . أقامَ عليهِ الحدَّ بسكرةِ الموتِ مِنْ كأسِهِ ، فلم يخرجْ مِنْ مراوغةٍ تحتَها مغاورةٌ ، ومكاشرةٍ وراءَها مكابرةٌ .

فاستخارَ اللهَ في طلبِهِ ، وانتهزَ فيهِ فرصةَ شغلِ قلبِهِ بريبِهِ ، ولم يغرَّهُ ما أملىٰ لهُ في البلادِ مِنْ تقلُّبِهِ ، وسارَ ولم يزلْ مُقتحِماً ، ويقدمُ أوَّلَ العسكرِ مُحتدِماً ، وإذا الدارُ قد ترحَّلَ أهلُها منها فبانوا ، وظعنوا عن ساحتِها فكأنَّهُم

ما كانوا ، ولم يبقَ إلَّا مواقدُ نيرانٍ رحلَتْ قلوبُهُم بضرامِها ، وأثافيُّ دهمٌ أعجلَتِ المهابةُ ما ردَّ شقيَّهُم عن طعامِها (١) ، وغربانُ بَيْنٍ كأنَّها في الدِّيارِ ما قُطِعَ مِنْ رؤوسِ بني حامِها ، وعوافي طيرٍ كانَتْ تنظرُ مِنْ أشلائِهِم فطرَ صيامِها ، وعادَتِ الرسلُ المنفذةُ لاقتفاءِ آثارِهِم ، وأداءِ أخبارِهم ، ذاكرةً أنَّهُم لبسوا الليلَ حِداداً على النعمةِ التي خُلِعَتْ ، وغسلوا بماءِ الصُّبحِ أطماعَ نفسٍ كانَتْ قد تَطلَّعَتْ ، وأنَّهُم طلعوا الأوعارَ أوعالاً والعقابَ عِقْباناً ، وكانوا لمهابطِ الأوديةِ سيولاً ، ولأعالي الشجرِ قضباناً ، فرأى المملوكُ أنَّ الكتابَ قد بلغَ أجلَهُ ، والعزمَ منهُم قد نالَ أملَهُ ، والفتكَ بهِم قد أعملَ [مُنْصُلَهُ] ، وأنَّ سيوفَ عساكرِ أميرِ المؤمنينَ مُنزَّهةٌ أن تريقَ إلَّا دماءَ أكفائِها مِنَ الأبطالِ ، وأن تلقىٰ إلَّا وجوهَ أنظارِها مِنَ الرجالِ ، وأصدرَ هٰذهِ الخدمةَ والبلادُ مِنْ مَعرَّتِهِم عاريةٌ ، والكلمةُ بانخفاضِهِم غاليةٌ عاليةٌ ، ويدُ اللهِ علىٰ أعدائِهِ غاديةٌ ، وأنفسُ المخاذيلِ في وثاقِ مهابتِهِ عانيةٌ ، فرأى المملوكُ أن يُرتِّبَ بعدَهُ الأميرَ فلاناً ليبذُلَ الأمانَ لسُوقةِ أهلِ البلادِ ومزارعيها ، ويفصلَ المحاكماتِ بينَ متابعي السَّلطنةِ ومطاوعيها ويفسحَ مجالَ الإحسانِ لمعاودي المواطنِ ومراجعيها ، فإنَّ مَقامَ المملوكِ ومَنْ معَهُ مِنْ عساكرَ تمنعُ الشمسَ مِنْ مطلعِها ، وتردُّ جريةَ البحرِ عن مدفعِها ، ممَّا يضرُّ بالغلالِ وينسفُها ، ويجحفُ بالرعايا ويعسفُها .

فالحمدُ للهِ الذي جعلَ النصرَ لائذاً بأعطافِ اعتزامِهِ ، وأناملَ الرعبِ السائرِ إلى الأعداءِ محركةً عذباتِ أعلامِهِ ، والعساكرَ المناضلةَ بسلاحِ ولائِهِ تغني بأسمائِها عن مرهفاتِها ، والكتائبَ المقاتلةَ بشعارِ علائِهِ تقرأُ كتبَ النصرِ مِنْ حماتِها .

---

(١) في « صبح الأعشىٰ » (٦/٥١٤) : (سَغِبُهم عن طعامها) بدل (شقيهم عن طعامها) .

[كتابُ السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ إلىٰ ديوانِ الخلافةِ]

وهٰذهِ صورةُ كتابٍ مِنْ إنشاءِ العمادِ الأصفهانيّ ؛ وهوَ عصريُّ الفاضلِ ، ومِنْ مشاهيرِ هٰذهِ الطَّبقةِ عنِ السُّلطانِ صلاحِ الدِّينِ ، يخبرُ فيهِ ديوانَ الخلافةِ بالانتصارِ على الإفرنجِ ، وإزالتِهم عن بعضِ بلادِ الشامِ حينَ كانَ قاصداً أن يجليَهُم عن بيتِ المقدسِ وتلكَ النواحي (١) :

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾(٢) .

الحمدُ للهِ علىٰ ما أنجزَ مِنْ هٰذا الوعدِ ، وعلىٰ نصرتِهِ لهٰذا الدِّينِ الحنيفِ مِنْ قبلُ ومِنْ بعدُ ، وعلىٰ أن أجرىٰ هٰذهِ الحسنةَ التي ما اشتملَ علىٰ مثالِها كرامُ الصَّحائفِ ، ولم يجادلْ عن مثلِها في المواقفِ ، في الأيامِ الإماميةِ الناصريةِ زادَها اللهُ غُرراً وأوضاحاً ، ووالى البشائرَ فيها بالفتوحِ غدوّاً ورواحاً ، ومَكَّنَ سيوفَها في كلِّ مأزقٍ مِنْ كلِّ كافرٍ ومارقٍ ، ولا أخلاها مِنْ سيرةٍ سريَّةٍ تجمعُ بينَ مصلحةِ مخلوقٍ وطاعةِ خالقٍ ، وأطالَ أيديَ أوليائِها لتَحميَ بالحقيقةِ حمى الحقائقِ ، وأنجزَها الحقَّ وقذفَ بهِ على الباطلِ الزاهقِ ، ومَلَّكَها هواديَ المغاربِ ومراميَ المشارقِ ، ولا زالَتْ إرادتُها في الظُّلماتِ مصابحَ ، وسيوفُها للبلادِ مفاتحَ ، وأطرافُ أسنَّتِها لدماءِ الأعداءِ نوازحَ .

والحمدُ للهِ الذي نصرَ سلطانَ الدِّيوانِ العزيزِ وأيَّدَهُ ، وأظفرَ جندَهُ الغالبَ وأنجدَهُ ، وجلا بهِ جلابيبَ الظلماءِ [وجدَّدَ جُدُدَهُ] ، وجعلَ بعدَ عسرٍ يسراً ، وقد أحدثَ اللهُ بعدَ ذٰلكَ أمراً ، وهَوَّنَ الأمرَ الذي ما كانَ الإسلامُ يستطيعُ عليهِ صبراً ، وخُوطِبَ الدِّينُ بقولِهِ : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾(٣) ، فالأُولىٰ في

---

(١) انظر « صبح الأعشىٰ » (٦/٥١٧ ـ ٥٢٠) .

(٢) سورة الأنبياء : (١٠٥) .

(٣) سورة طه : (٣٧) .

عصرِ النبيّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ والصَّحابةِ ، والأخرىٰ هٰذهِ التي عتقَ فيها مِنْ رقِّ الكآبةِ ، فهوَ قد أصبحَ حُرّاً ، والزمانُ كهيئتِهِ استدارَ ، والحقُّ ببهجتِهِ قدِ استنارَ ، والكفرُ قد ردَّ ما كانَ عندَهُ مِنَ المُستعارِ ، وغُسِلَ ثوبُ الليلِ بماءِ فجرٍ فُجِّرَ مِنْ أنهارِ النهارِ ، وأتى اللهُ بنيانَ الكفرِ مِنَ القواعدِ ، وشفىٰ غليلَ صدورِ المؤمنينَ برقراقِ ماءِ الموردات البواردِ .

أنزلَ ملائكةً لم تظهرْ للعيونِ اللّاحظةِ ، ولم تخفَ عنِ القلوبِ الحافظةِ ، عَزَّتْ سِيمَا الإسلامِ بمُسوَّمِها ، وترادفَ نصرُهُ بمردفِها ، وأخذَتِ القرىٰ وهيَ ظالمةٌ ، فترىٰ مترفيها كأن لم يَغنوا فيها ، فكم أقدمَ بها حيزومٌ ، وركضَ فأتبعَهُ سحابُ عجاجٌ مركومٌ ، وضربَ فإذا ضربُهُ كتابُ جراحٍ مرقومٌ ، وإلّا . . فإنَّ الحربَ إنَّما عُقِدَتْ سِجالاً ، وإنَّما جمعَتْ رجالاً ، وإنَّما دعَتْ خفافاً وثقالاً ، فما سيوفٌ تقابلُ سيوفاً ، وزحوفٌ تقاتلُ زحوفاً ، فيكونُ حدُّ الحديدِ بيدٍ مُذكَّراً وبيدٍ مُؤنَّثاً ، ويكونُ السَّيفُ في اليدِ الموحِّدةِ يغني بالضَّربةِ المُوحَّدةِ ، وفي اليدِ المُثلِّثةِ لا يغني بالضَّربِ مُثلَّثاً ؛ وذٰلكَ أنَّهُ في فئتَينِ التقتا ، وعدوَّتَينِ لغيرِ مَودَّةٍ اعتنقَتا ، وإنَّ هٰذهِ النصرةَ إن زُوِيَتْ عن ملائكةِ اللهِ . . جُحِدَتْ كراماتُهُم ، وإن زُوِيَتْ عنِ البشرِ . . فقد عُرِفَتْ قبلَها مقاماتُهُم ، فما كانَ سيفٌ تَيقَّظَ مِنْ جفنِهِ قبلَ أن ينبهَهُ الصَّريخُ ، ولا كانَ ضربٌ يطيرُ الهامَ قبلَ ضربٍ يراهُ الناظرُ ويسمعُهُ المُصِيخُ ، فكم ضربةٍ كأنَّها هجرةُ الموتِ وبها التاريخُ !! وكم طعنةٍ تَخِرُّ لها هضابُ الحديدِ ولها شماريخُ !!

والحمدُ للهِ الذي أعادَ الإسلامَ جديداً ثوبُهُ بعدَ أنْ كانَ جديداً حبلُهُ ، مُبْيَضّاً نصرُهُ مُخْضَرّاً نصلُهُ ، مُتَّسِعاً فضلُهُ ، مجتمعاً شملُهُ ، والخادمُ يشرحُ مِنْ نبأِ هٰذا الفتحِ العظيمِ والنصرِ الكريمِ ما يشرحُ صدورَ المؤمنينَ ، ويمنحُ

الحُبورَ لكافَّةِ المسلمينَ ، ويُكرّرُ البشرىٰ بما أنعمَ اللهُ بهِ مِنْ يومِ الخميسِ الثالثِ والعشرينَ مِنْ ربيعِ الآخِرِ إلىٰ يومِ الخميسِ منسلخِهِ ، وتلكَ سبعُ ليالٍ وثمانيةُ أيامٍ حسوماً ، سَخَّرَها اللهُ على الكُفّارِ ، فترى القومَ فيها صرعىٰ كأنَّهُم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ ، ورايتُها إلى الإسلامِ ضاحكةٌ كما كانَتْ مِنَ الكفرِ باكيةً .

فيومُ الخميسِ الأوَّلُ فُتِحَتْ طبريةُ ، وفاضَ ريُّ النصرِ مِنْ بُحيرتِها ، وفضَتْ علىٰ جسرِها الفرنجُ فقضَتْ نحبَها بِحَيْرَتِها ، وفي يومِ الجمعةِ والسبتِ كُسِرَ الفرنجُ الكسرةَ التي ما لهُم بعدَها قائمةٌ ، وأخذَ اللهُ أعداءَهُ بأيدي أوليائِهِ أخذَ القرىٰ وهيَ ظالمةٌ ، وفي يومِ الخميسِ مُنسلَخَ الشهرِ فُتِحَتْ عَكّا بالأمانِ ، ورُفِعَتْ بها أعلامُ الإيمانِ ، وهيَ أمُّ البلادِ ، وأختُ إرمَ ذاتِ العمادِ ، وقد أصبحَتْ كأن لم تَغنَ بالكفرِ ، وكأن لم تفتقرْ مِنَ الإسلامِ .

وقد أصدرَ هـٰذهِ المطالعةَ وصليبُ الصَّلَبُوتِ مأسورٌ ، وقلبُ ملكِ الكفرِ الأسيرِ جيشُهُ المكسورُ مكسورٌ ، والحديدُ الكافرُ الذي كانَ في الكفرِ يَضرِبُ وجهَ الإسلامِ ، قد صارَ حديداً مسلماً يُفرّقُ خطواتِ الكفرِ عنِ الأقدامِ ، وأنصارُ الصَّليبِ وكبارُهُ ، وكلُّ مَنِ المعموديَّةُ عمدتُهُ والدير دارُهُ . . قد أحاطَتْ بهِ يدُ القبضةِ ، وأُخِذَ رهناً فلا يُقبَلُ فيهِ القناطيرُ المُقنطَرةُ مِنَ الذَّهبِ والفضةِ ، وطبريةُ قد رُفِعَتْ أعلامُ الإسلامِ عليها ، ونَكَصَتْ مِنْ عَكّا مِلَّةُ الكفرِ علىٰ عقبَيها ، وعُمِّرَتْ إلىٰ أن شهدَتْ يومَ الإسلامِ وهوَ خيرُ يومَيها ، بل ليسَ مِنْ أيامِ الكفرِ يومٌ فيهِ خيرٌ ، وقد غُسِلَ عن بلادِ الإسلامِ بدماءِ الشركِ ما كانَ تَخلَّلَها فلا ضررَ ولا ضيرَ ، وقد صارَتِ البِيَعُ مساجدَ بها مَنْ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، وصارَتِ المذابحُ مواقفَ لخطباءِ المنابرِ ، واهتزَّتْ أرضُها لوقوفِ المسلمينَ فيها وطالَما ارتجَّتْ لمواقفِ الكافرِ ، وافترَّتِ النصرةُ عن ثغرِ

عَكًّا بحمدِ اللهِ الذي يَسَّرَ فتحَها ، وتَسلَّمَتْها المِلَّةُ الإسلاميةُ بالأمانِ وعرفَتْ في هٰذهِ الصَّفقةِ ربحَها ، وأمَّا طبريةُ . . فافترَتْها يدُ الحربِ فأنهرَتِ الحربُ جرحَها .

فالحمدُ للهِ حمداً لا تُضرَبُ عليهِ الحدودُ ، ولا تُزكَّىٰ بأزكىٰ منهُ العقودُ ، وكأنَّه بالبيتِ المُقدَّسِ وقد دنا الأقصىٰ مِنْ أقصاهُ ، وبَلَّغَ اللهُ فيهِ [الأملَ] الذي علمَ أن يُحصيَهُ وأحاطَ بأجلِهِ وقضاهُ ، لكلِّ أجلٍ كتابٌ ، وأجلُ العدوِّ هٰذهِ الكتائبُ الجامعةُ ، ولكلِّ عملٍ ثوابٌ ، وثوابُ مَنْ حظيَ بطاعتِهِ جنَّاتُ نعيمِهِ الواسعةُ ، واللهُ المشكورُ علىٰ ما وهبَ ، والمسؤولُ في إدامةِ ما استيقظَ مِنْ جدِّ الإسلامِ وهبَّ .

[عهدٌ منَ المستعينِ باللهِ إلى الملكِ العادلِ مُظفَّر شاهٍ]

ومِنْ مشاهيرِ هٰذهِ الطَّبقةِ : تقيُّ الدِّينِ أبو بكرٍ ابنُ حِجَّةَ ، صاحبُ « خزانةِ الأدبِ » ، وإنشاؤُهُ كثيرٌ ، جُمِعَ في كتابٍ ذي مُجلَّداتٍ ، مُلقَّبٍ بـ « قهوةِ الإنشاءِ » ، فمِنْ إنشائِهِ : صورةُ عهدٍ كتبَهُ عن خليفةِ وقتِهِ المستعينِ لأحدِ سلاطينِ الهندِ ؛ وهيَ هٰذهِ (١) :

الحمدُ للهِ الذي وَثَّقَ عهدَ النجاحِ للمستعينِ بهِ ، وثَبَّتَ أوتادَهُ ليفوزَ مَنْ تَمسَّكَ مِنْ غيرِ فاصلةٍ بسببِهِ ، وزَيَّنَ السماءَ الدنيا بمصابيحَ وحفظاً ، وأفرغَ علىٰ أعطافِ الأرضِ حللَ الخلافةِ الشريفةِ ، وعلمَ أنَّ في خلفِها الزاهرِ زهرةَ الحياةِ الدنيا ، فقالَ عَزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) ، واختارَها مِنْ بيتٍ براعةُ استهلالِهِ في أوَّلِ بيتٍ وُضِعَ للناسِ ، وسبقَتْ إرادتُهُ ولهُ الحمدُ

---

(١) قهوة الإنشاء (ص ٤٢٨ ـ ٤٣٤) .

(٢) سورة البقرة : (٣٠) .

أن تكونَ هـٰذهِ النهلةُ الشريفةُ مِنْ سقايةِ العباسِ ، فالحمدُ للهِ علىٰ أن جعلَ هـٰذهِ السِّقايةَ عيناً يشربُ بها المُقرَّبونَ ، ومَنْ علمَ شرفَها . . تَميَّزَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

فالحمدُ للهِ الذي استخلفَ آلَ النبيِّ في الأرضِ وفَضَّلَهُم ، وإن تَحدَّثَ أحدٌ في شرفِ بيتٍ . . فاللهُ قد جعلَ البيتَ والحديثَ لهُم ، فأكرمْ بهِ بيتاً مَنْ أقرَّ بعبوديتِهِ كانَ لهُ مِنَ النارِ عتقاً ، وتَمتَّعَ بنعيمِ بركتِهِ التي لا يَتجنَّبُها إلَّا الأشقىٰ ، وكيفَ لا وهوَ البيتُ الذي بعثَ اللهُ منهُ شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً ، وداعياً إلى اللهِ بإذنِهِ وسراجاً منيراً ، وصَفَّىٰ أهلَهُ مِنَ الأدناسِ ، وأنزلَ في حقِّهِم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (٢) ، وأبرزَ علمَهُمُ الخليفتيَّ علىٰ وجنةِ الدّهرِ شامةً ، وخَصَّهُم بالتقديمِ فالحمدُ للهِ واللهُ أكبرُ لهـٰذهِ الإمامةِ ، وإذا كانَ النسيبُ مُمدَّحاً وهوَ في النظمِ واسطةُ العقودِ . . فهـٰذا هوَ النسبُ الذي يلوحُ عليهِ مِنْ شمسِ الضُّحىٰ نورٌ ومِنْ فَلَقِ الصَّباحِ عمودٌ ، وهـٰذا هوَ الركنُ الذي مَنِ استلمَهُ واستندَ إليهِ . . قيلَ لهُ : فزتَ بعُلُوِّ سندِكَ ، فقد قيلَ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قالَ : « أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ ؟ » ، قالَ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « إِنَّ ٱللهَ قَدْ فَتَحَ ٱلْأَمْرَ بِي ، وَيَخْتِمُهُ بِوَلَدِكَ » (٣) .

فأحببْ بها شجرةَ نسبٍ زكا غرسُها ونما ، وتسامَتْ بها الأرضُ وكيفَ لا ؟! وأصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ ، فسلامٌ علىٰ خلفِها الذي منهُ المستعينُ باللهِ ، والمُتوكِّلُ عليهِ ، والواثقُ بهِ والرشيدُ ، ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ عليكُم أهلَ البيتِ ، إنَّهُ حميدٌ مجيدٌ .

---

(١) سورة الزمر : (٩) .

(٢) سورة الأحزاب : (٣٣) .

(٣) أخرجه أبو نعيم في « حلية الأولياء » (٣١٥/١) بنحوه عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

نحمدُهُ حمدَ مَنْ عَلِمَ أنَّ آلَ هـٰذا البيتِ النبويِّ كسفينةِ نوحٍ وتَعلَّقَ بهِم فنجا ، ونشكرُهُ شكرَ مَنْ مالَ إلى الدخولِ تحتَ العلمِ العباسيِّ ، وتَنصَّلَ مِنَ الخوارجِ فوجدَ لهُ مِنْ كلِّ ضيقٍ مَخرجاً ، ونشهدُ أن لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ شهادةً نرجو أن تكونَ مقبولةً عندَ الحاكمِ وقتَ الأدا ، ونشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي حَرَّضَنا على الوفاءِ بالعهدِ وأرشدَنا إلىٰ طريقِ الهدىٰ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ وَفَّوا لهُ بالعهودِ ، وأقامَتْ مواضي سيوفِهِمُ الحدودَ ، صلاةً يسقي عِهادُ الرحمةِ إن شاءَ اللهُ عهدَها ، وينظمُ في سلكِ العبوديةِ عقدَها ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

وبعدُ : فالحمدُ للهِ الذي ألهمَنا الرشدَ وجعلَ منَّا الخلفاءَ الراشدينَ ، وبنسبتِنا إلىٰ علمِ الهدىٰ فَضَّلَنا بالأئمةِ المهديينَ ، واصطفىٰ مِنْ هـٰذا الخلفِ الشريفِ خلائفَ الأرضِ ، وسَنَّ مواضيَ العقولِ التي قطعَتْ أنَّ طاعتَنا فرضٌ ؛ فإنَّ لعهدِنا العباسيِّ شرفاً لا يَرفُلُ في حللِهِ الشَّريفةِ إلَّا مَنِ اتخذَ معَ اللهِ عهداً وأتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ ؛ فقد قالَ اللهُ تعالىٰ ـ بعدَ : أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ ـ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (١) .

ولا يَتمسَّكُ بطيبِ هـٰذا العهدِ الشريفِ . . إلَّا مَنْ صحا إلى القيامِ بواجبِ الطاعةِ ، وتركَ أهلَ الجهلِ في سكرتِهِم يعمهونَ ، وانتظمَ في سلكِ مَنْ أنزلَ اللهُ في حقِّهِم : ﴿ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران : (٧٧) .

(٢) سورة البقرة : (١٧٧) .

وهوَ قبضةٌ مِنْ آثارِ البيعةِ النبويَّةِ ، وشعارٌ يَتشرَّفُ به مَنْ مشىٰ تحتَ الرايةِ العبَّاسيةِ ، وما أُرسِلَ هـٰذا العهدُ النبويُّ إلىٰ ملكٍ مِنْ ملوكِ الأرضِ . . إلَّا عمَّهُ الشَّرفُ مِنْ جميعِ جهاتِهِ ، واللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِهِ ، ولا أُعلِنَ بهِ علىٰ منبرٍ إلَّا شَدَتْ أعوادُهُ طرباً ، وأزهرَتْ رونقاً وأثمرَتْ أدباً ، وقالَتْ وقد رَنَّحَتْها نسماتُ القَبولِ مِنْ ساكنِ الروضةِ ، واخضلَّ نباتُ تلكَ البقاعِ وأينعَ وعمَّ الفرحُ بها كلَّ غيضةٍ .

وكانَ المَقامُ الأشرفُ العالي ـ إلىٰ آخِرِ الصِّفاتِ السُّلطانيةِ ـ السلطانيُّ ، الملكُ المظفريُّ ، شمسُ الدنيا والدينِ ، والمستعينُ في زيادةِ شرفِ ملكِهِ بعدَ اللهِ بالمستعينِ ، لا زالَتْ أيامُهُ الزاهرةُ بشمسِهِ المنيرةِ مشرقةً ، وتوقيعاتُ الرقاعِ بنسخِ صفاتِهِ الشريفةِ مُحقَّقةً . . ممَّنْ رغبَ في التمسُّكِ بهـٰذا العهدِ الشريفِ ؛ ليزيلَ عن ملكِهِ الالتباسَ ، واستندَ إليهِ ليرويَ في سندِهِ العالي عنِ ابنِ عباسٍ ، ومشىٰ بعينِ البصيرةِ في هـٰذا المنهجِ القويمِ ، وتلا لَهُ لسانُ الحالِ : ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، وطاولَ بيدِ الخلافةِ الشريفةِ لإقامةِ الحدِّ ـ علماً بأنَّ يدَ الخلافةِ لا تطاولُها يدٌ ـ وأخلصَ مَودَّتَهُ في التقرُّبِ إلىٰ بيتِنا الشريفِ لِمَا شغفَهُ حبّاً ، وتمسَّكَ بطيبِ ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ (٢) لأنَّـهُ الملكُ الذي ظَفَّرَهُ اللهُ بأعداءِ هـٰذا الدِّينِ وسمَّاه مُظفَّراً ، ولَقَّبَهُ بالشمسِ واختارَ لهُ أن يقارنَ مِنَ الطَّلعةِ المستعينيَّةِ قمراً ، أينعَ زهرُ العدلِ بحضرةِ [دِهْلي] فعطَّرَ الآفاقَ ، وضاعَ نشرُهُ بالهندِ فعادَ الشمُّ إلى المزكومِ بالعراقِ ، وصارَتْ دمنُ سُمْناتَ عامرةً بقيامِ الدِّينِ ، وأيَّدَهُ اللهُ فيها بعدَ القتالِ بالفتحِ المبينِ ، ولم يتركْ للعدوِّ في بيتَ بَيْتَ ليلةً ، وأبطلَ ما دَهَّرَهُ أهلُ داهرَ بحسنِ اليقظةِ وقُوَّةِ

(١) سورة الملك : (٢٢) .

(٢) سورة الشورىٰ : (٢٣) .

الصَّولةِ[1] ، وأبادَ الكفرةَ مِنْ دِيوَ ولم يقبلْ لهُم ديةً ، وفاؤوا إلىٰ غيرِ أمرِ اللّٰهِ فقصمَهُم بسيفِهِ الهنديِّ ولم تقمْ لهُم فِيَه ، وفطرَ أكبادَ مَنْ ناواهُ بها فلازموا عن رؤيتِها الصومَ ، ونادىٰ منادي عدلِهِ بالبلادِ الهنديَّةِ : لا ظلمَ اليومَ ، ودانَتْ لهُ تلكَ الممالكُ برّاً وبحراً ، وسهلاً ووعراً .

ما نظمَ الأعداءُ علىٰ ذٰلكَ البحرِ المديدِ بيتاً إلَّا أبانَ زحافَهُ وأدارَ عليهِ دوائرَهُ ، وكم نظمَ شملَ الرعايا بالعدلِ ، ونثرَ رؤوسَ الكفرةِ بالسيفِ ، فلا عدمَ الإسلامُ في الحالَينِ ناظمَهُ وناثرَهُ . . عربيٌّ ، وكم كَلَمَ الأعداءَ بلسانِ الهنديِّ فأحجمَهُم عندَ ملتقاهُ . . عادلٌ تسلسلَ حديثُ فضلِهِ فغدا مرسلاً معَ الرواةِ ، عاطرُ الأرجاءِ ولم ينمَّ المِسكُ إلَّا بطيبِ تربتِهِ ، سلطانٌ تَتطفَّلُ الملوكُ علىٰ أواني موائدِهِ وتخضعُ لسلطانيَّتِهِ ، سُئِلَتِ الرُّكبانُ في البرِّ عن مناقبِهِ الشريفةِ وعمَّ يتساءلونَ وقد صارَ لها عظيمُ النبا ، وصرَّحَ راكبُ البحرِ بعدَ التسميةِ باسمِهِ فاتخذَ سبيلَهُ في البحرِ عجباً ، فظلُّهُ في البرِّ ظليلٌ ، وعدلُهُ في البحرِ بسيطٌ وطويلٌ .

هٰذا ؛ ولم يبقَ في تلكَ الممالكِ الهنديَّةِ بقعةٌ إلَّا ولم يصغرِ اللّٰهُ بسنابكِ الخيلِ فيها ممشاهُ ، ولا نفسٌ خارجةٌ عنِ الطَّاعةِ الشريفةِ إلَّا ماتَتْ في رقعةِ الأرضِ بمُظَفَّرِ شاهٍ ، فلذٰلكَ رُسِمَ بالأمرِ الشريفِ ـ إلىٰ آخرِ الصِّفاتِ الإماميةِ ـ أن يُفوَّضَ إليهِ مِنْ ولايةِ العهدِ وكفالةِ السلطنةِ الشريفةِ بالبلادِ الهنديَّةِ ما هوَ المعهودُ ؛ ليهطلَ جودُ الرحمةِ علىٰ تلكَ البِقاعِ المباركةِ إن شاءَ اللّٰهُ ويجودُ ، عهداً شريفاً ـ إلىٰ آخرِ الصِّفاتِ ـ وأن يستخلفَ فيما فَوَّضَهُ اللّٰهُ إلينا مِنْ صلاحِ الأُمَّةِ ومصالحِ الخلقِ ، استخلافاً تَتحلَّىٰ بذكرِهِ الأفواهُ ، وتَترنَّمُ بهِ في شعابِ مَكَّةَ الحُداةُ ، ويَقطعُ بهِ ويَحفظُهُ ربُّ كلِّ سيفٍ وقلمٍ ، ويَعتمِدُ عليهِ

---

(١) في « صبح الأعشىٰ » (١٠/١٣٢) : (دِهلىٰ بحسن اليقظة) بدل (داهر بحسن اليقظة) .

كلُّ ذي عِلْمٍ وعَلَمٍ ، فلا زعيمَ جيشٍ إلَّا وهـٰذا التفويضُ الشريفُ يَسَعُهُ في بلادِهِ ويَشملُهُ ، ولا إقليمَ مِنْ أقاليمِهِ إلَّا ومَنْ بهِ يُقبِّلُهُ ويَقبَلُهُ ، ويَتمثَّلُ بهِ ويَمتثِلُهُ ، ولا مِنبرَ إلَّا وخطيبُهُ يتلو كتابَ هـٰذا التفويضِ ويُرتِّلُهُ .

وأمَّا الوصايا . . فعندَهُ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ تهبُّ نسماتُ قَبولِها ، ويُعرِبُ عن نصبِ مفعولِها ، وهوَ بحمدِ اللهِ لِوصايا هـٰذا العهدِ الشريفِ نِعْمَ القابلُ ، فقد قيلَ : إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ قالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ ٱللهُ فِي ظِلِّهِ » (١) ، منهُمُ الإمامُ العادلُ ، والوصيةُ بالرَّعايا واجبةٌ ، وقد حَرَّضَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ على العدلِ فيهِم ، وحَرَصَ عليهِ وقالَ : « يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً أَحْوَجَ مَا تَكُونُ ٱلْأَرْضُ إِلَيْهِ » (٢) .

وقالَ ابنُ عمِّنا عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الملكُ والدِّينُ أخوانِ ، لا غنىٰ لأحدِهما عن الآخرِ ، فالدِّينُ أُسٌّ والمَلِكُ حارسٌ ؛ فإن لم يكنْ لهُ أُسٌّ . . فمهدومٌ ، وما لم يكنْ لهُ حارسٌ . . فضائعٌ) (٣) ، فهـٰذهِ الحكمةُ بها يعالجُ ما ضَعُفَ مِنْ أركانِ الملكِ ، وهـٰذا المشرعُ يَجري علىٰ أجملِ الشرائعِ ، فليأمرْ بالمعروفِ ، وينهَ عنِ المنكرِ ، علماً أنَّهُ ليسَ يُسأَلُ في غدٍ عن ذٰلكَ سوانا وسواهُ ، ويردَّ نفسَهُ الشريفةَ عنِ الهوىٰ ، ولا يَحسُنُ لنباتِ قَدِّهِ أن يَميلَ معَ هواهُ ، وليتركِ الثغورَ بعدلِهِ باسمةً ، وقواعدَ الملكِ بفضلِهِ قائمةً ، وليجاهدْ في اللهِ حقَّ جهادِهِ ، ويلطفْ بالرعايا ويعلمْ أنَّ اللهَ لطيفٌ بعبادِهِ ، وليشرحْ لهُم بالإحسانِ صدراً ليَجرُوا إذا وقفَ علىٰ أحوالِهِم أحسنَ مَجرىً .

وهوَ بحمدِ اللهِ غيرُ محتاجٍ إلى التأكيدِ ؛ لأنَّهُ لم يخلُ لهُ مِنَ القيامِ في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠) ، ومسلم (١٠٣١) عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه بنحوه إلىٰ قوله : « صباحاً » البيهقي في « السنن الكبير » (٨/١٦٢) برقم (١٦٧٢٧) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما .

(٣) انظر « إحياء علوم الدين » (١/٦٧) .

مصالحِ الأُمَّةِ فكرٌ ، ولـٰكنَّهُ تجديدُ ذكرٍ علىٰ ذكرٍ ، واللهُ تعالىٰ يُمتِّعُ بطولِ بقائِهِ البلادَ والعبادَ ، ولا برحَتْ سيوفُهُ الهنديَّةُ تَكْلُمُ أعداءَ هـٰذا الدِّينِ بألسنةٍ حدادٍ ، وثَبَّتَ ملكَهُ بالعدلِ وشيَّدَ أقوالَهُ ، وختمَ بالصَّالحاتِ أعمالَهُ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[عقدُ نكاحِ السلطانِ الناصرِ فرجٍ لبعضِ بناتِ أمرائِهِ]

وهـٰذِهِ صورةُ تسجيلِ عقدِ نكاحٍ : ويُسمَّىٰ صداقاً ، وقد تَزوَّجَ سلطانُ وقتِهِ الناصرُ بعضَ بناتِ أمرائِهِ[1] :

الحمدُ للهِ الذي أيَّدَ السنةَ الشريفةَ بقُوَّةٍ وناصرٍ ، وأعزَّها بعزيزِ مصرَ ؛ لأنَّهُ شعرَ ببركتِها فجعلَها لهُ مِنْ أجملِ الشَّعائرِ ، سنَّ ـ خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ـ أسنَّتَها فصارَ لها بهِ ملكةٌ وسلطانٌ ، وشهرَ سيفَها لإقامةِ الحدودِ فأقامَ بهِ قواعدَ الإيمانِ ؛ فالشكرُ للهِ علىٰ أن عَرَّفَنا بطيبِ هـٰذا الأثرِ الشريفِ وشرحَ للتمسُّكِ بهِ صدراً ، ووضعَ عنَّا بهِ وزراً ، وأمدَّنا بأموالٍ وبنينَ وجعلَ بينَنا نسباً وصهراً ، وسقىٰ سبحانَهُ وتعالىٰ أرضَ المصاهرةِ بماءِ القربِ ففاحَ نشرُها الأريجُ ، واهتزَّتْ وربَتْ وأنبتَتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، وقَرَّبَ بينَ البعيدَينِ ، فصارا زوجَينِ اثنَينِ ، [وهـٰذِهِ] نكرةٌ بغيرِ قدرتِهِ لا تَتعرَّفُ ، وأَلَّفَ بينَ أجانبَ لو أنفقتَ ما في الأرضِ جميعاً ما أَلَّفتَ بينَ قلوبِهِم ولـٰكنَّ اللهَ أَلَّفَ ، فلهُ المِنَّةُ علىٰ أن جعلَ النساءَ حرثاً لزرعِ نباتِهِ زهرةَ الحياةِ الدنيا ، وسقياً لهـٰذا النباتِ ورعياً .

نحمدُهُ حمدَ مَنْ تَرقَّىٰ باتباعِ السنَّةِ الشريفةِ إلىٰ أعلى الدَّرَجِ ، ونشكرُهُ شكراً يأتينا عندَ كلِّ شِدَّةٍ بفرجٍ ، ونشهدُ أن لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ

---

(١) انظر « قهوة الإنشاء » (ص ٤٣٥ ـ ٤٣٨) .

لهُ ، شهادةً مقبولةً إن شاءَ اللهُ عندَ أحكمِ الحاكمينَ في دارِ المُقامةِ ، ونشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي قالَ : « تَنَاكَحُوا تَنَاسَلُوا ؛ فَإِنِّي مُبَاهٍ بِكُمُ ٱلْأُمَمَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ »(١) ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ أيَّدوا مِلَّتَهُ ، واتبعوا سُنَّتَهُ ، وسَلَّمَ تسليماً .

وبعدُ : فإنَّ النكاحَ سُنَّةٌ مِنْ سننِ الأنبياءِ ، وحليةٌ مِنْ شعارِ الأولياءِ ، تنتظمُ جواهرُهُ في أسلاكِ عقودِ الشملِ ، وتمسي عرائسُ غصونِهِ ببركةِ هٰذا الغراسِ في حملٍ ، ما برحَ نورُها في جباهِ هٰذهِ الأُمَّةِ يتضحُ ويتبلَّجُ ، وقد حَرَّضَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ عليهِ فقالَ : « يَا مَعْشَرَ ٱلشَّبَابِ ؛ مَنِ ٱسْتَطَاعَ مِنْكُمُ ٱلْبَاءَةَ . . فَلْيَتَزَوَّجْ »(٢) .

وكانَ المُقامُ الشريفُ العالي المولويُّ السلطانيُّ الملكيُّ الناصريُّ ، مُؤيِّدُ السُّنَّةِ الشريفةِ وناصرُها ، والقامعُ بسيفِهِ الشريفِ أهلَ البدعِ وقاهرُها ، ركنُ الإسلامِ والمسلمينَ ، مبيدُ الطُّغاةِ والمُتمرِّدينَ ، سلطانُ العربِ والعجمِ ، والعزيزُ الذي ذلَّتْ لبأسِهِ صِيدُ الملوكِ وخضعَتْ رقابُ الأُمَمِ ، ناظرُ الحرمَينِ ، وصاحبُ وقعةِ الجيتينِ ، ومذيلُ التاريخِ على الناصرَينِ ، أبو السعاداتِ فرجُ بنُ مولانا السُّلطانِ السعيدِ الشهيدِ ، الدَّارجِ إلىٰ رحمةِ ربِّهِ المجيدِ ، الملكِ الظاهرِ أبي سعيدٍ برقوقَ ، خَلَّدَ اللهُ تعالىٰ ملكَهُ ، وأعزَّ سلطانَهُ ، وجعلَ مِنَ الملائكةِ المُقرَّبينَ أنصارَهُ وأعوانَهُ .

مُلْكٌ إِذَا حَدَّثُوا عَجَائِبَهُ ... فَإِنَّهَا ٱلْبَحْرُ مَا لَهُ آخِرْ
وَإِنْ تَقَوَّىٰ بِغَيْرِهِ مَلِكٌ ... فَمَا لَهُ قُوَّةٌ وَلَا نَاصِرْ(٣)

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠٣٩١) عن سعيد بن أبي هلال رحمه الله تعالىٰ مرسلاً بنحوه .
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠٥) ، ومسلم (١٤٠٠) عن سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه .
(٣) من المنسرح .

سلطانُ اللهُ أكبرُ ، كأنَّ المقاديرَ لأوامرِهِ الشريفةِ طائعةٌ ، ما قاومَتْهُ ملوكُ الأرضِ إلَّا ذبحَتْها عزائمُهُ على الشرقِ وجاءَتْهُ رؤوسُها إلى الغربِ خاضعةً ، ولا كادَهُ عدوٌّ إلَّا ردَّ اللهُ كيدَهُ في تضليلٍ ، ألم ترَ كيفَ فعلَ ربُّكَ بأصحابِ الفيلِ ؟! تتزاحمُ تيجانُ الملوكِ حولَ ركابِهِ الشريفِ ، وإن ذُكِرَ . . تزاحمَتِ الأسماءُ أكثرَ ، وكيفَ لا وهوَ الملكُ الذي لم يخلُ مِنِ اسمِهِ الشريفِ درهمٌ ولا دينارٌ ولا عودُ منبرٍ ؟! إن تلاعبَتْ كُماتُهُ بعواليها . . لا تسلْ عن تلاعبِ الأشبالِ في الآجامِ ، أو أمالَتْ ألفاتُ رماحِها طاعنةً . . عذلَ نفسَهُ صاحبُ كلِّ لامةٍ ولامَ ، ما قابلَ خميسَ حربٍ إلَّا ولم يَبْقَ مِنْ جمعةِ ذٰلكَ الخميسِ أحدٌ ، ولا سلَّ بيدِهِ الشريفةِ سيفاً لامعاً إلَّا فرَّ صاحبُ القوسِ وعلمَ أنَّ الطالعَ بالشمسِ والأسدِ ، ولا خفقَتْ أعلامُهُ الصُّفرُ في سوادِ نقعٍ إلَّا سُلِقَتِ البيضُ مِنْ زرقِ لسنتِهِ بألسنةٍ حدادٍ ، وأصابَ كلَّ فؤادٍ ، مُصدِّقاً أبا الطيبِ في قولِهِ (١) : [من الوافر]

وَقَـدْ صُـغْـتَ ٱلْأَسِـنَّـةَ مِـنْ هُـمُـومٍ فَـمَـا يَـخْـطُـرْنَ إِلَّا فِـي فُـؤَادِ

[وقالَ القاضي الفاضلُ] (٢) : [من الكامل]

وَهِيَ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلسِّمَاكِ فَلَوْ يَشَا لَأَصَـابَ مِـنْـهَـا رَامِـحـاً بِـٱلْأَعْـزَلِ

هٰذا ؛ وسيوفُ حكمِهِ ـ خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ـ ما تضربُ إلَّا صفحاً عن كلِّ آثمٍ ، وما أحقَّهُ بقولِ القائلِ : لو علمَ الناسُ محبتي بالعفوِ . . لتقرَّبوا إليَّ بالجرائمِ .

وأمَّا عطاؤُهُ ـ سبحانَ المانحِ ـ ما أعطىٰ إلَّا وَدَّتْ أغنياءُ الملوكِ أن تصيرَ سائلةً كأبناءِ السبيلِ ، وكيفَ يحيا لجعفرٍ خالدُ ذكرٍ وما جعفرٌ بالنسبةِ

---

(١) انظر « ديوان المتنبي » (ص ٦١) .

(٢) انظر « ديوان القاضي الفاضل » (ص ٢٨١) .

إلىٰ بحرِ النيلِ ؟! فلو أدركَهُ الفاضلُ . . لقالَ : هٰذهِ المناقبُ الناصريَّةُ ، وعبدُ الرحيمِ عبدُ الرحيمِ !! وأنشدَ وقد شاهدَ ما قالَهُ عياناً في الناصرِ القديمِ[1] : [من البسيط]

أَهَـٰذِهِ سِيَرٌ فِي ٱلْمَجْدِ أَمْ سُوَرٌ ... وَهَـٰذِهِ أَنْجُمٌ فِي ٱلسَّعْدِ أَمْ غُرَرُ
وَأَنْمُلٌ أَمْ بِحَارٌ وَٱلسُّيُوفُ بِهَا ... مَوْجٌ وَإِفْرِنْدُهَا فِي لُجِّهَا دُرَرُ
وَأَنْتَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ فَوْقَ ٱلسَّمَاءِ وَفِي ... يَمِينِكَ ٱلْبَحْرُ أَمْ فِي وَجْهِكَ ٱلْقَمَرُ
يُقَبِّلُ ٱلْبَدْرُ تُرْباً أَنْتَ وَاطِئُهُ ... فَلِلتُّرَابِ عَلَيْهِ ذَلِكَ ٱلْأَثَرُ
نَأَىٰ بِكَ ٱلْمُلْكُ حَتَّىٰ قِيلَ ذَا مَلَكٌ ... دَنَا بِكَ ٱلْجُودُ حَتَّىٰ قِيلَ ذَا بَشَرُ
خَلَائِقٌ فِي سَمَاوَاتِ ٱلْعُلَا زُهُرٌ ... لَنَا تُنِيرُ وَفِي رَوْضِ ٱلثَّنَا زَهَرُ

ونعودُ إلىٰ أنَّهُ ـ خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ـ هوَ المُتحلِّي بشعارِ هٰذهِ السُّنَّةِ ، والمُتقلِّدُ للهِ سبحانَهُ وتعالىٰ هٰذهِ المِنَّةَ ؛ لأنَّهُ الملكُ الذي إن نصرَ السُّنَّةَ . . فهوَ ناصرُ الدنيا والدِّينِ ، أو أبانَ شرفَها . . فقد تأيَّدَتْ منهُ بسلطانٍ مبينٍ ، أو تَرقَّىٰ إلىٰ أوجِها . . حلَّ منها في أرفعِ مَحَلٍّ ، أو عقدَ عليها خناصرَهُ الشريفةَ . . فإنَّهُ صاحبُ العقدِ والحلِّ .

رغبَ إليها ـ خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ـ فسرىٰ نسيمُ القَبولِ ، وفتحَ طُروسَ الأوراقِ في مسراهُ وجرتْ حمرُ الأقلامِ في ميادينِ الطُّروسِ ، فكتبَتْ :

باسمِ اللهِ ، هٰذا ما أصدقَ مولانا المقامُ الشريفُ العالي المولويُّ السُّلطانيُّ الملكيُّ الناصريُّ ـ لا زالَتْ أبكارُ العقودِ وأيتامُها بسلكِهِ الشريفِ منظومةً ، وفتحَ لهُ كلُّ مانعٍ وكثرةُ الفتوحاتِ في الأيامِ الناصريَّةِ معلومةٌ ـ مرغوبتَهُ الجهةَ المصونةَ ، المُمنَّعةَ المُحجَّبةَ المُكرَّمةَ ، الخوندَ الخاتونَ ،

---

(١) انظر « ديوان القاضي الفاضل » (ص ٢٢١ ـ ٢٢٢) .

دُرَّةَ تاجِ الفخرِ ، وعينَ إنسانِ الخواتينِ ، ويتيمةَ العقودِ ومُخدَّرةَ الملوكِ والسلاطينِ ، ثالثةَ القمرَينِ ، والممدودَ سترُها الرفيعُ علىٰ مفرقِ الفرقدَينِ ، ربيبةَ حجرِ الملكِ ورضيعةَ لبانِهِ ، وخلاصةَ الذَّهبِ الإبريزِ وقلادةَ عِقيانِهِ ، والنهدَ الذي كبا خلفَهُ كلُّ كميتٍ براكبِهِ ، وكيف لا ووالدُها كانَتِ الشقراءَ والشهباءَ مِنْ بعضِ جنائبِهِ ؟! ذاتَ الستورِ الرفيعةِ ، والحجبِ المنيعةِ ، ستَّ الملوكِ بنتَ المقرِّ الأشرفِ السيفيِّ المرحوميِّ ، كشبغا بنِ عبدِ اللهِ الحمويِّ الظاهريِّ ، البِكْرَ العاقلَ الصحيحةَ الأوصافِ ، الخليةَ عنِ الموانعِ الشَّرعيةِ ، أسبغَ اللهُ تعالىٰ ظلالَ خُدورِها ، ومدَّ على الآفاقِ أطنابَ ستورِها ، أصدقَها علىٰ بركةِ اللهِ وعونِهِ وتوفيقِهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ صَداقاً مبلغُهُ مِنَ الذَّهبِ المصريِّ ألفُ دينارٍ ، نصفُها خمسُ مئةِ دينارٍ ، ومِنَ الدراهمِ الفضةِ الجيدةِ المعاملةِ يومَئذٍ عشرونَ ألفَ درهمٍ ، نصفُها عشرةُ آلافِ درهمٍ .

وَلِيَ تزويجَها منهُ علىٰ ذٰلكَ بإذنِها الكريمِ مولانا وسيِّدُنا العبدُ الفقيرُ إلى اللهِ تعالى ، الشيخُ الإمامُ القدوةُ العلَّامةُ ، حُجَّةُ الإسلامِ والمسلمينَ ، حسنةُ الأيامِ ورحلةُ الطالبينَ ، عَلَمُ المُحقِّقينَ ، خالصةُ أميرِ المؤمنينَ ؛ أبو حفصٍ عمرُ بنُ أبي جرادةَ الحنفيُّ ، الناظرُ في الحكمِ العزيزِ بالديارِ المصريةِ وسائرِ الممالكِ الإسلاميةِ ، أعزَّ اللهُ تعالىٰ أحكامَهُ ، ونشرَ على الخافقَينِ بالعِلْمِ الشريفِ أعلامَهُ ، قبلَ منهُ ذٰلكَ لنفسِهِ الشريفةِ ـ عَظَّمَ اللهُ تعالىٰ شرفَها ـ قَبولاً صحيحاً شرعيّاً ، بحضرةِ مَنْ تمَّ العقدُ الشريفُ بحضورِهِ شرعاً .

فأكرِمْ بهِ اتصالاً شريفاً ، اجتمعَ طريفُهُ وتالدُهُ ، وأحببْ بهِ عقداً ناصريّاً والقاضي الفاضلُ عاقدُهُ ، وتاللهِ ؛ لقد أضحىٰ بنظمِ هاتَينِ الجوهرتَينِ في عقدِهِ رفيعَ المنالِ ، وحظيَ مِنْ تنقُّلِ هٰذَينِ القمرَينِ إلىٰ أُفقِهِ بشرفِ الانتقالِ ،

وكيفَ لا وقد حصلَ لهُما بهٰذا العاقدِ الكمالُ ، تَرقَّتْ إلىٰ أعلى الدرجِ بسيفِ الإسلامِ ، فلسانُ الهَنا علىٰ منابرِ الشكرِ خطيبٌ ، وحصلَ لها بالناصرِ وقربِ كاتبِ سِرِّهِ نصرٌ مِنَ اللهِ وفتحٌ قريبٌ ، وأمستْ ستَّ الدِّيارِ المصريَّةِ وراحَتْ بغيضتِها ستَّ الشامِ ، وأبى اللهُ أن يمتطيَ صهوةَ هٰذا النهدِ إلَّا فارسُ الإسلامِ ، جعلَهُ اللهُ عقداً مباركاً ميموناً ، تَتجمَّلُ بسوادِ سطورِهِ وبياضِ طُروسِهِ الليالي والأيامُ ، وكما أحسنَ ابتداءَهُ . . يجعلُ مِنْ مسكِ القَبولِ لهُ حسنَ الختامِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[تقليدُ قضاءِ القضاةِ بدمشقَ لابنِ الآدميّ الحنفيّ]

وهٰذهِ صورةُ تقليدِ قضاءِ القُضاةِ بدمشقَ لصدرِ الدِّينِ عليٍّ المعروفِ بابنِ الآدميّ ، سنةَ عشرٍ وثمانِ مئةٍ (١) :

الحمدُ للهِ الذي أقرَّ عينَ الشامِ وشرحَ بعدَ القبضِ صدرَها ، وأيَّدَها بالإمامِ عليٍّ وأعزَّ بالسُّيوفِ العلويَّةِ نصرَها ، ورفعَها بمَنْ إن تسامىٰ . . فقد دارَتْ على القطبِ دوائرُهُ ، أو كاثرَ بالعلمِ . . قلَّ نظيرُهُ وما ألهاهُ تكاثرُهُ .

أحمدُهُ حمدَ مَنْ علمَ أنَّهُ المُبدِئُ المعيدُ ، وأشكرُهُ شكراً يقمعُ بإحكامِهِ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، شهادةً أرجو أن تكونَ مقبولةً يومَ فصلِ القضاءِ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، الذي سَنَّ سيفَ الشريعةِ ، وأوضحَ أحكامَها ، فقابلَتْها الأُمَّةُ بالطَّاعةِ والرضا ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ الذينَ رَضَوا بأحكامِ القضاءِ والقَدَرِ ، صلاةً ينشرحُ لها الصَّدرُ كلَّما وردَ فضلُها وصدرَ ، وسَلَّمَ تسليماً .

وبعدُ : فإنَّ أَولىٰ مَنْ رفلَ في حللِ إنعامِنا الشريفةِ مَنْ وجبَ حَقُّهُ علينا ،

---

(١) انظر « قهوة الإنشاء » (ص ٤٣٩ ـ ٤٤١) .

وأعدنا إليهِ بضاعتَهُ التي ربحَتْ تجارتُها في أيامِنا الشريفةِ فتلا : ﴿ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا ﴾[1] ، وصدرناهُ فحسنَتْ بهِ التوريةُ وأصبحَ صدرَ الشامِ ، وحكمناهُ فكانَ بحمدِ اللهِ نافذَ القضايا والأحكامِ ، فهوَ الصَّدرُ الذي حصلَ لهُ القبضُ بعدَنا وانشرحَ بعودِنا وابتهجَ ، وأصبحَ بعدَ ضيقِهِ مِنْ سلطانِنا علىٰ كلا الحالَينِ في فرجٍ ، أودعناهُ قديماً سرَّنا الشريفَ فكانَ لهُ نعمَ الصَّدْرُ ، ونطقَتْ ألسنُ أقلامِهِ في ثغورِ الأقاليمِ بشكرِنا فقابلناهُ بعُلُوِّ القَدْرِ .

وكانَ المجلسُ العالي الفلانيُّ الصَّدريُّ هوَ الذي نظمَ في سلكِ شكرِهِ مِنْ ثنائِنا الشريفِ هٰذهِ القلائدَ ، وعادَتْ عليهِ صلةُ برِّنا فهوَ يَرفُلُ مِنْ إنعامِنا الشريفِ بينَ الصِّلةِ والعائدِ ، وضُرِبَتْ بفضلِهِ الأمثلةُ فلم يُوجَدْ لهُ مثالٌ ، وشهدَ لهُ ابنُ العديمِ وناهيكَ بمَنْ حصلَ لهُ هٰذا الكمالُ .

فلذٰلكَ رُسِمَ بالأمرِ الشريفِ العالي المولويّ السُّلطانيّ الملكيّ الناصريّ ـ لا زالَتْ صدقاتُهُ الشريفةُ تعطي كلَّ مُستحِقٍّ وتمنحُ ، ولا برحَ كلُّ صدرٍ يتلو في هٰذه الأيامِ الشريفةِ (ألَمْ نشرحْ) ـ أن يَستقِرَّ المجلسُ العالي القضائيُّ الصَّدريُّ في وظيفةِ قضاءِ قضاةِ الحنفيَّةِ بدمشقَ المحروسةِ علىٰ عادتِهِ في ذٰلكَ وقاعدتِهِ ؛ لأنَّهُ بحرُ العلمِ الذي ظهرَتْ عجائبُهُ واجتمعَتْ في سلكِ الفضلِ فرائدُهُ ، والخليفةُ الباقيةُ للفضائلِ وكيفَ لا والأمينُ والدُهُ ؟! والإمامُ الذي لو أدركَهُ محمدٌ عينُ الأصحابِ . . لاعترفَ بفضلِهِ المليِّ ، واتخذَهُ صاحباً وقالَ : ما لمحمدٍ غيرُ عليٍّ ، والفاضلُ الذي إن ألقىٰ درساً . . فهوَ على الحقيقةِ صدرُ المدرسينَ ، أو ذُكِرَتِ الفتاوىٰ والفُتوَّةُ . . فما تمَّ بحمدِ اللهِ أفتىٰ مِنْ عليٍّ في هٰذا الحينِ .

أحرزَ قصباتِ السبقِ علىٰ فرسانِ مذهبِهِ فعلمنا أنَّهُ فارسُ الشقراءِ والميدانِ ،

---

(١) سورة يوسف : (٦٥) .

وكمِ اقتطفنا مِنْ رياضِ علومِهِ زهرةً علمنا بها أَنَّهُ شقيقُ النعمانِ !! فلو أدركَهُ صاحبُ « الدررِ » لَقَلَّدَهُ وانتظمَ في سلكِ عقودِهِ ، وكم طما بحرُ علمِهِ وجودِهِ فعلمنا أَنَّهُ « مجمعُ البحرينِ » مِنْ طارفِهِ وتليدِهِ !! هٰذا ؛ وما لابنِ الساعاتيِّ « دقائقُهُ » ولا ارتفاعُ هٰذا المقامِ ، ولو عاصرَهُ صاحبُ « المُختارِ » ما اختارَ غيرَهُ وقالَ : عليٌّ هوَ الإمامُ .

فليباشرْ ذٰلكَ علىٰ ما عُهِدَ مِنْ جميلِ أدواتِهِ ، ومحاسنِهِ التي هيَ كالخيلانِ علىٰ جِيدِ الدَّهرِ ونَعُدُّها مِنْ حسناتِهِ ، وليقابلْ هٰذهِ النعمةَ السابغةَ بما يجبُ مِنْ شكرِ اللهِ عليهِ ، ويُحسِنْ كما أحسنَ اللهُ إليهِ ، والوصايا كثيرةٌ وهوَ بحمدِ اللهِ غيرُ محتاجٍ إلىٰ وصيةٍ ؛ لأنَّ الوظائفَ تَتجمَّلُ بحسنِ سيرتِهِ العلويَّةِ ، واللهُ تعالىٰ يُسدِّدُ سهامَ أحكامِهِ ، ويجعلُ مِنْ مسكِ الثنا حسنَ ختامِهِ .

[تقليدُ نظرِ البيمارستانِ لأبي الحسنِ عليٍّ الحنبليِّ]

وهٰذهِ صورةُ تقليدِ نظرِ البِيمارستانِ للشيخ أبي الحسنِ عليٍّ الحنبليِّ [١] :

الحمدُ للهِ الذي رفعَ قدرَ مَنْ برزَ في العلمِ وجعلَهُ عليّاً ، واصطفىٰ مِنْ عبادِهِ مَنْ أرضعَهُ لبانَ الفضلِ صغيراً وآتاهُ الحكمَ صبيّاً ، وخصَّ بالنظرِ في مصالحِ هٰذهِ الأُمَّةِ مَنْ جعلَ الحلمَ شعارَهُ ولم يكنْ جبَّاراً عتيّاً ، فهوَ المُبدِئُ المعيدُ ، والقاصمُ بسيفِ عليٍّ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ ، أحمدُهُ حمداً يَتقوَّىٰ بهِ الضَّعيفُ ، وأشكرُهُ شكراً وافياً يكونُ لنا نعمَ العلاجُ عندَ الحكيمِ اللطيفِ ، وأشهدُ أن لا إلـٰهَ إلَّا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، شهادةَ مَنْ نظرَ بنورِ اللهِ فكانَ مِنْ أهلِ النظرِ والبصيرةِ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي أمسَتِ الأعينُ

(١) انظر « قهوة الإنشاء » (ص ٤٤١ ـ ٤٤٣) .

بحسنِ نظرِهِ الشريفِ قريرةً ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً تزيلُ قذى العينِ وتُنوِّرُ الناظرَ ، وننتصرُ ببركتِها علىٰ كلِّ معاندٍ وفاجرٍ ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

وبعدُ : فإنَّ للوظائفِ الدينيةِ فضلاً أبىٰ أن يكونَ إلَّا لأهلِهِ ، وحكمةً أنفَ سرُّها أن يُوضَعَ إلَّا في مَحَلِّهِ ، وكانَ المقرُّ الشريفُ العالي الشيخيُّ القدويُّ الإماميُّ العلاميُّ الأوحديُّ العامليُّ العالميُّ المفيديُّ القضائيُّ العلائيُّ عليُّ بنُ المغلي الحنبليُّ . . هو الذي لَمَّ شملَ العلمِ بعدَ شتاتِهِ ، وخطبَتْهُ عرائسُ الممالكِ لنفسِها فأبىٰ إلَّا جبرَ قلبِ حماتِهِ ، ركبَ الشهباءَ فخضعَتْ لهُ أهلُ الشقراءِ والميدانِ ، وودَّتْ مصرُ أن تستضيءَ بنورِهِ بعدَ سراجِها الذي نَوَّرَ الأكوانَ ، فلو أدركَهُ إمامُهُ السابقُ . . لقالَ : هٰذا المُصلِّي الذي أزالَ الإبهامَ وعليهِ الخناصرُ تعقدُ ، وقد علمَ كلُّ أحدٍ أنَّ عليّاً أعلمُ أصحابِ أحمدَ .

فلذٰلكَ رُسِمَ بالأمرِ الكريمِ العالي الفلانيِّ ـ لا زالَ علمُ الشرعِ الشريفِ مشهوراً في أيامِهِ ، ولا برحَ كلٌّ مِنْ ذوي الاستحقاقِ واصلاً في هٰذهِ الأيامِ الزاهرةِ إلىٰ أقصىٰ مرامِهِ ـ أن يَستقرَّ المُشارُ إليهِ في وظيفةِ نظرِ البيمارستانِ النوريِّ بحماةَ المحروسةِ ، فلقد سَعِدَتْ بقعتُهُ بعدَ الشقاءِ وقالَتْ : أهلاً بعيشٍ أخضرَ يَتجدَّدُ .

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى ٱلْبِقَاعِ وَجَدْتَهَا ... تَشْقَىٰ كَمَا تَشْقَى ٱلرِّجَالُ وَتَسْعَدُ (١)

وصفتْ مشاربُ الضُّعفاءِ بعدَ الكدرِ وسقاهُم ربُّهُم شراباً طهوراً ، وتلا لِمَنْ سعىٰ في ذٰلكَ وجزىٰ بالخيراتِ : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ (٢) ، ودارَ شرابُ العافيةِ علىٰ أهلِ تلكَ الحضرةِ بالطَّاسِ والكاسِ ، وحصلَ لهُمُ

---

(١) انظر « ديوان ابن نباتة المصري » (ص ١٦١) ، والبيت من الكامل .

(٢) سورة الإنسان : (٢٢) .

البرءُ مِنْ تلكَ البراني التي يخرجُ مِنْ بطونِها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ فيهِ شفاءٌ للناسِ ، وتَمَشَّتِ الصحةُ في مفاصلِ ضُعفائِهِ وقيلَ لهُم : جُوزيتُم بما صبرتُم ، وامتدَّتْ مقاصيرُهُم وفُتِّحَتْ أبوابُها وقالَ لهُم خزنتُها : سلامٌ عليكُم طبتُم ، فلقد قامَ بحسنِ نظرِهِ الكريمِ في طاعةِ اللهِ ومشىٰ ، وأعادَ بنورِ طلعتِهِ البهجةَ النوريَّةَ فقلنا : نورٌ علىٰ نورٍ يهدي اللهُ لنورِهِ مَنْ يشا .

فليباشرْ ذٰلكَ مِنْ غيرِ وصيةٍ ؛ لأنَّهُ أكبرُ وأجلُّ قدراً ، فلقد تلتْ جهاتُ الوقفِ المعسرةُ فرحةً بقدومِهِ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (١) ، وليتناولْ معلومَهُ الشاهدَ بهِ ديوانُ الوقفِ المبرورِ ، واللهُ تعالىٰ يَحفظُ الجهاتِ النوريَّةَ بنظرِهِ ، ويحرسُهُ بسورةِ (النورِ) بمنِّهِ وكرمِهِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[تقليدُ نظرِ المساجدِ لأبي الفتوحِ]

وهٰذهِ صورةُ تقليدٍ بنظرِ مساجدَ (٢) :

الحمدُ للهِ الذي زادَ القائمينَ بشعارِ بيتِهِ صلاحاً وجعلَهُم مِنْ أهلِ النظرِ ، وصَيَّرَ جميلَ ذكرِهِم مبتدأً كلَّما ذُكِرَ عن أهلِ الصَّلاحِ خبرٌ ، نحمدُهُ حمدَ مَنْ عَمَرَ مساجدَ اللهِ بالذِّكرِ وحَسُنَ في بناءِ هٰذا التأسيسِ نظمُهُ ، ونشكرُهُ شكرَ مَنِ انتصبَ لرفعِ بيوتٍ أذنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمُهُ ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ لهُ ، شهادةَ شاهدٍ علمَ أنَّهُ الحاضرُ الناظرُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الذي محىٰ آثارَ الشركِ عن بيتِ اللهِ وقامَ لهُ بأجملِ الشَّعائرِ ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ الذينَ ما برحوا خُدَّامَ هٰذا البيتِ الشريفِ ، والمتقينَ بظلِّهِ الوريفِ ، صلاةً نزدادُ بها نظراً وبصيرةً ، وتكونُ لنا يومَ الحسابِ نِعْمَ الذخيرةُ ، وسَلَّم تسليماً .

---

(١) سورة الشرح : (٥ ـ ٦) .

(٢) انظر « قهوة الإنشاء » (ص ٤٤٣ ـ ٤٤٥) .

وبعدُ : فإنَّ أَولىٰ ما بادرَ إليهِ أهلُ البصائرِ . . النظرُ في بيوتِ اللهِ ؛ فإنَّهُ مِنْ أعظمِ القُرَبِ ، ولا يشعرُ بهـٰذهِ الشعائرِ إلَّا مَنْ ظهرَ صلاحُهُ ولم يفصلْ بينَهُ وبينَ الخيرِ فاصلةٌ ولا سببٌ ، وبادرَ إلىٰ عِمارتِها بالذِّكرِ ودخلَ إليها مِنْ أبوابِها ؛ مُتمسّكاً بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ (١) .

وكانَ المقرُّ الكريمُ العالي المولويُّ القضائيُّ الصَّلاحيُّ ـ إلىٰ آخرِ الصفاتِ ـ ممَّنْ أدركَ فعلَ الخيراتِ قبلَ إدراكِهِ وجبلَتْ عليهِ جبلَّتُهُ ، ولا يَشُكُّ في حسنِ نظرِهِ إلَّا مَنْ عَمِيَتْ بصيرتُهُ ، إنِ اتَّسعَ للفضائلِ مِضمارٌ . . كانَ جوادُ فضلِهِ هوَ السابقَ الجَموحَ ، أو فُتِحَ للخيرِ أبوابٌ . . فصلاحُ الدِّينِ بحمدِ اللهِ أبو الفتوحِ ، ظهرَتْ عليهِ بهجةُ ذٰلكَ النجمِ الذي إلىٰ غيرِ فعلِ الخيراتِ ما هوىٰ ، وصحبَ أفعالَهُ الجميلةَ فتلا لسانُ الحالِ : ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (٢) ، ما أطلقَ سهمَ عزمِهِ إلىٰ غرضِ خيرٍ إلَّا وكانَ بحمدِ اللهِ نفَّاذاً ، ولا أظهرَ فعلاً إلَّا تَلقَّى الناسُ بالقَبولِ وما قيلَ : يوسفُ أعرضْ عن هـٰذا ، وهوَ ذو اليراعِ الذي إذا خطَّ خطّاً . . أطاعَتْهُ المقاديرُ ، وكم جرَتْ خلفَهُ حمرُ الأقلامِ حتىٰ حفيَتْ فما لحقَتْ لهُ غباراً ؛ لأنَّهُ حوىٰ قصَباتِ السبقِ ورفلَ في حُلَلِ التحبيرِ ، إن سطرَ مربعةَ جيشٍ . . ضربَ الأخماسَ في الأسداسِ أئمَّةُ الكُتَّابِ ، أو كتبَ كتابَ إنشاءٍ . . عَوَّذَنا بـ (الٓمٓ ، ذٰلكَ الكتابُ) .

فلذٰلكَ رسمَ بالأمرِ الكريمِ العالي المولويِّ الفلانيِّ ـ لا زالَ كلُّ مُستحِقٍّ في أيامِهِ الزاهرةِ بالغاً أقصى المرادِ ، ولا برحَ يُظهِرُ لنا في كلِّ حينٍ صلاحاً يزيلُ عنَّا الفسادَ ـ أن يَستقِرَّ المُشارُ إليهِ أدامَ اللهُ تعالىٰ نظرَهُ في وظيفةِ نظرِ

---

(١) سورة البقرة : (١١٤) .

(٢) سورة النجم : (٢) .

الجامعِ الكبيرِ الأعلىٰ بحماةَ المحروسةِ على العادةِ في ذٰلكَ والقاعدةِ ؛ لئلا يكونَ لصالحِ المسلمينَ وجهٌ إلَّا وهوَ لهُ ناظرٌ ، ولا ينظمُ للوظائفِ الدينيةِ عروضٌ إلَّا وهوَ بحرُهُ الوافرُ ، خاطبَهُ الجامعُ بلسانِ الحالِ ليكونَ لشملِهِ جامعاً ، وجبرَ قلبَ المحمديَّةِ وخرَّ ماؤُها ساجداً ودخلَ عاصيها إلى الجامعِ طائعاً ، وأمسىٰ علىٰ ذٰلكَ الصَّحنِ حلاوةٌ ظاهرةٌ ، وتَيقَّظَتْ مُقَلُ مصابيحِهِ بعدَ طولِ الغمضِ فإذا هم بالساهرةِ ، واهتزَّ طَرَباً مِنْ طيبِ هٰذا الثنا المنيرِ وكادَتْ أعوادُهُ أن تزهرَ ، فرحةً بهٰذا الزمنِ الغضِّ والعيشِ الأخضرِ ، وضعفَ نظرُ الرسَّامِ وأمستْ مراسيمُهُ غيرَ مقبولةٍ .

هٰذا ؛ ولو أدركَهُ ابنُ كتائبَ . . لَقالَ : ما أنا مِنْ فرسانِ مَنْ كتيبةُ كلِّ جيشٍ بنظرِهِ مشمولةٌ ، أو لحقَهُ ابنُ السَّمينِ . . لَتحقَّقَ ضعفَهُ وضعفَ أبيهِ عنِ القيامِ بهٰذا الشعارِ ، أو عاشرَهُ ابنُ رواحةَ الأنصاريُّ . . لَكانَ لهُ مِنْ جملةِ الأنصارِ .

وأمسىٰ جامعُنا وهوَ الأعلىٰ علىٰ مَنْ قبلَهُ وبعدَهُ ، وتلا أهلُ الصلاةِ وقد حُظُوا بيوسفَ في السجدةِ ، وزالَ مَحْلُ بلادِهِ في هٰذهِ الأيامِ اليوسفيَّةِ ، وأمسىٰ في بسطٍ بعدَما طوىٰ بساطَهُ بالكليَّةِ ، وزالَ فسادُهُ وللهِ الحمدُ بهٰذا الصَّلاحِ ، وأعلنَ مؤذنوهُ في أعلىٰ منارتِهِ بحيَّ على الفلاحِ .

فليباشرْ ذٰلكَ مباشرةً تثمرُ جزيلَ الثوابِ ، وليظعنْ أعداؤُهُ مِنْ دعاءِ كلِّ قائمٍ بالمحرابِ ، وليحسنْ إلىٰ حلقةِ كلِّ علمٍ لينشرحَ صدرُها ، فما لرجالِ الحلقةِ غيرُ ناظرِ الجيشِ إذا أشكلَ أمرُها ، وليرمِ مَنْ عاندَهُ بسهامٍ مِنَ الأدعيةِ عن قوسِ كلِّ راكعٍ ، وليتوجَّهْ في ذٰلكَ إلى اللهِ تعالىٰ وأحسنُ ما كانَ التوجُّهُ في الجامعِ ، والوصايا كثيرةٌ ، وهوَ بحمدِ اللهِ تعالىٰ في غُنيةٍ عن ذٰلكَ ، واللهُ تعالىٰ يُؤيِّدُهُ ويُجمِّلُ بهِ الوظائفَ الدينيَّةَ ويجعلُهُ لأزمَّتِها خيرَ

مالكٍ ، ولا برحَ كفُّهُ مبسوطاً للخيراتِ وتُعقَدُ عليهِ خناصرُ كفَّالِ الممالكِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

[كتابٌ ودادِيٌّ مِنِ ابنِ حِجَّةَ الحمويِّ إلى القاضي الدمامينيِّ]

وهٰذهِ صورةُ كتابٍ وداديٍّ إخوانيٍّ ، أنفذَهُ مِنَ القاهرةِ إلى الثغرِ يُخاطِبُ فيهِ القاضيَ بدرَ الدِّينِ أبا عبدِ اللهِ محمدَ بنَ الدَّمامينيِّ المخزوميِّ ، يخبرُهُ فيهِ بفرارِهِ مِنْ بلادِ الشامِ لحربٍ كانَتْ هناكَ وبما قاساهُ مِنَ الشدائدِ في البحرِ [١] :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُقبِّلُ الأرضَ التي سُقِيَ دوحُها بنزولِ الغيثِ فأثمرَ الفواكهَ البدريَّةَ ، وطلعَ بدرُ كمالِها مِنَ المغربِ فسلَّمنا لمعجزاتِها المحمديَّةِ ، وجرىٰ لسانُ البلاغةِ في ثغرِها فسما على العقدِ بنظمِهِ المُستجادِ ، وأنشدَ ـ لا فَضَّ اللهُ فاهُ ـ وقدِ ابتسمَ عن محاسنِهِ التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلادِ [٢] : [من الوافر]

لَقَدْ حَسُنَتْ بِكَ ٱلْأَيَّامُ حَتَّىٰ كَأَنَّكَ فِي فَمِ ٱلدَّهْرِ ٱبْتِسَامُ

فأكرمْ بهِ موردَ فضلٍ ما برحَ منهلُهُ العذبُ كثيرَ الزحامِ !! ومدينةَ علمٍ تَشرَّفَتْ بالجنابِ المحمديِّ فعلىٰ ساكنِها السلامُ !! ومجلسَ حكمٍ ما ثبتَ لمُدَّعي الباطلِ بهِ حُجَّةٌ !! وعرفاتِ أدبٍ إن وقفتَ بها وقفةً . . صرتَ على الحقيقةِ ابنَ حجَّةَ !! وأفقَ معالٍ بالغَ في سُمُوِّ بدرِهِ فلم يقنعْ بما دونَ النجومِ !! وميدانَ عربيةٍ تجولُ بهِ فرسانُ الفصاحةِ مِنْ بني مخزومٍ ، وتاللهِ ؛ ما لفرسانِ الشقراءِ والأبلقِ في هٰذا الميدانِ مجالٌ ، وإذا اعترفوا بما حصلَ

---

(١) انظر « ثمرات الأوراق » (ص ٣٥٠ ـ ٣٥٥) ، وقوله الآتي : (ولا ناب) ، وقوله أيضاً : (مكرهاً لا بطل) على لغة ربيعة من حذف تنوين النصب .

(٢) البيت للمتنبي في « ديوانه » (ص ٧٧) .

للفارسِ المخزوميِّ عندَهُم مِنَ الفتحِ . . كفى اللهُ المؤمنينَ القتالَ !!

وينهي بعدَ أدعيةٍ ما برحَ المملوكُ منتصباً لرفعِها ، وتغريدِ أثنيةٍ ما لسجعِ المُطوَّقِ في الأوراقِ النباتيَّةِ حلاوةُ سجعِها ، وأشواقٍ برحَتْ بالمملوكِ ولٰكنْ تَمسَّكَ في مصرَ بالآثارِ .

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً ... إِذَا دَنَتِ ٱلدِّيَارُ مِنَ ٱلدِّيَارِ [1]

وصولَ المملوكِ إلىٰ مصرَ محتمياً بكنانتِها وهوَ بسهامِ البينِ مصابٌ ، مذعوراً لِمَا شاهدَهُ مِنَ المصارعِ عندَ مقاتلِ الفرسانِ في منازلِ الأحبابِ ، مُكلَّماً مِنْ ثغرِ طرابلسِ الشامِ بألسنةِ الرماحِ ، محمولاً علىٰ جناحِ غرابٍ وقد حكمَ عليهِ البينُ ألَّا يبرحَ مِنْ سفرِهِ علىٰ جناحٍ .

وَكَانَ فِي ٱلْبَيْنِ مَا كَفَانِي ... فَكَيْفَ بِٱلْبَيْنِ وَٱلْغُرَابِ [2]

يا مولانا ؛ لقد قُرِعَتْ سنُّ هٰذا الثغرِ بأصابعِ السهامِ ، وقُلِعَ منهُ ضرسُ الأمنِ ولم يبقَ لهُ بعدَ ما سعرَ بهِ البينُ نظامٌ [3] ، وكشرَتِ الحربُ بينَ ثناياهُ عن أنيابٍ ، واقتلعنا منهُ معَ أنَّهُم لم يتركوا لنا فيهِ ثنيةً ولا ناب ، وأمستْ شهبُ الرماحِ قافيةً علىٰ آثارِنا والسابقُ السابقُ منَّا الجوادَ ، ولزمَتِ الرويَّ مِنْ دمائِنا لئلا يظهرَ لقافيتِنا عندَ نظمِ الحربِ سنادٌ ، وفسدَ انسجامُ تلكَ الأبياتِ المنظومةِ علىٰ ذٰلكَ البحرِ المديدِ ، وبُدِّلَتْ جنَّتُها بنارِ الحربِ التي كم نقولُ لها : هلِ امتلأتِ . . فتقولُ : هل مِنْ مزيدٍ ، ونفذَ حكمُ القضاءِ وكم جرحَ خصمُ السيفِ في ذٰلكَ اليومِ شهوداً ، واتَّصلَ الحكمُ بقضاةِ القضاةِ فلم يسلمْ منهُم إلَّا مَنْ كانَ مسعوداً ، ووقعَ غالبُنا في القبضِ

---

(١) من الوافر .

(٢) من مخلع البسيط .

(٣) في « ثمرات الأوراق » (ص ٣٥١) : (ما شعر به البين نظام) بدل (ما سعر به البين نظام) .

مِنْ عروضِ حربِهِمُ الطَّويلِ ، وتَبدَّلَتْ محاسنُ طرابلسَ الشامِ بالوَحشةِ فلم نفارقْها علىٰ وجهٍ جميلٍ .

وتاللهِ ؛ لم يدخلْها المملوكُ في هٰذهِ الواقعةِ إلَّا مكرهاً لا بطل ، وكم قلتُ لساريةِ العزمِ لمَّا كشفَ لي عن ضيقِ سهلِها : يا ساريةُ ؛ الجبلَ ، ورامَ المملوكُ أن يَتنصَّلَ مِنِ انتظامِهِ في هٰذا السلكِ جملةً كافيةً ، فقالَ لهُ لسانُ الحالِ عندَ نظمِ هٰذهِ الكائنةِ : جرَّتْكَ القافيةُ ، ولم يُطلِّقِ المملوكُ عروسَ حماتِهِ إلَّا جبراً أظهرَ بهِ كسرَهُ ، والعلومُ الكريمةُ محيطةٌ كيفَ يكونُ طلاقُ المُكرَهِ .

يا مولانا : [من الطويل]

بِوَادِي حَمَاةِ ٱلشَّامِ عَنْ أَيْمَنِ ٱلشَّطِّ ... وَحَقِّكَ تَطْوِي شُقَّةَ ٱلْهَمِّ بِٱلْبَسْطِ
بِلَادٌ إِذَا مَا ذُقْتُ كَوْثَرَ مَائِهَا ... أَهِيمُ كَأَنِّي قَدْ ثَمِلْتُ بِإِسْفَنْطِ
وَمَنْ يَجْتَهِدْ فِي أَنَّ بِٱلْأَرْضِ بُقْعَةً ... تُشَاكِلُهَا قُلْ أَنْتَ مُجْتَهِدٌ مُخْطِي
وَصَوِّبْ حَدِيثَيْ مَائِهَا وَهَوَائِهَا ... فَإِنَّ أَحَادِيثَ ٱلصَّحِيحَيْنِ مَا تُخْطِي
بِمِعْصَمِهَا إِنْ دَارَ مَلْوِي سِوَارِهَا ... فَمَا ٱلشَّامُ بِٱلْخَلْخَالِ أَوْ مِصْرُ بِٱلْقُرْطِ
تَنَظَّمَ بِٱلشَّطَّيْنِ دُرُّ ثِمَارِهَا ... عُقُوداً لَهَا ٱلْعَاصِي رَأَيْنَاهُ كَٱلسِّمْطِ
وَتُرْخِي عَلَيْنَا لِلْغُصُونِ ذَوَائِباً ... يُسَرِّحُهَا كَفُّ ٱلنَّسِيمِ بِلَا مُشْطِ
وَمُذْ مَدَّ ذَاكَ ٱلنَّهْرُ سَاقاً مُدَمْلَجاً ... وَرَاحَ بِنَقْشِ ٱلنَّبْتِ يَمْشِي عَلَىٰ بُسْطِ
لَوَيْنَا خَلَاخِيلَ ٱلنَّوَاعِيرِ فَٱلْتَوَتْ ... وَأَبْدَتْ لَنَا دُوراً عَلَىٰ سَاقِهِ [ٱلسَّبْطِ]
سَقَىٰ سَفْحَهَا إِنْ قَلَّ دَمْعِي سَحَابَةٌ ... مُطَنَّبَةٌ بِٱلدَّمْعِ مُنْهَلَّةُ ٱلنَّقْطِ
وَيَا أَسْطُرَ ٱلنَّبْتِ ٱلَّتِي قَدْ تَسَلْسَلَتْ ... بِصَفْحَتِهَا لَا زِلْتِ وَاضِحَةَ ٱلْخَطِّ

وَلَا زَالَ ذَاكَ ٱلْخَطُّ بِٱلطَّلِّ مُعْجَماً وَمِنْ شَكْلِ أَنْوَاعِ ٱلْأَزَاهِرِ فِي ضَبْطِ
لَوَيْتُ عِنَانِي فِي حِمَاهَا عَنِ ٱلْوَرَىٰ وَهِمْتُ بِهَا لَا بِٱلْمُحَصَّبِ وَٱلسَّقْطِ
وَلَذَّ عِنَاقُ ٱلْفَقْرِ لِي بِفِنَائِهَا وَفِي غَيْرِهَا لَمْ أَرْضَ بِٱلْمُلْكِ وَٱلرَّهْطِ
مَنَازِلُ أَحْبَابِي وَمَنْبِتُ شُعْبَتِي وَأَوْطَانُ أَوْطَارِي بِهَا وَرِضَا سُخْطِي
نَعِمْتُ بِهَا دَهْراً وَلَٰكِنْ سُلِبْتُهُ بِرَغْمِي وَهَٰذَا ٱلدَّهْرُ يَسْلُبُ مَا يُعْطِي
وَقَدْ جَاءَ شَرْطُ ٱلْبَيْنِ أَنِّي أَغِيبُ عَنْ حِمَاهَا لَقَدْ أَدْمَىٰ فُؤَادِيَ بِٱلشَّرْطِ
وَحَطَّ عَلَيَّ ٱلدَّهْرُ عَمْداً وَشَالَنِي إِلَىٰ غَيْرِهَا صَبْراً عَلَى ٱلشَّيْلِ وَٱلْحَطِّ
وَسُبْحَةُ جَمْعِ ٱلشَّمْلِ كَانَتْ لَنَا بِهَا مُنَظَّمَةً لَٰكِنْ قَضَى ٱلدَّهْرُ بِٱلْفَرْطِ
أُمَثِّلُ شَوْقاً شَكْلَهَا فِي ضَمَائِرِي فَتَتْبَعُ عَيْنِي ذَٰلِكَ ٱلشَّكْلَ بِٱلنَّقْطِ
وَقَدْ صَارَ يَمْشِي ٱلْهَمُّ نَحْوِي بِسُرْعَةٍ فَيَا لَيْتَهُ لَوْ كَانَ فِي مَشْيِهِ يُبْطِي
وَأَصْبَحَ نَظْمِي رَاجِعاً بِي إِلَىٰ وَرَا كَأَنِّيَ فِي ٱلدِّيوَانِ أَكْتُبُ بِٱلْقِبْطِي

فما هٰذهِ المحنُ التي توالَتْ علىٰ أهلِ الأدبِ بعدَ زوالِ فخرِها ، لٰكنْ أدامَ اللهُ تعالىٰ مجدَها وأنارَ شهابَها وأقمرَ ليالِيَ بدرِها .

يا مولانا ؛ وأبثُّكَ ما لقيتُ مِنْ أهوالِ البحرِ وأُحدِّثُ عنهُ ولا حرجَ ، فكم وقعَ المملوكُ مِنْ أعاريضِهِ في زحافٍ تَقطَّعَ منهُ القلبُ لمَّا دخلَ إلىٰ دوائرِ تلكَ اللججِ ، وشاهدتُ منهُ سلطاناً جائراً يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً ، ونظرتُ إلى الجواري الحسانِ وقد رمتْ أُزُرَ قلوعِها وهيَ بينَ يدَيهِ لقِلَّةِ رجالِها تسبىٰ ، فتحققتُ أنَّ رأيَ مَنْ جاءَ يسعىٰ في الفلكِ جالساً . . غيرُ صائبٍ ، واستصوبتُ هنا رأيَ مَنْ جاءَ يمشي وهوَ راكبٌ ، وزادَ الظمأُ بالمملوكِ وقدِ اتخذَ في البحرِ سبيلَهُ ، وكم قلتُ مِنْ شِدَّةِ الظمأ : يا ترىٰ قبلَ الحفرةِ هل أطوي مِنَ البحرِ هٰذهِ الشقَّةَ الطَّويلةَ ؟! [من البسيط]

وَهَلْ أُبَاكِرُ بَحْرَ ٱلنِّيلِ مُنْشَرِحاً وَأَشْرَبَ ٱلْحُلْوَ مِنْ أَكْوَابِ مَلَّاحِ[(١)]

بحرٌ تلاطمَتْ علينا أمواجُهُ حينَ متنا مِنَ الخوفِ وحملَنا علىٰ نعشِ الغرابِ ، وقامَتْ واواتُ دوائرِهِ مَقامَ (معْ) فنصبَتْنا للغرقِ لمَّا استوَتِ المياهُ والأخشابَ ، وقارنَ العبدُ فيهِ سوداءَ استرقَّتْ مواليَنا وهيَ جاريةٌ ، وغشيَهُم في اليمِّ منها ما غشيَهُم فهل أتاكَ حديثُ الغاشيةِ ؟!

واقعَها الحربُ فحملَتْ بنا ودخلَها الماءُ فجاءَها المَخاضُ ، وانشقَّ قلبُها لفقدِ رجالِها وجرىٰ ما جرىٰ علىٰ ذٰلكَ القلبِ ففاضَ ، وتَوشَّحَتْ بالسَّوادِ في هٰذا المأتمِ وسارَتْ على البحرِ وهيَ مَثَلٌ .

وكم سُمِعَ منها للمغاربةِ علىٰ ذٰلكَ التوشيحِ زجلٌ !! برجٌ مائيٌّ ولٰكنْ تُعرِبُ في رفعِها وخفضِها عنِ النَّسرِ والحوتِ ، وتَتشامخُ كالجبالِ وهيَ خُشُبٌ مُسنَّدةٌ مَنْ تَبطَّنَها عُدَّ مِنَ المُصبَّرينَ في تابوتٍ ، تأتي بالطِّباقِ ولٰكنْ بالمقلوبِ ؛ لأنَّ صغيرَها كبيرٌ وبياضَها سوادٌ ، وتمشي على الماءِ وتطيرُ معَ الهواءِ وصلاحُها عينُ الفسادِ ، إن نقرَ الموجُ علىٰ دفوفِها . . لعبَتْ أناملُ قلوعِها بالعودِ ، وتُرقِّصُنا علىٰ آلتِها الحدباءِ فتقومُ قيامتُنا مِنْ هٰذا الرقصِ الخارجِ ونحنُ قعودٌ ، تتشامَمُ وهيَ كما قيلَ : أنفٌ في السماءِ وٱسْتٌ في الماءِ .

وكم نطيلُ الشكوىٰ إلىٰ قامةِ صاريها عندَ الميلِ وهيَ الصَّعدةُ الصَّمَّاءُ ، فيها الهدىٰ وليسَ لها عقلٌ ولا دينٌ ، وتَتصابىٰ إذا هَبَّتِ الصَّبا وهيَ ابنةُ مئةٍ وثمانينَ ، وتُوقِفُ أحوالَ القومِ وهيَ تجري بهِم في موجٍ كالجبالِ ، وتَدَّعي براءةَ الذِّمَّةِ وكمِ استغرقَتْ لهُم مِنْ أموالٍ .

هٰذا ؛ وكم ضَعُفَ نحيلُ خصرِها عن تثاقلِ أردافِ الأمواجِ !! وكم وَجِلَتِ القلوبُ لمَّا صارَ لأهدابِ مجاذيفِها علىٰ مقلةِ البحرِ اختلاجٌ !! وكم أسبلَتْ

(١) البيت لابن نباتة المصري في « ديوانه » (ص ١٠٦) .

علىٰ وَجنتِهِ طُرَّةَ قلعِها فبالغَ الريحُ في تشويشِها !! وكم مرَّ علىٰ قريتِها العامرةِ فتركَها وهيَ خاويةٌ علىٰ عروشِها !! تَتعاظمُ فتهزلُ إلىٰ أن ترىٰ ضلوعَها مِنَ السُّقمِ تُعَدُّ ، ولقد رأيتُها بعدَ ذٰلكَ قد تَبَّتْ وهيَ حَمَّالةُ الحطبِ في جِيدِها حبلٌ مِنْ مسدٍ .

وخَلَصَ المملوكُ مِنْ كَدَرِ المالحِ إلى النِّيلِ المباركِ ، فوجدَهُ مِنْ أهلِ الصَّفاءِ ، وإخوانِ الوفاءِ ، وتَنصَّلَ مِنْ ذٰلكَ العدوِّ الأزرقِ الذي ما برحَ باطنُهُ وهوَ كدرٌ ، وجمعَ مِنْ عذوبةِ النِّيلِ ونضارةِ شطوطِهِ بينَ عينِ الحياةِ والخضرِ ، ووصلَ بعدَ عدمِ القرارِ مِنْ بحيرتِهِ إلىٰ ذاتِ قرارٍ ومعينٍ ، وقُضِيَ الأمرُ وقيلَ : بُعداً للقومِ الظَّالمينَ ، وتلا لسانُ الحالِ على المملوكِ وأصحابِهِ : ﴿ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ [ءَامِنِينَ] ﴾ (١) .

وبعدُ : فالمملوكُ يسألُ الإقالةَ مِنْ عثراتِ هٰذهِ الرسالةِ ، فقد علمَ اللهُ أنَّها صدرَتْ عن فكرٍ تركَهُ البينُ مُشتَّتاً ، والإغضاءَ عن كثرةِ بردِها فقد خرجَتْ مِنَ البحرِ عاريةً في أيامِ الشتا ، وليسترْ عورتَها بستائرِ الحلمِ وينظرْ إليها مِنَ الرحمةِ بعينٍ ، وليكنْ ضربُها بسيفِ النقدِ صفحاً فقد كفىٰ ما جُرحَتْ بسيوفِ البينِ .

وتاللهِ ؛ لم يسلكِ المملوكُ هٰذهِ الجادَّةَ إلَّا ليجدَ لهُ سبيلاً إلىٰ نهلةٍ مِنْ عذبِ تلكَ المواردِ ، ويعودَ قلبَهُ الضَّعيفَ الذي قطعَتْ صلاتُهُ مِنْ صفيِّ هٰذا المشربِ عائدٌ ، ويصيرَ العبدُ مسعوداً إذا عُدَّ للأبوابِ العاليةِ مِنْ جملةِ الخُدَّامِ ، ويحصلَ لكبدِهِ الحرَّىٰ مِنْ ذٰلكَ النسيمِ الغربيِّ بردٌ وسلامٌ ، واللهُ تعالىٰ يَمُنُّ بقربِ المثولِ بينَ يدَيهِ ؛ ليحصلَ للملوكِ بعدَ التخلُّصِ مِنَ البَينِ حسنُ الختامِ ، بمَنِّهِ وكرمِهِ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

---

(١) سورة يوسف : (٩٩) .

[رسالةٌ مِنِ ابنِ حِجَّةَ في إتمامِ مَقامةٍ استعصتْ على القاضي الفاضلِ]

حكى ابنُ حِجَّةَ : أنَّ القاضيَ الفاضلَ أرادَ يُعارِضُ « مَقاماتِ الحريريِّ » ، فلمَّا وصلَ إلى (المَقامةِ البغداديةِ) التي لَمَّحَ فيها بأسماءِ الأعضاءِ . . أمسكَ عنِ المعارضةِ ؛ لاستصعابِهِ ذٰلكَ المسلكَ ، وهٰذهِ عبارةُ المَقامةِ المشتملةِ علىٰ ذٰلكَ التلميحِ مِنْ كلامٍ نسبَهُ إلىٰ عجوزٍ ، قالَ (١) : إنَّها وقفَتْ علىٰ جماعةٍ مِنَ الأدباءِ فيهِمُ الحارثُ بنُ همَّامٍ في صورةِ سائلةٍ ؛ قالَتْ : (حيَّا اللهُ المعارفَ ، وإن لم يكنَّ معارفَ ، اعلموا يا مآلَ الآملِ ، وثِمالَ الأراملِ ؛ أنِّي مِنْ سَرَواتِ القبائلِ ، وسريَّاتِ العقائلِ ، لم يزلْ أهلي وبعلي يَحُلُّونَ الصَّدرَ ، ويسيرونَ القلبَ ، ويُمْطُونَ الظَّهرَ ، ويولونَ اليدَ ، فلمَّا أردى الدهرُ الأعضادَ ، وفجعَ بالجوارحِ الأكبادَ ، وانقلبَ ظهراً لبطنٍ . . نبا الناظرُ ، وجفا الحاجبُ ، وذهبَتِ العينُ ، وفُقِدَتِ الراحةُ ، وصَلَدَ الزندُ ، ووهنَتِ اليمينُ ، وضاعَ اليسارُ ، وبانَتِ المرافقُ ، ولم يبقَ لنا ثنيةٌ ولا نابٌ) .

فتَعجَّبَ ابنُ حِجَّةَ مِنِ استصعابِ الفاضلِ ذٰلكَ ، وأنشأَ هٰذهِ الرسالةَ مستوفياً فيها ذكرَ الأعضاءِ إلَّا ما يُستحىٰ مِنَ النُّطقِ بهِ ، واعتذرَ عن ذٰلكَ بما سيأتي نقلُهُ عنهُ (٢) : [من الطويل]

لِأَرْوَاحِ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ رَوْضَةَ مُشْتَهَىً ... يُقَبِّلُ أَرْضاً بِٱلْعُلَا قَدْ تَجَسَّدَتْ
فَلَا زَالَ صَدْرُ ٱلدِّينِ مُنْشَرِحاً بِهَا ... وَهَبَّتْ بِأَنْفَاسِ ٱلْعُلُومِ قَبُولُهَا

ولا برح هٰذا الصَّدرُ محروساً بـ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (٣) .

---

(١) انظر « المقامات » للحريري (ص ٨٨ ـ ٨٩) ، و« خزانة الأدب » للحموي (٤/٤٢٩ ـ ٤٣٢) .

(٢) انظر « خزانة الأدب » للحموي (٤/٤٣٠) .

(٣) سورة الشرح : (١ ـ ٣) .

صَـدْرٌ غَـدَا رَأْسـاً لِـكُـلِّ فَـضِـيـلَـةٍ　　　صُـوَرُ ٱلْـمَـعَـانِـي تَـلْـتَـقِـيـهِ بِـبِـشْـرِهَـا
فَـإِذَا أَتَـىٰ نَـحْـوَ ٱلـشَّـآمِ مُـنَـاظِـرٌ　　　فِـي كُـلِّ عِـلْـمٍ قَـابَـلَـتْـهُ بِـصَـدْرِهَـا

هـٰذا ؛ وكم لهـٰذا الرأسِ في العلومِ مِنْ فرقٍ دَقَّ على الأفهامِ !! وهوَ كالغرَّةِ في جباهِ الأيامِ ، لا زالَ المجدُ لهُ حاجباً مقروناً بسعدِهِ الشاملِ ، ولا برحَ بعلمِهِ عيناً لوجوهِ المسائلِ ، فللهِ أهدابُ معانيهِ التي هيَ أسحرُ مِنْ عيونِ الغزلانِ ، وأمضىٰ مِنَ السُّيوفِ إذا برزَتْ مِنَ الأجفانِ ، وأصداغُ فضائلِهِ التي هيَ عاطفةٌ علىٰ وَجَناتِ الوجودِ ؛ لأنَّها كالعوارضِ الماطرةِ ، وكم أنستْ عندَ ذكرِها مِنْ سالفٍ !! وكم لها في قلوبِ الأعداءِ مِنْ خدودٍ !! وندىٰ جودِهِ الذي إذا جاءَهُ الشاربُ . . وجدَ عندَهُ شفاهُ ، وحلاوةُ نظمِهِ الذي أنسانا ذكرَ العُذَيبِ وثناياهُ ، وعنقُ مكارمِهِ التي ألفَتْ مِنَ البديعِ الالتفاتَ ، وأوصافُهُ التي غدتْ علىٰ جِيدِ الدَّهرِ شاماتٍ ، حتىٰ تَبدَّلَتْ سيئاتُهُ بالحسناتِ ، كفَّ عنَّا تعبَ الفقرِ بكرمِ راحتِهِ المتزايدِ ، مِنْ غيرِ أن يُقالَ لهُ : ساعد ، وشهدنا بأنَّ أياديَهُ بحرٌ يفيضُ بصنائعِهِ ، فأشارَ النيلُ إلىٰ قَبولِ هـٰذهِ الشهادةِ بأصابعِهِ .

فللهِ ندىٰ يمينِهِ الذي لم يزلِ المملوكُ بهِ في بلادِ الشمالِ مكفي !! وكم فاضَ منهُ قلبُ النيلِ وجهدَ أن يوفيَهُ بالباعِ والذراعِ فما قدرَ يوفي !! جبلَتْ علىٰ محبَّتِهِ القلوبُ فصارَ حبُّهُ ظاهراً في كلِّ باطنٍ ، وحَنَّتْ إليهِ الجوارحُ لمَّا سارَتْ مناقبُهُ إلىٰ كلِّ جانبٍ فحرَّكَتْ كلَّ ساكنٍ .

وينهي بعدَ أدعيتِهِ التي هيَ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ نعيمٌ للبدنِ الكريمِ ، واعتدالٌ لِلَطيفِ ذٰلكَ المِزاجِ ، وأثنيتِهِ التي هيَ كالمناطقِ علىٰ خُصورِ الحِسانِ وبها لكلِّ خاطرٍ ابتهاجٌ . . أشواقَ مَنْ تثاقلَتْ عليهِ أردافُ النوىٰ ، وأسكنَتْ في وسطِ قلبِهِ الجوىٰ ، وقَدَّهُ الانقطاعُ بسيفِهِ الذي زادَ في حَدِّهِ ، ولـٰكنَّهُ زادَ

في قَدِّهِ ، ولو حصرَ المملوكُ ما ساقَ ، إليهِ البعدُ مِنَ الاشتياقِ ؛ إلىٰ تقبيلِ الأقدامِ . . لم تَسعْهُ قائمةٌ ، وهوَ يعدُ القلبَ بالصَّبرِ ولٰكنْ كما ذكرَ كعبٌ عن مواعيدِ عُرْقُوبٍ ، فنسألُ اللهَ حسنَ الخاتمةِ .

قالَ ابنُ حجَّةَ علىٰ أثرِ ذٰلكَ : (ولم يبقَ مِنْ هٰذا القدرِ إلَّا ما تَمُجُّهُ أفواهُ الأسماعِ ، ويَنفرُ منهُ سليمُ الطِّباعِ ، وعلىٰ كلِّ حالٍ فهٰذهِ صُبابةُ الحاصلِ ، ونسألُ اللهَ السلامةَ مِنَ الجاهلِ المتغافلِ ؛ بمَنِّهِ وكرمِهِ ، إن شاءَ اللهُ تعالىٰ) .

إذا قرأتَ مُتأمِّلاً حقَّ التأمُّلِ ما نقلناهُ لكَ مِنْ إنشاءِ ذوي العصورِ المتتاليةِ . . عرفتَ كيفَ اختلافُ مذاهبِ الناسِ في الإنشاءِ ، وإذا يسلكُ بكَ التوفيقُ إلى اختيارِ طريقةٍ تناسبُ أحوالَ بني وقتِكَ ، وتوافقُ أفهامَهُم ؛ إذا دعتْكَ داعيةٌ للإنشاءِ المصنوعِ .

❋ ❋ ❋

[مِنْ مُنشآتِ الوزيرِ الأديبِ عبدِ اللهِ فكري بك]

هٰذا ؛ وأنفعُ ما أراهُ ينبغي لكَ أن تتخذَهُ دليلاً يرشدُكَ إلىٰ كلِّ وجهٍ جميلٍ مِنْ وجوهِ الفنونِ التي تحاولُ فيها أن تكتبَ الكتابةَ الصِّناعيَّةَ المناسبةَ لوقتِكَ ، الذي تأملُ أن تعيشَ في رضا أهلِهِ عنكَ ، واعترافِهِم بظهورِ ما يَعودُ منكَ عليهِم نفعُهُ . . مُنشآتُ الأميرِ الجليلِ صاحبِ الوقتِ ، الذي لو تَقدَّمَ بهِ الزمانُ . . لكانَ لهُ بديعانِ ، ولم ينفردْ بهٰذا اللَّقبِ علَّامةُ همَذانَ ، **عبدِ اللهِ فكري بكْ** أطابَ اللهُ أيَّامَهُ ، وأعلىٰ ـ كما نرجوهُ ـ منهُ تعالىٰ حيثُ كانَ مَقامَهُ .

[جوابُ تحيةٍ وسؤالٍ]

فمنها ـ وبهِ صَدَّرتُ ما سأنقلُهُ لِمَا اشتملَ عليهِ مِنْ نصيحةِ الإخوانِ أن يذهبوا بأنفسِهِم مَذاهبَ الأفاضلِ ، ولا يقعدوا بها مَقاعدَ كلِّ وضيعٍ خاملٍ ، فيكونوا قد رَضُوا لها بالدُّونِ ، وأنزلوها منازلَ الهُونِ ـ **ما كتبَ لبعضِ إخوانِهِ جوابَ تحيَّةٍ وسؤالٍ ؛ قالَ** :

كتبتُ والذِّهنُ فاترٌ مِنْ وهنِ الدَّفاترِ ، والتبييضِ والتسويدِ ، والتقييدِ والتسديدِ ، والتقييدِ والتشديدِ ، والترجمةِ وكثرتِها ، والهِمَّةِ وفترتِها ، والماهيةِ وقِلَّتِها ، والنَّفْسِ وذِلَّتِها ، وراتبي لا يكفي أجرةَ البيتِ ، ولا يفي ثمنَ الماءِ والزيتِ ، وبالأمسِ وعدَ الوكيلُ بالزيادةِ ، واعتذرَ اليومَ بالأصيلِ على العادةِ ، علىٰ أنَّهُ لو حصلَتْ زيادةٌ . . فلزيدٍ وعمرٍو ، إلىٰ آخِرِ الزمرِ ، وللهِ الأمرُ ، أحوالٌ مُتبدِّدةٌ ، ونفوسٌ مُتبلِّدةٌ ، وأشغالٌ مُتعدِّدةٌ ، وإخوانٌ خُوَّانٌ ، وخِلَّانٌ غيلانٌ ، ورفاقٌ وما أجملَ الفراقَ !! وقلتُ : [من الطويل]

إِلَامَ أُعَانِي ٱلصَّبْرَ وَٱلدَّهْرُ غَادِرٌ وَحَتَّىٰ مَتَىٰ أَشْكُو وَمَا لِيَ عَاذِرُ

وَلَـوْ أَنَّـنِـي أَشْـكُـو عَـظَـائِـمَ شِـدَّتِـي لِـمَـيْـتٍ لَـرَقَّـتْ لِـي ٱلْـعِـظَـامُ ٱلـنَّـوَاخِـرُ

وسألتُ عن فلانٍ وفلانٍ ، وهَيَّانَ بنِ بَيَّانَ ، ممَّنْ ينتسبُ للعلمِ وأهلِهِ ، ويتظاهرُ بشعارِ فضلِهِ ، ولو كانَ العلمُ بلحيةٍ تعظمُ وتطولُ ، وشواربَ تُحَفُّ وتُستأصَلُ ، وعيونٍ علىٰ ما بها مِنْ غمصٍ ورمصٍ تكحلُ ، وعِمامةٍ تعظمُ حتىٰ ترذلُ ، وطيلسانٍ يُلَفُّ ويُسدَلُ ، وكم يُوسَّعُ ويسبلُ !! وأحاديثِ خرافةَ تُقَصُّ وتُنقَلُ ، ومِحفظةٍ تفعمُ وتثقلُ ، وسواكٍ يظهرُ مِنَ العمامةِ نصفُهُ ، وكتابٍ يخرجُ مِنَ الجيبِ طرفُهُ ، ثمَّ بتَشدُّقٍ في الكلامِ ، وتبّاً لهُ في المرامِ ، وتَعسُّفٍ في الأفهامِ ، وحرصٍ على الحطامِ ، ثمَّ بقولِ الإنسانِ : حضرتُ درسَ فلانٍ ، وسمعتُ مِنْ لفظِهِ باللسانِ ، وقضيتُ في العلمِ كذا سنةً مِنَ الزمانِ . . فهُم أعلمُ مَنْ أقلَّتْهُ الغبراءُ ، وأفقهُ مَنْ أظلَّتْهُ الخضراءُ ، وإن كانَ للعلمِ غيرُ هٰذهِ الآلاتِ . . فما لهُم سوىٰ هٰذهِ الحالاتِ ، غايةُ الأمرِ أنَّهُم قضَوا أرذلَ العمرِ في كتبٍ معدودةٍ ، وشروحٍ موجودةٍ ، وهُم يُكرِّرونَها ولا يَدْرونَها ، ويُقرِّرونَها ولا يُحرِّرونَها ، ويتداولونَها ولا يَتعقَّلونَها ، ولو صرفَ حماري هٰذا العمرَ فيها . . لأصبحَ فقيهاً ، وأضحىٰ نبيهاً .

والذي يُظهِرُ مينَهُم وشينَهُم ، وعلامةَ ما بينَنا وبينَهُم . . أن يُؤمَرَ أحدُهُم برقعةٍ تُكتَبُ لحاجةٍ معهودةٍ ، ويُمتحَنُ بكتابٍ غيرِ هٰذهِ الكتبِ المعدودةِ ، فيهِ بعضُ كلامِ العربِ وأشعارِها ، وشيءٌ مِنْ وقائعِها وأخبارِها ، فإن كتبَ فصيحاً ، وقرأَ صحيحاً ، وفهم مليحاً . . عرفنا أنَّهُ شمَّ عَرْفَ العلمِ ، وذاقَ طعمَ الفهمِ ، وسلَّمنا إليهِم ما يَدَّعونَ ، وتركنا لهُم ما يأتونَ وما يَدَعُونَ ، وإنِ ارتبَكَ للرقبةِ ، ووقفَ حمارُ الشيخِ في العقبةِ . . عرفنا حالَهُ ، وقلنا لهُ[1] : [من الخفيف]

(١) هما لأبي نواس في « ديوانه » (ص ٤١٩) .

أَيُّهَا ٱلْمُدَّعِي سُلَيْماً سَفَاهاً   لَسْتَ مِنْهَا وَلَا قُلَامَةَ ظُفْرِ
إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ سُلَيْمٍ كَوَاوٍ   أُلْحِقَتْ فِي ٱلْهِجَاءِ ظُلْماً بِعَمْرِو

وقد مررتُ بالأمسِ علىٰ أحدِهِم في الدرسِ يقرأُ « القطرَ » لابنِ هشامٍ ، ويلحنُ لحنَ العوامِّ ، ومررتُ بآخَرَ يدرسُ « الكافي في علمَيِ العَروضِ والقوافي » ، يُقرِّرُ قولَهُ : [من مجزوء المتدارك]

قِفْ عَلَىٰ دَارِهِمْ وَٱبْكِيَنْ   بَيْنَ أَطْلَالِهَا وَٱلدِّمَنْ

فلا وربِّكَ ما أقامَ لهُ وزناً ، ولا عرفَ لهُ معنىً ، معَ سهولةِ مبناهُ ، وظهورِ معناهُ ، فحَطَمَهُ حَطْمَ الهشيمِ ، ومَزَّقَهُ تمزيقَ الأديمِ ، فقلتُ : سبحانَكَ اللهمَّ !! كأنَّ الشاعرَ عناني بهٰذا الكلامِ ، وعلمَ أنِّي أقومُ هٰذا المَقامَ ، فأمرَني بالبكاءِ على العلمِ والدروسِ ، وما جرىٰ علىٰ معاهدِهِ مِنْ دروسٍ .

يا قومُ ؛ أهٰذا النحوُ وإعرابُهُ ، والصَّرفُ وأبوابُهُ ، والعَروضُ وأوزانُهُ وأبحرُهُ ، والمعاني وإنشاؤُهُ وخبرُهُ ، والبيانُ وفرائدُهُ ، والبديعُ وشواهدُهُ ؟!

وهٰذهِ العلومُ الموضوعةُ ، والأسفارُ المحمولةُ ، والدروسُ المأهولةُ ، والأصواتُ المهولةُ . . لمُجرَّدِ معرفةِ ضربِ زيدٍ وعمرٍو ، وقتالِ خالدٍ لبكرٍ ، وأنَّ (قالَ) أصلُها (قَوَلَ) ، ثمَّ لا يدري ما حصلَ ، والطَّويلَ مِنْ (فعولنْ مفاعيلُ) ، ثمَّ لا يعلمُ كيفَ ينظمُ ، والفصلِ والوصلِ ، ولا أصلَ ولا فصلَ ، والحقيقةِ والمجازِ ، وليسَ لهُما مجازٌ ، والتوريةِ والجِناسِ ، ممَّا يحفظُ ولا يُقاسُ .

إذاً ؛ واللهِ تكونُ تلكَ الفنونُ مِنْ أفانينِ الجُنونِ ، ويكونُ الميلُ إليها ، والإقبالُ عليها ، عملاً حابطاً ، وشغلاً ساقطاً ، وهوساً عاطلاً ، ووسواساً باطلاً ، ويكونُ واضعوها أساؤوا الناسَ ، وأخطؤوا القياسَ ، وبنوا علىٰ غيرِ أساسٍ !!

كلَّا ؛ إنَّما وضعوا هٰذهِ القواعدَ ، وشرعوا للناسِ تلكَ المواردَ ؛ ليتكلَّموا بكلامِ العربِ مثلَ ما تَكلَّمَتْ ، ويفهموا مِنْ ألفاظِها كالذي فهمَتْ ، ويُترجِموا عن سرائرِ الضَّمائرِ كما ترجمَتْ ، وينثروا وينظموا كما نثرَتْ ونظمَتْ ، وقد كانَتْ هٰذهِ العربُ التي أودعَ اللهُ الفصاحةَ لسانَها ، وشَرَّفَ بسيِّدِنا النبيِّ والقرآنِ العربيِّ مكانَها . . تَتكلَّمُ بهٰذهِ اللغةِ العليَّةِ ، على الفطرةِ الأصليةِ ، والسَّجيةِ الجبليةِ ، مِنْ غيرِ هٰذهِ القواعدِ والأصولِ ، وتلكَ الأبوابِ والفصولِ ، وكانَتْ تَعتدُّ البلاغةَ مبلغَ علاها ، وتعتقدُ الفصاحةَ مِنْ محاسنِ حلاها .

ثمَّ بعثَ اللهُ تعالىٰ نبيَّهُ الأكرمَ ، صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ وشَرَّفَ وكَرَّمَ ، أفصحَها لساناً ، وأوضحَها بياناً ، وأنزلَ عليهِ قرآناً ، في أعلىٰ درجاتِ البلاغةِ ، وأرقىٰ طبقاتِ البراعةِ في حسنِ الصِّياغةِ ، فاهتدَوا بقرآنِهِ ، واقتدَوا ببيانِهِ ، فازدادوا بسطةً في اللسنِ ، وتوسُّعاً في البيانِ الحسنِ ، إلىٰ أنِ اختلطَتْ أنسابُهُم ، وتَقطَّعَتْ أسبابُهُم ، وانقرضَتْ دولتُهُم ، وانقضَتْ مُدَّتُهُم ، واختلَّتْ ألسنتُهُم ، وخلتْ أمكنتُهُم ، وخيفَ أن تذهبَ معَهُم هٰذهِ اللغةُ المنيفةُ ، التي هيَ مدارُ الشريعةِ الشريفةِ ، وخيرُ لغةِ العالمِ ، وأبرعُ لسانٍ تَكلَّمَتْ بهِ بنو آدمَ .

فقيضَ اللهُ لحفظِها الأئمةَ الأعلامَ ، هُداةَ الأنامِ ، ورُعاةَ الإسلامِ ، فرتَّبوا قواعدَها ، وشدُّوا سواعدَها ، وصَنَّفوا تلكَ الفنونَ العديدةَ ، وألَّفوا هٰذهِ الكتبَ المفيدةَ ؛ لتسهيلِ الأربِ ، مِنْ لغةِ العربِ ، والتكلُّمِ بلسانِهِم ، علىٰ بعدِ أزمانِهِم ، ومجاراتِهِم في بيانِهِم ، علىٰ سَعَةِ ميدانِهِم ، والتفنُّنِ في أساليبِ الكلامِ ، وصوغِهِ علىٰ حَسَبِ مُقتضى المَقامِ ، واستمرَّ العملُ علىٰ ذٰلكَ بينَ الأنامِ ، وتداولَتْ عليهِ الأيامُ والأعوامُ .

إلىٰ أنْ خلفَ هٰذا الخلفُ الملومُ ، والخلقُ المذمومُ ، والجيلُ المشؤومُ ،

فظنُّوا تلكَ الوسائلَ مقاصدَ ، ليسَ بعدَها غايةٌ لقاصدٍ ، وحسبوا هـٰذهِ الكتبَ تُقصَدُ لذاتِها ، ويُكتفىٰ بالتعبُّدِ بكلماتِها ، فوقفوا عندَها ، ولم يَتجاوزُوها لِمَا بعدَها ، واتخذوا الأدبَ وراءَهُم ظهريّاً ، وجعلوا النظمَ والنثرَ شيئاً فريّاً ، فإذا كتبَ أحدُهُم رقعةً لحاجةٍ أرادَها ، أوِ ابتُلِيَ بكتابٍ غيرِ هـٰذهِ التي اعتادَها . . فلا تسلْ عنِ الغلطِ الواضحِ ، واللحنِ الفاضحِ ، والذِّهنِ الغائبِ ، والفهمِ العائبِ ؛ فإن وقفتَهُ علىٰ غلطِهِ ، وعَرَّفتَهُ بعضَ سقطِهِ . . قالَ : ما نحنُ مِنْ أهلِ ذاكَ الشانِ ، ولا خيلُ هـٰذا الرهانِ ؛ إنَّما نحنُ لفهمِ الكُرَّاسِ ، لا يَسبقُنا أحدٌ مِنَ الناسِ .

فيا أنعامَ الأنامِ ، ويا ألأمَ اللئامِ ؛ أيُّ فائدةٍ إذاً للكُرَّاسِ ، غيرِ وجعِ الراسِ ؟! وأيُّ معنىً لتلكَ العلومِ ، غيرِ سعةِ الحلقومِ ؟! وماذا ينفعُ الإعرابُ مَنْ لا يُعرِبُ عنِ المَرامِ ؟! وماذا يصنعُ بالصَّرفِ مَنْ لا يَتصرَّفُ في أساليبِ الكلامِ ؟! وماذا يغني العَروضُ عن قومٍ لا يشعرونَ ، والمعاني والبيانُ مِنْ قومٍ لا ينظمونَ ولا ينثرونَ ؟!

وقد زارَني أحدُهُم في الدِّيوانِ لبعضِ شانِهِ ، وأعطاني رقعةً كتبَها لحاجةٍ بخطِّ بنانِهِ ، فإذا رقعتُهُ أُنموذجُ الرقاعةِ ، وتِمثالُ الشناعةِ ، ومجموعُ البلاهةِ ، وينبوعُ العيِّ والفهاهةِ ، وها هيَ واصلةٌ طيَّ كتابي إليكَ ، لتكونَ علىٰ ما قلتُ حُجَّةً وبينةً لديكَ ؛ فقد عرفتُ قدرَ تظاهرِ هـٰذا الرجلِ بالعلمِ ، وتفاخرِهِ بحِدَّةِ الذِّهنِ وجودةِ الفهمِ ، وسترىٰ ما بها مِنْ زللٍ ، وخطأٍ وخطلٍ ، ولفظٍ باردٍ ، ومعنىً جامدٍ ، وتركيبٍ فاسدٍ ، ورسمٍ خامدٍ .

وقد كانَ في يدي « معاهدُ التنصيصِ شرحُ شواهدِ التلخيصِ » ، فناولتُهُ بعضَ ورقاتِهِ ، وسألتُهُ في فهمِ بعضِ مَحَلَّاتِهِ ، لا جهلاً بأمرِهِ ، ولـٰكنْ إظهاراً لعُجَرِهِ وبُجَرِهِ ، ثمَّ جهدتُ بهِ أن يكتبَ ما فهمَهُ بعدَ أن مدحتُ لهُ ما تَوهَّمَهُ ،

وكنتُ أريدُ أن أُتحِفَكَ بغرائبِ أنظارِهِ ، ووساوسِ أفكارِهِ ؛ لتعلمَ أيُّ أطفالٍ في ثيابِ رجالٍ ، وأيُّ حميرٍ تركبُ البغالَ ، إلَّا أنَّهُ لم يسمحْ بكتابةِ ما قالَ ، وفي رقعتِهِ كفايةٌ ، فهيَ في الدلالةِ علىٰ حالِهِ غايةٌ .

أمَّا فلانٌ وأترابُهُ ، وفلانٌ وأضرابُهُ . . فهُم أُعجوبةُ الأيامِ ، وأُحدوثةُ الأنامِ ، أحوالٌ متناقضةٌ ، وأفعالٌ متعارضةٌ ، فكبرٌ وفقرٌ ، وعجزٌ وفخرٌ ، وأنفٌ في السماءِ ، وٱستٌ في الماءِ ، وحالٌ تحتَ الترابِ ، ونفسٌ فوقَ السحابِ ، إن صدَقتَهُم . . كذبوا ، وإن أرضيتَهُم . . غضبوا ، وإن تباعدتَ عنهُم . . لاموا وعذلوا ، وإن تَقرَّبتَ منهُم . . سَئِموا ومَلُّوا ، كلابٌ في جلودِ أسودٍ ، وجوهٌ بيضٌ وقلوبٌ سودٌ ، صغيرةُ السيئةِ عندَهُم كبيرةٌ ، وكبيرةُ الحسنةِ لديهِم صغيرةٌ ، عيونٌ منتقدةٌ ، وقلوبٌ متقدةٌ ، وألسنةٌ حِدادٌ ، وأفئدةٌ شدادٌ ، وأجسامٌ صحيحةٌ ، وقلوبٌ مريضةٌ ، وجهلٌ طويلٌ ، ودعاوىٰ عريضةٌ ، النصحُ لديهِم خيانةٌ ، والسُّوءُ عندَهُم ديانةٌ .

وقد بذلتُ في مرضاتِهِم جهدي ، وأجنيتُهُم مُرِّي وشهدي ، وقابلتُهُم باللطفِ والعنفِ ، وعاملتُهُم بالنُّكْرِ والعُرْفِ ، فلا وأبيكَ ما زادوا إلَّا فجوراً ، وعُتوّاً ونفوراً ، ومكراً وشروراً ، وكبراً وغروراً ، ولو وقفتُ عليهِم ليلتي ويومي ، وهجرتُ لديهِم راحتي ونومي ، وفديتُهُم بعشيرتي وقومي ، ثمَّ أطعمتُهُم مِنْ جسمي ، وآثرتُهُم مِنَ العافيةِ بقَسْمي . . لَمَا بلغتُ مِنْ نفوسِهِم رضاها ، ولا أدَّيْتُ مِنْ حقوقِهِم علىٰ زعمِهِم مقتضاها ، بل ولو صاحبَهُم جبريلُ ، وخاطبَهُم بالتنزيلِ ، وأهداهمُ الجنةَ في مِنديلٍ ، وأنزلَ الشمسَ إليهِم في قنديلٍ ، ونظمَ لهُمُ النجومَ عقوداً ، وشَقَّ لهُم مِنَ المجرةِ بروداً ، وصَيَّرَ الإنسَ والجِنَّ لهُم عبيداً ، وجعلَ الملائكةَ لهُم بعدَ ذٰلكَ جُنوداً ، وأطلعَهُم علىٰ غيبِ السماءِ والأرضِ ، وخَبَّرَهُم بما كانَ وما يكونُ إلىٰ يومِ العَرْضِ . . لَمَا أصبحَ عندَهُم إلَّا مذموماً ، ولا أمسىٰ لديهِم إلَّا ملوماً ، ولكانَ

منسوباً للقصورِ والتقصيرِ ، والإخلالِ بالقليلِ والكثيرِ ، قومٌ هٰذهِ طباعُهُم ، وتلكَ أوضاعُهُم ؛ مَنْ ذا يرضيهِم بحالٍ ، ولو فعلَ لهُمُ المحالَ ؟!

أمَّا فلانٌ وما أدراكَ . . فهوَ شركُ الأشراكِ ، وعارُ العربِ والأتراكِ ، وفضيحةُ الزمانِ ، وخزيُ الكونِ والمكانِ ، صورةٌ كثيفةٌ ، وسيرةٌ أنتنُ مِنَ الجِيفةِ .

وَوَجْـهٌ لَـوْ رَمَـيْـتَ بِـهِ لِـكَـلْـبٍ ... عَلَىٰ جُوعٍ لَعَافَ ٱلْكَلْبُ أَكْلَهْ (١)

وأخلاقٌ أسمجُ مِنَ السماجةِ ، وعقلٌ أضلُّ مِنَ الدجاجةِ ، وكلامٌ على الراسِ ، أشدُّ مِنْ قلعِ الأضراسِ ، إذا تَجرَّعَتْهُ الآذانُ ، تَقيَّأَتْهُ الأذهانُ ، فهوَ ذَنوبُ الذُّنوبِ ، وعَيبةُ العيوبِ ، وقذى النواظرِ ، وأذى الخواطرِ ، وبليةُ النفسِ ، وآفةُ الأُنسِ ، وشرُّ الجِنّ والإنسِ ، وهوَ مِنْ قومٍ تَقدَّموا بأعجازِهِم لا بإعجازِهِم ، وبقيادتِهِم لا بسادتِهِم ، وبالشمولِ لا بالشمائلِ ، وبالفضولِ لا بالفضائلِ ، فلا نَعَّمَ اللهُ بالَهُم ، ولا بَلَّغَهُم آمالَهُم ، فليسوا للنعمةِ أهلاً ، ولا للكرامةِ مَحَلّاً .

نِـعَـمُ ٱللهِ لَا تُـعَـابُ وَلَٰكِنْ ... رُبَّمَا ٱسْتُقْبِحَتْ عَلَىٰ أَقْوَامِ

لَا يَلِيقُ ٱلْغِنَىٰ بِوَجْهِ فُلَانٍ ... لَا وَلَا نُورُ بَهْجَةِ ٱلْإِسْلَامِ

وَسِخُ ٱلثَّوْبِ وَٱلْعِمَامَةِ وَٱلْبِرْ ... ذَوْنِ وَٱلْوَجْهِ وَٱلْقَفَا وَٱلْغُلَامِ (٢)

وقد طالَ الكلامُ ، في هٰؤلاءِ الطَّغامِ ، وإنّي لمأسوفٌ علىٰ زمنٍ قطعتُهُ بأنبائِهِم ، وقرطاسٍ دَنَّستُهُ بأسمائِهِم ، وما كنتُ لأريدَ أن أطيلَ المِقْوَلَ في فصولِ هٰذا الفضولِ ، ولٰكنَّ حديثَ الأفاعي يطولُ ، وقد نذرتُ للرحمانِ صوماً ، فلن أذكرَهُم بعدَ هٰذا يوماً .

---

(١) من الوافر .

(٢) من الخفيف .

فهلمَّ أطارحْكَ ذكرَ الودادِ ، وأبثَّكَ شكوىٰ ما في الفؤادِ ، مِنْ لاعجِ البعادِ ، فعندي لكَ مِنَ الودِّ ، والشوقِ والوجدِ ؛ ما ملأَ الجوانحَ ، وملكَ الجوارحَ ، فلا يبليهِ البعدُ ، ولا ينسيهِ طولُ العهدِ ، فاللهُ يديمُ حسنَ رعايتِكَ ، ويسمعُني ما يَسُرُّ مِنْ ناحيتِكَ ، ويُتِمُّ نعمتَهُ عليكَ بالدَّوامِ ، ويبلغُكَ غاياتِ المرامِ .

وكتبَ إلىٰ إمامِ مسقطَ مِنْ طرفِ الحضرةِ الخديويَّةِ :

ما روضةٌ سحبَتْ عليها السَّحائبُ ذُيولَ مطارفِها ، وخلعَتْ عليها مِنْ خِلَعِ الربيعِ محاسنَ طرائفِها ، فظلَّتْ تُثني عليها أدواحُها بما استودعَتْهُ أرواحُ النسيمِ ، حينَ سرتْ بَلِيلةَ الأذيالِ عاطرةَ الشميمِ ؛ بأحسنَ ولا أبهىٰ ، ولا ألطفَ ولا أشهىٰ ؛ مِنْ تحيةٍ بهيَّةٍ تَعلَّمَتْ لطفَها نسماتُ الشمائلِ ، وأثنيةٍ سنيَّةٍ استفادَتْ مِنْ حسنِ تلكَ الشمائلِ ، وتسليماتٍ زهيَّةٍ يَتلألأُ في أرجاءِ المَودَّةِ سناها ، ويَتفيَّأُ في أنحاءِ الأفئدةِ ظلالُ معناها ، تُقدِّمُ وتُبدىٰ ، وتُتحِفُ وتُهدىٰ ؛ إلىٰ حضرةِ ذروةِ المجدِ الشامخِ ، وتاجِ هامةِ السعدِ والشرفِ الباذخِ ، حسنةِ الدنيا ، وحليةِ المجدِ والعليا ، بدرِ المفاخرِ الذي أضاءَتْ بهِ نواحيها ، ومنارِ المآثرِ الذي اهتدىٰ بهِ ساريها ، ربِّ الهِمَمِ العوالي ، وسليلِ الأكارمِ الأعالي ، وبهجةِ الأيامِ والليالي ، وزينةِ المحامدِ والمعالي ، حرسَ اللهُ بهجتَهُ ، وأدامَ [مهجتَهُ] ، وحمىٰ حماهُ ، ورعىٰ رعاياهُ ، ولا زالَتْ ثغورُ الآمالِ بوجودِهِ بواسمَ ، ورياحُ الإقبالِ بوفودِهِ نواسمَ .

وبعدُ : فقد وصلَ إليَّ كتابُكُم الكريمُ ، وتَلقَّيتُهُ بما ينبغي لهُ مِنَ التكريمِ ، فملأَ العينَ قُرَّةً ، والقلبَ مَسرَّةً ، والنفسَ ارتياحاً ، والصَّدرَ انشراحاً ، واجتليتُ منهُ روضةَ بلاغةٍ أزهرَتْ نجومُها ، وسماءَ فصاحةٍ أسفرَتْ نجومُها ، واغتنمتُ مِنْ براعاتِ عباراتِهِ الفائقةِ مزيدَ المَسرَّاتِ ؛ بما ابتديتُموهُ مِنْ حسنِ الميلِ إليَّ

وبديعِ الالتفاتِ ، وشكرتُ المولى العظيمَ ، علىٰ صحَّةِ ذٰلكَ المزاجِ الكريمِ ، وهـٰذا المُحِبُّ في صحَّةٍ وعافيةٍ ، ونعمةٍ مِنَ اللهِ وافيةٍ ، فنسألُهُ ونبتهلُ إليهِ سبحانَهُ أن يديمَ علينا وعليكُم إحسانَهُ ، آمينَ .

[مقالةٌ من أهلِ الصعيدِ لوليِّ النِّعمِ الخديويِّ السعيدِ]

وكتبَ صورةَ مَقالةٍ تُقدَّمُ مِنْ أهلِ الصَّعيدِ لوليِّ النعمِ :

يا ملكَ الملكوتِ ، وربَّ العظمةِ والجبروتِ ؛ نحمدُكَ علىٰ سوابقِ نعمائِكَ ، وسوابغِ آلائِكَ ، ونُصلِّي ونُسلِّمُ علىٰ خيرِ أنبيائِكَ ، وواسطةِ عِقدِ أصفيائِكَ ، ونشكرُكَ علىٰ ما ألهمتَهُ حضرةَ أميرِ المؤمنينَ ، وخليفةَ رسولِكَ الأمينِ ، وظلَّكَ الممدودَ علىٰ مفارقِ العالمينَ ؛ مِنْ تحويلِ وراثةِ مصرَ إلىٰ نسلِ عزيزِها الأفخمِ ، وتخويلِ أهلِها بهـٰذهِ المِنَّةِ الكبرىٰ جلائلَ النعمِ والفضلَ الأعمَّ .

وهـٰذا شيءٌ طالمَا لَهجَتْ بهِ ألسنتُنا ، وامتدَّتْ إلىٰ أنظارِهِ أعينُنا ، واشتغلَتْ بهِ خواطرُنا ، واشتملَتْ عليهِ سرائرُنا ، فدلَّتْ عليها ظواهرُنا ، وما ذاكَ إلَّا مِنْ فرطِ حبِّنا لأوطانِنا السعيدةِ ووليِّ أمرِها ، وعلمِنا بما يَترتَّبُ علىٰ تلكَ البغيةِ الحميدةِ لهـٰذهِ الدِّيارِ مِنِ اتساعِ خيرِها ، وامتناعِ ضيرِها وارتفاعِ قدرِها ، واستكمالِ أسبابِ غناها وفخرِها ، وتماديها في التقدُّمِ والتمكُّنِ ، وتَرقِّيها في درجاتِ حسنِ التمدُّنِ ، ومعموريةِ بلدانِها ، ورفاهيةِ سُكَّانِها ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنْ ثمراتٍ نافعةٍ ، ومحاسنَ بارعةٍ ، نرى العزيزَ ـ أدامَ اللهُ بقاءَهُ ، وخَلَّدَ في ملكِهِ أبناءَهُ ـ لا يزالُ آخذاً في أسبابِها ، مُتوصِّلاً إليها مِنْ خيرِ بابِها .

ولعلَّ اللهَ جَلَّتْ حكمتُهُ ، وعلتْ كلمتُهُ ؛ ما اختصَّ هـٰذا الجنابَ الخديويَّ بتلكَ المزيَّةِ العاليةِ بعدَ ما تداولَتْهُ علىٰ تمنِّيها الأعصرُ الخاليةُ ، وشَلَّتْ دونَ

تعاطيها الأيدي المتناولةُ ، وقصرَتْ عن ترجّيها الهممُ المُتطاوِلةُ . . إلَّا لِمَا جُبِلَ عليهِ جنابُهُ الكريمُ ، وجُعِلَ حليةَ طبعِهِ السليمِ ؛ مِنْ حبِّ الخيرِ والنفعِ للخاصَّةِ والعامَّةِ ، وبذلٍ في تَقدُّمِ هٰذهِ الأوطانِ مزيدَ الهممِ التامَّةِ .

ونحنُ لو أردنا بيانَ ما استفدناهُ مِنَ السُّرورِ ، والحظِّ والحُبورِ ، والأنسِ والحضورِ ، لهٰذا الأمرِ المبرورِ . . لوجدنا كلَّ عبارةٍ قاصرةً عنِ المَرامِ ، وكلَّ براعةٍ مُقصِّرةً عن إيفاءِ حقِّ هٰذا المَقامِ .

فنسأَلُكَ اللهمَّ لأميرِ المؤمنينَ نصراً على العِدا ، وملكاً يبقىٰ أبداً سرمداً ، ولا ينتهي إلىٰ مدىً ، ونستوهبُكَ لعزيزِنا الأكرمِ ، ووليِّ نعمتِنا المُعظَّمِ ؛ طولَ عمرٍ يَتمتَّعُ فيهِ بدوامِ إقبالِهِ ، مسروراً بنجاحِ أعمالِهِ ، وبلوغِ آمالِهِ ، وصحةِ أنجالِهِ ، ما تَحلَّى الأفقُ بحليةِ هلالِهِ ، وتَجلَّى البدرُ في حُلَّةِ كمالِهِ .

[فرمانٌ بتنصيبِ محافظٍ]

وممَّا كتبَهُ صورةُ فرمانٍ بنصبِ محافظٍ :

صدرَ هٰذا الفرمانُ المُطاعُ ، الواجبُ لهُ القَبولُ والاتباعُ ، خطاباً إلى الحُكَّامِ والعلماءِ ، والقضاةِ والأعيانِ ، والوجوهِ والعمدِ ومشايخِ البلدانِ ، وعمومِ الأهالي المُتوطِّنينَ في محافظةِ كذا بجهاتِ السُّودانِ :

ليكنْ معلوماً لديكُم ، بوصولِ هٰذا المنشورِ إليكُم ؛ أنَّهُ قدِ اقتضَتْ إرادتُنا تنصيبَ فلانٍ محافظاً عليكُم ؛ لِمَا تَوسَّمناهُ فيهِ مِنَ الدِّرايةِ والاستعدادِ ، والسلوكِ في طرقِ الرشادِ ، وبذلِ الهِمَّةِ في أمورِ المصلحةِ ومزيدِ الاجتهادِ ، فامتثلوا أوامرَهُ التي تصدرُ في صالحِ المصلحةِ ، واجتنبوا نواهيَهُ ، واجتهدوا فيما يعودُ بهِ عليكُم مزيدَ العماريةِ ؛ لتنالوا حسنَ الرفاهيةِ ، واعملوا بقولِهِ

تعالىٰ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (١) ؛ لتفوزوا بزيادةِ التفاتِنا إليكُم ، ورضانا عنكُم .

وأنتَ ـ أيُّها المحافظُ ـ قد علمتَ ما لدينا مِنَ الشغفِ باتساعِ دائرةِ المدنيةِ ، وحصولِ الخيرِ لجميعِ أهلِ هٰذهِ الدِّيارِ الوطنيةِ ، والميلِ إلىٰ دوامِ راحةِ العبادِ ، وتأمينِ السبلِ وتمدينِ البلادِ ، فعليكَ برعايةِ ما يلزمُ لذٰلكَ ، واسلكْ في إدارةِ أشغالِ هٰذهِ المحافظةِ أحسنَ المسالكِ ، ودمْ على العدلِ والإنصافِ ، واحذرْ مِنَ الظلمِ والإجحافِ ، وانظرْ إلىٰ قولِهِ عليهِ السلامُ لأُمَّتِهِ : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّ رَاعٍ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (٢) ، ولتكنْ مُهتمّاً بتحصيلِ حقوقِ المصلحةِ في أوقاتِها ، ورؤيةِ جميعِ الأشغالِ علىٰ أحسنِ حالاتِها ؛ ليدومَ حسنُ أنظارِنا عليكَ ، وتفوزَ بمزيدِ التفاتِنا إليكَ ، اعلمْ ذٰلكَ واعملْ بهِ ، واحذرْ مِنْ مخالفةِ موجَبِهِ .

[ممَّا كتبَهُ الوزيرُ فكري بك لبعضِهِم]

وممَّا كتبَهُ لبعضِهِم :

سلامٌ يُعبّرُ عنِ الودادِ طِيبُ عبيرِهِ ، ويُخبِرُ عن إخلاصِ الفؤادِ لطفُ تعبيرِهِ ، وثناءٌ علىٰ محاسنِ تلكَ الشمائلِ ، أرقُّ مِنْ نسماتِ الشمائلِ ، وتحيةٌ بهيَّةٌ تباهي الخمائلَ بنفحاتِ أورادِها ، وأدعيةٌ مرضيَّةٌ جعلَتْها الألسنةُ خيرَ أورادِها ، وسؤالٌ عنِ المِزاجِ الزاهرِ ، وصحَّةِ الخاطرِ الباهرِ ، لا زلتُم مَحَلَّ نعمةٍ يتصلُ علىٰ مدى الأيامِ بقاؤُها ، ويزيدُ علىٰ مَرِّ الشُّهورِ والأعوامِ بهاؤُها ، ولا برحَتْ ثغورُ الإقبالِ إليكم بواسمَ ، ورياحُ الآمالِ لديكُم نواسمَ ،

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣) ، ومسلم (١٨٢٩) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنهما .

ولا انفكَّتِ الأيامُ والليالي مُتقلِّدةً بحلاكُم أجيادُها ، والمعالي متسابقةً إلىٰ ساحةِ حماكُم جيادُها ، آمينَ .

وبعدُ : فإنَّ بي مِنَ الأشواقِ ما تَضعُفُ عن حملِهِ إلىٰ حماكُم الأوراقُ ، ومِنَ التأسُّفِ علىٰ ما حرمتُهُ مِنْ لقياكُم ، والتلهُّفِ إلىٰ مطالعةِ أنوارِ مُحيَّاكُم ، ما يقصرُ عن وصفِهِ لسانُ اليراعةِ ، ويقصرُ دونَ وصفِهِ بيانُ البراعةِ ، ويضيقُ عنهُ نطاقُ العبارةِ ، ولا ينفسحُ لهُ ميدانُ الإشارةِ ، وإنَّ في ضميرِكُم الأجلىٰ ، ونورِ فكرِكُمُ الأعلىٰ ، ما يكفي في الدلالةِ ، ويغني عنِ الإطالةِ في المَقالةِ .

وإن تَفضَّلتُم بالسؤالِ ، فإنَّا بحمدِ اللهِ قد بلغنا الآمالَ ، والجميعُ في صحَّةٍ وعافيةٍ وحسنِ حالٍ ، والكلُّ مشتاقونَ إليكُم ، ويُسلِّمونَ عليكُم ، وعبدُ اللهِ فكري يُقبِّلُ يديكُم .

وأيضاً الشوقُ إلىٰ لقياكُم ، واجتلاءُ نورِ مُحيَّاكُم ، تَضعُفُ عن نقلِهِ حمائِمُ الرسائلِ ، ولا يحتاجُ في إثباتِهِ [للحجج] والدلائلِ ، فاللهُ يطوي شقَّةَ البينِ ، ويقرُّ بكم العينَ ، ويُمتِّعُني ببقائِكُم ، وطيبِ لقائِكُم .

وقد وردَ خطُّكُمُ الكريمُ فسرَّ أنفساً تَعرِفُهُ وتألفُهُ ، وأقرَّ أعيناً لا تزالُ تَترقَّبُهُ وتَتشوَّفُهُ ، وقد كانَ مرَّ بخاطري وخطرَ لفكري أن أسابقَ سيدي ومولايَ برسالةٍ أشكو فيها لواعجَ البعادِ ، وأقضي بها بعضَ الفروضِ الواجبةِ مِنْ حقوقِ الودادِ ، ولٰكنْ أبى اللهُ إلَّا أن يكونَ سيدي هوَ السابقَ لتلكَ الفضيلةِ ، والبادئَ بهٰذهِ المَكرُمةِ الجميلةِ ، وأن أكونَ المُقصِّرَ في جنبِ تَطوُّلِهِ ، والمُفرِّطَ في جانبِ تفضُّلِهِ ، علىٰ أنِّي لم أكنْ مُقصِّراً في دعاءٍ يَصحَبُهُ الحبُّ ويرافقُهُ الإخلاصُ ، وثناءٍ علىٰ محاسنِ تلكَ الشمائلِ أوجبَهُ مزيدُ الاختصاصِ ، وسؤالٍ عن ذٰلكَ الخاطرِ الزاهرِ أستقبلُ بهِ كلَّ واردٍ ،

وأُشيِّعُ كلَّ صادرٍ ، والأملُ اتصالُ ما يَطمئنُّ بهِ الفؤادُ ، مِنْ رسائلِ الودادِ ، حتىٰ ينقضيَ أمدُ البِعادِ ، ذٰلكَ غايةُ المرادِ .

قولُهُ في هٰذا الكتاب : (**حمائمُ الرسائلِ**) يشيرُ إلىٰ ما كانَ في سالفِ الزمانِ مِنِ استعمالِ الحمامِ في إيصالِ الكتبِ التي يُرادُ سرعةُ وصولِها إلى الأمكنةِ البعيدةِ ؛ وذٰلكَ أنَّ الناسَ لمَّا عرفوا في الحمامِ خاصَّةَ الأُلفةِ لموضعِهِ ، واهتدائِهِ لهُ إذا أبعدَ عنهُ ، وعرفوا منهُ نوعاً قَوِيَتْ فيهِ تلكَ الخاصَّةُ . . رَتَّبوا أبراجاً بينَ النواحي المتباعدةِ ؛ كمصرَ والشامِ وبغدادَ ، واتخذوا لكلِّ برجٍ حماماً ربَّوهُ فيهِ حتىٰ ألفَهُ ، وكانوا ينقلونَ حمامَ كلِّ برجٍ إلىٰ ما يليهِ ، فإذا أرادوا أن يوصلوا الكتابَ . . عَلَّقوهُ في جناحِهِ وأرسلوهُ ، فيتلقَّاهُ المُوظَّفونَ لأخذِ الكتبِ منه عندَ وصولِهِ إلىٰ برجِهِ ، ويُعلِّقونَهُ في جناحِ حمامِ البرجِ الآخَرِ ، وهٰكذا ، فكانَ يصلُ الكتابُ إلى المقصدِ في زمنٍ لا يمكنُ للبريدِ ، وكانَ للحمامِ ديوانٌ لهُ رؤساءُ وخدمٌ ، وكانَ مِنَ المصالحِ المُهِمَّةِ ، وأغنىٰ عنهُ وعن غيرِهِ في زمانِنا هٰذا ذٰلكَ السلكُ الممدودُ علىٰ ذٰلكَ الخشبِ المنصوبِ ، الذي صارَ شبكةً على الكرةِ الأرضيَّةِ .

[كتابٌ منَ الحضرةِ الخديويةِ إلىٰ سلطانِ المغربِ]

وكتبَ لسلطانِ المغربِ مِنَ الحضرةِ الخديويةِ جواباً عن كتابٍ :

قُرَّةُ نواظرِ الدِّينِ والدنيا ، وغرَّةُ مفاخرِ الملكِ والعليا ، وبدرُ مطالعِ السعدِ المشرقةِ أزمانُهُ بلألائِهِ ، وذخرُ مجامعِ المجدِ المورقةِ أفنانُهُ بآلائِهِ ، القائمُ بأمرِ الدِّينِ الحنيفِ ، وحامي حمى الملكِ المنيفِ ، ماحي ظُلَمِ الظُّلْمِ ومُبدِّدُ مراسمِهِ ، ورافعُ لواءِ العدلِ ومُجدِّدُ معالمِهِ ، ذُروةُ هامةِ الشرفِ الأسمىٰ ، ومَنْ تتباهىٰ بحلاهُ النعوتُ والأسما ، الملكُ المُعظَّمُ ، السُّلطانُ المُفخَّمُ ،

أميرُ المؤمنينَ بالدِّيارِ المغربيةِ ، دامَتْ محفوفةً بالرعايةِ الأبديَّةِ ، محفوظةً بالوقايةِ الأحديَّةِ ، ملحوظةً بعينِ العنايةِ الصَّمديَّةِ ، ولا بَرِحَتْ أعوادُ المنابرِ متباهيةً باسمِهِ الكريمِ ، وأجيادُ المفاخرِ حاليةً بمجدِهِ القديمِ ، ولا زالَتْ سُدَّتُهُ الكريمةُ مَحَلَّ إجلالٍ وتفخيمٍ .

سلامٌ يستتبعُ مزيدَ التكريمِ ، ويَستجمِعُ صنوفَ التبجيلِ والتعظيمِ ، وأدعيةٌ بهيَّةٌ تَتمسَّكُ بأذيالِ الإجابةِ والقَبولِ ، وأثنيةٌ سنيةٌ تَتمسَّكُ بها نفحةُ الصَّبا والقَبولِ(1) ، يُهدَىٰ لذٰلكَ المَقامِ الأرفعِ ، والحمى الأعلى الأعزِّ الأمنعِ ـ أدامَهُ اللهُ ـ موردَ قبولٍ وإقبالٍ ، ومعهدَ فضلٍ وإفضالٍ ، ولا زالَتْ أنديتُهُ معمورةً بالعزِّ والتمكينِ ، وألويتُهُ منشورةً بالنصرِ المبينِ .

وبعدُ : فقد حظيتُ بورودِ مُشرَّفِكُم العالي ، وقَرَّتْ بمطالعتِهِ عيونُ آمالي ، وشكرتُ لِمَا تَفضَّلتُم بإبدائِهِ ، وسُرِرتُ بما تَطوَّلتُم بإهدائِهِ ، واغتبطتُ بما تَكرَّمتُم بحسنِ بيانِهِ ؛ مِنْ تأكيدِ الودِّ القديمِ وتشييدِ بنيانِهِ ، والتهنئةِ بما تَجدَّدَ لديَّ ، مِنْ نعمِ اللهِ تعالىٰ عليَّ ، فكانَ نزهةَ النواظرِ ، وبهجةَ الخواطرِ ، وبغيةَ القرائحِ ، ومَسرَّةَ الجوانحِ .

هٰذا ؛ وإنِّي ما زلتُ أسمعُ أحاديثَ علاكُم مُتصِلةَ الإسنادِ ، فأطربُ على السماعِ ، وأنشرُ مِنْ مدائحِ محامدِكُم ما تَتعطَّرُ بهِ الأفواهُ والأسماعُ ، وأعتدُّ مَودَّتَكُم غنيمةَ النفسِ ومناها ، ومُصافاتَكُم غايةَ الآمالِ ونهايةَ مداها ، فقد شاعَ مِنْ محاسنِ شمائلِكُم الساميةِ ، وغُرَرِ مزاياكُم الكريمةِ وجلائلِ فضائلِكُم الناميةِ ، وقيامِكُم بأمرِ الشريعةِ الشريفةِ ، واهتمامِكُم بتأييدِ هٰذهِ المِلَّةِ المنيفةِ ، ونشرِ أنواعِ العدلِ بينَ العبادِ ، والقيامِ علىٰ أقدامِ الإقدامِ في مناهجِ السَّدادِ . . ما تناقلَتْهُ السُّمَّارُ في أسمارِها ، وسارَتْ بهِ الرُّكبانُ

---

(1) الصبا والقبول : اسمان لريح تقابل الدَّبور .

في أسفارِها ، وخَلَّدَتْهُ الأيامُ في أسفارِها ، وأخجلَ الشمسَ الضَّاحيةَ في إسفارِها ، حتىٰ أصبحَتِ الليالي متباهيةً بعلاهُ ، حاليةً بحلاهُ ، وصارَ مِصداقُ الحديثِ الواردِ في الطَّائفةِ القائمةِ علىٰ أمرِ اللهِ ، فأبقاكُمُ اللهُ للإسلامِ ساعداً وعضداً ، وللدِّينِ قُوَّةً ومدداً ، وللأنامِ ركناً وسنداً ، وللحقِّ عماداً ومعتمداً ، وأدامَ عليكُم وعلينا نعمَهُ باطنةً وظاهرةً ، وحفَّنا وإيَّاكُم بعونِهِ وعنايتِهِ ، في الدِّينِ والدنيا والآخرةِ .

[كتابٌ إلىٰ سلطانِ زنجبارَ]

وكتبَ لسلطانِ زنجبارَ :

الملكُ المُعظَّمُ ، والسُّلطانُ المُفخَّمُ ، سلطانُ جزيرةِ زَنْجِبارَ ، صانَها اللهُ تعالىٰ مِنَ الأكدارِ ، سلامٌ يُسفِرُ عن إخلاصِ المَودَّةِ سناهُ ، وثناءٌ يُخبِرُ عن صدقِ المَحبَّةِ لفظُهُ ومعناهُ ، وتحيةٌ تَتمسَّكُ بنفحاتِها المحافلُ ، وتَتمسَّكُ بأذيالِها نسماتُ الشمائلِ ، إلىٰ حضرةِ خلاصةِ الأماجدِ الأكارمِ ، ويَنبوعِ الفضائلِ والمكارمِ ، مَفخرِ الملكِ والعليا ، وإنسانِ عينِ الدِّينِ والدنيا ، مَنْ أشرقَتْ صفحاتُ الأيامِ بنورِ إقبالِهِ ، واتفقَتْ كلماتُ الأنامِ علىٰ شكرِ خلالِهِ ، وقَرَّتْ بسعودِهِ النواظرُ ، وتَرنَّحَتْ بوجودِهِ أعوادُ المنابرِ ، فكأنَّها الغصونُ النواضرُ ، الأجلُّ الأكرمُ ، الأسعدُ الأمجدُ الأفخمُ ، المُشارُ إليهِ أعلاهُ ، حرسَ اللهُ علاهُ .

ولا زالَتْ ثُغورُ الملكِ بمعاليهِ باسمةً ، ورياحُ السَّعدِ في نواديهِ ناسمةً ، وعيونُ الخُطوبِ عن سدَّتِهِ نائمةً ، وغيوثُ السُّرورِ في ساحتِهِ دائمةً ، آمينَ .

وبعدُ : فقد وصلَ إليَّ مُشرَّفُكُم الكريمُ ، وتَلقَّيتُهُ بما ينبغي لهُ مِنَ التكريمِ ، فحصلَ لي مزيدُ المَسرَّةِ ، بصحَّةِ مِزاجِ تلكَ الحضرةِ ، وأخبرَني أيضاً فلانٌ

قبودانُ سفينتِنا الإبراهيمةِ[1] ، أنَّهُ لمَّا وصلَ إلىٰ جهةِ مملكتِكُم المَحميَّةِ . . حظيَ مِنْ جنابِكُمُ العالي بحسنِ التشريفِ ، وحصلَ لهُ غايةُ المساعدةِ ونهايةُ التلطيفِ ، وشرحَ لديَّ ما نالَهُ هناكَ مِنْ صنوفِ الالتفاتِ والإسعادِ ، وأوصلَ إليَّ أيضاً مِنْ طرفِكُم الشريفِ فرسَينِ كريمتَينِ مِنَ الصَّافناتِ الجِيادِ ، فأحاطَ بي مِنَ السُّرورِ والابتهاجِ بما أبديتُموهُ مِنْ معالي هِمَمِكُم ، ولا سيّما ما تَكرَّمتُم بهِ مِنْ تشريفِ تلكَ السفينةِ بقدومِ قدمِكُم ، ما يَقصُرُ في وصفِهِ اللسانُ ، ويَقصُرُ عن تعريفِهِ بنانُ البيانِ ، ويَضيقُ عنهُ نطاقُ التعبيرِ ، ولا ينفسحُ لهُ مجالُ التقريرِ والتحريرِ ، فشكرَ اللهُ تلكَ الهِمَمَ العواليَ ، وأبقاها ما دامَتِ الأيامُ والليالي .

وهٰذا المُحِبُّ بحمدِ اللهِ في صحَّةٍ وعافيةٍ ، ونعمةٍ مِنَ اللهِ تعالىٰ وافيةٍ ، ولا زالَ مشمولَ القلبِ بالمَودَّةِ إليكُم ، مشغولَ اللسانِ بالثناءِ عليكُم ، محافظاً علىٰ صدقِ الموالاةِ والودادِ ، مواظباً علىٰ حسنِ المُصافاةِ ومزيدِ الاتحادِ ، والمرجوُّ أن يَتَّصلَ ذٰلك بينَ الطرفَينِ على الدَّوامِ ، وكلُّ ما لزمَ مِنْ هٰذا الجانبِ فهوَ رهينُ الإشارةِ والسلامُ .

[فرمانٌ منَ الحضرةِ الخديويةِ]

وممَّا كتبَهُ فرمانٌ مِنَ الحضرةِ الخديويةِ :

قد صدرَ هٰذا الفرمانُ اللازمُ طاعتُهُ ، الواجبُ امتثالُهُ ومتابعتُهُ ، خطاباً إلىٰ كافَّةِ القُضاةِ والحكامِ ، والمعاونينَ ونُظَّارِ الأقسامِ ، وسائرِ المعاونينَ والمشايخِ والعمدِ والمُستخدَمينَ بمديريةِ كذا زيدَ قدرُهُم :

ليكنْ معلوماً لديكُم ، بوصولِ أمرِنا هٰذا إليكُم ؛ أنَّنا جعلنا فلاناً مديراً

(١) قبودان السفينة : رُبَّانها ، لفظة تركية .

عليكُم ؛ لِمَا رأيناهُ فيهِ مِنَ الأهليَّةِ ، والصَّداقةِ وحسنِ الرَّوِيَّةِ ، فامتثِلوا أوامرَهُ علىٰ الأصولِ المَرعيَّةِ ، وبادِروا بأداءِ [أشغالِ] المديريةِ ؛ لتفوزوا بزيادةِ التفاتِنا إليكُم ، ورضانا عنكُم ، وقد علمتُم قولَهُ تعالىٰ : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ (١) .

وأنت أيُّها المديرُ المُومأُ إليهِ ، المُعوَّلُ في حسنِ إدارةِ هـٰذهِ المديريةِ عليهِ ؛ قد علمتَ رغبتَنا في البرِّ والسَّدادِ ، واتباعِ سبلِ الرشادِ ، وعمارةِ البلادِ ، وراحةِ العبادِ ، ونشرِ لواءِ الأمنِ والأمانِ ، في جميعِ القرىٰ والبلدانِ ، ومَحبَّتَنا للعدلِ وأهلِهِ ، وكراهتَنا للظلمِ وفعلِهِ ، وشغفَنا برفاهيةِ الرعيةِ ، وحسنِ حالِ البريةِ ، الذينَ هُم وديعةُ ذي الجلالِ والإكرامِ ، في أيدي الولاةِ والحُكَّامِ ، فاعملْ أنتَ أيضاً علىٰ حَسَبِ ذٰلكَ ، سالكاً في جميعِ أحوالِكَ أحسنَ المسالكِ ، واجتهدْ في حسنِ الإدارةِ ، وتيسيرِ أمورِ الزراعةِ والصِّناعةِ والتجارةِ ، ومزيدِ التمدُّنِ والعمارةِ ، وتأمينِ الطُّرقِ والجهاتِ ، في جميعِ الحالاتِ والأوقاتِ ، وصيانةِ الأجانبِ المُتوطِّنينَ في المديريةِ والمُتردِّدينَ عليها ، والأهالي المقيمينَ بها والواردينَ إليها ، وحسنِ نهْوِ القضايا وفصلِها ، وتوصيلِ الحقوقِ إلىٰ أهلِها ، وأداءِ الأشغالِ المِيريَّةِ ، وإدارةِ أمورِ المديريةِ ، علىٰ حَسَبِ الأصولِ المعتبرةِ ، والقواعدِ المُقرَّرةِ ، ودُمْ على الاستقامةِ ، والصَّداقةِ التامَّةِ ، والعدلِ بينَ الخاصَّةِ والعامَّةِ ؛ فإنَّ العدلَ سببُ السلامةِ ، والظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ ، فقمْ علىٰ أقدامِ الإقدامِ ، وشَمِّرْ عن ساعدِ الاهتمامِ ، في إجراءِ ما شرحناهُ على الدَّوامِ ، باذلاً كلَّ جهدِكَ واستطاعتِكَ ، كما هوَ المأمولُ في حسنِ براعتِكَ ؛ لتنالَ زيادةَ التفاتِنا إليكَ ، ودوامَ إقبالِنا عليكَ .

وليسلكْ أيضاً الجميعُ علىٰ هـٰذا المنهجِ البديعِ ، وليَسعَوا في إجراءِ ما

---

(١) سورة النساء : (٥٩) .

شرحنا ، ويساعدوا في إنفاذِ ما أوضحنا ، فبادِروا بامتثالِ هٰذا الواجبِ ، وليبلغِ الحاضرُ منكُم الغائبَ ، نسألُ اللهَ الإعانةَ والعنايةَ ، وحسنَ الهدايةِ في البدايةِ والنهايةِ .

[كتابٌ منَ الحضرةِ الخديويةِ إلىٰ مَن بجزيرةِ كريدَ منَ العساكرِ المصريةِ]

وكتبَ إلىٰ مَنْ بجزيرةِ كريدَ مِنَ العساكرِ المصريَّةِ ، مِنْ طرفِ الجنابِ الخديويّ ليقرأَ عليهِم :

لقد عُلِمَ لدينا بما وردَ إلينا مِنْ جرنالِ الوقعاتِ العسكريَّةِ ، وما أوضحَهُ أيضاً فلانُ باشا في معروضاتِهِ الشفاهيةِ ؛ ممَّا رآهُ بالعيانِ ، ورواهُ بالبيانِ . . تفصيلُ ما وقعَ مِنَ الحروبِ والغزواتِ ، في نواحي أبو قرونٍ وما يليها مِنَ الجهاتِ ، وأحطنا بما أبديتُم مِنَ الإقدامِ والشجاعةِ ، وما أدَّيتُم مِنَ الاهتمامِ والبراعةِ ، وما كانَ منكُم مِنْ ثباتِ الجأشِ والقلبِ ، في مواقعِ الضَّربِ ومعامعِ الحربِ ، وما شاهدَتْهُ منكمُ الأعينُ ، وشهدَتْ لكُم بهِ الألسنُ ؛ مِنَ الهجومِ على الجبالِ الوعرةِ ، واقتحامِ المَحالِّ العسرةِ ، وإظهارِ البأسِ والصَّولةِ ، في تأييدِ المِلَّةِ والدَّولةِ ، وتبديدِ مَنْ لقيتُم مِنْ جنودِ العُصاةِ البغاةِ ، وتسخيرِ ما كانوا مُتمكِّنينَ بهِ ومُتحصِّنينَ فيهِ مِنَ المَحَلَّاتِ ، وتبديدِ ما أحكموا مِنِ استحكاماتِهِم ، وتنديدِ مَنْ أقدموا مِنْ طُغاتِهِم ، فأحاطَ بي مِنَ السُّرورِ ، وكمالِ الأُنسِ والحُبورِ ، ومزيدِ الحظِّ الموفورِ . . ما ملأَ الجوانحَ انشراحاً ، والجوارحَ طرباً وارتياحاً ، وأظهرَ حسنَ اعتقادي في شجاعتِكُمُ القلبيةِ ، وبراعتِكُمُ الحربيةِ ، وغَيرتِكُمُ المِلِّيَّةِ ، وحَمِيَّتِكُمُ الجِبلِّيَّةِ ، وشفقتِكُم بإعلاءِ شأنِ الوطنِ ، وإبقاءِ الذِّكرِ الجميلِ والصِّيتِ الحسنِ .

وأَكَّدَ ذٰلكَ ما شهدَتْ بهِ الأنامُ ، مِنْ سوالفِ الأيامِ ، للعساكرِ المصريَّةِ ، وضباطِها الجهاديَّةِ ؛ مِنْ قدمِ الصِّدقِ في الحروبِ ، وحسنِ السابقةِ في الخُطوبِ ، وثباتِ القدمِ والجَنانِ ، إذا طاشَ قدمُ الهَلُوعِ وطارَ قلبُ الجبانِ ؛ فإنَّهُم خَلَّدوا في أوراقِ الليالي علاهُم ، وقَلَّدوا في أعناقِ المعالي حلاهُم ، بما لهُم مِنَ الوقائعِ المشهورةِ ، والمواقفِ المشكورةِ ، وقُوَّةِ الباسِ على الأعداءِ ، وشِدَّةِ الصَّولةِ والبسالةِ في مواقفِ الهيجاءِ ، وما بَنَوهُ مِنْ منارِ الفخرِ والمجدِ علىٰ أساسِ الشرفِ والمَظهرِ ، وما اجتنَوهُ مِنْ ثمراتِ النصرِ مِنْ ورقِ الحديدِ الأخضرِ ، وأنتُم أَولىٰ بتشييدِ ما بنتْهُ إخوانُكُمُ الأُوَلُ ، وتأييدِ ما شاعَ لهُم مِنَ الفخرِ والشهرةِ عندَ جميعِ الدُّوَلِ .

ثمَّ إنَّكُم إذا أمعنتُمُ الفكرَ الثاقبَ ، وتَبيَّنتُم النظرَ الصَّائبَ ، وتَفكَّرتُم في أعقابِ الأمورِ ومصايرِها ، وتَدبَّرتُم في مواردِ الأحوالِ ومصادرِها . . علمتُم أنَّكُم إذا أثبتُّم ذٰلكَ الصِّيتَ الممدوحَ ، واكتسبتُم بمشيئةِ اللهِ تعالى النصرَ والفتوحَ . . كانَ لكُم ذٰلكَ افتخاراً بينَ أقرانِكُم ، وسُروراً لأهلِكُم وإخوانِكُم ؛ فإنَّ الأخبارَ تَتناقلُها الرُّواةُ ، وتَتواصلُ بالمكاتباتِ والأفواهِ .

ثمَّ ليكنْ علىٰ بالٍ منكُم ، ولا يغبْ طرفةَ عينٍ عنكم : أنَّ هٰذهِ البلادَ التي أنتُم لديها ، والجبالَ والأوديةَ التي أنتُم عليها وحواليها . . كم سبقَ فيها مِنْ غزوةٍ عظيمةٍ ، ووقعةٍ جسيمةٍ ، ووقفةٍ كريمةٍ ؛ لإخوانِكُمُ الأولينَ ، مِنَ العساكرِ المصريينَ ، أبرزوا فيها شرفَ الرايةِ العسكريةِ ، وأظهروا مآثرَ النجدةِ والحميةِ ، والغَيرةِ الوطنيةِ ، حتىٰ سارَتْ بحديثِ وقائعِهِمُ الركبانُ ، وأثنىٰ علىٰ محاسنِ بدائعِهِم كلُّ لسانٍ ، فما هناكَ مِنْ بقعةٍ إلَّا وفيها وقعةٌ ، ولا مِنْ موطئِ قدمٍ إلَّا وفيهِ أُريقَ دمٌ ، فمضىٰ مَنِ استشهدَ منهم فائزاً بالثوابِ والأجرِ ، وعادَ مَنْ بقيَ حائزاً للفخرِ والنصرِ .

وهٰأنتُم مِنْ نسلِهِم وإخوانِهِم ، ومِنْ أبناءِ أوطانِهِم ، وأنتُم خيرُ خلفٍ ، لأولٰئكَ السَّلفِ ، كما أنَّ هٰؤلاءِ العُصاةَ نسلُ مَنْ كانَ بها مِنْ أهاليها ، وهٰذهِ الجزيرةُ التي أنتُم بها هيَ بعينها التي كانوا فيها ، فمهما أقدمتُم ونصرتُم ، واقتحمتُم وظفرتُم . . كانَ ذٰلكَ لِمَنْ بقيَ هنالِكَ مِنْ أرواحِ الشهداءِ رَوْحاً وريحاناً ، وتَكرِمةً وإحساناً ، كما أنَّهُ يجعلُ لكُم في جميعِ الآفاقِ شرفاً وشاناً ، ويمكنُ لكُم بينَ الرفاقِ عزَّةً ومكاناً ، ويقيمُ لكُم على الشجاعةِ والبراعةِ دليلاً وبرهاناً .

ثمَّ إنَّكُم عندَ عودتِكُم بعونِ اللهِ القويّ المتينِ ، حاملينَ راياتِ الفتحِ المبينِ ، رافلينَ في حللِ النصرِ والتمكينِ . . يكونُ لكُم ذٰلكَ شرفاً سرمداً ، وافتخاراً تَتحدَّثونَ بهِ على المدىٰ ، حتىٰ إذا التفَّتْ عليكُمُ المحافلُ ، واجتمعَ لديكُم المستخبرُ والناقلُ . . كانَ لكُم بذٰلكَ لسانٌ ذَلْقٌ ، وصوتٌ صَهْصَلْقٌ ، وتجدونَ حينَئذٍ للبراعةِ مقالاً ، وللفخرِ بالشجاعةِ مجالاً ، وترونَ لأقوالِكُم مَنْ يُصدِّقُها ، ولأخبارِكُم مَنْ يُحقِّقُها ، وهٰذهِ لَذَّةُ الرجالِ ، ومزيَّةُ الأبطالِ .

فهل للرجلِ فخرٌ أعظمُ مِنْ هٰذا الحالِ ؟! وهل لهُ فضلٌ على المرأةِ إلَّا بإقدامِهِ على الخُطوبِ واقتحامِهِ الأهوالَ ؟! وهل يَتميَّزُ الشجاعُ الصِّنديدُ مِنَ الجبانِ الرِّعيدِ إلَّا في مواقفِ القتالِ ، ومواقعِ الحربِ والنزالِ ؟! وهل للعسكريِّ شرفٌ يَكتسِبُهُ إلَّا بينَ البنادقِ والمدافعِ ، وهل لهُ فخرٌ يَذكُرُهُ أو يُذكَرُ بهِ إلَّا بما يبديهِ في تلكَ الوقائعِ ؟! وهل [للكريمِ] الحُرِّ أربٌ في الحياةِ إلَّا لفخرٍ يَقتنيهِ ؛ بصعبٍ يرتقيهِ ، وذكرٍ جميلٍ يبقيهِ ، بأثرٍ جليلٍ يبديهِ ؟! فإذا العسكريُّ لمْ يَكتسِبِ الفخرَ في مجالِ الحروبِ . . فأيُّ فرصةٍ يَترقَّبُها ؟! وأيُّ حالةٍ يَتطلَّبُها لاستحصالِ ذٰلكَ المرغوبِ ؟!

وإنِّي ما اخترتُكُم لهٰذا الأمرِ العظيمِ . . إلَّا لإعلاءِ شأنِ الوطنِ الكريمِ ،

وإعلانِ ما لكم مِنَ الصِّيتِ والفخرِ القديمِ ؛ لحسنِ اعتقادي في صغيرِكُم وكبيرِكُم ، وحسنِ نظري في مأمورِكُم وأميرِكُم ، وقد لاحَ مِنْ مساعيكُم ، تأييدُ ما أملتُهُ فيكم ، وظهرَتْ بحمدِ اللهِ بشائرُ النجاحِ ، وسفرَتْ أشائرُ الظَّفرِ والفلاحِ ، وإنَّما الأعمالُ بخواتيمِها ، وثمراتُ الأمورِ في تتميمِها ، ورجائي مِنْ مِنَنِ اللهِ العظيمةِ ، وألطافِهِ العميمةِ .

ثمَّ أملي في طويَّاتِكُمُ السليمةِ ، ومساعيكُمُ القويمةِ ؛ أن تكونَ العاقبةُ خيراً والختامُ حسناً ، وأن تفوزوا بالأجرِ والثنا ، وأن تدوموا علىٰ منهجِ السَّدادِ ، والاجتهادِ في الجهادِ ، والقيامِ علىٰ أقدامِ الإقدامِ ، وبذلِ الجدِّ والجهدِ والاهتمامِ ، حتىٰ ينتهيَ الأمرُ ، ويستكملَ النصرُ ، ويزولَ أثرُ الاختلالِ ، وتَستقِرَّ الأحوالُ ، وتعودوا إن شاءَ اللهُ منصورينَ ، فرحينَ مسرورينَ ، مستبشرينَ بعنايةِ اللهِ العليَّةِ ، في ظلِّ السَّلطنةِ السَّنيةِ .

واعلموا : أنَّ جميعَ أخبارِكُم تُنقَلُ في جرنالِ الوقعاتِ ، فتُعلَمُ لديَّ أحوالُكُم في جميعِ الحركاتِ والسَّكَناتِ ، حتىٰ كأنِّي مقيمٌ لديكُم ، وحتىٰ كأنِّي أراكُم وأنظرُ إليكُم ، فكلُّ مَنْ فاقَ أقرانَهُ في الحروبِ ، وأبدىٰ مِنَ الإقدامِ والحميَّةِ ما هوَ المطلوبُ . . فلهُ ما يَسُرُّهُ مِنَ المكافآتِ ، وحسنِ التلطيفِ ومزيدِ الالتفاتِ .

فاعلموا ذٰلكَ واعملوا علىٰ حَسَبِهِ في كلِّ آنٍ ومكانٍ ، وأدُّوا مِنَ الإقدامِ والاهتمامِ غايةَ الاستطاعةِ ونهايةَ الإمكانِ ، وقد أصدرتُ أمري هٰذا إليكُم إعلاماً بما حواهُ ، ودُستوراً يُعمَلُ بمُقتضاهُ ، وإعلاناً لِمَسَرَّتي مِنْ حسنِ صنيعِكُم ، وإيذاناً بفرحي وابتهاجي بجميعِكُم ، واستفساراً عن خواطرِكُم ، وافتخاراً بمفاخرِكُم ، أمدَّكُمُ اللهُ بعنايتِهِ وعونِهِ ، وجعلَكُم في حرزِ رعايتِهِ وصونِهِ ، وأدامَ توفيقي وإيَّاكُم لِمَا يرضاهُ ، والسلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ .

[كتابُ الحضرةِ الخديويةِ إلىٰ مَن باشرَ واقعةَ أرقازي مِنَ الضباطِ الجهاديةِ]

وكتبَ أيضاً مِنَ الحضرةِ الخديويةِ إلىٰ مَنْ باشروا واقعةَ أرقازي مِنَ الضُّباطِ الجهاديةِ ، وأفرادِ العساكرِ المصريةِ :

سلامٌ مِنَ اللهِ وتسليمٌ ، ورضوانٌ كريمٌ ، يُهدىٰ لأولِكُم وآخِرِكُم ، ويُسدىٰ لمأمورِكُم وآمرِكُم ، لا زلتُم محفوفينَ مِنَ اللهِ بنصرِهِ ، محفوظينَ بأمرِهِ ، غالبينَ علىٰ عدوِّكُم بقهرِهِ ، مُتقلِّبينَ في نعمتِهِ وبرِّهِ ، ولا انفكَّتْ عزائمُكُم في كروبِ الحروبِ عزائمَ ، وثغورُكُم في قطوبِ الخُطوبِ بواسمَ ، وأعلامُكُم للنُّجْحِ والتمكينِ علائمَ ، وأيامُكُم للفتحِ المبينِ مواسمَ ، ورياحُ القهرِ والدَّمارِ علىٰ عدوِّكُم سمائمَ ، ونسماتُ النصرِ والفَخارِ في رواحِكُم وغُدُوِّكُم نواسمَ .

وبعدُ : فما زلتُ أتشوَّقُ مِنْ أخبارِ شجاعتِكُم ما يَسُرُّ الخواطرَ ، وأتشوَّفُ مِنْ آثارِ براعتِكُم ما يقرُّ النواظرَ ، واثقاً بعزمِكُم وحزمِكُم في المضايقِ ، مُبتهجاً بما أبديتُموهُ مِنْ حسنِ السَّوابقِ ، حتىٰ وردَ وابورُ الشرقيةِ ، مِنْ طرفِ حضرةِ الباشا ناظرِ الجهاديةِ ؛ بيومياتِ الوقائعِ العسكريةِ ، مشتملةً علىٰ وقعةِ أرقازي وتفصيلاتِها ، وما كانَ مِنْ رسوخِ أقدامِكُم وثباتِها ، وإقدامِكُم في جهاتِها ، واقتحامِكُم مضايقَ حصونِها واستحكاماتِها ، وتسخيرِ مستعصماتِها ، وتدميرِ أشقياءِ العُصاةِ وكُماتِها ، حتىٰ زُلزِلَتْ صياصيها ، وذُلِّلَتْ نواصيها ، ودنا لكُم قاصيها ، ودانَ عاصيها ، فكذا تكونُ رجالُ الجهادِ ، وأبطالُ الجدالِ والجلادِ ، وهٰكذا تُفتَحُ الحصونُ ، ويَبرُزُ سرُّ النصرِ المصونُ ، وفي ذٰلكَ فليتنافسِ المتنافسونَ .

فقد أسفرَ لكُم بحمدِ اللهِ وجهُ التهاني ، وأثمرَ فيكُم بعونِ اللهِ غرسُ الأماني ، وأيَّدتُم ما ثبتَ للعساكرِ المصريةِ ، مِنْ حسنِ الشهرةِ في الأمورِ

العسكريةِ ، فحصلَ لي مِنَ الأُنْسِ والسُّرورِ بهٰذهِ البشارةِ ، ما لم تقدرِ الإنسُ أن تصفَ مقدارَهُ ، ولا يَتسِعُ لهُ مجالُ الإشارةِ ، وتأيَّدَ فيكم حسنُ أنظاري ، وظهرَتْ ثمراتُ أفكاري ، وتَحقَّقتُ أنَّكُم بعدَ الآنَ بعونِ اللهِ الكريمِ ، لا تزلونَ عن هٰذا الطريقِ القويمِ ، ولا تزالونَ في تأييدِ ما لكُم مِنَ المجدِ القديمِ .

وقد شاعَ حديثُ نصرِكُم بينَ الأهلِ والدِّيارِ ، وسارَتِ الرُّكبانُ بمحاسنِ هٰذهِ الأخبارِ ، كما نقلَتْهُ صُحُفُ الوقائعِ إلىٰ جميعِ الأقطارِ ، فانشرحَتْ صدورُ أهلِكُم وإخوانِكُم ، وفرحَتْ بكم جميعُ أهلِ بلدانِكُم ، وابتسمَتْ ثُغورُ أوطانِكُم ، وافتخرَتْ بأحاديثِ شجعانِكُم ، وارتاحَتْ أرواحُ الشهداءِ مِنْ أقرانِكُم .

والمأمولُ في ألطافِ اللهِ العليةِ ، وبركاتِ السلطنةِ السنيةِ ، ثمَّ في حميتِكُم المليَّةِ ، وغَيرتِكُمُ الوطنيَّةِ . . أن يزولَ حالُ الاختلالِ عن قربٍ ، وينتهيَ أمرُ القتالِ والحربِ ، ويطيعَ الجميعُ ، ويسهلَ كلُّ صعبٍ منيعٍ ، وتعودوا لوطنِنا العزيزِ ، ظافرينَ بالتعزيزِ ، وقد قَرُبَ حصولُ الأملِ ، ونجاحُ العملِ ، ومضى الأكثرُ وبقيَ الأقلُّ ، والحربُ للرجلِ العسكريِّ ، والبطلِ الجريِّ . . سوقٌ عظيمٌ ، وموسمٌ كريمٌ ، تُشترىٰ فيهِ غوالي المعالي ، بأعلى العوالي ، وتُنالُ فيهِ منازلُ الأكارمِ ، في ظلِّ السيوفِ الصَّوارمِ ، ويُدرَكُ الفخرُ الصَّادقُ ، بمرامي المدافعِ والبنادقِ .

وقد علمتُم : أنَّ الشجاعةَ وإن كانَتْ تَبلُغُ الآمالَ . . لا تُقصِّرُ الآجالَ ، كما أنَّ الجبنَ وإن كانَ يُورِثُ العارَ . . لا يُؤخِّرُ الأعمارَ ، وإنَّما هيَ آجالٌ محدودةٌ ، وأنفاسٌ معدودةٌ ، لا تَقبلُ التغييرَ ، ولا التقديمَ والتأخيرَ ، والشجاعةُ صبرُ ساعةٍ ثمَّ ينكشفُ الغبارُ ، وتُسفِرُ الأخبارُ ، ويُتناقلُ حديثُ الشجعانِ ، ويَخلُدُ

في تواريخِ الزمانِ ، فداوموا علىٰ إبداءِ الاجتهادِ ، وقوموا بأداءِ حقوقِ الجهادِ ، واثبُتوا على الشجاعةِ والإقدامِ ، وثباتِ القلوبِ والأقدامِ ، وأنجزوا بمعونةِ اللهِ تعالىٰ هـٰذا المرامَ ، وكما جوَّدتُم براعةَ المطلعِ أحسنوا براعةَ الختامِ .

[كتابٌ مِنَ الحضرةِ الخديويةِ إلىٰ ملكِ دارفورَ]

وكتبَ في أوائلِ عهدِ الجنابِ الخديويِّ عن حضرتِهِ إلىٰ ملكِ دارفورَ :

حمداً لِمَنْ أَلَّفَ بينَ قلوبِ المؤمنينَ ، وجعلَهُم بنعمتِهِ إخواناً في الدِّينِ ، وصلاةً وسلاماً علىٰ رسولِ جنابِهِ ، وسيِّدِ أحبابِهِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ .

مِنْ كافلِ الدِّيارِ المصريةِ ، وما والاها مِنَ الأقطارِ السُّودانيةِ ، إلىٰ حضرةِ صفوفِ السيادةِ الأماجدِ ، الجامعِ ما تَفرَّقَ مِنْ مكارمِ المحامدِ ، غُرَّةِ جبينِ الشرفِ الأجلىٰ ، وقُرَّةِ عينِ المجدِ الأعلىٰ ، بحرِ الفضلِ الزاخرِ ، وبدرِ سماءِ المحاسنِ والمفاخرِ ، وفخرِ الأوائلِ والأواخرِ ، الملكِ المُعظَّمِ ، السُّلطانِ المُفخَّمِ ؛ محمدِ بنِ الحسينِ المهديِّ سلطانِ مملكةِ دارفورَ ، حفظَهُ اللهُ بدوامِ السُّرورِ والسَّعدِ الموفورِ ، آمينَ .

بعدَ سلامٍ ينبعُ عن صريحِ الودادِ ، ويُخبِرُ عمَّا في صميمِ الفؤادِ ؛ مِنْ صحيحِ المحبةِ والاتحادِ ، وتحيةٍ يحلو على الألسنِ حسنُ تكريرِها ، ويُعبِّرُ عن صدقِ الوَلاءِ طيبُ عبيرِها ، وشوقٍ يَقِلُّ عنهُ البيانُ ، ويَكِلُّ دونَهُ البَنانُ ، وسؤالٍ عنِ الخاطرِ العالي أدامَ اللهُ معاليَهُ ، وحَفَّ بطوالعِ السُّعودِ أيَّامَهُ وليالِيَهُ : بينَما نحنُ في انتظارِ ما يَرِدُ مِنَ الرسائلِ ، والثناءِ علىٰ حسنِ تلكَ الشمائلِ . . وردَ لنا خطابُكُمُ الكريمُ ، فقابلناهُ بمزيدِ التعظيمِ ، وسُرِرنا بحسنِ صحَّتِكُم ، وما أبديتُموهُ مِنْ لطفِ مَودَّتِكُم ، فاللهُ يرعىٰ تلكَ الصحَّةَ ويَلحظُها ، ويديمُ هـٰذهِ المحبةَ ويَحفظُها .

وقد أوضحتُم أنَّ سلفَنا السعيدَ ، المُنتقلَ إلىٰ رحمةِ ربِّهِ المجيدِ ، ضاعفَ اللهُ حسناتِهِ ، وأحلَّهُ أعاليَ جَنَّاتِهِ . . كانَ قد جعلَ فلاناً وكيلاً في رؤيةِ أمورِكُمُ البهيَّةِ علىٰ مَنهجِ السَّدادِ ، ونحنُ أيضاً قَرَّرناهُ في هٰذهِ الوظيفةِ ، وأوصيناهُ بالاهتمامِ فيما يَتعلَّقُ بتلكَ الحضرةِ الشريفةِ ، وسيجدُ منَّا في ذٰلكَ حسنَ المساعدةِ ، ودوامَ التسهيلِ والمعاضدةِ .

ثمَّ ما تَكرَّمتُم بإرسالِهِ معَ كريمِ خطابِكُم ، علىٰ يدِ القاصدينَ الواردينَ مِنْ عالي جنابِكُم . . قُوبلَ بقَبولِهِ ، عندَ وصولِهِ ، والمبعوثُ معَ القاصدينَ المذكورينَ لناديكُمُ الكريمِ . . ما هوَ مُوضَّحٌ في البطاقةِ المَطويَّةِ معَ هٰذا الرقيمِ ، والمَرجوُّ أن تَتَّصِلَ بينَنا روابطُ الودِّ على الدوامِ ، كما جمعَتْنا علاقةُ الأخوةِ في الإسلامِ ، وصلَّى اللهُ علىٰ سيِّدِنا محمدٍ بدرِ التمامِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الأعلامِ ، غيوثِ الإفضالِ ، وغاياتِ الكمالِ .

[بعضُ المفاكهاتِ والمداعباتِ]

وممَّا ينبغي ألَّا تَقصُرَ العنايةُ بهِ عن العنايةِ بمقابلِهِ : هٰذهِ **المداعباتُ والمفاكهاتُ** الجاريةُ بينَ الإخوانِ ، لِمَا فيها مِنْ تأكيدِ الودِّ ، وبسطِ النفوسِ ، واطِّراحِ مؤنةِ التحفُّظِ ، كما قيلَ [1] : [من المنسرح]

فِـيَّ ٱنْـقِـبَـاضٌ وَحُـشْـمَـةٌ فَـإِذَا ... لَاقَـيْـتُ أَهْـلَ ٱلْـوَفَـاءِ وَٱلْـكَـرَمِ
أَرْسَلْـتُ نَفْسِـي عَلَىٰ سَجِيَّتِهَا ... وَقُلْـتُ مَا قُلْـتُ غَيْـرَ مُحْتَشِمِ

وتمثيلُ ذٰلكَ ما صدرَ عن هٰذا الأميرِ علىٰ لسانِ بعضِ أعيانِ تُجَّارِ الوقتِ ، يُخاطِبُ أحدَ الأمراءِ ، وهوَ هٰذا :

المعروضُ علىٰ ساحةِ سيِّدي الأميرِ ـ لا زالَتْ عيونُ الإقبالِ لحماهُ نواظرَ ،

(١) عزاهما في « البيان والتبين » (٣/٣٤٨) لابن كناسة .

ورياضُ الآمالِ بنداهُ نواضرَ ، ونسائمُ البشائرِ بطيبِ أخبارِهِ خواطرَ ، وسحائبُ المفاخرِ بحسنِ آثارِهِ مواطرَ ـ أنِّي وإن كنتُ مِنْ قديمِ الزمانِ ، خليعَ العنانِ ، أجري معَ أبي مُرَّةَ شريكَيْ عِنانٍ ، وفرسَيْ رهانٍ ، لا أرىٰ صهوةَ خلاعةٍ إلَّا كنتُ راكبَها ، ولا ذروةَ رقاعةٍ إلَّا تَسنَّمتُ غاربَها ، ولا مواردَ لذَّةٍ إلَّا استطبتُ مشاربَها ، ولا داعيةَ شهوةٍ إلَّا قضيتُ مآربَها ، ولا سُوقَ فسوقٍ إلَّا كنتُ كنقيبِها ، ولا حانةَ مجانةٍ إلَّا حزتُ أوفرَ نصيبِها ، ولا غايةَ عمايةٍ إلَّا كنتُ لها مِنَ السابقينَ المُقدَّمينَ ، ولا رايةَ غوايةٍ إلَّا تَلقَّيتُها باليسارِ وباليمينِ .

أي : تَفوُّقاً علىٰ عرابةَ الذي يقولُ مادحُهُ[1] : [من الوافر]

رَأَيْـتُ عَـرَابَـةَ ٱلْأَوْسِـيَّ يَـسْـمُـو إِلَى ٱلْـخَـيْـرَاتِ مُـنْـقَـطِـعَ ٱلْـقَـرِيـنِ
إِذَا مَـا رَايَــةٌ رُفِـعَــتْ لِـمَـجْـدٍ تَـلَـقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بِـٱلْـيَـمِـيـنِ

إذا حَيْعَلَ داعي الفلاحِ . . قلتُ : حيَّ على الراحِ ، وإذا قاموا للصلاةِ والصَّلاحِ . . قمتُ للأقداحِ في أكفِّ الملاحِ ، فما ذُكِرَ الفرحُ إلَّا ذُكِرتُ ، ولا حضرَ القدحُ إلَّا سكرتُ ، ولا وردَ الطَّربُ إلَّا وردتُ ، ولا شُهِدَ الخيرُ إلَّا شردتُ .

فلولا أنَّ إبليسَ وهوَ إمامُ الخَلاعةِ ، ورئيسُ الجماعةِ في هٰذهِ الصِّناعةِ ؛ وُعِدَ بالخلودِ ، وأُنظِرَ إلى اليومِ الموعودِ . . لَجعلَني مِنْ بعدِهِ وصيّاً ، كما اتخذَني صفيّاً ، وكانَ لي وفيّاً ، وبي حفيّاً ، بل لو أنصفَ وخالفَ هواهُ ، وتركَ الكِبْرَ وهوَ أوَّلُ [بلواهُ] . . لاتخذَني لهُ مُعلِّماً ، وقامَ بينَ يدَيَّ مُتعلِّماً .

إذاً لَعلَّمْتُهُ مِنْ أَصْلِ صَنْعَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَطُّ يَأْتِيهِ عَلَىٰ بَالِ[2]

---

(١) تقدم (٢/٤٠٤) .

(٢) من البسيط ، وانظر « عروس الأفراح » (١/٣٣١) .

هـٰذا مِنْ ألطفِ أنواعِ الحَلِّ وأدقِّها ، وكنتُ عزمتُ علىٰ إيرادِ أمثلةٍ لهُ ، ولـٰكنِ اكتفيتُ بالإشارةِ ، وفيها للَّبيبِ غنىً ، فإنَّ هـٰذا الكلامَ مُختلَسٌ معناهُ اختلاساً أدبيّاً صناعيّاً مِنْ قولِ بعضِ السلفِ : [من الطويل]

وَكُنْتُ فَتىً مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَٱرْتَقَىٰ ... بِيَ ٱلْحَالُ حَتَّىٰ صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

فَلَوْ مَاتَ قَبْلِي كُنْتُ أُحْدِثُ بَعْدَهُ ... طَرَائِقَ فِسْقٍ لَيْسَ يُحْسِنُهَا بَعْدِي

ومَنْ أرادَ استيفاءَ الاطلاعِ علىٰ أنواعِ الحَلِّ والاستعانةِ ببسطِ معاني الآيةِ والحديثِ والشعرِ . . فلابنِ الأثيرِ في ذٰلكَ رسالةٌ ؛ أوردَ فيها تلكَ الأنواعَ مِنْ إنشائِهِ ، وهيَ موجودةٌ بدارِ الكتبِ الكبيرةِ .

رجعَ القولُ (١) :

ولـٰكنَّنِي الآنَ قد تَنسَّكتُ فيمَنْ تنسَّكَ ، وتَمسَّكتُ بطيبِ أذيالِ التقىٰ فيمَنْ تَمسَّكَ .

وَقُـلْـتُ لِـلْـقَـلْـبِ كُـفَّ وَٱرْجِـعْ ... وَٱحْـذَرْ مِـنَ ٱلـنَّـارِ أَنْ تَـمَـسَّـكْ (٢)

فأنا الآنَ باسمِ اللهِ ، ما شاءَ اللهُ ، لا قُوَّةَ إلَّا باللهِ . . بينَ خشوعٍ وخضوعٍ ، وسجودٍ وركوعٍ ، وصلاةٍ وصلاحٍ ، ونجاحٍ وفلاحٍ ، وأورادٍ وأذكارٍ ، وبركاتٍ وأسرارٍ ، لا أعني أسرارَ الشيرةِ ؛ فقد تركتُ هـٰذهِ العشيرةَ ، وإنَّما هيَ أسرارُ الأنفاسِ ، وإن كانَتْ هـٰذهِ أيضاً لا تخلو عن إلباسٍ ، والحاصلُ : أنِّي لزمتُ الخيرَ والتقوىٰ ، وتَمسَّكتُ مِنْ طاعةِ اللهِ بالسببِ الأقوىٰ ، فمَنْ رأى الآنَ صلاحَ شاني . . لم يَشكَّ أنَّ أبا نُواسٍ إنَّما قالَ عن لساني (٣) : [من الخفيف]

---

(١) أراد الرجوع إلىٰ رسالة الأديب عبد الله فكري .

(٢) من مخلع البسيط .

(٣) انظر « ديوانه » (ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣) .

اِرْعَوَىٰ بَاطِلِي وَأَقْصَرَ جَهْلِي وَتَبَدَّلْتُ عِفَّةً وَزَهَادَهْ
لَوْ تَرَانِي ذَكَرْتَ بِي ٱلْحَسَنَ ٱلْبَصْـ ـرِيَّ فِي حَالِ نُسْكِهِ أَوْ قَتَادَهْ
مِنْ خُشُوعٍ قَرَنْتُهُ بِنُحُولٍ وَٱصْفِرَارٍ مِثْلِ ٱصْفِرَارِ ٱلْجَرَادَهْ
اَلتَّسَابِيحُ فِي ذِرَاعِيَ وَٱلْمُصْـ ـحَفُ فِي لَبَّتِي مَكَانَ ٱلْقِلَادَهْ
فَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَرَىٰ طُرْفَةً تَعْـ ـجَبُ مِنْهَا مَلِيحَةً مُسْتَفَادَهْ
فَٱدْعُ بِي لَا عَدِمْتَ تَقْوِيمَ مِثْلِي وَتَفَطَّنْ لِمَوْضِعِ ٱلسَّجَّادَهْ
تَرَ أَثْراً مِنَ ٱلصَّلَاةِ بِوَجْهِي تُوقِنُ ٱلنَّفْسُ أَنَّهَا مِنْ عِبَادَهْ
لَوْ يَرَاهَا بَعْضُ ٱلْمُرَائِينَ يَوْماً لَٱشْتَرَاهَا يُعِدُّهَا لِلشَّهَادَهْ

خاطبَ الحسنُ بنُ هانئٍ أبو نُواسٍ بهٰذهِ الأبياتِ الفضلَ بنَ الربيعِ الوزيرَ ، وكانَ حبسَهُ يستتيبُهُ .

رجعَ : فهٰذهِ الآنَ حالي ، وإن كانَتْ تُستغرَبُ علىٰ أمثالي ، ترىٰ عليَّ سيما الأبرارِ ، وعلائمَ المتقينَ الأخيارِ ، السُّبحةُ في كلتا يدَيَّ ، والسِّواكُ خلفَ أُذنيَّ ، وزبيبةُ الصَّلاةِ بينَ عينَيَّ ، والدراويشُ حواليَّ ، ووجهي مِنْ نورِ العبادةِ كأنَّما دُهِنَ بالزيتِ ، وأنا مِنَ البيتِ إلى الجامعِ ومِنَ الجامعِ إلى البيتِ ، أقومُ اللياليَ إلى الأسحارِ ؛ في ذكرٍ واستغفارٍ ، وأطوفُ بالنهارِ ، علىٰ مقاماتِ آلِ البيتِ الأطهارِ ؛ ليسعفَ اللهُ رجائي ، ويَقبلَ صالحَ دعائي ، في حسنِ عودتِكُم سالمينَ ، معَ الموكبِ الشريفِ رافلينَ ، في ظلِّ الإقبالِ والسعادةِ والتشريفِ ، فهٰذا غايةُ المسؤولِ ، ونهايةُ المأمولِ .

❊

وما صدرَ عنِ السيدِ الشيخِ الفاضلِ الجليلِ عليٍّ أبي النصرِ : واتفقَ أنَّهُ

كانَ جالساً معَ بعضِ أصحابِهِ علىٰ دُكَّانٍ ، فوردَ عليهِم كتابُ سلامٍ مِنْ صاحبٍ لهُم غائبٍ ، وكانَ عندَ سفرِهِ إلىٰ طندتاءَ استعارَ برذعةً ولجاماً ، فكتبَ الشيخُ جوابَ ذٰلكَ الكتابِ ، وهوَ هٰذا :

سلامٌ ألذُّ مِنْ أكلِ البرسيمِ ، وتحيةٌ ألطفُ مِنَ الرِّبَّةِ عندَ البهيمِ ، وأشواقٌ ربيعيةٌ ، ومحبةٌ دائماً غليظيةٌ ، إلىٰ صاحبِ الطَّبيعةِ الشاخرةِ الناخرةِ ، معدنِ الأنقاطِ ، المتكلِّمِ في القماطِ ، مَنْ يعملُ للسماكِ المفرود والمُثنىٰ ، أحدُ إخوانِهِ الشيخُ عليٌّ الحسنيُّ ، بَلَّغَهُ اللهُ مِنَ الريفِ أملَهُ ، ورَدَّهُ إلى المحروسةِ علىٰ عجلةٍ ، آمينَ آمينَ ، بجاهِ دربِ التَرَّاسينَ (موضعُ فجورٍ بتلكَ الناحيةِ كدربِ القمرِ) .

أمَّا بعدُ : فقد وردَ عزيزُ جوابِكُمُ الشريفُ ، المُشتمِلِ علىٰ أنواعِ التخريفِ ، فعلمنا أنَّكُم مِنْ حظِّ الفلاحينَ في قرارٍ مكينٍ ، فحمدنا اللهَ علىٰ ذٰلكَ ، وسألناهُ أن يفتحَ لكُم أوسعَ المسالكِ ، ومَنْ عندَنا جميعَ الإخوانِ يشيرُ إلىٰ غفلتِكُم بأطرافِ البنانِ ، سيَّما أخيكم عليٍّ رضوانَ ، التائبِ بعدَ غيبتِكُم عن اليونانِ (لقبٌ للحشيشةِ اصطلحوا عليهِ) ، وكذا سيدي مصطفى السيوفيُّ ، فهوَ يخلعُ عليكُم نصفَ قياسٍ منوفيٍّ ، وكذا سيدي محمدٌ عربيةٌ ، قد أمرَ لكُم ببوظةِ الداووديَّةِ ، وكذا سيدي خضرٌ شويشٌ ، فقد بَرَّرَ لكُم في دكاكينِ الحشيشِ .

ومِنْ خصوصِ البرذعةِ واللجامِ : فقد رأيناكُم لابسيهِما في المنامِ ، فحصلَ عندَنا وسوسةٌ شيطانيةٌ ، وتَعجَّبنا في طبيعتِكُمُ الحماريةِ ، ونسألُ اللهَ القريبَ المجيبَ ، أن يعيدَكُم إلى المحروسةِ عن قريبٍ .

اذكرْ أيُّها الطالبُ قولَ الطُّغرائيِّ (١) : [من البسيط]

---

(١) انظر « ديوان الطغرائي » (ص ٣٠٣) .

حُلْوُ ٱلْفُكَاهَةِ مُرُّ ٱلْجِدِّ قَدْ مُزِجَتْ   بِشِدَّةِ ٱلْبَأْسِ مِنْهُ رِقَّةُ ٱلْغَزَلِ

وقولَ البحتريِّ [١] : [من الكامل]

اَلْجِدُّ شِيمَتُهُ وَفِيهِ فَكَاهَةٌ   سَمْحٌ وَلَا جِدٌّ لِمَنْ لَمْ يَلْعَبِ

[عودٌ لبعضِ مكاتباتِ الأميرِ]

ولنعدْ لنقلِ شيءٍ مِنْ جدِّيَّاتِ ذٰلكَ الأميرِ ؛ فمِنْ ذٰلكَ :

ما كتبَهُ مِنْ بعضِ الأمراءِ إلى الشيخِ العروسيِّ شيخِ الجامعِ الأزهرِ رحمَهُ اللهُ :

أهدي مِنَ التحيَّةِ أسناها ، ومِنَ الأثنيةِ حسناها ، إلىٰ حضرةِ شمسِ سماءِ المعارفِ ، وظلِّ الفضلِ الوارفِ ، بحرِ الكمالِ وينبوعِهِ ، ومفردِ المجدِ ومجموعِهِ ، مقتدى الأنامِ ، وشيخِ مشايخِ الإسلامِ ، أطالَ اللهُ بقاءَ حضرتِهِ ، وسرَّنا بأخبارِ صحَّتِهِ ، آمينَ .

وبعدَ لثمِ راحاتِكُم ، والتماسِ بركاتِ دعواتِكُم : أُنهي لحضرتِكُمُ البهيَّةِ ، أنِّي لمَّا تَشرَّفتُ بالمُثولِ لدى الحضرةِ السنيةِ الخديويةِ . . قمتُ عن جنابِكُم مَقامَ الاعتذارِ عن الحضورِ ، والتهنئةِ بما يَسَّرَهُ اللهُ مِنْ هٰذا الحُبورِ ، فقُوبلَ ذٰلكَ بما هوَ المأمولُ ، مِنْ حسنِ الإقبالِ والقَبولِ ، وظهرَ مِنَ الجنابِ العالي التأسُّفُ علىٰ تَوعُّكِ مِزاجِ حضرتِكُم ، والدعاءُ إلى اللهِ تعالىٰ بتعجيلِ شفائِكُم وصحَّتِكُم ، وقالَ : أرجو مِنَ الألطافِ الإلٰهيَّةِ ، والمكارمِ الربانيَّةِ ؛ أنِّي عندَ وصولي لمصرَ المحميَّةِ ، يكونُ قد زالَ عن حضرةِ الأستاذِ ما عرضَ مِنَ المرضِ ، وحصلَ مِنْ مزيدِ العافيةِ والصحَّةِ على الغرضِ ، فأحظىٰ بلقائِهِ ، وأُسَرُّ بشفائِهِ ، فبادرتُ بترقيمِهِ إشعاراً بذٰلكَ لحضرتِكُم ، واستفساراً عن حالِ

---

(١) هو لأبي تمام . انظر « ديوانه » (١٠٢/١) .

صحَّتِكُم ، ودمتُم في مَسَرَّةٍ وحسنِ حالٍ ، حليةً لأجيادِ المعالي وتاجاً لهامةِ الكمالِ .

❁ ❁ ❁

وكتبَ مولانا الأعزُّ الأكرمُ المُعظَّمُ المُفخَّمُ حفظَهُ اللهُ :

أهدي بديعَ سلامٍ تَتكفَّلُ بشرحِ تلخيصِ المَحبَّةِ مبانيهِ ، وتَتضمَّنُ بيانَ مُطوَّلِ الوجدِ والمَودَّةِ معانيهِ ، وأشواقاً يَقِلُّ البيانُ عندَ تِبيانِ أطولِها ، ويَكِلُّ البَنانُ عن إيضاحِ مُفصَّلِها ومُجمَلِها ، معَ دعاءٍ يحلو إطنابُهُ وإيجازُهُ ، وينتهي بفضلِ اللهِ إلىٰ حقيقةِ الإجابةِ مَجازُهُ .

وبعدُ : فإنَّ الداعيَ قد شرعَ منذُ مُدَّةٍ مِنَ الأيامِ ، في كتابةِ شرحِ « الأطولِ على التلخيصِ » للفاضلِ العصامِ ، غيرَ أنَّ النسخةَ التي عثرنا عليها ، ووصلَتْ يدُ الأفكارِ إليها . . رأيناها قد هدمَ التحريفُ معمورَ أبياتِها ، وأطفأَ التصحيفُ نورَ مِشكاتِها ؛ بحيثُ لا يَجِدُ الذِّهنُ لبابِ فهمِها مِفتاحاً ، ولا يرى الساري في دياجي غلطاتِها مِصباحاً ، يقولُ رائيها حينَ يجدُ معاهدَها تَغيَّرَتْ وبدا عليها الدُّثورُ : [من مجزوء المتدارك]

هَـٰذِهِ دَارُهُـمْ أَقْفَـرَتْ أَمْ زَبُورٌ مَحَتْهَا ٱلدُّهُورْ

وقد أخبرَنا غيرُ واحدٍ أنَّ عندَكُم نسخةً صحيحةً مِنْ مُخلَّفاتِ حضرةِ الأستاذِ الوالدِ ، فالمأمولُ مِنْ هِمَّتِكُم ، والمسؤولُ مِنْ حضرتِكُم : التكرُّمُ بإرسالِ تغييرِهِ مِنْ أوَّلِ الكتابِ المذكورِ ؛ ليكونَ لكُم بذٰلكَ جزيلُ الثوابِ والأجورِ ، علىٰ يدِ أخينا الشيخِ فلانٍ حاملِ هـٰذهِ التذكرةِ ، أسبغَ اللهُ عليكُم مِنَ الإحسانِ أتمَّهُ وأوفرَهُ .

❁ ❁ ❁

وكتبَ : سلامٌ يُسفِرُ عن خالصِ الودادِ ، ويُخبرُ عمَّا في الفؤادِ ، مِنْ كمالِ

المحبةِ والاتحادِ ، إلىٰ فرعِ الدوحةِ العليةِ المحمديةِ ، وثمرةِ الشجرةِ المباركةِ النبويةِ ، سلالةِ الأشرافِ السادةِ ، وصفوةِ أهلِ المجدِ والسيادةِ ، حفظَ اللهُ حضرتَهُ ، وأدامَ بهجتَهُ ومَسرَّتَهُ ، آمينَ .

وبعدُ : فإنَّ الإطنابَ في وصفِ تَشوُّقي إلىٰ حضرةِ السيِّدِ أدامَ اللهُ علاهُ ، وزانَ جِيدَ المعالي بحلاهُ . . مِنْ قبيلِ تحصيلِ الحاصلِ ، وتوضيحِ الواضحِ بغيرِ طائلٍ ، فحسبي أن أكتفيَ في هـٰذا الشأنِ بشهادةِ ذاكَ الضَّميرِ المنيرِ ؛ فإنَّهُ ينظرُ بنورِ اللهِ تعالىٰ ما يضيقُ عنه نطاقُ التعبيرِ .

وبينَما هـٰذا المُحِبُّ مشغولُ اللسانِ بالثناءِ علىٰ تلك الحضرةِ ، مشعوفُ الجَنانِ بما يَرِدُ مِنْ أخبارِ المَسرَّةِ[1] . . وردَتْ مكاتبةُ سيادتِكُم ، فشكرتُ المولىٰ علىٰ صحَّةِ سعادتِكُم ، وعلمتُ تَفضُّلَكُم علينا بالدعواتِ الخيريةِ ، في تلكَ الأماكنِ العليةِ ، وهـٰذهِ مِنَّةٌ جليلةٌ يجبُ شكرُها ، ومِنحةٌ جزيلةٌ لا يجهلُ قدرُها ، ولا بدعَ ؛ فإنَّكُم بَضعةُ النبوَّةِ ، ومعدِنُ الكرمِ والفتوةِ ، بكُم تُستمطَرُ سحائبُ البركاتِ ، وتُستفتَحُ أبوابُ الخيراتِ ، وبجَدِّكُم يُتشفَّعُ في يومِ المحشرِ ، وبأسلافِكُمُ الأماجدِ يُستسقىٰ مِنَ الكوثرِ ، فلا عدمنا تلكَ الأخلاقَ العليَّةَ ، ولا حُرِمنا هـٰذهِ المكارمَ الهاشميةَ .

ثمَّ إنَّنِي ببركةِ دعواتِكُم أحمدُ اللهَ على الصحَّةِ والسلامةِ ، وأسأَلُهُ أن يديمَ علينا وعليكُم إنعامَهُ ، وقد بادرتُ بتحريرِ خطابي هـٰذا وأنا أحسدُهُ علىٰ وصولِهِ لذاكَ النادي المباركِ قبلي ، وأودُّ لو أنِّي أكونُ مكانَهُ لأقضيَ مِنْ مشاهدةِ ذاكَ المحيا أملي ، وغايةُ رجائي ألَّا تَنسَونا ممَّا عودتُمونا مِنَ الأدعيةِ الصالحةِ ، وتلاوةِ الفاتحةِ ، بينَ يدَيْ حضرةِ سيدِ الأنبياءِ المكرمينَ ، والرحمةِ العامَّةِ للعالَمينَ ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ

---

(١) الشعف : شدة الحب ، فأحرق فؤاده ، وقيل : أمرضه .

وجميعِ المنتمينَ إليهِ ، ثمَّ في باقي ما تَتردَّدونَ عليهِ مِنَ الأماكنِ الطَّاهرةِ ، والمواطنِ المُشرَّفةِ الباهرةِ ، التي لا يَمتدُّ كفُّ الثريَّا إلَّا للثمِ ترابِها ، ولا ينحني ظهرُ الهلالِ إلَّا لتقبيلِ أعتابِها ، وكلُّ ما يلزمُ لحضرتِكُم مِنْ هٰذا الطرفِ رهينُ الإشارةِ والإعلامِ ، ومنِّي لناديكُمُ الشريفِ مزيدُ التحيةِ والسلامِ .

❁ ❁ ❁

وكتبَ مِنَ الجنابِ الخديويِّ أيامَ نيابتِهِ عن عمِّهِ المرحومِ سعيدٍ باشا صورةَ فرمانٍ :

صدرَ هٰذا الفرمانُ الواجبُ طاعتُهُ ، اللازمُ امتثالُهُ ومتابعتُهُ ، خطاباً إلىٰ كافَّةِ القضاةِ والحكامِ ، والعلماءِ الأعلامِ ، والمشايخِ والعمدِ بالأقطارِ السودانيَّةِ ، مِنَ الحكومةِ العليَّةِ المصريةِ .

ليكنْ معلوماً لديكُم ، بوصولِ هٰذا إليكم ؛ أنَّهُ قدِ اقتضَتِ الإرادةُ السنيَّةُ الخديويَّةُ ؛ بنصب فلانٍ حكمداراً علىٰ عمومِ الأقاليمِ السودانيَّةِ ؛ لِمَا هوَ معلومٌ فيهِ مِنَ الصَّداقةِ والأهليةِ ، وحسنِ الرويةِ والإدارةِ السياسيةِ ، فينبغي أن تطيعوا أحكامَهُ ، وتقابلوا بالسمعِ والطَّاعةِ كلامَهُ ، وتُنفِّذوا لأوامرِهِ ونواهيهِ ، وتمتثلوا لِمَا يُبدِيهِ ممَّا يوافقُ الأوامرَ العليَّةَ ، والأصولَ والقوانينَ المرعيَّةَ ، وبادروا بأداءِ كافَّةِ المطاليبِ الميريةِ في أوانِها ، وعدمِ تأخيرِها عن أوقاتِها ؛ لتفوزوا بزيادةِ الرضا عليكُم ، وحسنِ النظرِ والالتفاتِ إليكُم .

وأنت أيُّها الحكمدارُ ، عليكَ باتباعِ التقوىٰ ؛ فإنَّها لحصولِ كلِّ خيرٍ هيَ السببُ الأقوىٰ ، وعاملِ الناسَ بالعدلِ والإنصافِ ، واجتنبِ الجورَ والاعتسافَ ، واستعملِ الرشدَ والسَّدادَ ، وابذلْ غايةَ الاجتهادِ ؛ في معموريةِ البلادِ ، ورفاهيةِ العبادِ ، ونجازِ الأشغالِ الميريةِ ، وحسنِ إدارةِ الحكمداريةِ ،

ورؤيةِ جميعِ المصالحِ ، علىٰ مقتضى الأوامرِ والأصولِ والقوانينِ واللوائحِ ، والاعتناءِ براحةِ البريةِ ، وحسنِ سياسةِ الرعيةِ ؛ فإنَّ الخلقَ في أيدي الحكامِ وديعةُ اللهِ سبحانَهُ ؛ فمَنْ أكرمَهُم . . أكرمَهُ ، ومَنْ أهانَهُم . . أهانَهُ ، فاعلمْ ذٰلكَ ، واتبعْ أحسنَ المسالكِ ؛ لتفوزَ بحسنِ حالِكَ ومآلِكَ ، وبلوغِ غايةِ آمالِكَ .

تحريراً في كذا سنةَ ثمانٍ وسبعينَ ومئتَينِ وألفٍ ، مِنْ هجرةِ المبعوثِ بأحسنِ وصفٍ ، عليهِ أكملُ الصَّلاةِ وأتمُّ السلامِ ، ما لاحَ بدرُ تمامٍ وفاحَ مسكُ ختامٍ .

وكتبَ عن بعضِ الأحبَّةِ في جوابِ كتابٍ بوصولِ هديةٍ :

إنَّ أبدعَ ما رَقَمَهُ بَنانُ البيانِ ، وأبرعَ ما نظمَهُ لسانُ الافتتانِ ، وأبهرَ ما سمعَتْهُ آذانُ الأذهانِ ، وأزهرَ ما طالعَتْهُ عيونُ الاستحسانِ . . سلامٌ يفوحُ طيبُ الودِّ مِنْ نفحِ عبيرِهِ ، ويلوحُ نشرُ الوجدِ مِنْ طيِّ تعبيرِهِ ، وثناءٌ يجاري نسماتِ الصَّبا بلطفِ الشمائلِ ، ويباري زهراتِ الرُّبىٰ بظَرْفِ الغلائلِ ، معَ شوقٍ يَقصُرُ عن وصفِهِ لسانُ التقريرِ ، ويَضيقُ عن نصفِهِ نطاقُ التحريرِ ، إلىٰ حضرةِ جمالِ الدِّينِ والدنيا ، وتاجِ هامةِ المجدِ والعليا ، الفائزِ مِنَ الشرفِ الأعلىٰ بالقَدَحِ المُعلَّىٰ ، لا زالَتْ ثُغورُ السرورِ باسمةً إليهِ ، وظلالُ الإقبالِ دائمةً عليهِ .

وبعدُ : فما روضةٌ رعَتِ النسائمُ زواهرَ أغصانِها ، ودوحةٌ وَشَّحَتِ الغمائمُ بواهرَ أفنانِها ، فباحَتْ فيها الحمائمُ بترديدِ أشجانِها ، وصدحَتِ البلابلُ بتغريدِ ألحانِها ، واختالَتِ الأشجارُ مِنْ دُرِّ زهرِها وفضةِ غدرانِها ، بينَ حلي خلاخلِها وتيجانِها . . بأبهىٰ منظراً ، ولا أشهىٰ خبراً ومخبراً ، ولا ألطفَ

موقعاً ، ولا أظرفَ مسمعاً ؛ مِنْ كتابٍ استكملتُ أنواعَ المَسرَّةِ بورودِهِ ، واقتطفتُ في حدائقِ المودةِ أزهارَ ورودِهِ ، قد جرىٰ بهِ ماءُ الفصاحةِ غيرَ آسنٍ ، وجمعَ أشتاتَ الملاحةِ والمحاسنِ ، مِنْ كلِّ لفظٍ أحلىٰ مِنَ الشهدِ ، وألذَّ مِنْ طيبِ الكَرَىٰ بعدَ طولِ السُّهْدِ ، وقد وصفَ بعضَ ما أكابدُهُ مِنْ آلامِ الفراقِ ، ولواعجِ الأشواقِ ، فكأنَّما عَبَّرَ بهِ عن لسانِ حالي ، وإن قصرَ دونَهُ لسانُ قالي ، ووصلَ معَهُ ما تَفضَّلتُم بإهدائِهِ ، وتَكرَّمتُم بإسدائِهِ ، ممَّا هوَ أثرُ الودادِ ، وثمرةُ محبةِ الفؤادِ .

فاللهُ تعالىٰ يُمتِّعُ بقربِكُم ، قلباً يَتقلَّبُ في حُبِّكُم ، ويُسِرُّ بدوامِ بقائِكُم ، روحاً ترتاحُ لطيبِ لقائِكُم ، ثمَّ الرجا ألَّا تَنسَونا مِنْ مراسلاتِ الودادِ ، التي يَطمئنُّ بها الفؤادُ ، فذٰلكَ غايةُ المأمولِ ، ونهايةُ المسؤولِ .

❁ ❁

وكتبَ رسالةً ودادية تَتضمَّنُ التهنئةَ بالعيدِ :

وصلنا إلى المحروسةِ بحمدِ اللهِ تعالىٰ وبركاتِ تَوجُّهاتِ سعادتِكُم ، وحسنِ أنظارِ سيادتِكُم ، ونحنُ نتلو مِنْ محامدِ إفضالِكُم ما يُخجِلُ الدررَ في أسلاكِها ، ونَبُثُّ مِنْ محاسنِ خلالِكُم ما يزري بالدراري في أفلاكِها ، وقد صدرَتْ هٰذهِ المكاتبةُ عن يدٍ مُمتدَّةٍ إلى اللهِ تعالىٰ في الدعاءِ بدوامِ معاليكُم ، وناظرٍ لا ينتظرُ إلَّا لِمَا يَردُ مِنْ نحوِ ناديكُم ، وقلبٍ لا يَتقلَّبُ إلَّا في محبةِ ذاكَ الجنابِ العالي ، وخاطرٍ لا يَخطُرُ فيهِ غيرُ تَذكُّرِ تلكَ الهممِ العوالي ، فعسىٰ تنوبُ عنِّي هٰذهِ الرقيمةُ فيما أحسدُها عليهِ مِنَ المُثولِ بذٰلكَ النادي ، والوصولِ إلىٰ لثمِ تلكَ الأيادي الباهرةِ الأيادي ، والتهنئةِ بالعيدِ السعيدِ المُترقَّبِ قُرْبُ إقبالِهِ ، أبقى اللهُ سيدي إلىٰ آلافِ أمثالِهِ ، مُمتَّعاً بدوامِ قَبولِهِ وإقبالِهِ ، رافلاً في حُلَلِ فضلِهِ وكمالِهِ .

ثـمَّ إن لـزمَ لسعـادتِكُـم خدمةٌ بهـٰذا الطـرفِ . . فـإنَّ لنـا فـي قضـائِهـا غـايـةَ الشرفِ ، والأمرُ أمرُكُم .

وكتبَ تهنئةً بمولودٍ :

سلامٌ علىٰ سيدي الأعزِّ سَلَّمَهُ اللهُ وأسعدَهُ ، وأكثرَ بفضلِهِ عددَهُ ، وحفظَ لهُ ما وهبَ مِنْ نعمِهِ ، وخَوَّلَهُ المزيدَ مِنْ فيضِ كرمِهِ .

وقد حظيتُ بكتابِهِ ، المُبشِّرِ والحمدُ للهِ بصحةِ جنابِهِ ، واستقامةِ الأحوالِ لديهِ ، وترادفِ نِعَمِ اللهِ سبحانَهُ عليهِ ، وما منحَهُ مِنَ المولودِ السعيدِ القادمِ عليهِ ، إن شاءَ اللهُ بالرزقِ الجديدِ ، والعمرِ المزيدِ ، فاستوفيتُ حظِّي مِنْ هـٰذهِ البشائرِ موفىً موفراً ، ووجبَ عليَّ الشكرُ للهِ سبحانَهُ وتعالىٰ مضاعفاً مُكرَّراً ، وابتهلتُ إليهِ تبارَكَ خيرُهُ ، ولا إلـٰهَ غيرُهُ ؛ في أن يدومَ علىٰ سيِّدي مِنْ نعماهُ ، ويزيدَهُ مِنْ وافرِ عطاياهُ ، ما يديمُ سرورَهُ وسروري لحضرتِهِ ، علىٰ حَسَبِ حظِّي مِنْ محبتِهِ ، واندراجي في جملتِهِ ، وأن يبارِكَ علىٰ هـٰذا النجلِ النبيلِ ، والنسلِ الأصيلِ ، ويَمنحَهُ العمرَ الطويلَ ، والخيرَ الجزيلَ ، ويبقيَ سيدي أدامَ اللهُ علاءَهُ ، وأطالَ بقاءَهُ ، حتىٰ يرى الكثيرَ مِنْ أولادِهِ ، والجمَّ الغفيرَ مِنْ أحفادِهِ ، مُمتَّعاً بالسلامةِ ، وكمالِ الكرامةِ .

والمَرجوُّ مِنْ سيِّدي أدامَ اللهُ سرورَهُ ، ويَسَّرَ أمورَهُ . . أن يواصلَ تعريفي بما يَتجدَّدُ مِنْ سائرِ أخبارِهِ ، لأَشرَكَهُ فيما يقتضيهِ ، وإعلامي بما عساهُ يَسنحُ مِنْ هـٰذا الطرفِ مِنْ أوطارِهِ ؛ لأفوزَ بالانتهاءِ لغايةِ استطاعتي فيهِ ، مُوفَّقاً إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

وكتبَ في تعزيةٍ :

يَعِزُّ عليَّ أن أكاتبَ سيِّدي مُعزِّياً ، أو أُلِمَّ بهِ في مُلِمَّةٍ مُسلِّياً ، ولـٰكنَّهُ أمرُ اللهِ الذي لا يُقابَلُ بغيرِ التسليمِ ، وقضاؤُهُ الذي ليسَ لهُ عدَّةٌ سوى الصَّبرِ الكريمِ ، وقد علمَ مولايَ أجملَ اللهُ صبرَهُ ، ولا أَراهُ مِنْ بعدُ إلَّا ما سَرَّهُ وشرحَ صدرَهُ : أنَّ اللهَ جلَّ ثناؤُهُ ، وتباركَتْ آلاؤُهُ ، إذا امتحنَ عبدَهُ فصبرَ . . آجرَهُ وعَوَّضَهُ بكرمِهِ ، كما أنَّهُ إذا أنعمَ عليهِ فشكرَ . . زادَهُ وضاعفَ لهُ مِنْ نعمِهِ .

وقد عُرِفَ مِنْ حالِ سيدي في الشكرِ على السَّرَّاءِ ما يَستوجِبُ المزيدَ منها والظنُّ بحزمِهِ وعلمِهِ أن يكونَ حالُهُ في الصَّبرِ على الضَّرَّاءِ يَستجلِبُ الأجرَ عليها والتعويضَ عنها .

ثمَّ نحنُ إذا أمعنَّا في التفكُّرِ ، ووفَّينا هـٰذا الأمرَ حَقَّهُ مِنَ التدبُّرِ . . رأينا أنَّنا ولو تأخَّرَتْ آجالُنا ، وطالَتْ آمالُنا . . لسنا في دارِ المُقامةِ ، وقرارِ الكرامةِ ؛ حتىٰ نحزنَ علىٰ مَنْ فارقَها وزايلَها ، ولـٰكنَّا في سبيلِ سفرٍ ، ودارِ كدرٍ ، يَحِقُّ واللهِ أن نَغبِطَ مَنْ رحلَ عنها وزايلَ غوائلَها ، فأجملُنا حالاً أسرعُنا ارتحالاً ، وعلىٰ كلِّ حالٍ الجزعُ لا ينفعُ وإن أغضبَ اللهَ سبحانَهُ ، والصَّبرُ لا يَضُرُّ وإن جلبَ رضوانَهُ وإحسانَهُ ، واللهُ يُسهِّلُ لسيدي سبيلَ الصَّبرِ ، وتحصيلَ الأجرِ ، ويَعصِمُهُ مِنْ شواردِ الوزرِ ، ومكايدِ الدَّهرِ ، ويَتولَّى الماضيَ بالرحمةِ والإنعامِ ، والبرِّ والإكرامِ ، ويُحسِنَ مثواهُ في دارِ السلامِ ، ويُنعِمَ لهُ عندَ نزولِ الحِمامِ ، وانتهاءِ الأيامِ ، بحسنِ الختامِ .

❊ ❊ ❊

جوابٌ عن كتابِ عتابٍ :

وردَ كتابُ سيِّدي أرشدَهُ اللهُ وأسعدَهُ ، ولا زالَ مساعدَهُ ومُسعِدَهُ ؛ يشكو

مِنْ جفائي ، وقِلَّةِ وفائي ، ما بسطَ فيهِ لسانَهُ ، وأطالَ بهِ أيَّـدَهُ اللهُ بيانَهُ ، وأدَّىٰ حَقَّهُ مِنَ البلاغةِ أداءَ مُتفنِّنٍ مُتمكِّنٍ ، وذهبَ فيهِ مِنْ سحرِ الكلامِ كلَّ مذهبٍ مُمكِنٍ وغيرِ مُمكِنٍ ، حتىٰ إنَّني لقُوَّةِ تخييلِهِ وتصويرِهِ ، وفَرْطِ براعتِهِ ـ أيَّـدَهُ اللهُ ـ في حسنِ تعبيرِهِ . . كدتُ أتوهَّمُ أنِّي فعلتُ ما لم أفعلْ مِنَ الذنبِ ، وأنَّني استوجبتُ ما أوردَهُ ـ أعزَّه اللهُ ـ مِنَ العَتْبِ .

فلمَّا لفحَني حَرُّ المعاتبةِ ، وخشنَ عليَّ ملمسُ المخاطبةِ ، وأخذَ منِّي اللومُ مأخذَهُ إيلاماً ، وبلغَ بي مبلغَهُ إنكاراً وإعظاماً . . أردتُ أن آخذَ لنفسي بالحُجَّةِ ، والدلالةِ علىٰ سواءِ المَحَجَّةِ ، لولا أنِّي رجعتُ فذكرتُ أنَّ مولايَ أعزَّهُ اللهُ وإن ركبَ مِنَ المغالطةِ في هٰذهِ المكاتبةِ خلافَ رأيِهِ ، وسلكَ مِنَ المواربةِ في هٰذهِ المعاتبةِ خلافَ مذهبِهِ . . إلَّا أنَّهُ بجليَّةِ الأمرِ أعرفُ وأعلمُ ، ومِنْ أن يلتبسَ عليهِ الحالُ بالمُحالِ أحزمُ وأحكمُ .

وإنَّما حملَهُ علىٰ هٰذهِ الطَّريقةِ ، معَ كمالِ علمِهِ ومعرفتِهِ بالحقيقةِ . . قصدُ المبالغةِ في تبرئةِ ناحيتِهِ ، ودفعِ اللومِ علىٰ أن يُلِمَّ بعليِّ ساحتِهِ ، وقَدَّرَ أنَّهُ إن خَلَصَ مِنْ هٰذهِ القضيةِ كفافاً لا لهُ ولا عليهِ . . فقد ربحَ السلامةَ بما عساهُ أن ينجرَّ مِنَ الملامةِ إليهِ ، فإن كانَ هٰذا مبلغَ ما توخَّاهُ ، مِنْ ذٰلكَ المنحى الذي نحاه . . فأنا لا أقنعُ لهُ مِنَ النصرِ ، بذٰلك القدر النزرِ ، بل أحبُّ أن تكونَ الغلبةُ لهُ كاملةً غيرَ منتقصةٍ ، ونصرتُهُ حرسَهُ اللهُ مُهنَّأَةً غيرَ مُنغَّصةٍ ، فأنا أخاصمُ نفسي مِنْ جهتِهِ ، وأعارضُها بمحبتِهِ ، وأُلزِمُها أن تَنزِلَ علىٰ حكمِهِ ، وتَنزِعَ إلىٰ سلمِهِ ، وأعترفُ لهُ بجميعِ ما أجملَهُ وفَصَّلَهُ اعترافاً يزيلُ الشقاقَ ، ويَرُدُّ الوفاقَ .

ثمَّ أسألُهُ أن يَعفوَ ويَصفحَ ، عارفاً بأنَّهُ إذا ملكَ . . أسجحَ ، وإذا قَدَرَ . . عفا وأصلحَ ؛ فإن فعلَ ذٰلكَ . . فقد فازَ معَ لذَّةِ الظَّفَرِ والنصرِ ، بما يرجوهُ

علىٰ العفوِ مِنْ حسنِ الثوابِ والأجرِ ، وفزتُ أنا في الجملةِ بتحصيلِ رضاهُ ، وعدمِ الخروجِ عن موافقةِ هواهُ ، وانفصلنا عنِ القضيةِ وكلُّنا فائزٌ بسهمِهِ ، راضٍ بما حصلَ في قَسْمِهِ .

وإن أبىٰ إلَّا أن يناقشَني الحسابَ ، ويَتمادىٰ حرسَهُ اللهُ علىٰ ذٰلكَ العتابِ . . فلن يعدمَ داعيهِ في مَعرِضِ الجدلِ شبهةً إذا لم يجدْ حُجَّةً ، وقد جاءَ في المثلِ : لا تَعدَمُ الخَرقاءُ حيلةً ، وما أظنُّهُ يَراني أقلَّ مِنْ هٰذهِ درجةً ، فليخترْ لنفسِهِ ما يَراهُ أقربَ إلى الصَّوابِ ، وليتفضَّلْ علىٰ داعيهِ ومُحِبِّهِ وراجيهِ بالجوابِ ، مُوفَّقاً إن شاءَ اللهُ تعالىٰ ، آمينَ ، يا ربَّ العالمينَ .

❁ ❁ ❁

وكتبَ تقريظاً لصحيفةِ الوقائعِ المصريَّةِ حينَ أصلحَ أمرَها بعدَ سابقِ اختلالٍ اعتراها :

لا ريبَ أنَّ كلَّ مَنْ عرفَ التمدُّنَ ، وشمَّ عَرْفَ التفنُّنِ ، وأخذَ بنصيبٍ مِنَ الفهمِ والتفطُّنِ . . كانَ أحبَّ شيءٍ إليهِ ، وأوجبَ أمرٍ لديهِ ؛ أن يكونَ مُطَّلعاً علىٰ وقائعِ مصرِهِ ، عارفاً بما تَجدَّدَ بينَ بني عصرِهِ ؛ مِنْ حوادثِ الزمانِ ، وعجائبِ عالمِ الإمكانِ ، وما هوَ صائرٌ في الممالكِ المُتمدِّنةِ ، ودائرٌ بينَ الملوكِ المُتمكِّنةِ ، وما هوَ جارٍ بينَ الدُّولِ المتفقةِ ، والمللِ المُتفرِّقةِ ؛ مِنْ عهودٍ تُجدَّدُ ، وشروطٍ تُؤكَّدُ ، وآثارٍ تُغيَّرُ ، وصعابٍ تُيسَّرُ ، وما بينَهُم مِنْ نزاعٍ ومقاتلةٍ ، وخداعٍ ومخاتلةٍ ، وسكونٍ وهدنةٍ ، وحركةٍ وفتنةٍ ، وما حدثَ في أحوالِ التجارةِ ، وأمورِ السياسةِ والإدارةِ ، وما أبدتْهُ فحولُ العقلاءِ في مجامعِها ، وما استبدأَتْهُ عقولُ النبلاءِ مِنْ بدائعِها ، وما ظهرَ مِنْ روائعِ الصَّنائعِ وعوارفِ المعارفِ ، وطرائفِ اللطائفِ ، فتتسعَ دائرةُ اطِّلاعِهِ ، ويَمتدَّ إلى المعالي طويلُ باعِهِ ، ويَعرِفَ العوائدَ مذمومَها وممدوحَها ، ويميزَ الآراءَ

راجحَها ومرجوحَها ، فيجتنيَ ثمراتِ الأفكارِ ، ويقتنيَ محاسنَ الآثارِ ، ويتمتعَ وهوَ مستريحٌ بنتيجةِ ما تَعِبَ فيهِ غيرُهُ الليلَ والنهارَ ، ويكونَ كأنَّما طافَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وجَرَّبَ جميعَ الأمورِ ودرىٰ عواقبَها ، فلا تكادُ تَنزلُ بساحتِهِ حادثةٌ إلَّا وقد أحاطَ علمُهُ بنظيرِها ، وعرفَ غايةَ مصيرِها ، وكيفَ يفتتحُ بابَ النجاحِ في حسنِ تدبيرِها ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ المنافعِ الجمَّةِ ، وغُرَرِ المحاسنِ المُهِمَّةِ ، التي يَقصُرُ عن حدِّها اللسانُ ، ويَقصُرُ في عدِّها البيانُ .

ولا مريةَ في أنَّ صحفَ الأخبارِ هيَ الحافلةُ بهٰذهِ المزايا ، الكافلةُ باستخراجِ فرائدِ الفوائدِ مِنْ خبايا الزوايا ، فهيَ جُهينةُ الأخبارِ ، وخزينةُ ذخائرِ الأفكارِ ، وصَيْقَلُ الأذهانِ ، ومِرآةُ حوادثِ الزمانِ ، وهيَ الجليسُ الذي تُعجِبُ نوادرُهُ ، والأنيسُ الذي يُطرِبُ حديثُهُ مَنْ يُسامِرُهُ ، والخليلُ الذي لا يسترُ منكَ أمراً ، ولا يخبأُ عنك خَبراً ولا خُبْراً ، والنديمُ الذي لا تُخافُ عربدتُهُ ، والصَّاحبُ الذي تَسُرُّكَ مَودَّتُهُ ، وهيَ السائحُ الذي يطوفُ البلادَ ، ويأتيكَ بأخبارِ العبادِ ، ويُعرِّفُكَ أحوالَ زمانِكَ ، وأنتَ لا تَبرحُ مِنْ مكانِكَ .

ثمَّ مؤنتُهُ هينةٌ ، ومعونتُهُ بينةٌ ، تَنتفِعُ منهُ وتستفيدُ ، ولا تَصرفُ عليهِ في العامِ غيرَ شيءٍ زهيدٍ ، فالنُّجباءُ مِنَ الناسِ لا يَفتُرونَ عن هٰذهِ اللَّطائفِ ، ولا يَفتُرونَ مِنْ مطالعةِ تلكَ الصَّحائفِ .

وقد كانَتْ صُحُفُ الوقائعِ المصريةِ ، في الممالكِ الإسلاميةِ ؛ مِنَ الصُّحفِ الأُولى ، الراقيةِ مِنْ مراتبِ الإجادةِ والإفادةِ إلى الدرجةِ الأُولىٰ ، ثمَّ عَدَتْ عليها عوادي الزمانِ ، فبقيَتْ في حضيضِ الإهمالِ تحتَ ذيلِ الهجرانِ ، حتىٰ نَسَجَتْ عليها عناكبُ النِّسيانِ ، إلىٰ أن أعادَها معيدُ رسومِ المعارفِ بعدَ اندراسِها ، وباني بيوتِ المعالي علىٰ مُحكَمِ أساسِها ؛ بدرُ

فلكِ الحكومةِ المصريةِ وشمسُ سمائِها الماحي بأنوارِ هِمَّتِهِ السنيةِ حنادسَ ظلمائِها ، المقتدي بوالدِهِ الماجدِ وجَدِّهِ الكريمِ سميِّ سيدِنا إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ ، أبقاهُ اللهُ ذُخراً للفضلِ وأهلِهِ ، ولا بَرِحَتْ مصرُ مُعطَّرةَ الأرجاءِ بأريجِ عدلِهِ .

إلَّا أنَّ الصَّحيفةَ المذكورةَ لم تَعُدْ في النشأةِ الآخرةِ إلىٰ حالِها الأوليةِ ، حتىٰ لقد بقيَتْ مُدَّةً مِنَ الزمنِ خاليةً عنِ الأخبارِ الأجنبيةِ ، وكثيرٍ مِنَ الحوادثِ الداخليةِ ، وتاللهِ ؛ لقد كنَّا ننظرُ إليها نظرَ المُتأسِّفِ ، وننتظرُ إصلاحَها انتظارَ المُتلهِّفِ ، ونراها بحالٍ عليلٍ ، كلُّ مَنْ رنا إليهِ رثىٰ إليهِ ، وكلَّما أبصرَهُ أهلُهُ . . تَمنَّوا أن يُقضىٰ لهُ الشفاءُ أو يُقضىٰ عليهِ ، ولمَّا كانَ ما بها مِنْ تلكَ الحالةِ علىٰ ضدِّ المقاصدِ العليَّةِ الداوريةِ ، ولم تزلِ العنايةُ السنيةُ مُنعطِفةً لتقدُّمِ أحوالِ هٰذهِ الديارِ المصريةِ ، وكانَ ممَّنْ يَعلَمُ ذٰلكَ حقَّ يقينِهِ ، الأميرُ الجليلُ الذي لا يسمحُ الزمانُ بقرينِهِ ، العَلَمُ المفردُ في العلمِ والأدبِ ومعالي الهممِ ، البارعُ المُتقِنُ المُتفنِّنُ في لغةِ العربِ والتركِ والعجمِ ، حضرةُ أحمدَ بيكْ خيري مكتوبي الجنابِ الداوريِّ . . اهتمَّ بتحسينِ هٰذهِ الصَّحيفةِ وإصلاحِها ، وأشارَ إلىٰ مأمورِها بما يكونُ فيهِ حسنُ نجاحِها ، وساعدَ علىٰ إنفاذِ هٰذهِ النيَّةِ السنيةِ صاحبُ المعارفِ الباهرةِ ، والأفكارِ الزاهرةِ ، والهِمَمِ العليَّةِ ، حضرةُ محمدٍ شريفٍ باشا ، ناظرُ الأمورِ الداخليةِ والخارجيةِ ، والمدارسِ المصريةِ ، فعادَتْ كما بدتْ وأحسنَ بهِمَّةِ المُشارِ إليهِما ، وغدَتْ بلسانِها الفصيحِ تُثني على الجنابِ الأكرمِ الخديويِّ ثمَّ عليهِما .

وناهيكَ بإزالةِ ما كانَ في وجهِها مِنَ الخطِّ الثقيلِ ، واستبدالِهِ بما تراهُ الآنَ مِنَ الخطِّ الجميلِ ، الذي صارَ في مطلعِها براعةُ استهلالٍ ؛ لِمَا قدِ انتقلَتْ إليهِ مِنْ لطفِ الأسلوبِ وحسنِ الأحوالِ ، فوجبَ علىٰ أهلِ الوطنِ العزيزِ ،

وأصحابِ المعارفِ والتمييزِ . . أن يشكروا فضلَ هـٰذهِ الهِمَمِ الخيريةِ ، بعدَ خيرِ الدعاءِ للحضرةِ الداوريةِ ؛ فإنَّها الأصلُ الأصيلُ في الإصلاحِ ، والمرشدُ الدليلُ إلىٰ سبيلِ النجاحِ .

ونرجو مِنْ مُحرِّرِ هـٰذهِ الصَّحيفةِ ومأمورِها ، والقائمينَ بإدارةِ أمورِها . . ألَّا تزالَ راقيةً في مدارجِ الكمالِ ، رافلةً في حُلَلِ الحسنِ متحليةً بحَلْيِ الجمالِ ، فائزةً بسلوكِ جادَّةِ الإجادةِ ، حائزةً براعةَ العبارةِ وكثرةَ الإفادةِ ؛ بحيثُ تكونُ حلاوةُ مبانيها ، وطلاوةُ معانيها ، ولطفُ أساليبِها ، وظَرْفُ تراكيبِها . . أُنموذجاً لِمَنْ يَتعلَّمُ حسنَ التعبيرِ والتقريرِ ، ومثالاً يقتدي بهِ مَنْ يرومُ تحبيرَ التحريرِ ، معَ استيفاءِ الأخبارِ الداخليةِ ، وما يلزمُ مِنَ الحوادثِ الأجنبيةِ ، وإنباءِ الإخوانِ ؛ مِنْ أبناءِ الأوطانِ ، بما يعودُ عليهِم نفعُهُ ، ويعظمُ لديهِم وقعُهُ ، وإرشادِهِم لِمَا يفيدُهُم مزيدَ التقدُّمِ في التمدُّنِ ، وتنبيهِهِم علىٰ ما يَقبُحُ مِنَ العوائدِ وما يَحسُنُ ، وإنَّما قلتُ ما قلتُ وأكثرتُ في هـٰذا الرجا وطَوَّلتُ ؛ لأنَّ في مأموري هـٰذهِ الصَّحيفةِ أهليةً لِمَا أمَّلتُ .

والمأمولُ مِنْ سُكَّانِ الدِّيارِ المصريةِ ، ولا سيَّما أهلِ هـٰذهِ الحاضرةِ البهيةِ . . أن يُقبِلوا علىٰ صحائفِ الوقائعِ ويلتفتوا إليها ، ويرغبوا في مطالعتِها ويَحرِصوا عليها ، ويتبعوا ما يُنبَّهونَ عليهِ مِنَ الأمورِ النافعةِ والعاداتِ الحسنةِ ؛ ليكونوا مِنَ الذينَ يستمعونَ القولَ فيتبعونَ أحسنَهُ .

أليسَ هـٰذا أَولىٰ مِنَ الأمورِ العبثيةِ ؟! كالعكوفِ على الملاهي وسماعِ القصصِ الخرافيةِ ؛ مثلَ ما اشتَهرَ مِنْ قصةِ سيفِ بنِ ذي يزنٍ ، وحكايةِ عنترةَ والظاهرِ وإبراهيمَ بنِ حسنٍ ، وأمثالِ ذٰلكَ مِنَ الحكاياتِ التي أكثرُها أكاذيبُ وتمويهاتٌ .

وأسوأُ مِنْ ذٰلكَ حالاً قومٌ ينتدبونَ للمشاجرةِ فيما شجرَ بينَ الصَّحابةِ ،

ويتجاذبونَ اختلافَ الخلافِ فيما ينسبونَ لبعضِ هٰذهِ العصابةِ مِنَ الخطأ والإصابةِ !! علىٰ أنَّ بعضَهُم لا يعرفُ وجهَ ما يخوضُ فيهِ ، ولا يدري على الحقيقةِ كُنْهَ ما يخرجُ مِنْ فيهِ ، وإنَّما هوَ تقليدٌ بلا دليلٍ ، وخبطٌ علىٰ غيرِ سبيلٍ ، لا سيَّما والتواريخُ مضطربةُ الأقوالِ ، علىٰ حَسَبِ اختلافِ الأغراضِ والأحوالِ ، ولا ثمرةَ للخلافِ ، ولم نكنْ حاضري المَصافِّ ، فيا ليتَ شعري !! أيُّ معنىً في هٰذا العناءِ الباطلِ ؟! وأيُّ طائلٍ وقد نهانا عنِ الخوضِ في ذٰلكَ أكابرُ العلماءِ الأفاضلِ ؟! وهل ذٰلكَ لزعمِ مثوبةٍ أخرويَّةٍ ، أم لتوهُّمِ فائدةٍ دنيويةٍ ؟!

إن كانَتِ الأَولىٰ . . فعندَنا ما هوَ أَولىٰ ؛ مثلُ دراسةِ كتابِ اللهِ القديمِ ، وكلامِ نبيهِ الكريمِ ، عليهِ أفضلُ الصَّلاةِ والتسليمِ ، وعلىٰ أهلِ بيتِهِ الطَّيبينَ الأطهارِ ، وصحابتِهِ الخيرةِ الأبرارِ ، ومثلُ تَعلُّمِ أصولِ الدِّينِ وعقائدِهِ ، والاشتغالِ بمعرفةِ آدابِهِ الشريفةِ وقواعدِهِ ، إلىٰ غيرِ ذٰلكَ مِنَ الأعمالِ الفاخرةِ ، الجالبةِ خيرَي الدنيا والآخرةِ .

وإن كانَتِ العِلَّةُ الحاملةُ حصولَ الثمرةِ العاجلةِ . . فثَمَّ مسالكُ أقربُ لذٰلكَ ؛ كاجتهادِ الإنسانِ في نحوِ تجارتِهِ [وزراعتِهِ] ، واهتمامِهِ بازديادِ براعتِهِ في صناعتِهِ ، والتوسُّلِ إلىٰ توسيعِ دائرةِ المدنيَّةِ ، بالجِدِّ والجهدِ في الفنونِ والمعارفِ الإنسانيَّةِ ، وعقدِ الشركاتِ في الأمورِ النافعةِ ، والاستعانةِ باجتماعِ الأيدي على اجتناءِ ثمراتِ الربحِ اليانعةِ ؛ فإنَّهُ يَتهيَّأُ للاثنَينِ ما ليسَ للواحدِ بهِ استطاعةٌ ، وحسبُكَ بما وردَ : « يَدُ ٱللهِ مَعَ ٱلْجَمَاعَةِ »(١) .

وبالجملةِ : فإنَّ في الشركةِ مِنْ عظيمِ الخيرِ والبركةِ ما تشهدُ بهِ العِيانُ ، ولا حُجَّةَ أكبرُ مِنَ العِيانِ ، ألا ترىٰ إلىٰ هٰذهِ الشركةِ المعنونةِ بالقومبانيةِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٦) عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه .

العزيزيةِ المصريةِ ، المُؤسَّسةِ في ظلِّ الحضرةِ الملكيةِ بحسنِ الهِمَمِ العليةِ الداوريةِ ؛ كيفَ نجحَتْ أسبابُها ، وانتفعَتْ بفوائدِها أربابُها ، وسلكَتْ علىٰ أحسنِ سبيلٍ ، في البحرِ المِلْحِ وفي نهرِ النيلِ ، وكيفَ صارَتْ عوناً حسناً على التجارةِ والسياحةِ وتسهيلِ طريقِ الحُجَّاجِ ، بعنايةِ اللهِ الذي مرجَ البحرَينِ هـٰذا عذبٌ فراتٌ وهـٰذا مِلْحٌ أُجاجٌ .

وإنَّـا لنرجو لها مزيدَ التقدُّمِ بجليلِ هِمَّةِ الجنابِ الخديويِّ وجملِ إقدامِهِ ، ونراها كالطِّفلِ بانَتْ علائمُ نجابتِهِ قبلَ إبَّانِ فطامِهِ ، لا شكَّ أنَّها مِنْ حسناتِ وليِّ النعمِ الخديويِّ الأكرمِ ، الداوريِّ الأفخمِ ، الذي تَعطَّرَتِ الأفواهُ بطيبِ ذكرِ سنائِهِ ، وتَحلَّتِ الشِّفاهُ بمُكرَّرِ شكرِ آلائِهِ ، فأدامَ اللهُ دولتَهُ السنيَّةَ غُرَّةً في جبهاتِ الأعصارِ ، كما جعلَ حكومتَهُ العادلةَ المرضيةَ قُرَّةً لعيونِ الأمصارِ .

هـٰذا ؛ والمرجوُّ كلَّ الرجا ، مِنْ حضراتِ أهلِ المعارفِ وأربابِ الحِجا . . ألَّا يبخلوا علىٰ إخوانِهِم ، بما هوَ في إمكانِهِم ؛ مِنَ المقالاتِ المفيدةِ ، والآراءِ السَّديدةِ ، والأفكارِ الناجحةِ ، والأخبارِ الصالحةِ ؛ لتدرجَ عنهُم في صحفِ الوقائعِ وتُنشَرَ ، وتُسطَّرَ في صفحاتِ الأيامِ وتُذكَرَ ، فقد تَعهَّدَ مأمورُ الوقائعِ بإعلانِ كلِّ ما يَرِدُ إليهِ مِنْ هـٰذا القبيلِ ، واللهُ تعالىٰ يُوفِّقُنا جميعاً للخيرِ والرشادِ ويهدينا سواءَ السبيلِ ، وقلتُ مُضمِّناً الشطرَ الأخيرَ : [من الطويل]

وَقَائِعُ مِصْرَ ٱلْآنَ فَاقَتْ بِحُسْنِهَا ... وَبَاهَتْ بِمَا جَادَتْ بِهِ مِنْ بَدَائِعِ
فَدُونَكَ مِنْ عَذْبِ ٱلْحَدِيثِ وَحُلْوِهِ ... جَنَى ٱلنَّحْلِ مَمْزُوجاً بِمَاءِ ٱلْوَقَائِعِ

وقلتُ مُضمِّناً أيضاً : [من الكامل]

يَا أَهْلَ مِصْرَ لَكُمْ زَهَا نُورُ ٱلْمُنَىٰ ... وَبَدَا بِكُمْ نُورُ ٱلْمَعَالِي سَاطِعَا

فَقَطَفْتُمُ زَهْرَ ٱلْحَوَادِثِ نَاضِراً   وَجَنَيْتُمُ ثَمَرَ ٱلْوَقَائِعِ يَانِعَا [١]

ذٰلكُم أيُّها الإخوانُ المنهلُ الصافي ، والمَورِدُ العذبُ النميرُ الشافي ، أسألُ اللهَ لمنشئِهِ دوامَ حسنِ عنايتِهِ ، وإنارةَ بصائرِكُم بأنوارِ هدايتِهِ .

[مولدُ هٰذا الأميرِ بحسابِ الجمَّلِ]

مِنَ الاتفاقِ الغريبِ : أن كانَ جُمَّلُ حروفِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [٢] ، تاريخَ مولدِ هٰذا الأميرِ حَرَسَهُ اللهُ ، وبلغَ بهِ أقصىٰ مناهُ .

* * *

(١) وقع في هامش الأبيات الأربعة علامة (م) في الأصل ؛ إشارة لكونها مُضمَّنة .

(٢) سورة مريم : (٣٠) .

[خاتمة الكتاب]

وألتمسُ مِنْ أذكياءِ الإخوانِ ـ وكلُّهُم أذكياءُ ـ أن يَحرِصوا علىٰ دراسةِ هـٰذا المجموعِ بغايةِ الاعتناءِ ، ويَتخذونَهُ مبدأً للتعليم ، ومَنْ أرادَ التوسُّعَ بعدُ . . فقد عرفَ الصِّراطَ المستقيمَ .

وقد أذنتُ لِمَنْ وثقَ مِنْ نفسِهِ : أن يُوضِّحَ ما يَراهُ موضعاً للإيضاحِ ، وأن يُصلِحَ ما دعا السهوُ فيهِ إلىٰ نوعِ إصلاحٍ .

واللهُ سبحانَهُ لي ولكُم نِعْمَ المعينُ ، والوسيلةُ إليهِ في ذٰلكَ سيِّدُ المرسلينَ ، صلواتُ اللهِ وتسليماتُهُ عليهِم أجمعينَ ، ورضاهُ عن أوليائِهِم وسائرِ التابعينَ .

[خاتمة الطبع]

يقولُ أسيرُ الشَّهَواتِ ، وكثيرُ المساوي والهفَواتِ ، راجي التجاوزِ عن زلاتِهِ وآثامِهِ ، حسنُ بنُ الشيخِ [أبي] زيدٍ سلامةَ ، غفرَ اللهُ ذنوبَهُما بمنِّهِ وإكرامِهِ ، وأثابَهُما جَنَّتَهُ بفضلِهِ وإنعامِهِ ، والمسلمينَ أجمعينَ ، بجاهِ نبيِّهِ الصَّادقِ الأمينِ :

بعدَ حمدِ مَنْ جعلَ لغةَ العربِ وسيلةً لمعرفةِ فنونِ الأدبِ ، والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ أشرفِ مُنتخَبٍ وآلِهِ وأصحابِهِ الفائزينَ بأعلى الرُّتَبِ ، والتابعينَ المُتمسِّكينَ مِنَ التقوىٰ بأقوىٰ سببٍ : قد تمَّ بإسعافِ الألطافِ الجليلةِ ، طبعُ مجموعٍ لفنونِ الأدبِ وسيلةٌ ، حوىٰ مِنْ كلِّ علمٍ أحسنَهُ ، واشتملَ علىٰ نفائسِ دُرَرٍ مُستحسَنةٍ ، بناتِ فكرٍ اخترعَتْها فكرةٌ سليمةٌ ، وعرائسِ خدرٍ أبرزَتْها محاسنُ كريمةٌ ، فهوَ وسيلةُ الأدبِ ، ومبلغٌ لتمامِ الأربِ ، جمعَهُ العَلَمُ

الشهيرُ ، البحرُ الحبرُ النحريرُ ، صاحبُ البيانِ الوفيِّ ، مَنْ بهِ الفؤادُ مِنْ سقامِ الجهالةِ يشتفي ، علَّامةُ وقتِهِ ، وفريدُ عصرِهِ ؛ الشيخُ حسينٌ المَرصفيُّ ، لا زالَ ملحوظاً مِنَ الجليلِ بكمالِ العنايةِ ، محفوظاً برعايةِ الكريمِ في البدايةِ والنهايةِ ، غوثاً يسحُّ وينزلُ ، وبحراً يفيضُ ويسترسلُ .

والنصحُ لِمَنْ يصلُ هٰذا المجموعُ إليهِ : أن يعضَّ بنواجذِهِ عليهِ ؛ لينالَ غايةَ ما يَتمنَّاهُ ، ويفوزَ بتحصيلِ ما قد حواهُ ، ويخرجَ مِنْ ربقةِ أسرِ الجهلِ ، ويفوزَ بدرجةِ أهلِ الفضلِ ، وليتلقَّ هٰذا الجامعَ بحسنِ قَبولٍ ، ويرجو مِنَ الكريمِ إلىٰ فهمِ ما فيهِ الوُصولَ .

وكانَ تمامُ طبعِهِ ، وحسنُ ترتيبِهِ ووضعِهِ ؛ بمطبعةِ وادي النيلِ البهيةِ ، بخطِّ بابِ الشعريةِ مِنْ مصرَ المحميةِ ، في ظلِّ وليِّ العهدِ والتوفيقِ ، أفندينا محمدٍ باشا توفيقٍ ، جعلَهُ اللهُ رحمةً على العبادِ ، وغيثاً مريعاً لكلِّ حاضرٍ وبادٍ ، وقَوَّمَ بعدلِهِ حالَ الرعيةِ ، وعَمَّمَ بفضلِهِ سائرَ البريةِ ، مُصحِّحاً بمباشرةِ هٰذا العبدِ الفقيرِ ، الكليلِ الخاطرِ الكسيرِ ، أوائلَ شهرِ اللهِ رجبٍ الأصمِّ الأصبِّ ، سنةَ (١٢٩٦ هـ) ستٍّ وتسعينَ ومئتَينِ بعدَ الألفِ ، مِنْ هجرةِ مَنْ كانَ يرىٰ مِنْ أمامِهِ كما يَرىٰ مِنَ الخلفِ .

صلَّى اللهُ وسَلَّمَ عليهِ ، وآلِهِ وصحبِهِ وكلِّ منتمٍ إليهِ ، ما انتشرَ مِسكُ ختامٍ وفاحَ ، ونادى المُؤذِّنُ : حيَّ على الفلاحِ ، آمينَ .

* * *

أهمّ المصادر والمراجع (١)

١ ـ أباطيل وأسمار ، **لمحمود شاكر** ؛ العلامة شيخ العربية الأديب أبي فهر محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبد القادر الجرجاوي المصري (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن ، **للسيوطي** ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق مركز الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، السعودية .

٣ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ، **لسان الدين ابن الخطيب** ؛ الإمام المؤرخ الوزير الأديب الفيلسوف لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب السلماني اللوشي الغرناطي (ت ٧٧٦ هـ) ، تحقيق محمد عبد الله عنان (ت ١٤٠٦ هـ) ، ط ٤ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٤ ـ إحياء علوم الدين ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٥ ـ الآداب (الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة) ، **لابن شمس الخلافة** ؛

---

(١) اعتمدنا في فهرسة المصادر على التالي : اسم الكتاب ، واسم المؤلف وسنة وفاته ، واسم المحقق ، ورقم الطبعة ، وتاريخ طبعه ، والدار الناشرة ومقرها .

الأديب الشاعر الأمير الأيوبي مجد الملك أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة محمد بن مختار الأفضلي القوصي المصري (ت ٦٢٢ هـ) ، بعناية العلامة البحاثة محمد أمين بن عبد العزيز الخانجي الحلبي (ت ١٣٥٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٦ ـ أدب الإملاء والاستملاء ، **لابن السمعاني** ؛ الإمام الحافظ محدث خراسان تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي الشافعي (ت ٥٦٢ هـ) ، عني به ماكس فايسفايلر ، ط ١ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٧ ـ أدب الدين والدنيا ، **للماوردي** ؛ الإمام الفقيه الأصولي المفسر أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البغدادي الشافعي (ت ٤٥٠ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٤ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٨ ـ أدب الكاتب ، **لابن قتيبة الدينوري** ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ٢ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٩ ـ أدب الكُتَّاب ، **للصولي** ؛ الإمام الأديب النديم النادرة أبي بكر محمد بن يحيى بن عبد الله ابن صول (صول تكين) الصولي البغدادي البصري (ت ٣٣٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد بهجة الأثري (ت ١٤١٦ هـ) ، ط ١ ، (١٣٤١ هـ ، ١٩٢٢ م) ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، مصر .

١٠ ـ إرشاد الساري إلىٰ شرح صحيح البخاري ، **للقسطلاني** ؛ الإمام الحجة المحدث الفقيه شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المصري الشافعي (ت ٩٢٣ هـ) ، ط ٦ ، (١٣٠٤ هـ ، ١٨٨٦ م) ، طبعة مصورة عن نشرة بولاق لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، **لابن عبد البر** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي

المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق عادل مرشد ، ط ١ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار الأعلام ، عمان ، الأردن .

١٢ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، **لابن الأثير** ؛ الإمام المؤرخ النقاد النابغة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٣٠ هـ) ، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور والعلامة محمود عبد الوهاب فايد (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

١٣ ـ الإصابة في تمييز الصحابة ، **لابن حجر العسقلاني** ؛ الإمام الحافظ الحجة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني الكناني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

١٤ ـ أطراف الغرائب والأفراد ، **لابن القيسراني** ؛ الإمام الحافظ الجوال الرحال الصوفي أبي الفضل محمد بن علي بن أحمد بن طاهر ابن القيسراني المقدسي الظاهري (ت ٥٠٧ هـ) ، تحقيق جابر بن عبد الله السريِّع ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار التدمرية ، الرياض ، السعودية .

١٥ ـ إعجاز القرآن ، **للباقلاني** ؛ الإمام المتكلم الأصولي القاضي أبي بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني البصري البغدادي المالكي (ت ٤٠٣ هـ) ، تحقيق العلامة السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٦ ـ الأعلام ، **للزركلي** ، الأديب الكبير المؤرخ خير الدين بن محمود بن محمد الزِّرِكلي الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ) ، بدون تحقيق ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان .

١٧ ـ الأغاني ، **لأبي الفرج الأصبهاني** ؛ الإمام الراوية الأديب الكاتب أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصبهاني البغدادي (ت ٣٥٦ هـ) ،

تحقيق العلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩ م) ، دار الشعب ، القاهرة ، مصر .

١٨ ـ الأمثال السائرة من شعر المتنبي ، **لابن عباد** ؛ الوزير الأديب المتكلم أبي القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد بن العباس الطالقاني الأصفهاني (ت ٣٨٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد حسن آل ياسين (ت ١٤٢٧ هـ) ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، مكتبة النهضة ، بغداد ، العراق .

١٩ ـ الأمثال ، **لابن سلام** ؛ الإمام المحدث الفقيه الأديب أبي عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي الخراساني (ت ٢٢٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المجيد قطامش ، ط ١ ، (١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م) ، دار المأمون للتراث ، دمشق ، سورية .

٢٠ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع ، **لابن معصوم** ؛ الإمام المؤرخ الأديب الشريف علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين ابن معصوم الحسيني الحسني المدني (ت لعله بعد ١١٠٠ هـ) ، تحقيق العلامة شاكر هادي شكر (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، مطبعة النعمان ، النجف ، العراق .

٢١ ـ الأوائل ، **لأبي هلال العسكري** ؛ إمام اللغة والأدب الناقد أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري الأهوازي (ت بعد ٣٩٥ هـ) ، تحقيق محمد المصري والدكتور وليد إبراهيم قصاب ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سورية .

٢٢ ـ أوضح المسالك إلىٰ ألفية ابن مالك ، **لابن هشام** ؛ إمام العربية واللغة المفسر جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن يوسف الأنصاري المصري الشافعي الحنبلي (ت ٧٦١ هـ) ، شرح العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

٢٣ ـ البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير ، **لابن الملقن (ابن النحوي)** ؛ الإمام الحافظ الفقيه أعجوبة الزمان سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد ابن الملقن الأندلسي المصري الشافعي

(ت ٨٠٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار الهجرة ، جدة ، السعودية .

٢٤ ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، **للسيوطي** ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، طبعة مصورة لدى المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

٢٥ ـ البيان والتبيُّن ، **للجاحظ** ؛ إمام البيان أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ الليثي الكناني (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٧ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٦ ـ تاج العروس من جواهر القاموس ، **للزبيدي** ؛ الإمام الكبير الحافظ الفقيه اللغوي الشريف أبي الفيض وأبي الوقت محمد مرتضى بن محمد بن محمد الحسيني الزبيدي الحنفي (ت ١٢٠٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) وجماعة من أئمة التحقيق ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

٢٧ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، **للطبري** ؛ الإمام المحدث المفسر المؤرخ أبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي الطبري (ت ٣١٠ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، طبعة مصورة دون ناشر ، بيروت ، لبنان .

٢٨ ـ تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة) ، **لابن شبة** ؛ العلامة المحدث المؤرخ أبي زيد عمر بن شبة بن عبيدة النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ) ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، نشر علىٰ نفقة السيد حبيب محمود أحمد رحمه الله ، المدينة المنورة ، السعودية .

٢٩ ـ تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز

بنواحيها من وارديها وأهلها ، **لابن عساكر** ؛ الإمام الحافظ الكبير المجود ثقة الدين أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي (ت ٥٧١ هـ) ، تحقيق محب الدين عمر بن غرامة العمروي ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٣٠ ـ التذكرة الحمدونية ، **لابن حمدون** ؛ الإمام الأديب الأخباري بهاء الدين أبي المعالي محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي (ت ٥٦٢ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) وبكر عباس ، ط ١ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٣١ ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل) ، **للبغوي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه المجتهد ركن الدين أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي الشافعي (ت ٥١٦ هـ) ، تحقيق الشيخ خالد عبد الرحمٰن العك (١٤٢٠ هـ) ومروان سوار ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٣٢ ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) ، **للزمخشري** ؛ الإمام البارع المفسر المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، ط ٢ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٣٣ ـ التمثيل والمحاضرة ، **للثعالبي** ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، مصر .

٣٤ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، **للثعالبي** ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

٣٥ ـ ثمرات الأوراق ، **لابن حجة** ؛ الإمام الأديب الكاتب تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله التقي ابن حجة الحموي الأزراري (ت ٨٣٧ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٣٦ ـ جامع بيان العلم وفضله ، **لابن عبد البر** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الأديب أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق أبو الأشبال الزهيري ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار ابن الجوزي ، الدمام ، السعودية .

٣٧ ـ الجامع لشعب الإيمان ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد ، ط ٢ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .

٣٨ ـ جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ، **لأبي زيد القرشي** ؛ الإمام النحوي الراوية أبي زيد محمد بن أبي الخطاب البري القرشي (ت بعد ٣٠٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد علي الهاشمي ، ط ٣ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار القلم ، دمشق ، سورية .

٣٩ ـ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، **للهاشمي** ؛ للأديب المعلم أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي الأزهري (ت ١٣٦٢ هـ) ، عني به لجنة من الجامعيين ، ط ٢ ، بدون تاريخ ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان .

٤٠ ـ حاشية الصبان علىٰ « شرح الأشموني » علىٰ « ألفية ابن مالك » ، **للصبان** ؛ العلامة الأديب اللغوي أبي العرفان محمد بن علي الصبان المصري الشافعي (ت ١٢٠٦ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، نسخة مصورة عن دار إحياء الكتب العربية لدى انتشارات زاهدي ، قم ، إيران .

٤١ ـ حاشية الصبان علىٰ شرح الملوي على السلم المنورق ، **للصبان** ؛ العلامة الأديب اللغوي أبي العرفان محمد بن علي الصبان المصري الشافعي

(ت ١٢٠٦ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

٤٢ ـ حاشية العطار على جمع الجوامع ، **للعطار** ؛ الإمام الفقيه الأصولي الأديب شيخ الجامع الأزهر حسن بن محمد بن محمود العطار المغربي المصري الشافعي (ت ١٢٥٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣١٣ هـ ، ١٨٩٣ م) ، نسخة مصورة عن المطبعة العلمية ، القاهرة لدى دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٤٣ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل ، **للشهاب الحلبي** ؛ العلامة الأديب المنشئ الشاعر شهاب الدين أبي الثناء محمود بن سليمان بن فهد الحلبي الدمشقي الحنبلي (ت ٧٢٥ هـ) ، ط ١ ، (١٢٩٨ هـ ، ١٨٨١ م) ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، مصر .

٤٤ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، **لأبي نعيم الأصبهاني** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني الشافعي (ت ٤٣٠ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة السعادة والخانجي سنة (١٣٥٧ هـ) لدى دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي ، القاهرة ، مصر . بيروت ، لبنان .

٤٥ ـ حياة الحيوان الكبرى ، **للدميري** ؛ الإمام العلامة الفقيه الأديب كمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري القاهري الشافعي (ت ٨٠٨ هـ) ، تحقيق إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار البشائر ، دمشق ، سورية .

٤٦ ـ الحيوان ، **للجاحظ** ؛ إمام البيان أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ الليثي الكناني (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة البابي الحلبي لدى دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

٤٧ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) ، **للعماد الأصفهاني** ؛ الإمام المؤرخ الأديب الشاعر عماد الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن حامد

الكاتب الأصفهاني الشافعي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور شكري فيصل (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٥ م) ، المجمع العلمي العربي ، دمشق ، سورية .

٤٨ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب ، **لابن حجة** ؛ الإمام الأديب الكاتب تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله التقي ابن حجة الحموي الأزراري (ت ٨٣٧ هـ) ، تحقيق الدكتورة كوكب دياب ، ط ٢ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٤٩ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، **للبغدادي** ؛ الإمام الأديب النحوي اللغوي عبد القادر بن عمر بن بايزيد البغدادي (ت ١٠٩٣ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٥٠ ـ الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ؛ القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ، **لعلي مبارك** ، المؤرخ النابغة الوزير علي باشا بن مبارك بن سليمان الروجي (ت ١٣١١ هـ) ، أعيد نشره وتحقيقه بإشراف مركز تحقيق التراث بدار الكتب ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

٥١ ـ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، **للمحبي** ؛ الإمام القاضي الأديب المؤرخ محمد أمين بن فضل الله بن محمد المحبي العلواني الحموي الدمشقي الحنفي (ت ١١١١ هـ) ، ط ١ ، (١٢٨٤ هـ ، ١٨٦٤ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة الوهبية لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٥٢ ـ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، **للسمين الحلبي** ؛ الإمام المفسر عالم العربية شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يوسف بن محمد السمين الحلبي القاهري الشافعي (ت ٧٥٦ هـ) ، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار القلم ، دمشق ، سورية .

٥٣ ـ الدراية في تخريج أحاديث الهداية ، **لابن حجر العسقلاني** ؛ الإمام الحافظ الحجة شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد ابن حجر

العسقلاني الكناني الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) ، تحقيق السيد عبد الله هاشم اليماني المدني ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٥٤ ـ الدعاء ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد سعيد بن محمد حسن البخاري ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية .

٥٥ ـ دلائل الإعجاز ، **للجرجاني** ؛ إمام اللغة والبلاغة والكلام مجد الإسلام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمـٰن بن محمد الجرجاني الشافعي (ت ٤٧١ هـ أو سنة ٤٧٤ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد شاكر (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ٤ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٥٦ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار الريان ، القاهرة ، مصر .

٥٧ ـ ديوان ابن الخياط برواية تلميذه ابن نصر القيسراني (٥٤٨ هـ) ، **لابن الخياط** ؛ شاعر الشام الكاتب الأديب أبي عبد الله أحمد بن محمد بن علي التغلبي الدمشقي (ت ٥١٧ هـ) ، تحقيق الأديب الوزير خليل مردم بك (ت ١٣٧٩ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٥٨ ـ ديوان ابن الدمينة (صنعة ثعلب وابن حبيب) ، **لابن الدمينة** ؛ الشاعر الرقيق الفحل أبي السري عبد الله بن عبيد الله بن عمرو بن مالك ابن الدمينة الخثعمي (ت نحو ١٣٠ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد راتب النفاخ (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٩ هـ ، ١٩٥٩ م) ، مكتبة دار العروبة ، القاهرة ، مصر .

٥٩ ـ ديوان ابن الرومي ، **لابن الرومي** ؛ الشاعر العباسي الكبير أبي الحسن علي بن العباس بن جريج ابن الرومي البغدادي (ت ٢٨٣ هـ) ، تحقيق العلامة

الدكتور حسين نصار (ت ١٤٣٩ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

٦٠ ـ ديوان ابن الفارض ، **لابن الفارض** ؛ سلطان العاشقين العارف بالله شرف الدين أبي حفص عمر بن علي بن مرشد ابن الفارض السعدي الحموي المصري الشافعي (ت ٦٣٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٦١ ـ ديوان ابن المعتز ، **لابن المعتز** ؛ الشاعر الأمير المبدع الغالب بالله أبي العباس عبد الله بن الخليفة المعتز بالله محمد بن المتوكل العباسي (ت ٢٩٦ هـ) ، تحقيق وشرح مجيد طراد ، ط ١ ، (١٤٢٤ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

٦٢ ـ ديوان ابن النبيه ، **لابن النبيه** ؛ الشاعر المنشئ الرقيق كمال الدين أبي الحسن علي بن محمد بن الحسن ابن النبيه المصري العباسي (ت ٦١٩ هـ) ، عني به عبد الغني أفندي فكري ، ط ١ ، (١٢٨٠ هـ ، ١٨٦٠ م) ، نسخة مصورة عن نشرة مطبعة عبد الغني أفندي فكري ، القاهرة ، مصر .

٦٣ ـ ديوان ابن حيوس ، **لابن حيوس** ؛ الشاعر العباسي الأمير مصطفى الدولة أبي الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي الدمشقي (ت ٤٧٣ هـ) ، تحقيق الأديب الوزير خليل مردم بك (ت ١٣٧٩ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٦٤ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني ، **لابن رشيق القيرواني** ؛ الإمام الأديب النقاد أبي علي الحسن بن رشيق بن عبد الله القيرواني الأزدي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ، تحقيق الدكتور صلاح الدين الهواري وهدىٰ عودة ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

٦٥ ـ ديوان ابن زيدون ورسائله وأخباره ، **لابن زيدون** ؛ الوزير الكاتب الشاعر أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن زيدون المخزومي الأندلسي

(ت ٤٦٣ هـ) ، شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني (ت ١٤١٩ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

٦٦ ـ ديوان ابن شرف القيرواني ، **لابن شرف** ؛ الشاعر الأديب أبي عبد الله محمد بن سعيد (أبي سعيد) بن شرف الجذامي القيرواني (ت ٤٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور حسن ذكري حسن ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

٦٧ ـ ديوان ابن نباتة السعدي ، **لابن نباتة السعدي** ؛ شاعر الوقت المجيد أبي نصر عبد العزيز بن عمر بن أحمد ابن نباتة السعدي التميمي البغدادي (ت ٤٠٥ هـ) ، تحقيق عبد الأمير مهدي حبيب الطائي ، ط ١ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق .

٦٨ ـ ديوان ابن نباتة المصري ، **لابن نباتة** ؛ الإمام الفقيه الخطيب الأديب جمال الدين أبي بكر محمد بن محمد بن محمد ابن نباتة الجذامي الفاروقي المصري (ت ٧٦٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة التمدن لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٦٩ ـ ديوان أبي الأسود الدؤلي ، **للدؤلي** ؛ التابعي الجليل واضع علم النحو أبي الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني الدؤلي (ت ٢٩٠ هـ) ، برواية أبي سعيد الحسن السكري (ت ٢٩٠ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .

٧٠ ـ ديوان أبي الشيص الخزاعي وأخباره ، **لأبي الشيص** ؛ الشاعر المطبوع أبي الشيص محمد بن علي بن عبد الله الخزاعي (ت ١٩٦ هـ) ، صنعة عبد الله الجبوري ، ط ١ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

٧١ ـ ديوان أبي العتاهية (أبو العتاهية أشعاره وأخباره) ، **لأبي العتاهية** ؛ رئيس الشعراء المكثر المولد أبي إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد أبي العتاهية العيني العنزي الكوفي (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور شكري

فيصل (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٤ هـ ، ١٩٦٤ م) ، دار الملاح ، دمشق ، سورية .

٧٢ ـ ديوان أبي الفتح البستي ، **للبستي** ؛ الشاعر الأديب الكاتب أبي الفتح علي بن محمد بن الحسين البستي (لشكر كاه ، أفغانستان) الشافعي (ت ٤٠٠ هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٨٩ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

٧٣ ـ ديوان أبي النجم العجلي ، **للعجلي** ؛ الشاعر الراجز الأموي أبي النجم الفضل بن قدامة بن عبيد الله العجلي البكري (ت ١٣٠ هـ) ، شرح وتحقيق الدكتور محمد أديب عبد الواحد جمران ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

٧٤ ـ ديوان أبي بكر بن دريد الأزدي ، **لابن دريد** ؛ إمام اللغة والأدب أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري (ت ٣٢١ هـ) ، عني به السيد محمد بدر الدين العلوي ، ط ١ ، (١٣٦٥ هـ ، ١٩٤٦ م) ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، مصر .

٧٥ ـ ديوان أبي تمام ، **لأبي تمام الطائي** ؛ أمير البيان وإمام اللغة أبي تمام حبيب بن أوس بن الحارث الطائي الإمامي (ت ٢٣١ هـ) ، بشرح إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق محمد عبده عزام ، ط ٥ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

٧٦ ـ ديوان أبي فراس الحمداني ، **لأبي فراس الحمداني** ؛ الأمير الشاعر الفارس البليغ أبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني التغلبي الوائلي (ت ٣٥٧ هـ) ، عني به عبد القادر محمد مايو ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار القلم العربي ، حلب ، سورية .

٧٧ ـ ديوان أبي نواس برواية الصولي ، **لأبي نواس** ؛ شاعر العراق في عصره أبي نواس الحسن بن هانئ بن عبد الأول الحكمي (ت ١٩٨ هـ) ، تحقيق الدكتور

بهجة عبد الغفور الحديثي ، ط ١ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث ، أبو ظبي ، الإمارات .

٧٨ ـ ديوان الأخطل ، **للأخطل** ؛ الشاعر أبي مالك غياث بن غوث بن الصلت الأخطل التغلبي الأموي النصراني (ت ٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتورة كارين صادر ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٧٩ ـ ديوان الأرجاني ، **للأرجاني** ؛ الإمام القاضي شاعر زمانه ناصح الدين أبي بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني التستري الشافعي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد قاسم مصطفىٰ (ت ١٤٢٦ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، العراق .

٨٠ ـ ديوان الأعشى الكبير ، **للأعشىٰ** ؛ الشاعر الجاهلي صاحب المعلقة أبي بصير ميمون بن قيس بن جندل الأعشى الكبير (ت ٧ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود إبراهيم محمد الرضواني ، ط ١ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، وزارة الثقافة والفنون والتراث ، الدوحة ، قطر .

٨١ ـ ديوان البارودي ، **للبارودي** ؛ الأديب الشاعر الأمير محمود سامي باشا بن حسن حسين بن عبد الله البارودي الشركسي المصري (ت ١٣٢٢ هـ) ، تحقيق العلامة علي الجارم (ت ١٣٦٨ هـ) والأديب محمد شفيق معروف ، ط ١ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

٨٢ ـ ديوان البحتري ، **للبحتري** ؛ الشاعر الكبير أحد السلاسل الذهبية أبي عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى التنوخي الطائي البحتري (ت ٢٨٤ هـ) ، شرح وتحقيق العلامة الدكتور حسن كامل الصيرفي (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

٨٣ ـ ديوان البوصيري ، **للبوصيري** ؛ إمام المادحين وأعجوبة النثر والنظم شرف الدين أبي عبد الله محمد بن سعيد بن حماد المغربي الصنهاجي البوصيري (ت ٦٩٦ هـ) ، تحقيق محمد سيد كيلاني (ت ١٤١٩ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، مصر .

٨٤ ـ ديوان التهامي ، **للتهامي** ؛ الشاعر الخطيب أبي الحسن علي بن محمد بن فهد التهامي (ت ٤١٦ هـ) ، تحقيق الدكتور علي نجيب عطوي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، لبنان .

٨٥ ـ ديوان الحطيئة ، **للحطيئة** ؛ الشاعر المخضرم أبي مُلَيْكة جرول بن أوس بن مالك الحطيئة العبسي (ت ٤٥ هـ) ، برواية وشرح ابن السكيت ؛ أبي يوسف يعقوب بن إسحاق ابن السكيت الدورقي الأهوازي البغدادي (ت ٢٤٤ هـ) ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٨٦ ـ ديوان الخنساء ، **للخنساء** ؛ الصحابية الشاعرة المخضرمة الخنساء أم عمرو تماضر بنت عمرو بن الحارث النجدية رضي الله عنها (ت ٢٤ هـ) ، بشرح إمام الكوفيين المحدث أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد ثعلب الشيباني البغدادي (٢٩١ هـ) ، تحقيق الدكتور أنور أبو سويلم ، ط ١ ، (١٤٠٩ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار عمار ، عمان ، الأردن .

٨٧ ـ ديوان الراعي النميري ، **للراعي** ؛ الشاعر الفحل الوجيه عبيد بن حصين بن جندل الراعي النميري القيسي (ت ٩٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نبيل طُريفي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٨٨ ـ ديوان السري الرفاء ، **للسري الرفاء** ؛ الشاعر الأديب الوراق أبي الحسن السري بن أحمد بن السري الرفاء الكندي الموصلي (ت ٣٦٦ هـ) ، عني به الأديب كرم البستاني (ت ١٣٨٦ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٨٩ ـ ديوان السموءل ، **للسموءل** ؛ الشاعر الجاهلي الحكيم السموءل بن عريض بن عادياء اليهودي (ت ٦٤ ق هـ) ، صنعة إمام النحو الفقيه المحدث أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نفطويه العتكي الأزدي الواسطي (ت ٣٢٣ هـ) ، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٤ هـ ، ١٩٥٥ م) ، مطبعة المعارف ، بغداد ، العراق .

٩٠ ـ ديوان الشاب الظريف ، **للتلمساني** ؛ الشاعر المترقق المجيد الشاب الظريف شمس الدين محمد بن سليمان بن علي التلمساني الدمشقي (ت ٦٨٨ هـ) ، تحقيق العلامة شاكر هادي شكر (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

٩١ ـ ديوان الشريف الرضي ، **للشريف الرضي** ؛ الإمام الفقيه شاعر الطالبيين ونقيبهم أبي الحسن محمد بن الحسين بن موسى الرضي العلوي الموسوي الحسيني البغدادي (ت ٤٠٦ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٩٢ ـ ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني ، **للشماخ** ؛ الشاعر المخضرم الصحابي أبي سعيد الشماخ (معقل) بن ضرار بن حرملة المازني الذبياني الغطفاني رضي الله عنه (ت ٢٢ هـ) ، شرح وتحقيق صلاح الدين الهادي ، ط ١ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

٩٣ ـ ديوان الصبابة ، **لابن أبي حجلة** ؛ الإمام الفقيه الكاتب الزاهد شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى ابن أبي حجلة التلمساني الحنفي (ت ٧٧٦ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد زغلول سلام (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

٩٤ ـ ديوان الطغرائي ، **للطغرائي** ؛ الوزير الكاتب العميد المنشئ الكيميائي مؤيد الدين أبي إسماعيل الحسين بن علي بن محمد الطغرائي الدؤلي الأصبهاني (ت ٥١٥ هـ) ، تحقيق الأديب الدكتور علي جواد الطاهر (ت ١٤١٧ هـ) والدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٦ م) ، وزارة الإعلام ، بغداد ، العراق .

٩٥ ـ ديوان العباس بن الأحنف ، **لابن الأحنف** ؛ الشاعر العذري أبي الفضل العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي النجدي البصري (ت حوالي ١٩٤ هـ) ، تحقيق الدكتورة عاتكة الخزرجي (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٣ هـ ، ١٩٥٤ م) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

٩٦ ـ ديوان العباس بن مرداس رضي الله عنه ، **لابن مرداس** ؛ الصحابي الشاعر

الفارس أبي الهيثم العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي المضري ابن الصحابية الشاعرة الخنساء رضي الله عنهما (ت نحو ١٨ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٩٧ ـ ديوان العرجي ، **للعرجي** ؛ شاعر الغزل الكبير عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان العرجي الأموي (ت ١٢٠ هـ) ، رواية أعجوبة الزمان وإمام العربية والنحو ابن جني أبي الفتح عثمان الأزدي الموصلي الحنفي (ت ٣٨٢ هـ) ، شرح وتحقيق الأديب خضر بن عباس الطائي (ت ١٤٠٠ هـ) والأديب الدكتور رشيد بن عبد الرحمٰن العبيدي (ت ١٤٢٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٦ م) ، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر ، بغداد ، العراق .

٩٨ ـ ديوان الفرزدق ، **للفرزدق** ؛ الشاعر النبيل الأموي أبي فراس همام بن غالب بن صعصعة الفرزدق الدارمي التميمي (ت ١١٠ هـ) ، ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوي ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار الكتاب اللبناني ، مكتبة المدرسة ، بيروت ، لبنان .

٩٩ ـ ديوان القاضي الفاضل ، **للقاضي الفاضل** ؛ إمام الكُتَّاب الوزير البليغ محيي الدين أبي علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني العسقلاني المصري القاضي الفاضل (ت ٥٩٦ هـ) ، تحقيق الدكتور العلامة أحمد أحمد عبد الله البيلي البدوي (ت ١٣٨٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨١ هـ ، ١٩٦١ م) ، دار المعرفة ، القاهرة ، مصر .

١٠٠ ـ ديوان القطامي ، **للقطامي** ؛ الشاعر الفحل الرقيق أبي سعيد وأبي غنم عمير بن شييم بن عمرو التغلبي الأموي (ت ١٠١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الربيعي ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

١٠١ ـ ديوان الكميت بن زيد الأسدي ، **للكميت** ؛ الشاعر الراوية المقدم أبي المستهل الكميت بن زيد الأسدي الكوفي الاثني عشري (ت ١٢٦ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نبيل طُريفي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٠٢ ـ ديوان المتلمس الضبعي ، **للمتلمس الضبعي** ؛ الشاعر الجاهلي جرير بن عبد العزىٰ (عبد المسيح) الضبعي (ت نحو ٥٠ ق هـ) ، رواية أبي الحسن الأثرم (ت ٢٣٢ هـ) وأبي عبيدة عن الأصمعي (ت نحو ٢٠٩ هـ) ؛ تحقيق العلامة الدكتور حسن كامل الصيرفي (ت ١٤٠٥ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، مصر .

١٠٣ ـ ديوان المتنبي ، **للمتنبي** ؛ الشاعر الحكيم وأحد مفاخر الأدب أبي الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي الجعفي الكندي الكوفي (ت ٣٥٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٣ م) ، مطبعة هندية ، القاهرة ، مصر .

١٠٤ ـ ديوان المرقشين ، **للمرقش الأكبر والمرقش الأصغر** ؛ الشاعر الفارس المرقش الأكبر عمرو بن سعد بن مالك البكري الوائلي اليمني النجدي (ت ٥٧ ق . هـ) ، والشاعر الفارس المرقش الأصغر عمرو بن حرملة بن سعد البكري الوائلي النجدي (ت ٥٠ ق . هـ) ، تحقيق الدكتورة كارين صادر ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٠٥ ـ ديوان النابغة الجعدي ، **للنابغة** ؛ الشاعر المفلق الصحابي قيس بن عبد الله بن عدس الجعدي رضي الله عنه (ت نحو ٥٠ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور واضح الصمد ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٠٦ ـ ديوان النابغة الذبياني ، **للنابغة** ؛ الشاعر الجاهلي زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني (ت نحو ١٨ ق . هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٠٧ ـ ديوان النمر بن تولب العكلي رضي الله عنه ، **للعكلي** ؛ الصحابي الشاعر المخضرم أبو ربيعة النمر بن تولب بن زهير العكلي (ت نحو ١٤ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد نبيل طُريفي ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٠٨ ـ ديوان الهذليين ، **لابن التلاميد** ؛ العلامة المحدث اللغوي الأديب محمد محمود ولد أحمد ابن التلاميد التركزي العبشمي الشنقيطي المدني المكي

(ت ١٣٢٢ هـ) ، عني به الأديب أحمد الزين (ت ١٣٦٦ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٢٣ هـ ، ٢٠٠٣ م) ، دار الكتب والوثائق المصرية ، القاهرة ، مصر .

١٠٩ ـ ديوان امرئ القيس ، **لامرئ القيس** ؛ شاعر المجون واللهو الملك الضليل امرئ القيس أبي الحارث حندج بن حجر بن الحارث الكندي (ت ٨٠ ق هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٥ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١١٠ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت ، **لابن أبي الصلت** ؛ الشاعر الجاهلي الحكيم أبي الحكم أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة الثقفي (ت ٥ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي ، ط ٣ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، نشره محققه ، دمشق ، سورية .

١١١ ـ ديوان أوس بن حجر ، **لأوس** ؛ شاعر مضر الجاهلي الحكيم أبي شريح أوس بن حجر بن مالك المازني التميمي (ت نحو ٢ ق هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد يوسف نجم (ت ١٤٣٠ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١١٢ ـ ديوان بشار بن برد ، **لبشار بن برد** ؛ الشاعر المولد الخطيب أبي معاذ بشار بن برد بن بهمن الفارسي العقيلي البصري (ت ١٦٧ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة محمد الطاهر ابن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) ، وتعليق محمد رفعت فتح الله والعلامة محمد شوقي أمين (ت ١٤١١ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة لجنة التأليف والترجمة والنشر لدىٰ وزارة الثقافة ، الجزائر .

١١٣ ـ ديوان بهاء الدين ، **للعاملي** ؛ الإمام الفقيه الفيلسوف الأديب الملا بهاء الدين محمد بن حسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمداني الجبعي (ت ١٠٣١ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد ألتونجي ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق ، دمشق ، سورية .

١١٤ ـ ديوان تأبط شراً وأخباره ، **لتأبط شراً** ؛ الشاعر الصعلوك ثابت بن فؤاد بن حامد بن جابر تأبط شراً التهامي الكناني (ت نحو ٥٣٠ م) ، شرح وتحقيق علي

ذو الفقار شاكر ، ط ٢ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١١٥ ـ ديوان جميل (شاعر الحب العذري) ، **لجميل بثينة** ؛ الشاعر المطبوع الراوية العاشق أبي عمرو جميل بن عبد الله بن معمر (جميل بثينة) العذري القضاعي (ت ٨٢ هـ) ، جمع وتحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٩ هـ ، ١٩٧٩ م) ، مكتبة مصر ، القاهرة ، مصر .

١١٦ ـ ديوان حسان بن ثابت ، **لحسان رضي الله عنه** ؛ الصحابي الجليل وشاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بن المنذر النجاري الخزرجي (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، ط ١ ، (١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١١٧ ـ ديوان دريد بن الصمة ، **لابن الصمة** ؛ الشاعر الجاهلي الفارس دريد بن الصمة (معاوية الأصغر) بن الحارث الجشمي (ت ٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١١٨ ـ ديوان ديك الجن الحمصي ، **لديك الجن** ؛ الشاعر عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي (ت ٢٣٦ هـ) ، تحقيق مظهر الحجي ، ط ١ ، (١٤٢٥ هـ ، ٢٠٠٤ م) ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، سورية .

١١٩ ـ ديوان ذي الرمة ، **لذي الرمة** ؛ الشاعر الفحل الأموي أبي الحارث ذي الرمة غيلان بن عقبة بن بهيش العدوي (ت ١١٧ هـ) ، بشرح الإمام الأديب أبي نصر أحمد بن حاتم الباهلي صاحب الأصمعي (ت ٢٣١ هـ) تحقيق الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، ط ٤ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٧ م) ، دار الرشيد ، دمشق ، سورية .

١٢٠ ـ ديوان سحيم ، **لسحيم** ؛ الشاعر المخضرم سحيم (حية) عبد بني الحسحاس الحبشي أو النوبي الحجازي (ت ٤٠ هـ) ، تحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

١٢١ ـ ديوان سويد بن أبي كاهل اليشكري ، **لسويد** ؛ الشاعر المخضرم المقل أبي سعد سويد بن أبي كاهل غطيف بن حارثة الذبياني الكناني اليشكري (ت بعد ٦٤ هـ) ، جمع وتحقيق الأديب شاكر عاشور كاظم العاشور ، ط ١ ، (١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٢ م) ، دار الطباعة الحديثة ، البصرة ، العراق .

١٢٢ ـ ديوان صفي الدين الحلي ، **للحلي** ؛ الشاعر الأديب المجيد صفي الدين عبد العزيز بن سرايا بن نصر الحلي الطائي السنبسي (ت ٧٥٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، طبعة مصورة لدى الدار العربية للموسوعات ، بيروت ، لبنان .

١٢٣ ـ ديوان عبد الصمد بن المعذل ، **لابن المعذَّل** ؛ الشاعر العباسي أبي القاسم عبد الصمد بن معذل بن غيلان بن حكم البختري العبدي (ت نحو ٢٤٠ هـ) ، تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٢٤ ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، **لابن قيس الرقيات** ؛ شاعر قريش الأموي عبيد الله بن قيس بن شريح الرقيات (ت نحو ٧٥ هـ) ، رواية الحسن السكري عن ابن حبيب ، تحقيق العلامة الدكتور محمد يوسف نجم (ت ١٤٣٠ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٢٥ ـ ديوان عدي بن الرقاع العاملي برواية ثعلب ، **لابن الرقاع** ؛ الشاعر الأموي أبي داوود عدي بن زيد بن مالك ابن الرقاع العاملي القضاعي الدمشقي (ت نحو ٩٥ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور نوري حمودي القيسي (ت ١٤١٥ هـ) ، والعلامة الدكتور حاتم صالح الضامن (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م) ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، العراق .

١٢٦ ـ ديوان عدي بن زيد ، **للعبادي** ؛ الشاعر الجاهلي الداهية الفارس عدي بن زيد بن حماد العبادي التميمي (ت نحو ٣٥ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد جبار المعيبد (ت ١٤٢٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، بغداد ، العراق .

١٢٧ ـ ديوان عفيف الدين التلمساني ، **لعفيف التلمساني** ؛ الشاعر الصوفي عفيف الدين أبي الربيع سليمان بن علي بن عبد الله الكومي العابدي التلمساني (ت ٦٩٠ هـ) ، تحقيق الدكتور يوسف زيدان ، ط ١ ، (١٤٢٩ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر .

١٢٨ ـ ديوان علقمة بن عبدة ، **لعلقمة الفحل** ؛ الشاعر الجاهلي علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمي (ت نحو ٢٠ ق . هـ) ، قدم له سعيد نسيب مكارم ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٢٩ ـ ديوان علي بن الجهم ، **لابن الجهم** ؛ الشاعر العباسي الأديب أبي الحسن علي بن الجهم بن بدر السامي البغدادي الحنبلي (ت ٢٤٩ هـ) ، تحقيق الأديب الوزير خليل مردم بك (ت ١٣٧٩ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٣٠ ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة ، **لابن أبي ربيعة** ؛ الشاعر الرقيق أبي الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة المخزومي (ت ٩٣ هـ) ، عني به الدكتور فايز محمد ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٨ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

١٣١ ـ ديوان عمرو بن كلثوم ، **لابن كلثوم** ؛ الشاعر الجاهلي المعمر المجيد أبي الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي (ت ٣٩ ق هـ) ، تحقيق الدكتور علي أبو زيد ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار سعد الدين ، دمشق ، سورية .

١٣٢ ـ ديوان عنترة ، **لعنترة العبسي** ؛ الشاعر الجاهلي والفارس العربي أبي المغلس وأبي عبلة عنترة بن شداد بن عمرو العبسي (ت نحو ٣٢ ق هـ) ، تحقيق محمد سعيد مولوي ، ط ١ ، (١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٣٣ ـ ديوان قيس بن الخطيم ، **لابن الخطيم** ؛ الشاعر الجاهلي الفارس الصنديد أبي يزيد قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي (ت نحو ٢ ق هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور ناصر الدين الأسد (ت ١٤٣٦ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٣٤ ـ ديوان كثير عزة ، لكثير عزة ؛ الشاعر الأموي المتيم المشهور كثير بن عبد الرحمٰن بن الأسود الخزاعي المدني (ت ١٠٥ هـ) ، جمع وشرح العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان .

١٣٥ ـ ديوان كشاجم ؛ للشاعر الأديب المنشئ أبي الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الرملي كشاجم (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

١٣٦ ـ ديوان ليلى الأخيلية ، لليلى الأخيلية ؛ الشاعرة الأموية المجيدة ليلىٰ بنت عبد الله بن الرحال بن شداد الأخيلية (ت نحو ٨٠ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور خليل إبراهيم العطية (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور جليل إبراهيم العطية ، ط ١ ، (١٣٨٦ هـ ، ١٩٦٧ م) ، دار الجمهورية ، بغداد ، العراق .

١٣٧ ـ ديوان مجنون ليلىٰ ، لمجنون ليلىٰ ؛ شاعر الغزل قيس بن الملوح بن مزاحم العامري (ت ٦٨ هـ) ، جمع وتحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، مصر .

١٣٨ ـ ديوان محمد بن هانئ الأندلسي ، لابن هانئ ؛ الشاعر الكبير أبي القاسم محمد بن هانئ المغربي الأندلسي (ت ٣٦٢ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد اليعلاوي (ت ١٤٣٦ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٢٨ هـ ، ٢٠٠٨ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٣٩ ـ ديوان محمود الوراق ، للوراق ؛ الشاعر الواعظ المجيد أبي الحسن محمود بن الحسن الوراق العباسي (ت نحو ٢٢٥ هـ) ، تحقيق الدكتور وليد قصاب ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مؤسسة الفنون ، عجمان ، الإمارات .

١٤٠ ـ ديوان مهلهل بن ربيعة ، للزير سالم ؛ الشاعر الجاهلي الفارس المهلهل الزير سالم أبي ليلىٰ عدي بن ربيعة بن مرة التغلبي (ت نحو ١٠٠ ق . هـ) ، قدم له طلال حرب ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٤١ ـ ديوان مهيار الديلمي ، لمهيار ؛ الشاعر الكبير المبتكر أبي الحسن مهيار بن مزرويه الفارسي الديلمي (ت ٤٢٨ هـ) ، ضبط وشرح أحمد نسيم ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة النور للمطبوعات ، بيروت ، لبنان .

١٤٢ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛ الإمام الأديب المؤرخ أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني التغلبي الإشبيلي (ت حوالي ٥٤٢ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٤٣ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخيار ، للزمخشري ؛ الإمام البارع المفسر المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتور سليم النعيمي (ت ١٤٠٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الذخائر ، قم ، إيران .

١٤٤ ـ الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام) ، للمباركفوري ؛ الشيخ الداعية صفي الرحمـٰن بن عبد الله بن محمد أكبر المباركفوري الأعظمي الهندي (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

١٤٥ ـ الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام ، للسهيلي ؛ الإمام الحافظ المبدع أبي القاسم عبد الرحمـٰن بن عبد الله بن أحمد السهيلي الأندلسي (ت ٥٨١ هـ) ، بعناية عمر عبد السلام السلامي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١٤٦ ـ الزهد ، لهناد الدارمي ؛ الإمام الحافظ الثقة الزاهد أبي السري هناد بن السري بن مصعب التميمي الدارمي الكوفي (ت ٢٤٣ هـ) ، تحقيق عبد الرحمـٰن بن عبد الجبار الفريوائي ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي ، الكويت .

١٤٧ ـ زهر الأكم في الأمثال والحكم ، لليوسي ؛ الإمام الفقيه الأديب النظار نور الدين أبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي (اليوسفي) المالكي

(ت ١١٠٢ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور محمد حجي (ت ١٤٢٣ هـ) والدكتور محمد الأخضر ، ط ١ ، (١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م) ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب .

١٤٨ ـ الزهرة ، لابن داوود ؛ الأديب المناظر الفقيه الشاعر أبي بكر محمد بن داوود بن علي الأصبهاني الظاهري (ت ٢٩٧ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إبراهيم السامرائي (ت ١٤٢٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، مكتبة المنار ، الزرقاء ، الأردن .

١٤٩ ـ سمط اللآلي في شرح أمالي القالي ، للبكري ؛ الإمام المؤرخ الجغرافي الموسوعي الوزير أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأونبي الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) ، تحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة ، مصر .

١٥٠ ـ سنن ابن ماجه ، لابن ماجه ؛ الإمام الحافظ الثبت المفسر أبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه الربعي القزويني (ت ٢٧٣ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور العلامة أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، طبعة خاصة عن نشرة جمعية المكنز الإسلامي لدىٰ دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

١٥١ ـ سنن أبي داوود ، المسمىٰ : « كتاب السنن » ، لأبي داوود ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي داوود سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة محمد عوامة ، ط ٣ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، دار المنهاج ، جدة ، المملكة العربية السعودية .

١٥٢ ـ سنن الترمذي (الجامع الصحيح) ، للترمذي ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) والعلامة محمد فؤاد عبد الباقي

(ت ١٣٨٨ هـ) والشيخ إبراهيم عطوة عوض (ت ١٤١٧ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٧ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١٥٣ ـ السنن الكبرىٰ ، **للنسائي** ؛ الإمام الحافظ الثبت أبي عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخراساني (ت ٣٠٣ هـ) ، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

١٥٤ ـ السنن الكبير ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية ، القاهرة ، مصر .

١٥٥ ـ سير أعلام النبلاء (مع السيرة النبوية وسير الخلفاء الراشدين) ، **للذهبي** ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الدمشقي الشافعي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨ هـ) ، ط ١١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

١٥٦ ـ السيرة النبوية ، **لابن هشام** ؛ الإمام المؤرخ راوي السيرة جمال الدين أبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري الشافعي (ت ٢١٨ هـ) ، تحقيق العلامة مصطفى السقا (ت ١٣٨٩ هـ) والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) وعبد الحفيظ شلبي ، ط ٢ ، (١٣٧٥ هـ ، ١٩٥٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مصطفى البابي الحلبي لدىٰ دار ابن كثير ، دمشق ، سورية .

١٥٧ ـ شذا العرف في فن الصرف ، **للحملاوي** ؛ العلامة اللغوي الرائد أحمد بن محمد بن أحمد الحملاوي البلبيسي الحسيني الشافعي (ت ١٣٥١ هـ) ، تحقيق الشيخ علاء الدين عطية ، ط ٤ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة دار البيروتي ، دمشق ، سورية .

١٥٨ ـ شرح ابن عقيل علىٰ ألفية ابن مالك ، **لابن عقيل** ؛ إمام النحاة والبيان

الفقيه بهاء الدين عبد الله بن عبد الرحمـٰن بن عبد الله ابن عقيل الهاشمي البالسي الحلبي الشافعي (ت ٧٦٩ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٠ هـ ، ١٩٨٠ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق ، القاهرة ، مصر .

١٥٩ ـ شرح أشعار الهذليين : أبو خراش ، **للسكري** ؛ العلامة الأديب الراوية أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار العروبة لدىٰ مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

١٦٠ ـ شرح أشعار الهذليين : شعر أبي ذؤيب الهذلي ، **للسكري** ؛ العلامة الأديب الراوية أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبيد الله السكري (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق العلامة عبد الستار أحمد فراج (ت ١٤٠٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٥ هـ ، ١٩٦٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار العروبة لدىٰ مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

١٦١ ـ شرح الأشموني علىٰ « ألفية ابن مالك » ، **للأشموني** ؛ الإمام الفقيه النحوي نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن عيسى الأشموني الشافعي (ت بعد ٩٠٠ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، نسخة مصورة عن دار إحياء الكتب العربية لدى انتشارات زاهدي ، قم ، إيران .

١٦٢ ـ شرح التصريح على التوضيح ، **لخالد الأزهري** ؛ الإمام النحوي زين الدين خالد بن عبد الله بن أبي بكر الوقاد الجرجاوي الأزهري الشافعي (ت ٩٠٥ هـ) ، ط ٢٨ ، (١٣٠٥ هـ ، ١٨٨٥ م) ، طبعة مصورة عن النشرة المصرية لدىٰ دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

١٦٣ ـ شرح العلامة الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ، **للزرقاني** ؛ الإمام المحدث الحجة الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المالكي (ت ١١١٢ هـ) ، عني به محمد عبد العزيز الخالدي ، ط ١ ، (١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

١٦٤ ـ شرح المعلقات العشر ، **للخطيب التبريزي** ؛ إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار الفكر ، دمشق ، سورية .

١٦٥ ـ شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول ، **للقرافي** ؛ الإمام الأصولي شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمٰن الصنهاجي القرافي البهنسي المالكي (ت ٦٨٤ هـ) ، تحقيق طٰه عبد الرؤوف سعد ، ط ١ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، مصر .

١٦٦ ـ شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد) ، **للمعري** ؛ الشاعر الفيلسوف الحكيم أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعري (ت ٤٤٩ هـ) ، تحقيق ودراسة الدكتور عبد المجيد دياب ، ط ٢ ، (١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٦٧ ـ شرح ديوان الحماسة ، **للخطيب التبريزي** ؛ إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن نشرة مطبعة حجازي لدىٰ عالم الكتب ، القاهرة ، مصر .

١٦٨ ـ شرح ديوان الحماسة ، **للمرزوقي** ؛ الإمام العلامة النحوي الأديب أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (ت ٤٢١ هـ) ، تحقيق الأديب أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ) والعلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ١ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

١٦٩ ـ شرح ديوان جرير ، **لابن حبيب** ؛ الإمام الأديب النسابة الأخباري أبي جعفر محمد بن حبيب بن أمية الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥ هـ) ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طٰه ، ط ٤ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٧٠ ـ شرح ديوان صريع الغواني ، **لمسلم بن الوليد** ؛ الشاعر المداح المفوه صريع الغواني أبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري البغدادي (ت ٢٠٨ هـ) ، برواية وشرح العلامة الأديب المؤدب أبي العباس الوليد بن عيسى بن الحارث الطبيخي الأموي الأندلسي (ت ٣٥٢ هـ) ، تحقيق الأديب الدكتور محمد سامي الدهان (ت ١٣٩١ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٧١ ـ شرح ديوان طرفة بن العبد ، **للأعلم الشنتمري** ؛ الإمام عالم العربية واللغة أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمري الأندلسي (ت ٤٧٦ هـ) ، تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

١٧٢ ـ شرح ديوان كعب بن زهير ، **للسكري** ؛ العلامة الأديب الراوية النحوي اللغوي أبي سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الرحمٰن العتكي السكري (ت ٢٧٥ هـ) ، تحقيق عباس عبد القادر ، ط ٤ ، (١٤٣١ هـ ، ٢٠١٠ م) ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، مصر .

١٧٣ ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، **للبيد رضي الله عنه** ؛ الشاعر الفارس الصحابي لبيد بن ربيعة بن مالك العامري رضي الله عنه (ت ٤١ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٢ م) ، وزارة الإرشاد والأنباء ، الكويت .

١٧٤ ـ شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، **لابن هشام** ؛ إمام العربية واللغة المفسر جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن يوسف الأنصاري المصري الشافعي الحنبلي (ت ٧٦١ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (١٣٩٢ هـ) ، وسمىٰ تحقيقه : « منتهى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب » ، ط ٨ ، (١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م) ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، مصر .

١٧٥ ـ شرح شعر زهير بن أبي سلمىٰ ، **لثعلب** ؛ إمام الكوفيين المحدث أبي العباس أحمد بن يحيى بن زيد ثعلب الشيباني البغدادي (ت ٢٩١ هـ) ،

تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، لبنان .

١٧٦ ـ شرح مقصورة ابن دريد ، **لابن خالويه** ؛ فريد دهره الإمام الفذ النحوي أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه الهمذاني البغدادي الحلبي الشافعي (ت ٣٧٠ هـ) ، تحقيق محمود جاسم محمد ، ط ١ ، (١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٦ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

١٧٧ ـ شرح نهج البلاغة ، **لابن أبي الحديد** ؛ الإمام الأديب المؤرخ عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد ابن أبي الحديد المدائني البغدادي المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٢ ، (١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الجيل ، بيروت ، لبنان .

١٧٨ ـ شروح سقط الزند « ضوء السقط ـ شرح التبريزي ـ شرح ابن السيد البطليوسي » ، **للمعري** ؛ الشاعر الفيلسوف الحكيم أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي (ت ٤٤٩ هـ) ، بشرح : إمام اللغة والأدب أبي زكريا يحيى بن علي بن محمد الشيباني الخطيب التبريزي (ت ٥٠٢ هـ) ، وعلامة اللغة والأدب عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي (ت ٥٢١ هـ) ، والعلامة الفقيه القاسم بن الحسين بن أحمد الخوارزمي المعروف بـ صدر الأفاضل (ت ٦١٧ هـ) ، تحقيق العلامة مصطفى السقا (ت ١٣٨٩ هـ) وعبد الرحيم محمود والعلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) وإبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد ، ط ١ ، (١٣٦٤ هـ ، ١٩٤٥ م) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر .

١٧٩ ـ شعر ابن طباطبا العلوي ، **لابن طباطبا** ؛ الشاعر المفلق الناقد الأديب أبي الحسن محمد بن أحمد بن محمد ابن طباطبا الهاشمي القرشي الأصفهاني الحسني (ت ٣٢٢ هـ) ، جمع وتحقيق ودراسة الأديب الدكتور محمد سالمان (محمد علي علوان محمد سالمان) ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر .

١٨٠ ـ شعر ابن ميادة ، **لابن ميادة** ؛ الشاعر الرقيق الهجاء أبي شراحيل (أبي حرملة) الرماح بن أبرد بن ثوبان (ابن ميادة) السلمي المري (ت ١٤٩ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور حنا جميل حداد (ت ١٤٣٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

١٨١ ـ شعر أبي حية النميري ، **لأبي حية** ؛ الشاعر المجيد المخضرم (الأموي العباسي) أبي حية الهيثم بن الربيع بن زرارة النميري القيسي (ت بعد ١٥٨ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، سورية .

١٨٢ ـ شعر الأحوص الأنصاري ، **للأحوص** ؛ الشاعر الهجاء عبد الله بن محمد بن عبد الله الأحوص الضبيعي الأنصاري (ت ١٠٥ هـ) ، تحقيق الدكتور عادل سليمان جمال ، ط ٢ ، (١٤١١ هـ ، ١٩٩٠ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

١٨٣ ـ شعر البعيث المجاشعي ، **للمجاشعي** ؛ الشاعر الخطيب المجيد البعيث أبي مالك (أبي يزيد) خداش بن بشر بن خالد المجاشعي التميمي البصري (ت ١٣٤ هـ) ، تحقيق الدكتور عدنان محمد أحمد ، ط ١ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠١٠ م) ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، سورية .

١٨٤ ـ شعر الشنفرى الأزدي (ت ٧٠ ق .هـ) ، **للسدوسي** ؛ الإمام اللغوي النسابة الشاعر أبي الفيد مؤرج بن عمرو بن الحارث السدوسي البصري (ت ١٩٥ هـ) ، تحقيق الأستاذ الدكتور علي ناصر غالب ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار اليمامة ، الرياض ، السعودية .

١٨٥ ـ شعر العكوك ، **للعكوك** ؛ شاعر العراق المجيد أبي الحسن علي بن جبلة بن مسلم العكوك الخراساني (ت ٢١٣ هـ) ، تحقيق الدكتور حسين أحمد عطوان ، ط ٣ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٨٦ ـ شعر دعبل بن علي الخزاعي ، **لدعبل** ؛ الشاعر المتكلم الهجَّاء الرَّاوية أبي علي دعبل (حسن) بن علي بن رزين الخزاعي الكوفي البغدادي

(ت ٢٤٦ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور عبد الكريم الأشتر (ت ١٤٣٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

١٨٧ ـ شعر زياد الأعجم ، **للأعجم** ؛ الشاعر المجيد الجزل أبي أمامة زياد بن سليم (سليمان) الأعجم العبدي الأصفهاني الخراساني (ت بعد ١٢٥ هـ) ، تحقيق الدكتور يوسف حسين بكار ، ط ١ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، وزارة الثقافة والإرشاد ، دمشق ، سورية .

١٨٨ ـ شعر عروة بن أذينة ، **لابن أذينة** ؛ الشاعر الفقيه المحدث الناسك أبي عامر عروة بن أذينة يحيى بن مالك الليثي المدني الكناني (ت حوالي ١٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ، ط ١ ، (١٣٩٠ هـ ، ١٩٧٠ م) ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، العراق .

١٨٩ ـ شعر عمرو بن معديكرب ، **لعمرو بن معديكرب رضي الله عنه** ؛ فارس اليمن الشاعر أبي ثور عمرو بن معديكرب (وجه الفلاح) بن عبد الله الزبيدي اليمني (ت ٢١ هـ) ، جمع وتنسيق العلامة مطاع الطرابيشي ، ط ٣ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

١٩٠ ـ شعر مروان بن أبي حفصة ، **لابن أبي حفصة** ؛ الشاعر المخضرم ورأس الشعر ذو الكمر أبي السمط (أبي الهيذام) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد بن عبد الله الأموي (ت بعد ١٨٢ هـ) ، جمع وتحقيق الدكتور حسين أحمد عطوان ، ط ٣ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٩١ ـ شعر نصيب بن رباح ، **لأبي المحجن نصيب** ؛ الشاعر الفحل أبي المحجن (الحجناء) نصيب بن رباح الأسود النوبي الكناني الأموي (ت ١٠٨ هـ) ، جمع وتقديم الأستاذ الدكتور داوود سلوم (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م) ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، العراق .

١٩٢ ـ شعراء عباسيون منسيون ، **للدكتور إبراهيم النجار** ؛ ، ط ١ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٩٣ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم ، **للقاضي عياض** ؛ الإمام الحافظ الأوحد القاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي المالكي (ت ٥٤٤ هـ) ، تحقيق عبده علي كوشك (ت ١٤٣٦ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الغزالي ودار الفيحاء ، دمشق ، سورية .

١٩٤ ـ شمائل النبي صلى الله عليه وسلم ، **للترمذي** ؛ الإمام الحافظ العلم الفقيه أبي عيسىٰ محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ، تحقيق محمد وائل الحنبلي ، ط ٢ ، (١٤٣٠ هـ ، ٢٠٠٩ م) ، دار البيروتي ، دمشق ، سورية .

١٩٥ ـ الشيخ الحسين بن أحمد المرصفي الأستاذ الأول للعلوم الأدبية بدار العلوم ، **لعبد الجواد** ؛ الأستاذ الأديب اللغوي محمد عبد الجواد ، ط ١ ، (١٣٧٢ هـ ، ١٩٥٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

١٩٦ ـ صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا ، **للقلقشندي** ؛ الأديب المؤرخ البحاثة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي القاهري الشافعي (ت ٨٢١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٣ هـ ، ١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدى المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، مصر .

١٩٧ ـ الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) ، **للجوهري** ؛ أعجوبة الزمان وأحد أئمة اللسان واللغة أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

١٩٨ ـ صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) « الطبعة السلطانية اليونينية » ، **للبخاري** ؛ إمام الدنيا حبر الإسلام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ٣ ، (١٤٣٦ هـ ، ٢٠١٥ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، السعودية . بيروت ، لبنان .

١٩٩ ـ صحيح مسلم (الجامع الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، **لمسلم** ؛ حافظ الدنيا المجود الحجة أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ، عني به الدكتور محمد زهير بن ناصر الناصر ، ط ١ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٣ م) ، دار المنهاج ودار طوق النجاة ، جدة ، السعودية . بيروت ، لبنان .

٢٠٠ ـ الصمت وآداب اللسان ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق أبي إسحاق الحويني الأثري ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

٢٠١ ـ الصناعتين الكتابة والشعر ، **للعسكري** ؛ إمام اللغة والأدب الناقد أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري الأهوازي (ت ٣٩٥ هـ) ، تحقيق العلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) والعلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، مصر .

٢٠٢ ـ طبقات الشافعية الكبرىٰ ، **للتاج السبكي** ؛ الإمام الحافظ المجتهد النظار قاضي القضاة تاج الدين أبي النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد الطناحي (ت ١٤١٩ هـ) والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٦ هـ ، ١٩٧٧ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .

٢٠٣ ـ الطبقات الكبير ، **لابن سعد** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٠٤ ـ الطبقات الكبير ، **لابن سعد** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ الثقة أبي عبد الله

محمد بن سعد بن منيع الهاشمي الزهري البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٠٥ ـ طبقات فحول الشعراء ، **لابن سلام** ؛ الإمام النحوي المؤرخ الأديب أبي عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله الجمحي البصري (ت ٢٣١ هـ) ، تحقيق العلامة محمود محمد شاكر (ت ١٤١٨ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المحقق لدىٰ دار المدني ، جدة ، السعودية .

٢٠٦ ـ الطرائف الأدبية ، ويضم قصائد من « ديوان الأفوه الأودي » و« ديوان الشنفرىٰ » و« ديوان إبراهيم الصولي » ، **للجرجاني** ؛ إمام اللغة والبلاغة والكلام مجد الإسلام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمـٰن بن محمد الجرجاني الشافعي (ت ٤٧١ هـ أو سنة ٤٧٤ هـ) ، تحقيق العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي (ت ١٣٩٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٧ م) ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، مصر .

٢٠٧ ـ عروس الأفراح في شرح « تلخيص المفتاح » ، **بهاء الدين السبكي** ؛ الإمام الفقيه المحدث بهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي الأنصاري السبكي الشافعي (ت ٧٧١ هـ) ، تحقيق الدكتور خليل إبراهيم خليل ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٠٨ ـ العقد الفريد ، **لابن عبد ربه** ؛ الإمام الأديب شاعر الأندلس شهاب الدين أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموي القرطبي (ت ٣٢٨ هـ) ، تحقيق الأديب أحمد أمين (ت ١٣٧٣ هـ) والأديب أحمد الزين (ت ١٣٦٦ هـ) والعلامة إبراهيم الأبياري (ت ١٤١٤ هـ) ، ط ٢ ، (١٣٥٩ هـ ، ١٩٤٠ م) ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، مصر .

٢٠٩ ـ العمدة في صناعة الشعر ونقده ، **لابن رشيق** ؛ الإمام الأديب النقاد أبي علي الحسن بن رشيق بن عبد الله القيرواني الأزدي المالكي (ت ٤٦٣ هـ) ،

تحقيق الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢١٠ ـ عمل اليوم والليلة ، **لابن السني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة أبي بكر أحمد بن محمد بن إسحاق ابن السني الدينوري (ت ٣٦٤ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

٢١١ ـ عيون الأخبار ، **لابن قتيبة الدينوري** ؛ إمام الأدب واللغة القاضي أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ) ، تحقيق ثلة من أهل العلم ، ط ١ ، (١٣٤٣ هـ ، ١٩٣٠ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

٢١٢ ـ العيون الغامزة علىٰ خبايا الرامزة ، **للدماميني** ؛ الإمام الفقيه الأديب النحوي بدر الدين أبي بكر محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني الإسكندري المالكي (ت ٨٢٧ هـ) ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ، ط ٢ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢١٣ ـ الفردوس بمأثور الخطاب ، **للديلمي** ؛ الإمام الحافظ أبي شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه إلكيا الديلمي الهمذاني (ت ٥٠٩ هـ) ، تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول ، ط ١ ، (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢١٤ ـ الفلاكة والمفلكون ، **للدلجي** ؛ الإمام الفيلسوف الاقتصادي شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي الصعيدي المصري (ت ٨٣٨ هـ) ، بعناية خليل صادق ، ط ١ ، (١٣٢٢ هـ ، ١٩٠٤ م) ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، مصر .

٢١٥ ـ فوات الوفيات والذيل عليها ، **للكتبي** ؛ الإمام المؤرخ الأديب صلاح الدين محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الداراني الدمشقي (ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٣ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢١٦ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، للمناوي ؛ الإمام الحجة الفقيه الثبت زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي الحدادي المناوي القاهري الشافعي (ت ١٠٣١ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٧ هـ ، ١٩٣٨ م) ، طبعة مصورة عن المكتبة التجارية الكبرىٰ لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٢١٧ ـ القاموس المحيط ، للفيروزاباذي ؛ الإمام الكبير بحر اللغة وشيخ الإسلام مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزاباذي الشيرازي الشافعي (ت ٨١٧ هـ) ، ط ١ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٢١٨ ـ القسطاس المستقيم في علم العروض ، للزمخشري ؛ الإمام البارع المفسر المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، تحقيق الدكتورة بهيجة باقر الحسني (ت ١٤٢٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٩ هـ ، ١٩٧٠ م) ، مكتبة الأندلس ، بغداد ، العراق .

٢١٩ ـ قهوة الإنشاء ، لابن حجة ؛ الإمام الأديب الكاتب تقي الدين أبي بكر بن علي بن عبد الله التقي ابن حجة الحموي الأزراري (ت ٨٣٧ هـ) ، تحقيق رودولف فيسيلي ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٥ م) ، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ، بيروت ، لبنان .

٢٢٠ ـ قواعد الإملاء (المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية) ، للهوريني ؛ العلامة المحقق اللغوي الأديب أبي الوفاء نصر بن نصر الهوريني الوفائي الأزهري الشافعي رئيس التصحيح بالمطبعة الأميرية (ت ١٢٩١ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الوهاب محمود الكحلة ، ط ١ ، (١٤١٠ هـ ، ١٩٩٠ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٢٢١ ـ الكامل ، للمبرد ؛ إمام النحاة والعربية أبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المبرد البصري البغدادي (ت ٢٨٥ هـ) ، تحقيق الدكتور محمد أحمد الدالي ، ط ٣ ، (١٤١٨ هـ ، ١٩٩٧ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٢٢٢ ـ الكتاب ، لسيبويه ؛ إمام اللغة ورئيس النحاة أبي بشر عمرو بن

عثمان بن قَنْبر (سيبويه) الفارسي الحارثي (ت ١٨٠ هـ) ، تحقيق العلامة عبد السلام محمد هارون (ت ١٤٠٨ هـ) ، ط ٣ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٢٣ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث علىٰ ألسنة الناس ، **للعجلوني** ؛ محدث الشام العلامة المفسر أبي الفداء إسماعيل بن محمد جراح بن عبد الهادي العجلوني الدمشقي الشافعي (ت ١١٦٢ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٥١ هـ ، ١٩٣٢ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٢٢٤ ـ لباب الآداب ، **لابن منقذ** ؛ الأمير الشجاع الأديب المؤرخ مجد الدين مؤيد الدولة أبي المظفر أسامة بن مرشد بن علي ابن منقذ الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ) ، تحقيق العلامة أحمد محمد شاكر (ت ١٣٧٧ هـ) ، ط ١ ، (١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م) ، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ، مصر .

٢٢٥ ـ اللباب في تهذيب الأنساب ، **لابن الأثير** ؛ الإمام المؤرخ النقاد النابغة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٣٠ هـ) ، ط ٣ ، (١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٢٦ ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، **لابن الأثير** ؛ الإمام الأديب النابغة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري الموصلي الشيباني الشافعي (ت ٦٣٧ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

٢٢٧ ـ مجمع الأمثال ، **للميداني** ؛ الإمام الأديب اللغوي الكاتب أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد الميداني النيسابوري (ت ٥١٨ هـ) ، تحقيق الدكتور جان عبد الله توما ، ط ١ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠٢ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٢٨ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، **للراغب الأصبهاني** ؛

الإمام اللغوي الحكيم أبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) ، تحقيق الدكتور رياض عبد الحميد مراد ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٢٩ ـ المحاضرات في الأدب واللغة ، **لليوسي** ؛ الإمام الفقيه الأديب النظار نور الدين أبي علي الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي (اليوسفي) المالكي (ت ١١٠٢ هـ) ، تحقيق وشرح العلامة الدكتور محمد حجي (ت ١٤٢٣ هـ) والعلامة الأديب أحمد الشرقاوي إقبال (ت ١٤٢١ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

٢٣٠ ـ المحب والمحبوب والمشموم والمشروب ، **للسري الرفاء** ؛ الشاعر الأديب الوراق أبي الحسن السري بن أحمد بن السري الرفاء الكندي الموصلي (ت ٣٦٦ هـ) ، تحقيق مصباح غلاونجي ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سورية .

٢٣١ ـ محك النظر ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٣٢ ـ مختصر شرح لامية العجم ، **للدميري** ؛ الإمام العلامة الفقيه الأديب كمال الدين أبي البقاء محمد بن موسى بن عيسى الدميري القاهري الشافعي (ت ٨٠٨ هـ) ، عني به محمد شادي عربش ، ط ٢ ، (١٤٣٩ هـ ، ٢٠١٨ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٣٣ ـ مدخل إلىٰ تاريخ نشر التراث العربي مع محاضرة عن التصحيف والتحريف ، **للطناحي** ؛ العلامة الدكتور المحقق محمود بن محمد بن علي بن محمد الطناحي المنوفي المصري (ت ١٤١٩ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٤ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٣٤ ـ مرقاة المفاتيح شرح « مشكاة المصابيح » ، **لملا علي القاري** ؛ الإمام

المحدث الفقيه نور الدين أبي الحسن ملا علي بن سلطان محمد القاري الهروي المكي الحنفي (ت ١٠١٤ هـ) ، تحقيق جمال عيتاني ، ط ٢ ، (١٤٢٢ هـ ، ٢٠٠١ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٣٥ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، **للسيوطي** ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أحمد جاد المولىٰ (ت ١٣٦٣ هـ) والعلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) والعلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، ط ٣ ، (١٣٧٨ هـ ، ١٩٥٨ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار إحياء الكتب العربية لدىٰ دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٢٣٦ ـ المستدرك على الصحيحين ، **للحاكم** ؛ الإمام الحافظ الناقد شيخ المحدثين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه الحاكم الطهماني النيسابوري الشافعي (ت ٤٠٥ هـ) ، وبهامشه تعليقات الأئمة : البيهقي والذهبي وابن الملقن وابن حجر العسقلاني ، ط ١ ، (١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤ م) ، دار الميمان ، الرياض ، السعودية .

٢٣٧ ـ المستطرف في كل فن مستظرف ، **للأبشيهي** ؛ الإمام الأديب الخطيب بهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي المحلي الشافعي (ت ٨٥٤ هـ) ، عني به إبراهيم صالح ، ط ١ ، (١٤١٩ هـ ، ١٩٩٩ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٣٨ ـ مسند الإمام أحمد ابن حنبل ، **لابن حنبل** ؛ إمام أهل الدنيا الحجة الفقيه أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي (ت ٢٤١ هـ) ، تحقيق جمعية المكنز الإسلامي بإشراف الدكتور أحمد معبد عبد الكريم ، ط ١ ، (١٤٣٢ هـ ، ٢٠١١ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٣٩ ـ مسند البزار (البحر الزخار) ، **للبزار** ؛ الإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري البزار (ت ٢٩٢ هـ) ، تحقيق الدكتور محفوظ الرحمٰن زين الله (ت ١٤١٨ هـ) وعادل سعد وصبري عبد الخالق ،

ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، السعودية .

٢٤٠ ـ مسند الدارمي (سنن الدارمي) ، للدارمي ؛ الإمام الحافظ الفقيه أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل التميمي السمرقندي الدارمي (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق الشيخ حسين سليم أسد الداراني ، ط ١ ، (١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار المغني ، الرياض ، السعودية .

٢٤١ ـ مسند القضاعي (شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب) ، للقضاعي ؛ الإمام المحدث المفسر المؤرخ القاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي (ت ٤٥٤ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٢٤٢ ـ مصارع العشاق ، للسراج القارئ ؛ الإمام الحافظ الأديب أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القارئ البغدادي الشافعي (ت ٥٠٠ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة لدىٰ دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٤٣ ـ المصنف ، لعبد الرزاق ؛ الإمام الحافظ الثقة عالم اليمن أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني (ت ٢١١ هـ) ، تحقيق العلامة المحدث حبيب الرحمٰن الأعظمي (ت ١٤١٢ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٣ هـ ، ١٩٨٣ م) ، المجلس العلمي بالتعاون مع المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

٢٤٤ ـ مطالع البدور في منزل السرور ، للغزولي ؛ العلامة الأديب الأريب علاء الدين علي بن عبد الله الغزولي البهائي التركي المملوكي (ت ٨١٥ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٦ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، مصر .

٢٤٥ ـ معاهد التنصيص علىٰ شواهد التلخيص ، للعباسي ؛ الإمام المحدث الأديب الشريف أبي الفتح عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن بن أحمد العباسي (ت ٩٦٣ هـ) ، تحقيق العلامة محمد محيي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢ هـ) ،

ط ١ ، (١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٧ م) ، طبعة مصورة عن نشرة المكتبة التجارية الكبرىٰ لدىٰ عالم الكتب ، بيروت ، لبنان .

٢٤٦ ـ معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب) ، **لياقوت الحموي** ؛ العلامة المؤرخ الأديب الجغرافي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ) ، قدم له الدكتور عمر فاروق الطباع ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ١٩٩٩ م) ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، لبنان .

٢٤٧ ـ المعجم الأوسط ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق الدكتور محمود الطحان ، ط ١ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، مكتبة المعارف ، الرياض ، السعودية .

٢٤٨ ـ المعجم الكبير ، **للطبراني** ؛ الإمام الحافظ الرحلة الجوال أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق العلامة حمدي عبد المجيد السلفي (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٢ ، (١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

٢٤٩ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، وهو شامل لأسماء الكتب المطبوعة في الأقطار الشرقية والغربية مع ذكر أسماء مؤلفيها ولمعة من ترجمتهم وذٰلك من يوم ظهور الطباعة إلىٰ نهاية السنة الهجرية (١٣٣٩) الموافقة لسنة (١٩١٩) ميلادية ، **لسركيس** ، الأديب الكاتب يوسف بن إليان بن موسىٰ سركيس الدمشقي (ت ١٣٥١ هـ) ، بدون تحقيق ، طبعة مصورة لدىٰ مكتبة المرعشي النجفي ، قم ، إيران .

٢٥٠ ـ معيار العلم ، **للغزالي** ؛ الإمام المجدد حجة الإسلام زين الدين أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الطابراني الشافعي (ت ٥٠٥ هـ) ، عني به اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والتحقيق العلمي ، ط ١ ، (١٤٣٧ هـ ، ٢٠١٦ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٥١ ـ مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، **لابن هشام** ؛ إمام العربية واللغة

المفسر جمال الدين أبي محمد عبد الله بن يوسف بن يوسف الأنصاري المصري الشافعي الحنبلي (ت ٧٦١ هـ) ، تحقيق الدكتور العلامة مازن المبارك والعلامة محمد علي حمد الله (ت ١٤٣٣ هـ) ، ط ٥ ، (١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م) ، طبعة مصورة عن نشرة دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٢٥٢ ـ مفتاح العلوم ، **للسكاكي** ؛ إمام العربية والأدب سراج الدين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي (ت ٦٢٦ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد هنداوي ، ط ١ ، (١٤٢٠ هـ ، ٢٠٠٠ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٥٣ ـ المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، **للسخاوي** ؛ الإمام الحافظ الناقد شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد السخاوي القاهري الشافعي (ت ٩٠٢ هـ) ، عني به عبد الله محمد الصديق الغُماري (ت ١٤١٣ هـ) وعبد الوهاب عبد اللطيف ، ط ٢ ، (١٤١٢ هـ ، ١٩٩١ م) ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، مصر .

٢٥٤ ـ مقامات الحريري ، **للحريري** ؛ الإمام البارع ذو البلاغتين أبي محمد القاسم بن علي بن محمد البصري الحرامي الحريري الشافعي (ت ٥١٦ هـ) ، ط ١ ، (١٤٣٥ هـ ، ٢٠١٤ م) ، مصورة عن طبعة بولاق لدىٰ دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٥٥ ـ مقدمة ابن خلدون ، وهي مقدمة كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ، **لابن خلدون** ؛ الإمام المؤرخ نادرة العصر ولي الدين أبي زيد عبد الرحمٰن بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨ هـ) ، ط ١ ، (١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ م) ، المكتبة التجارية ، القاهرة ، مصر .

٢٥٦ ـ مقدمة الأدب ، **للزمخشري** ؛ الإمام البارع المفسر المتكلم النظار جار الله أبي القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري الخوارزمي الحنفي (ت ٥٣٨ هـ) ، ط ١ ، (١٨٤٣ م) ، مطبعة ابن قنيسل ، لايبزيغ ، ألمانيا .

٢٥٧ ـ المقدمة الجزرية (منظومة المقدمة فيما يجب علىٰ قارئ القرآن أن يعلمه) ، **لابن الجزري** ؛ الإمام الحجة المحقق شيخ الإقراء شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي العمري الشافعي (ت ٨٣٣ هـ) ، تحقيق الشيخ أيمن رشدي سويد ، ط ٧ ، (١٤٣٩ هـ ، ٢٠١٧ م) ، دار المنهاج ، جدة ، السعودية .

٢٥٨ ـ مكارم الأخلاق ، **لابن أبي الدنيا** ؛ الإمام الحافظ المؤدب أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي الأموي البغدادي (ت ٢٨١ هـ) ، تحقيق الشيخ بشير محمد عيون (ت ١٤٣١ هـ) ، ط ١ ، (٢٠٠٢ م) ، مكتبة دار البيان ، دمشق ، سورية .

٢٥٩ ـ مناقب الشافعي ، **للبيهقي** ؛ الإمام الحافظ الفقيه الأصولي أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي الخسروجردي البيهقي الشافعي (ت ٤٥٨ هـ) ، تحقيق العلامة السيد أحمد صقر (ت ١٤١٠ هـ) ، ط ١ ، (١٣٩١ هـ ، ١٩٧١ م) ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، مصر .

٢٦٠ ـ المنتظم في تواريخ الملوك والأمم ، **لابن الجوزي** ؛ الإمام الحافظ المؤرخ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي القرشي البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٧ هـ) ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، ط ١ ، (١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م) ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .

٢٦١ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، **للذهبي** ؛ الإمام محدث الإسلام ومؤرخ الشام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الدمشقي الشافعي (ت ٧٤٨ هـ) ، تحقيق العلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٢ هـ ، ١٩٦٣ م) ، طبعة مصورة لدىٰ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

٢٦٢ ـ النشر في القراءات العشر ، **لابن الجزري** ؛ الإمام الحجة المحقق شيخ الإقراء شمس الدين أبي الخير محمد بن محمد بن محمد بن الجزري الدمشقي العمري الشافعي (ت ٨٣٣ هـ) ، عني به شيخ عموم المقارئ المصرية العلامة

نور الدين علي محمد الضباع (ت ١٣٨٠ هـ) ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، طبعة مصورة عن نشرة المطبعة التجارية الكبرىٰ لدىٰ دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

٢٦٣ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، **للمقري** ؛ الحافظ المؤرخ الأديب شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن يحيى المقري التلمساني المالكي (ت ١٠٤١ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٦٤ ـ نفحة اليمن بما يزول بذكره الشجن ، **للشرواني** ؛ العلامة الأديب أحمد بن محمد بن علي الأنصاري الشرواني اليمني الشافعي (ت ١٢٥٣ هـ) ، بدون تحقيق ، ط ١ ، (١٣٢٤ هـ ، ١٩٠٦ م) ، مطبعة التقدم العلمية ، القاهرة ، مصر .

٢٦٥ ـ النكت في إعجاز القرآن ، **للرماني** ؛ الإمام النحوي المتكلم أبي الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني البغدادي المعتزلي (ت ٣٨٦ هـ) ، العلامة الدكتور محمد زغلول سلام (ت ١٤٣٤ هـ) ومحمد خلف الله أحمد ، ط ٦ ، (١٤٣٣ هـ ، ٢٠١٢ م) ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر .

٢٦٦ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، **للنويري** ؛ المؤرخ البحاثة شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري القرشي التيمي البكري (ت ٧٣٣ هـ) ، بعناية مجموعة من الباحثين ، ط ١ ، (١٣٤٢ هـ ، ١٩٢٣ م) ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، مصر .

٢٦٧ ـ همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، **للسيوطي** ؛ الإمام الحافظ البحر جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمـٰن بن أبي بكر بن محمد السيوطي الخضيري الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، تحقيق الدكتور عبد الحميد الهنداوي ، ط ١ ، (دون تاريخ) ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر .

٢٦٨ ـ الوافي بالوفيات ، **للصفدي** ؛ الإمام المؤرخ الأديب صلاح الدين أبي الصفاء خليل بن أيبك بن عبد الله الألبَكي الصفدي الدمشقي الشافعي

(ت ٧٦٤ هـ) ، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط ٢ ، (١٣٨١ هـ ، ١٩٦٢ م) ، دار فرانز شتاينر ، فيسبادن ، ألمانيا .

٢٦٩ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، **للجرجاني** ؛ الإمام الحافظ الفقيه القاضي الأديب أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسين الجرجاني الثقفي الشافعي (ت ٣٩٢ هـ) ، تحقيق العلامة محمد أبو الفضل إبراهيم (ت ١٤٠١ هـ) ، والعلامة علي محمد البجاوي (ت ١٣٩٩ هـ) ، ط ١ ، (١٤٢٧ هـ ، ٢٠٠٦ م) ، المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان .

٢٧٠ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، **لابن خلكان** ؛ الإمام المؤرخ قاضي القضاة شمس الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان البرمكي الإربلي الدمشقي الشافعي (ت ٦٨١ هـ) ، تحقيق العلامة الدكتور إحسان عباس (ت ١٤٢٤ هـ) ، ط ١ ، (١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م) ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

٢٧١ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، **للثعالبي** ؛ إمام اللغة والأدب أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ) ، تحقيق الدكتور مفيد محمد قميحة ، ط ١ ، (١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٣ م) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

❋ ❋ ❋

محتوى المجلد الرابع